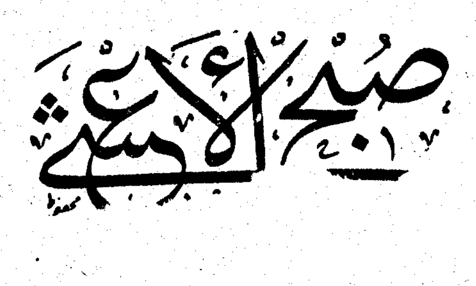


الجـــزء التاسع



دار الكتب السلطانية

كتاب
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء التاسع

طبـع
بالمطبعة الأمـيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

من مقاصد المكاتبات، الإخوانيّاتُ

(مما يُكْتُبُ به الرئيسُ إلى المرءوس والمرءوسُ إلى الرئيس والنظيرُ إلى النظير)

قال فى "موادّ البيان" : ولها مَوْقِع خَطِير من حيثُ تشترِك الكافّةُ فى الحاجة إليها . قال : والكاتبُ إذا كان ماهرا، أغربَ معانِيَهَا، ولَطَّف مبانِيَهَا، وتسهَّلَ له فيها مالايَكادُ أن يتَسَهَّل فى الكُتُب التى لها أمثلةٌ ورسومٌ لاتتغيَّر ولا تُتجاوَزُ، وهى على سبعةَ عشرَ نوعا :

النـــوع الأوّل

(التّهانِى)

قال فى "موادّ البيان" : كُتُب التَّهانِى من الكُتُب التى تظهَرُ فيها مقاديرُ أفهامِ الكُتَّاب، ومنازِلُهم من الصِّناعة، ومواقِعُهم من البَلَاغة . وهى من ضُروب الكتابة الجليلةِ النفيسةِ، لما فى التهنئة البليغةِ من الإفصاح بقَدْر النعمة، والإبانةِ عن مَوْقِع المَوْهِبة، وتَضاعُفِ السُّرور بالعطيَّة . وأغراضُها ومعانيها متشعِّبة لاتقف عند حدّ، وإنما نذكر منها الأصولَ التى تفرَّعتْ منها فروعٌ رجعَتْ إليها، وحُمِلتْ عليها .

قال : ويجب علىٰ الكاتب أن يراعِىَ فيها مرتبَةَ المكتوبِ إليه والمكتوبِ عنه فى الرسالة اللائقةِ بهما ممـا لا يُتَسَامَحُ بمثله .

ثم التهانى علىٰ أحَدَ عشَرَ ضربا :

الضـــــرب الأوّل

(التهنئةُ بالوِلَايات ، وهى علىٰ تسعةِ أصناف)

الصنف الأوّل ـ التهنئةُ بوِلَاية الوِزَارة :

قد تقدّم فى المقالةِ الثانيةِ فى الكلام علىٰ ترتيب المملكةِ أنَّ الوِزارةَ كانت فى الزمن المتقدّمِ هى أرفَعُ وظائف المملكة وأعلاها رُتْبةً ، وأنَّها الرتبةُ الثانية بعـدَ الخِلَافة . وكانتْ فى زمن الخُلَفاء تكادُ أنْ تكونَ كالسلطنة الآنَ ، فهى(١) من الأتباع ومَنْ فى معناهم علىٰ نحو ما كانتْ فى الزَّمَن المتقـدّم بينَ الرُّؤَساء والأكابر ، ومن الرؤساء والأكابر بحسبِ ماتقتضيه رتبةُ المهنَّإ .

وهذه نُسَخُ تهانٍ من ذلك علىٰ ما كان عليه الحال فى الزَّمَن القدِيم .

تهنئةٌ بوِزَارة : من إنشاء أبى الحسين بن سَعْد ، كَتَب بها إلىٰ الوزير محمدِ بن القاسم بن عُبَيد رحمه الله ، وهى :

مَنْ كانتِ النعمةُ ـ أيد اللهُ الوزيرَ ـ نافرةً عنه وبفِنائِه غَرِيبة ، فهى تَأْوِى من الوزيرِ إلىٰ مَثْوًى معهود ، وكَنَفٍ محمود ، وتُجاوِرُ منـه من يُوَفِّيها حقَّها ، ويُقابِلها بحُسْن الصُّحْبة لها ، ويَجْرِى فى الشكر لمـا يُوَلَّاه ، والرِّعاية لمـا يُسْتَرْعاه ، علىٰ شاكلةٍ مضىٰ عليها السَّلَفُ من أهله ، ونشأ فى مثلها الخَلَف ، مقتدِيًا بالأوّل الآخِر ، وبالماضى

---

(١) أى التهنئة من الأتباع الخ .

الغابِر، تَشَابُهاً فى كَرَم الأفعـال ، ورِعايةً لحُقُوق الآمال ، وٱعتماداً للرأفة والرَّحْمه ، وعُمُوما بالإنْصاف والمَعْدله ، إلىٰ ما خَصَّ اللهُ به أهلَ البيت رضىَ اللهُ عن الماضين منهم وأقام عِزَّ الباقِين وحِراسَتَهم : من العلم بالسياسة والدَّرَابة(١) بتدبير المَمْلَكة ورِعايةِ الأُمَّة ، والهدايةِ فيهم لطُرُق الحَيْطة ونَهْج المصلحة .

والحمدُ لله علىٰ ماخَصَّ به الوزيرَ من فضـله الذى رفع قَدْرَه فيه عن مُساماةِ ومشاكلة المُقَادِر(٢) والشَّبِيه ، وجعله فيما حباه به نَسِيجَ وَحْده ، وقَرِيعَ دَهْرِه ، وجمَعَ له من مَوَاهِب الخير ، وخَصائِص الفَضْل ما أبان به موْقِعَه فى الدِّين ، وأعطاه معه الوِلايَةَ من جميع المسلمِين .

والحمدُ لله حمدًا مجدَّدا علىٰ ما جَدّده له من رَأْىِ أمير المؤمنين وٱجْتِبائه ، ومحَـلِّه من ٱخْتِيارِه وٱصطِفائه .

والحمدُ لله علىٰ مامَنَحه من كرامته ، وجدّد له من نِعْمته ، فيما أعاد إلىٰ تدبيرِه من وِزَارَتِه ، وأشركَه فيه من أمانَتِه ، ٱحتياطًا منه للمْلَكة ، ونظرًا للخاصَّة والعامَّة ، فإنَّ عائِدَةَ رأْيِه سَوَّتْ بينَ الضَّعِيف والقَوِىّ ، ووصلَتْ إلىٰ الدَّانِى والقَصِىّ ، وأعادت إلىٰ المُلْك بَهاءَه ، وإلىٰ الإسـلام نُورَه وضِياءَه ، فاكتسبِ الدنيـا من الجِدَّة بعد الإخْلاق ، والنَّضارة بعد الإنْهاج(٣) ، مالم يكُنْ يوجَدُ مثلُه إلَّا بالوزير فى شَرَف مَنْصِبه ، وكَرَم مُرَكَّبه ، فهنَّأَ اللهُ الوزيرَ ما آتاه وتابَعَ له قَسْمه ، ووصلَ له ماجدّد له بالسَّعاده ، وأمدَّه فيه بالزِّياده ، وأعطاه من كلِّ مأمُول أعظَمَ حظّ وأوفَرَ نصيبٍ وقِسْم ، تراخيًا

(١) فى الأصل والوراثة لتدبير وهو تصحيف سخيف .

(٢) فى القاموس ”قادرته قايسته وفعلت مثل فعله“ .

(٣) الإنهاج البلىٰ ، أنظر القاموس فى مادة (ن هـ ج) .

فى مُدّة العُمُر، وتناهِيًا فى درَجةِ العِزّ، وٱحتياطًا بالمَوْهِبَةِ فى العاجِله، وفَوْزا بالكرامة فى الآجِله، إنه فَعَّال لمـا يشاء .

تهنئة أُخْرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى ترَسُّله، وهى :

التهنئةُ بالوَزِير للزَّمان وأهلِه بمـا جمَّلَهم به، وجدّد لهم من مِيسَم العِزّ، وسَرْبَلَهم إيَّاه من حُلَّة الأمْنِ بوِلَايتـه، والنعمةُ علىٰ أوليائه ورعَاياه علىٰ حَسَب مواقِعِهم من مشاركتـه وحُظُوظِهم من مَعْدِلَتِـه ظاهِرةٌ، ولله علىٰ ذلك الحمْدُ الفاضل، والشكر الكامِل. وللوزير من هذه النعمةِ الجليلةِ، والدولةِ السعيدةِ، أهْنَاها مَوْقِعا، وأسْرَاها مَلْبَسا، وأدْوَمُها مُدّه، وأجملها نَغْيــه، وأثْراهَا مُبَوّءا، وأسلَمُها عُقْبىٰ ؛ فتولَّاه الله بالمَعُونة والحِرَاسه، وأيَّده الله بالنصر والكِفَايه، وأنْهَضَه بمـا قَلَّده وٱسترْعاه، وبلَّغه مَحابَّه ومُنَاه، وأرجو أنْ يكونَ مَوْقِعِى من ثِقَة الوزير يُلْحِقُنى عنده بمن مَكَّنَتْه الأيَّامُ من قَضاءِ الحَقّ فى التلَقّ والإبْعاد، ويُعوِّضُنى بتفْضِيله ممـا حُرِمتُه منها مَحَلَّ ذوى الإخْلاص والٱعتِدَاد .

تهنئةٌ أُخْرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى ترَسُّله أيضا، وهى :

وهــذا أوَّلُ يتْلُوه مابعــده بلا تَناهٍ ولا نَقْص بإذنِ الله ومَشِيئته، بل يكون موصُولا لاتُبْلَغُ منه غايةٌ إلا شفعَتْها درجةٌ تُرْقىٰ، تكْنُفُ ذلك كِفايةٌ من الله شاملةٌ كاملةٌ، وغِبطةٌ فى البَــدْء والعاقِبَة بلَا ٱنْقِطاع، ولا ٱرْتِجَاع ؛ حتّى يكونَ المُنْقَلَبُ منه بعد بُلُوغ العُمُر منتهاه، إلىٰ فَوْزٍ برحمةِ الله ورضاه . فهنيئًا للوزير بما لايَقْدِر أحدٌ أنْ يَدَّعِىَ فيه مُساعفَةَ المِقْدار، ولا ينَاله بغير ٱستِحْقاق، إذ لامثلَ ولا نظيرَ للوزير : فَضْــلا ظاهِرا، وعلمـا علىٰ العلوم مُوفيا، وسابقةً فى تقليب الخلافة ظهرًا لِبطْن، وحَلْب الدَّهْرِ شَطْرا بعد شَطْر، وجَمْعًا من مال السلطان لمـا كان متفرِّقا، وحفْظًا

لمـا كانَ ضائِعا ، وحمايةً لبَيْضةِ المُلْك ، وضَبْطا للثُّغور ، وتلَقِّيًا للخُطوب بما يَفُلُّ حَدَّها ، ويُطْفِئ نارَها ولَهَبَها ويُقِيم أوَدَها ؛ وما وهَبَ اللهُ في رَأْيه من فَتْح البـلاد المُرْتَجَة ، وقَمْع الأعداء المتغلِّبة ، وسُكُون الدَّهْماء ، وشُمُول الأمْن ، وعُمُوم العَدْل ؛ والله يَصِل ذلك بأحسَنِه .

تهنئةٌ أُخرىٰ في مثل ذلك : من إنشاء عليّ بن خلف في "موادّ البيان" وهي :

أطال اللهُ بقاءَ حضرةِ الوِزَارة السامية ، فارِعةً من المَعَالِي أَسْمَقَها نُجُودا ، كارِعةً من المِنَنِ أعذَبَها وُرُودا ، ساحِبــةً من المَيَامِن أرقَّها بُرُودا ؛ مُمتَّعةً بالنِّعم التي يُرامِي الشُّكْر عن حَوْزتِها ، ويُحامِي البِشْرُ عن حَوْمَتِها ؛ مبلّغةً في أوليائِها وأعدائِها ، قاضيةً ماترتمي إليه رِحَابُها ؛ فلا ترىٰ لها ولِيًّا إلَّا لاحِبَ المَذْهَب ، ثاقِبَ الكَوْكَب ، سامِيَ الطَّرْف ، حامِيَ الأَنْف ؛ ولا عدُوًّا إلا ضَيِّق المَطْرَح ، وَعِرَ المَسْرَح ، صالِدَ الزَّنْد ، مفَلَّلَ الحَدّ ، راغِمَ العِرْنِين ، مَتْلُولًا للجَبِين . ولازالتْ أزِمَّةُ الدنيا بيَدِها حتّى تَبْلُغ بآمالهـا مُنْتَهاها ، وتَجْرِيَ بأيَّامها إلىٰ أقْصىٰ مَدَاها ؛ [فهي] من أعظَم النِّعم خَطَرا ، وأحسَنِها علىٰ الكافَّة أَثَرا ، وأوْلَاها بأن يُفَاضَ في شكرها ، وتتعَطَّرَ الآفاقُ بذِكْرها . ولسيدنا الوزيرِ الأجلِّ يَراعٌ يستَيْقِظُ في صلاحهم وهم هاجِعُون ، ويَنْتَصِبُ في الذَّبِّ عنهم وهم وادِعُون ؛ وَكَلَ تدبيرَهُم فيه ، إلىٰ مدَبِّر يخافُ اللهَ ويتَّقِيه ، ويعمَلُ فيمَنِ ٱستَرْعاه بما يرتَضِيه ؛ ولا يَمُدّ يَدَ الٱقتدار عليهم متسَلِّطا ، ولا يتَّبِـع دَوَاعِيَ الهَوىٰ فيهم مُتَسَقِّطا ؛ واضِعًا الأشياءَ في حقائِقِها ، سالكًا بها أمثَلَ طرائِقِها ؛ مُلَايِنًا من غيرِ ضَعْف ، مُخاشِنًا من غيرِ عُنْف ؛ قريبًا من غيرِ صِغَر ، بَعِيدًا من غيرِ كِبْر ؛ مُرَغِّبا بلا إسْراف ، مُرْهِبًا بإنصاف ؛ ناظِرًا إلىٰ محقَّرات الأمور وأطرافِها ، كما يَنْظُر في مَعاظِمها وأشْرافها ؛ آخِذًا بوَثَائِق الحَزْم ، متمسِّكا بعَلَائِق العَزْم ؛ رامِيًا بفِكْرته من وراءِ العَوَاقِب ، خاطِمًا بآرائه أُنُوفَ المَصَاعِب ؛

ناظمًا بإيالَتِه عُقُود المَصالح، مُوَطِّئا بِرِياضَتِه ظُهور الجَوَامِح؛ إن ثَقَّفَ ذَا النَّبْوة الفَرِيده، والهَفْوة الوحِيده ؛ ٱقتصر علىٰ مايُوافِقُه الوالِدُ الحَدِب ، من مُقَوِّم الأدَب [وإنْ قبَضَ](١) علىٰ المرتكِس فى غَوَايته، المُفْلِس فى عِنَايته ؛ ضَيَّق عليه مَجالَ العَفْو، وأحاق به ألِيمَ العذاب والسَّطْو؛ فقد سكنَتِ الرعيَّةُ فى عَدْله، وأوَتْ حَرَما مَنِيعا من ظِلِّه ؛ ووَثِقتْ أنَّ الحق بنظره شامِخٌ شاهِق ،والباطلَ سائخ زاهِق؛ والإنصافَ مبْسُوط منْشُور،والإجحافَ مَحْطُوط مبْتُور؛ والشَّمْل منْظُوم،والشَّرّ مضْمُوم. فنطقَتْ ألسِنَتُها بإحْماده، وٱشتملَتْ أفئِدتُها علىٰ وِدَاده ؛ وٱتفقَتْ أهواؤُها علىٰ رِياسـتِه ، وتطابقَتْ آراؤُها المسابِقةُ علىٰ دَوامِ سِيادَتِه؛ وعرفَ أميرُ المؤمنين عَدْقَ النظر فى دَوْلته؛ وسلَّم أمورَ مملكته إلىٰ النَّصِيح المأمُون،والنَّجِيح المَيْمُون؛ الذى وفَّقَه اللهُ تعالىٰ لِٱختياره، ويَسَّره لِٱصطِفائِه وإيثارِه ؛ وأنَّه قد نَاط أُمورَه بمن لم يستخِفَّ ثَقِيلَ حِمْلها، ويَنُوءُ بباهِظِ ثِقْلها؛ فتمتَّع بلَذِيذ الكَرىٰ، وتَوَدَّع بعـدَ السَّيْر والسُّرىٰ ؛ وأمِنَ من إلمـامِ مُلِمٍّ مُعْضِل ، وحُدوث حَدَثٍ مُشْكِل . وهـذه نعمةٌ تعُمُّ الخاصَّة والعامَّة عُمومَ الغيثِ إذا هَمَع وتدفَّق ، وتشْـمَلُهم شُمولَ النهـار إذا لَمَع وتألَّق؛ وهم أَوْلىٰ بالتهنئة فيهـا وشكْرِ الله تعالىٰ عليها .

وسيدُنا الوزيرُ حقيقٌ بأن يُهْدىٰ إليـه الدعاءُ المرفُوع ، والتضَرُّع المسمُوع ؛ بأن يُنْهِضَه الله تعالىٰ بمـا حَمَّله ، ويُعِينَه علىٰ ما كَفَّله ؛ ويتولّاه بتوفيق يثقبُ أنوارَه ، وتأييـدٍ يُطَبِّق غِرارَه ، وتسـديدٍ يحَسِّن آثارَه ؛ وإجراءِ ما يتولّاه علىٰ أوْضح سبِيلٍ وأقصَدِه ، وأرجحِ دليلٍ وأرشَدِه ؛ إذ لا يجوز أن يَهْنَأ بمـاله عياؤُه وكَلُّه، ولمذعِنيه صلاحُه كلُّه . والعبـد يسألُ اللهَ ضارعًا لدَيْه ، باسطا يده إليه؛ فى أن يَقْبَـل صالحَ أدعيَته لحضرة الوزارة الساميَة؛ وأن يجعل ماأحَلَّه فى مَحَلِّه من رياستها، وأوقعه

(١) الزيادة يقتضيها المقام كما لايخفى .

فى مَوْقِعه من سياستها؛ دائبًا لايُنْتَزَع،وخالدا لايرتجع؛ وأن يؤيِّدها فيه بما يقضى له بالإحْراز والتَّخْويل، ويحْمِيه من الآبتزاز والتحويل؛ إنَّه سميعُ الدعاء، فعَّالٌ لما يشاء؛ إنْ شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — التهنئة بكَفَالة السلطنة :

وهذه نسخةٌ من ذلك، كُتِب بها عن نائب الشام، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُبَاتة، وهى بعد الألقاب :

لازالَ دائرًا بهنَائِه الفَلَك، مُنِيرا بِضِيَاء عَدْله وبِشْره الحَلَك؛ قريرًا بحُسْن كَفَالته المُلْكُ شاهدًا بفضل أسمائِه وسِمَاته المَلَك، مقْسُوما بأمر الله نَدَاه وبأْسه ليَحيَا مَنْ حَىَّ ويَهْلِكَ مَنْ هَلَك؛ تقبيلًا يُشافِهُ به التُّراب، ويُشاهَدُ شَرَفُ مَطْلَعه علىٰ السَّحاب . ويُنهِى قيامَهُ علىٰ قَدَمِ وَلاءٍ ودعاء : هذا يَنْزِلُ القلبَ وهذا يَصْعَد إلىٰ الأُفُق، ومُقامَه علىٰ بُشرىٰ وحمدٍ منهما الأمنُ يحلّى بوصْفِه النُّطْقُ كما تُحَلّىٰ الأعطافُ بالنُّطُق؛ وأنه وردَ مثالٌ شريفٌ علىٰ يَد فلانٍ يتضمَّن البِشارةَ العامَّه، والمَسَرَّة التامّه، والنعمةَ التى يُعوِّذُ سَنَا جَبِينها من كل عينٍ لامَّه؛ وخبرَ الخيرِ الذى حَيَّت أزهارُه المتضوِّعةُ نَدَّ مِصْرَ فأوّلُ مابلَّغه مَنافِسَ الشام شامَّه، بأنَّ المواقفَ الشريفةَ — أعزَّ الله تعالىٰ سلطانَها — قد فوّضَتْ إلىٰ مولانا كَفالةَ الإسلام وبَنِيه، وكِفايَةَ المُلْك بصالح مُؤْمِنيه؛ ونيابةَ السلطنة الشريفة وما نَسقتْ، وتدبيرَ الممالك وما وَسَقتْ؛ فيالها بُشرىٰ آبتسمَتْ لها ثغورُ البَشَر، ومسَرَّةً آستجلىٰ سَنَاها مَنْ آمنَ وبُهِتَ الذى كَفَر، وخبرًا تلقَّت الأسماعُ بَرِيدَه منشدة : قُلْ وأعِدْ بأطْيَبِ الخَبَر؛ هُنالك أخذ المُلوكُ حَظَّه من خيرِ بُشْرىٰ، ونصيبَه من مَسَرَّةٍ حُمِد بصَباح طِرْسها المَسْرىٰ؛ وحمِدَ الله تعالىٰ علىٰ أن أقام لسلطانِ البسيطة من يَبْسُط العدْلَ والإحسانَ لمَنابه، ويقلِّد رعيَّته

عقودَالنِّعم إذا تقلَّد ماوراءَ سَريره وبابِه، ومَنْ إذا كَفَل سيفُه مَمَالكَ الإسلام وثِقتْ بالمَغْنَم والسَّلامه، وإذا كتب قلمُــه قالتْ ولا سِيَّما أخبارُ جند المسلمين : هكذا تكونُ العلَامه؛ وجهَّز المملوكُ هــذه الخدمةَ نائبةً عنه فى تقبيل الأرض، وعَرْض الهناء بين يَدَىْ من يُسَرُّ المملوكُ بوَلَائه اليومَ ويرجُو أن يُسَرَّ به يومَ العَرْض، ولو وصفَ المملوكُ ماعنــدَه من السُّرور والشَّوْق لضاق الورقُ عن تسطير الواجب منه وضاقَ الوقتُ عن أداء الفَرْض؛ والله تعـالىٰ يجدِّدُ لمولانا ثمراتِ الفضلِ الواضِح، والرأى الراجِح؛ والقَـدْر الذى هو علىٰ مِيزان الكواكِب راجِح، ويمتِّعنا كافَّةَ الممـاليك بدَوْلة سلطانه الذى علم البيتُ الشريفُ أنّه علىٰ الحقيقةِ الخلَفُ الصَّالِح .

وهذه نسخة تهنئةٍ لأمير جانْدار بولاية إمْرةِ جاندار، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُباتةَ، وهى بعد الألقاب :

أعلىٰ اللهُ منَارَها ومَنالَها، وخلَّد قبُولَهـا وإقبالَها، وأجزل من الغَضِّ الذى تناولَتْه ثَمَرَها وأسبَغَ به ظِلالَها؛ ولا زال فى سَيْفها وعَصَاها مآربُ للمُلْك، وفى بأْسِها ونَدَاها مواقعُ للنَّجاة والهُلْك؛ ولا بَرِحتِ القُضُب من سُيُوف وغُصون : هــذه حاكمةٌ بسَعْدها حُكْمَ الملك؛ وهذه مُسَخَّرة فى تجريدها تسخيرَ الفُلْك؛ تقبيلَ مخلِص فى وَلَائه ودُعائه، مُهَنًّا القلبِ مسرورٍ بمـا يتجدّدُ من مَسَرَّات مولانا وهَنَائه؛ ويُنْهِى أنه بلغه ماأفاضتْه الصدقاتُ الشريفةُ علىٰ مولانا من المَبرَّات، وما جَدّدتْ له من المَسَرَّات؛ وأنها ضاعفَتْ مزيَد الإحسانـــ إليه، ودعَتْه أميرَ جاندار وَدَّت العِصِىُّ النُّجومِيَّة لو قدّمتْ نفْسَها بين يَدَيْه؛ وأنَّ المواقفَ الشريفةَ قرَّتْ به عينا وأقرَّتْ، وأنَّ الدولة القاهرةَ ألقَتْ عصاها إليه وآستقرّتْ؛ وكما سَلَّمت إليــه العَصَا فى السِّلْم سَلَّمت إليه السيفَ فى الحَرْب، وكما قرَّبَتْــه فى مواقف العَدْل والإحسان قرَّبتْــه فى مواقف الطَّعْن والضَّرْب؛ فأخذ المملوكُ حظَّه من البُشْرىٰ، وأوجب علىٰ نَفْســه الفــرَح

وسَجدَ للهِ شُكرا ؛ ووَدَّ لو حضَرَ يُشافِه بهـذا الهَناء الشامِل ، ومَثَل قائمًـا لديْه بحقّ التهنئة القيامَ الحقيقيَّ الكامل ؛ وحيثُ بعُـدَتْ دارُه ، ونأتْ عن العِيان أخبارُه ؛ فقد علم الله تعالىٰ مُواصلتَه بالأدعية الصالحةِ ليْلا ونَهارا ، والموالاةِ والمحبَّة التى يشْهَد بها الخاطرُ الكريمُ سِرًّا وجِهارا ؛ واللهُ تعـالىٰ المسئُول أنْ يزيدَ مولانا من فضله ، ويَسُرَّه بمتجدِّداتِ الخير الذى هو من أهلِه ؛ ويمتِّعنا كافَّةَ المماليك بدوام سلطانِ هذه الدولة الذى شَمِل بظله ، وغَنِى بنَصْره عن نَصْله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـالث ــ التهنئـــة بالإمارة .

من كلام الأقدمين :

تهنئـــة من ذلك ، أوردها أبو الحسين بن سَعْد فى ترسُّله ، وهى :

وهَنَأ اللهُ الأميرَ مواهِبَه الهنِيَّـه ، وعطاياه السَّوِيَّه ؛ وأدام تمكينَه وقُدْرتَه ، وثَبَّت وَطْأتَه ، وحَرَس ماخَوّله ؛ وجعـل مَاهيًّأ له من مُؤتَنَف الكرامة أيمَنَ الأمُور فاتحـةً وأسعَدَها عاقِبه ؛ ووصل أيَّامَه بأجمل الوِلَايه ، وأجَلِّ الكِفَايه ؛ حتّى ينتهِى [من] ٱستِيفاءِ سعاداتِ الحُظُوظ وحَوْز القِسَم والآمال ، [إلىٰ] الدرجةِ التى تليقُ بما أفرده اللهُ به من الكمال ، وخَصَّه به من الفضل فى جميع الخِصَال . ومن أفضلِ ماأعتَدُّ به من نِعَم اللهِ علَىَّ بالأمير وبجميل رَأيه ، ومَحَلِّى من طاعتِه وخِدْمته ؛ أنِّى لا أخْلُو فى كل وَقْت وحالٍ من بَهْجةٍ تتجدَّدُ لى ، ومسرَّةٍ تصلُ إلىّ ، وتتوفَّرُ علىّ ، بمـا يُسَهِّله الأمير علىٰ يده من مستصْعَبِ الأمور ، ومستَغْلَق الخُطوب ؛ التى تبْعُد عمَّن يُزاوِلهُـا ، ويجعل اللهُ بطَوْله وحَوْله للأمِيرِ القُدرةَ عليها ، ويتَوحَّد بالكِفَاية فيها ؛ فينْمُو بجميل تدبيره ولَطِيف نَظَره ، ويَطَّرِدُ بصاعِدِ نجْمـه ويُمْن نَقِيبته وعِزِّ دَوْلتـه ؛ وذلك من فَضْل الله ونِعْمته ، يُؤْتِى فَضْلَه مَنْ يَشاء وهو ذُو الفَضْل العَظِيم .

الصنف الرابع — التهنئـــة بولَاية الحجَابة .

وقد كانَ لها فى الزَّمنِ القديم المحلُّ الوافرُ فى الدولة وعُلُوّ الرتبة فيها .

من كلام الأقدميـــن :

تهنئـــةٌ من إنشاء أبى الحُسَين بنِ سعد، كُتِب بها إلىٰ أبى بكر بن ياقوت حين وَلِىَ الحِجَابةَ بعد نَكْبةٍ أصابته، وهى بعد الصدر :

وقد كانتْ أنفُسنا مَعْشَرَ عبيدِ سيدِنا وحَمَلةِ إنعامه، ومؤمِّلى أيامه، فى هذه الأحوال التى نقد سـيدنا منها فيما ٱبتلاه صَبْرَه، وأبانَ فيه قَدْرَه؛ وزاد العارفَ بفضله نفوذا فى البَصيره، وأعاد ذَوِى الاِرتياب فيه إلىٰ الثِّقَة؛ فٱستوىٰ المنازع والمُسَلِّم، وٱستوىٰ العالِمُ والمُعَانِد ـ نعمةٌ منه تعالىٰ ذكره خَصَّه بها وصانَهُ عن مُشاكَلَة النظير، ومُزاحمةِ الأَكْفاء ـ علىٰ سبيل من القَلَق والاِرْتِماض، والسُّقُوط والاِنْخِفاض؛ جَزَعا من تِلْكَ الحـال الغَلِيظه، وإشفاقًا علىٰ تلكَ النَّفْس النَّفِيســه؛ وخوفًا علىٰ مَعالِم البِرِّ والتُّقىٰ، وبَقِيَّة العلم والحِجَا، وتاريخ الكَرَم والنَّدىٰ؛ أن يَدْرُسَ مَنَارُها، وتُطْمَسَ آثارُها؛ ولولا مامنَّ اللهُ به من الخَلَاص منها وما مَنَح بكرمــه فى عاقِبَتِها، لأوْشَكَتْ أن تأتِىَ عليها وتُعْجِلَها عن مَوَاقِيتِ آجالها؛ لكنه عَظُمت آلاؤُه، وتقدّسَتْ أسماؤُه؛ أَتَىٰ بالأَمْن والفَرَج، بعد ٱستيلاء الكَرْب والوَجَل، وٱنْبِتات أســبابِ الرَّجاء والأملْ؛ فعرَفَ سيدُنا مَوْقِعَ الخِيرَةِ فيما قَضاه، ومُيِّز له الخبيثُ من الطيِّب ممَّنْ عاداه وتَولَّاه؛ وجعل النعمةَ التى جدّدَها له فيما ردّه أميرُ المؤمنين إلىٰ تدبيرِه من أمْرِ دارِه ومملكته، وحِرَاسة بيضــة رعيَّته، مشتركَةَ النفْع والفائده، مقْسومةَ الخَيْر والعائده؛ بينَ كافَّة الأمّة فيما عَمَّ من المَعْدِله، وشمِل من المَصْلحه . ولاحَ من تَبَاشِـير الخير، وأماراتِ البركة، فى ٱستقامة أمور البِلاد، وصلاح أحوالِ العباد؛ وأفرد اللهُ سيدَنا بحَظٍّ من

المَوْهِبَـة وفَّاني فيه على حُظُوظ الأولياء، وزادنى على سِهَام الشُّركاء . وأنا أرغَبُ إلى الله فى إسعاد سيدنا بما جدّدَهُ له، وتَعْرِيفه بركةَ مُفْتَتَحِه ويُمْنَ خاتِمَته . والحمدُ لله فى مُبْتَـداه، والسلامةِ فى عُقْباه؛ وتبليغه من حَظٍّ مأمول، وخيرِ مَطْلوب؛ وحالٍ عَلِيَّـه، ورُتْبة سَنِيَّه؛ أفضَلَ ما بَلَّغ أحدا ٱختصَّه بفضله، وٱصطفاه من خَلْقه، إنه جَوَاد ماجِد . فإنْ رأى سَـيِّدُنا أن يتطوّل بإجراء عبدِه على كريم عادتِه فى تشريفه بمكاتبتِه، وتصريفِه فى أمره ونهيه، محقِّقا بذلك أمَلَه، وزائدًا فى نِعَمه عنده، فعل إن شاء الله تعالى .

تهنئةٌ أخرى من ذلك، من إنشاء علىّ بن خَلَف أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

إنمـا يُهَنَّأ بالوِلَاية ـ أطال الله بقـاءَ الحاجب الجليل سـيِّدى ومولاى ـ مَنِ ٱنْبَسطتْ إليها يدُه بعد ٱنقِبَاض، وٱرتَفَع لها قَدْرُه مِنَ ٱنْخِفاض؛ وأوجدَتْه الطريقَ إلى إحراز جزيل الأجْر والجزاء، وٱكتنازِ جميـل البركة والثَّنـاء؛ وأفضَتْ به إلى ٱتِّساع السُّلْطان، وٱنتِفَاع الأَعْوان؛ فأمَّا من جعل الله يَدَه الطُّولى، وقَدْرَه الأعْلى، ورِيَاستَهُ حاصلةً فى نفسه وجوهره، وسِيادتَهُ مُجتناةً من سِنْخه وعُنْصُره؛ فالأَوْلى ـ إذا ٱسْتُكْفِيَ رَغْبَـةً فى إنصافه وعَدْله، وحاجةً إلى سَـدَاده وفَضْله؛ وٱفْتقارًا إلى فَضْل سِيرته، وٱضْطِرارا إلى فاضل سِياسَتِه ـ أن تُهَنَّأَ الرعيَّةُ بوِلَايته، وتُسَرَّ الخاصَّة والعامَّة بمـا عُدِق من أمورها بكفَايته؛ وغيرُ بِدْعٍ ربْطُ[1] أمير المؤمنين بالحاجب الجليل أمْرَ حِجابته، ونَصْبُه للزَّحمة[2] عن حَضْرته، وجعلُه الوَسِيطَ والسفيرَ بينَه وبيْنَ خَواصِّ دَوْلته، وقد وَثِق بيُمْنِ نَقِيبته، وٱطَّلع على خُلُوص نِيَّته، وسكَنَ إلى صِدْق طاعتِـه؛ وعَرَفَ طهارةَ جَيْبه، وسلامةَ غَيْبه؛ وصِدْقَ لَهْجته، وحَصَافَةَ أمانَته؛

(١) فى الأصول اربـاط ولم نقف على فعله فيا بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) أى الدفع والذب يقال زحمته عنه أى دفعته انظر المصباح .

واعتمادَه للحقِّ فيما يُورِد ويُصْـدِر، ويَنْهى ويُجيب، وٱبتلاه فعَرَف طِيبَ طُعْمته، وخِفَّة وَطْأته، ورأْفَتَه بالضَّعيف المَهْضُوم، وغِلْظَته على العَسُوف الظَّلُوم؛ [فرأى] أن يُحِلَّه محلَّ مَنْ لا يَغِيب عمَّا شَهِده، ولا يرتابُ بمـا سمعه، على أنَّنى المهَنَّأ بكل نعمةٍ يجدّدها الله لدَيْه، وسعادةٍ يُسْبِغُها عليه؛ [ولو أنصفت] لسلَكْتُ من الصَّواب سَنَنا، وٱعتقَدْتُ جميلًا حَسَنا: لٱستشعارى بالأنْفَسَ من لَبُوس سِيادَته، وتَحَلِّى بالأنْصَع من عُقُود رِيَاسته؛ وإذا كانت رعِيَّتهُ أجدَرَ أن تُهَنَّأَ بوِلَايته، وتَعرِفَ قَدْر مالها من الحَظِّ فى نظـره؛ فأنا أعْدِلُ من هنائه إلى الدُّعاء له بأن يبارِكَ اللهُ تعـالى له فيما قلَّده، ويُوفِّقَه فيما وَلَّاه ويُسَدِّدَه؛ ويُلْهِمَه ٱدِّخارَ الثوابِ والأجْر، وٱكتنازَ الحمد والشكر، والهدايةَ إلى سَنَن الاسـتقامه، وما عاد بمحبَّة الخاصَّـة والعامه؛ وإنهاضَه فى خِدْمة أمير المؤمنين، والعَمَل من طاعته بما يُزْلِفُ فى الدنيا والدين؛ واللهُ يستجيبُ فى الحاجب الجليل هذا الدعاءَ ويَسْمَعُه، ويتقبَّلُه ويرفَعُه؛ إن شاء الله تعالى.

الصنف الخامس — التهنئـــة بولاية القَضاء.

التهنئة بذلك من كلام الأقدمين:

تهنئة من ذلك: من إنشاء علىّ بن خلف، أوردها فى "موادّ البيان" وهى:

أَوْلى المِنَح أن يُتفاوض شكرُها والتحدّثُ بها، ويُتقارَض حمدُها والقيامُ بواجبها؛ نعمــةٌ شَمِلَ عِطَافُها، وعَمَّت ألطافُها؛ وٱشترك الناسُ فيها ٱشتراكَ العُموم، وحلَّتْ منهم فى النفع محـلَّ الغيث السَّجُوم. وهــذه صورةُ النعمة فى ولاية قاضِى القُضاة — أطال الله بقاءه — لمـا تتضمَّنه من إثبات العَـدْل والإنصاف، وٱنْحِسار الجَوْر والإجْحاف؛ وٱعْتِلاء الحقِّ وظُهُوره، وٱخْتلاءِ الباطل وثُبُوره؛ وعِزِّ المظلوم وإدالتِه، وذُلِّ الظَّلُوم وإذَالَتِـه؛ وتمكين المضْعُوف وٱقتدارِه، وٱنْخِزال العَسُوف واقْتِساره.

وإنْ هَنَّأتُه حرس الله عُلَاه بموْهِبَة أتىٰ بارقُها بجميل الثَّناء ، وجزيل الجَزَاء ؛ قد ناء من تحمَّلَها بباهظ الشيء ومتعبه ، وقام من سئلها بكل الأدب ومنصبه ، عدلت عن الأمثل وضَلَلْتُ عن الطريقة المُثْلىٰ ؛ لكنِّى أهنِّئه خُصوصًا بالمَواهِب المختصَّة به آختصاصَ أطواقِ الحمائم بأعناقِها ـ والمناقِبِ المُطيفةِ به إطافَةَ كواكب السَّماء بنِطَاقِها ، فى أنْ ألَّف اللهُ القلوبَ المتباينةَ علىٰ الإقرار بفَضْله ، وجمعَ الأفئدةَ المتنافِية علىٰ الآعتراف بقُصُور كلِّ محلٍّ عن محلِّه ، وجعل كلَّ نعمةٍ تُسْبَغ عليه ، ومِنَّة تُسْدىٰ إليه ، موافقةَ الآمالِ والأمانِى ، مُفْضِيَةً للبشائر والتَّهانِى : لأنَّ مَنْ أحبَّ الحقَّ وآثره ، ولبِسَ الصِّدْق وآستشْعره ، يَنْطِقُ بلسان الإرادةِ والآختيَار ، ومَنْ تركهُما وقلَاهما ، وخلَعهُما وألْقاهما ، ينطِقُ بلسانِ الآفتقار والآضْطِرار ـ والخصائِص التى هو فيها نَسِيجُ وَحْده ، وعِطْرُ يومِه وغدِه ـ والمحاسنِ التى هى أَنَاسِىُّ عيونِ الزَّمان ، ومَصابِيحُ أعيانِ الحُسْن والإحْسان . ثم أُعودُ فأُهنِّئُه عمومًا بالنِّعم المشتركةِ الشُّمُول ، الفَضْفاضةِ الذُّيول ؛ التى أقرَّتِ القَضاءَ فى نِصَابه ، وأعادتِ الحكْمَ إلىٰ وطَنِه بعد نُجْعتِه وآغْترابه ؛ وأعلَتْهما فى الرُّتْبة الفاضله ، وقَدَعتْ بهما أنفَ الذِّروة العالِيَه . وأرفَعُ يدى إلىٰ الله تعالىٰ داعيًا فى إمداد قاضِى القُضاة بتوفيقٍ يُسَدِّدُ مَرامِيَه ، ويُرْشِد مَساعِيَه ؛ ويهَذِّب آراءه ويصَحِّحها ، ويُبْلِج أحكامَه ويُوضِّحها[(١)] ؛ ويخَلِّد عليه النعمةَ خُلودَها علىٰ الشاكرين ، ويُبَصِّره بحُسْن العقبىٰ فى الدنيا والدِّين ؛ وهو سبحانه يتقبَّل ذلك ويرفَعُه ، إن شاء الله تعالىٰ .

التهنئة بذلك ، من كلام أهل العصر :

تهنئة من ذلك : أوردها الشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ فى كتابه "زَهْر الربيع فى الترسّل البديع" وهى :

(١) فى الأصل ويفخمها وهى تصحيف لا يناسب المقام .

أنفَذ اللهُ تعالىٰ أحكامَه، وشكر إحسانَهُ و إنعامَه؛ وخلَّده ناصرًا للشريعة المطَهَّرة وأَدَامه، وجدّد سَعْدَه وأسعد أيَّامَه؛ وجعله المسترشِدَ والمقتفِيَ بأمر الله والرَّاشدَ والمستنْجِد والمستَنْصِر والنـاصِر والعاضِـد، والحـاكم القـائم بأمر الله (١) من القُضاة الثلاثة الواحِد.

المملوكُ يقبِّل اليدَ العاليــة تبرُّكا بتَقْبيلها، وأداءً لواجب تعظِيمها وتَبْجيلها؛ ويهنِّئُ المَوْلىٰ بمـا خصَّهُ الله تعالىٰ من مُضاعفة نَفَاذ كلمته ورَفْع منزلتِه، وإمضاءِ أحكامه الشريفةِ وأقضيَتِه؛ وتقليده أمورَ الإسلام، وتنفيذِ أوامره فى الخاصِّ والعام؛ ويهنِّئُ بالمَوْلىٰ مَنْ رُدَّت أمورُه إليـه، وعُوِّل فى ملاحظةِ مصالِحه عليه؛ فإنَّ مَوْلانا مازال بالعِـلْم والعَمَل مشهورا، وسعْيُه فى الدنيـا والآخرةِ سَعْيا مشكُورا؛ ويقظةُ مولانا جديرةٌ بزيادةِ الاهتمام، والاحتياطِ التامّ؛ بملاحظةِ طلبةِ العلم والمشتَغلين، والفُقَهاءِ والمدرِّسين؛ وسَــبْر أحوال النُّوّاب، وأنْ لايكفِيَهُ الاعتمادُ علىٰ حسن البِزَّة وطهارة الأثواب؛ بل يُمْعِنُ فى الاطِّلاع علىٰ مايعتمِدُونه النَّظَر، ويُلاحِظ كُلًّا منهم إن غاب عن مجْلِسه أو حضَرَ؛ فَمَنْ رآه يَهْدى إلىٰ الحقِّ وإلىٰ الطريق المسـتَقِيم، ولا يَقْرَب إلا بالتى هى أحسَنُ مالَ اليَتِيم؛ فيحقِّق له من العِنـاية أملا، ولا يُضيع أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا؛ حرس اللهُ المولىٰ ومتَّع بحياته، وأعاد علىٰ الكافَّة بركةَ صِيامهِ المقبُول وصَلَاته؛ ونفع الإسلامَ بمستجاب دَعَواتِه، إن شاء الله تعالىٰ.

الصنف السادس ــ التهنئة بوِلَاية الدعوة علىٰ مذهب الشِّيعة.

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدَّولة الفاطميَّة، بالديار المِصْرية، ذِكْرُ موضُوعها وعُلُوّ رُتْبتها عندهم؛ وإنمـا ذكرناها حِفْظا للأصل ولاحتمال وُقُوعها.

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله حتى يكون من القضاة الخ.

تهنئةٌ من ذلك : من إنشاء عليّ بن خَلَف، أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

أطال اللهُ بقاءَ داعِى الدُّعاة لصَبَاح من الرحمة يُبْلِجه، وطريقٍ من الحكمة يُظْهِر بيانَه، وليلٍ من السُّنَّة يَنْزِع طَيْلسانَه؛ وحَرسه علىٰ الإيمان يُجَدِّدُ ماأخلَقَ من بُرُوده، ويُنَظِّم ماوَهىٰ من عُقُوده؛ وعلىٰ المؤمنين يفتَحُ لهم أبواب الرَّشاد، ويُهْمِى إليهم سَماءَ الإفادة والإمْداد . ولا زالت الحقائقُ مقصودةً منه بالمِيزَة التى رشَّحته لحِفْظ مبانِيها، وأهَّلته للعِبارة عن مَعَانِيها؛ حتّى يرقُمَها فى الأَخْلاد، ويَمْحُوَ بهارُسومَ العِناد،ويَنْشُر بُشَرَها فى الآفاق والبِـلاد . أنا أعْدِلُ عن هَنـاءِ داعِى الدُّعاة ـ أطال الله بقاءه ـ بماعُدِق به من أمر الدَّعْوة الهادِيَّة العَلَويَّه، ونُصِب له من فَرِّ مَضَاحك المُشْكلات عن أسرار الحقائق الإلٰهيّـه، والترجمةِ عن غوامض الحِكَم الشَّرْعيَّه؛ والتوقيف علىٰ مَوَارد الهُـدىٰ ومَشَارعه، والإرشادِ إلىٰ مَشَارق الحق ومَطالِعه؛ إلىٰ هَنـاءِ الدَّعْوة وأهلِها بمـا قيَّضه الله تعالىٰ لهم من مَحِّله الرفيع الذى ألحقه العقلُ نحوَ هذا الكمال، ووطَّأ له مَدَارجَ الترقِّى والاتِّصال؛ فشَفَّتْ نفسُه وشَرُفَتْ، وتطلَّعتْ علىٰ عالَمِ المَلَكوت وأشرفَتْ؛ وجَنىٰ بيَدِ التَّبصرَة ثِمـارَ الحِكْمه، واستنْزَلَ بمَنْزِل المُوادّ غُيوثَ النِّعمه؛ وجَرَّد الضِّـياء من الظلام، تجريدَ الأرواح من الأجسام إلىٰ دار السلام؛ واستمَدّ بلطِيفته موائدَ علوم عالَمِ اللَّطافه؛ وأمدّ بمرَكَّب ألفاظها تحاكم الكافه، وحَلّ فى الغَبْراء محلَّ الغَرَّاء فى الخَضْراء، إنْ أوضَحتْ سبِيلَ سائرٍ بجنب طريقٍ جائرٍ تُوَصِّل بنزوعها غاشية إظلام، حُسِر عن الحق قِناعُ إبهـام، أوفعلَتْ[(١)] فى الجواهر زيادة وثمرة (؟) أخذت تعاديا(؟)فأدلَته للهمم العاملة شَرَفًا وسُمُوًّا : لما أعلىٰ بذلك من قَدْرها وقَدْرِهم، وطيَّب من ذِكْرها وذِكْرهم؛ وأعطِف إلىٰ الدعاء لداعى الدُّعاة بأن يجعل اللهُ تعالىٰ

(١) كذا فى الأصلين ولم نهتد الى تثقيفه تأمل .

ماخُوّله من هذه الرِّياسة راهنًا لا يُرتَجع، وما نُوّله من هذه السيادةِ مستقِرّا لاُيُنْتَزع؛ وأن يؤيِّده بالتوفيق، ويُعَبِّد لهمَنَاهج التحقيق؛ ويُطْلِق لسانَه بالبيان، ويُمِدّه بُروح منه فى نُصْرة الإيمـان؛ وقد حَتَم الله تعالىٰ باجابة داعيه، ولا سيمـا داعى الدُّعاة [فإنه] جدير بأن يُجاب الدعاءُ فيه، إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى "موادّ البيان": وإنمـا أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ، لأن ألفاظ هذا الدّاعى يجب أن تكون مشتقّة من ألفاظ الدعوة، مناسبةً لمَذْهبها؛ ولولا ذلك لأُغنىٰ عنـه مثالُ تهنئة قاضى القضاة؛ ومن تأملهما عرفَ ما بينهما من الفُرْقان .

الصنف السابع ـــ التهنئـــة بالتقدمة علىٰ الرجال .

رُقعةٌ من ذلك :

[من حلّ] محـلَّ سيدى ـ أطال الله بقاءه ـ من السُّؤْدَد الناطقِ الشَّواهـد، المنتظِم المَعَاقِد، المُتضارِع الطارِف والتالِد، المنتقِل فى الوَلَد عن الوالد ـ والمجدِ الذى قَصُر عن مُطاوَلَتِه الطِّرازُ الأوّل، وتَطاطأً له الإنعامُ المخوّل؛ وحاز ماحازه من شَرَف الرِّياسه، وفَضْل السِّياسه، والاستقلالِ بحقُوق ماتولّاه، وتَسْديد مانوّله وٱستَكْفاه؛ فتشوّفَتْ إليـه أعالى الرُّتَب، وتشوّقَتْ إليه المنازلُ السنيَّة من كَثَب ـ خطبَتْه العَلَا سائقة عنه مَهْرَها، وتَطامنَتْ له مُوَطِّئةً ظَهْرَها، فلم يَكْثُر له أن يتقدّم علىٰ [أهل] عَصْره فَضْلا عن قبيلته، ويتأمّر علىٰ جميع نَوْعه فضلا عن طائفته: لأنه المقدّمُ عليهم بالرُّتْبة والطَّبْع، لا بالاصطلاح والوَضْع؛ فشكَر المملوكُ اللهَ تعـالىٰ علىٰ بُزُوغ هِلاله وإبْراقه، وطُلوعه لميقات العز وتنفاقه؛ وسأله أنْ يجعلَ ماأقرَّ العيونَ من سـيادته، وحَقّق الظنونَ فى سـعادته؛ خالدًا راهنـا، ومُقِيمًا قاطنا؛ وأن يَزِيده من السعاده، ويُرَقِّيَه كلَّ يوم فى دَرَج السياده: لتكونَ هـذه الرتبةُ علىٰ ٱمتناع مَرْقَبها، وٱرتِفاع

مَرْكبها ؛ أوّلَ درجة تخطَّاها ، ومنزلةٍ فرَعَها وعلَاها ؛ ثم لايزالُ راقيا فيما يتلوها حتّى يحتَذِى بكواكب الجَوْزاء ، ويَطْحُودارةً علىٰ الخُلَفاء ، مُهنّأً غيرَ منغَّص ، ومُزَيَّدا غير منقَّص ؛ والله تعالىٰ يجيب هذه الأدعيةَ الواقعةَ مواقِعَها ، والمستَحقَّات الموضوعةَ مواضِعَها .

الصنف الثامن — التهنئةُ بولاية الديوان .

رُقعةٌ من ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من حَلَّ محلَّ مولانا — أطال اللهُ بقاءه رافلًا فى لَبُوس السَّعاده ، متحَفِّلا بسُلُوس السِّياده ؛ متنَقِّلا فى رُتَب المَجْد ، متوقِّلا إلىٰ غَدَنِ(١) الجَدّ ؛ مستَوْليا علىٰ شِعَاب العُلَا ، متمَكِّنا من رِقاب الأعداء — فى الاِستقلال والاِضْطِلاع ، والمعرفةِ بحُقُوق الاِصْطفاء والاِصْطِناع ؛ ورفعة مذهَبِه علىٰ الكِفَاية والغَناء ، والنهوض بثقيل الأعباء ، خطبَتْه التصرُّفات حاملةً عنه صدَاقَها ، وتشوَّفته الولاياتُ مادَّةً إليه أعناقَها ؛ وقد اتَّصل بالمملُوك ماجدّده الله تعالىٰ من سعادَتِه ، وأنجزه من مَوَاعيد سيادتِه ، التى كانت واضحةً فى مَخَايِل فضله ، لائحةً فى دلائل نُبْله ، مكتُوبةً فى صَفَحات الأقدار ، مرقومةً بسَواد اللّيْلِ علىٰ بيَاضِ النهار ، فَجَذِل المملوكُ بذلك ، جذَلَ الحَمِيم المُشارِك ، وسُرّ به سرورَ الخليطِ المُشَابِك ؛ وليس ذلك لأنَّ الذى تولّاه مَوْلانا وجدَ [فيه] خَلَلا فرَقَعه ، وخُمولا فرفَعه ؛ بل لأنَّ الحقَّ غالَبَ الحظَّ فغلَبَه ، والواجبَ سالَبَ المُمْكِنَ فسلَبَه ؛ وأناخَ رِكابَ الرِّياسة فى المحلِّ الخِصْب الذى يحمَدُه ويرتَضيه ، واللهُ تعالىٰ يتفضَّل علىٰ رعيَّته ، المتوطِّنين بفاضل سياسته ، من حِبائه ولطفه ، ورأفته وعَطْفه ، بما يُسْبِغ عليهم ظلالَ العَدْل ، ويقلِّص عنهم سُدُولَ الجور والحَيْف ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى "اللسان" الغدن سعة العيش والنعمة .

قلت : وكتبتُ للمقرّ البَدْرى محمودٍ الكلستانى الشهير بالسّراى مهنِّئا له باستقراره فى كتابة السِّرّ الشريف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية «برقوق» فى سلطنته الأُولىٰ:

رَفَعْتَ لِلْمَجْدِ مُــذْ وُلِّيتَ بُنْيـانَا * وشِدْتَ للفضْل بَعد الوَهْن أركانَا !

وأصـــبحَ المُلْكُ فى زَهْوٍ، ومالِكُه * يَمِيسُ عُجْبًا، وهَنَّا التَّخْتُ إيوانَا !

قدِمتَ مِصْرا فأمستْ مِنْكَ فى فَرَحٍ * تهُـزّ بالبِشْر من لُقْياك أرْدَانا !

وغُودِرَ النِّيــلُ مُذْ وَافَيْتَ مُبْتَهِجًا * وقد رَمىٰ الصَّــدُّ والإبعادُ جَيْحانا !

أَلفاظُكَ الغُرُّ صارَتْ لِلْوَرىٰ مَثَلا * وكُتْبُكُ الزُّهْرُ بَعْــدَ اللَّثْمِ تِيجانَا !

تَفُوقُ قُسًّــا إذا تَبْـــدُو فصاحَتُها * وَتَفْضَحُ المِصْــقَعَ المَلَّاقَ سَحْبانَا !

قد أَفْحَمَتْ فى مجَــازاتٍ بلاغَتُهــا * تُرْكًا ورُومًا وبعد الفُرْس عُرْبانا !

كلُّ المَوَالى إذا وَلَّوْا فلا أسَـــفٌ * إذ أنْتَ باقٍ، ويُبْــقِى اللهُ مَوْلانا !

مولًى به قــدْ تَشَرَّفْنــا وجَمَّلَنَــا * بوجهـــه، ولِذِكْرِ القومِ أنْسانَا !

الصنف التــاسع ـــ التهنئـــةُ بولاية عمل .

أبو الفَرَج البَبَّغاء :

عَرَّف الله سيدى بركةَ هــذا العملِ الجَليل، بنبيلِ نَظَره الجميل، وحَميدِ أثَرِه المحروس؛ وتناصُر سياسته الشريفة بسِمَةِ رياستِه؛ ووفَّق رعيَّتَه لشُكْرِ ماوَلِيَها من فائض عَدْله ومحمودِ فِعْله؛ فالأعمالُ منه ـ أيده الله تعالىٰ ـ بالتهنئة أَوْلىٰ، وبالتَّطاوُل بمــا شَمِلَها من بركات تدبيره أَحْرىٰ؛ والله بكَرَمه يسمَعُ فيه صالحَ الدعاء، ويبلِّغُه أبلغ مُدَدِ البقاء، فى أسبَغِ نِعْمه، وأرفعِ مَنْزِله، وأصدَقِ أُمْنِيَّه، وأنجحِ طَلِبَه، بمَنِّه .

وله فى مثـــله :

لولا ما يَشْرَكُ التَّهـانِىَ من بركات الدُّعاء الذى أرجُو أنْ يسمعَ اللهُ فيك صالِحَه، ويُجيبَ أحسَنَه ، لأجلَلْناكَ عن التَّهنئة بمستَجِدِّ الأعمـال ، ومستَحْدَث الوِلَايات ، لقُصُورها عن ٱستِحْقاقِك ، وٱنحطاطِها وإن جلَّتْ عن أيْسَرِ واجِبـاتك ؛ وتعَجُّلها بمأثُورِ كفَايتك ، وبركاتِ نَظَرِك ، ومواقِع إنصافِك . فهنَأكَ اللهُ نِعمةَ الفَضْل التى الولايةُ أصـغَرُ آلاتها ، والرِّياسةُ بعضُ صِـفاتها ؛ ولا أخْلاكَ من مَوْهِبَةٍ مُجَدَّده ، ومِنْحةٍ مُؤَبَّده .

وله فى مثـــله :

سيدى ـ أيده الله ـ أرفَعُ قَدْرا ، وأنْبَهُ ذِكْرا ، وأعظَمُ نُبْلًا ، وأشهَرُ فَضْلا ، مِنْ أنْ نُهَنِّئَه بوِلَاية وإنَّ جَلَّ خَطَرها ، وعَظُم قَدْرها ؛ لأنَّ الواجبَ تهنِئةُ الأعمال بفائِض عَدْله ، والرَّعِيّة بمحْمُودِ فِعْـله ، والأقَاليم بآثارِ رِيَاستِه ، والولايا تِ بسِمَات سِيَاستِه ؛ فعرَّفه اللهُ يُمْنَ ماتولَّاه ، ورعَاه فى سائرِ ما ٱسْتَرْعاه ؛ ولا أخْلاه من التوفيق فيما يُعانيه ، والتسديد فيما يُبْرِمه ويُمْضِيه .

الإجوبة عن التَّهانِى بالوِلَايات

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكُتُب إذا ورَدَتْ ، وجبَ علىٰ المُجيب أن يستَنْبِط من كل كتاب منها المعنىٰ الذى يُجيب به . قال : والطريقةُ المستعملةُ فيها أنَّ كتابَ المجيب يجب أنْ يبنىٰ علىٰ أن المهَنِّىَٔ قسيمٌ فى النِّعمـة المتجدّده ، وشريكٌ فى المنْزِلة المســتحْدَثة ، وأن الحظَّ الأوفرَ فيما ناله المهَنَّأ للمهَنِّئ وببركةِ دُعائه ، وتوقعه لمـا يَرِدُ

من حاجاته وتَبِعاته لينفِّـذها ، نازلا علىٰ أخلص مخالصته ، وعاملا بشُروط مَوَدّته ؛ ونحو هــذا ممــا يضارعه . فإن كان المجِيبُ رئيسا أو مرءُوسا ، وجب أن يرتِّب الخطاب علىٰ ماتقتضيه رتبةُ كلِّ واحد منهما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وردَتِ المُشرِّفةُ الكريمــةُ ، أتمَّ اللهُ علىٰ مُرْسِلِها نعمتَه ، وأعلىٰ قدْرَه ومنزِلتَــه ؛ وجعل جَناحَ العِــدا مخفوضا ، وعَيْشَــه فى دَعَةٍ وخَفْض ، وقدْرَه للتمييزِ مرفوعا ، وعدُوَّه للتقصير فى آنحطاط وخَفْض ؛ فتلقَّاها باليمين ، وظنَّها الريحَ الجنوب لما تحمَّلتْه من رِقَّة الحَنين ؛ وعلِمَ ما أبْداه فيها من تفضُّلاته ، وآعترَف بالتقصير عن مُجاراته ومُجازَاته ؛ فشنَّفَ سَمْعَــه بألفاظٍ كأنَّهنَّ اللُّؤلُؤ والمَرْجان ، وبيَّنتِ البَوْنَ الذى بيْنه وبَيْن غيرِه تلكَ الفصاحةُ والبَيَان ؛ وقابل أياديَهُ بشُكْر لسانه ، وجازاه بحُسْن الدُّعاء عن إحْسانه ؛ ولا يقومُ بشُــكْر فضــلِه اللسانُ ولا الجُثْمان ، وهلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلَّا الإحْسان؟ .

فأمَّا ماأشار إليه من الهَنَاء بالمَكان الذى تولَّاه ، وأبداه من المحبَّــةِ التى اوجَبتْ عليه أن يتَوالاه ؛ فاللهُ تعالىٰ يُعينه علىٰ ماهو بصَــدَده ، ويجعلُ الحقَّ والخير جاريَيْنِ علىٰ لسانه ويَده ؛ ويرزُقه آتباعَ محكَم كتابِه وسنَّةِ رَسولِه ؛ ويُحصِّلُ له من الرُّشْد غايةَ سُوله ومأْمُوله ؛ فإن هــذه الولايةَ صَــعْبةُ المِرَاس ، وجَوادَها كثيرُ الشِّماس ؛ لٰكِن ببركات المَوْلىٰ يحصُل من الله الأَرَب ، ويَسْهُل لأوليائه القصدُ والإسعادُ والطَّلَب ؛ أدام اللهُ ظلَّ المولىٰ وأسـعَدَه ، وأوضحَ لدَيْه طريقَ السـعادةِ ومَهَّـده ؛ ومنَحَه من الألطاف الخفِيَّة أفضلَ ماعوَّده ؛ بمنِّه وكَرَمه .

الضـــرب الثـانى

(التهنئـــةُ بكرامة السلطانـ وأجوبتُهـا)

وفيـــه ثلاثة أصـــناف :

الصنف الأوّل — التهنئةُ بالإنعام والمَزِيد ولُبْس الخِلَع وغير ذلك .

من كلام الأقدمين :

ويُنْهِى أنه ٱتَّصــل بالمملوك ماأهَّل مولانا السلطانُ مَوْلأنا لَهُ : من المحلِّ السَّنِىّ، والمكانِ العَلِىّ، الذى لم يزَلْ موقُوفًا عليه، متشَوّفا إليه؛ نافِرًا عن كلِّ خاطبٍ سِواه، جامِحًا علىٰ كلِّ راكبٍ إلّا إيَّاه؛ فأقرّ اللهُ عينَ المملُوك بذٰلك لِصــدْق ظنه، وعلم أنَّ ماأصاره اللهُ تعالىٰ إليــه من هذهِ المنْزِلة المُنِيفه، والرُّتبة الشريفــه؛ مَدْرَجةٌ تُفْضِى إلىٰ مَدَارج، ومَعْرَجة تنْتهِى إلىٰ مَعَارِج؛ واللهِ تعالىٰ يَزِيدُ مَعالِيَه عُلُوًّا، ويُضاعف محلَّه سُمُوًّا، بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنه — ويُنْهِى أنه ٱتَّصــل بالمملوك نَبَأُ المَوْهِبَة المتجَدِّدة لديْه، والنعمةِ المُسْبَغة عليه؛ وما ٱختَصَّه به مولانا السلطانُ من الاْصْطِفاء والإيثار، والاْجتِباء والاْخْتِيار، وتقديمِه للرُّتْبة الأَثِيره، والإنافةِ إلىٰ المَنْزِلة الخَطِيره؛ فسُرَّ المملوكُ للرِّياســة إذْ أحلَّها الله تعالىٰ فى محلِّها، وأنزَلَها علىٰ أهلِها، ووصَلَها بكُفْئِها وكافِيها، وسَلَّم قَوْسَها إلىٰ رَامِيها؛ والله تعالىٰ يجعلُ هذه الرتبةَ أوّلَ مِرْقاة من مَرَاقِى الآمال، ومكبِرَ الرُّتَب التى يَفْرَعُها من رُتَب الجَلَال، إن شاء الله تعالىٰ .

من كلام المتأخريـن :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

أدامَ اللهُ أنصارَه، وجعل التّقْوىٰ شِـعَارَه، وألْبَسه من المَحامِد أكرَم حُلَّه، ونوّلَه من المَكَارِم أحْمَدَ خَلَّه، ولا زالتِ الخِلَع تتَشَرَّف إذا أُفِيضتْ عليه، والمدائحُ تُسْتطاب بذكره لاسِيَّما إذا أُنْشِدتْ بيْنَ يَدَيْه .

الخـادمُ يُنْهِى إلىٰ عِلْمِ المَوْلىٰ أنه آتّصل به خَبَرٌ أهْدىٰ إليه سُرورا، ومَنَحه بَهْجةً وحُبُورا : وهو ما أنعم به المولىٰ السلطانُ خلَّد الله سلطانَه، وضاعفَ إحسانَه : من تشريفه بخِلْعته، وما أسْبغَهُ عليه من وَارِف ظِلِّه ووافِرِ نِعْمته، وأبداه من عِنايَتِـه بالمولىٰ ومحبَّتِه، وقد حصَلَ له من المَسَرَّة ما أجْذَله، وبَسَط فى مُضاعفةِ سَعْدِ المولىٰ أمَلَه، فإنه بلَغه أنَّ هذه الخِلعــةَ كالرِّياض فى نَضَارتِها، وحُسْن بَهْجتِها، وأنها كُلَّما بَرَقتْ بَرِقَ لهــا البصَرُ، وظَنَّها لحُسْـنِها حديقةً وقد حَدَّقَ إليها النظَر، وقد جمعَتْ ألوانَ الأزهار، وأرْبىٰ ناسجُها فى اللُّطْف علىٰ نَسَمة الأسحار، وأسكنتْ حُبَّها حبّاتِ القلوب التى فى الصُّـدور، وسمَتْ عن المَـدْح برائقِ المنظُومِ وفائقِ المنْثُور، وأن آبنَ سُلَيْمانَ[1] لو رآها، لآعترف بأنَّ فى لُبْسها لكلِّ فتًى شرفًا لاريْبَ فيه، ونَسَب البيتَ المنسوبَ إليه إلىٰ أعادِيه، وأنَّه لو نظَر نَضْرةَ نُضارِها لمـا جعل لها فى الحُسْن نَظيرا، ولو ألْقاها علىٰ وَجْهه لآرْتَدَّ لوَقْته بَصِيرا، فلذٰلك أصدر هذه الخدمةَ مهنِّيَه، ومُعْرِبةً عما حصل له من الفَرَح ومنبِّيَه، ولجِيدِ مَدْحه العاطِلِ من مثل هذه الألفاظِ مُحلِّيَه، تولَّه اللهُ فى كلِّ يوم مَسرَّةً و بُشْرىٰ، وأجرىٰ له علىٰ الألْسُن حمــدًا وشُـكْرا، وجعله لكلِّ خيرٍ أهلا، وشَـكَرله تفضُّلا شاملًا وفَضْلا، ومتَّعه من العافية بلباسٍ لايَبْلىٰ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) مراده أبو العلاء المعرى أحمد بن سليمان .

الصنف الثانى — التهنئةُ بِرِضا السلطان بعد غَضَبه .

فمن ذلك :

وتُنْهِى أنه آتَّصـل بى ماجَدّده اللهُ تعالىٰ لمولاى — أطال الله بقاءه — من حُسْن عاطفة مولانا أميرِ المؤمنين — خلّد الله ملكه — وآنعطافه عليه بعْـدَ آنْصرافه ؛ وإعادتِه إلىٰ رُتْبته التى نَشَزَتْ عنه دَلَالا لا مَلالا ،وهجْرته هَجْر المستصْلِح المستعْتِب ، لا هَجْرَ القالِى المتجنِّب ؛ وكيْفَ تَقْـلاه ، وهى لا تجِـدُ لهـا كُفُؤًا سِواه ؛ ولتوقُّع المملوك بما وقع من هذه الحال ، وعلْمِه أنَّ عَوْدها إليه كعودة المُودَع [إلىٰ مُودِعه ،] لاعَوْدةِ المنتَجِع إلىٰ مَرْبَعه ؛ وأنَّ الذى وقَع من الآنْحراف إصلاحٌ باديه تهـذيبٌ وتَقْوِيم ، وخافِيه توقيرٌ وتعظيم : لِمَـا فى عِتَاب أمير المؤمنين من شَرَف الرُّتْبـه ، والدِّلالةِ علىٰ آسـتِقْرار الأَثْرة والقُرْبه ؛ وحلُوله مَحَلَّ الصِّقال ، من أبْيِض النِّصال ، والثِّقَاف من العَسَّال ؛ ولا سِيَّمـا وريِاسَـتهُ محفُوظه ، وسِـيادتهُ ملْحُوظه ؛ وهيبتهُ فى النُّفُوس ماثِلَه ، وجَلَالته فى القلوب حاصِـلَه ؛ ولم ير[(1)] المملوكُ أجلَّ مَوْهِبَةً من الله سبحانه من شكر يستَرْهِنُ هـذه النعمةَ ويخلِّدها ، وحمدٍ يرتَبِطُها ويقيِّدها ؛ ورغبتُ إلىٰ الله سبحانَه أنْ يجعلَ هـذا العِزَّ الحادثَ لابِثًا لايتحوّل ، والسعدَ الطارِف ماكِثًا لايتنقَّل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من عادةِ الزمان أن يَكِفَ سَحابُه ثم يَكُفّ ، ويَرِفَّ نَبـاتُه ثم يجِفّ ؛ ويَدِرَّ حَلَبُه ثم ينْقَطِع ، ويُقْبِـلَ خَيْرُه ثم يرتَجِـع ؛ إلا أنَّه إذا سلَبَ النعمةَ ممن يَسْـتوجِب إمرارَها عليه ، وآنتزع المَوْهِبَة ممن يستَحِقُّ آستِمْرارَها لَدَيْه ؛

---

(١) لعل الواو زائدة ويكون متعلق اللام فى قوله «ولتوقع» الخ تأمل .

كانَ كالغالِط الذى يُراجع نفْسَه فيندَمُ علىٰ مافرَط، ولا يلبثُ أن يستدْرِكَ الغَلَط؛ مُعقبا نَبْوته بإنابَتِه، متعقِّبا هَفوته باستِقالَتِه؛ ماحِيًا إساءَته بَرْأب ماثَلم، وأَسْوِ ماكَلْم؛ وإصْلاحِ ما أفْسد، وتأليفِ ماشَرَّد . فلا جَرَمَ أنَّ النفُوسَ بإقبالِه علىٰ مَنْ هذه صِفتُه واثِقه، والآمالَ لانصرافِه إلىٰ مَنْ هذه صورتُه متحَقِّقه؛ وإذا سَلَبها هَرْوَلَ فى إيداعها لدَيْه، وأخذ [فى] إفاضَتها عليه. وما زال المملوكُ ــ مُذْ عاملَ الزمانُ مولانا بسُوءِ أدَبِه، ونأىٰ عنه بجانِبِه؛ وقبَضَ بنانَه، وغَيَّر عليه سُلطانَه ــ عارفًا أنَّ هذه الفَعْلة فَلْتةٌ من فلتَاته التى يتوقَّى شَرَّها، ولا يرجعُ إلىٰ مثلها؛ وأنَّ الاستِبْصار، يقُودُه إلىٰ الاعْتِذار، والاضْطِرار، يحْدُوه علىٰ ردِّ ماآنتزعه بالإجْبار: لأنه لا يجِدُ من يحُلُّ محَلَّ مولانا فى آرتباطه بإيناسه، وتعهُّده بسَقْى أغْراسه؛ وقيامِهِ بشُكْره، وتزكيته ببِرِّه ــ متوقِّعا لأن تتيَقَّظ عينُه، وينْكشِفَ رَيْنُه؛ فيرىٰ ماصنعَتْ يَدَاه، ويبادِرُ لآستقالة ماجَنَاه؛ حتَّى طرق البشيرُ بمــا سَهَّله الله تعالىٰ مِنَ آنحِسار الكُرْبه، وعَوْد مولانا إلىٰ شَرَف الرُّتْبه؛ وصلاحِ مافسَــد، وعَوْدِ السلطان أعزَّ الله نصره إلىٰ ماعَهِد؛ ورُكونِه إلىٰ حضرته، وآنقِلابِه عنه رافلاً فى تشريفِه ومكْرُمتِه؛ فكانَ معتقَدُ المملوكِ فيه هِلالاً فى السِّرارِ فأهَلّ، وجَنِينا فى الحَشَا فاستهَلّ؛ فاستَوْلىٰ علىٰ المملوكِ من السُّرور ماعَمّ جوارِحَه، وعَمرَ جوانِحَه؛ وأطار بجَنَاح المَرَح، وألبس حُلَّةَ الفَرَح؛ إذ ماجَدَّده الله تعالىٰ له من السعادة يحُلُّ به فى العُموم، محلَّ الغيثِ السَّجُوم؛ لأنَّه حرَسَ الله عزَّه لايستأثِرُ بعَوارِف الله عنـده، ولا يكُزُّ علىٰ عطاياه يدَه؛ بل يمنَح ممــا مُنِح؛ ويُولى ممــا تَوَلَّى، ولا يَضِنُّ بمــالٍ ولا جاهٍ، ولا يقْعُد عمن أمَّله ورَجَاه؛ والله تعالىٰ يجعلُ ذٰلك ممــا أقرَّبه العُيونــ، وصدَّق فيه الظُّنون؛ لاتُخْلِقُه الأيام ولا تُبْليه، ولا تَزْويه الحوادثُ ولا تؤثِّر فيه؛ إن شاءالله تعالىٰ .

الصنف الثالث — التهنئة بالخلاص من الاعتقال .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جدّد الله سعدَه، وضاعف جَدّه، وأنجح قصْدَه، وأعذب مَنْهلَه ووِرْدَه، ولا انفكّت الأيّامُ زاهيةً ببَقائِه، والأنْفُس مسرورةً بارتقائه إلىٰ رُتَب عَليائه . أصدرها تُفصِح عن شَوْقٍ يَعْجِز عن سَوْقِه الجَنَان، ويقْصُر عن طُوله اللِّسان، وسُرورٍ تزايد حتّٰى أبكاه، ولاعج بمشاهَدةِ طَلْعتِه السعيدةِ أغْراه ؛ وتُهنِّيه بما جدّد الله له بعد الاعتقالِ من الفَرَج والفَرَح ، ومَنَّ به بعدَ ضِيقِ الخَواطِر من الابتهاجِ والمَرَح ؛ فهذه المسرّةُ ماءٌ زُلالٌ بَرَد بها الأُوَام ، وإنعامٌ عامّ، حمِد اللهَ عليها الخاصُّ والعامّ ؛ فالحمدُلله الذى عوّضه عن مَأْتَم الحُزْن بما تَمَّ من السرور، و[عن] الهَمِّ المانِـع عن الوُرُود والصُّدور بانْشِراح الصُّدُور ؛ فإنَّ القلوبَ شَعَفَها حبُّه وشغَفَها ، وضاعَفَ لتعويقه أسَاهَا وأسَفَها ؛ بحيث اعترىٰ المَناطِقَ قلقٌ وعلاها اصْفِرار، وعُطِّلت يدُ كل غانية من الحُلِيِّ فما ضمَّها قُلْبٌ ولاسِوَار ؛ ولبِس الخُطباء حزنا وأُلْبِسته المحابِر، وكادت لغَيْبتِه وفقْدِ اسمِه تندُبه الجوامعُ وتَبْكيه المَنَابِر ؛ خلَّد الله سعادتَه، وسهَّل له من خيْرى الدنيا والآخرة قَصْده وإرادتَه ؛ بمنّه وكرمه .

الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه

قال فى "مواد البيان" : يجب أن تكون أجوبةُ هذه الرِّقاع مُودَعةً من الثناء علىٰ المهَنِّى — لمحافظته علىٰ رُسوم المَودّة وقيامِه بشُروط الخُلَّة — ماتقتَضيه رتبتُه ورُتبةُ المُجيب ، وأنّه مشاركٌ له فى متجدّدِ النعمة ، مُفاوِضٌ فى حديث المَسَرَّة ؛ والتيمُّن بالدعاء، ونحو هذا مما يحسُن موقِعُه عند المبتدئ بالهناء، ويضَعُه بحيثُ وضَع نفسَه من الاختصاص بمَنْ كاتَبه .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع : [جواب] هناء بخِلْعة :

أدام اللهُ عَلاءه ، وشَكَر آلاءَه ، وضاعفَ سَناءه ؛ وحمِد مِنَنه التى أثقلتْ لكلّ مُعتفٍ ظَهْرا وخففتْ همّا ، وأنالتْ لكلِّ ولىٍّ نصيباً من عوارفها وقِسْما . المملوكُ يُنْهِى إلىٰ العلم الكريم وُرودَ المكاتبة التى كَستْها يدُه حُلّةَ جمَال ، وألبستْها ثوبَ إفْضال ، وأعدَّتْها بكَرَمِها ، وحسَّنتْ وجْهَها بلِسان قلمِها ؛ فأمطرَتْه سَحابَ جُودٍ أرْبىٰ علىٰ السَّحاب الهَتُون ، وأوقفَتْه منها علىٰ ألفاظٍ كأمثال اللُّؤْلؤ المكْنُون ؛ فآجتنىٰ ثِمارَ الفضائلِ من أغصانِها ، وآجتلىٰ عَرُوسَ مَحاسنها وإحْسانِها ؛ وفهِمَ ماأشار إليه من التهنئـةِ بالخِلْعة التى أنعمَ المولىٰ بها[(١)] علىٰ خادمه وتَصدّق ، وحقَّق الأمَلَ فى مكارمه وصَدَّق ، وإنعامُه خلَّد الله دولتَه ، وأعزَّ نُصْرته ، قد كَثُر حتّى أخجله ، وميَّزه علىٰ كثيرٍ من مماليك بيتِه العالِى وفَضَّله ؛ وأنالَهُ من المَنْزِلة ماسَمَابها علىٰ أمثاله ، ورَقِى بها بعدَ رِقَّةِ حاله ؛ فاللهُ يخلِّد سـلطانَه ، ويثبِّت بالسعادة أركانَه ؛ وهذا بسعادةِ مولانا ومُساعدتِه ، ومعاوَنتِه ومعاضَدتِه : فإنه كان السببَ فى الآتِّصال ببابه أوّلًا وآخِرا ، وممَّن أغاثَهُ بذٰلك وأعانَه عليه باطِنًا وظاهِرا .

وكلُّ خيرٍ توَخّانِى الزّمانُ به * فأنتَ باعثُـهُ لِى او مسبِّبُهُ

---

(١) فى الأصول أتم الله بها مخدومه ، ولا معنى له تأمل .

الضـــرب الثـالث
(من التهانى التهنئـــة بالعَوْد من الحَجِّ)

وهذه نسخ من ذلك يُنْسَج علىٰ مِنْوالها .

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه طرقَ المملوكَ البشـيرُ بِعَوْد مولانا ـ أطال الله بقاءه ـ من مَقَـام الطائفين ، إلىٰ مَقَام المعتفِين ؛ وأوْبتِـه من كَعْبة الإحرام ، إلىٰ كَعْبـة الإكرام ؛ وتنقُّلِه من مَوْقِف الحُجَّـاج ، إلىٰ مَوْقِف المحتاج ؛ وحُلُوله بمنزله الذى هو قبلةُ ذَوِى الآمال ، ومحطُّ الرِّحال ؛ بالسَّـــعْى المشكور ، والحجِّ المبرُور ؛ والنُّسُـك المقبُول ، والأجْرِ المكتُوب ؛ فحمِدتُ الله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبتِه ، وسألتُه زيادتَه من مَكْرُمتِـه ؛ وآستنجَحْت هـذه المكاتبةَ أمامَ ما أرومُه من مشاهَدتِه ، وأرجُوه من الآستِسْعاد بملاحَظَتِه ؛ وبَرْد أُوَار الشوق بمحاضَرَته ، ومجدِّدًا عُهودَ التيمُّن بمباسَمَته ؛ فإن آقتضىٰ رأيُه العـالى أن يُعَرِّف المملوكَ جملةً من خبره فى بَدْئِه وعَوْده ؛ ومنقَلَبِه ومتوَجَّهه ؛ وما تفضَّل اللهُ تعـالىٰ به من أمانِ سبيله ، وهِدايةِ دليله ؛ وتخفيفِ وَعْثاء سـفرِه ، وتسْهيل وَطَرِه : لِأَسْكُنَ إلىٰ ذٰلك إلىٰ حِينِ التمثُّل بنَظَره ، فله الفضـلُ فى ذٰلك . والله تعالىٰ يبلِّغه سُوله ، ويوصِّله مرادَه ومأمُولَه ؛ بمنِّه وكرمه .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ مولانا لايزال حاجًّا إلىٰ كعبة الحرَم ، أو كعبةِ الكَرَم ؛ وطائفاً بشـعائر الوُفُود ، أو بشَعائر الجُود ؛ وواقفًا بموقِف الآسـتِفْتاح ، أو موقِف السَّماح ؛ وناحِرَ البُدْن بِمَنَى ، أوناثِرَالبِدَر للمُنىٰ ؛ فلا يرتفِع فى حالٍ من الأحوال بِرُّه ، ولا ينقطِعُ عن الله

تعالىٰ ذِكْرُه ؛ ومَنْ كان بهذه المَثَابه، فى إحراز الأجْرِ والإنَابه ؛ فهو حقيقٌ أن تُعْمَر بالتهنئـةِ أوقاتُه وأزمانُه ، كما عَمَرها سـعيُه وإحسانُه ؛ وقد عرَف المملوكُ آنْكِفاءه ـ أدام الله عُلُوَّه ـ عن مَقام الطائفِين والعاكفين ، إلىٰ مَقام القاصدِين والمعتَفِين ، وعوْده إلىٰ منْزِلِه المعمُور، بعد قَضائِه فريضةَ السَّعْيِ المشكُور؛ فعدَلْتُ فى مخاطَبته عن الهناء إلىٰ الدعاء بأن يتقبَّل اللهُ تعـالىٰ نُسُكه ويثَقِّلَ ميزانَه ، ويُطْلِق فى حَلْبـةِ الخيرات عِنَانَه ؛ ويُحْيِيَه لأجرٍ يُحْرِزه، وثواب يكْنِزُه ؛ والله تعـالىٰ يُجِيبُ ذٰلك فيه، ويُرِيه فى نَفْسه وأحِبَّته مايرتَضِيه .

ومن ذلك :

وتُنْهِى أنَّه قد طرَقَنِي البشير بآنكفَاء مولانا إلىٰ مَقرِّ علَائه ، وآنفصاله عن مَلَاذِ النُّسَّاك والعُبَّاد، إلىٰ مَعَاذِ الزُّوَّار والقُصَّاد؛ فعرفْتُ أنَّ ذلك النسيمَ العليلَ من تِلْقائه ، وذٰلك النُّورَ الصادِعَ من آلائه ؛ وذٰلك الآفْترارَ من أسِرَّته ومَخَايِله ، وتِلكَ العُذُوبةَ من شِيَمِه وشمائله ؛ فكاد المملوكُ يطير ـ لو طار قَبْلِي غيرُ ذِي مَطار ـ فرَحا، وأخْرِقُ الأرض وأَبْلُغُ الجبالَ لو أمكن ذلك مَرَحا ؛ وآنفتَح قلبى حتّٰى كادت مهجَتُه تَفيضُ سُرُورا ، وطاشَ حِلْمِي حتّٰى تفرّق مجموعُه بَهْجَةً وحُبورا ؛ والله تعالىٰ يجعل نِعمَـه موصولةَ الحبل، مجموعةَ الشَّمْل؛ بمنّه وكرمه .

أبو الفرج البَبَّغاء :

جعل اللهُ سَعْيك مشكورا، وحجَّك مبْرورا؛ ونُسُكَك مقبُولا، وأجْرك مكتُوبا؛ وأجزلَ من المَثُوبة جزاءَك،ومِنْ عاجِلِ الأجْرِ وآجِله عطاءَك؛وقَرَن بالطاعاتِ عَزَماتِك، وبالسَّعْيِ إلىٰ الخير نَهَضاتِك؛ ووَفَّقك من صالحِ الأعمال، وزَكِيّ الأفْعال، لمـا يجْمعُ كلَّ خيرِ الدارين . ولمَّـا طرقَتْنى البشارةُ بقُدومك ، بدأتُ بإهداء الدعاء ، وتجديدِ

الشكر لله تعالىٰ والثّناء، وآستنبْتُ فى ذلك المكاتَبَه، أمامَ ما أنا [عازم] عليه : من المُشافَهَة والمُخاطَبه ؛ ولن أتأخَّرعن حظِّى من المسير إليْك للتيمُّن بالنظر إلىٰ غُرَّتك، ومداواة ماعانيتُه من ألَم الشوقِ بمُشاهدَتِك .

الضـــرب الرابع
(من التهانى ، التهنئةُ بالقُـــدُوم من السَّفَر)

من كلام المتقدّمين :

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنَّه آتَّصـل بالمملوك خبَرُ توجُّهِه(١) إلىٰ الناحية الفلانيـة، فعرَفَ المملوكُ أنه قصَـدَها لِيخُصَّ قاطِنيها ، بنصيبٍ من مَوَاهِبـه ؛ ويُفيضَ علىٰ ساكنيها، سِجالًا من رَغَائِبه ؛ ويَسَوِّىَ بينهم وبين مَنْ راشَه بحِبَائه ، وجَبَرَه بنوافله وآلائه ؛ فسألتُ الله تعـالىٰ أن يُطيلَ عُمُر المَكارِم بإطالة بَقائِه ، ويجمَعَ شَمْل السُّؤْدَد بدَوام عَلَائه ؛ ثم آتَّصل بى عودُه إلىٰ مَقرّه ، خَفيفَ الحقائِب من وَفْره ، ثقيلَها من ثَنائِه وشُكْره ؛ فحمِد المملوكُ اللهَ تعالىٰ علىٰ إسْفارِ سَفَرِه عن بُلُوغ الأوْطار، وآنحسارِ أُمنِيَّته عن أذْيال المَسَار؛ وما خصَّه به من السَّـيْرِ الشَّحِيح، والسَّعْى النَّجِيح ؛ والسَّلامةِ المفرَّقة علىٰ الوِجْهة والمنقَلَب، والمفتَتَح والمعتقَب ؛ ولمَّـا عرض للمَملوك ماقطَعه عن مُشافَهته بالدعاء ، رفعَ يدَه إلىٰ الله تعالىٰ ضارعًا لدَيْه فى أن يتولَّاه فى هــذا المَقْدَم الميمون ، بالسعْد المَضْمُون؛ وإنالة الأمانِىّ المُقرّة للعيُون ؛ وأن يمنَحَه فى الحِـلِّ والتَّرْحال، والقَطْنِ(٢) والآنتِقال، توفيقًا يقارِنُ ويُصاحِبُ، ويُسايِرويُواكِب ؛وأنْ يجعلَ ماخوَّله من نعمة راهنًا خالدا، وما أوْلاه من مَوَاهِبه بادِئًا عائِدا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الأصل وجهته وهو تصحيف إذ الوجهة الناحية والجهة وهو غير مراد كما لا يخفى .

(٢) مصدر قطن فى كتب اللغة التى بأيدينا علىٰ فعول لا علىٰ فعل .

وله أيضـــا :

ويُنْهِى أنه طَلَع عليه البَشِير، طُلوعَ القمرِ المُنِير، مُؤْذِنا بمَقْدَم حضرته، ومُعْلِما بظُهُور طَلْعتـه، وحُلُوله فى مَعَانه(١) الذى هو مَعَان الإقبـال، وعَوْن الرجال، وقرارةُ الأقْيال، ومَحَطُّ الرِّحال، وقبلةُ الجُود، ومُعرَّس الوُفُود، فسألتُ الله تعالىٰ أن يُبْقِيَه جمالًا للأيَّام، وثِمَـالًا للأنام، وعِمادًا للقُصَّاد، ومَرادا للرُّوَّاد، والله تعالىٰ لا يُخْلِيه فى تصرُّفاته، وجميع حركاته وسكَنَاته، من سَعْى سعيد، وعيشٍ رَغِيد، بمَنِّه وكرمه.

أبو الفرج البَبَّغاء :

مَن كانتْ غَيبـةُ المكارم مقْرونةً بغَيْبَته، وأَوْبَةُ النِّعم موصولةً بأَوْبته، سافرتِ الأنفُس حيثُ كانَ إليـه، وقَدِمتِ الآمالُ عند قُدُومه عليـه، وما زالتِ الأنفُس إلىٰ الأُمْنِيَّة بقُرْبه متطلِّعـه، ولوُرُود السُّرور بوُرُوده متوقِّعه، إلىٰ أنْ أنِسَتْ بعد الوحشة بِلقائه، وتَنَسَّمَتْ أرَجَ مَنِّه ونَعْمائه، فوصلَ اللهُ قُدومَه من الكَرامه، بأضعاف ما قَرَن به مَسِيرَه من السَّلامه، محروسًا من طَوارِقِ الغِيَر، مبلَّغا أبعَدَ العُمُر.

وله فى مثـــله :

مَنْ كانت مادَّةُ سُرُوره، بمَغِيبه وحُضُوره، لم يجِدْ مع بُعْدِك مُؤْنِسا يسْكُن إليه، ولا عِوَضا يعوِّلُ فى السَّلْوة عليـه، وما زلتُ أيامَ غَيْبتك ـ لا أوحشَ اللهُ منـك ـ بالوَحْدة مستَأْنِسا، وبالشَّوق إليكَ مُجالِسا، أُلاقِيك بالفِكْر، وأشاهِدُك باتِّصال الذِّكْر، إلىٰ أنْ منَّ اللهُ مِنْ أَوْبتك بمـا عَظُمت به النعمه، وجَلَّت لدَىَّ معه المَوْهِبَه، فوصـلَ اللهُ بالسلامة نَهَضاتِك، وبالسعادة حَرَكاتِك، وبالتوفيق آراءَك وعَزَماتِك، وحرَسَنِي ببقائك وبقاءِ النعمة عِنْدك، وهَنَأنى النعمةَ الجليلةَ بقُرْبك.

---

(١) فى القاموس واللسان «المعان المباءة والمنزل» وأورداه فى مادة م ع ن.

وله فى مثـــله :

مَنْ كنتَ نِهـاية أمنيَّته، وقُطْبَ مَسَرَّته؛ كان من نَفْسه مستوحِشا مع بُعْدك، وبدَهْرِه مستـأْنِسا مع قُرْبك؛ وما زِلْتُ معـك بالنِّيَّة مُسافِرا، وبالشَّوق سائِرا؛ وبالفِكْرِ ملاقِيـا، وبالأمانِىِّ مُناجِيا؛ إلىٰ أن جمعَ اللهُ شملَ سُرورِى بأَوْبتِـك، وسَكَّن نافِرقَلَق بعَوْدتِك؛ علىٰ الحـال السارّة من كمال السَّـلامه، ووُفُور الكُلْفه؛ فأسـعدكَ اللهُ بمَقْدَمكَ سـعادةً تكونُ بها من الزمان محْرُوسا، وللإقبال مُقابِلا، وبالأمانِىِّ ظافرا؛ ولا أوحش اللهُ منـك أوطانَ الفضل، وعَضَّد إخوانَك ببقائِك وبقاء النعمة عندك .

وله فى مثـــله :

لوكان القلبُ يجِدُ عنـك مُنْصَرَفا، أو يرىٰ منـك فى ٱكتسابِ المسَرَّة خَلَفا؛ لٱستراحَ إليه من ألَمِ بُعْدك، وٱستنْجدَه علىٰ مَرارة فِراقك؛ لٰكنَّك أيَّدكَ الله جملةُ مسَرَّته، ونهايةُ أُمنِيَّته، فليس تتوجَّه أمانيُّه إلَّا إليك، ولا تَقِفُ آمالُه إلَّا عليك؛ فالحمدُ لله الذى أقرّ بفَيْئَتك أعيُنَ إخوانك وأوِدَّائك؛ وافَاكَ اللهُ من السَّعادة فى أَوْبتك أضْعاف ما ٱكتنَفَك من الكِفَاية فى ظَعْنك .

ابن أبى الخِصال :

سَرّ اللهُ مولاى ورَئِيسى، ورَبَّ تشريفى وأَنِيسِي؛ بلِقَـاء الأحْباب، وٱتِّصال الأسْـباب، وأوْبةِ الغُيَّاب؛ ولا زالتِ الأيامُ تتصنَّع لإقْباله، وتُقَبِّـله أوجُهَ العِزِّ فى ٱقتباله؛ وتُوفيه علىٰ رغم الحاسد حَقَّ جَلاَله .

البُشْرىٰ ــ أدام الله ٱعتزازه ــ بمَقْدَم الوزير فلان قد أوضعَتْ ركابُها، وٱتَّصل بالنفوس أعْلاقُها وأسبابُها؛ فهنيئًا مَعْشَرَ الأولياء بسُبُوغ هذه النعمة الجليله، والمِنْحة

الجزيله، ولا أستوفى شكْرَ مابه أتىٰ مُعَظِّم قَدْره، وملتَزِمُ بِرِّه، من ثناءٍ كعَرْف الطيب يُهْدىٰ، ومَذْهَب فى الإنهاض لا يُقْضىٰ واجبُه ولا يؤدّى ؛ ولا زالتْ حياةُ مولاىَ تُفَدّىٰ، وأفعالُ بِرِّه تتعدّى ؛ وقد لثَمْتُ مواقِعَ أنامله وُدًّا، ووردْتُ من محَاسن بيَانه مَنْهَلا عَذْبا [ووِردا] فأمتعنِي اللهُ بحياته العزيزةِ الأيَّام، الطيِّبة الإلمام، الموصولةِ العهدِ والذِّمام؛ وأقرأُ علىٰ سيدى من سَلَامى مايلثِمُ يدَه، ويقضى حقَّ اليراع [الذى] أنشأ به البر وولَّده، والسلامُ المعادُ عليه وعلىٰ جملته ورحمة الله وبركاته .

الشيخ جمال الدين بن نُبَاتةَ عن نائب الشام إلىٰ القاضى عَلاءِ الدين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف ، بالأبواب الشريفـة بالديار المصرية ، عند عَوْده من الكَرَك إلىٰ الديار المصرية ، فى سـنةِ ثلاثٍ وأربعين وسـبْعِمائة ، مهنِّئا له بعوده إلىٰ مَنْزِله بالديار المصرية ، وآسـتِقْراره وعوْدِه إلىٰ كتابة السرّ الشريف بالأبواب الشريفـة السلطانية، وهى :

تُقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ ـ إلىٰ آخر الألقاب ـ لازالَتْ خناصرُ الحمد علىٰ فَضْل بَنانها معْقُوده، ومآثرُ البأس والكرم لهـا ومنها شاهدةً ومشْهُوده، وبَواتِر السُّيوف مسَـيَّرَةَ القصد إلىٰ مُناظرةِ أقلامها المقْصُوده ؛ تقبيلاً يودُّ لو شافَهَ بشِفاهه موْرِدَ الجُود من الأنامل، وكاثر بثَغْره عند المُثول للتقبيل ثُغورَ الأَمَاثِل ؛ فكان يُشافِهُ بشَوْقه مَوْرِدا كثيرَ الزِّحام ، وكان يُكاثِرُ بعِقْد قُبَله علىٰ يد الفضـل عُقُودا جزِيلةَ الآنتظام ، وكان يُحاكم جوْرَ الضَّيْم إلىٰ مَنْ أبىٰ اللهُ لجار مشاهدته أنْ يُضَام . ويُنْهِى ماوصـل إليه وإلىٰ الأولياء من السُّرور، وما رُفـع بينهم وبين الآبْتِهاج من الشُّرُور، وما طُولِـع فى أخبار المَسرّة من السُّطور، بوُصُول مولانا ومَنْ معه إلىٰ مَساكِن العزِّ ساكِنين، ودُخُولهم كدُخُول يوسُفَ عليه السـلام ومَنْ معَه إلىٰ مِصْرَ آمنين ؛ وآستقْراره

فى أشرفِ مكانٍ ومَكانه، واستِنْصار مصرَ بأقلامه علىٰ العادة فإنَّ هــذه سِهامُ وهذه كِنَانه؛ وإسفارِ غَمام السَّفْرة عن كَوْكَبٍ عُلًا طالمَـا حَرَس بِيَمينه أُفُقَ المُلْكِ وهداه وزانَه؛ وما كانتْ إلا غيبةً أحمدَ اللهُ عُقْباها، وغَيابةَ بُعْدٍ مَنَّ الله عزَّ وجلَّ وجَلَّاها؛ وفترةً ثنىٰ الله فتْرتَها فتنفَّس خِناقُ المَنْصِب المشتاقِ لوجهه الكريم، وهجْرةً صرفَ الله هَجِيرهَا فسَـقىٰ طِرْسَ الإنشاء الذى آبيضَّتْ عَيْناه من الحُزْن فهُوكَظِيم ؛ وما محَاسِن مولانا إلَّا زينةٌ من زِيَن الدنيا فعليها يتَشاكَسُ المتشاكِسُون، وما مزاجُ كلِماتِه إلَّا من تسنيم ﴿ وفى ذٰلِك فَلْيَتَنَافَسِ المُتنافسُون ﴾ .

فالحمدُ لله علىٰ أنْ أقرَّ العُيونَ بمُعاودة ظِلِّه الوَرِيف، وعلىٰ أنْ شَـفىٰ الصُّدُورَ بقُرْبه وأوّلُهـا وأَوْلاها صَدْرُ السرِّ الشريف؛ وعلىٰ أنْ أجزَلَ الهَناء وقد شَمِلَ ظِلُّه، وقد كَمُل بابْن الفضل فَضْــلُه ؛ وقد بهر سَناؤه وسَناه ، وقد تسعَّب القريبُ والبعيدُ فإنْ أجدىٰ علىٰ مِصرَ مَوْرِدُه فقد جادَتْ علىٰ الشام سَماه . وقد أخذ المملوكُ حظَّه من هذه البُشرىٰ، ووالىٰ السُّجود لله شُكْرا؛ وجَهَّزَ خِدْمَته هذه نائبةً عنه فى تقْبِيلِ بَنَان إنْ سَمَّـاه مَوْلىٰ الكَرَم بحرا،فقد سَمَّاه مربِّى الملك برًّا؛ لازالتِ الممـالكُ متْحَفَةً بيُمْنِ مولانا ظاعِنًا ومُقِيما،متَّصفةً بحمده وحمدِ سَلَفِه الكريم حديثًا وقديما؛تاليةً علىٰ مُهِمَّات المُلْكِ بصُحْبة بيتِه الشريف ﴿ وكان فَضْلُ اللهِ عليْكَ عظِيما ﴾ .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى تهنئة بقدوم من سفر :

أدام اللهُ ظِلَّه، ورفَعَ محَـلَّه ، وشكَرَ إنعامَهُ وفضْـلَه ؛ وأعزَّ أنصارَه، وضاعف آقْتدارَه ؛ ولا زال مؤيَّدا فى حَركاتِه، مسَدَّدا فى سائرِفَعَلاتِه ؛ مصحُوبًا بالسـلامة فى المَهامِه والقِفار، مخصوصًا من الله تعالىٰ بالأعوان والأَنْصار .

الملوكُ يُنْهِى بعد تقبيلِ الأرض ، والقيام بمـا يَجب من سُنَنِه والفَرْض ، عِلْمَه بحلُول ركابِه العالى بمَغْناه، واستقرارِ خاطرِه الشريف فى مَحَلِّه ومَثْواه، وجَمْع الشَّمل بالأهل بعد طُول الغَيْبه، وبَعْد القُفُول والأَوْبه، فتضاعف لذٰلكَ فَرَحُه وسُرورُه، وزال عن قَلْبِه قليلُ الهمِّ وكثيرُه ، فاللهُ يمنَحُ المولىٰ أطيبَ المَنَازِل، وأسَرَّ الرَّواحِل، ويجعلُ تجارةَ مَجْدِه رابِحه ، وأوامِرَ دوامِ عزِّه لائِحَـه، حتّٰى تُنْشِد نفسُه الكريمـة قولَ أبى الطيِّب :

أنَا من جَميع النَّاسِ أطْيبُ مَنْزِلًا * وأسَرُّ راحِـلةً وأرْبَحُ مَتْجَـرَا!

لازالتِ الأعُيُن قريرةً برُؤيتِه، وقلوبُ الإخوان قارّةً بمشاهدَتِه، والأوجهُ وسِيمَه، والنِّعم الظاعِنةُ مُقيمه، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالقدوم من السفر

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تُبْنىٰ علىٰ الاْعتراف للمُهَنِّئ بحقِّ تعهُّده، وكرمِ تفَقُّده، وإطْلاعه علىٰ الحالِ فى السَّـفَر ، وما أفضتْ إليـه من السـلامة، والتأسُّف علىٰ ماتقضّىٰ من الأيّام فى مُباعدَته، والتخلُّف عن مُباسَمَتِـه ، وأنه لم يزَلْ يدَّرِع الإدْلاج، ويَقْطَع الفِجاج، رغبةً فى القُدوم إليه، والوفادةِ عليه، وبلِّ الغُلّة برُؤْيته، وترويح النفس بمحاضرته، وما يليقُ بهذا النَّمط من الكلام .

الضـــرب الخامس

(من التهانئ التهنئةُ بالشهور والمواسِم والأعياد)

وهى علىٰ ثمـانية أصـــناف :

الصنف الأوّل ـــ التهنئـــةُ بأوّل العامِ وغُرّة السَّنة .

من كلام المتقدّمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء أبى مسلم محمد بن بحر :

أســعدَ اللهُ ســيِّدى بِعامِه ، والفضل منه وما حَوىٰ من الأعياد والأيَّام الخَطِيرة وسائر شُهوره وأيَّامه، ومتصَرِّف أحواله ، و بمـا يأتى و يكُرُّ عليه من زمَانه، سعادةً تَسُوقُ إليه حظُوظَ الدِّين والدنيا كامله ، وتجمَعُ له فوائدَ الأمَدَيْن تامَّة وافِيَــه، وترتَهِنُ إليــه النِّعَم فلا تزالُ لَدَيْه زائدةً نامِيه ، وبلَّغه بهـا الأمَلْ ، ومدّ له فى البقاء إلىٰ أنْفَس المُهَل .

ولأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ مَوْلاىَ بركةَ الشهر والسنةِ المتجدِّدَيْن، ووهَبَ له فيهما وفيما يتلُوهُما من أيام عُمُره، وأزمان دَهْره ، سعادةً تجمع له أشْتاتَ الحُظُوظ، وتصل لَدَيْه موادَّ المَزِيد، وتُيَسِّر له بُلوغَ الأمـل فى كلِّ ما يُطالع ويُنـازِع ، والأَمْن من كلِّ ما يُراقِبُ ويُحـاذر .

وله فى مثـــله :

عَظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى بركة الشهر والسَّنة، وأعاشَهُ لأمثالها مُدَّةَ آختلافِ الجديدَيْن، وتَجاوُر الفَرْقَدَيْن، ممتَّعا بالنِّعم السابِغــه، والمَواهب المتَرادفه ، والسَّـعادة والغِبْطه، والعزِّ والمسَرَّه .

وله فى معناه :

جدّد اللهُ لسيِّدى فى الأيَّام الحاضرة والمستقْبَله[1] ، والأحوال الراهِنَة والمُتَنقِّــله ؛ حظُوظًا من السَّــعادات ، وأقسامًا من الخَيْرات ؛ لايُحْصٰى عدَدُها ، ولا ينقَضِى مَدَدُها .

وله فى مثـــله :

عَظَّم الله [علىٰ مولاى] بركَةَ الشهر والســنة المَتجدّدين عَلَيْــه ، وعَرَّفه فيهما وفى الأيَّامِ بعدَهما من حادث صُنْعه ، ولطيف كِفَايته ؛ ماتَدُوم فيه السعاده ، وتَعْظُم به المِنّه ، وتحسُن فيه العاقِبَه .

وله فى مثـــله :

عظَّم الله علىٰ مَوْلاىَ بركَةَ هــذا الشهر : المـاضِى [من] أيَّامه وباقيها ، وهــذه السنَةَ ، وجعلها أيمَن سنةٍ حالَتْ عليه وأسعَدَها .

ومنه : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يُهَنِّئُ غُرَّة الأَيَّام ، بغُرَّة الأنَام ؛ وصــدْرَ العام ، بصَدْر الكِرام ؛ بل يُهَنِّئُ الزمن كلَّه نعَمْ وأهلَه بالحَضْرة التى واسَتِ المَعَالِى .

الصنف الثــانى ــ التهنئــةُ بشهر رمضانَ .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحُسَيْن بن سعد :

جمع اللهُ لمولاىَ فى هذا الشهر الشريف شُروطَ آماله وأحكامَ أماليه ، فى حاضِر أمرِه وعاقِبتِه ، وعاجِلِ دُنْيــاه وآخرتِه ؛ وأبْقاه لأمثاله بقاءً لايتناهىٰ أَمَدُه ، فى ظِلِّ عيش يرضاه ويَحْمَدُه .

(١) فى الأصول الماضية تأمل .

وله فى مثـــله :

عرَّف الله سيدى بركةَ هذا الشهر الشريف وأعاشَهُ لأمثاله ، ما كرَّ الجديدان، وآختلف العَصْران، ممتَّعا بسوابغ النِّعم، محروسًا من حَوادث الغِيَر، ومُوَفَّقا فى شَهْره، وأزمان دَهْره، لأزكىٰ الأعمال، وأرضىٰ الأحوال، ومقبُولًا منه مايُؤدِّيه من فَرْضه، ويتنفَّل به قُرْبةً إلىٰ رَبِّه .

وله فى مثـــله :

عرَّفه الله بركةَ إهْلاله، وأبقاه طويلًا لأمثاله، موفَّقا فيه من عمل الخير، ومُراعاةِ الحقِّ، وتأديةِ الفَرْض، والتنفُّل بالبِرِّ، لمـا يُرْضِيه، ويستحقُّ جزيلَ المَثُوبة عليه، ممتَّعا بعده بسَنِيِّ المَواهِب، وجَسِيم الفوائد، مع آتصالِ مُدّة العُمُر، وآجتماع أُمْنِيَّات الأمل .

وله فى مثـــله :

عَرَّف اللهُ مولانا بركةَ هذا الشهر الشريف وأيَّامه، وأعانَك علىٰ صيامه وقِيَامه، ووصـــل لك مايزيدُ من فَضْله وإنعامه، وتابع لك المزيدَ من مَنَائحه وأنْعامه، وختَمَ لك بالسعادة العُظْمىٰ بعد الآنتقال [فى الجاه والرياسة إلىٰ] أبعد المدىٰ، وفى العزِّ والثَّروة إلىٰ أقْصىٰ المُنَىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

جعلَ اللهُ ماأظلَّه من هذا الصيامِ مقرُونًا بأفْضل قَبُول، مُؤْذِنا بإدراك البُغْيِة ونُجْح المأمُول، ووفَّقه فيه وفى سائرِ أيَّامه، ومستأْنِف شُهوره وأعوامِه، لِأشْرَف الأعمال وأفضَلِها، وأزْكىٰ الأفعال وأكملِها، ولا أخْلاه من بِرٍّ مَرْفُوع، ودعاءٍ مسمُوع، وسَعْى مشْكُور، وأمرٍ مَبْرور، إلىٰ أن يَقْطَع فى أجملِ غِبْطةٍ وأتمِّ مسرَّةٍ أمثالَه .

وله فى مثـــله :

عرَّفكَ اللهُ بركةَ هـذا الشهر المعظَّم قَدْره ، المشرَّف ذِكْره، ووفَّقكَ فيـه لصالح الأعمال، وزكِّى الأفعال، وقابَلَ بالقَبُول صِيامَك، وبتعظيم المَثُوبة تهجُّدَك وقِيامَك، ولا أخلاكَ فى سائر ما يَتْبعـهُ من الشُّهور، ويَلِيه من الأزمِنَـةِ والدُّهور، من أجرٍ تَذْخره، وأثرٍ تَشْكُره .

قلت : وممـا كتبتُ به تهنئـةً بالصوم للمَقرّ الأشرفِ الناصرىّ محمدِ بن البارزىّ كاتبِ السرّ الشريف المؤيَّدىّ بالممالك الإسلاميةِ، فى سنة ستَّ عشْرةَ وثمانِمائة نَظْمًا :

أَيَا كاتبَ السِّرِّ الشَّريفِ ومَنْ بِهِ * تَمِيسُ نَواحِى مِصْرَتِيهَا مع الشَّامِ!

ومَنْ جَلَتِ الحُلَّى كتائبُ كُتْبِـه، * ومَنْ نابَ عن وَقْعِ السُّيُوفِ بأقْلامِ!

تَهَنَّ بهذَا الصَّوْمِ والعِيدِ بَعْـدَه، * ومِنْ بَعْدِه بِالعِيد والْعـامِ فالْعامِ!

وتَرْقَ رُقِىَّ الشَّمس فى أَوْجِ سَعْدِها * وتَبْقَ بَقاءَ الدَّهرِ فى فَيْضِ إنْعامِ!

الصنف الثـالث ــ ما يصلُح تهنئةً لكلِّ شهرٍ من سائر الشُّهور .

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم الله بركةَ إهْلاله، وأعاشه لأمْثاله، أطْولَ المُدّة، ممتَّعا بأَدْومِ النِّعمة، ومشَفَّعا(؟) بأفضل الأَمل والأُمْنيَّه .

وله : أسـعد اللهُ سيِّدى بانْصِرامه وإهْلالِ ما بعـده ، وأبقاه مابَقِىَ الزمان ممتَّعا بالعِزِّ والنِّعمه، محروسًا من الآفات المَخُوفة، والحوادث المحْذُوره .

وله : عَظَّم اللهُ علَى سيدى بركةَ الماضِى والمستقْبَلِ من الأيام والشُّهور [والأعوامِ] والدُّهور، ووصلَ له السعادةَ باتِّصالها، وجدّدَ له النِّعمةَ بتجدُّدِها .

وله : عظَّم الله بركةَ ٱنسلاخه ، وإهْلالِ مايتلوه ؛ مُجَدِّدا لك بتجدُّدِه فوائدَ الخيرات، وأقْسامَ البركات؛ تدُوم فيها المُدّه، وتطُولُ بها النِّعمه .

وله : أسعَدَك اللهُ بإهْلاله ، وأعاشك أبدًا لأمْثالِه ؛ ممتَّعا بدَوامِ العِزِّ والنعمه، وٱجتماعِ أسبابِ الرَّخاء وشُروط المحبَّه؛ إنَّه جَوادٌ كريم .

[وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولاَى برَكاتِ هذا الشَّهْر ومايتلُوه، وبلَّغه مايُحاوِله ويَنْحُوه؛ فى مستَأْنَفِ الشُّهور، ومؤتَنَفِ الدُّهور ؛ مُضاعَفًا له العِزُّ والتأْييد، ومَوْصولًا له أصلُ النعمةِ بحُسْنِ المَزيد] (١) .

وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولاَى برَكةَ الشَّهر، وأدامَ له سَلامةَ الدَّهر؛ مَوْفُورا من العِزِّ والسلطان، غَيْرَ مذْعُور بنَوائِبِ الزَّمان .

وله : عظَّم الله علىٰ سيدى برَكةَ الأيَّامِ والشُّهور، والسِّنِينَ والأحْقاب ؛ وجمع له المواهِبَ كامِلَه، والفَوائد فاضِلَه ؛ دِينًا ودُنْيا، وحاضِرةً وعُقْبىٰ .

وله : عظَّم اللهُ عليكَ برَكتَه ، وعَرَّفَكَ يُمْنَه وسَعادتَه ؛ وجدّدَ لك الخَيْرات ، بتَجْدِيد الأوقاتِ والسَّاعات؛ حتّى تحُوزَ منها أسْنىٰ الحُظُوظ وتبلُغَ مما تمَنَّاه أقصىٰ الغايات .

الصنف الرابع — التهنئة بعيد الفطر .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى برَكةَ هذا العيد ، وأعاشَه لأَمْثاله ؛ من الأعْيادِ المَشْهُوده ، والأيَّام الجَدِيده، [فى] أهنإ عيشٍ وأرْغَدِه، وأطْوَلِ مدًى وأبْعَدِه .

(١) الزيادة فى بعض النسخ .

أبو الفرج الببغاء :

أسعدكَ الله بهـذا الفِطْرِ الجَديد ، والعِيد السَّعيد ؛ ووَصَـل أيَّامَك بعدَهُ بأكملِ السَّـعادات ، وأجْمَل البَرَكات ؛ وجعل ما أسلَفْتَه من الدُّعاء مقْبُولا مسْمُوعا ، ومن التَهجُّد زاكِيًا مَرْفوعا ؛ ولا أخلاكَ من نِعمةٍ يحرُسُ الشكْرُ مُدَّتَهـا ، ولا يُخْلِقُ الدَّهْرُ جِدَّتَها .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهابِ الدين محمود الحلبي :

المولىٰ أدامَ الله نِعمَه ، وحرَسَ شِيَمَـه ، هو سيِّدُ الأفاضل ، ورئيسُ الأَمَاثِل ؛ وحَسَنَةُ الزَّمان ، ولَيْث الأقْران ؛ وهو فى الأَنَام ، كالأعيادِ فى الأَيَّام ، فإنَّ الأنامَ ليلٌ والمولىٰ المِصْباح بل الصَّبَاح ، وسائرَ الأيَّام أجسادٌ وسائرَ الأعيادِ هى الأَرْواح ؛ فإذا كان المولىٰ قد زُهِىَ علىٰ أبناءِ جِنْسِه ، ويومُ العِيـد علىٰ غَدِه وأمسه ؛ فقد صار كلٌّ منكما إلىٰ صاحبه يتقَرَّب ، ويلْزَم ويَلْزَب ، وهو أحقُّ الناسِ بأن يُبْهِجَه مَقْدَمُه ، وأن يُهنِّىٰ بيومِه الذى هو مَجْمَعُ السُّرور ومَوْسِمُه .

والخادم يُهَنِّئُ المولىٰ بهذا العيد ، واليومِ السَّعيد ؛ فإنه وافىٰ فى أَوانِ الرَّبِيع وزمانِه ، لِيُبَاهِىَ بغُصْن قَدِّه أغصانَ بَانِه ؛ ويَسْتَنْشِقَ فى صَدَرِه ووِرْدِه ، رائحةَ رَيْحانه ووَرْدِه ؛ ويختالَ فى رِيَاضه وحَدائِقه ، ويُلاحِظَ بَهْجةَ أزْهارِه وشَقائِقه ؛ والعيدُ والرَّبيعُ ضَيفانِ ومكارِمُ المولىٰ جَديرةٌ بإكرام الضيف ، والتمتُّع بالمَلاذِّ فيهما قبلَ رَحِيلهما وقُدُوم حَرِّ الصَّيْف ؛ وأنْ يُحَسِّنَ وجْهَ عِيـده ، بحُلُوله فى مَغْناه ووُجُوده ؛ بمـا يُولِيه لعُفَاته من إنعامِه وجُوده ؛ لازالتِ الأعيادُ تُهَنَّى ببَقائِه ، وألسِـنةُ الأيام تَشْكُر سوابِـغَ نَعْمائه ؛ وتَحْمَدُ جزِيلَ عَطائِه ، وتَنْطِق بوَلائه وثنائه ، أبدًا ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : ومما كتبتُ به مهنئًا للمقرّ الأشرف الناصرىّ محمد بن البارزى صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية فى الدولة المؤيَّدية «شيخ» بعيد الفطر نظمًا، بعد أن سألته حاجةً فقضاها، وأسنىٰ لى الجائزة علىٰ نثرٍ كتبتُه له .

سأَلْتُ نِظامَ المُلْكِ كاتِبَ سِرِّه * إزالَةَ ضَنْك أرهَفَ الدَّهرُ حَدَّه!

فمَنَّ بجاهٍ زَعْزَعَ الأرْضَ وَقْعُه، * وجادَ بمالٍ لا يُرىٰ الفقرُ بعْدَه.

وبالبارِزِىِّ ٱزدانَ وصْفُ مكارِمٍ * فأشْبَهَ فى فَضْلٍ أباه وجَدَّه!

فيَهْنَاهُ صَوْمٌ ثُمَّ عِيدُ مَسَرّةٍ * وطالِعُ إقْبالٍ يُقارِنُ سَعْدَه!

ورَفْعُ دُعاءٍ لا يُغِبُّ تَتابُعًا، * وطِيبُ ثَناءٍ خامَرَ المِسْكُ نَدَّه!

الصنف الخامس — التهنئة بعيد الأضحى .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

كتابى والنحر — نحرَ اللهُ أعداءَ مَولاىَ وحُسَّادَ نعمتِه ، وأمْتَعه بمَوَاهبه عنده ، وبارك لَهُ فى أعيادِه ومتجَدِّد أيّامه ، بركةً تنتَظِم السَّعادات ، وتتضمَّن الخيْرات ؛ متصلةً غيرَ مُنْقطعه ، وراهنةً غيرَ فانيَه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

تَهَنَّ فأيّامُ السُّرورِ أواهِلُ * وكُلُّ مَخُوفٍ عن جَنابِك راحِلُ!

ونَجْمُك من فَوْقِ الكَواكب طالِعٌ، * ونَجْمُ آمرِئٍ يَشْنَا سُمُوَّك آفِلُ!

أَلَا أيُّهــا المَوْلىٰ الَّذِى عَمَّ جُودُه : * فَدَتْكَ العَوالِى والجِيادُ الصَّواهِلُ !
تمتَّعْ بِعِيدِ النَّحْر، وافاكَ خاضِــعًا * يُحَقِّقُ مِنْ دُنْيَــاك ما أنْتَ آمِــلُ !
ودُمْ كابِتَ الأَعْداءِ وآبْقَ مُخَــلَّدًا * علىٰ المــالِ عا ، بالرعيَّـــةِ عادِلُ !
لَقَدْ راقَ مَدْحِى فى مَعَالِيكَ مِثْلَما * صَفَتْ منك أوْصافٌ ورَقَّت شَمائِلُ !

جعلَه اللهُ أبركَ الأعياد وأسْعدَها، وأيْمَنَ الأيَّام وأمْجَدها، وأجْملَ الأوقاتِ وألَذَّها وأرْغَدَها، ولا بَرِحَ مَسْرُورا مستَبْشِرا، مَنْصُورا علىٰ الأعداء مقْتَدِرا، مسْعُودا محمُودا، مُعــانًا بملائكة السماء مَعْضُودا، مُهَنًّا بالسُّعود الجَدِيده، والجُدُود السَّــعِيده، والقُوَّةِ والناصِر، والعُمُر الطويلِ الوافِر :

ولا زالَتِ الأعيــادُ لِبسَكَ بعْــدَه * [فتخْلَع](١) مَخْرُوقًا وتُعْطىٰ مُجَــدَّدا،
فذَا اليومُ فى الأيَّامِ مِثْلُك فى الورىٰ * كما كُنْتَ فِيهم أوْحَدًا كانَ أوْحَدَا !

وأعاده علىٰ المولىٰ فى صِحَّة دائِمه، وسلامةٍ مُلازِمه؛ وأصار عِيدَه مُطِيعا لأوامِرِه كسائر العَبِيد، وعَبِيدَه فى كلِّ يوم من المَسَرَّة ببقائِهِ لها كالعِيد، والأيَّامَ به ضاحِكةَ المَبَاسِم، والأعوامَ جميلةَ المَوَاسم؛ ومتَّعَنا بدَوامِ حَياته، وآستِجْلاء جميلِ صِــفَاته، وآستِحلاءِ مدائِحِه بإنْشادِ عُفَاته؛ وأراهُ نَحْرَ أعادِيه، بين يَدَيْه كأضاحِيه، وأصار الحجَّ إلىٰ بابه غافِرًا سَيِّئاتِ الإفْلاسِ والإعْدام، ومُبِيحًا لُبْسَ المَخِيــطِ من إنعامِه العــامّ؛ ألبسهُ اللهُ من السعادةَ أجملَ حُلَّه، ومنَحه من المكارِم أحسَنَ خَلَّه .

الصنف السادس ـــ التهنئة بعِيد الغَدِير من أعياد الشِّيعة :

وكان لهم به آهتمامٌ فى الدولة الفاطميَّــة بالديار المِصْريَّة . والطريقُ فى التهنئةِ به علىٰ نحو غيره من الأعياد .

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ما يصلح تهنئةً لكلّ عيد .

أبو الفرج الببغاء :

لولا العادةُ المَشْهوره، والسُّنَّةُ المأْثُوره ، بالإفاضةِ فى الُّدعاء ، والمشافهةِ بالتهنئةِ والثَّناء، فى مثلِ هذا اليومِ الشريف قَدْرُه، الرفيع ذِكْرُه، لكان أيَّده الله دُونَ رُؤساء الدَّهْر، وملُوكِ العَصْر يجلُّ عن التهنِئَة : إذ كانتْ سائرُ أيَّامه بما يُودِعُها من أفعال الخير مُعَظَّمه ، وبما يَبُثُّها من المَحَاسِن مُكَرَّمه، فبلَّغه الله أمثالَه محرُوسًا فى نَفْسه ونِعمته، محفُوظا فى سُلْطانه ودَوْلته، مُوفيًا علىٰ أبْعد أمَانيه، مُدْرِكا غايتَها فيما يؤمِّلُه ويَرْتَجِيه .

وله فى مثله :

عرَّفكَ الله يُمْنَ هذاالعيدِ وبركَتَه،وضاعفَ لك إقبالَه وسعادَتَه، وأحْياكَ لأمثاله فى أسبَغِ النِّعم وأكملِها ، وأفسحِ المُدَد وأطْوَلِها ، وأشرفِ الرُّتَب وأرفَعِها ، وأعزِّ المَنازل وأيْفَعها، وحرَسَ مِنْحَتَك من المحذُور، ووَقىٰ نِعمتَك من عَثَرات الدُّهُور .

الصنف السابع — التهنئة بالنَّيْرُوز .

وهو من أجلِّ أعيادِ الفُرْس، علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ أعياد الأمَم ، فى المقالة الأولىٰ . وكان للكُتَّاب به اهتمامٌ فى أوائل الدَّوْلة العبَّاسية بالعِراق، جَرْيا علىٰ ما كان عليه الفُرْس من قَديم الزمان .

وفيه لأبى الحسين بن سعد :

هذا يومٌ شَرَّفَتْه العجم ، ورَعىٰ ذِمَامَه الكَرَم ، وهو من أسلافِ سيِّدى ذَوى النَّباهة، وأخلافه ذَوِى الطَّهارة، بين مُنْشِئٍ رَسْمه ، ومؤدِّى حقِّه ، وكاسٍ له بقَبُول

آنتسابِه إليه جمالًا يبقىٰ علىٰ الأيام، وحالًا يَنْفَق بهـا لدىٰ الأنام؛ فليس أحدٌ أحقّ بالتهنئة [به] ممن سَنَّه آباؤه، وشـيَّدته آلاؤه؛ فصارتْ إلىٰ أوَّلِيَّتــه نِسبتُه، وبكرم سجيته عِصْمتُه.

وفيــه له : هــذا ـ أيد الله سيِّدى ـ يومٌ عظَّمه السَّلَف من العَجَم، وسيِّدى وارِثُ سُــنَّة الكَرَم؛ وللسادةِ علىٰ العَبِيد فى هذا اليوم رَسْم فى الإلطاف، وعليها لهمْ حقٌّ فى القَبُول والإسعاف؛ وقد بعثْتُ بمـا حضَر جارِياً علىٰ سُنَّة الخِدْمه، وعادِلًا عن طريق الحِشْمه؛ ومقتَصِرا علىٰ ما آتَّسعتْ له الحال، وما يُوجِبُــه قَدْرُ سيِّدى من المبالَغة فى الآحتفال، فإنْ رأىٰ أنْ يُشَرِّف عبده بالآحتمال إليه، وإجرائِه مُجْرىٰ الأُنْس عنده، فعل، إن شاء الله تعالىٰ.

وفيه للكرجىّ :

هــذا يومٌ تَسْمُو له العَجَم، ويُسْتَعجَم[1] فى العَرَب؛ تشريفًا له وآعترافًا بفضــله، وآقتداءً بأهله، وأخذا بسُنَّتهم فيه، فليَهْنِ[2] لإحْراز الدولة فىالعِزِّ [منزلا] بحيثُ لا يُرام، ولا يُضَام؛ ولا تَرْقىٰ إليه الأمانِى، ولا يطْمَع فىمساواته المُساوِى؛ وإنَّهم بعد تَصَرُّم الدولة علىٰ حَميــدِ آثارها، وجميلِ الذِّكر فيها؛ أعلامٌ تُضرَب بهم الأمثـال، وتَزْهو بأيَّامهم الأيَّام؛ وآثارُهم تُقْتفىٰ، وأعيادُهم تُنْتظر؛ يُتَأهَّب لها قبْلَ الأوان، ويُعْرَف فيها أثَرُ الزمان؛ وإنَّك منهم فى الذِّرْوة الساميَه، والرُّتْبة العاليه؛ وبمحلٍّ لا عارَ معــه علىٰ حُرَّة فى الخُشُوع لك، والتعلُّق بحبلك. وقد وجَدتُ الأتباعَ عندَ ساداتِها فى مثل هــذا اليومِ علىٰ عادةٍ فى الإلطاف جسَّمَتْها، وسيَّرتْ بهـا علىٰ أقوام منحَتْهم ظُهورَ الدَّعْوىٰ فيها، فأقبــل قائلهم يقول : « لو كان بابُ الإهداء مفْتُوحا غيرَ مسْدُود،

---

(١) مراده أن العرب آتبعت العجم فى تعظيمه تأمل. (٢) قد بلغ التحريف من هذا مبلغه حتى لا يكاد يفهم والمراد أن دولة الفرس أحرزت من العز منزلا بحيث إلخ تأمل.

ومُباحًا غير ممنوع ؛ لأتحفتُ بالغُرَاب الأعْصَم ، والكِبْريت الأحمر ، والأبْلَق العَقُوق ، وبَيْض الأَنُوق » . وقد بعثتُ بهدِيَّة لا تُرَدُّ (يعنى الدعاء) .

وفيه : من كان مَحَلُّك من العِزّ ، ونَبَاهةِ الذِّكْر ، وآرتفاعِ الدَّرَجه ، وعُلُوّ المَنْزِله ؛ وسَعة البَلَد ، وبُعْد الأمَد ؛ لم يتَقرّبْ متَحلٍّ بالعلم والأدَبِ إليه فى يومٍ جديدٍ إلّا بصالح الدُّعاء ، وحُسْن الثناء .

وفيه : لو أَخَّرْنا هذا آنتظارًا لوُجود ماتستَحِقُّه ، لآنقضَتْ أيّامُنا ، بل أعمارُنا ، قبل أنْ نقضِىَ لك حَقًّا ، أو نُؤَدِّىَ عن أنفُسِنا فرضًا : لآرتفاعِ قَدْرك عمّا تحويه أيدينا ، وعُلُوّ حالك عما تبْلُغه آمالُنا ؛ وقد آقتديتُ بسُنَّة الخَدَم والأوْلياءِ فى الأعياد ، وأوضَحْتُ العُذْر فى ترك الآجتهاد ؛ وبعثْتُ فى هذا اليوم ، الذى أسألُ اللهَ أن يُعيده عليك ألْفَ عام ، فى نَماء من العِز ، وعُلُوّ من القَدْر ، وتمامٍ من السُّرور ، ومزيدٍ من النِّعمة ... ...

الصنف الثامن — التهنئة بالمِهْرجان .

وهو أحدُ أعيادِ الفُرْس ، على ماتقدّم ذكره فى المقالة الأولى ، فى الكلام على أعياد الأُمم . وكان للكُتَّاب من الآحتفالِ بالتهنئةِ به فى أوائل الدولة العبَّاسيَّة مالهم بالنَّيْروز .

فيه — لأبى الحسين بن سعد :

لسيِّدى علىّ فى الأعياد المشْهُورة ، والأيّام الجَدِيدة ؛ عادةٌ آختَزَلَنِى عن بَعْضها فى هذا الفصل ، كَلالُ الطَّبْع عن البَعْض ، ووقُوعُ الخطر (؟) بعرضه من الثناء نَظْمًا ونَثْرًا ، ومن الإهداء عرضا وبرا ؛ دعاءٌ تزيد قيمتُه على الأعلاقِ الثَّمينه ، وموقِعُه على الذخائر النَّفيسه ، ولُطْفُه على التُّحَف البديعه ؛ فأسعدَ اللهُ سيدى بهذا اليوم سعادةً تُقِيم ، ولا تَرِيم ؛ وتَزِيد ، ولا تَبِيد ؛ وتتوطّن ، ولا تَظْعَن ؛ وتجمع حظُوظًا من

الخيرات، وفوائدَ من البركات؛ يتَّصِلُ سندُها، ولا ينتهِى أمَدُها؛ وأبقاه فى أسبغ عِزّ وأرفع رُتْبــة وأرغَدِ عِيشة، مكنوفًا بحراسةٍ تَقِيه [وآله] عَوادِىَ الزمان، وتصرِفُ عنهما طوارِقَ الحَدَثان؛ ما طَرد الليلُ النَّهار، وطلَع نَجْم وغَار؛ وعلىٰ ذلك ـ أيد الله سيدى ـ فإنَّ الحِرص علىٰ إقامة الرَّسم والتَطَيُّر من إضاعةِ الحقِّ بعثانِى علىٰ مُراجعةِ القَرِيحه، وٱستِكْداد الرَّوِيّه؛ فأسعفا بمـا قَبِلتْه الضرورة؛ ولم أُطِعْ فى إهدائه سُلطانَ الحِشْمه؛ وفضلُ سـيدى يتَّسِع لقَبُول الميْسُور، وتحسينِ القَبِيح؛ والله المعينُ علىٰ تأدية حقِّه، والقيامِ بواجب فرْضِه .

وله فيه أيضا، إلىٰ مَن منع أن تُهْدىٰ إليه فيه هدية .

لو كنتَ فتحْتَ باب الإلطاف، ونَهجْتَ إليــه سَبِيلا ؛ لتنازعَ أوْلياؤُك قصَبَ السَّبْق وتنافَسُوا فى السَّرَف؛ فبان للمجتهِد فضْلُه ، وٱلتمس العذْرَ فى التقصير ملتَمِسُه؛ وعمَّت المنحةُ كافَّتهم بمـا يظْهَر من مَوَاقعهم، وينكَشِف من أحوالهم؛ لٰكنَّك حظَرْت ذٰلك حَظْرا ٱستوىٰ فيــه الفريقان فى الحُكْم ، وٱمتـدّ فيه علىٰ ذَوِى الخَلَل السِّــتْر؛ ولم تحظُر الدُّعاء ، إذ حظَرْتَ الإهداء ؛ فأنا أُهْـدِيه ضَرورةً وٱختِيارا ، وإعلانًا وإسْرَارا ؛ فأسعَدَكَ الله بهذا العيد الجديد ، الذى زادَ بك فى قَدْره ، وشَرَّفه بأن جعلك من أرْبابه ووُلاة أَمْرِه .

أبو الفَرَج البَبَّغاء :

هذا اليومُ من غُرَر الدُّهور المشهُوره، وفضائِل الأزْمنَـة المذْكُوره؛ معَظَّمٌ فى العَهْد الكِسْرَوِىّ ، مستظْرَفٌ فى العَصْر العَرَبِىّ ؛ باعثٌ علىٰ عِمـارة المَوَدّات ، مخصوص بالاْنْبِساط فى الملاطَفَات، ولستُ أستَـزِيدُه ـ أيَّده الله ـ من بِرٍّ يُولِيه، ولا تَطَوُّلٍ إلىّ يُسْـدِيه ؛ غيْرَ إدخالى فى جُمْلة من بَسطَتْه الأَنَســه ، وثَقَّفَتْه المحبَّه؛

وتقرَّبتُ منه بوكيد الخِدْمه، فى قَبُول ما إن شَرَّف بقَبُوله، كان كثيرًا مع قِلَّته، جليلًا مع نَزَارته؛ فإنْ رأىٰ أنْ يقوِّىَ منه ثِقَتِى، ويُقابِلَ بقَبُولٍ ما أنفذته رَغْبتِى، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثله :

قد أطعْتُ فى الآنْبِساط إليكَ دَواعِىَ الثِّقه، وسلَكْتُ فى التَحرُّم بك سُبُل الأَنَسه، وتوصَّلْت بملاطَفتِك إلىٰ حَسْم موادِّ الحِشْمه؛ فاستشْهَدْتُ علىٰ ثِقتى بك فيما أنفَذْته بمُفارقَة الحَفْله(١)، وكُلَف المكاثره؛ فإنْ رأيتَ أن تَكِلَنِى فى تَقَبُّله إلىٰ سعة أخْلاقك، وتَسْلُكَ فى ذٰلك أخصَرَ طريقٍ إلىٰ ما أخْطُبُه من مَوَدّتك، وأُزاحِمُ عليه فى إخائك؛ فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثله :

هذا اليومُ - أيَّد اللهُ سيدى - من أعياد المُرُوّه، ومَوَاسِم الفُتُوَّه، وأوطانِ السرور، ومَحاسِن الأزْمِنة والدُّهُور؛ بَلَّغه [اللهُ] أمثالَهُ فى أنْضَر عيشٍ وأسبغ سَلَامه، وأَبْسَطِ قُدْره، وأكمل مَسَرَّه؛ وقد توثَّبْت إلىٰ الآقتداءِ فيه بأدَبِه، والأخْذِ بمعرفة فُروضِه بمَذْهَبِه؛ وأطعْتُ فى الآنبساطِ إليه دَواعِىَ الثِّقة، وأنفَذْت ما آعتمَدْتُ فى قَبُوله علىٰ مكانى منه، عائذًا بالتقليل من كُلَف المُكاثَره، ومستْثقل الكُلفه؛ فإن رأىٰ أن يأتِىَ فيما آلتمسته ما يُناسِبُ شَرَفَ طبعه، وسَعَة أخلاقه؛ فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثله :

لو كانت المُلاطَفَات بحسَبِ الرُّتَب وقَدْر المَنازِل، لما آنبَسطتْ قُدرةٌ ولا آتَّسع إمكانٌ لِمَا يستَحِقُّه نُبْلُ محلِّه، وواجباتُ رِياسته؛ ولكُنْتُ من بين خَدَمه ضعيفَ المُنَّة عن خِدْمته فى هذا اليومِ السعيد؛ بلَّغه اللهُ أمثالَه فى أفسح أجَل، وأنجح أمَل،

(١) كذا فى الأصل ولعله «الكلفة» .

بما يَخْدُمُهُ به ذَوُو الخِدمات الوكيدةِ عنده، المَكِينةِ لديْه؛ غير أنِّى أثِقُ منه ـ أيده الله ـ بحَمْل قليلى علىٰ عِلمْه بإخلاصِى فى ولَائه، وآنتسابِى إلىٰ جُمْلته، وآختِلاطِى بأنْسابه؛ فإنْ رأىٰ أن يُجرِيَنى فى قَبُول ذلك علىٰ سُـنَّة أمثاله من ذَوِى الجَلَالة، عند أمثالى من الأولياءِ والحاشيةِ، فعل .

وله فى مثـــله :

لو كانتِ الهَدايَا لا تُتَقَبَّل مالم تُناسِبْ فى نَفَاسة القَدْر، وجَلَالة الذكر، مَحَلَّ من يُتقَرَّبُ بها إليه، ومنزلةَ من أهداها إليه عليْه، لَـمَا سمتْ هِمَّة، ولا آتَّسعتْ قُدْرة، لِـمَا يستَحِقُّه ـ أيده الله ـ بأيْسَرِ واجِباته، وأصغَرِ مفْتَرَضاته، غير أنَّ الأَنَسةَ بتَفَضُّــله، والآعتدادَ بسالف تَطَوُّله، والتحقُّق بخِدْمته، والآنتسابَ إلىٰ جُمْلتــه، بَسَطَنى إلىٰ إنفاذ ما إن شَرَّفنى بقَبُوله كان مع قِلَّتــه كثيرا، ومع نَزَارتِه جليلًا؛ فإنْ رأىٰ أن يقوِّى بذلك منه ثِقَتِى، ويحسِمَ مادَّةَ آحتشامى، فعل .

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكتبُ والرِّقاع مضمُونُها الهَناءُ بالمَوْسِم الجديد، والدعاء للمهنإ فيه بتَمَلِّيه . قال : وهذا المعنىٰ مُفَاوَض بين المهنِّى والمهنَّى، وينبغى أن تكون أجوبَتُها مشتقَّةً منها . ثم قال : وقد يتصَرَّف الكُتَّاب فيها إذا كاتبوا الرُّؤساء تصَرُّفا يخرج عن هذا الحكم .

وهـــذه أمثلة من ذلك :

أبو الفرج الببغاء :

سَمِـع الله دُعاءَك، وبَدَأ فى تقبُّل المسألة بِك، وأجْزل من أقْسامِه حظَّك، وبلَّغك أمثـالَه فى أفسح مُدَد البقاء، وزاد فيما خوَّلكَ من المواهب والنَّعْماء؛ ولا أخْلانِى من بِرِّك، وأنهضَنِى بواجِبَاتِك .

وله فى مثـــله :

كُلُّ يوم أسعَدُ فيه بمشاهَدَتِك ، وأقطَعُه فى ظلِّ مودّتِك ، حقيقٌ بالإِحْماد ، مُوف علىٰ محاسن الأعياد ؛ فسمِعَ اللهُ دُعاءَك ، وأطال ماشئْتَ البَقاء بَقاءَك ؛ وجعل سائرَ أيّامِك مقرونةً بالسّعادات ، موصولَةً بتَناصُر البَركات .

من زهر الربيع :

يخدُم المجلِسَ العالىَ جعــل الله قَدْره علىٰ الأقدار سامِياً ، وجزِيلَ نَوَاله علىٰ مَنْ هامَ به من العُفَاة هامِياً ؛ ونصَره نَصْرا عزِيزا ، وأســكنه من حِراسَتِه حِصْنا حَصِينا وحِرْزا حرِيزا ؛ ولا زالتِ الأيّام حاليــةَ الجِيدِ بوُجُوده ، والأيْدى تَهَشُّ إلىٰ تنَــاوُل أياديه وَجُودِه ؛ وأخبارُ المَكارمِ عنه مَرْوِيَّة وإليــه معْزوّه ؛ وآياتُ فضله وفضائله بكلِّ لسانٍ متْلُوّه .

ويُنْهِى إلىٰ علمه وُرُودَ مشرِّفته التى حلَّتِ الأسمــاعَ عند ماحَلَّت ، وسَمَتْ عن الرِّياض لَمَّــا جُلِّيَتْ عَروُس فضلها وجَلَّتْ ؛ وزهَتْ علىٰ زُهورِها ، برَقْمِ سُطُورها ؛ وطِيب عَرْفها ونَشْرِها ، بمــا فاحَ من طَيِّها عِنْد نَشْرها ؛ وفائِق حُسْنها وبَهْجَتها ، برائق بَراعةِ عبارَتِها ؛ ومعامَلَتَها بمــا يجِبُ من فُروض إكرامها والسُّنَن ، والمشْيِ فى تبجِيلها علىٰ الطريقِ المألُوفِ من مُوالاته والسَّنَن ، وعِلْمَه بمــا أشار إليه من الهَنَاء بالعيد ، واليْومِ السعيد ؛ وقد تحقَّق بذٰلك إحسانَه الذى ما برِح متَحقِّقا بجميــله وجزِيلِه ، وشاكِرًا لكثيرِه وقليلِه ؛ وحصلَتْ له البُشرىٰ ، والمَسرّةُ الكُبْرىٰ ؛ ليس للعِيد بمُفْرَدِه ، ولا لهٰذا الهناءِ بمجرَّدِه ؛ بل لبقاءِ المَوْلىٰ ودَوامِ ســعادَتِه ، وتخليدِ سيادَتِه ؛ فإنَّه لكلِّ إنسانٍ عينٌ ولكلِّ عين إنْسان ، وهو رُوحٌ والأيّام والأنَامُ جُثْمان ؛ فالملوكُ ببقائه كلَّ

يومٍ يتجدَّدُ له عيدٌ جديد ، ويتضاعَفُ له جَدٌّ سَعِيد ؛ حرَسَ اللهُ شرَفَه الرفيعَ من الأذىٰ ، وأراه فى عَيْنِ أعادِيه جِذْعا ناتئًا وسلَّم لحظَه المحروسَ من القَذىٰ ؛ وأصار أيَّامَه كلَّها أيامَ هَناء ، وبِدايَةَ سعادتِهِ بغير حدٍّ وانتهاء .

الضرب السادس

(التهنئة بالزواج والتسرّى)

من كلام المتقدّمين :

أبو الفرج الببغاء :

وصلَ اللهُ هذا الاتِّصال السعيد ، والعَقْد الحَميد ؛ بأحمدِ العَواقِب ، وأجملِ المِنَح والمَواهِب ؛ وجعل شَمْلَ مَسرَّتك به ملتئِما ، وسبَبَ أُنْسِك بإقباله منتظِما ؛ وعرَّفك به تعجُّلَ البركات ، وتناصُرَ الخَيْرات ؛ ولا أخلاكَ فيه من التَّهانِى بنُجَباء الأوْلاد ، وكبَتَ بكَثْرة عدَدِك سائِرَ الحُسَّاد ؛ وهنأنِى النعمةَ الجليلةَ بإخائك ، وعضَّدنِى وسائرَ إخوانِك ببَقائك .

وله فى مثله :

قرنَ الله بالخيرةِ ما عقَدْتَ ، وبالسعادةِ ماجَدَّدْت ، وبجميلِ العاقبةِ ما أفدْت ، وعرّفك برَكاتِ هذا الاتِّصال ، ولاأخلاكَ فيه من مَوَادِّ السعادةِ والإقبال ؛ وعضَّدك بالبَرَرة من عَقِبك ، والسادة من ذُرِّيَّتك .

وله فى مثله :

إنِّى وإن كنتُ ملتَحِفا بلُحف مودَّتك ، ومتمسِّكا بعِصَم أُخُوَّتك ؛ أَوْلىٰ بالتهنئة بما يَحْدُث لك من وُرودِ نِعْمه ، واتصالِ مَوْهِبه ؛ فإنِّى ماأجِدُ فرضَ الدعاءِ لك

ساقِطا، ولا واجِبَ الشكر لله تعالىٰ علىٰ ما أوْلانِى فيك زائِلا ؛ فعرَّفك اللهُ بركةَ هذا الاّتصالِ الحميد، والاّقترانِ السَّعيد؛ وجعله للسُّرور مُكَثِّرا، وباليمن مبَشِّرا؛ وأحياكَ للتهانى بمثلِه فى السادةِ من وَلَدك، والنُّجَباء من ذرّيَّتك .

وله فى مثـــله :

وصل اللهُ هذا الاّتصالَ المَيْمُون بأرْجَح البركات وأفضَلِها، وأنْجَح الطَّلِبات وأكمَلِها ؛ وأحمَدَ بدْأَه وعُقْباه، وبلَّغك الآمالَ فى سائِرِ ما تَهْواه ؛ وأحياكَ للتَّهـانِى بأمثاله فى البَرَرة من وَلَدك، والنُّجباء من عَقِبك .

من كلام المتأخريـــن :

للشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

جعلَ الله الخِيرَةَ له فيما يَذَرُه ويأْتِيه، والنجاحَ مقْروناً بما يُعِيده من الأوامر ويُبْديه، والألســنةَ شاكرةً مايُولِيه من الإنعامِ ويُسْدِيه . صدرَتْ هــذه الخدمةُ معْرِبةً عن ثناءٍ تأرَّج عَرْفُه، وولاءٍ أعجزَ الألسِنةَ شرْحُه ووَصْفُه ؛ وتهنئةٍ بهذه الوُصْلة المباركةِ جعلهـا الله للاّتصال بالســعادةِ سَبَبا، ومحصِّــلةً من الخيراتِ مَراما وافِرًا وأرَبا ؛ وعَرَّفه بركةَ هــذا العُرْس الذى أصبحَ الخيرُ بفِنائه مُعَرِّسا، ونُورُ الشمسِ من ضياء بهجَتِه مقتَبِسا ؛ فنحمدُ اللهَ علىٰ هذه الوُصْلة سِرًّا وجَهْرا، ونشكُره أنْ جعــلَ بينه وبينَ السَّعْد نَسَــبا وصِهْرا ؛ منحَ اللهُ المولىٰ الرِّفاءَ والبَنِين، والعُمُر الذى يُفْنِى الأيامَ والسِّــنين، ورَزَقه إسعافاً دائمًــا وإسْعادا، وأراه أولادَ أولاده آباءً بل أجْدادًا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالزَّواج والتسرّى

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجب أن تكون شكرا للمهنِّى علىٰ العِناية والاهتمام، و[مشتملة علىٰ] الإبانة عن موْقِع دعائه من التبرُّك والتيمُّن به ، إلا أن تكون البِدايةُ بمعنًى يخرُج عما هذا جوابُه، فينبغى أن يُجابَ عنه بمـا يقتضى الإجابةَ عن ذلٰك .

الضـــــرب السابع

(من التَّهانِى التهنئةُ بالأولاد، وهو علىٰ ثلاثة أصناف)

الصنف الأوّل ــ التهنئـــةُ بالبنيـــن .

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

إنّه ليس من نِعَم الله وفَوائدِ قِسَـمه و إن حسُنَ موقِعُها، ولَطُف محلُّها، نعمـةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الوَلَد، لنَمائِها فى العَدَد، و زيادتِها فى قُوّة العَضُـد ؛ وما يُتَعَجَّل من عظيم بَهْجتِها، ويُرْجىٰ من باقِى ذِكْرها فى الخُلُوف والأعقـاب، ولا حق بركتِها فى الدعاء والاستِغْفار .

ومنـه : إنّه ليس من النِّعَم نعمةٌ تُشْبِه النعمةَ فى الولد، لزيادتِها فى قُوة العَضُد، وحُسْن موقعها فى الخَلَف والعَقِب ؛ واتصلَ بى خبرُ مولودٍ فسَرَّنى ماوصـلَ اللهُ به من العارفةِ إليك، وشَرِكْتُك فى جميل المَوْهِبَة فيه شَرِكَةَ مَنْ له مالَكَ وعليه ماعلَيْك؛ وسألتُ اللهَ أن يُوزِعَك شُكْرَ النِّعمة و يُؤْنِسَ بهذا المولُود رَبْعك، ويُكَثِّر به عدَدَك؛ ويَعظِّم بركتَه ويُمْنَ طائره علَيْـك، ويَزِيدَ به فى النعمـة كذلك، ويفْعَل اللهُ ذلٰك، بمنِّه وطَوْله .

وفيه لابى الحسين بن سعد إلى أبى مُسْلِم بن بحر يهنِّئه بابنٍ حدَثَ له :

فأمَّا ماجدّد اللهُ من النعمة فى القادم والموهوبِ لك وَلَدا وأُنْسا، ولنا سندًا وذُخْرا، فقد جلَّ قدرُ هذه المَوْهِبَة عن أن يُحاط لها بوَصْف، أو يُوفىٰ لها بشُكْر.

وفيه لعلى بن خلف :

ويُنْهِى أنه ٱتَّصل بالمملوك بُزُوغُ نَجْمِ سعدٍ فى مَشارِق إقْباله، مُؤْذِنٍ باتِّساق سُمُوّه وجَلَاله؛ فأحدَثَ من الجَلَال والٱستبشار بمَقْدَمه، والتبرُّك والتيمُّن بقدمه، ماتلألأَتْ علىٰ المملوك أنوارُه، وحسُنَتْ عنده آثارُه؛ وسألتُ اللهَ تعالىٰ راغباً إليه فى أنْ يُعرِّفَه سعادةَ مَوْلِده، ويُمْنَ مَوْفِدِه، ويجعلَه شادّا لعَضُده، ومُوريا لزَنْده، ويَشْفَعه والسادةَ السابقين، بنُجباءَ مُتلاحِقين، يتبلَّجُون فى نِطَاق سعادتِه، ويُتَوسَّمُون فى آفاق سِيادتِه؛ ويَصُونَ سِلْكَهم من الٱنفصام، وشَمْلَهم من الٱنْهِدَام؛ ويُبقِيَهم غُرَرا فى وُجُوه الأيَّام، وأقمارا فى صَفَحات الظَّلام؛ بمنِّه وفَضْله، إن شاء الله تعالىٰ.

وفيه له : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يشْكُر اللهَ تعالىٰ علىٰ ما أنزلَهُ عِنْد مَوْلانا من عَوَارِفه، وٱختصَّه به من لطائِفِه؛ شُكْرَ مَنْ شارَكَه فى النعمة المُسْبَغَة عليه، وٱنتهىٰ إلىَّ خبَرُ السَّنَد المتجدّد لمَوْلانا، فطار المملوكُ بخَوَافِى السُّرور ومَقَادِمه، وأخذَ من الٱبْتِهاج بأَوْفىٰ قِسَمه؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أنْ يُبارِكَ له فى عطِيَّته، ويُرْدِفَه بزيادته؛ ويُوفِّر عدَدَه، ويشُدَّ بصالح الوَلَد عَضُده؛ ويُجْنِيَه من هذا القادِم ثِمارَ المَسَرّه، ويُرِيَ عينَه منه أقرَّ قُرّه؛ ويَشْفَع المِنْحة فى مَوْهِبَته بإطالة مُدّته.

وفيه : ويُنْهِى أنَّ أفضلَ النِّعم مَوْقِعا، وأشرفَها خَطَرا ومَوْضِعا؛ نِعمةُ اللهِ تعالىٰ فى الولد : لزيادتها فى العَدَد وقُوّة العَضُد؛ وما يُتَعَجَّل من عِظَم جَمَالها وزينَتِها، ويُرْجىٰ من حُسْن مآلها وعاقِبَتها؛ فى حفْظ النَّسب والأصْل، وحُسْن الخِلَافةِ علىٰ

الأهل، وجميلِ الذِّكْرِ والثَّناء، ومتقَبَّلِ الاْستِغْفارِ والدُّعَاء، وقد اْتصل بالمملوكِ بُزُوغُ هلال سمـاءِ المَجْد، ومتعلَّق الإقبال والسَّـعْد، فأشرقَتِ الأيامُ بإشْراقه، ووَثِقَتِ الآمالُ باجتلائِه واْتِّساقه، فقـام المملوكُ عن مولانا بشُكْرِ هــذه النعمة المتجدِّده، والمَوْهِبة الراهنة الخالدَه، وهنَّأْتُ نفْسِي بها، وأخذت بحظِّي منها، والله تعالىٰ يعرِّفُه يُمْنَ المولودِ من أطهرِ والدة وأطيبِ والد، ويُعمِّر به منْزِله، ويُؤْنس ببقائه رَحْلَه، ويبَلِّغ محبِّيه، من الآمال فيه، مابَلَّغهم فى المـاجد أَبِيه، إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه : ويُنْهِى أنَّ نِعمَ الله تعالىٰ وإن كانتْ علىٰ مولانا متظاهِره، ولديه مُتناصِرَه، فقد كان المملوك يرغَبُ إلىٰ الله تعالىٰ فى أن يُجمِّل الأيامَ من نَسْـله، بمَنْ يحفَظُ عليها شرفَ أَصْلِه، ويَخْلُفُه بعد العُمُر الطويل فى نُبْله وكَرَم فِعْله، ولَمَّـا اْتَّصـل بالمملوك نبأُ هــذا الهلال البازغ فى سَمَـائه، المُقِرّ لعُيون أوْليـائِه، المخَيِّب لظُنُون أعدائه، حَمِدتُ الله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبَته، وسألتُه إقرار نِعْمته، وأن يُعرِّف مولانا بركةَ قَدمه، ويُمْن مَقْدَمه، ويوفِّر حظَّه من زيادَتِه، وسعادةِ وِفَادته، وأن يجعلَه بَرًّا تقيًّا، مباركًا رَضِيًّا، ويُفَسِّح فى أجلِه، ويُبَلِّغه فيه أملَه، إن شاء الله تعالىٰ .

من كلام المتأخريـــن :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

هُنِّئْتَ بالإسْـعافِ والإسْعادِ * ونَفَـاذِ أمْـرٍ فى العِــدَا بنَفَادِ!

وبَقِيتَ ما بقِيَ الزمانُ مُهَنَّأً * ووُقِيتَ شَرَّ شَمَـاتةِ الحُسَّـاد!

يا مالِكَ الرِّقِّ الّذِى أضحَىٰ لنـا * من جُودِه الأطْواقُ فى الأجْياد!

خُلِّدتَ فى عَيْش هَنِيٍّ أخضَرٍ * يَسْطُو ببِيضٍ ظُبًا وسُمْرِ صِعَاد،

حَتّىٰ يخاطبَك الزمانُ مُبَشِّرا : * مُتِّعتَ بالإخْوانِ والأوْلاد!

جدّدَ اللهُ فى كلِّ يوم له مَسَرّةً وبُشْرىٰ ، وأطابَ لعُرْفه عَرْفا ونَشْرا ؛ وشَدّ له بولده السعيدِ الطلعةِ أَزْرا وأَسْرا ، وسَرّىٰ به الهُمُومَ عن القلوب وأصارَهَا لديْه أَسْرىٰ ، ورفَع درجَتَه إلىٰ سماء المَعالى ليُقال : سُبْحانَ الذى بعَبْدِه أَسْرىٰ .

المملوك يَخْدُم المولىٰ ويهَنِّيه ويشْكُره ، ويُطْلِعه علىٰ ماحصل له من الاِبْتهاج للسبَبِ الذى يُنْهِيه ويذْكُره ؛ وهو أنه ٱتّصل به قُدومُ المسافِر بل إسفارُ البَدْر ، وظهورُ مَيْمُونِ الغرّة الذى جاء لأهله بأمانٍ من صُروف الدَّهْرِ ؛ وهو الولدُ العزيز الموَفَّق النَّجِيب ، فلان ، أبقاه اللهُ تعالىٰ ليَحْيا مشكُورًا محمُودا ، منْصُورا بسَيْف مجْدِه وسِنَان سعدِه مَسْعُودا ؛ وأدام عِزَّه وعُلاه ، وأعلىٰ نَجْمه وخلَّد شرَفَه وبَهَاه ، وضاعف سَناءَه وسَناه ؛ وأرانا منه ماأرانَا من السعادة فى أبِيه ، فسُرَّ وٱبتَهج بهذه النعمةِ غايةَ السُّرور والاِبْتهاج ، وٱتَّضح له فى شُكْرِ إحسانِ المولىٰ وحُسْن ولدِه كلُّ طريقٍ ومِنْهاج ؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُطَوِّل له عُمُرا ، ويجعلَه لإسعادِ والدِه وإسعافِه ذُخْرا ، لِيَرْتَعا فى رِياض الدَّعَة فى صِحَّة وسلامه ، ويَحْعلا فى فِناء العُلا لهما دارَ إقامه ؛ ويبْلُغا من السعادة درجةً لا تَرِيم عاليةً ولا تُرام ، وتَخْضعَ لهما الليالِى والأيَّام ؛ ويرشُقاهما بِسِهام الصُّروف ويَطْعَناهما بأسنَّتِها ، ويَفْهما دعاءَ الأيام لهما من صدورِها ويسْمَعاه من ألسِنَتِها ؛ مخاطِبةً لأبيه ، ومنشدةً لسائرِ أهلِه ومحبِّيه :

مَدَّ لكَ اللهُ الحياةَ مَدّا ، * حتّىٰ ترىٰ نَجْلكَ هذا جَدّا

الصنف الثانى — التهنئةُ بالبَنَات .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

النِّعمةُ نِعْمتان : إحداهُما تُعجِّل الأُنْس ، والأُخْرىٰ تدّخِر الأجر ؛ وعلىٰ حَسَب

ماتُتَلَقّى به من الشُّكر على ظاهر المحبوب، والتّسليم فيما يَجْرِى مَجْرَى بعضِ المكْرُوه؛ يكون المتاعُ عاجِلا، والثوابُ آجِلا ؛ وما قَدَّمتُ القولَ [إلّا] لِمَا ظننته يَعْرض لك من الوُجُوم فى هذه المَوْهِبَة، فى المولُودةِ التى أرجُو أن يعظِّم اللهُ بركتها، ويجعلها أيْمَنَ مولُودٍ فى عصرها، ودالَّةً على سعادةِ أبيها وجَدِّها؛ و[لَئِنْ] كان فى الطبع حُبُّ الذُّكور والشَّغفُ بالبَنِين، فإنَّ البنينَ من البَنَات، وهُنَّ باليُمْن معْرُوفات؛ وبالبَرَكات مَوْصُوفات، وبالذُّكور فى أثَرِهنَّ مُبَشِّرات؛ فهَنأك اللهُ النعمةَ فيها تهْنِئةً لاتنْقضى سعادتُها، ولا يعترِضُ النقصُ والتقدير(١) شيئًا منها؛ وأبقى هذه الصبِيَّةَ ممتَّعا أبُوها بها، ومُنْشأً له الحظُّ من حَدَاثتها؛ وبلَّغها أفضلَ مَبالِغ الصالحاتِ القانِتات من أُمَّهاتها؛ وجعلَ فى موْلِدها أصدقَ دليل على طُول عُمُر أبيها وسَعادة جَدِّه، وتضاعُف نِعَم الله عِنْده؛ إنه لطيفٌ جَوَاد .

أبو مسلم محمد بن بحر :

مَرْحبًا بِبِكْر النِّساء، وبِكْر الأوْلاد، وعَقِيلة الخِباء، والمأمُولةِ للبركة، والمشْهورةِ باليُمْن؛ وقد جرَّبناه فوجدْناه معْهُودًا مسْعودا؛ والله يعرِّفُك أضعافَ ماعَرَّف مَنْ قَبْلك، ويُبارِكُ لك فيما رزَقَك؛ ويُثَنِّى لك بأخٍ للولودةِ ويجعَلُه رديفَها، وفى الخير قرينَها وشريكَها .

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنَّ المملوكَ آتَّصل به آرْتِماضُ(٢) مولانا بمَقْدَم الكريمةِ الوافِده، بطالعِ السعادةِ المتجدِّدَه؛ فعجِبَ المملوكُ من وُقُوع ذلك من مثل مَولانا مع كمال نُبْله،

(١) المراد به التضييق انظر القاموس .

(٢) يريد قلقه وعدم آنبساطه .

وشَرَف عَقْله وعلمه ؛ فإنَّ الله تعالىٰ جلَّ ٱسْمُه يقول : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وإن ما جدّده الله تعالىٰ من مَواهِبه جدِيرٌ أن يُتَلقّى بالسُّرور والفَرَح، لا بالاستياءِ والترَح؛ لاسِيَّما والذَّكَرُ إنما يتفضَّل علىٰ الأُنْثىٰ بَنجَابتِه، لا بحِليته وصُورته ؛ وقد يَقَع فى الإناثِ مَنْ هو أشرَفُ من الذكور طَبْعا ، وأجزَلُ عائدةً ونَفْعا؛ وقد رُوِى أنَّ رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : " إذَا رُزِقَ العَبْدُ الأُنْثىٰ نادىٰ مُنادٍ من السماء : ياأهْلَ الدار أبْشِروا بالرِّزْق ؛ وإذا رُزِقَ ذَكَرًا نادىٰ منادٍ من السماء : ياأهل الدار أبْشِرُوا بالعِزّ" فليستقبل مولانا الرِّزْقَ بالشُّكر فإنَّ العِزَّ يَتْبَعه، ولا يعارِضُ اللهَ تعالىٰ فى إرادتِه ؛ ولا يستَقِلُّ شيئا من هِبَته ؛ والله تعالىٰ يُعرِّفه يُمْنَ عُهُودها، وسعادةَ قُدُومها؛ وأن يَسُرَّه بعدها بإخوةٍ متَتَابعين متَلاحقين ؛ يؤيِّدُون أمْرَه، ويُحيُون بعد العُمُر الأطولِ ذِكْرَه .

أبو الفرج الببغاء :

لو كان الإنسانُ متصرِّفًا فى أمره بإرادته ، قادِرًا علىٰ إدراك مَشِيئته ؛ لبطَلَتْ دلائلُ القُدْره، وٱستحالَتْ حقائقُ الصَّنْعه ؛ ودَرَسَتْ معالِمُ الآمال، وتساوىٰ الناسُ ببلُوغ الأحوال؛ غيرَ أنَّ الأمرَ لمَّا كان بغير مشيئته مَصْنُوعا، وعلىٰ ماعَنَّه ظَهَر فى الاِبتداء مَطْبوعا؛ كان المُخْرِجُ له إلىٰ الوُجود من العدم، فيما ٱرتَضَاه له غيرَ مُتَّهَم؛ ومولانا ــ أيده الله ــ مع كمالِ فضْلِه ، وتناهِي عَقْله ؛ وحِدَّة فِطْنته ، وثاقِب معْرفته ؛ أجلُّ من أن يجهَلَ مواقِعَ النِّعم الواردةِ من الله تعالىٰ عليه ، أو يتسخَّط مَواهِبَه الصادِرةَ إليه؛ فيرمُقَها بنواظِر الكُفْر ، ويسْلُكَ بها غيرَ مذاهِبِ الشكر .

وقد ٱتَّصلَ بالمملوك خبرُ المولودة كرَّم الله غُرَّتها ، وأطال مُدَّتها ؛ وعَرَّفَ مولانا البَرَكَةَ بها، وبلَّغه أملَه فيها؛ وما كان من تغيُّره عند ٱتِّضاح الخبَر، وإنكارِ ما ٱختارَه

له سابِقُ القَدَر، فعجِبَ المملوكُ من ذلك وٱستنكره، من مَوْلانا وأنْكَره؛ لِضيق العُذْر فى مثله عليــه . وقد علِمَ مولانا أنّهنّ أقربُ إلىٰ القُــلوب ، وأنَّ الله تعالىٰ بدأ بِهنّ فى الترتيب فقــال جلَّ من قائل : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وما سَمّــاه الله هبةً فهو بالشُّكر أولىٰ، وبحُسْن التقبُّــل أَحْرىٰ ؛ ولَكَم نَسبٍ أفدْن ، وشَرف ٱستَحْدَثْن ؛ من طُرُق الأصْهار ، والاتِّصال بالأَخْيار . والملتمسُ من الذكَر نجابَتُه ، لاصُورتُه وولادته ؛ ولَكَمْ ذكرٍ الأُنْثىٰ أكرَمُ منه طَبْعا ، وأظهرُ منه نَفْعا ؛ فمولانا يُصوِّر الحالَ بصُورتها ، ويجدِّدُ الشُّكْر علىٰ ماوُهِبَ منها ؛ ويستأْنِف الاعترافَ له تعالىٰ بمــا هو الأشْبهُ ببصيرته ، والاولىٰ بمثله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثــالث ـــ التهنئـــةُ بالتَّوْءم .

أحْسَنُ ما رأيتُ من ذلك قولُ بعض الشُّعراء ممــا كَتَب به إلىٰ بعض أصحابه ، وقد وُلِد له ذكَرٌ وأُنْثىٰ من جاريةٍ سوداء، وهو قوله :

وخَصَّكَ رَبُّ العَرْشِ منها بتَوْءَمَ ＊ ومِنْ ظُلُماتِ البَحْرِ تُسْتَخْرَجُ الدُّرَر!
وارِكَ أضحىٰ وارِثًا عِــلْمَ جابِرٍ ＊ فأعطاكَ من ألْقابه الشَّمْسَ والقمَرَ!

الأجوبة عن التهنئةِ بالأولاد

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع يجبُ أن تُبْنىٰ على شُكْر ٱهتمامِ المُهنِّئ ورعايَتِه، والاعتدادِ بعِنايتِه؛ وأنَّ الزيادة فى تجدّد المهنَّى [به] زيادةٌ فى عَدَده، وأن نصيبَه من تحرُّك السرور فيما يخلُص إليه من المَوَاهب كنصيبه : لتناسُبِهما فى الإخاء، وتَوافِيهما فى الصَّفاء، وأن تراعىٰ مع ذلك مرتبة المَهنِّئ والمَهنَّى، ويبنىٰ الخطاب علىٰ ما يقتضيه كلٌّ منهما .

وهـــذا مثالٌ من ذلك :

زهر الربيـــع :

ويُنْهِي ورودَ الكتابِ الذى تَشرَّف المـــلوكُ بوُرُوده ، وأشرقَتِ الأَيَّام بكمالِ سُعُوده، وأرغَمَ ببلاغته معَطِسَ مُناوِيه وحَسُوده؛ فشكَرَ أيادِيَ من أنْعم بإرساله ، وٱكتسىٰ بالوُقوف عليه حُلَّة من حُلَل فَخْره وجَمـاله ؛ وبالغَ فى إكماله ، حتّٰى وقف إجلالًا له بين يَدَيْه ، ثم تلا آياتِ حُســنِه على أُذُنَيْه ؛ فوجده مشتمِلا علىٰ إحسانٍ لم يَسْبِقْه إلىٰ مثلِه أحَد، ومِنَنٍ أوْدَعها فيه فلا يُحصِيها حَصْرٌ ولا عَدَد؛ فهَيَّج بُورُوده رَسِيسَ الأشْواق، وتقلَّد بإنعامِ مُرْسِله كما قُلِّدت الحمـائمُ بالأطْواق، ووجدَ لَوْعةً لا يُحْســن وصفَها لسانُ اليَراع فى الأوْراق ؛ وعلم ما أشارَ إليـه المَوْلىٰ من التهنئة بالوَلَد الجديد، بل بأصْغَر الخَـدَم والعَبيد؛ وما أبداه منَ الاْبتهاج لِميلادِه، وأظهره من التفَضُّــل المعروفِ من آبائِه الكرامِ وأجْداده ؛ ولِمَ لا يكونُ الأمرُ كذٰلك والوالدُ مملوكُه ، وهو مملوكُ السادةِ الأجِلّاء أولادِه؛ حَرَس الله مجـدَه ومتَّعه بثَوْب مكارِمِه، وخَفَض قدْرَ مُحـارِبه ورفَعَ كلمةَ مُسالِمه ؛ ولا زال ممـاليكُه تتزيَّد تزَيُّدَ الأيَّام، وسـعادتُه باقيةً بقاءَ الأعوام ، وعينُ العنايةِ تحرُسه فى حالَتَيِ السفرِ والمُقام؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــرب الثامن

(من التهانى التهنئةُ بالإبْلال من المَرَض والعافيةِ من السَّقَم)

فمن ذلك :

ويُنْهِي أنه مازالَتْ أجسامُ أهلِ التَّصافِي، تشترِكُ فى الأسْقام والعوَافِي، كما تَشْتَرِكُ أنفُسُهم فى التخالُص والتَّوافى ؛ ولـمَّـا أَلَمَّ بمولانا هـذا الألَمُ الذى تفضَّل الله تعـالىٰ

بإماطتِه، ومَنَّ فيه علىٰ السُّؤدد بحِراسةِ مولانا وحياطَتِه ؛ فرأيْتُه حالًّا فى جَوارِحى، مُحْرِقًا لجَوانِحِى ؛ ممازِجا لأعْضائِى، متَمَلِّكا لأنْوائِى(١) ؛ ولئن كنتُ قد تحمَّلْت من ذلك عِبـا، وٱرتقَيْت من تحمُّله مُرْتقًى صَعْبا ؛ فلقد نَخَرتُ بمماسَّتِه، وأحْمَدْتُ طَبْعى علىٰ مُشَاكلته ؛ وشكَرْت الله تعالى إذْ جعَلَنى شُعْبة من سَرْحتِه، وجبِلَّةً من طينَتِه ؛ وعلىٰ ماسَرَّ به من إقالتِه وإنعاشِه، ومُصافاته وإبْشاشِه ؛ وسألتُ الله تعالى أنْ يبقيَه نُورا يُوضِّح مَغْرِبَ الدَّهرِ ومَشْرِقه ، ودُرًّا يُرصِّع فَوْد المجْدِ ومَفْرِقه ؛ ويُحْسن الدِّفاعَ عن حَوْبائه، وهو سبحانهُ يُجيب ذلك ويتقَبَّله، ويرفَعُه ويسْمَعُه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

المملوكُ يُهَنِّئُ مولاه خاصَّةً إذ جعله الله تعالىٰ من صَفْوةِ أوليائِه، وخالِصة أحبَّائه ؛ الذين يبتليهم ٱختبارا، ويتَنَابُهـم ٱختيارا : ليجمع لهم بين تمحِيص وِزْرهم، ومضاعَفَة أجْرِهم ؛ والحضِّ علىٰ طاعته، والاِنصراف عن معْصيته ؛ ويُهَنِّئُ الكافَّة عامَّة بالمَوْهبة فى نُوره المُطلِعـةِ لامَلِ الإقبال ، المُرْوِيَة لِمَـاحِل الآمال ؛ ثم أعطفُ علىٰ حَمْد الله علىٰ مامَنَّ به من إبْلالِه ، ويَسَّره من ٱستِقْلاله ؛ والرَّغبةِ إليه فى أن يمنَحَه صحةً تُخَلِّد وتُقِيم، وعافيَةً ترْهَن ولا تَرِيم ؛ وأن يحمِيَه من عَوارض الأسْقام، ويصُونه من حوادثِ الأيَّام ؛ بفَضْله وجُوده، إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أفضلُ مايَفْزَع إليه العبدُ المخْلِص، والمَوْلىٰ المتخصِّص ؛ فيما ينوبُ سـيِّدَه ويُهِمُّ وَلِيَّ نعمتِه، الدعاءُ المقتَرِن بصدْق النيه، وصَفَاء الطوِيَّه [فالحمد لله الذى منَّ بالصحَّة] وتصدَّق بالإقالة، وتدارك بجميل المُدافعة ؛ وعَمَّ سائرَ خدَمِه أيَّده الله بالنِّعمه، وأعاده

(١) كذا فى الأصل ولعله لأحشائى أو نحو ذلك .

إلىٰ أجمل عاداتِه من السلامة والصِّحه، فائزا بمُدَّخر الأجر، متعبِّدا بمستأنَف الشُّكر، فلا أخلاه الله من زيادةٍ فيما يُوليه، ولا قصدنا بسَماع سُوءٍ فيه؛ وحرس من الغِير مُهْجته، ومن المحذُور نِعْمَته .

وله فى مثـــله :

ما كنتُ أعلم أنَّ عافِيتِي مقرونةٌ بعافِيَتِك، ولا سَلامَتِي مضافةٌ لسَلامتِك، إلىٰ أن تحققْت ذلك من مُشاركتى إيَّاك فى حالَتَى الألَمَ والصِّحه، والمرض والمِحْنه؛ فالحمدُلله الذى شَرَّف طبْعِي بمناسبَتك، وجَمَّل خُلُقِى بملاءَمتك، فيما ساءَ وسَرّ، وإيَّاه تعـالىٰ أشكُر علىٰ ماخصَّني به من كمال عافِيَتك، وسُبُوغ سـلامتك وسُرْعة إقالَتك؛ وبه ـ جلَّ ٱسمه ـ أثِقُ فى مَزيدك من تظاهُر النِّعم، وتوفُّر القِسَم .

وله فى مثـــله :

ولولا أنَّ متضَمَّن كتابك قَرَن ذكرَ المرض الهـاجِم عليك، بذكر ما وَهبه اللهُ لك من عَوْد السلامةِ إليك، لمـا ٱقتصَر بى القلَقُ علىٰ[ما] دُون المَسير نحْوك، والمبادرة لمشاهدَتِك، غيرأنَّ السُّكون إلىٰ ماأدَّاه كتابُكسابقَ الجزَع، والطُّمأْنينةَ إلىٰ ماوهبه اللهُ من كِفَايتك حالتْ دُون الهَلَع، فالحمدُ لله الذى منّ بالإقالةِ، وتصدّق بالسَّلامة وعَمَّ بالكِفَايه، وهو ولىُّ حِراسَتك وحراستى فيك .

وله فى مثـــله :

سيِّدُنا فى سائر مايذكِّره اللهُ من هُجُوم ألَمٍ مُؤْذِن بصحَّه، وٱعتراض محْنةٍ مؤديِّة إلىٰ منْحَه، مَرْمُوقٌ بالعافيه، محروسٌ من الله جلَّ ٱسمه بالحفظ والكَلاَءة، فهو مع العلة فائزٌ بذخائِر الأجر، ومع العافيـةِ موفَّقٌ لٱسـتزادة الشُّكر، فالحمدُ لله الذى عقَدَ الكَرم ببقائه، وشفىٰ مرضَ الآمال بشِفَائه، وكفاه ٱعتراضَ المَخُوف، وعَوارضَ الصُّروف .

وله فى مثـــله :

ما ٱنْفردَ جِسْمُك بالعِـلَّة دُونَ قَلْبى ، ولا ٱختصَّت نفْسك ـ حرسها الله تعالىٰ ـ بمُعاناةِ المَرَض دُون نَفْسى ؛ ولم أزلْ بالقَلْب تالِيا ، وفى سائر ماشكوتَهُ بالنِّية مُساوِيا ؛ إلىٰ أنْ كشفَ الله الغُمَّه ، وأقال العَثْره ، ونَفَّس الكُرْبه ؛ ومَنَّ بالسلامه ، وتصَدّق بالكِفايه ؛ وأوجبَ بالعـافيةِ علينا جميعًا فُروضَ الشكر ، بعد ما ادَّخره لك بالألَمَ من كثْرة الأجر ؛ فالحمـد لله علىٰ ذٰلك حمدًا يؤدّى إلىٰ حِراسة ماخَوّلك ، ويُؤْذِن بالمَزِيد فيما منحك .

ومن كلام المتأخريـــن :

أعْلىٰ الله قدرَ الجناب الفُلَانِى ، ولا زالتْ شُموسُ أيامه لاتخَافُ كُسُوفا ولا أُفُولا ، وأقمارُ لياليه تَغْرِس فى قلُوب أوليائه ومحِبِّيه فُروعًا وأُصُولا .

المملوكُ يَخْدُم خدمةَ مَنْ تحَمَّل جميلا ، ونال من تَفَضُّل الجناب الكريم جزِيلا .

ويُنْهِى ما حصل له من السُّرور بعافيــةِ مولانا ، فالشكرُ لله علىٰ ماجَدّد من النِّعمة التامَّه ، وسَمح به من الكرامة العامَّه ؛ حين أعاد البَــدْر إلىٰ كَماله ، والسُّرورَ إلىٰ أتَمِّ أحواله ؛ وما كانتْ إلا غَلْطةٌ من الدَّهْر فاستَدْركها ، وصَفْقةٌ خارجةٌ عن يدهِ فمُلِّكها ؛ فقرَّتْ بذٰلك العُيون ، وتحقَّقت فى بُلوغ الأمل الظُّنون ؛ وٱنجبَرَ قلْبُـه بعدما وهَن ، وعاد جَفْنُه بعد الأرَق إلىٰ الوَسَن ؛ وقال : ﴿ الحمدُ للهِ الَّذِى أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ﴾ . ولقد كان يتَمنَّى المملوكُ لو فازَ من الرُّؤْية الشريفةِ بحظِّ السمع والبَصَر ، وتملَّى بمشاهدة وجْهه الكريم فإنَّ فيه البُغْيةَ والوَطَر .

والمملوكُ فمــا يُعدّ نفْسَه إلا من المحبين الذين بذَلُوا نُفوسَهم لمحبته وأعَدُّوها ؛ والله تعالىٰ يسُرّ الأولياء بتضاعُف سُعُوده ، ويُديم بهجةَ الأيّام بيمُون وُجُوده ؛ ويُطيل

فى مدّته ويحرُسها من الغِيَر، ويحرُس أحوالَ مِزاجه الكريم علىٰ القانُون المعتَبَر، ويَكْفِى أولياءَه ومحبِّيه فيه كلَّ مكروهٍ وحَذَر، إن شاء الله تعالىٰ .

من زهر الربيع :

وَلَمَّا شَكَوْتَ، ٱشْتَكىٰ كُلُّ ما * علىٰ الأرضِ وٱهتَزَّ شَرْقٌ وغَرْبُ !

لِأنَّك قَلْبٌ بِجسْم الزَّمان * وماصَحَّ جِسْمٌ إذا ٱعتَلَّ قَلْبُ !

حرَسَ الله جَنابَه، وأسبَلَ عليه رِداءَ السعد وأثوابَه؛ ومتَّعه ببُرود العافية وجِلْبابِها، وفتح له إلىٰ نَيْل السعادة سائرَ أبوابِها؛ ومنَحه الكِفايَةَ والأمْنَ فى سِرْبه، والعافيةَ فى جِسْمه من قَلَق كلِّ مَرِضٍ وكَرْبه؛ وجمع له بين الثَّواب والأجْر، وجازاه بجزيل الغُفْران عن جميلِ الصَّبْر .

المملوك يبَشِّر نفْسَه ومولاه بما مَنّ الله به من صِحَّةِ مِزاجه الكَرِيم، والإبلالِ من مرِضٍ كاد يُدِير كُئُوس الحِمَام علىٰ كلِّ صديقٍ حَمِيم؛ ويحمدُ الله علىٰ عافيتِه حمدًا جزيلا، ويشْكُره عليها بُكرةً وأَصِيلا؛ فإنَّه قد عُوفِى لعافيتِه المجدُ والكَرم، وزالَ عنه إلىٰ أعدائه الألَم؛ فالمولىٰ حِفظ(١) الله صِحَّته من السَّقَم، وحَماهُ من ألَمَ ألَمّ؛ وجعل سعادَتَه تترايَدُ علىٰ مَمَرّ الأنفاس، وجسَدَه سالما من الأذىٰ كسلامةِ عِرْضه من الأدْناس؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وقىٰ اللهُ من الأسواء شَخْصَه الكريم، وشَمْلَه النَّظِيم؛ وقلْبَ محبِّه الذى هو فى كلِّ وادٍ من أوديةِ الإشفاقِ يَهِيم .

---

(١) لعله حفظ الله على المولىٰ صحته الخ .

ولا زالتِ الصحةُ قرينَه حتّى لا يعتلَّ فى منازله غيرُ مُرور النَّسيم . ويصفُ شوقا يَزِيد بالأنفاسِ وَقْدا ، ويجدّد للأحشاءِ وَجْدا ، ويبـاشِرُ القلبَ المُغْرَم فيَمُدّ له من عذاب الآنتظارِ مَدّا .

وينهى أنه جهَّز هذه الخدمةَ نائبةً عنه فى آستجْلاءِ وجه أكرمِ الأحِبَّه ، وتُصافِحُ اليدَ التى أقلامُ كُتُبها فى شكوىٰ البِعادِ أطِبَّه ، مبديةً إلىٰ العلم الكريم أنَّه مع ما كان يكابِدُه من الأشواق ، ويعالِجُه من خَوَاطر الإشْفاق ، بلَغـه ضَعْفُ الجسد الموَقَّى ، وعارِضُ الألم الذى آستطار من جَوانِح المحِبِّين بَرْقا ؛ فلا يَسْأَلُ الجنابُ الكريمُ عن قلْبٍ تألَّم ، وصدْرٍ صامتٍ بالهُموم ولكنَّه بجراح الأشْجان تكَلَّم ، ولسانٍ أنشد :

ألَا لَيْتَنِي حُمِّلْتُ ما بِكَ من ضَنًى * علىٰ أنَّ لى منه الأَذىٰ ولكَ الأَجْرُ!

ثم لَطَف اللهُ تعالىٰ وعجَّل خَبَرَ العافية المأموله ، والصحةِ المُقْبِلة عَقِيبَ الدَّعوات المقبوله ؛ فيالها مسَرَّة شَمِلتْ ، ومبَرَّة كَمُلت ؛ وتهنئـة جمعتْ قلوبَ الأوِدّاء وجَمِلتْ ، وأعضاء فَدَتْها(1) عُيونُ المَهَا فنقَلَتْ عنها صِـفاتِ السِّقام وحَمَلَتْ ؛ وعافيَة حوَّلتْ إلىٰ قلوب الأعداء المَرَض ، وجَوْهَر جسدٍ طاهرٍ زال [عنه] بأسُ العَرَض ؛ فهنيئًا له بهذه الصحةِ المتَوافِرة الوافيه ، والحمدُ لله ثم الحمدُ لله علىٰ أنْ جمع بين حُصُول الأجْرِ ووُصُول العافيه ، وعلىٰ أن حفِظ ذاتَه الكريمة وحفْظُها هو المقدّمةُ الكافيةُ الشافيه :

وتقاسَمَ الناسُ المسرَّةَ بينهم * قِسَمًا فكانَ أجلَّهم قِسْما أنا !

واللهُ تعالىٰ يُسْبِغ عليه ظِلَال نِعَمِه ، ويحفَظُه حيثُ كان فى نَفْسه وأهلِه وخَدَمِه ؛ وكما سرّ الأحبَابَ بخَبرِ عافيَته كذلك يسُرُّهم بعِيَان مَقْدَمه .

---

(1) فى الأصل قيدتها ولا معنى له .

أجوبة التهنئة بالإبلال من المرض والعافية

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هــذه الرِّقاع يجبُ أن تكونَ مبنيّةً علىٰ وصف الألَمِ وصُورته وما تفضَّــل الله تعالىٰ به من إمَاطتِه ، وشكرِ المهنِّى بٱهتمامه وعِنَايتِه .

وهذه أمثلة من ذٰلك :

من زهر الربيع :

أدام اللهُ نعمتَه ، وشكرَ مِنَّته ، وأدالَ دَوْلَتَــه ؛ وأعلىٰ قدْرَه وكلمتَــه ، وحتَّم علىٰ الألسنة شُكْرَه والقلوبِ محبَّتَه . ولا زالتِ التهانِى من جِهته وافِده ، والبشائرُ وارِدَه .

ويُنْهِى وُرودَ الكتاب الذى أعدّتْه يدُ المَعالى فعادَ كَرِيمــا ، وشاهدَ حُسْنَ منْظَرِه فصار وجْهُه وَسِيما ؛ وأنه وقَفَ عليه ، وأحاط عِلْما بكلِّ ماأشار المَوْلىٰ إليه ؛ فذكَّره أُنْسا كان بخِدْمتِه لم يَنْسَه ، وجدَّد له وَجْدا ما زال يَجِدُ فى قلبه ونَفْسِه عينَه ونفسه ؛ ونَشَر من مآثِرِه المأثُوره ، وفضائله المرقومةِ فى صَــفَائح الصَّحائِف المسطُوره ؛ ماشنَّف به وشَرَّف ، وشوَّق إلىٰ لِقــائِه وشَوَّف ؛ وأقامَ البُرهانَ علىٰ ذَكِىِّ فِطْنته ، وزَكِى فِطْرته ؛ وعلِمَ ماأنعَم به وتفضَّل ، وأحسَنَ وتطَوّل : من تهنئة المملوك بالإبْلال من مَرَضه ، والبُرء من سَقَمه ، والتخلُّص من يدَىْ وجَعه وألَمِه ؛ وسُرَّ بوُرودِ كريم مُشَرّفته ، أعظَمَ من سُرورِه بلِباس ثَوبِ عافيَتِه ؛ وبدَوامِ مجْدِه وسعادتِه ، أكثَرَ من صِحَّةِ مِزاجه وٱستِقامتِه : فإنّ مكارمَ المَوْلىٰ كالحدائقِ النَّاضِره ، ومنْزِلتَــه أعز فى القلوبِ من الأحداقِ الناظِره .

فالحمدُ لله الذى مَنّ بالعافية من ذلك المَرَض ، والداءِ الذى ألَمَّ بعرضَيْه فاحتوىٰ منهما علىٰ الجَوْهَر والعَرَض ؛ وطالَ حتّى أسأمَهُ من نَفْسه وعُوّاده ، وآيَسه من الحياة

لولا لطفُ اللهِ واللهُ لَطِيفٌ بعِبَاده ؛ وهــذا ببركةِ المولىٰ ودعائِه الذى كان يرْفَعُــه ، والخواطِرُ والأسمــاءُ مع بُعْد الشُّقَّة تشْهَد به وتسْمَعُه ؛ جعل اللهُ التهانِىَ مع الأبد واردةً منه وإليه، وشكَرَ إنعامَه وأتمَّ نعمتَه عليه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وكتبتُ للمقرّ العلائىّ علاءِ الدين الكَرَكىّ وهو يومَئِذ كاتبُ السِّرِّ الشريف فى الدولة الظاهريَّة «برقوق» فى سلْطنته الثانيةِ، وقد برَأ من مرض نظما :

أَفْدِيه مِنْ جَسَـدٍ قدْ صَحَّ مِن سَقَم * فبَاتَ جَوْهَرُه خالٍ من العَرَض !

فاستَبْشَرتْ بعَـلىّ القَوْمِ شِـيعَتُه * وماتَ حاسـدُه بالسُّقْم والمَرَض !

الضرب التـاسع
(التهنئــةُ بقُرْب المَــزار)

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

قرَّب اللهُ مَزَاره ، وأدْنىٰ جِوَارَه ، وأعانَـ أعوانَه ونَصَرأنصارَه . ولا زالتِ الأنفُسُ لقُرْبه مَسْروره ، وراياتُ مجْدِه فى الملإ الأعْلىٰ وأحزاب الإسلام بهيبَتِه علىٰ اعداء الدِّين مَنْصُوره .

المملوكُ يقبِّل الباسطةَ العاليةَ بسَطَ اللهُ ظِلَّها، وشكَرَ علىٰ الأولياء فَضْلَها . ويُنْهِى أنه اتَّصل به طَيِّب أخباره ؛ وقُرْبُ مَزَاره؛ فتَضاعفَ شَوْقه، وتَزايد توَقُه؛ وهيَّجتْ صَبَابتُه لاعِجَه ، وسَهَّلتْ إلىٰ نَيْل المَسَرَّة طُرُقَه ومنَاهِجَه :

وأَبْرَحُ مايَكُونُ الشَّوقُ يَوْمًا * إذا دَنَتِ الدِّيارُ مِنَ الدِّيَارِ!

فاللهُ يقرِّبُ من أمَدِ التَّلاقِى بَعِيدا، ويجعَلُ رِداءَ الاجتماع بخِدْمته قَشِيبا جَدِيدا.

الضـــرب العــاشر
(التهنئـــةُ بنزول المَنـازل المستَجدّة)

فمن ذلك [من إنشاء] علىّ بن خلف :

أشرَفُ المَنَازل رُقْعه ، وأترَفُها بُقْعه ، وأرفَعُها رفعــه ؛ ماآتّخذه مولانا لنفســه موطِنًا ، وجَعله بنزُوله فيه حرمًا آمِنا ؛ وصيَّره بمُخْصِب مكارمه للعُفَاة مَرادًا ومَقْصدا ، وبمُعْذِبِ نوافِــله للظُّماة مَشْرَعا ومَوْردا ؛ وللسُّؤدَد بمجده مَعْقِلا ، وللرِّياســة بشَرفه مَنْزِلا ؛ والله تعالىٰ يجعلُ هذه الدارَ التى تدَيَّرها وحَلَّها ، وحَطَّ بها رحْلَه ونزلها ؛ مأهولةً ببقائه ، آنسةً بسُبُوغ نَعْمائه ؛ عامرةً بسعادته ، مَشِيدةً بتناصُرعِزِّه وزيادته ؛ لاتُخْطِئُها حوائمُ الآمال ، ولا تتخطَّاها دِيَمُ الإقبال ؛ ويُعرِّفُه من بركتها ، ويُمْنِ عَتَبتِها ، مايقضى بامتدادِ الاجل ، وآنفِساح الأَمل ؛ وبلوغِ الأمانِى ، وآتِّصال التَّهانى ؛ بمنِّــه وكرمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنه قد آتَّصل بالمملوك تحوُّلُ مولانا إلىٰ المنْزِل المنْشَإ الجَديد ، ذى الطالِع السـعِيد ، والطائر الحميد ؛ فسألتُ اللهَ تعالىٰ أن يبَوِّئَه منه المُبوَّأَ الكرِيم ، ويمتِّعه فيــه بالدَّعَة والنَّعيم ؛ والنَّمـاء والمَزيد ، والعَيْش الرَّغيــد ؛ ويجعَلَه واصــلًا لحبْله ، مأهولًا بأهله ؛ ويعرِّفَه بركَةَ عتَبتِه ، ويُمَلِّيه ببهائِه ونَضارته ؛ وحصل للمملوك السُّرورُ بأن بلَّغه الله الوَطَر ، فى سُكْنىٰ ماعَمَر ؛ وأناله الأمَل والآلتذاذ بخِدْمته ، والسُّرورَ بافْتِضاض عُذْرته ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

مولانا ــ أمتع الله بوجوده ــ غنىّ عن الهَناء بمنْزِلٍ ينْزله ومحلٍّ يحُلُّه ، إذ الله سـبحانَه وتعالىٰ قد كثَّر أوطانَه وآدُرَه ، وبلَّغه فى تمـامِ عِمارَتها وآنفِساحها وطَرَه ؛

وخصَّه بأفضلِها معَانا ، وأشرفِها مَكَانا ؛ والمستوجِبُ فى الحقيقـة للهَنَاء هو الموضِعُ الذى ٱختاره دَارًا ، وٱرْتضاه مستقَرًا ؛ وعرَفَ المملوك ٱنتقالَه ـ لازال يتنقّلُ فى بُروج السَّعْد ، ويأْوِى إلىٰ ظلّ ظليلٍ من المجْد ـ إلىٰ الدار الفلانية لا زالتْ جامعةً لشَمْله ، مأنوسةً بأهْله ؛ فعدَلَ عن خِدْمته بالهناء ، إلىٰ إخْلاص الدُّعاء ، بأن يعرِّفَه الله تعالىٰ يُمْنَها و بركَتَها ، ويُرِيه إقبالَهـا وسـعادَتَها ، و يَقْرُنَ تحوُّله إليهـا بأيْمنِ طائِرٍ ، وأبركِ طالِـع ؛ فإنَّ للحرَكات أوقاتاً محمودةً ومَذْمومة : فإذا ٱعْتنىٰ اللهُ تعالىٰ بعَبْد من عَبِيده ، وفَرَضَ له نصيبًا من تأييده ؛ وفَّقه للحركة فى الزَّمَن السعيد ، والوقتِ الحميد ؛ لتكُونَ مَصَايِرُه مُشاكلةً لَمبادِيه ، وأعجازُه مشابِهــةً لهَوَادِيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يجعَـل بابَها محطًّا للقُصَّاد ، ومناخًا للوُفَّاد ، ومَزَارا للعُفَاه ، وملاذا [للعُنَاه](1) ويصلُ بها حَبْله ، ويُنْشى بها طِفْله ؛ ويضاعِفُ بٱستيطانِها أُنْسه ، ويسر بتَبَوُّئِها نَفْسَه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أسـعدُ المنـازِل وأشرفُ المواطِن ماٱســتَوْطنه أيَّده الله وتبوّاه ، وتخيَّره لنَفْســه وٱرتضاه ؛ فغدا بشَخْصِه وطَنَ الإقْبال ، وبفائِض كَرَمه حَرَمَ الآمال ؛ وبشَرَفه للسُّؤدَد مَعْقِلا ، وبُنْبْـله للرِّياسة مَنْزِلا ؛ فعرَّفه الله يُمْنَ هـذه الدارِ المعمورةِ بحُلُول البركات ، المحفوفةِ بتَناصُر السَّـعادات ؛ وجعلها وكلَّ رَبْع يقْطُنُه ، ومحلٍّ يسكُنه ؛ مبَشِّرا بٱمتدادِ بقائِه ، وآهِلاً بالزِّيادة فى نَعْمائه .

وله فى مثـــله :

كلُّ وطن يحُلُّه ـ أيده الله ـ ويقْطُنه ، ومحـلٍّ يتخَيَّره ويسْكُنه ؛ مقصودٌ بالشُّكر والثناء ، آهِلٌ بالحمدِ والدُّعاء ، لا يتخطاه مُتوارِدُ الآمال ، ولا تنْقطِع عنه موادُّ الإقبال ؛

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ولذلك صار هذا المنزلُ السعيدُ من فضائلِ الأرض ومحاسِنِها ، ونُجَعِ الآمال ومَعادِنِها ؛ فعرَّفه الله يُمْنَه و بركتَه ، و إقبالَه وسعادَتَه ؛ وقرن آنتقالَه إليــه بأسبَغ نِعْمه ، وأكمل سَلَامة وأبسط قُدرةٍ وأعلىٰ رُتْبه .

وله فى مثــله :

عرَّفه الله [من] بركةِ هذا المنزِل المَوْرود ، والفِناء المقصُود ، ما يُوفِى علىٰ سالف ماأولاه من تكامُل البركات ، وتناصُر السَّــعادات ؛ وجعل مستقَرَّه فيــه مقروناً بنُمُوّ الحال ، وتتابُع الإقبال ؛ فى أفسَحِ المُدَد وأطولها ، وأنجَح المطالِب وأفضَلِها ؛ وعمَّر أوطانَ المكارم بإقباله ، وعَضَّد الأمانِىَّ بآتِّساع نَعْمائه (١) .

أجوبة التهنئة بقُرْب المَزار ، ونُزولِ المنازل المستجدّة

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هــذه الرِّقاع يجب أن تُبْنىٰ علىٰ الآعتداد للمهنِّى بتعهُّده ، والشكر له علىٰ تَوَدُّده ؛ والآبتهاج بهَنائه ، والتبرُّك بدعائه ؛ وأنّ المستجِدّ غير مبايِنٍ لمنْزِله ، ولا خارجٍ عن أحكام محله ؛ وأنَّ تمــامَ بركته ، أن يُؤْنِس فيه بزيارته ؛ وما يشابه هذا .

الضرب الحادى عشر

(نَوادِر التَّهانِى ، وهى خمســـةُ أصـــناف)

الصنفُ الأوّل — تهنئـــةُ الذِّمىّ بإسلامه .

فمن ذلك ماأورده أبو الحُسَين بن سعد فى ترسُّله ، وهو :

وما زالتْ حالُك ممثّــلةً لنا جميلَ ما وهبَ اللهُ فيك حتّى كأنَّك لم تَزَل بالإســلام مَوْسُوما ، وإن كنتَ علىٰ غيره مُقيما ؛ وقد كُنَّا مؤمِّلين لِمَــا صِرْتَ اليه ، ومُشْفِقين لك

(١) لعله بيقائه ليناسب السجع الذى بعده .

مما كُنْتَ عليه ؛ حتّى إذا كادَ إشفاقُنا يستَعْلى علىٰ رجَائِنا ، أتتِ السعادةُ فِيكَ بما لم تزلِ الأنفُسُ تَعِدُ منك ، ونسأَلُ اللهَ الذى نوّرَ لكَ فى رأْيِك ، وأضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك ؛ أنْ يؤَهِّلك لصالِح الأعمال ، وأنْ يؤتِيَك فى الدنيا حسنَةً ويَقِيَكَ عذابَ النار .

ومن ذٰلك ، من كلام أبى العَيْناء :

ولتَهْنِئْكَ نِعمةُ اللهِ عليك فى أُخُوّة المهاجِرين والأنصارِ والتابعين بإحْسان ؛ والحمدُ لله الذى فَوّزَ قِدْحَك [وأ] علىٰ كَعْبك ، وأنقذَ من النار شِلْوَك ، وخلَّصَك من لَبْس الشَّك ، وحَيْرة الشِّرْك ؛ فأصبحت قد آستبدلت بالأدْيارِ المساجد ، وبالآحادِ الجُمَع ؛ وبقِبْلَة الشام ، البيتَ الحَرَام ؛ وبتَحْرِيف الإنْجيل ، صِحّةَ التنزيل ؛ وبأوْثانِ المشركين ، قِبْلَةَ الموحِّدين ؛ وبحُكْم الأُسْقُفِّ رأسِ المُلْحِدين [حكمِ] أميرِ المؤمنين وسيِّدِ المرسلين ؛ فهنَأك الله ماأنعَم به عليك ، وأحسَنَ فيه إليك ؛ وذكَّرك شُكْرَه ، وزادك بالشُّكْر من فَضْله .

أجوبة التهنئة بإسلام ذمىّ

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تكونَ مبنيّةً علىٰ شكر المهَنِّئ للهَنِيِّ ، وآعترافِه بنعمةِ الله تعالىٰ عنده ، وآبتهاجِه بممازَجته فى الدِّين ، الذى جعل اللهُ أهلَه إخوانًا متَصافِين ، وخُلّانًا متوافِين ، ومَنَّ عليهم به ، وبإماطةِ الحسائِفِ (١) من قلوبهم ، ونحو هذا .

الصنف الثانى — التهنئة بالختَان وخروج اللِّحية .

فمن ذلك تهنئةٌ لأميرٍ بخِتَان ولدَيْن له :

فمن خَصائصِ ما حَباه اللهُ بعدَ الذى قدّم له فى نَفْسه ـ نفَّس الله مُدّتَها ؛ ووسَّع له مُهلتَها ، وأفنىٰ الأعدادَ دُونَ فَنائِها ، والأعمارَ دُونَ تصرُّمها وآنتهائِها : [من] الفَضَائل

(١) الحسائف جمع حسيفة وهى الضغينة والسخيمة أنظر اللسان فى ج ١٠ مادة ح س ف .

المشهوره، والمحاسن المذكوره، والمناقب المأثوره، وأقسامِ الفضل الذى ينقضى دونَ تصرُّم(؟) منازِله وصْفُ الواصف إذا أفرطْ، وينتهى دون أيسرها أملُ الآملِ إذا ٱشتطّ ـ ما وهبَ اللهُ له من أولادٍ سادةٍ فضّلهم فى الأخلاق والصُّوَر، وأكملهم فى الأجْسام والمِرَر، وقدّمهم فى العقُول والأفهام، والقرائح والألباب، ولم يجعل للمَعايب فيهم سميه، ولا للإناثِ بينهم شركه ؛ حتّى يكون مسلّما لهم قصبَ العُلا والمَفاخر، وصدورَ الأسِرّة والمَنابر، من غير منازِع، ولا مُقارع، ولا مُساهم، ولا مُقاسِم، وزادهم من النَّماء فى النَّشْء والبركة واليمن بما يُؤذِن الحاضرُ منه بالغابر، ويدلُّ البادِى علىٰ الآخِر، وعْدًا من الله تعالىٰ ذكره لهم بأوْفىٰ السعادات، وأكمل الخيراتِ وأعْلىٰ الدَّرَجات ؛ أرجو أن يجعل اللهُ النُّجْحَ قرينَه، والنجاةَ ذريعتَه؛ وما أوْلاه فيهم فى هذه الحال الحادثةِ التى يَعْدق الله بها أداءَ الفريضة، وكمالَ الشريعه، ويقع التطيُّر بالختَان، الذى جعله الله من شُروط الإيمان، وفرضَه علىٰ جميع الأدْيان : من السَّلامة علىٰ عِظَم الخطَر، وشِدّة الغرَر، فى إمضاءِ الحديد علىٰ أعضاءٍ ناعمه، وإيصال الألَم إلىٰ قلُوبٍ وادِعة، لم تُقارِعْ نَصَبا، ولم تُعانِ وَصَبا، وٱجتمع فيه إلىٰ رقّة الصِّبا، وضَعْف الأَسْر والقُوىٰ ؛ ٱعتيادُ الرحمه، ومخالفةُ الترفُّه والتنقُّل بين الشهوات، علىٰ أن كلَّ واحد من الأميرين شَهِد المعْركة أعزَلَ حاسِرا، وباشر الحرْبَ مغرّرا مُخاطرا، فثبت لوَقْع السِّلاح، وصَبَر علىٰ ألَم الجِراح، وأبلىٰ بَلاءَ الفارس المُدَجّج، والكَمِىّ المقنَّع، ثم خرجَ خُروجَ شِبْل الليْث، وفرخ العُقاب، كالقِدْح المُعَلّى والشِّهاب الساطع، والنَّجْم الثاقب، وكان فلان أكثَرَهما تغيُّرا فى وجه قِرْنه، وسطْوةً علىٰ مُنازِله، وكلٌّ قد حصّل فوق الخَصْل، وحوىٰ فضيلةَ السَّبْق، وٱستحقّ ٱسمَ البَأْس والشِّدّه، وحلْيةَ البَسَالة والنَّجْده .

ومن ذلك ماأورده أبو الحسين بن سعد فى كتابه :

الحمدُ لله الذى كَساك باللِّحيــة حُلَّةَ الوَقار ، وردَّاك رِداءَ ذِى السَّمْتِ من الأبرار والأخْيار ؛ وصانَكَ عن مِيسَم الصِّبا ، ومطامع أهــل الهوىٰ ؛ بمـا جَلَّلك من اللحية البهِيَّه ، وألبَسك من لِباسِ ذَوِى اللُّبِّ والرَّوِيَّه ؛ وألحقك فى متصرَّفاته بمن يســتقِلُّ بنفسه ساعِيا ، ويستغْنِى عمَّن صحبه حافِظا ؛ وجعل ماجَمَّل من صُورتك ، وكَمَّل من أداتِك وآلَتِك ؛ قِرْنًا لمن جاذَبك ، وخَصْمًا لمن نازَعَك ؛ ونفىٰ عنك ذِلَّةَ الاحتِقار ، من أهل المَراتِب والأخْطار ؛ تَسْتوِى [بهم] فى المجالس الحافِله ، وتجرِى مَجْراهم فى المَشاهد الجامعــه ؛ مسمُوعا قولُك إذا قُلْت ، ومُصْغًى إليك إذا نطَقْت ؛ آمنًا من انصراف الأبصار عنك لقُرْبِ وِلادك ، ومن [عدم] الاستِماع لحديثك لِقلَّة الثِّقة بسَدادك ؛ وجارِيًا مَجْرىٰ كَمَلةِ الرجال علىٰ الجمله ، إلىٰ أن يكشفَ اللهُ مَخَابِرَك بالمِحْنه ؛ وتعطىٰ المَهَابةَ من الدّاعِرِ العادِى ، ومن السَّبُع الضارى ؛ ولو كان عارِيًا من هذه الكُسْوة الشريفه ، والحِلْية الملحُوظه ؛ لسِيقَتْ إلىٰ الازدراء بالأعين ، والاستِصغارِ بالقلوبِ والألْسُن ؛ أصنافُ الحيوان : من البهيمة والإنسان ؛ ثم لا يُحِسُّ من نفسه قوّةً علىٰ الدَّفْع عنها ، ولا من صرعته ثباتا(؟) علىٰ يدها فيه . وتلك نعمةٌ من الله جل وعَزَّ حَبَاك بمرتبتها فى جَمالٍ غَشَاك[1] ، وكمالٍ أتاك ؛ فَليُصدّق بها اعترافُك وشكْرُك ، وليحْسُن ثناؤُك ونَشْرُك ؛ قضاءً لحق الله عليك ، واستِدْرارا فى المزِيد من إحسانِه إليك .

الصنف الثالث ــ التهنئــة بالمــرض .

أبو الفرج الببغاء :

فى ذِكْر الله سيدى بهذا العارضِ ــ أماطه اللهُ وصَرَفه ، وجعل صحةَ الأبَد خَلَفه ــ مادَلَّ علىٰ ملاحظته إيّاه بالعناية ، إيقاظًا له من سِــنَة الغفْلة ؛ إذ كان تعالىٰ لايُذَكِّر

(١) غشى فلان فلانا أتاه كغشاه يغشوه . قاموس .

بطُرُوق الآلام، وتَنْبيه العِظَات ، غَيْرَ الصَّفْوة من عِبَاده، الخِيرَةِ من أولِيائه ؛ فهَنَاه الله الفوزَ بأجرِ مايُعانِيه ، وحَمَلَ عنـه بألْطافه ثِقْلَ ماهُو فيـه ؛ وأعقبَ ما آختَصَّه من ذَخائر المَثُوبةِ والأجْرِ بعافيةٍ تقْتَضِيه ؛ ولاسلَبَ الدنْيا جمالَ بَقائِه ، ولا نقَلَ ظِلَّه عن كافَّة خَدَمِه وأوْليائه .

الصنف الرابع — التهنئة بالصَّرْف عن الوِلَاية .

أبو الفرج الببغاء :

مَنْ حَلَّ مَحَلَّه — أيده الله تعالىٰ — من رُتَب الرِّياسة والنُّبْل ، كان معَظَّما فى حالَتِي الولاية والعَزْل ؛ لايقْدَح فى قَدْره تغيُّرُ الأحوال ، ولا ينْقُله عن موْضِعِه من الفضل تَنَقُّل الأعمـال ؛ إذ كان آستِيحاشها للفـائت مِنْ بَركات نَظَره ، بحَسَبِ أُنْسها كان بمـا أفادَتْه من محُمود أَثَرِه . فهَنَأه الله نعمةَ الكِفاية ، وأوزَعَه شكْرَ ما آحتـازه من النَّزاهـة والصِّـيانه ؛ ولا أخْلاه من التوفيق فى سائرِ مُتَصَرَّفاته ، والخِيرةِ الضامنـةِ لعَوَاقب إراداته .

وله فى مثـــله :

لَو كانـ لمستَحْدَث الأعمال ومسـتَجِدّ الولايات زيادةٌ علىٰ ما آختصَّـك به من كمَال الفَضْل ، ومأْثور النُّبْل ؛ لحاذرنا آنتقالَ ذٰلك بآنتقالِ ما كُنْتَ تتوَلَّاه بمحمود كِفايَتك ، وتحوُطُه بنواظر نَزاهتِك وصِيانَتك ؛ غير أنَّ الله تعـالىٰ جعلك بالفضـل متَقَمِّصا ، وبالمحامِد متَخَصِّصا ؛ فالأسَفُ فيما تَنْظر فيه عليك لامِنْك ، والفـائدةُ فيما تتقلَّده بك لالك ؛ ولذٰلك كُنْتَ بالصَّرف مهَنًّا مسْرورا ، كما كُنْتَ فى الولاية محموداً مشكورا ؛ فلا أخْلاكَ اللهُ من تَواصُـل آلائه ، وتظـاهُرِ نَعْمائه ؛ فى سائرِ ما تُبْرِمه وتُمْضيه ، وتعتَمِده وترتَئِيه .

أبو الحسين بن سعد ـ عمّن تولّى عملًا إلىٰ من صُرف عنه :

قدقُلّدتُ العملَ بناحيَتِك، فهنأك الله تجديدَ ولايتك، وأنفذْتُ خليفَتِي لخلافَتِك؛ فلا تُخْلِه من تبصيرِك وهدايتك، إلىٰ أن يمُنَّ اللهُ بزيارَتِك .

تهنئة بصرف عن ولاية :

لو كانتْ رِياسةُ سيِّدى مجنيَّةً من عُرُوش الوِلَايات، وسيادَتُه خارجةً عن سانِح التصَرُّفات، لأشفَقَ أولياؤُه من زوالها بمزايلَتِهِما، وحَذِرُوا من ٱنتِقالها بنَقْلهما؛ لٰكن ماوُسِم به من الكمال، وعَلَا به من رُتَب الجَلَال، موجُودٌ فى غريزته وُجودَ الفِرِنْد فى السيفِ المأْثُور، واللَّألاء فى النور، وإذا تَصرَّف، أورد الله الرعيَّةَ من مَشارِعها نِطَافا، وأسبغ عليهم من ظِلّها عِطَافا، وإذا ٱنصرف فخيرٌ مُسْـبَلٌ تقلَّص، وعيشٌ رائعٌ تنغَّص، والأسفُ علىٰ العمل السَّلِيبِ من حُلَل سياستِه الفاضله، العاطِلِ من حِلىٰ سِيرتِه العادِله، ولهذا أصبح ـ أيّده الله ـ بالعزْل مبتَهِجا مسْرُورا، كما كان فى الولاية محْمُودًا مشْكُورا، وٱنْطلقتْ ألسِنةُ أوليائه، فى هَنَائه، بما وَهَبه الله من الرَّفاهِيَة والدَّعه، وحطَّه عنه من الأثْقال المُقْلقه، ولا سِيَّما وقد علمَ الخاصُّ والعامُّ أنَّ الأعمال إذا رُدَّت إليه، وعُوِّل فيها عليْه، تَسلَّم المودع ودِيعتَه، والناشدُ ضالَّتَه، وإذا عُدِل فيها إلىٰ غيره تناولها تناوُلَ الغاصب، وٱستولىٰ عليها ٱستِيلاءَ السَّالِب، فلا تزال نازعةً إلىٰ رَبِّها، متطلِّعَة إلىٰ خِطْبِها، حتّىٰ تعودَ إلىٰ محلِّها، وترجِعَ إلىٰ نَصْلِها، والله تعالىٰ أسأل أن يقْضِىَ لمولانا ببُلُوغ الأوطار، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالصرف عن الولايةِ والخِدْمة

قال فى "موادِّ البيان" : يجب أن تكون أجوبتُها مبنيَّة علىٰ شُكر الاهتمام والاعتِداد بالمشاركة فى الأحوال، مع وُقُوع ما وَرَد من الخطاب المَوْقِعَ اللطيف، وما ينتظم فى هذا السلك .

جواب مَنْ ورد عليه كِتابُ من وَلِي مكانه فى معنىٰ ذلك .

فمن ذٰلك :

ما ٱنصرفَتْ عنِّى نعمةٌ أُهْدِيتْ إليك، ولا خلَوْتُ من كرامةٍ ٱشتملتْ عليك؛ وإنِّى لأجِدُ صَرْفِى بكَ ولايةً ثانيه، وحُلَّةً من الوِزْر واقِيه؛ لما آمُلُه بمكانك من حميد العاقِبة وحُسْن الخاتمه .

الصنف الخامس — تهنئـةُ من تزوّجتْ أمُّه بزواجها .

قد تقدّم فى أوّل المقالة الأُولىٰ فى حكاية حائك الكلام مع عمرو بن مَسْعدةَ وزير المأمون(١)، أنه قال يُكْتَب إليه :

أما بعدُ، فإنَّ الأمور تجرِى علىٰ خلافِ مَحابِّ المخلوقين [واللهُ يختار لعباده](٢)، فخارَ الله لك فى قَبْضِها [إليه، فإن القبور أكرم الأكفاء](٢) والسلام .

أبو الفرج الببغاء : وقد أمره سيفُ الدولة ٱبنُ حَمْدانَ بالكتابة فى معنىٰ ذلك ٱمتحاناً له :

مَنْ سلَك إليك ـ أعزَّك الله ـ سبيلَ الاِنْبِساط، لم يستَوْعِرْ مَسْلَكا من المخاطَبة فيما يحسُنُ الاِنقباضُ عن ذِكْر مثله . وٱتَّصل بى ما كانَ من خبَرِ الواجبةِ الحقِّ عليك، المنْسُوبة بعد نِسْبتِك إليها إلَيْك ـ وَفَّر الله صيانتَها ـ فى ٱختيارِها ما لَوْلا أنَّ الأنفُسَ تتناكَرُه، وشرْعَ المُروءة يَحْظُره؛ لكُنتَ فى مثله بالرضا أوْلىٰ، وبالاعتداد بما جدّده الله فى صِيانتِها أحْرىٰ؛ فلا يُسْخِطَنَّك من ذٰلك ما رضِيَه وجوبُ الشَّرْع، وحسَّنه أدبُ الدِّيانة؛ ومُباحُ الله أحقُّ أن يتَّبع، وإيَّاك أن تكونَ ممن لمَّا عدِم ٱختياره تَسخَّط ٱختيارَ القَدَر له، والسلام .

---

(١) تقدم فى ج ١ ص ١٤٢ "وزير المعتصم" .

(٢) الزيادة مما تقدم فى ج ١ ص ١٤٥ .

النـــوع الثـانى
(من مقاصـــد المكاتبات التَّعازِى)

قال فى " موادِّ البيان " : المكاتبةُ فى التعزيَة بالأحداث العارضةِ فى هذه الدنيا واسعةُ المَجَال : لما تتضمَّنهُ من الإرشاد إلىٰ الصَّبْر، والتسليم إلىٰ الله جلَّت قدرتهُ، وتسليَةِ المعزَّى عما يُسْلَبه بمشاركة السابقين فيه، ووعدِه بحُسْن العِوَض فى الجزاء عنه؛ إلىٰ غير ذلك مما ينتظم فى هذا المعنىٰ . قال : والكاتبُ إذا كان جيِّدَ الغَريزة حسنَ التأتِّى فيها، بلغ المراد . ثم قال : وحكمُها حكم التَّهانِى من الرئيس إلىٰ المرءُوس ومن المرءوس إلىٰ الرئيس ومن النظير إلىٰ النظير .

ثم التعـــزيةُ علىٰ أضْرُب :

الضـــــرب الأوّل
(التعــزِيَةُ بالإبن)

أبلَغُ ما كُتِب به فى ذلك ما كتب به النبىُّ صلَّى الله عليـه وسلم ، إلىٰ مُعاذِ بن جَبَل، معزِّيًا له بابنٍ له مات، فيما ذكره أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله، وأبو جعفر النحَّاس فى صناعة الكُتَّاب، وهو :

«من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ مُعاذِ بْنِ جَبَـــل :
«سـلامٌ عليكَ، فإنِّى أحمَـدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو »
«أما بعــد، فعظَّمَ اللهُ لكَ الأجْر، وألهمكَ الصَّبْر، ورزَقَنا وإيَّاكَ»
«الشُّكْر . ثم إنَّ أنفُسَنا وأهلِينا ومَوَالِيَنَا من مَوَاهِبِ الله السنِيَّة، وعَوارِفِه[1]»

---

(١) فى أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية .

«المسـتَوْدَعة ، تمتّـع بها إلىٰ أجلٍ معدود ، وتُقْبَضُ لوَقْتٍ معلوم ؛»
«ثم ٱفترض علينا الشُّكْرَ إذا أعْطىٰ ، والصبرَ إذا ٱبتَلىٰ ؛ وكان ٱبنُك من»
«مَواهِبِ اللهِ الهَنِيَّة ، وعَوارِفِه(١) المستَوْدَعة ؛ متّعكَ به فى غِبْطةٍ وسُرور ،»
«وقَبَضَه منْكَ بأجْرٍ كثير : الصـلاةِ والرحمةِ والهُدىٰ إن صبرْتَ»
«وٱحتَسَبْت ؛ فلا تَجْمَعَنَّ عليكَ يامُعـاذُ خَصْـلتين(٢) إنْ يُحْبِطْ جَزَعُك»
«صَبْرَكَ فتنْدَمَ علىٰ مافاتَك ؛ فلو قَدِمْتَ علىٰ ثوابِ مُصيبتِك قد أطعْتَ»
«ربَّك وتَنَجَّزْتَ موعُودَه ، عرفْتَ أنَّ المصيبةَ قد قَصُرت عنه . وٱعلَمْ»
«أنَّ الجَزَعَ لايَرُدُّ ميّتا ، ولا يَدْفَع حزنا ؛ فأَحْسِن الجزاءَ وتَنَجَّزِ الموعُودَ ؛»
«وليُذْهِب أسَفَكَ ماهو نازِلٌ بك فكأنْ قَدْ . »

من كلام المتأخريـن :

تعزيةٌ بولد . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ ، وهى بعد الألقاب .

وأحسَنَ عَزَاءه بأعَزِّ فَقِيد ، وأحبِّ حبيبٍ ووَلِيد ، وعوّضَ بجميلِ الصبرِ جوانِحه التى سُئلت عن الأَسىٰ فقالت : ثابتٌ ويَزِيد . صدرَتْ هـذه المفاوضةُ تُهْدِى إليه سلاما يَعِزُّ عليه أن يُتْبَع بالتعزيَه ، وثناءً يشُقُّ عليـه أنْ يطارِحَ حمائمَ سَجْعه المُطْربَة بحمائم الشَّجْو المُبْكِية المُنْكيه ، وتوضِّح لعلمه ورُودَ مكاتبته المؤْلمة ، فوقفْنا عليها إلا أنَّ الدَّمْعة ماوقفَتْ ، وخواطِرَ الإشفاق عليه وعلىٰ مَنْ عنده طفَت حُرَقُها وما ٱنطفَتْ ؛

(١) فى أصولنا بالفاء و رواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية .

(٢) أى فقد الثواب وفقد الولد . و إليه يشير من عزىٰ عمر بن عبد العزيز بابنه فقال :

وعوّضت أجرا من فقيد فلا يكن * فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

وعلمنا ماشَرَحه ولم يَشْرح الصَّدْر علىٰ العادة ـ مِنْ وفاة الولد فلان، سقىٰ اللهُ عهدَه ولَحْدَه ، ونَضَّر وجهــه وتغمَّد بالرِّضوان خالَه وخَدّه ؛ ومابقى إلَّا التمسُّكُ بأســباب الصــبر ، والتفويضُ إلىٰ مَنْ له الأمر ؛ والدُّنْيا طريقٌ والآخرةُ دارٌ ودِهْلِيزها القَبْر؛ وللمرءِ من تَثَبُّته وازع ، والاجتماعُ بالأحِبَّــة الراحلِينَ واقِع ؛ إن لم يَصِيرُوا إلينا صِرْنا إليهم، وإن لم يَقْدَمُوا فى الدار الفانيــة علينا قدِمْنا فى الدّار الباقيةِ عليهم ؛ نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يجمَعَنا فى مستقَرّ رحمتهِ ، ويُحْضِرَنا مع الأطفال أو مع المتطفِّلين ولائِمَ جَنَّته ؛ والله تعالىٰ يُدارِكُ بالصبر الجميل قلْبَه ، ولا يجمعُ عليه فقْدَ الثواب وفقْدَ الأحِبَّه .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

رزقه الله تعالىٰ ثَبَاتا علىٰ رَزِيَّته وصَــبْرا ، وجعلَ له مع كلِّ عُسْرٍ يُسْرا ؛ وأبقاه مُفَدًّى بالأنفُس والنَّفائس، وكان له أعظَمَ حافظٍ من نُوَبِ الدهر وأجلَّ حارس .

المملوك يُنْهِى علمَه بهــذه النازلة التى فتَّتتِ القلوبَ والأكباد ، وكادَتْ أن تُفرِّق بين الأرواح والأجساد، وأذالَتْ ذخائرَ العيُون، وآبتَذَلَتْ من المَدامِع كلَّ مَصُون؛ وأذابتِ المُهَج تحرُّقًا وتلهُّبا ، وجعلت كلَّ قلْب فى نارَي الأسىٰ والأسفِ متقلِّبــا؛ وهى وفاةُ ولده الذى صَغُر سِنُّه، وتزايَدَ لفَقْده هَمُّ المملوك وحُزْنُه :

ونَجْلُكَ لا يُبْكىٰ علىٰ قَدْرِ سِـــنِّه ＊ ولٰكنْ علىٰ قَدْر المَخِيلة والأَصل !

وكان الأمَلُ يحدّث بأنه يَشُدّ للمولىٰ أزْرَه، ويشرَح ببِرِّه صــدْرَه؛ ويؤثِّل مجدَه، ويُبقى الذكْرَ الجميل بعــدَه ؛ ففُقِد من بين أترابه، وذَوىٰ عند ما أينَعَ غُصْنُ شَبابه؛ وغُيِّب مَنْظَرُه الوسِيمُ فى لحده وتُرابه ؛ وسيِّدُنا يعلم أنَّ الموتَ مَنْهَل لابدّ من وَرْده(١)، وآبنَ آدم زَرْع لابدّ من حَصْده،وأنَّ المنية تَشمَلُ الصغيرَ والكبير، والجليلَ والحقير،

(١) هو مصدر كالورود عن آبن سيده أنظر اللسان (ج ٤ ص ٤٧١) .

والغنيّ والفقير ؛ فينبغي له آستعمالُ صَبْره ، والآستبْشار بمضاعَفةِ أجْره ؛ والله يمتّعه بأهلِه وطُول عُمُره .

وله :

لَهْفِي وما لَهْفِي عليكَ بنافِعٍ ! * كَلَّا ولا وَجْدِى ولا حُرُقاتِى !
يامَنْ قَضىٰ فقضىٰ سُرورِى بعْدَه * وتحدّرَتْ أسَفًا له عبرَاتِى !
عُقَدُ التجلُّدِ حَلّها فَرْطُ الأسىٰ * والقلْبُ موقوفٌ علىٰ الحَسَرات !
لو كُنْتَ ممَّن يُشْترىٰ أو يُفْتَدىٰ * لفُدِيتَ بالأرواح والمُهجاتِ !
كُنْتَ المُعَدَّ لنُصْرتِى فى شِدّتى * فقَضىٰ الحِمامُ بفُرقةٍ وشَتَاتِ !
واللهِ لا أُنْسيتُ نَدْبَك والبُكا * أبدًا مَدىٰ الأنفاس واللَّحَظاتِ !
ويَسُوءنى أن عِشْتُ بعْدَك ساعة * أَسَفا لفَقْدِك ميّتًا وحَياتِى .

أعظم اللهُ أجْرَ مولانا ومَنحه صَبْرا جميلا ، وأجرا جزيلا ، وثناءً عريضَ الشُّقَّة لثَبَاته علىٰ هذه الفادحة طَويلا ؛ وجعل هذه الرزيَّةَ خاتمةَ الرَّزايَا ، وممحِّصةً جميعَ الذنوب والخَطايا ؛ ولاأفجعه بعدها فى قُرّة عين ، ولاأورد محبُوبًا شُغِف به قلبُه الكريمُ مَنْهلَ الحِمَام ولاسقاه كأسَ الحَيْن .

المملوك يقبّل البِساطَ الذى ماقِيَ لنَشر المَعْدَلة مبْسُوطا ، وكلُّ أمل بِبرّه مَنُوطا . ويُنْهِى إلىٰ العلم الشريف علْمَه بهذه المُصيبة التى أصابتْ فُؤادكلِّ محبٍّ فأصْمَته ، وطرقَتْ سمعَ كلِّ ولىّ فأصَمَّته ؛ وولَجَتْ كلَّ قلبٍ فأحرقَتْه صَبابةً وحُزْنا ، ومرَّت علىٰ الصَّلْد فصَدَّعته ولو كان حَزْنا ؛ وهى وفاةُ فلان سقىٰ الله عهْدَه ، وأسكنَ الرحمةَ ثَراه ولَحْده ؛ فشَقّ أسفًا علىٰ المفقُود جيبَ كلِّ جَنان وطوىٰ الأكبادَ علىٰ جِراحها ، وحَسّر الأجساد علىٰ أرواحها :

ومَا هِيَ إلَّا نَكْبَةٌ أىُّ نَكْبةٍ * أهاجَتْ سَـعِيرًا فى الحَشَا يتَلَهَّب !

فَلا جِسْـــمَ إلَّا بالتحَـرُّق ذائبٌ * ولا قَلْبَ إلَّا فى الأَسىٰ يتقلَّب !

بَكىٰ كُلُّ جَفْنٍ مَصْرَع السيف فٱغتدَتْ * عيونٌ عليْه فى الأَبَاطِح تَسْكُب !

لقَـــدْ هال عُـــذَّالى بُكائِى تعجُّبا * وإنَّ بكائِى بَعْـد فَقْـدِيه أعْجَبُ !

فلو رَامَ قُسٌّ وَصْـفَ حُزْنِى ولَوْعتِى * لقَصَّر فى أوصافِه حِين يُسْهِبُ !

فَواللهِ لا جَفَّتْ جُفُونِى من البُكا * وإنْ زادَ عُذَّالِى العِتابَ وأطْنَبُوا !

ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعةَ يدعُو لمولانا فيها ويُعزِّيه، ويَنْدُب فقيدَه بألسِنَة الأقلام ويَبْكِيه ؛ ويُبَشِّره بمـا وعدَ الله الصابِرينَ علىٰ مثل هـذه الرَّزِيَّة ويُسَلِّيه ؛ فيالها نازِلةٌ فَجعَتْ بغُصْنٍ رَطِيب، وقمرٍ يرْفُلُ من الشَّبِيبة فى ثوبٍ قَشِيب، وصدَعتِ القلُوبَ بفَقْدِ حبيبٍ وأىّ حَبِيب :

والمـــوتُ نَقَّادٌ علىٰ كَفِّه * جَواهِرٌ يَختار مِنْها الجِياد !

وبعدُ، فللمملوك فى هـذه الرزِيَّة مشاركَة كادتْ تُبايِن بينَ رُوحه والجسَـد، وهو المُصِيب لهذه المصيبةِ ماتجِدُه الوالِهةُ علىٰ فقْد الولَد ؛ لايَستقِرُّ به قرار، ولا يُنْجِيه من يَدِ الحُزْن فِرَار ؛ دأبُه البُكاء والعَوِيل ، وحُزْنه العريضُ الطَّوِيل ؛ فوا ضَـعْفَاه عن حمل هذا المُصَاب، ووا أَسَفاه علىٰ مُسافِرٍ لا يُنْتظَر له قدُومٌ ولا إيَاب ؛ وواعَجَباه لِضِدّين ٱجتمعا لوالده الكريم الجنَاب !

تَخُونُ المَنَايا عَهْـدَه فى سَـلِيلِهِ * وتَنْصُره بَيْنَ الفَوَارس والرَّجْل !

وعلىٰ كلِّ حال فهو أجْدَر من ٱستعانَ علىٰ هذه الحادثة بصَبْره، وشرحَ لمـا قد قُدِّر فَسِيحَ صَـدْره، وشكرَ اللهَ علىٰ حُلْو القضاء ومُرِّه ؛ فمـا كان إلا أحَدَ العُمَرين فُقِد فخلفه عُمَر، وثانِى القَمَرين أفَل فقام مَقَامه هلالٌ قَدِم من سَـفَر ؛ وفى بقاءِ المولىٰ

مايُوجب التسليم للقدَر والقضَاء، والشكرُ لله تعالىٰ فى حالتى الشِّدّة والرَّخاء؛ جعله الله فى حِرْز لايزالُ حَرِيزا مكِينا ، وحِصْن علىٰ ممرّ الأيامِ حَصِينا .

وله : أعظَمَ اللهُ أجره ، وأطال عُمُره؛ وشرح صَدْره ، وأجزل صبْره ، وسَخَّر له دَهْره .

المملوك يُنْهِى أنه اتَّصل به خَبَرٌ صدَع قَلْبه ، وسَرَقَ رُقادَه ولُبَّه ، وضاعف أسَفَه وكَرْبه؛ وهو [موت] فلان تغمَّده الله برحمته ، وأهمىٰ عليه سحائبَ مَغْفرته ؛ وعامله بلُطْفه، وجعل الخِيرَة له فى حَتْفه؛ فشَقَّ ذٰلك قَلْبَه وعَظُم عليه، وقارب لشديد حُزْنه أنْ يَصِل إلىٰ ماوصَل المرحومُ إليه ؛ لٰكنَّه ثبَّت نفْسَــه وثبَّطها ، ورفع يَدَه بالدعاء للمولىٰ وبَسَطها ؛ وسأل الله أن يُطِيلَ بقاءه ، ويُحْسِن عزَاءَه ، ويَحْرُسه من أزَمَات الزمان، فإنه إذا سلِمَ كان الناسُ فى السَّلامة والأمان؛ ويجعَلَه عن كل فائتٍ عِوَضا، كما أصاره جَوْهرا وجعل غيْرَه من الأنام عَرَضا ؛ ولقد جلَّت هــذه الرزيَّةُ علىٰ كلِّ جَنَاب ، ودخَل حُزْنُها إلىٰ كلِّ قلبٍ من كلِّ باب ؛ جعل اللهُ أجره للمولىٰ من أعظَم الذَّخائر، ومنَحه الحياةَ الأبدِيَّةَ التى لا تَنْتهِى إلىٰ أمدٍ ولا آخِر، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــــرب الثـانى

(التعـــزية بالبنت)

من كلام المتقدّمين :

ابن أبى الخصال المغربى :

الشيخ فلان عَزَّاه الله علىٰ احتِسابه ، وجعــل الثوابَ المرتقَبَ أفضــلَ اقتنائه واكْتِسابه ، مُعزِّيه عن فِلْذةِ كَبِده، ومساهِمُه فى أرَقِه وسُهْده ، والفاتُّ فى عَضُــد صَــبْرِه الجميــلِ وجَلَده؛ فلان . فإنِّى كتبتُه ـ كتب اللهُ لكم خيْرا يُذْهِب جَزَعَكم ،

وحَسَّن مَنْجاكم بالتفدّى الجميلِ ومَنْزَعكم ـ عند ماوصَلَنِي وفاةُ ٱبنتِكم المرحومةِ نفعها الله بإيمـانها، وتلقّاها بَرْوح الجنّـةِ ورَيْحانها؛ وهى ـ أعزَّك الله ـ وإن آلمَكَ فقْدُها، وأوجعَكَ أنِ ٱستأثَرَبها لَحْدُها؛ فليُعَزِّك عنها مُصابُنا بنبينا عليه السلام، وعلمُك بأنَّا جميعًا بمَدْرَجة الحِمَام؛ أفتَجِد علىٰ الأرض خالدا، وقديمـًا ثَكِلْنا وليدًا نَجيبا ووالدا، فمَنْ خُلِق للفَناء، وٱختُلِس بمَرِّ الساعاتِ والآناء، جديرٌ أن يتَّعظ بنَفْسه، ولا يَحْزَنَ لذَهاب من ذهب من ذَوِى أُنْسه؛ فاحمدِ الله عزَّ وجلَّ إذ رَجَّحتْ مِيزانَك، وضَمِنت لك يومَ المَعَادِ جِنانَك؛ والله عز وجل يرزُقنا ٱحْتِسابا جميلًا وصبْرا، ويُؤْنِسك وقد ٱختار لك الصِّهْر قَبْرا، ويعظِّم لك ثوابا جزيلًا علىٰ مُصابك وأجْرا؛ ويعُمُّ فقيـدَتَك بالرُّحمىٰ، ويسْكُب علىٰ جَدَثها مُزْنَها الأوْكفَ الأهْمىٰ، ويُؤْوِيك إلىٰ كَنَفه الأعظم الأحْمىٰ؛ بمَنِّه ورحمته، لا رَبَّ غيره؛ والسلام عليك ورحمةُ الله وبركاته .

الضـــــرب الثـالث

(التعـــزية بالأب)

من كلام المتقدّمين :

ابن أبِي الخصال معزِّيا بوزير :

ياسيِّدى وواحدى، ومَحَلَّ الآبن المبْرور، والأخِ المشْكُور، عندى؛ أعزَّك الله بالتقْوىٰ، ورَضَّاك بما قضىٰ، وأمَدَّك بالنُّعمىٰ، وشَمَلك بالحُسْنىٰ؛ كتبته ـ أعزك الله ـ وقد وصلَ كتابُك الكريم بما نفذ به القَدَر الذى هو فى العِباد حَتْم، وله فى كلِّ عُنُق خَتْم؛ فى الوزيرِ الفقيهِ الشهيد أبيك كان، رحمه الله وأكرم مَثْواه، وجعل الحُسنىٰ التى أعدّها لأوليائه مَقرّه ومأْواه؛ فأسِفْتُ كلَّ الأسَفِ لِفِقْدانه، وقد كان عيْنَ زمانه،

وعُمدَةَ إخْوانه ؛ تغمَّده الله بغُفْرانه ، ونقــله إلىٰ رِضْوانه ؛ وتلك ـ أعزك الله ـ غايةُ الأحْياء، وسبيلُ الأعداء والأحِبَّاء ؛ كان علىٰ ربِّنا ـ جَلّ وعلا ـ حَتْما مقْضِيّا، ووَعْدا مَأْتِيًّا ؛ والأسوةُ ـ أعزَّك الله ـ فى غَمْره الفَضْفاض ، وبِرِّه الفَيَّاض ، وأنه خُتِم له بالخير والآنْقباض ؛ وكان آخِرَ ذٰلك [الحسب] القَديم ، والجيلِ الكريم ؛ وقد أمرك الخير فافعَلْ ما أُمِرت به وكُنْ كما ظَنَّك وقَدَّرك وترَكك ؛ وإنك بفضل الله تَسُــدّ مَسَدّه ، وتبلُغ فى كل فضيلةٍ حُضْرَه السابقَ وشَدَّه ، وتُعِدُّ للأيام من الجِدّ والآعتِزام ماأعدّه ؛ وإخْوتُك ـ أعزك الله ـ لك أظْهــارٌ وأعْضاد ، وفيهــم غَرْزٌ ومُضَــادّ ؛ فآشْتَمِلْ عليهم ، وآرْفُق بهم ؛ فإنهــم يُنْزِلُونك منزلةَ أبيهم ، وتَجِدُ أخلاقَه وعَوْنَه فيهم ؛ وأما ماأعتقِدُه من تكريمك ، وأَراه من تفضــيلك وتقديمك ؛ فشيء تَشْهَدُ به نفْسُــك ، ويُدْرِكه يقينك وحَدْسُك ؛ أشدّ به آعتناء ، وأجمــلُ له آستواء ، وأوفى عنك رِداءً وغَنَاء ؛ جعلنــا الله من المتحابِّين فى خلاَله ، والمتقلِّبين فى ظِلاَله ، وأمَّنَنا من الزمان وآختلافِ أحوالِه ؛ بمنّه والسلام .

الضـــــــرب الرابع

(التعـــزيةُ بالأم)

أبو محمد بن عبد البر المغربي :

مَامات مَنْ أنْتَ بعْــدَه خَلَفٌ * والكُلُّ فى البعضِ غيرُ ممتنِــع !

كتب عبدُه القِنّ ، من الأسىٰ لأجله بعضَ ما يُجِنّ ؛ المُنْطوِى علىٰ قلبٍ تطمَئن القلوبُ سُلُوًّا ولا يطْمَئِن ؛ فلان : بعدَ وصول كتابِه الكريم بصَدْعٍ يُصْمِى القُلُوب ، ويَقُدُّ أقوياء الجُيُوب ، ويترُكُ الأحبابَ مصَرَّعين علىٰ الجُنُوب ، فوقَفَ العبدُ عليه مترقْرِقَ المَدَامع ، متحَرِّق الأضَالِـع ، رائيًا سامِعًا شجَا الأبصارِ وأسىٰ المسامع ؛ فياأسفِى

لخطْب ضَعْضَع رُكْن الجدِّ وكان وَثِيقا ، وصَوَّح روضَ الفضـل وكان وَرِيقـا ؛ ونغَّص حَسَنَ الصبر ولم يزَلْ صَدِيقا ، وترك العبدَ خليقًا بهذا القول ومثلِه معه حَقِيقا ؛ فآهٍ لدِين ومروءة فُقِدا فى قرَن ، وعلىٰ صونٍ وعفَاف أُدْرِجَا فى كَفَن ، وحَصَانٍ رَزَانٍ لا تُعرفُ بوَصْمة ولا تُزَنّ ؛ لقد أصَمَّ بها النـاعِى وإن كان أسْمَع ، وأرّق ماشاء الفُؤادَ وأراقَ المدْمَع ؛ ولم يُبْقِ قلبا للصبْر إلا صَدَعه ، ولا أنْفا للسُّلُوّ إلا جَدَعه ؛ ولا بابا للتعزِّى إلَّا أَرتجه ، ولا عقِيما للتأسُّـف إلا أنْتجَه ؛ ولو قُبِـل فى الموتِ فِدًا وصَحَّ أن يؤخَذَ فيه فِداءٌ لمـا خَلَص إليكم ولا ألَمّ ، ولا عَدَاكُمْ فى صُروف المَنَـايَا المخيفـةِ سَـلَمْ ؛ لٰكن أبىٰ الله إلا أن تَعُمَّ الحُرْقه ، وتستولِىَ علىٰ الوقْت الفُرْقه .

الضـــــرب الخامس

(التعـــزية بالأخ)

أبو محمد بن عبد البر :

وكتبتُ والأنفُس مرتَمِضه ، والعينُ غيرُ مغتَمِضَه ؛ والانفاسُ تتصعَّد ، والأحزانُ تتأكَّد ؛ أسَـفًا لِلُمصاب الذى عَمّ وغَمّ ، وأسمَعَ نعيُه فأصَمّ ؛ وقال للفرح : كُفَّ من عِنَانك ، وللتَّرح انتظِرْ لأوَانك ؛ بوَفَاة [الفرد] الذى فى رأسه نُور ، وسَدَاد الآراء المختلفةِ وسِـدَاد الثُّغُور ؛ والفَـذِّ الذى شَهِد الرجالُ بفضله ؛ وعَقِم النساءُ فمـا تَجِىء بمثله ؛ أبى فلان صِنوِكم ، السابِق الذى لا يُجارىٰ ، والشارِق الذى لا يُسارىٰ ؛ والغيثِ الذى عَمَّ المُنِيـل والمستَنِيل ، والليثِ الذى ورَدَ الفُراتَ زئيرُه والنِّيل ، فإنَّا لله وإنَّا إليـه راجِعُون ! تسليماً للقدَر وإنْ ساء ، وشَمِلَ المرءُوسِين والرُّؤساء ؛ فيالَهُ مُصاباً ترك كلَّ رأس أَمِيَا ، وأودَعَ صميم كلِّ فؤاد ثُكْلا صَمِيا ؛ لقـد أنصَلَ السُّمْرَ اللَّهاذِم ، وأغمدَ البِيضَ الصَّوارِم ؛ وعطَّلَ الكتائبَ والمَقَانب ، وأوحشَ المَفاوِزَ والسَّباسِب ؛ ولم يُبْقِ مَشِيدَ

عُلًا إلا هَدَّه، ولا مَديدَ ثناء إلا صَدّه، ولِمَ لا وهو الشخص يموت بموته بشر كثير، ويبكيه قلمٌ وحُسام ومِنبَر وسَرير، وعندَ الله نحتَسِبه جميعا، ونُوسِعُه بمحْض الصَّفاءِ وصَفْو الثناء تنْويعا وتشْييعا، ونُفارِقُه فِراقَ الصَّدْر خَلَدَه، والمُصاب جَلَده، فوَاأسفىٰ لرُزئه ما أفْظعَه مَوْقِعا! وواحَرَبا ليومه ما أظلَمَه مَطْلَعا! وواحَزَنا لنَعْيِه ما أشْنعه مَرْأًى ومسْمَعا!!! فلئن جَرَتِ الدموعُ له دِما، وأضْمرت الضلُوعُ به مُضْطَرِما؛ لما أدّت حقّهَ ولا كَرَبَتْ، ولا دانتْ بعضَ الواجب فيه ولا آقترَبَتْ؛ ولولا أنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌ لا يُحَلَّأُ وارِدُه، ومَعْلَمٌ يهْدَىٰ إليه علىٰ أهدىٰ سَمْتٍ مُباعِدُه؛ لم يبقَ فى أُنْسٍ مَطْمَع، ولا لحُزْن مستَدْفَع، ولكان الثاكل غيرما ترىٰ وتَسْمَع؛ وما أنتم أيُّها الشيخ المكَرَّم ممن يُنَبَّه علىٰ ذُخْر من العمل الصالح، يكْتَسِبُه، وصبْرٍ فى الرُّزْء الفادح، يحتَسِبُه، فصبْرًا فالمَنُون غايةُ المُمْسين والمُصبِحين، والنبأ الذى يُعْلَمَ ذَوْقًا ولو بعد حين؛ وهو تعالىٰ المسئُول أن يرْقَع بمكانِكم هذا الخَرْق المتَّسِع، ويصل بجنابِكم ذٰلك الشَّمْل المنْصَدِع.

ابن أبى الخصال:

الشيخ فلانٌ أبقاه الله يتَلقّى الأرزاء بحُسْن الصبر، وجميلِ الاحْتِساب، ويتقاضىٰ بالتعزى مرتَقَبَ الأجر، ومُنْتَظَر الثَّواب، مُعزِّيه فى أخيه الكريم علينا، العظيم مُصابُه الفادحُ لدَيْنا، فلان: فإنى كتبْته ـ كتبَ الله لكم صَبْرا تجِدُون ذُخْره، وأوجب لكم عَزاء تَحْمَدُون يوم القيامةِ شأْنَه وأمْرَه ـ عنْدَ ما وصل من وفاة الشيخ أبى فلانٍ أخيكم رحمه الله تعالىٰ ما كدَّر العيشَ ونغَّصه، وجَشّم جُرَعَ الحِمَام المَقْطُوعةَ وغُصصَه، فإنّا لله وإنّا إليه راجِعُون!! آستِسْلامًا لقَدَره وقضائه، وأخْذًا فيما يُدْنِى ويقرّب من إرْضائه؛ وما نحنُ إلا بَنُو الأمواتِ الذين دَرَجُوا، وسنَخْرُجُ من الدُّنيا كما قبْلَنا خَرَجُوا، جعلنا اللهُ جميعًا ممن ينظُر لمَعاده، ويجعَلُ التقوىٰ خيرَ ما أوْعاه بجِداده؛

وسلَكَ بنا نَهْجَ هِدايتِه وطريقَ رَشادِه . وهو جلَّ وعلا يُجْزِل لكم علىٰ مُصابِكم ثَوابا عَمِيما موْفُورا، ويجعلُ فقيدَكم بين أيديكم فى يومِ القيامةِ نُورا، ويُلَقِّيه فى دار الفِرْدَوْس مُلْكا كبيرا وحُبُورا، ولولا كذا لسِرْت إليكم لأُعَزِّيَكم شِفاها ، وأَحَدِّثَكم عن ضُلوع أحرقَ هذا المصابُ حَشَاها، لٰكن آمتثالُ أمره المُطَاع، حملَ علىٰ البِدَار إلىٰ ماأَمَربه والإسْراع، والله عزَّ وجل يُدِيم لنا بكم الإمْتاع، بمنِّه وكرمه، والسلام .

الضـــــرب السـادس

(التعـــزية بالزوجة)

من كلام المتقدّمين :

أبو محمد بن عبد البر :

وقد تقرَّرَ عِنْدَ ذَوِى الألباب، وثَبَتَ ثُبوتا لا يعَلَّل بالاِرتياب، أنَّ الدنيا قنطَرةٌ دائِره، ومَعْبَرة إلىٰ الآخِره، وأنَّ ساكنَها وإن طال عُمْره، وطار فى الخافقَيْن أمْرُه، لَدِيغ سَمِّها، وصريع سَهْمِها، فما تُضْحِك إلّا لتُبْكِى، ولا تُؤنِس إلا لتُنْكِى، وقد نفَذَ القدَرُ الذى ماله رَدّ، ولا منه بُدّ، بوفاةِ فلانةَ ألحقها الله رضوانَه ، وأسكنها بفَضْله المرجوِّ جِنَانَه، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون ! ! تأسِّياً بالسَّلَف الصالح، وتسلِّيًا عن ماء الدَّمع السَّافح، وزَنْد القلب القادِح . وعِندَ الله نحتَسِبها عقيلَةً معدُومةَ المَثِيل، مفقُودةَ الدِّين والعِفَّة فى هذا الجِيل، متحلِّيةً من دُعاء الفُقَراء، وثَناء الصُّلَحاء، بالغُرَّة الشادخة والتحْجيل ، لقد ذهَبَ لذَهَابها الرِّفْق والحَنَان، وعُدِم لعَدَمها الشِّيَم البَرَّة والأخلاقُ الحِسَان ، وإنَّ فقْـدَها لخَرق لايُرْقَع، وغُلَّة لاتُنْقَع، وخَطْبٌ لايَزَال الدهْرُ يُتذَكَّر فيَصْـدَع ، ولولا العِلمُ بأن اللَّحاقَ بها أمرٌ كائِن ، وأن المخلَّف فى الدُّنيا لا مَحالةَ عنها

بائِن ؛ وأن التنقُّلَ للآخرة مالاانْفَكَّ نسمعُه ونُعاين، لَمَا بقِيتْ صُبابةُ دمْع إلا ٱرفضَّتْ، ولا دِعامةُ صَبْرٍ إلا ٱنقضَّت ؛ ولكانَ الحُزْن غيرماتَسْمَع وترىٰ، والوجدُ فوقَ مايَجْرِي وجرىٰ، لٰكنْ لامعنىٰ لحُزْن لما يقَعُ فيه الآشتراك، ولا وجْهَ لأسَف علىٰ مالايصِحُّ فيه الآستِدْراك . وما أنتمْ بحمدِ الله ممن يُذَكَّر بما هو فيه أذْكَر، ولا ممن يُنَبَّه علىٰ ما هو بالتنبيه عليه أخلَقُ وأجْدَر ؛ ولولا أنَّ التَّعازِىَ مما اطَّرد به العمَل ، وسَنَّه الصالحُونَ الأُوَل ، لما سُلِك سبيلُه معكم وأنتم ممن قدَرالأُمورَ قَدْرَها، وعلِم أنَّ الحياةَ ولو طالت فالموتُ أثرَها ؛ وإذا لم يكُنْ من الموت بُدّ، ولم يَمْنَع منه صَدٌّ ولا سَدّ ؛ فالصبر خيْرٌ من الجزَع، وأدلُّ علىٰ كرم المَنْحىٰ والمَنْزَع، وأحْرىٰ بأن يكون الثوابُ جَزِيلا، والجزاء حَسَنا جميلا ؛ والله يبقيكم أتمَّ البقاء، ويرَقِّيكم أتم الآرتقاء .

ابن أبى الخصال :

الشيخ الأجلُّ فلان ــ آنسَ اللهُ وَحْشَتَه، وجدّد علىٰ فَقِيدته رحمتَه . معَزِّيه عن أهله الهالكةِ وسَكَنه ؛ ومساهِمُه بأوجَبِ حُزْنٍ فى القلوب وأسْكَنِه . فلان :

فإنا كتبْناه عن دُمُوع تَصُوب وتَنْسَرِب ، وضُلوع تخْفق من وَجِيبِها وتضْطَرِب ، وأُنْس يشْرُدُ منا ويحتَجِب، بموت فلانة رحمها الله التى أودعَتْ فى جَوانِحنا من الثُّكْل ماأودعَتْ، ورضَّتْ أكبادَنا بمُصابِها وصدَعت، عَزَّانا الله جميعًا فيها، وأوْلاها نعيمًا فى الفِرْدوسِ الأعلىٰ وتَرْفِيها، وأعقَبنا من الوَحْشة أُنْسا، وعَمر بالرُّحْمىٰ جَدَثاً مباركا ورَمْسا؛ وجعلَنا كُلًّا ممن يَرْدَع عن الآنحطاط إلىٰ الدنيا نَفْسا، بمنِّه وكرمه .

من كلام المتأخريـن :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

لمّـا علم مملوكُ المجلس السامى أطال اللهُ بقاءه، وأعظم أجْرَه وأحسن عَزَاءه، وفاةَ السيدة المرحومةِ سَقىٰ الله عَهْدَها عَهْدا يبُلُّ الثَّرىٰ ، وجعل الرحمـةَ لمن نزلَتْ به لها القِرىٰ، تألَّمَ لفقْدها غايةَ الألَمْ، ووجد حُرْقةً كسَتْه ثوبَىْ ضَنًى وسَقَم، وحُزْنا لايعبِّر عنه بعبارةِ بَيانِه، ولا يستوعِبُ وصفَه بلسانِ قلمِه وبَنانِه :

ولَوْ كانَ النِّساءُ كَمَنْ فقَدْنا * لفُضِّلتِ النِّساءُ علىٰ الرِّجال !

والمْولىٰ أوْلىٰ من عَزّىٰ نفْســه، وآستَحسَن رِداءَ الصبرِ ولُبْسه ؛ وعلمَ أنَّ الموت غريم لايُنْجِى منه كثْرةُ المِطَال ، ولا يُدافَع بالأطلاب والأبْطـال؛ وأنه إذا طالب بذِمَّة كان ألدَّ الخِصام، وإذا حارب فعلَ بيدِه مالا تَفعَلُه الكُماةُ بحَدِّ الحُسَام .

الضـــــرب السـابع
(التَّعازِى المطلَقةُ ممـا يصلُح إيرادُه فى كلِّ صِنْف)

من ذلك، من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

مَن صَحِب الأيامَ وتقلَّب فى آنائها ، آعتَورَتْه أحداثُها، وآختلَفتْ عليه أحكامُها: بين مَسَرَّة ومَسَاءة يعتقِبان، وفَرْحةٍ وتَرْحة يتَناوبانِ [وكان] فيما تأتيه من محبُوبها علىٰ غير ثِقَةٍ من دوامِه وآتِّصاله ،ولا أمْنٍ من تغيره وآنتقاله ؛حتّى تعقُب السلامةَ حَسْرة، وتستحيلَ النعمةُ مِحْنــة ؛ والسعيدُ مَنْ وُفِّق فى كلِّ حال لحظِّــه ، وأُعِينَ علىٰ مافيه سَلامةُ دِينه : من الشُّكْرعلىٰ المَوْهِبة، والصبرِ علىٰ النازِلة ، وتقديم حقِّ الله تعـالىٰ

فى حال الغِبْطـة والرَّزِيَّة . ولم تكن بالفَجِيعَة به مُفْرَدا عنِّى وإن كان النَّسَبُ يقرِّبه منك، والرَّحِم تَصِلُه بك : لمـا كنتُ أُوجبه من حقِّه، وأرعاه من مَوَدّته، وأختَصُّه بالاعتداد فيه دُون أدانِى أهْلِى والثِّقَـة من إخْوانى ؛ فمضىٰ رحمهُ الله أقوىٰ ما كان الأملُ فيه، وأكمَلَ ما كان عليه فى لُبِّه وأدَبِه، واجتماع فَهْمِه وكمال هَدْيه، وانتظامِ أسبابِ الخير وأدَوات الفضْل فيه .

ومنـــه : لايُنْكَر للعبد أن يتناوَلَ مولاه عند وُقُوع المِحنة فى أهل خاصَّته، وتَخَوُّن رَيْب المُنون من حاشيته، بالتَّعْزِية عن مُصيبته، والإخبار عما يَخُصُّه من ألَمِ فَجِيعته وعُظْم رَزِيَّته، لاسِيَّما إذا كانَ بحيثُ لايُرىٰ شخصُه فى البا كين، ولا تُسمَع صَرْخَتُه بين المتفَجِّعين، ولو سعَيت علىٰ حَدَقِتِى .

ومن ذلك :

إنَّ الله تعالىٰ أمرَ أهلَ طاعته، بتنزيل هذه الدنيا بمنْزِلتها من إهانته، وسوّىٰ بين البَرِّ والفاجر فى رغائبها ومَصَائبها، ولم يجعل العطيَّةَ دليلًا علىٰ رِضاه، ولا الرزِيَّةَ دليلًا علىٰ سُخْطه ، ولكنَّه ألزمَ كلَّ واحد من أهـلِ الرِّضا والسُّخْط من نِعَمِها بنَصِيب ، وسقاهم من حوادِثها بذَنُوب : ليبتلِىَ أهلَ رِضاه فى أهْون الدارَيْن عليـه، ويُحْسن لهم الجَزَاءَ فى أكْرمِهما لدَيْه ، ولذٰلك حبَّب إليهم الزَّهادةَ فى زَهِيد فائدَتِها، ومَمْنُوح زَهْرتها ، وسمَّاها لَعِبا ولَهْوا : لئلَّا يَعْتَقُوا بحُطَامِها ، وينغَمِسُوا فى آثامها ، وختَمها بالموت الذى كتَبه علىٰ خَلِيقته ، وسوّىٰ بينهم فى سَكْرته : ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَـا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنىٰ ﴾ . ويُقرِّبهم بدار يَفْنىٰ الموتُ ويبقَوْنَ فيها بعْده ، كما فَنُوا فى هــذه الدار وبقِى الموتُ بعدَهم ؛ فإن تأخَّر الأجل فإلىٰ غايه ، وإن تطاوَلَ الأمَدُ فإلىٰ نِهَايه؛ ولابُدَّ أن يَلْحَق التالِى المـاضِى، والآنف بالسالِف، وهذه حالٌ نُصْبَ الأفكار، وتِلقاءَ الأبصار، لاتحتاج أن يرتاض الصبرُ علىٰ آلامها،

والتحمل لمُعْضِلات سِهامِها، والجزَعُ عند وقُوعها قادحٌ فى البصائروالأفهام، دالٌّ علىٰ الجهـل بالليالِى والأيَّام؛ وقد طرق المملوكَ ناعِى فلان فهدَّ جلَدى، وفتَّ كَبِدى، لا ٱرتياعا للحادثةِ : لأنَّها لولم تكُن فيه لكانتْ فى المملوك، ولو لم تتطرَّقْ إليه لتطرّقت إلىٰ المدرك(؟) ولٰكن الأسفُ علىٰ عَطَل الزمان من حِلْية فضلِه ، وتعرّيه من حُلّة نُبْله، وخلُوِّ عِراصه من الأُنْس بمثله، وما نالَ سيِّدى لفقْده، وتحمَّلَه من بُعْده؛ وإلىٰ الله تعـالىٰ يرغَبُ المملوك أن يَرْبِطَ علىٰ قلْبـه بالصبر، ويوفِّقه لتنجُّز ماوعد به الصابرين من الأجْر، إن شاء الله تعالىٰ .

علي بن خلف :

رقعـــة : ليس عند المُصيبةِ ـ أطال اللهُ بقاء سيدى ـ خيرٌ من التسليم إلىٰ الله والرِّضا بقضائه، والصبرِ علىٰ بَلَائه؛ فإنه تعـالىٰ مَدَح الصابرين فى كتابه، ووعدَهُم بصَلَواته. فقال جل قائلا : ﴿ ٱلَّذِينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالُوا إنَّا لله وإنَّا إليْهِ راجِعُون أُولٰئِكَ عليهِمْ صَلَواتٌ من رَبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولٰئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ ﴾ . وقال جل قائلا : ﴿ وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ الّذينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُـم والصَّابِرِينَ علىٰ مَاأصابَهُـمْ ﴾ . ولم تزل الأولياءُ من القُدَماء يَحُضُّون علىٰ الصـبْر وهم لا يَرْجُون عليه ثوابا، ويَنْهَوْن عن الجَزَع ولا يَخافُون عليه عِقَابا؛ ومَنْ عرفَ الأيَّام وتداوُلَها، والأحوالَ وتحوُّلَها، وسَّع صدْرَه للنوائبِ، وصبرَ علىٰ تجرُّع المصائِب، ومن ٱغترَّ[1] بطول السَّلامه، وطَمِع فى الٱستمرار والإقامه .

رُقعـــة : وقد ٱتَّصـلَ بالمملوكِ خبرُ الفَجِيعـة بفلان ، فأُفِيضتِ المَدَامع ، وتضَعْضَعت الأضَالِـع ؛ وزَفَرت الأنفـاس، وهَمَدت الحَوَاسّ ؛ وأذابَ الطرفُ

(١) لم يذكر فى الاصل لهذا الشرط جوابا ويمكن أخذه من المقام أى «فقد حاول محالا، وضل فى سعيه ضلالا» أو نحو ذلك .

سَوادهُ علىٰ الوَجَنَات بدَلًا من الأنقاس ، وخلعَتِ القلوبُ سُوَيداءَها علىٰ الأجساد ، عِوضًا عن جلابِيبِ الحِدَاد ؛ وعُضّت الأنامِلُ جَزَعا ، ومُزّقت الثيابُ تفَجُّعا وتوجُّعا ؛ وكل هذا وإنْ فارقَ حميدَ التَّماسُك ، ووافق ذَميم التَّهالُك ، غيرُ مُوفٍ بحقِّ ذٰلك الدارج الذى بلغ المَعالِيَ وهو فى مَهْده ، وشدّ دَعائم الفضل ولم يبلغ أوانَ رُشْده ؛ وعلِمَ سيدى أنَّ غايةَ الجازِع وإن صدَعتِ المصيبةُ قلْبَه ، وأطاشَتِ الفجيعَةُ لُبَّه ، الصبرُ والسُّلُوّ ؛ وأنَّ نِهايةَ القَلقِ وإن هجمَتْ عليه الحُرْقة بما لاتتوفَّر عليه الأضالِع ، ولا تتماسَكُ معه المَدَامِع ، القَرَارُ والهُدُوّ ، واللهُ تعالىٰ لايُرِيه بعدَ هذا الرُّزْء رُزْءا بفِنائه ، وينقل ذٰلك عنه إلىٰ حاسِديه وأعدائه .

رقعة : مَنْ علِمَ أنَّ الأقضِيَةَ لاتُخْطِئ سِهامُها ، والأقدارَ لاتُرَدُّ أحكامُها ، سلَّم الأمرَ فى السَّرَّاء والضَّرَّاء ، ورَضِى بما مَنَاه فى البَلَاء والاْبتلاء ؛ ولا سيَّما فى مُصيبةِ الموت التى سوّى بين الخليقة فى تجْرِيع صَابِها ، واْقتِحامِ عِقَابها ؛ وقد اْتَّصل بالمملوك خبرُ الحادثِ الفاصِم لعُرىٰ الجَلَد ، البارح[1] فى الجلد . فاستحالَتْ فى عين المملُوك الأحوال ، ومالَتْ عنه الآمال ، ورأىٰ السماءَ وقد تكدَّر جوّها ، والشمسَ وقد تعكَّر ضَوُّها ، والسَّحائبَ وقد أخلف نوُّها ، والنَّهارَ وقد اْظلم ، والليلَ وقد اْدْلَهَمّ ، والنسيمَ وقد رَكَد ، والمَعِينَ وقد جَمَد ، والزمانَ وقد سُهِمَتْ وجنته ، وسُلِبتْ حِلْيَتُهُ ، وأَفْرَجت قبضَتُه عن التماسُك ، وقبَضَتْ علىٰ التهالُك ، وعدلَتْ عن التجلُّد ، إلىٰ التبلُّد ؛ ثم أفاقَ من غَمْرة فَجِيعتِه ، وهَبِيب سِنَة رويَّته ، فسلَّم لله راضيا بأقضيَتِه ، راغبًا فى مَثُوبتِه .

---

(١) لعله البادح والبَخ والبدح بالاهمال والاعجام الشق والمراد ظاهر .

أبو الفرج الببغاء :

إذا كان أيَّده الله أَهْدىٰ فى النِّعم إلىٰ سُبُل الشكر، وأعرفَ فى المِحَن بطُرُق الصبر، فكيف نُحاذِرُ عليــه من المَصائِب ، ونذَكِّره التسليمَ لمحتوم النَّوائِب، والمصيبةُ بفلانٍ أعظمُ من أن نهتدى فيها إلىٰ سَلْوةٍ غيرِ مستفادةٍ منه ، أو نقتَدى فى العَزاء بغير ماناأخُذُه عنــه، إذ كانتْ قلوبنا تَبَع قلْبــه ـ سَرَّه الله ـ فى طُرُوق السَّراء والضَّرَّاء، وحالَتِى الشِّــدّة والرَّخاء . وأحسن [الله] عن الفَجيعة عَزاءه، وأجزلَ من المثُوبةِ عطَاءَه، ولا شغَلَه عن حَلاوة شكر النِّعم بمَرارة الصبْرِ علىٰ وُرُود المِحَن، وجعل مانقلَ المــاضِى إليه، أنفَعَ له ولسيِّدى من الجَزَع عليه .

وله فى مثـــله :

ٱتَّصل بى خبَرُ المصيبةِ فجدَّدَ الحَسْره، وسكَبَ العَبْره، وأضرَمَ الحُرْقة، وضاعَفَ اللَّوْعة، وكان الأســفُ عليه، بقَدْر تشوُّف الآمالِ كانتْ إليه : فإنَّا لله وإنَّا إليــه راجعُون ! ! أخْذًا بأمْره، وتسليماً لحُكْمه، ورِضًا بمَواقع أقضيتِه، وأحسَنَ الله فى العزَاء هِدَايته، وحرَسَ من فِتَن المَصائب بَصيرتَه، وحَمَل عن قَلْبه ماأظلَّه من ثِقَل المصيبة وعِظَم الرزيَّة .

ولا أزالُ علىٰ جمـلةٍ من القَلَق إلىٰ أن يَرِدَ علىَّ كتابُه ـ أيده الله ـ بما أكونُ فيه بأدَبِه مقْتدِيا ، وبِهدايتــهِ إلىٰ سَبِيل العَزاء والصــبْرِ مُهْتَدِيا ؛ فإن رأىٰ إجرائى من تشريفه بذٰلك علىٰ مشكُور العادة، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

ٱشتراكُ القلوبِ فيما ألَمَّ بقلْب سيِّدى بحسَبِ تَساوِيها فى المَسرّةِ بما سرَّه ، إذ كان لايختصُّ دُونَ أوليائِه بِنعْمه، ولا ينفَرِدُ دُونَ مؤمِّليه بحلُول مَوْهِبه، والمصيبةُ بفلان

ـ وإن جَلَّ موقِعُها وعظُمت الفَجِيعة [بهـا] ـ جَلَل[١] مع سُقُوط الأقدارِ دُونَه ، وتجاوُزِها عنه ، ومُسامحتِها به ، فلا شغَلَ الله قلبه بعْدَها بمَرارة الصبْر عمَّا تُوجبه النِّعم من حَلاوةِ الشُّكر، ولا جاوره برزِيّة فى حميم ولا نعمه .

وله فى مثـــله :

بصيرتُك إلىٰ العَزَاء تَهْدِيك ، وآغتباطُك بثَواب الله يُسلِّيك ، وعلمُك بِقلَّة الغَنَـاء عن الجَزَع يَثْنِيك ، وجمْعُنا بك فى الصبْر مقتَدُون ، ولرأيك فى الرِّضا بمـا آختاره الله تعالىٰ متَّبِعُون ؛ فحَمَلَ الله عن قلبك ثِقْلَ المُصيبة ، وحرسَ يَقِينَـك من آعتراض الشبهة ، وأحسن إلىٰ جميل الصبر هِدايَتَك ، وتولّى من فِتَنِ المِحَن رِعايتَك ، وجعل مانَقَل المـاضى إليه ، أنفَعَ لك وله من الأسَفِ عليه .

وله فى مثـــله :

اِتَّصل بى خبَرُ المصيبةِ فأضْرمَ الحَسْره ، وسكَبَ العَبْره ، وقَدَح اللَّوْعه ، وآمترَىٰ[٢] الدَّمْعه ، وكانتْ مُشاركَتِي إيَّاك فى المُصيبة به ، والفَجِيعةِ لفَقْده ، بحَسَبِ آختصاصِي بمواهِب الله عِنْدك ، وآغتباطِي بِمنَحه لديْك ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليــه راجِعُون ! ! تسليماً لأمْره ، وآنقيـادًا لحُكْمه ، ورضًا بمَواقع أقْدارِه ، وأحسن اللهُ علىٰ العزَاء توفيقَك ، وإلىٰ السَّلْوة إرشادَك ، ولا أخْلاك فيما تطْرُقك به مصيبةٌ من مصاحَبةِ الصبر ، وفيما تَفِد به عليك نعمةٌ من الآستزادةِ بالشكر ؛ وحَرَسك فى نفْسك وأحبَّتك ، وذَوِى عنَايتك ونِعمَتك .

---

(١) أى يسير هين على حدّ قول امرئ القيس لمـا قتل أبوه :

بقتل بنى أســد ربهم * ألا كل شىء سواه جلل

(٢) فى القاموس « ومرىٰ الشىء آستخرجه كامتراه » .

وله فى مثــله :

قدرُك أكبرُ، وبصيرتُك أنورُ، وثقتُك بالله تعالىٰ أعظَمُ من آعتراض الشُّكُوك عليك فيما يَطْرُقُك من عِظَاته بالحوادث وإن عظُمتْ، والمِحَنِ وإن جلَّتْ؛ آختِبارا بالمَصائب لصَبْرك، وبما يُظاهِرُه عليك من النِّعم لشُكْرك، ومثلُك أيَّدك الله مَنْ قابلَ الفجيعةَ بفلان ـ إذ كانتْ من الواجب المحتُوم ـ بأحسَنِ عَزاءٍ وأفضل تسليم، غيْرَ مرتابٍ بما آختاره اللهُ له ولَكَ فيه، فعَظَّم الله به أجْرَك وحَرَسك وحَرَس فيك .

الأجوبةُ عن التَّعازِى

قال فى "موادّ البيان" : أجوبة التَّعازى يجبُ أن تُبْنىٰ علىٰ وُقُوف المُعزّىٰ علىٰ كتاب المعزِّى ، وأنَّ إرشاده نقع غُلَّته، ووعْظه نفَع عِلَّته ، وتبصيره سكَّن أُوَاره، وتذكيرَه أخمدَ نارَه، وتنبيهه أيقَظَ منه بحُسْن العَزاء غافلا، وهدىٰ إلىٰ الصبر ذاهِلا، وحسَّن عنده الرزِيَّةَ بعد جَهَامتها، ودمَّث نفْسه للمصيبة بعد فدَامتها، فسلَّم لله تعالىٰ متأدِّبا بأدَبه، وعَمِل بالحُكْم مقتَدِيا بمذْهبه ، وغالَبَ الرُّزْء بالعَزْم، وأخذَ فيه بالحَزْم؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُحْسِن له العِوضَ فى ردّه ، ويجعَلَه له خَلَفا ممن أُصِيب بفَقْده؛ ونحو هذا مما ينخرط فى سِلْكه .

جواب عن تعزية : من زهر الربيع :

أعزَّ الله سيدَنا وأسعدَه ، وسهَّل له طريقَ المَسرَّة ومهَّدَه ، وصانَ عن حوادث الأيّام حِجابَه، وعن طوارِقِ الحَدَثان جَنابَه؛ وجعله فى حِمىً عن عوارض الغِيَرَ والغَرَر، وأصار أيَّامه محسَّنةً لوجُوه الأيَّام كالغُرَر .

ورد الكتابُ الذى أنعَمَ بإرساله ، بل المَشرِّف الذى كَستْه اليدُ العاليةُ حُلَّةً من حُلَل جَماله ، فوقَف عليه وفهِمَه وتذكَّر به إحسانَهُ الذى لايَنْساه ، وتفضُّلَه الذى لايَعْرِف سِواه ؛ فأما التعزِيَةُ بفلان ، فإنه ردّبعَذْب لفظها قُوّتَه ، وبَلَّ بماء حُسْنِها غُلَّته ؛ وصَبَّره علىٰ حادثته بفلان بعد أنْ عزَّ عليه العَزَاءُ وأعْوزَه ، وطلَبَ وعْدَه من صَبْره فما أنْجَزه : لأنه كان وَجَد لِموْتِ المذكُور حُزْنًا ماآستطاعَ له تَرْكا ، وفقَدَ لموته خِلًّا مثلُه يُناحُ عليه ويُبْكَىٰ ؛ وفى بقاءِ مولانا مسرَّةٌ تطْرُد كلَّ حَزَن ، وفى بهاء طَلْعته عوضٌ عن كل منْظَر حَسَن ، جعله اللهُ سامِياً علىٰ أتْرابه ، مقدَّما علىٰ أضْرابه ؛ ماسَمَتِ الأسماءُ علىٰ الأفعال ، وتقدّم الحالُ علىٰ الآستِقْبال .

آخــر : ضاعَفَ اللهُ بقاءه وأطال عُمُره ، وشرَحَ لإسْداء المَكارِم صَدْرَه ، وأنفَذَ نَهْيَه وأمْرَه ، ولازالَ إلىٰ أوليائه مُحْسِنا ، وفضلُه يحصِّل لمحِبِّيه غايةَ السُّول والمُنىٰ ؛ ورد مشَرِّفُه المعزِّى بوفاة فلان سقَىٰ الله عهدَه عِهادَ رِضْوانه ، وأسكنه فى غُرَف غُفْرانه ؛ بخبَر مُصابا ، وفَتح إلىٰ الصَّبْر أبْوابا ؛ وهدىٰ إلىٰ طريقِ الخير وقال صَوَابا ؛ وسكَّن نَفْسَه ، وذكَّره إحسانَهُ الذى لم يَنْسَه ، وأزال الوَحْشَةَ وزاد أُنْسَه ، بعد أنْ كان فَقْدُ المذكور قد هَدّ رُكْنَه وفَتَّ عَضُدَه ، وأوصله إلىٰ أمَدِ الحُزْن وضاعف علىٰ الأيام أَمدَه ؛ وألبسه رِداءَ الآكتئاب ، علىٰ تِرْبه الذى أصبح تحتَ التُّراب ، وصديقِه الموصوفِ بالصدق ، الذى فاق سَناه ذلك الأُفْق ؛ جعله الله أصْلًا فى تحصيل المَسَرَّة إذا ذوَتِ الفُرُوع ، وسيفًا يقْهَر به ولِيُّه الحوادثَ التى تَرُوع ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخــر : جعل الله أجْره عظيما كقَدْره ، والقلوبَ مجمعةً علىٰ حُبِّه كإجماع الألْسنة علىٰ شُكْره .

المملوك يُعْلِمه بوُرُود كتابه الكريم المعزِّى بفلان ـ قدَّس الله رُوحَه، وأمطر سحائبَ الرحمة ضَرِيحه ـ عليه، وعِنْده من شديد الحَزَن، ماأعدمه لَذِيذَ الوَسَن ؛ ومن زائدِ الاكتئاب، ما كاد يَحْرِمُه التقمُّصَ بثوب الثَّواب؛ بحيث إنَّه عُوِّض بالزَّمن الأسودِ عن العيشِ الأخْضَر،وذاق من موجب لُبْس الأبيض طَعْمَ الموتِ الأحْمَر،وأنه ضَمَّه إليــه ضَمَّ المحبُوب، وٱبْتَهَج به ٱبْتِهـاجَ من ظَفِر بغايةِ السُّول والمطْلُوب ؛ فأغمدَتِ الكآبةُ خوْفًا من قَلَمه سَـيْفَها ، وأزالتِ الدنيا الدنِيَّةُ عنه حَيْفَها؛ وعزَّى نَفْسَــه وسَلَّاها، وشغله إحسانُه عن محَاسِنَ محا الموتُ سَنَاها ؛ فرفَضَ من توجُّعه مافرضَتْه حادِثتُه ، وسلَكَ مَنْهَجا غيرَ المَنْهج الذى فُتِّت فيه حَشَاه ومُهْجَته؛ فالله تعالىٰ يَكْفينا مانحاذِرُه فى المجلس ويحْرُس سَنَاه، ويُديم سعْدَه وعُلَاه .

النـــوع الثـالث

(من مَقاصد المكاتَبات التَّهادِى والمُلاطَفة)

قال فى "مواد البيان" : رِقاعُ التَّهادى يجب أن تُودَع من الألفاظ المستحْسَنة مايُمَهِّد لقَبُول الملاطَفة والمَبَرَّة التى تميز فى المودّة. قال : وينبغِى أن يُطْرِف الكاتبُ إذا كان مُهْدِيا أو مستَهْدِيا؛ وقد جرتِ العـادةُ أن تُودَع هـذه الرقاعُ من أوصاف الشيء المُهْدىٰ مايحسِّـنه فى نَفْس المُهْدىٰ إليه . قال : وينبغى لمن ذَهَب هـذا المذهَبَ أن لايعتمِدَ تفخِيمَ هدِيَّته، ولا الإشارةَ إلىٰ جَلَالة خَطَرها، فإنَّ ذلك يُخِلُّ بشروطِ المُرُوءة ويتحاماه الكُرَماء .

ثم هى علىٰ ثلاثة أضـــرب :

الضـــــرب الأوّل

(مايُكْتَب مع التَّقادم إلىٰ المُلوك من أهل مملكَتِهم إلىٰ القائمين بإيصال التَّقْــدِمة إلىٰ المَلِك وكاتبِ السِّرِّ ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن نباتة : إلىٰ كاتبِ السِّرِ بالأبواب السـلطانية صحبَةَ تَقْدِمة من نائب الشام إلىٰ السلطان :

لازالتْ أقلامُها لنَتائج الفَضْل مُقدِّمه، ولمَرَاكض الكَرَم والبَأْس جيادًا مُسوَّمه؛ ولكَتائِب المَلِك من كُتُبه أعلامًا بشِعارها العبَّاسِيِّ مُعْلَمه، وفي يد صاحبِها من أصحاب المَيْمَنة، والذين كَفَروا بآياتِ الله ونِعَمِها من أصحاب المَشْأمه؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُفْسَخُ عقُودُ وَلَائه المُحْكَه، ولا تُنْسَخ إلَّا في الكُتُب عقودُ ثَنـائه المنظَّمه، ولا تطوفُ الأشواقُ ببيْتِ قلبه إلَّا وهي من مَلَابس السُّلْوان المحرَّم مُحْرِمه .

ويُنْهِي أنه قد آختارَ مِنْ عِنَايةِ مَوْلانا بمَقَاصِده أحسَنَ الخِـيَرِ، وبُورِكَ له في قَصْدها (ومَنْ بُورِكَ لَهُ فى شَىْءٍ فَلْيَلْزَمْهُ) كما جاء الخبَر؛ وقد جَهَّز فلانا إلىٰ الأبواب الشريفةِ خَلَّد الله سُلطانَها بتَقْدِمته علىٰ العادةِ في كلِّ سنة، وآتَّبَع سِـفَارةَ مَوْلانا بين يدَيِ المواقِفِ الشريفة فاتَّبَع من القَوْل أحْسَنه؛ وسأل حُسْنَ نظر مولانا الذى إذا لاحظَ قَصْدا أعْلَنَه وسَعْدا عيَّنه، وقد جهَّز المملوكُ برَسْم مولانا ماهو بمقتضىٰ الوَرَقة المجهَّزة عطْفها، المؤمِّلة وإن كانتْ ورَقةً قَطْفها، وسأل مقابلتَها بالجَبْر الذى يَحْسُبُ الأملُ حِسَابَه، ويستفْتِحُ ببنانِ القَلَم بابَه، والإصـغاءَ لمـا يُمْلىٰ من رَسائل الشَّوْق فإنَّها من رسائل إخْوان الصَّـفا المستطابَه، لابَرِح القاصدُون مَرِحِينَ بأيَّام مولانا وحَقَّ لهم أن يَمْرَحُوا، تالينَ نسبة بيته ورُحْمىٰ الله علىٰ يَدِه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ .

وله إليه أيضا مع الجهاز الشريف السلطانى :

أمتعَهَا اللهُ من خيْرِى الدنيا والآخرة بكَرَم الأَمْرَيْن ، وبشَرَف الذِّكْرين ، وسرَّها بمـا يجَّهز فى الثَّناء والثَّواب من الوَفْرَيْن ، وأعلىٰ منـارَها المحَلِّق إلىٰ السماء علىٰ وَكْر النَّسْرين . ولا زالَتِ الآمالُ لاتبْرح حتّٰى تبلُغَ من تلك اليدَيْنِ مجْمَعَ البحْرينْ؛ تقبيلَ مخلِصٍ فى الوَلَاء والدُّعاء، مستشهِدٍ بالخَواطِرِ الكريمةِ علىٰ ثُبُوت الادِّعاء، واردٍ لموارد النِّعم قبل صُدُور بل قبل وُرُود الرِّعاء .

وينهى أنه ليس للملوكِ فيما يؤمِّله ويتأمَّلُه ، ويفَصِّلُه من عُقُود المَطالب ويُجْمِله ؛ غيْرُ إحسانِ مولانا الذى لا يُمَـلُّ علىٰ طُول الإينـاس والإلباس ، وعوارِف بيتـه المستجدة تالية : ﴿ إنَّ اللهَ لَذُو فَضْـلٍ علىٰ النَّاسِ ﴾ . وقد جهَّز المملوكُ الولدَ فلانا بالجَهَاز المبارَك إلىٰ الأبوابِ الشريفةِ خلَّد الله سـلطانَها ، ومَلَأ به جَواهِرحَبّات القلوب ورَيْحانَها، وهو علىٰ قَدْر المملوك ومِقْداره، لاعلىٰ قَدْر مُرادِه واختيارِه؛ ولو أن المُرادَ ممـا يحمِلُه العبدُ إلىٰ سيِّده ، ويقدّمُه من سَبَد الحال ولَبَده ، علىٰ قدر المحمُول إليه ، والمقدَّم بين يدَيْه، لضعُفَتْ قُوىٰ أكثر العبيدِ عن ذٰلك، ويَئِس من الرِّضوان جُهْدُهم المـالِك ؛ وإنمـا علىٰ العَبِيدِ أن تَنْصِبَ علىٰ قُدْرتِها الحال ، وعلىٰ السادا ت أن تُصرِّف بعَوَامل الخبر مستقْبَلَ الأفعال . وعِلْمُ مولانا الكريم مُحِيطٌ بتنقُّل المملوكِ فى هذه السِّنينَ من بلَدٍ إلىٰ بلَدٍ، ومن أمدٍ كُلِّفه إلىٰ أمَدٍ، وبمـا حَصَل فى ذٰلك من التمَحُّق فى إقطاعاتٍ كاد أنْ يُخْنِيَ عليها الّذِى أخْنىٰ علىٰ لُبَد . وكان المملوك يودُّ لو كان هـذا المحمولُ من الجَهَاز من جواهرِ النُّجوم المنْثُوره ، وأخْبِيةِ السُّـعُود المأثُوره ، وجميعِ ما زُيِّن للناس من الشَّهَوات المذْكُوره ، أضعافَ أضعافِه الآن، بل أضعاف أضعاف ما حَمَل الأوَّلُون من فُلانٍ وفلان ؛ كالحَسَن بن سَهْل مع الجهة المأمونيَّة التى حَلَا ذِكْرها، وابنِ طُولونَ مع المعتَضِديَّة التى كاثرهـذا الغيْثَ قَطْرُها ، والسَّامانِيّ

وما أدراك، والسَّلْجُوقىّ وما أسْراك، وجميع ما تضمَّنته التواريخُ التى لو عاينَتْ تاريخَ هذه الدولةِ الشريفةِ عنتْ فى الحال لَمجْدِه، وكان كلُّ مجلَّد منها يموتُ للهَيْبة فى جِلْده : لما خلَّدته أيامُها الشريفةُ من أخبار حُكْمِها وخَيْرِها، وكَرَمِها وبِرِّها، وعَطْفِها على مماليك بيتِها الشريف: تتقبَّلُ ميْسُورَهم، وتُكَمِّل سُرورَهم، وتملأ بُجُيوش الانْشراح صُدورَهم، وتبلِّغهم من هِمَم مطْلُوبِهم، وتُقْبِل على زاهرات نَجَايَاهم ورياحِينِ قلوبِهم :

ولو لم تُطِعْه نِياتُ القلُوب * لَمَا قَبِلَ اللهُ أعمالَهَا.

والمملوك يسأل من إحسانِ مولانا الذى أَلِفَه، ومعروفِه الذى عَرَفه، ملاحظةَ الولد فلان بين يدَىِ المواقِفِ الشريفة خلَّد الله سلطانها، وإقامةَ عُذْرِ المملوك بعبارتِهِ التى أحلَّ اللهُ سِحْرَها وبيانَها ؛ فما للمملوك فى مَقاصِده مثلُ مودّةِ مولانا الوافيةِ المُتَوافيه، ومقدّمةِ عبارتِهِ الكافيةِ الشافيَه ؛ والله تعالى يُعِين على شُكْرِ مِنَنه، والقيامِ بفرائض حَمْده وسُنَنه ؛ والنهوضِ بأوصاف أياديه التى يُغرِّد بها قلَمُ الكُتَّاب كما يُغرِّد القُمْرِىُّ على فَنَنِه .

الضرب الثانى

(ما يكتب مع الهَدِيَّة عند بَعْثِها)

وهو على عَشَرة أصناف :

الصنف الأوّل — مايكتَبُ مع إهداء الخيل .

على بن خَلَف : فى إهداء جَوادٍ أدْهَم أغرَّ محجَّل .

وقد خدم المملوكُ رِكابَه الأكْرَم، بجوادٍ أدْهَم مُطَهَّم، قد سَلَبَ الليلَ غَياهِبَه وكَواكبَه، فاشْتَمَلَ بأديمه، وتحلَّى بنُجُومه، وأطْلَع من غُرَّتِه السَّاذَجَة قمرًا متَّصلا

بالمجرّه ، وتحلّى من رُثْمَتِه[1] بالثُّرَيَّا أو النَّثْره ، صافِى القَميص ، مَحُوض الفُصُوص ، حديد الناظِر ، صليبِ الحافِر ، وَثِيق القَصَب ، نقِىّ العَصَب ، قَصِـير المَطا ، جَعْد النَّسا ، كأنمـا ٱنتعلَتْ بالرِّيَاح الأرْبَعِ أرْبَعُـه ، وأصْغَىٰ لٱستراق السَّمْع مَسْمَعُه ، إنْ تُرِكَ سارْ ، وإن غُمِز طارْ ، وإن ثُنِىَ ٱنْحَرف ، وإن ٱسْـتُوقِفَ وقَفْ ، أديب نَجيب ، مَتِينٍ صَلِيب ، صَبُورٍ شَكُور ، والله تعالىٰ يجعلُ السعادةَ مطلعَ غُرَّته ، والإقبالَ مَعْقِدَ ناصيتِه .

من كلام المتأخريـن :

كتاب عن نائب الشام إلىٰ الملِك الصالح : شمس الدين صاحب مارِدِينَ قرِينَ خيل مُنْعَم بها إليـه ، عن السلطانِ الملِك الصالح : عمادِ الدين إسمـاعيل بن الناصر محمد ٱبن قلاوُون ــ من إنشاء الشيخ جمال الدين بْن نُباتةَ ، وهو بعد الألقاب .

وأجْرى بالنَّصْر جِيادَه ، وبالظَّفَر مُرادَه ، وعلىٰ عوائدِ السَّعْد مَطالِـعَ شمْسه التى يُسَمِّيها عُرْفُ المملكةِ بلَادَه ؛ ولا زالتْ مُنيرةً بسعادةِ شمْسِه الأحْلاك ، نَظِيمةً بدُرّ مَحامِده الأسْلاك ، مائلةً خيولُ سعدهِ حتّى حُمْر السَّوابق من البُروق والشُّهُب السَّوانح فى الأفلاك .

المملوكُ يقبِّل اليدَ التى إذا بُسِطتْ فلِأن تجُودَ وتُسْتَلَم ؛ وإذا قُبِضت فعلىٰ سَيْف أو قـَــلَم .

ويُنْهِى بعدَولاءٍ وثناء للإخلاص شارحَيْن ، وفى الضمائرِ والآفاقِ سانِحينْ ، وٱشتياقٍ وعهدٍ كانا أحقَّ بالٱنتمـاءِ لٱسمه ونَعْتِه وكان أبواهما صالحَيْن ؛ أنَّ المرسومَ الشريـف زاده الله تعالىٰ شَرَفا ، وردَ يتضَمَّن تشريـفَ مولانا علىٰ العادةِ وإعظَامَه ، وٱستقْرارَ مكانته من الخواطرِ الشريفـةِ فى دار مُقَامه ؛ وٱستمرارَ كرامتِه من الآراء المعظَّمة

(١) هى بالضم بياض فى طرف أنف الفرس . قاموس .

ولا يُنكَر بين الصالِح والصَّالح استمرارُ الكَرامه ، وأنَّ الصَّدَقاتِ الشريفةَ أنعمَتْ علىٰ مَوْلانا بثلاثةِ أرْؤُس من الخيل كثلاثة الراح ، إلا أنَّ حَبَابها عرَقُ سبْقها ، وثلاثة الشجر (؟) كما قال الطائى تساوى شَرَف ثَمَرها وزَهَرها وعَرْفها ؛ مامنها إلا من[1] تقْصُر الرِّياح أن تَسْلُك بَخَّه ، والبرُوقُ أن تَتْبَع نَهْجَه . ومَنْ تودُّ الثُّرَيَّا أن تكونَ لِجامَه والهلالُ أن يكونَ سَرْجَه . ومَنْ يَتَمَطَّر[2] كالغَمَام ويركُضُ كالسَّيل . ومَنْ كَمُلت حِلاه ولبِس حُلَّة الفَخَار فمشىٰ علىٰ الحالتين فى الحُلَّتين مُسْبِلَ الذَّيْل . ومَنْ عُقِد بناصيته كلُّ الخير وعُقِــد له لواءُ الفَخَار علىٰ كلِّ الخَيْل : من كلِّ خَضراءَ مُعْجبة فهى علىٰ المجاز حَدِيقه ، وكل أحمَر سابِقٍ فهو البَرْقُّ علىٰ الحَقِيقه ، وكلِّ أصفرَ شَفَقِيٍّ إلا أنَّ الرياحَ من مُجاراته علىٰ نَفْسِها شفِيقه . وكيف لا يُشَبَّه بالشَّفَق وهو من الأصائِل ، وكيف لايفتَخِر العسكرىُّ بهذه الخيلِ وخَناصِرُ عَدَدها فى الحُسْن أوائِل ، قد صُرِفَتْ وجوهُها المقبِّله ، لبابِ مولانا أحسنَ المَصارِف ، وكُتِبتْ عوارِفُ الفضل فى مَعارفه المُسْبَله ، فناهيك منها بكتاب عَوَارِف المَعارِف ؛ ووصل لمولانا بذٰلك مثــالٌ شريف ؛ ورسم للملوك بتجهيزها مع مَنْ يراه ؛ وقد جهَّز المملوك لخدمةِ مولانا الخيلَ المذكورةَ مع المثال الشريف صحبةَ فلان ، ومولانا أدرىٰ بنفَحَات رياض الحمدِ بهذه الدِّيَم المُطلّه ؛ وبالتقبيل فى الأرض التى هى سَمــاءُ حوافِرِ هــذه الخيل التى هى أهلَّه ؛ وأولىٰ أن يَشَرِّف المملوكَ بمُهِمَّاته ، ويؤنِسَ لحظَه بطيف اليَقَظــة من مشرِّفاته ، والله تعــالىٰ يجدّد لمعاليه فى كل قصــد نُجْحا ، ويعلى لمجده[3] فى كل حال قِدْحا ؛ ويُرَوِّع الأعداءَ

(١) كذا فى الأصل باستعمال من فى غير العاقل .

(٢) فى الأصــل يخطر كالغمام ولعله مصحف عمــا أثبتناه يقال تمطرت الخيــل إذا جاءت مسرعة يسبق بعضها بعضا تأمل .

(٣) فى الاصل وجاد مجده تأمل .

من خَطَوات خيْله فى بلادهم بالمُغيرات صُبْحا ، ومن خَطَرات ذكْره فى قُلوبهم بالمُورِياتِ قَدْحا .

وفى معنـاه :

يقبِّل الباسطةَ الشريفة أعلىٰ اللهُ شأنَها ، وجمَّـل ببقائها زَمانَهـا ، وضاعفَ علىٰ الأولياء بِرَّها وإحسانَها .

وينهِى : أنه ٱبتاع جَوَادًا أعجبه ، وطِرْفا ٱنتخَبَه ، وقدْ قدّمه لوَلِىِّ نِعْمتِه ، ومالك عُهْدته : لأنَّ الكِرامَ لا تكونُ إلا عند سـيِّد الكِرام ، والذى يصلُحُ للولىٰ علىٰ العبـد حَرَام ، فالله تعالىٰ يجعَلُ التوفيقَ ضِياءَ غُرَّته ، واليُمْنَ مَعْقِدَ ناصيَته ، والإقبالَ تحجيل أوْظفَته ، والسعادةَ موضِعَ الجلوس من صَهْوته ، والمملوكُ يسأل الإنعامَ بقَبُوله ، و[أن] يبَلِّغه من ذلك [غاية] مأمُوله ؛ مضافًا إلىٰ ماسَبَق به سابقُ إحسانه العميم ، وفضلِه الجَسِيم ؛ والله تعالىٰ يحرُسه بعينه التى لا تَنَام ، آمين .

الأجوبة بوصول الخيـــل

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ أميراخور بالأبواب الشريفـةِ ، عن وُصول خيـلٍ إليـه من الإنعـام الشريف ـ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعـد الألقـاب :

لا زالَتْ مبَشِّرةً بأعظَم الخير وكِرام الخيل ، ميَسِّرة النعماء(١) بسوابِق السَّـيْر كَدوافق السيل ، مُسْفِرةً عن إيجاد سوابِحَ إلا أنهـا فى الفَخَار والشِّيَة ضافِيةُ الذَّيْل ، سـفيرة فى الجَوَادّ بكلِّ جَوَادٍ تبتسمُ غُرَّتُه ٱبتسامَ النهار ويُدرِك طَلَبه إدْراكَ الليل ؛ تقبيلًا يستَبِقُ ٱستِباقَ الجِياد ، ويتَّسِق علىٰ الدَّرج ٱتِّساقَ العُقُود علىٰ الأَجياد .

(١) النعيم والنعمة والنعمى والنعماء ماينعم به فلعل الصواب الانعام .

ويُنْهِى بعد ثناءٍ وولاءٍ : هذا يَهِيمُ فى كل واد، وهـذا يَهِيم بمثله كلُّ وادّ، وُرُودَ مشرِّفةِ مولانا الكريمةِ بما ملأ القلْب مَسَرَّه، والعينَ قُرَّه، ودرَجَ عامَ الفيل من نُجُب الخيل السيارة مستهَلّ وغُرَّه، فقابلها الملوكُ بتقبيله ، وقام لهـا علىٰ قَدَم تبْجِيله ؛ ثم قام إلىٰ الخيل الشريفة المنعَم بهـا عليه فقبَّـل من حوافرها أهِلَّةً ثم من غُرَرها نُجُوما، وتأمّل شِياتِها البرقيَّةَ وآستمطر من السُّعود غُيُوما ؛ فأدْنَتْ له من الإقبال أمَدَ قاصيها، وظلَّ بمنزله الخيرُ المعقُودُ بنواصيها ؛ وتضاعفتْ أدعيتُه الصالحةُ لهذه الدولة القاهرة الصالحيَّة زادها اللهُ من فضـله ، والوقتِ الذى ملأَ الدنيا بسَحَاب جُوده ورياحِ جِيَـاده ورِياضِ عَدْله ؛ والملكِ الذى لاينبَغِى لأحدٍ من بعدِه، ولولا شُهودُ العهد الشهيدىِّ لقال ولا لأحدٍ من قبْله ؛ وأعدَّ الملوكُ هذه الثلاثةَ من الخيل ليُفْنِى عليهـا بالقتال أهلَ التعطيلِ والتَّثْليث ، ويستَخفَّ بهـا آجالَ الأعداء بين يدَىْ مالكه : فإنها من ذَواتِ العِزِّ والعزم الحَثِيث ، وما هى إلّا كواكِبُ سَعْد تمددها أسِنَّتها الوَقَّاده ، وزَهَراتُ حسن حيَّتْ بها علىٰ البُعْد سِفارتُه المعتاده ؛ لابَرِح مولانا يقلِّد بعِنايتـه وإعانَتِه المِنَنَ الجسام، وينصُر بعزائمِهِ القاطعة، وكيف لاينصُرُ ويقْطَع وهو الحُسَام ؟ .

وله فى جواب وصُول أكديش وبازٍ [وكوهية] :

لا زالَ جزيلًا سَمَـاحُه ، جميلًا من الحمد رَبَاحُه ، جليلًا بِرُّه الذى يشْهَد به طائرُ الخير ويمنُه وطائلُ الخيل ونَجاحُه . هذه المفاوضة تُهدى إليه سلامًا يخْفِقُ جَنَاحُه ، وثناءً تُشرِق غُرَره وأوضاحُه ، وتوَضِّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبتهِ سريعةَ الآحتِثاث ، طائرةً بيُمْن طِرسها وهـديَّتها بأجْنحةٍ مَثْنَى وثُلَاث ، فحصَـل الوقُوفُ عليها ، وتجدَّدَ عهدُ الآرتياحِ لدَيْها ، وفهمْنا ما لم نَزَلْ نفهَمُه من وُدّ الجناب العالى ، وبِرِّه المُتعالِى ،

ووفاءِ عَهْده الذى تتلقّاه المحامدُ بأمالِى المحبِّ لا بأَمَالِى القَالِى ؛ ووصلَ الأكديش الايكر ظاهِرًا حُسْنُه ، سافِرا عن وَفْق المُراد يُمْنُه ؛ تتجمَّل به المَوَاكب ، وتُماشيه الرِّياحُ وبعضُها من خَلْفِه جَنائِب ؛ وكذلك وصل البازى والكُوهِيَّة ، وكلاهما بديعُ الأوصاف ، سريعُ الاقْتِطاف لأزاهِرِ الطيرِ والاخْتِطاف ، يَسْبِقُ الطَّرْفَ بجناحه اللَّمُوح ، ويستَعْجِل من الأُفُق وارِدَ الرِّزْق الممنُوح ؛ ويُواصِلُ الخيرَ والمَيْرَ إلى المَطْبَخ ، فكأنَّ حوائج كاش تغْدُو إليه وتروح ؛ لا بَرِحَ إحسانُ الجناب العالى واصِلا ، وذِكْرُه فى ضمير الاعتداد حاصِلا ؛ وحكْمُ سماحتِه وشجاعتِه باستِحْقاق الثناءِ فاصِلا .

جواب بوصول جَوَارح :

كُتِب به عن نائب الشام ، جوابًا لمطالَعَةٍ وردَتْ على نائب الشام من الصالح صاحبِ مارِدِينَ من بَقَايا بنى أُرْتُق ، صحبة سَناقِر ، هديَّةٍ للصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون : صاحب الديار المصرية . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة :

وأيَّد هِمَمه السَّوابح ، ونِعمَه السوابغ ، وشِيَمه التى تنتظم منها عليه دُرَرُ المحامد والمَمادِح ؛ وشكر هَدَاياه التى منها جَوارِحُ طير تخْفُقُ لفَرْط استِحْسانها الجَوارِح . ولا زال من أجْنحة نَصْره حتّى السِّماك الرامح ؛ ومن جُنُود سعده للأولياء سعْدُ السُّعود ، وفى الأعداء سَعْدُ الذابح ؛ ومن جِياد رِكابه الشُّهبُ إلا أنها شُهبُ الأفلاك السَّوابِح ؛ ولا بَرِح سلطانُ البسيطةِ مكافِئًا عملَ قلبِه الوفِىِّ ، ولا يُنْكَر العملُ بالقلوب بينَ الصالح والصَّالح .

المملوك يقبِّل الأرضَ التى تستمِدُّ السُّحُبُ من سَمائها ، وتستعِدُّ منازِلُ الأنجُم للتعلّم مِنْ أنوائها ؛ تقبيلًا يُودِع ورَقَ الرسائل أزاهِرَه ، ويُطْلِع فى ليالى السُّطُور زَواهِرَه ، ويَدَّخِرُ فى أيدى الحُروف إلى أن تَصِلَ إلى أجياد المَنابرِ جواهِرَهْ .

ويُنْهِى – بعد دعاءٍ صالحٍ، إذا جُدّد تجدَّد، وولاءٍ ناجحٍ، إذا آنعطف تأكَّد، وثناءٍ سانحٍ، إذا سرىٰ لا يتوقَّف إلا أنَّ نَسيمه فى الآفاقِ يتردَّد، وآرتياحٍ لما يَرِدُ من أخبار دياره السارّة إذا شافَهَ سرورُه سَمْعَ الولِىِّ شهِد وسَمْعَ الحاسـِد تشهَّد، حيثُ يتَلَقَّ ببلاده النُّجْح والمَقاصِد، وصِلاتِ البِرِّ والعوائد، ووُفُودَ الآمال من كل أَوْب: فدِيارُ بكر ديارُ زيْدٍ وعَمْرو وخالد – وُرودَ المشرِّف الكريم، بل الغيثِ السائِرِ بخِصْب المُقِيم، علىٰ يَدِ فلان ونِعْمَ اليـدُ العائلةُ لأيَادِى البِرِّ العَمِيم، ونِعم المشرِّفُ الوارد عن مَقَرٍّ: هذا للأمَل كَهْف وهذا للتأميل رَقِيم؛ ففَضَّه المملوك عن علامةِ آسم لحُسْنها وُسُوم، ولها رُسُوم، وآستجلىٰ مواقِعَ تلك الأنامِلِ المُضِـيَّة وأقسمَ علىٰ فَضْلها بمواقِعِ النُّجوم؛ وآنتهىٰ إلىٰ الإشاراتِ العاليـه، وعلِمَ ما كان القلبُ يعلَمُهُ من ضمـائرِ الوُدِّ الحالِيَّـة لا الخالية، وقابل كلَّ أمْرٍ حسنٍ بمـا يجب من مَذاهب الوُدِّ المُتواليـه، ووصلت السَّناقِرُ المُنيرُ سَـنَا فضلها، المُبِير فى مَعارِك الصيد شَـبَا نَصْلها، القـائمةُ فى كَواسِر الطـير مقامَ الملوكِ الأكاسرةِ إلَّا فى حُكْمها وعَدْلهـا؛ لا جرمَ أنهـا إذا دخَلَتْ آفاقَ طيْرٍ أفسـدَتْها وجعلت أعِزَّة أهلِهـا أذِلَّه؛ وإذا آنقضَّتْ علىٰ سِرْبِ وحْشٍ جذَبَتْها من دَمِ الأوْرِدة بأرسانٍ حيثُ كَسَتْها من قَوادِمِ الأجْنِحة أجِلَّه؛ لايُسْأَلُ كاسِرُها فى الطُّيور بأىِّ ذَنْب قُتِلتْ، ولا يحمِلُها جانب الطـير والوَحْش إذا عاندَتْه فياعَجَبا لها علىٰ أيْدِى البَشَر كيف حُمِلَتْ؛ تُظِلُّ الصيدَ فلا عَجَبَ أن يَفْزَع بها من ظِلِّه، وتكتُبُ علائِمَ اليُمْن والظَّفَر بمـا فى لَوْنها من شَـبَه الخَطِّ وشَكْله، نِعْمَ الجالبـةُ للخَيْر والمَيْر، والسائرةُ بمـا يُخِيف المتصيِّدات وكيفَ لا؟ وعلىٰ رُءُوسها الطير، أزاهِرُ حُسْنٍ لابِدْعَ أن يكونَ لهـا كمَائِم، وبوَارِقُ العزم لاجَرَم أنَّ أجنِحتَها غمـائِم؛ ونواقِلُ البأس والكَرَم عن مُرْسِلها فهما جمَعتْه الشَّجاعةُ فرَّقتْه المَكارِم. آستَجْلاها المملوكُ بعد ألفاظ المشرِّف الكريم فقال: (تلكَ الرياضُ وهذه السُّحُب،

وتلكَ الأنوارُ الهادِيَةُ وهذه فى أُفُقِ مَطَارِها الشُّهُب) ؛ وجهَّز المملوك المطالعةَ المُحضَرة للأبواب الشريفة أعلاها اللهُ وشرَّفها علىٰ يد فلان المذكور فقُوبِل بالإكرام والكَرَم، ومَثَل بالمَوَاقف الشريفــة مُثُولا رقىٰ بهِمَّتــه إلىٰ الكَواكب لا جَرَم ؛ وذَكَّر بصالح بيتِ الآرتقاء صالحَ بيتِ أُرْتُق حتّىٰ أنشد :

فَهَلْ دَرىٰ البيتُ أَنّى بعْدَ فُرْقتِه * ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلّا إلىٰ حَرَم!

وقد عاد مُعْلَما من البِشْر بما يَراه مولانا عليه ، مُعْلِما بمـا تقدّمَ من نجوىٰ الإنعام بين يدَيْه ؛ حاملًا من كَرَمٍ وجاهٍ يُعَدّان للأولياء فى يومِ نُزُل وللأعداء فى يَوْمِ نِزَال ، قائلا برجاء سَعْيه المؤمّن : (يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) ولن تَزَال ؛ والله تعالىٰ يُجرى كَرَم مولانا علىٰ عوائدِ إسعاده ، ويَحْرُس بعيْنِه وملائكته نَفَاسة نَفْسه وبِلادِه ؛ ويُدْخِله بٱسْمِه ومُسَمَّاه لدىٰ الدُّنيا والآخرةِ فى الصَّالِحين من عِباده .

وله جوابٌ بوصول بازِيَيْنِ :

ولا زالَتْ بُزاةُ كرمه علىٰ الحمد مُطِلَّه ، وسحائبُه مسْتَهِلّه ، وهِممُه مســتقِلّةً بأعباء المكارم وإن كانتْ لكثِيرِ مايُهْدِيه مستقِلّه . هذه المفاوضة تُهدى إليه من السلام أجَلَّه ، وتُوضِّح لعلمه الكريم وُصولَ مكاتبته العاليةِ فوقَفْنا عليها ، وعوَّذناها بكلماتِ الثناء التـامَّة من خَلْفها ومن بين يديْهـا ؛ وعلمنا مالم نزل نَعْلَمُه من مُوالاته وآلائه المُسْنَدَ فى الشكر عنها والمستندَ فى الوَلاء إليها ؛ ووصل كِلَا البازِيَيْنِ الحسَنَين المُحسِنَين كأنَّهما فرقَدَا سماءٍ قد ٱجتَمَعا ، وقمرَا حُسْنٍ طَلَعَا ، وعلىٰ مَحاسن الصيد ٱطَّلَعا ؛ يَسُرَّان القلوبَ والأبصار ، ويُحْمَلُ كلٌّ منهما علىٰ اليمين فيحْصُــل به اليَسَار ؛ وما هما بأوّل إحسانِهِ الأسنىٰ ، وبِرِّه الأهْنىٰ ؛ وأياديه التى أبىٰ الكرمُ إلا أن تَرِد مَثْنىٰ مَثْنىٰ . وعلِم ٱعتِذارُه عن الكُوهِيَّة التى كان ٱدَّخَرها فنفَقَتْ ، ولو أُقيمتْ بها أسواقُ الصيد

نَفَقَت، وأرسل برواياتها تحقيقًا لدَعْوىٰ المكارم التى من زمانٍ تحقَّقتْ ؛ واللهُ تعالىٰ يشكُر بِرَّه، ويملأ بذِكْره بحرَ الثناء وبَرَّه .

وله جوابٌ بوُصول كُوهِيَّتين علىٰ يدِ شخصٍ ٱسْمُه باشَق :

لازالتِ المحامدُ من مَصايِدِ إنعامه، وفوائدِ أيَّامه؛ وثمراتُ البأسِ والكَرم من قُضُب سُيوفه وأقلامه؛ تقبيلَ معترِفٍ بإحسانها، مغترِفٍ من مَوَارد ٱمْتِنانها؛ متحِفٍ منها بعالِى تُحَفٍ تدُلُّ علىٰ مكانِها فى الفضل وإمْكانِها .

ويُنْهِى ورُودَ مشرِّف مولانا الكريم علىٰ يدِ الولد « باشَـق » فياله باشَـقٌ جاء بكُوهِيَّتين جميلتين، وطار للسُّرْعة وهو حاملٌ مِنَّتَيْن جليلتَيْن؛ وقد وصلتَا و[كِلْتا] هما حسنةُ الخُبْر والخَبَر، حميدةُ الوِرْد والصَّدَر، يحْسُن مَسْرىٰ كلٍّ منهما وسَيْرُه؛ ويَتجمَّلُ بهما بابُ الشِّكْر خاناه وصدْرُها ويكْثُر خيْرُ المَطْبَخ ومَيْرُه، فمدّ المملوكُ إليهما اليدَ المتحمِّلة الحـامِلَه، وإلىٰ المشرِّف الكريم اليدَ المتولِّيَـةَ المُتناوِله ؛ وعلم ماتضمنه من الحُسْن والإحسان، وذِكْرِ الموالاة التى يحكُم بها القلب العالِمُ قبـل شَهادةِ اللِّسان ؛ وٱعتِذارِ مَوْلانا عن تعـذُّر وُجُودِ الشاهين ؛ وكلُّ إحسـانِ مولانا شهِىٌّ كافٍ ، وكلُّ مَوارد نِعَمه هَنِىٌّ صافٍ؛ ومافات مَقْصَدٌ وإنعامُ مولانا وراءَ طَلَبه وإنْ طال الأمَد، ولافَرَّ مطلوبٌ حتّى يأتِىَ به سعْدُ مولانا مقْرُونا فى صَفَد؛ والله تعالىٰ يشكُر عوائدَ فضـله، ولا يُضْحِى[1] الآمال الملتجئة [إليه] من ظِلّه .

جواب بوصول طيور، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وشكَرَ هدَاياه المتقبَّله، وسجَايَاه التى هى بأفْواه المحامد مُقبَّله، ولا زال بدرَ سعادتِه المأمولةِ وطائرَ هدِيتّه المتأمَّله .

---

(١) مراده لا يحرمها ولا يخليها .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهدِى إليه من السلام أتَمَّه، ومن الثناء أنَمَّه، وتوضّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبَته الكريمه، ومكارمِهِ العَميمه، وطُيورِ هديَّته التى كلٌّ منها فى الحُسْن بدرُ تمّ، وظهرتْ ظُهورَ البدْرِ لتَمَامه فأبتْ محاسِنُها أنْ تنكتِمِ، فحَسُنَ ورُودُها، ورُعِى بفضـل التلطُّف والتودُّد مقصودُها، وأقبلت تلكَ الطيورُ التِّمّيَّة تامَّة الإنعام، دالَّةً بيُمْن طائرِها علىٰ بَركة عامَّة وكيف لا؟ وقد جاءتْ ببِضاءَ عدَدَ شهور العام، واللهُ تعالىٰ يزيده من فضله، ويُجْرِى الأقدار بالسُّعود الشاملة لجمعه الجامعةِ لشَمْله، إن شاء الله تعالىٰ.

جواب فى المعنىٰ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ أيضا :

لازالتِ الجَوارحُ شاهدةً ببِرِّه، والجوانحُ حائمةَ الجَناح علىٰ شَريفِ ذِكْره، والمحامد من مَصايِدِ أقلامِه ورِماحه فى السِّـلْم والحَرب : فإمَّا بقَوادم سُمْره، وإما بمَنَـاسِر حُمْره، تقبيلًا يبعَثُه علىٰ أجنحةِ أوراقِ الرَّسائل، ويتصـيَّدُ به علىٰ البُعْـد مشافهةَ تلك الأنامل الجَلَائِل.

ويُنهِى بعـد دعاءٍ، تُحلِّق إلىٰ السماء كلماتُه الحَسَنه، وولاءٍ وثنـاء : هذا تَخفِق بتشوّقه أجنحةُ القلوب، وهذا تخفِقُ بذِكْره أجنحةُ الألْسِنه ــ أنَّ كتابَ مولانا وردَ علىٰ المملوك فأوردَ عليه المَسارّ، و[ملأ] يده بالمَبار، ومصايدَه بالمَيْر، ومنازلَه بالخَيْر، وآماله بأمالِى الكَرَم لذى السرحات المنشرِح بآيةِ ﴿وعُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْر﴾ فقابله المملوك بتقبيلِه، وواصلَ فضْلَ الاعتِدادِ بتفْضيله، وحصل من هَدَاياها وهُدَاها علىٰ جملة الإحسانِ وتفصِـيله، وانتهىٰ إلىٰ الإشارات العاليـة التى زكَتْ علىٰ العِيَان وتأمَّله وأربتْ علىٰ الجَنَان وتأْميله .

فأمَّا الإنعـام بالكُوهِيَّتين اللتين ماقَذَف البحرُ إلىٰ الساحِلِ أبهىٰ من دُرَرِهما المكْنُونه ، وأزْهَرَ من وُجُوهِهما المباركةِ الميمُونه ، فقد وصل كلا الطائرَيْنِ بيُمْنه ، والسابقين بمَنِّه ، والغائبين فى جَوّ السماء الآتيَيْنِ من الصُّيُود بأوْفىٰ من قَطَرات مَوْنه ، وآستقبل الملوكُ منهـما وُجوهَ المَسارّ ، وحملَتْ يمينُـه الثَّروةَ وحملَتْ علىٰ اليَسَار ، وتناولتْ يُده يدَىْ إحسانٍ يَسُرُّ الناظرين والسامعين ، وآستُخْدِمَا للشِّكْرخاناه والحفْظ مِطْبَخ يملأ عُيونَ المُشْبَعين والجائِعين ، وقال صنْعُ الله لِصناعتهما : ائْتِيَا بصُيُود السَّماء طَوْعا أو كَرْها ﴿قالَتَا أَتَيْنا طائِعِين﴾ . قد كتبَتْ باليُمْن فى مَطَاوِى رِيشِها أشباهَ الحُرُوف ، وقضىٰ الجُودُ لِتلكَ الأحْرُف أن تَقْرِىَ ماتقتَرِى عَوَاصِى الطـير له بطاقةٍ تقيِّد السابِحَ فى طَلَقه ، ويعودُ مُطْلِقُها وقد ألزَمَ نَجاحَ الطير طائرَه فى عُنُقه ، فشكر الله إحسانَ مولانا الذى ألْحَفَ الأملَ جَناحه ، والقصـدَ نَجاحه ، وبِرَّه الذى أحمَدَ فى سوانح الطيرِ وبَوارِحه مَسَاءه وصَبَاحه ، وعلِمَ ما أشارَ مولانا إليـه فى أمر فلان وأمْرُهُ علم الله تعـالىٰ فى الخاطِرِ حاضر ، وما يؤخِّرُ شُـغْلَه عن إهمالٍ وعائِبُ الإمْهال غادر ، وما أشار إليـه فى أمْر فلان أمير شكَاره وأمير شكر الملوك ، وتقدّمَ بخَلاَص حقِّه ، وآستنزل بهدِيَّته قضاءَ الشُّغُل من أُفُقه ، لابَرِح مولانا ممتَثَلَ الأوامِر ، هامِىَ سُحُب البِرِّ الهَوَامِر ، مجدِّدا فى كل وقتٍ نُعْمىٰ ، مالئًا بهداياه قلُوبَ[1] محبيِّه وبُيُوتَهم شَحْمًا ولحمًا ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله جواب فى وُصُول طُيُور العَقْعَق :

لا زالتْ متَّصِـلةً مِنَنُ إرفا ها وإرْفاقِهـا ، نازلةً علىٰ حُكْمِها [الأشـياءُ] حتّى الطَّيْرُ العاقَّة من آفاقِها ، خافقةً أعلامُ نصرها بالأجنحة مؤمِّنةً لظُنُون القاصدين من

(١) لعل المناسب « بطون » .

إخْفاقِها، تقبيلَ مُطْلِقِ لسانَ الحمدِ علىٰ عوائِدِ إطْلاقِها ، مُجْتَنٍ لثَمَرات الإحسان من غُصُونِ أقلامِها وغُضُونِ أوْراقِها .

ويُنْهِى وُرُودَ مشرِّف مولانا العالى علىٰ يَدِ الولد فلانٍ فوقَفَ المملوكُ عليــه، وعلم من جميل الاحتفالِ ماأشار إليه ، وأنه موقِّع علىٰ المقْصود من طُيور العقْعق فأوقعها من مَطَارها ، واستنزلهــا من أوكار أُفقها وأُفُق أوْكارِها ، وأرسلَها قرينَ مشرِّفه الكريم، وقلدعُنُقَ الأمل بعِقْدها النَّظِيم؛ ووصلتْ سبعةً كعَدَد أيام الجُمُعة الكامله، والكواكِبِ المــائله ؛ والسَّمٰواتِ لاجَرَمَ أن سُحُبَ يُمْنِها هامله، حســنةَ الشَّكْل الموصوف والوَصْــف و إن كان مع عُقُوقه المألُوف، طائعةً لأوامر توقيعه فمــاعَقَّ منها شيءٌ غير تضَعُّف اسمِها المَعْروف، لابرِحَ إحسانُ مولانا متنوّعا، و بِرُّه الجزيلُ متبَرِّعا، وغُصنُ قلمه بأنواع المكارِمِ متفرِّعا .

وله جواب بوصول تِمَــاتٍ، و إوزٍّ صِينيٍّ، وطلبِ إمرةِ عشرة :

حمىٰ اللهُ تلك النِّعمةَ من الغِــيَر، وأطلَعها عليه بأَيْمن الغُرَر، ولا بَرِح طائرُ مَنِّــه كوصفه أبيضَ الخُبْرِ والخَبَر . هذه المفاوضةُ إلىٰ الجناب الكريم تُهْدِى إليه ســلامًا يَشُوق الصَّــبَاح، وثناءً خَفَّاق الجَنَاح؛ وتُوضِّح لعلمه الكريم ورُودَ مكاتبتــه الكريمة جميلةَ الفَوائد، جليلةَ المَصَايد، تِمِّيّة البُدُور المتناوَلةِ من مَنَال الفَراقِد، فوقفْنا بالأشواق عليها، وعطَفْنا علىٰ العادة بتأكيد الوَلَاءِ إليها ؛ ووصلتْ تلك التِّمَّاتُ واضحةَ الأنوار، لائحةً كبياض النُّوَّار، تامّة تمــامَ مِيقاتِ مُوسىٰ عليه السلام إلا أنَّها لبياضِها كأربعينَ نهار؛ وكذلك البَطُّ الصِّينىّ كأيَّام الحجِّ عشرةٌ كامله، مفترَضا علىٰ عَشَرتها ولاءُ القلوب المتأمِّلة الآمِلَه ؛ صِــينِيَّةٌ مملوءةٌ بمَحاسن الألوان التى هى بغيرِ مَثَــل ماثله ؛ وحصل الاعتدادُ ببِرِّه، والازدياد لحمده وشُكْره، وفهِمْنا ماذكره من إمرة العَشَرة التى انحلَّت

عن فلان، وقد طالَعْنا بأمرها، وعجَّلنا بذِكْرِها، ونرجُو أن يعَجِّل بأمانِيِّها المنتظَره، وأن يقابلَ بخَوافِق أعلامها خَوافِقُ بَطِّه فتقابلَ عشَرةٌ بعَشَره، والله تعالىٰ يعجل لمَعاليه الصُّعود، ويؤكد لمَساعيه السُّعود، إن شاء الله تعالىٰ .

الأجوبة عن وصول الصُّيود ولحومها

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ نائبِ حلَبَ بوصول [لحم] طير صيد قَديد وصحبته بِطِّيخ أخضرُ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ . وهو بعد الألقاب :

لازالتْ تُقتَنَص المحامدُ بعَطاياه المكَرَّره، وأوابِدُ الصيْد برَماياه المُقَرَّرة، ورِقابُ الإنس والوَحَش : إمَّا بسهام نِعَمه المتواتِرة، وإمَّا بِسِهام قِسِيِّه المُوتَّره؛ ولا برِحتْ نَفَحَات مكارمه، تشهَدُ أنّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزال، وسَرَحات عزائِمه، تمتدّ فى صَيْد الوَحْش لقِرىٰ نَزِيل أو فى صيد الأعداء لتقريرِ نَزال؛ تقبيلًا تنعطف أجيادُ الظِّباء لمحاولةِ عُقُوده، وتزدَحِمُ أفواهُ الأولياء علىٰ مشافهة وُرُوده .

ويُنْهِى بعد وَلَاءٍ تقومُ الخواطرُ الكريمةُ فى دَعْواه مقامَ شُهوده، وشوقٍ لا تزال النَّسَماتُ الشَّماليَّة قاضيةً باستمرارِ وُفُوده ـ أنّ مشَرِّف مولانا الكريمَ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يد فلان وصُحبَتَه الإنعامُ المتجدّد، وإن كان قديمًا فى المعنىٰ، واللحم القديد، وإن كان أطرىٰ من الروض النَّضِير حُسْنا، والسَّمين المحبوب وإن كان كحال عِداه الذين تُقدَّد جسومهم فى الحياة قبل المَمات حُزْنا، فقابل المملوكُ المشرِّفَ الكريمَ، بتقبيل أحْرُفه، والإنعامَ العميم، بقَبُول مُسْعده ومُسْعفه، وعانقهما بجَوانح آماله، وأخذ الكتّابَ والبِرَّ كما يقال بيمينه وشِماله، فيالَهَا من ظباءٍ تُعْشَق وإن بليَتْ محاسنُها، وغِزلانٍ تُغازَل وإن بادَتْ عيونُها إلا أنه ماباد حُبٌّ من يعاينُها، وصُيودٍ تُوصَف وإن قصدَتْها قِصَدُ السِّهام بطَعْن، ويُتَّقى بقُرونها القتالُ والقسىُّ تاليـة :

﴿كَمْ أهلَكْنَا من قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ﴾ . سلكَتْ خيولُ مولانا لقَنْصِها المَصَاعِبَ وٱتَّخَذها الآكِلُون سَهْلا ، وتَصَيَّدَها من الفَلاة وٱصطادَها القاعدُون من المَقْلَىٰ ؛ ووصلَ معه البِطِّيخ الأخضرُ فشبهه بثمار الجنة المشَبَّهُون ؛ وقيل : هكذا ترتيبُ ما كِلِ الجنةِ لهم فيهـا فاكهةٌ ولحمُ طيْرٍ ممـا يَشْتَهُون ؛ لا زالتْ مِنَنُ مولانا مشرُوحةً مشْرُوعه ، وثمراتُ نِعَمِه من الدنيا كثَمَرات أهلِ الجنـة غيْرَ مقْطوعة ولا ممنُوعه ؛ بمنّه وكَرَمه .

أجوبة هَدَايا الفَوَاكه وما فى معناها

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

جوابُ وُصُول مشْمِش لُؤْلؤىّ ودَغْمِيشىّ من حَمَـاة .

بَسطَ الله ظِلَّها ونَدَاها ، وأطلع باليُمْن نُجومَ هديَّتِها وهُـدَاها ؛ ولا زالتْ مواهِبُ بحرِها لُؤْلُؤيَّه ، وشواهد يُمْنِها كَوْكَبِيّه ، وثمراتُ جُودها فضِّيةَ الأعيان ذَهبِيّه ، تقبيلًا حلَتْ مواقعه ، وجلَّت مَطالِعُه .

وينهى بعـد ولاءٍ وحمدٍ : هذا قد ثَبَتَتْ فى القلب شريعتُـه وهـذا قد عذُبَتْ فى السمع مشارعه ، أنَّ مشرِّفـة مولانا الكريمَة وردَتْ علىٰ المملوك تتضمَّن الحُسن والإحْسان ، ويَمِينَ الْبِرِّ الشامِل لكلِّ إنسـان ؛ وعَهْدَ المحبَّةِ التى حكمتْ فيـه بعِلْمها القلوب فما تحتاج إلىٰ بَيِّنَةٍ لِسان ؛ فقابلها المملوكُ مقَبِّلا ، وٱستجْلىٰ وجهَ الوُدّ والإحسان مُقْبِلا ؛ ووصل المِشْمِشُ الذى شفىٰ لُؤْلؤيُّه نظَرَ الناظرين ، ونوعُه الآخَرُ الدغميشى الذى هو الشهد بحسنه ولا يُدَغْمَش باسمه علىٰ الحـاضرين ، فتناوَلَ المملوك عوارِفَ بِرِّه المعروفِ والمبتكَر ، وٱستضاء نُجومَه المتردِّدةَ مُنْشدا قولَ المَعَرّىّ : (كَمْ دُرَرٍ ، وكم يُدْنَ هـذه الأُكَر) ، وقال : شكَرَ الله هـذه المِنَنَ الحُلْوَةَ الثمرات ، المتَّصـلةَ

الخَطَرات ، وهذه المَجانِىَ التى طابَتْ أصولُها وفروعُها فلا أبعَدَهنَّ اللهُ من شَجرات ، وحَيَّا حمـاةَ وما جلَبت ، وجَنَبَاتِ ذٰلك الوادى وما أنجبَتْ ؛ وحدائقَ ذٰلك العاصى الذى أطاع ببركة مولانا فأنبت أحْلىٰ وأحَلَّ ما نبَتْ ؛ وقد جهَّز المملوكُ هذه الخدمةَ منْطوِيةً علىٰ وظائف الحمدِ المُستَجاده ، ولطائفِ الحُبِّ المستفاده ، وحَمْد المِنَنِ التى لاتزال من مولانا عادَة ومن المحبِّين شهادَه . لابرِحتْ يدُ مولانا الكريمةُ إن بُسطت فبِعوائد إنْعـامها ، وإن قُبِضتْ فعلىٰ سُيوفِها لمَصَالح الدُّول وأقلامِها ، وإن زهَتْ(١) فروعُ المكارم ، تساقطتْ ثمراتُ بِرِّها من زَهَرات أكمامِها .

جواب بوصول مِشْمِش وبِطِّيخ حلَبِىّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة .

ويُنْهِى بعد ولاءٍ وثناءٍ : لهذا فى الأسماع أزهىٰ وأزهَرُ ثمَره ، ولهـذا فى القلُوب أرْسىٰ وأرسَخُ شَجره ـ وُرودَ المشرِّف الكريم علىٰ يدِ فلان بمـا مَلأَ السَّـمْعَ من أخبار مولانا المرتَقَبة سُرورا ، والعينَ من آثارِ يدَه الكريمةِ نُورا ؛ والفَمَ من هَدَايَا المشمِش الحَمَوىِّ كُئُوس لَذَّة كان مِزاجُها كافُورا ؛ فقبَّـل المملوكُ أسـطرَه مستَحلياً مواقِعَ رَشَـفَاته ، وقابله بعَوائد المحامد مستَجْلِيًا عوائدَ آفتِقاداته وصِلَاته ؛ ومدّ يدَه وفكْرَه فالتقط النُّجومَ المُشْرِقةَ من هَدَاياه وكلماتِه ، وتقلَّد جواهِرَ المَبَرَّات الحسنةِ المُحَسَّنه ، والثمراتِ التى جاءت بدْرِيَّةَ القُدُوم وإن كانتْ نُجومِيَّةَ الهيئاتِ المكَوَّنه ؛ وآستَصْوب نتائجَ الغيث فقـال : لعَلَّ هـذه بنادِقُ قَوْس السماء المُلَوَّنة ، وصفَا وطاب ظاهِرُها وقَلْبُهـا وكذا تكونُ صِفاتُ ذَوِى القلوبِ المُؤْمنه ؛ والمُؤْمِنُ حَلَوِىٌّ لاجَرَم ، والحَمَوِىُّ علىٰ عَجَمِه الخُراسانِىِّ أوْلىٰ بفَصَاحة الفَخَار والكَرَم ؛ لا زالتْ فَعَلاتُ مِنَنِ مولانا مستَجادَه ، ونِعَمُه لاسيَّـما المِشْمِشيَّة مستزاده ؛ وآفتِقاداتُه المشهورةُ لدىٰ ممـاليكه

(١) لعل الصواب وان هزت ، كما لايخفى .

ومحبّيه منه عادةً ومنهم شهاده؛ وجاءتْ فاكهةُ البِطّيخ الحلبِىّ وقد رَضع حَلَب الغَمَام فأنْجب، وٱستوىٰ باطنُه وظاهِرُه فى الحُسْن فأَعْجَبَ من حينَ أعْشَب؛ وٱستطابَ الذوقُ والشمُّ مَطعَمه وأنفاسَــه، ووُصِف بالرُّءوس فضَمَّه كلُّ متلقٍّ وقبّل راسَه؛ وقال: نِعْمَ الهديَّة السرِيَّه، والفاكهةُ التى طَاَعتْ حُزَ[ها] هلالِيَّة وثَمرتها بَدْريه.

جوابٌ عن وصول بِطّيخ حلبِىّ، من إنشائه أيضا، [وهو] بعد الألقاب:

وشكَرَ سَجَاياه التى عَلَتْ، وهداياهُ التى تكَرّرتْ فحَلَتْ، وٱفتقاداتِه التى طابَ ظاهِرُها وباطنُها فكأنهــا من أخلاقه الجميــلةِ نُقِلَتْ؛ أصدرناها تُهدِى إليــه سلامًا يتقدّم كهديته نَسِيمُه العاطِر، وثناءً يُنْتِج أطايِبَ الثَّمَر مقدّماتُ غيثِه الماطِرْ، وتُوضِّح لعلمه الكريم أنَّ مكاتبتَه الكريمةَ وردتْ فحسُنتْ بالوُدّ مشافهَتها، وأقرّتْ فى الأسماع فاكِهتَها ومُفَاكهتَها؛ ووصل البِطّيخ فلله درُّ حَلَبــه ودُرُّ جلَبِه، لقد حسُنَت فى مَلاذِّ المَطاعم طريقتُه المرضِــيّه، ولقد أشبه القناديلَ بتكوينه وفتيــلةِ عِرْقِه فلا جرمَ أنَّ قناديلَه عند الشُّكْر مُضِيَّه، ولقد ملأَ خَبَرُه وخُبْرُه عينَ البصر وأذُنَ المُصِيخ، ولقد خُلِقَ دواءً للأجسام حتَّى صَحَّ قولُ الحَلَبِيين للأرمَد: دَواؤُكَ البِطِّيخ؛ فشكَرَ اللهُ إحسانَ الجناب العالى، وبِرَّه المُتوالِى؛ وعلىٰ الوَالد والولد ومن عِنْدَهمــا سلامُ المحبِّ المتغالِى، والله تعالىٰ يحفَظُ عليهم من الفَضل ماوَهَب، ويرزُقُهم بغـير حساب ويَرْزُقُ الظنَّ فيهم ماحسِبَ؛ إن شاء الله تعالىٰ.

وله أيضا جواب بوصول بِطّيخ حلبىّ، وهو بعد الالقاب:

وشكرَ إحسانَه الذى حلَا مَذَاقُه، وزكَتْ أعراقُه، وحيّا علىٰ البُعْد تحيّــةً طيِّبةً نفَحَتْ بها أزهارُ الكُتاب وأثمرَتْ أوراقُه؛ هــذه المفاوضة تُهدِى إليه سلامًا طيِّبا كهديَّته، وثناءً زاكيًا كطَويّته، وتوضِّح لعلمه الكريم وُرُودَ مكاتبتــه الجامعة حَسَن

الأقوال والأفعال، المطلعةِ بوارِدِ غَمَامها أطيبَ الثمر فى الحال؛ فأحيَتْ وَلاءً حاشىٰ لوجوده من العَدَم ، وجدَّدت عهد البِشر ـ وما بالعَهْد من قِدَم ـ ووصل البِطِّيخ الحلَبيُّ أصلُه ، الحموىّ فصْلُه ، الدِّمَشْقِيُّ ضَمُّه وشَمُّه وأكلُه ، الفلَكِيُّ ولا سِيَّمَا من الأهلَّة المجتمعةِ شَكْلُه ؛ فكَرُم مَطْلَعا ، وحَسُنَ من الأفواهِ مَوْقعا ؛ وعَمّ الحاضرين نوَالا ، وآشتملهم بعَطْف الإحسان آشتِمالا ، وأخذ الغلامُ السكِّين :

فقطَّع بالبَرْقِ شَمْسَ الضُّحىٰ * وناولَ كُلَّ هلَالٍ هلالَا

لا بَلْ أهلَّةً كثَّر تَعْدادَها ، وكَرَّر تَرْدادَها ، ورَصَد قُرْبَها ولا نقول كما يقول أصحابُ الهيئــة أبْعادَها ؛ فشكَر اللهُ إحسانَ الجناب العالى حاضِرًا وغائبا ، وبِرّه الذى يُطْلِـع كلَّ وقت من هَدَاياه وكُتُبه أهِلَّةً وكَواكِبا ، ومَرْباه الذى نقل عن ملوكٍ كانتْ منازلُهم للحامد رَوْضا وكانتْ أيديهِم للكرم سَحائِبا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله جوابٌ بوصول قَصَب سُكَّر وأُتْرُجٍّ وقُلْقاس :

لازالَتْ أوصافُ شِيَمِها ، تُطْرب كما يُطْرِب القَصَب ، وألطافُ كَرَمِها ، ممــا يغَذِّى الجســدَ ويُنْعِش الرُّوحَ ويَشْفِى الوَصَب ، وأصــنافُ نِعَمِها من الحُلْو إلىٰ الحامض ممــا يُعْدِى الأيدِىَ المتناوِلة فهِى علىٰ الأعداء تَنْتصِب ؛ تقبيــلَ مُحِبٍّ حلَتْ له المِنَنُ فتناوَلَها ، ومواقِعُ اللَّثْم فعاجَ إليها وعاجَلَها .

ويُنْهِى ورُودَ مشرِّف مولانا الكريم ، علىٰ يَدِ فلانٍ يتضمَّن الحُسْن والإحْسان ، والبِرَّ المأثُور بكلِّ فَمٍ المشكُورَ بكلِّ لسان ، فقابله المملوكُ بمــا يجب من الخِدْمة لمثله ، ولاقاه بعوائِدَ تحمَدُ عوائدَ فضْـلِه ، ووصل قرِينَه الإنعامُ الذى تنوَّع فُنونا وأفنــانا ، وملأ فَمَ الشراب خاناه سُكَّرا ويدَ المَطْبَخ إحسانا ؛ وذكَّر نباتُه الطرابُلُسِىُّ عُهُودَ الديار المصْريه ، وأوقاتَ الأُنس بخِدْمة مولانا السنِيّه ؛ سَقْيًا لها من أوقاتٍ وعُهُود ، وشُكْرا

لجُود مَوْلانا الذى هو فى كلِّ وادٍ موجُود ؛ ولتدبيره الشمسِىِّ الذى احْيا اللهُ به علىٰ عباده عناصِرَ هذا الوُجُود، ولا برِحتْ مكارِمُه متنوّعه، ونِعَم أياديه متفرِّعه : فمنها ماحَلَا فرعُه فأصبح لكلِّ حُلْو أصلا ؛ ومنها ماطاب رِيحه وطَعْمُه فكان للمؤمن مِثْلا ؛ ومنها مالَذَّ طعامُه الشهِىُّ فما هو مما يُهْجَر وإن كان مما يُقْلىٰ .

وله جواب بوصول باكُورة خِيَار ومُلوخِيَّة :

لازالتْ تشْرَح بمكارمها الصُّدور، وتفْتَح بركاتِ الأعوامِ والشُّهور، وتمنَحُ من لَطائِفِ مِنَنِها كلَّ جماعةِ السُّرور، وتلْمَح فى هَدَاياها المستبقة إلىٰ الأولياء خيارَ الأمور؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُغيِّر ولاءَه الدُّهور، ماشٍ من طريقِ المُصافاة والمُوافاة فى نُورٍ علىٰ نُور .

ويُنْهِى وُرودَ مشرِّفةِ مولانا علىٰ يدِ فلانٍ تتضمَّن المَعْهُودَ من وَلَائِه وآلائِه ؛ والمشهودَ المشهورَ من إحسانِ نَدَاه قبْلَ نِدائه؛ فقابلها المملوكُ مقابَلةَ الشَّيِّق إلىٰ قُرْب الديار، المُمْضِى فى المحبّةِ قَلْبَه لمولاه قَبْل شَرْط الخِيار، ووصلَتْ لطائفُ هديَّته الخَضِرة النَّضِره، وطَرائِفُ الفضل الباكرةُ كمَعانِى اللفظ المبتَكَره ؛ فتنَجَّز المملوكُ الفاكهةَ قبلَ أوانِها البَدِيع، ورصَدَ من أفلاك العُلَب فى ذى الحِجّة غُرَّةَ رَبِيع؛ وتفاءَلَ بالهدِيَّة المجَمِّعة الأحباب فى أن يَعُودَ الشَّمْلُ وهو جَمِيع؛ وقد عاد فلانٌ حاملًا من رسائِلِ الشوق والشُّكر مايُؤَدّيه بينْ أيْدى مولانا الكريمه، ويجَدِّدُ بذِكْراه عُهودَ الأُنْسِ القدِيمه؛ لابَرِحَ مولانا سابقَ الكَرَم، مُخْضَرَّ المَرَابع ببِيضِ النِّعم .

قلت : وكتبت جوابًا لبعض الأصحاب وقد أهْدىٰ لى سَمَكا :

أهْدىٰ لنَا سَمَكًا قَدْ طابَ مَطْعَمُه * أكْرِمْ به سَمَكًا لم يَسْكُنِ البِرَكا !

لا شَكَّ أنَّ له بالبَحْرِ شاكلةً * والبَحْرُ عادتُه أنْ يُهْدِىَ السَّمَكا !

الضـــرب الثـانى
(من كُتُب التهـادى الاستِهْداء)

واعلم أنَّ كلَّ ما يُكْتَب مع إهدائه قد يُكْتَب مع استِهْدائه، إلا أنَّ الغالب ممـا جَرَتْ به عادةُ الكُتَّاب فى الِاستهداء طلبُ الأشـياء المستظْرَفة الخفيفةِ المِنَّـة دُونَ ما يعظُمُ خَطَرُه، أللهـم إلا أنْ يكونَ الاستهداءُ من المـلوك ونحوِهم فيطْلَب فيـه ماجلَّ وعظُم .

والذى جرت عادة الكُتَّاب بالكتابة فى استهدائِه علىٰ أصناف :

الصنف الأوّل ــ آلاتُ الكِتابة : من الأدْوِيَة(١) والمِدَاد والأقْلام :

ممـا تقدّم ذكره فى الإهداء .

أبو الفَرَج البَبَّغاء فى استهداء دواة :

أنفَسُ الذَّخائرِ وأشرفُ الآمال ما كان للفَضْل نَسَبا، وللصِّناعة والحُظْوة سببًا؛ وبالدُّوِىِّ تجتنىٰ ثمرةُ الصِّناعة، ويحتَلَبُ دَرُّ الكتابة، وقد أوحَشَ الملوكَ الدَّهْرُ ممـا كنتُ أقْتَنِيه من نفائِسها، وضايَقَه فى وُجود الرِّضِىِّ علىٰ الحقيقةِ منها، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُمِيطَ ببعض مايستخْدِمه من حالِيها أو عاطِلها سِمَةَ عُطْلة المملوك، ويَسْمَحَ بإهدائِها إلىٰ أهلِ تصْرِيفه ويقابِلَ بالنُّجح والتقبُّل رغبَتَه، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى استهداءِ مِدَاد :

التَّنـافُسُ ــ أيدك الله ــ فى أدَوات الكتابة وآلاتِ الصِّـناعة بحسَب التَّفَـاخُر فى ظُهُور النعمة، والتخيُّر لبيانِ الإمكان والقُدْرة، وإلا فسائرُ الدُّوِىِّ سَوَاءٌ فيما تُصْدِره

(١) لعل الصواب من الدوىّ انظر القاموس .

الأقلام عنها ، وتستَمدُّه بُطونُ الكتُب منها؛ وأَوْلىٰ آلاتها بأن نتوفَّر العنايةُ عليـه، وينْصرف التَّخيُّرُ بالضَّرُورة إليـه، المِدادُ الذى هو يَنْبُوعُ الآداب، وعَتَادُ الكُتَّاب، ومادّةُ الأفْهام، وشِرْب الأقْلام؛ فجعلَها اللهُ بواجب القضِيَّة والحُكْم، فى حَيِّز وصْفه من الحمد والذَّم؛ ومازِلْتَ لنفائس الأخْلاق موْطِنا، ولنُجَع الإخْوان فى المَحْلِ مَعْدِنا؛ ولا مَعْدِلَ بى عن ٱسْماحةِ خزَائنك عَمَرها اللهُ المُمْكِنَ من جَيِّده، فإن رأيتَ أن تستَنْقِذ دَواتِى من خُمُول العُطْلة ، وتُنَزِّه قلَمِى عن ظمإ الغُلَّة ، وتكْشِفَ عنها سِمةَ النُّقْصان والخَلَّة، فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ .

علىّ بن خلف، فى مثله :

أوْلىٰ ما أنْبسِط فى ٱستِهْدائه، وتسمَحُ [نفسى] فى ٱستِماحتِه وٱستِجْدائِه، ما كان ناقِعًا لغُلَّة الأقلام ، مقيِّـدًا لشَوَارد الأفْهام ، مُحبِّرًا لبرُود البيَان ، حاليًـا فى معَارض الحُسْن والإحسان، وكتبتُ هذه الشَّكْوىٰ أطال الله بقاء سيدى :

الصنف الثـانى ــ الشَّراب .

فى ٱستهداء مشروب .

أبو الفـــرج الببغاء :

أنا ــ أيدَ اللهُ سيدِّى ــ ومن سامَحَنِي الدَّهْر بزِيارتِه من إخوانى وأوْليائه، عضَّدَاللهُ جمْعَنا ببقائه، وُقُوف بحيث يَقِف بنا ٱختِيارُه : من القَبُول والٱنْبساط، ويرتَضِيه لنا إيثارُه: من الهَمِّ والسُّرور، لأنَّ الأمرَ فى ذٰلك ممـا يُولِيناهُ من المساعدةِ بالمُمْكِن من المشْرُوب إليه، والٱعتمادَ دُونَ كلِّ أحد فى ٱجتماع شمْلِ المسَرَّة لَنَا بِهِ عليه، فإن رأىٰ أن يَكِلَنِي إلىٰ أوْلىٰ الظَّنيْن به وأحقِّهما بمأثُور فُتُوَّته، فعل .

وله فى مثـــله :

ألطَفُ المِنَن موْضِعا ، وأَجلُّها من الأنفُسِ مَوْقِعا ، ماعَمر أوطان المَسرّه ، وطَرَد عوارِضَ الهَمِّ والفِكْره ، وجمعَ شَمْل المَودَّة والأُلْفــة ، وأدّى إلىٰ آجتِناء ثمرةِ اللَّذّة ، وبذَخائِرك من المشْرُوب مع هــذه الأوصاف [ما] يستَرِقُّ حُرَّ الشكر ، ويُحْرِز قصَبَ السَّبْق إلىٰ الثناءِ وجميــلِ الذِّكْر ، فإنْ رأيتَ أن تُنْجِد بالممكن منه مُرُوّتِى ، علىٰ قضاءِ حقّ من أوجبَ المنَّةَ علىّ بزِيارتِى ، فعلْتَ .

وله فى مثـــله :

مَنْ كان للفضل نَسَبا ، ولفَلَكَ الفُتُوّة قُطْبا ، لم تَفْزَع القلوبُ من الهَمِّ إلّا إليه ، ولم تُعوّلِ الأنفُسُ فى آسْتِمــاحة المَسارّ إلّا عليــه ، وقد طَرَقنِى من إخوانِى مَنْ كان الدَّهرُ يُمــاطِلُنى بزِيارَته ، ويَنْفَسُ(١) علَىّ بقُرْبه ومُشاهَدَته ، فصادَفنِى من المشْرُوب مُعْسِرا ، ووجدتُ الانْبِساط فى آلتِمــاسه من غيْرِك علَىّ متعَــذِّرا ، وإلىٰ تفَضُّلك تَفْزَع مُرُوءتى فى الإسعافِ منه بمــا يَلُمُّ شعَثَ الأُلْفة ، ويجمع شَمْل المَسرّة ، ويجعلنا لك فى رِقِّ الاعتدادِ بالمِنَّة ، ويقضِى عنى بتفَضُّلك حقُوقَ المودّة .

علىّ بن خلف :

قد آنتظَم لنا ــ أطال الله بقاءَ سيدى ــ مجلسٌ واقِفٌ بينَ النَّشاط والفُتُور ، والكآبةِ والسُّرور : لغُرُوب نُجوم الخَمْر عن سَمَائه ، وعَطَله من حُلِىّ نُورِه ولألائه ، وقد عوّلْنا فى إطلاقه إلىٰ إحدىٰ الجهتين عليه ، وجعَلْنا زِمامَه بيدَيْه ، فإن رأىٰ أنْ يُروّحَ أفكارَنا بشىءٍ من راحِه المُشابهةِ عَبَقا وعِتْقا لأخلاقِه وأعْراقه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى "القاموس" مادة ن ف س « ونفس به كفرح ضن وعليه بخير حسد » .

ولـه فى مثـــله :

أفضلُ ماأهْدىٰ سيدى ماأهْدىٰ السرُورَ إلىٰ أحِبّته، ونظَمَ شَمْلَ المتحقّقِين بخِدْمته، وحَسَم عنْهــم هوَاجِسَ الفِكْر، وأعْداهم علىٰ الدَّهْر؛ وقد جمَعَنا مجلسٌ وهَبْناه للثناء عليــه، وزُفَّتْ عرائسُ الخمر إليه، فإنْ رأىٰ إيثارَنا بمـا يُكَمِّل نَشاطَنا، ويَتِّمُ آنْبِساطَنا، فلْيَعْقِرْ همُومَنا بشيءٍ من عُقَاره، ويَنْظِمْ [جمعَنا] فى سِلْك أياديه ومَباره؛ إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الرابع

(الشّـــفاعات والعِنَـــايات)

قال فى "موادّ البيان" : وهذه الكتُب إنما تَصْدُر عن ذَوِى الرُّتَب والأخْطار، والمَنازل والأقْدار، الذِينَ يُتوسَّل بجاههم إلىٰ نَيْل المطْلُوب ودَرْك الرغائب .

قال : والملتَمَس فيها ممن تُنَفَّذُ إليه أحدُ ثلاثةِ أنواع : إمّا بَذْل مالهِ ولا يَبْــذُل مالَهُ إلا ذُو مرُوءة يَفْرِض علىٰ نَفْسه حقًّا فيــه لقاصِديه؛ وإما بذْل جاهه وفى بَذْل الجاه إراقةُ ماء الوجه والتعرُّضُ لمَوْقِف الرَّدّ؛ وإمّا الاَسْــتِنْزالُ عن سَخِيمةٍ ومَوْجِدة فى النزول عنهما كفُّ حَدّ الغَضَب وغضُّ طَرْف الحَنَق، وهما صَعْبان إلَّا علىٰ من فَضَل حِلْمُه، ولَطُف فهْمُه .

ثم قال : والكاتبُ يَحتاجُ إلىٰ التلَطُّف فيهما وإيداعِهما من الخطاب ما يَخْرُج به الشافِعُ عن صُورة المثقِّل علىٰ المشفُوع إليه بما كَلَّفه إيّاه، ويؤدِّى إلىٰ بلوغ غَرَض المشفُوع له ونجاح مَطْلَبه؛ ثم أتبع ذلك أن قال: وسبيلُ ما كان فى آستماحة المـال، أن يُبْنى علىٰ الإبانة عن مَوْقِع الإفضال، وفضيلة النَّوال؛ وآغتنام فُرَص الاَقتِدار،

فى مَعُونة الأحْرار، وما جارىٰ هذا ـ وسبيلُ ما كان منهما فى طلبِ الآنتفاع بالجاه أن يُبْنىٰ علىٰ هزِّ الأريحيَّة لآصطِناع الصَّنائع، وتحمُّل المَشاقِّ فى تقليدِ المِنَن، وآدّخارِ الفِعل الحسَن، وآغتنامِ الأجروالشُّكر ـ وسبيل ما كان منهما فى الآستنزال عن السَّخائمِ أن يُبْنىٰ علىٰ الملاطَفة، والإشارةِ إلىٰ فضيلة الحِلْم والصَّفح عن الخاطِئ، وما فى ذٰلك من حُسْن السُّمْعة فى العاجله، ومتوفّرالمَثُوبة فى الآجله، ونحو ذٰلك .

وذكر أنَّ أحسن ماقُصِد فى هذا الفَنِّ مَسْلَك الإيجاز والآختصار، وأن يُسْلَك به مَسْلَكَ الرِّقاع القِصَار المجمَله؛ لاالكُتبِ الطِّوال المفَصَّله؛ وأنْ يُرْجَع فيما يُودَعه إلىٰ قَدْر الشافع والمشفُوع فيه، والكاتبُ إذا كان مُرتاضا ماهِرا لم يضِلَّ عن تَنْزِيلِ كلِّ شيء [فى] منزلته، وترتيبه فى مرتبته .

قلتُ : ومن أحسن مايطابِقُ هذا النوعَ مارأيتُه فى بعض المصنَّفات : أنَّ عمرو آبنَ مَسْعدةَ وزيرالمأمون كتب إلىٰ المأمون فى رُقْعة :

أما بعدُ، فإنَّ فلانا سألَنِى أنْ أشفَع له إلىٰ أميرِ المؤمنين، فأخبَرْته أنِّى لم أبْلُغ عند أميرِ المؤمنين مَبْلَغَ الشَّفاعة ـ فلمَّا وصلَتِ الرُّقعة إلىٰ المأمون وَقَّع عليها بخطِّه : قد فَهِمْنا تصريحَك به وتعْرِيضَك بنَفْسِك، وأَجبْناك إليهما وأتحفْناك بهما .

من كلام المتقدّمين :

الحسن بن سهل :

كتابى إليْك كتابُ معتَنٍ بمن كَتَب له واثقٍ بمَنْ كتَبَ إليه ، ولن يَضيعَ حامله بين عنايةٍ وثِقةٍ، والسلام .

أبو الحَسيْن بن سَعْد :

وقد توجَّه إليك فلانٌ بقَصْدٍ فيهِ مستَجْمِع ، وأملٍ فيما قِبلَك مُنْبَسِط ، وايس بعدَ إصابتك عنده مَوْضعا وعندَنا متحمَّلا لليَدِ الحسَنَة إلا آفتراضُ ذلك منْه ومنًّا فى أمره علىٰ يُسْر فى حاجتِه ، وتخفيفٍ من مَئُونتِه ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تأتِىَ فى ذلك بما يشبه أملَه وظَنَّه ، وتُوجِب عليه الحقَّ به ، ونشكر لك منه مايبقىٰ عندنا ، بأنك بحيثُ تأتى الفضل ونتوخّى الصِّلَة ؛ [فعلت] إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : معْرفتى بأنك لا تتجـاوَزُ فى العُقُوبة سبيلَها من مَوَاقع الأدب ، تَحْمِلنى علىٰ مُسـاءلَتِك ماأنت مُوجِبٌ له والذِّكْرىٰ تنفَعُ المؤمنِـين ، ولولا ذلك لآستغنىٰ صاحبُ كتابى عنه ؛ فإن كان ذَنْبُه صغيرا فالصغيرُ يُخْرِجه من حَبْسه ، وإنْ كان كبيرا فالعفو يسَعُه . وكتابى متقاضٍ لك تقديمَ العَفْو علىٰ العُقُوبة ، والحسنةِ علىٰ السيِّئة ، والآستصلاحِ علىٰ القُوّة فى التأديب .

طِفَال بن شَـــبَّة :

وأحقُّ من يَعْطِف علىٰ أهلِ البُيوتات ، ويجُودُ لهم بمـا يَبْقىٰ ذكْره ، ويَحْسُن به ذُخْره ، مثلُك ؛ وقد وجَّهت إليكَ فلانا ، وهو من ذَوِى قَراباتى ، وذَوِى الهيئة من أُسْرتى ، وعَرَّضْته لمعْروفك ، وأحببْتُ أن تُلْبِسه نعمتَك وتَصْرِفَه إلىّ وقد أودعْتَنى وإيّاه ماتجدُه باقيًا علىٰ البشر(١) الجميل فى الغَيْب والحَضَر .

ولغـــيره :

وقدجعلكَ اللهُ غِياثاً ، وجعل عِنْدكَ لمؤمِّليك وراجى رِفْدك ، أبلغَ ذَرِيعةٍ من كرمك وفَضْلك ؛ وقد أصـبحْتَ مفْزَعَ كلِّ ذى همٍّ ، وملْجأَ كلِّ ذِى أرَبٍ ، وموضِعَ كلِّ أمل ، وأصبحتَ ملتقىٰ السُّبُل ، ومجمعَ الأصناف المختلفةِ ، والطوائفِ المتصرِّفة .

(١) لعله على نشر الجميل الخ .

أبو مسلم محمد بن بحر :

قد شَهَّرتَنِي باصطناعك [حتّى] تكافأَ فى معرفة خبرها أهلُ بُلْدان المَشْرِق والمَغْرِب . والذين عرفُونى فصديقى منهم مُغتبِط بذلك لِى ، وشريكٌ فى النعمةِ به عَلَىَّ ، وقوىُّ الظهر بما مَنَحَنِيه اللهُ من رَأْيك ؛ وإذا نابتْ بعضَهم نائبةٌ يرجُوك لكَشْفها ولم يَكُنْ له إليك طريقٌ يُدْنِيه ولا حرمةٌ تقربه وتَعْطِفك عليه ، سألنى الشفاعَةَ له إليك ؛ ففعلْتُ ذلك مُدِلًّا بما أعتقده من الشُّكْرِعلى نعمتك عِنْدى ، والإخلاص فى طاعتِك المفروضةِ علىّ ؛ واثقًا بتَسْويغك إياىَّ مارُقِّيتُ إليه من درجة الشافع لغيره ، والسائل (؟) فى طريقه وذَوِى الحقِّ عليه : لتكونَ قد أكملْتَ علىّ النِّعمةَ ، ووكّدت لدَىّ العارِفة ، وآستمَمْت عندِى الصَّنِيعة .

أبو الخَطَّاب بن الصابى :

أبْسطُ الشفاعة وَجْها ، وأقربُها نُجْحا ، وأوْقَعُها فى القلوب ، وأسرَعُها إلى القَبُول ، ماوقَعَ من أقسام ثلاثة : من إدلال السائِل بحُسْن الظنّ ، وآرتياح المسئُول إلى فعل الخَيْر ، وآستحقاقِ المسئول فيه لقَضاء الحقِّ ؛ فإذا آجتمع لها ذلك كانت الثِّقةُ بها زائده ، والفُتُوّة لها رائده ، والفضلُ عليها قائما ، والنُّجْح بهاقادِما ؛ وكان الشُّكْر من أقلّ موجُوداتها ، والمِنَّةُ من أجَلّ مَذْخُوراتها .

وله : إنْ دَلَّ المملوك فبِصِدْق المودّة ، أو عَوَّل فعلى حُسْن النيَّة ، أو آستظهر فبقديم الحُرْمة ، أو آستنْصَر فبكريم الرِّعاية ، ووراءَ ذلك هِمَّةٌ من مولانا بعيدةُ المَرامِى ، طويلةُ المساعى ، شامخةُ الأَنْف ، سابقةُ الطَّرْف ، تُوجِد الآمال سِراحا ، وتُوسِعُها نَجاحا ، وتأخُذُها خِماصا ، وتَرُدُّها بِطانا ، وتُورِدُها هِزالا وتُصْدِرها سِمَانا(١) ، وثِقَةٌ منّى

(١) لم يرد هذا الجمع فى كتب اللغة التى بأيدينا والقياس على بطان وسمان لا يأباه .

قد أحكم عَقْدَها الزَّمان، وأوثق شَدَّها الاْمتِحان، فصارتْ لأعراض المملوك رائِده، وفى قُوّة نَفْســه زائده؛ فالمملوكُ من ٱجتماع هذه الأقْسام، ووُجُوب ماتقتضِــيه من الأحكام، بين ظَنٍّ جميلٍ لامجالَ للشكِّ عليه، ويقينٍ صحيح لاوُصولَ للاْرتياب إليه .

آخـــر : ولئن كانَ المملوكُ أسْرف فى مَجارِى التثقيل علىٰ مولانا ، فإنَّ المملوك لم يردّ بعضا من دواعى الأمل فيه، فإنَّ المظنونَ من فُتُوّة مولانا رائدُ الثِّقة بجميلِ نيّته، ولن يعدَمَ النجاحَ من ٱعتمدَ علىٰ الفُتوّة والثِّقة .

آخـــر : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ إن أدَلَّ، فبحقٍّ لدىٰ مولانا أكَّده، أو ٱستَرْسَل، فبفضْلٍ منه عَوَّده، وبين الدالَّة من المملوك والعادة من مولانا موضِعٌ لنَجَاح الحاجة، وبلوغِ الإفادة، وقد فعــل المملوكُ ما تعلَّق به واثقًا بالكرم من مولانا؛ فليَفْعَل مولانا مايتعلَّق به محقِّقا للأمَل فيه .

اخـــر : وينهِى أنَّ المملوك إن ٱنْبَســط، فمُدِلٌّ بالحرمة الوكيدة، ومعَوِّل علىٰ النية الكريمة، أو ٱنقبض، فلهَيْبة الإقدامِ علىٰ مولانا ومُراعاةِ التخفيفِ عنه، ولفضله فيما بين ذٰلك مَسْلَك وغلبة تسلُّطٍ يَدْعُوان إلىٰ حُسْن الظن بمولانا، ويُوثِّقان من وُجُود النجاح لديْه .

آخـــر : بذْلُ الجـاه فى إعانةِ الضـعيف ، وإغاثة الملْهُوف ، والترويح عن المضْغُوط، والتفريج عن المَكْروب المكْدود، كبَذْل المـال فى إسعاف المُعْسر، وإسعاد المُقْتر، ومُواساةِ المحروم، والتعطُّف علىٰ المَرْحوم، وما فى الحالتين إلَّا ماالدِّيانةُ له ضامِنه، والمُروءة له قائمة؛ والحقُّ به مستَوْجَب، والأجْرُ به مكتَسَب، والصنيعةُ به معتَقَده، والمَثُوبة به مُدَّخَره .

آخــــر : وينهى أنَّ حُرْمة الجِوار من أوْجب الحُرُمات حقّا، وأحكَمِها عَقْدا، وأخَصِّها بالعِنايه، وأحقِّها بالرِّعايه، وما رعَاها إلا ذُو قَــدْرٍ عظيم، وخُلُقٍ كريم، وأصلٍ عرِيق، وعَهْدٍ وَثيق. وفلان ممن يَضرِب بدَالَّتها، ويَمُتُّ بوسيلتِها، ويَتَخفَّر بذِمّتها، ويتعلَّق بعِصْمتِها، ويعتدّها وَزَرا مانعا، وذُخْرا نافعا، وعُدّةً موجودةً عند الحاجة؛ وله أمْرٌ يذكره مشافَهَة، فإن رأىٰ مولانا أن يحقِّق من ظَنِّه ما كان جميلا، ويصــدِّقَ من أمله ما كان فَضْلُ مولانا إليــه سَبِيلا، فهو المعهُود من إحسانه، والمؤمَّل من فَضْله.

آخــــر : مَنْ سافَر إلىٰ سـيِّدى بأمله ورَغْبتــه، ومَتَّ إلىٰ حضرته بوِفَادتِه وهِجْرته، فقد آستغنىٰ عن الشافع، وكُفِيَ أمْرَ الوسائِل والذَّرائع؛ وحاملُ كتابِي هذا قد تجشَّم القُدُومَ إليه، وتمسَّك بذِمام(١) الوِفَادةِ عليه؛ مع مايتَحَقَّقُ به من حَقِّ المشاركة فى الصِّناعة، ويستوجبُه بفضيلة الكِفَاية والأمانة؛ وإنَّما أصدر المملوكُ هذه الخدمةَ علىٰ يده ممهِّدة لأُنْسه، ومقَوِّيةً لنفْســه؛ وإذا مَثَل بحضرتِه، ونظَره بعَيْن نَبَاهته، فقد غَنِيَ عن الشفاعة وبلَغ الإرادة.

آخــــر : ويُنْهِي أنَّ مايَفْرِضه مولانا لمن أمَّه بالرجاء، ومَتَّ له بإخلاص الحمد والثناء : من إدْرار أخْلاف الإفضال، وتحقيق الرَّغَبات والآمال، يُغْنِي قاصـديه عن الشَّفاعات والوسائل، ويكفى آمليه تحمُّلَ الذَّرائع والمَسائِل؛ والواصلُ إليه بهذه الرُّقْعــة فلانٌ؛ ومولانا يَعْرِف حقَّه علىٰ المملوك وماله من المَواتِّ لديه؛ وقد توجَّه إلىٰ حضرته، راجيًا أن يُلْحِفه من ظلِّ سـعادتِه مايتكفَّل بمصلحته، ويقضى علىٰ الزمن بإعْدائه ومعُونته؛ ومولانا أحقُّ من توَلَّاه بحسن خلافتِه فيه، والتفضُّل علىٰ المملوك بتحقيق ما يُرجِّيه.

(١) الذمام بالذال المعجمة الحق والحرمة.

آخر فى معتقل : عِلْمُ المملوكِ بأنَّ مولانا لا يتعدّى فى العِقاب موضِعَ الإصلاح والتأديب ، ولا يتجاوَزُ فى الغَضَب موقِعَ التقْوِيم والتهذيب ؛ عملًا بالعَدْل ، وتمسُّكا بالفضـل ؛ يبعثُـه علىٰ تنبيهِه لمـا أغْفَله ، وآنقيادِه لمـا أَصَّـله ؛ وفلانٌ قد تطاوَلَ آعتقالُه : فإن كان جُرْمه صغيرًا فقد ظُلِم فى القِصاص ، وإن كان كبيرًا فقد آستحَقَّ الخَلَاص، والمسئُول من إحسانه أنْ يُعاوِدَ جميـل عادتِه، ويُراجِعَ كريمَ شِيمتِـه ؛ فيَعْمَلَ فى أمره بالعَدْل ، إذا لم يَرَه أهْلا للفضـل ؛ وإنْ كانت حقوقُه متأكِّده ، وحرمته مؤكده؛ فلا يحسن أن يُضاعَ ويُخْفَر، ولاينبغى أن يُجْحَد ويُنْكَر؛ وهو حَرِىٌّ أن يحقِّق الظنَّ فيه، ويقابل هذا السُّؤال بمـا يقتضِيه .

آخـــر : علىٰ حَسَب أخطار الودائع يكونُ الإشفاقُ عليها، والشكرممن صرف رعايتَـه إليها ؛ وقد كان المملوكُ أودَعَ كَنَفَ مُروءَته، وفِناءَ هِمَّته، فلان؛ وهو دُرَّة المَحاسن الفريده، ونادِرةُ الدَّهْر الشريده؛ والجامعُ لأسبابِ المَحامِد بفضائله ومَناقِبه، والناظمُ لِنثَار المآثر بخُلُقه وأَدَبه؛مع ماخُصَّ به من المعرفة بقَدْر الصنيعة،والتعويض بالشُّكرِ عن قليـل العارفة ؛ والمملوك يرجُو أن يكونَ مولانا قد أحسَن خِلافَتَه فيه ، ونَزَّله من حياطتِه وتولِّيه ، بما يُوجبه مكانُه من المملوك ويقتضيه ؛ متعوّضا من شكر المملوك وشُكْره بمـا هو خليقٌ أن يطوّق أجيادَ مَعَاليه، وينتظِمَ فى سِلْك مَساعيه .

رقعـــة ــ وينْهِى أن الأيَّام ، إذا قعدَتْ بالكِرام ، فأنزلَتْهم بعد السَّعة ضيقا ، أوجَدَتْهم إلىٰ التثقيل علىٰ من يمُتُّون إليه بسالف الخِدْمة طَرِيقا؛ وممن تحدَّاه الزمن بنَكَده، وعوَّضه ببُؤسـه من رَغَده، فلان؛ وكان قد فَزِع إلىٰ جماعة من الخُلَّان ، واثقًا منهم بالآمتنان والإحسان ، فألفىٰ وَعْدا جميـلا ، ومَطْلا طويلا ؛ فعدَلَ عنهم

إلىٰ سيدى وعزل عَنْهم إليــه، وتوجَّه إليه معتمدًا بعــدَ الله فى مَقْصده عليه؛ ثقةً بفَضْــل غَيْره(١)، وحُسْن أثرِه؛ وتحمَّلَ عبوديَّةَ المملوك هذه ذريعةً تبْسُط له من مولانا مُحَيَّاه، وتوصِّــله إلىٰ مايرجُوه من معروفــه ونَدَاه . وما أوْلىٰ مولانا بأن يحقِّق ظنَّ المملوك وظَنَّه، ويحوز شُكْره وشُكْره؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــة — وينْهِى أنَّ رَغْبة سيدى فى إسْداء المعروف، وغَوْث الملْهُوف، تبعَثُ علىٰ السَّــفَر إليه، والتقدُّمِ بالرَّغَبَات عليــه؛ والله تعالىٰ يواصل المَنح لديْه، كما وصَــلَها من يديْه؛ وقد ســبقتْ له عَوَارفُ لاينْساها المملوك، ولا يؤمِّل جزاءَها إلا بمرفُوع الدعاء، وكريم الثَّناء؛ حتّٰى تقتضى ضَرائرَها، وتستدْعِى نظائِرها، وحاملُ عبوديَّتى هــذه، فلان؛ والمملوك يَرْضىٰ لمولانا لسانَ شُكْره، كما يرْضاه لتحمُّل برِّه؛ وقد ركَض ظهْرَ الأمَلِ إلىٰ حَضْرته، ووَثِق ببُلُوغ الوَطَر من جِهَتــه؛ وأن يُنْظَم فى سِلْكِ من أُسْبِغتْ عليه عَوارِفُه، وعمَّتْه لطائفُه؛ وعزَّز ذلك بٱستِصحاب كتاب المملوكِ إلىٰ بابِه، وتقديمِه ذريعةً فى التزامِ حقِّه وإيجابِه .

رُقْعــة — مَنْ كان سيدى شافِعَه ٱنْبَسط فى المُنىٰ، ولم يَرْض بغيرِ العُلا؛ وقد علم مولانا أنَّ للشَّــفاعة أحوالًا ثلاثا؛ حالًا تَخُصُّ الشافعَ، وحالا تخُصُّ المستشْفع؛ وحالا تخص [المشفُوع إليه](٢) ولكلٍّ حدّ يجب الٱنتهاءُ إليه، ولا يجوز التقصير فيه؛ فعلىٰ المستَشْفِع ٱرْتيادُ أخصَبِ جَناب، وأسْكَبِ سَحَاب، وقَصْدُ الجهةِ التى لا تصُدُّ عن البُغْية سائِلا، ولا تردُّ عن الأمَلِ آمِلا، وأن ينْهض بالشُّكر علىٰ العارِفه، ويُحدِّث بالنِّعم عنــه فى الأحوالِ الطارِفه؛ وعلىٰ الشافعِ أن يُهَريق ماءَ وجْهــه فى السُّؤال،

---

(١) غار الرجل يغوره و يغيره نفعه فالمراد بفضل نفعه تأمل .

(٢) فى الاصل الشفيع وهو غير مناسب .

ويجرِّدَ رَغْبَته فى تسهيل المَنَال ، ويعتقدَ أنَّ ذلك من الدَّين المقتَرَض، والدَّين المفْتَرَض ؛ ويتكفَّلَ بالقيام بما يستَدْعى منه من المكافاه ، ويُلْتَمَس من العوض والمجازاه . وعلىٰ المشفُوع إليه أن يعْلم أنَّ الشافعَ والمستَشْفِع ما قصَداه إلَّا بعدَ الثِّقة بأحَدِيَّتـه ، ولا آعتَمَداه إلَّا بعـد السُّكون إلىٰ أرْيَحِيَّتـه ؛ وأنه لاينبَغِى أن يُخْسِر مَتْجَرهما، ولا يُضِيع سَفَرهما ، وقد آجتمعتْ هـذه الأحوالُ الثلاثُ للرئيس المشفُوع إليه، ولسيِّدى الشافع، ولخادمه المستَشْفِع به ؛ ولم يبقَ إلا عَزْمةٌ منه تَهُزُّ أفنانَ الإقبال فتَسَّاقطُ أثمـارُها، وتُنْشِئُ عَوارِضَ الآمالِ فيَتَهافتُ قِطارُها .

أبو الفـــرج الببغاء :

ومُوصِّل كتابِى هـذا غَنِيٌّ عن شفاعتى له بما يَمُتُّ من حُرُمات الرَّغْبـة إليك، والوقُوفِ دُونَ كلِّ مَقْصِدٍ عليك، وبما يَشْفَع ذلك من التقدُّم فى الصِّناعة، والتوصُّل بوجِيه الكفاية؛ وإنما زوّدْتُه هذه الأحْرُفَ لأفْتَح له باب الأَنَسة، وأُسَهِّل السُّبُل إلىٰ التعلُّق بالخُلَّة ؛ وأدُلَّ بها علىٰ ما تكْشِف منه المُطاوَلة والخِيرة ؛ وأنتَ أيدَك الله ولِيُّ التطوُّل بالتقدّم فى إينَاسِه وبَسْطِه فى الخِدْمة بما يستَزِيد له محمودَ الأثَر فيها من حُسْنِ النظَر وجميلِ الرأْى .

وله فى مثـــله :

ومُوصِّل كتابى فيما يؤمِّله منك ويبلُغُه بك متَمَسِّكٌ من رجائِك بأوكَدِ ذمَّه ، ومن شفاعَتِى بأوجَبِ حُرْمه، ومهما مَتَّ به بعدَ ذلك من ظهُورِ كِفَاية أو تقدُّمٍ فى صناعةٍ كان غيْرَ ضائع عنـد رِعايَتِك ، ولا مجهولٍ مع تيَقُّظ عِنَايتك ؛ وأرجو أن يَحُلَّ من تقبُّلك، بحيث أحَلَّه حسْنُ النظر بتطوُّلك .

وله فى مثـــله :

وفى عِلْمِك ماآخُذ به نفْسى ، وأَرُوض به أخلاقِى : من الاِنقباضِ عن التسرُّع إلىٰ مسألةٍ ، والاحتشام من الانبساط فى حاجةٍ ، مادلَّك علىٰ موضع فلانٍ ومكانِه من إيثارى بواجباتِ حُقُوقه، وسالفِ مواتِّه؛ ولذٰلك سمحْتُ بالكتاب له إليك؛ وفارقْتُ رَسْمى بالتثقيل فى قَضاء حقِّه عليــك؛ وقد قصــد نحْوَك بأملِه ، واختارك لرجائه؛ وقدّرَ بك بلُوغَ البُغْية، واختصر بشــفاعَتِى إلىٰ تفضُّلك السبيلَ إلىٰ إدراك المحبَّـــة[1] ؛ فإنْ رأيت أن تأتِىَ فى بابه مايُشْــبِه فضلَكَ ، ويُناسِب وَكِيدَ ثِقَتِه بك ؛ وأنى أشْرَكُه فى الشكر وأساهِمُه فى الاعتداد، فعلتَ .

آخــــر :

رأَيْتُ المَساكِينَ قد أجْمَعُوا * علىٰ أنَّكَ الوَزَرُ المعتَمَد !

فأنْتَ لِطِفْلِهِــمُ والِـــدٌ * وأنْتَ لشَيْخِهِمُ كالوَلَد !

السلامُ العَمِيمُ ورحمةُ الله و بركاتُه علىٰ مَنْ جعله اللهُ للمساكينِ ظِلًّا يقِيهم، وطَلًّا يَسْقِيهم، ونِعمةً تعُمُّهم، ورحمةً تضُمُّهم؛ أبوفلان، أبقاه الله فى عِزَّةٍ تالدةٍ طارِفه، وسعادةٍ لاتَزال طارقةً بكلِّ عارِفه .

مَنْ أقامه اللهُ مُقَامَك أيُّها الشيخُ المبرور بالترفُّق بالفُقَراء، والإحسانِ إلىٰ الضُّعفاء، لم يَعْدَمْ مَرِيضا يقْصِدُه فى الشِّفاء ، ولا يَعْدَم فَيْضا يعتَمِده للاكتفاء، لاسيَّمــا إذا توسَّل وَحْده، وتشَفَّع بمن لايَضِــيع عملُ عامِلٍ عِنْده ، ومتحمِّلُها فلان قَصَّ الفَقْرُ جَناحَه، وأخنىٰ عليه الدَّهْرُ واجْتاحَه؛ ولمــا رأىٰ الفُقَراء ببِرِّكــم مرتفِقِين، وعلىٰ

(١) لعله الطَّلِبـــه .

شكركم متّفقين؛ أمّكم حسَنَ الظنّ بالمَنّ، ولم يُقَدِّم شفيعًا دُنيويًا، ولا طريقًا واضحا سَوِيّا؛ وأنتم أيها الشيخُ الموقّر تُنْزِلونه منْزلة سِواه، ممّن ثوىٰ مثْواه؛ ونوىٰ فيكم من الأجْرِ والشُّكرِ مانَوَاه؛ إنْ شاء الله تعالىٰ، والسلام الكريمُ العميمُ، يخصُّ جنابكم ورحمةُ الله وبركاتُه :

فاللهُ سُبْحانَه يُبْقِيــكَ فى دَعَةٍ * وحُسْنِ حالٍ وتيْسيرٍ وإقْبالِ !

مُقَــدَّم المجـد فى عِزٍّ وفى كَرَم * مؤمَّل النَّفْع من جاهٍ ومن مالِ !

الشفاعات من كلام المتأخريـــن :

الشيخُ شهاب الدين محمود الحلبى :

شـــفاعةٌ فى آســتخدامِ كاتبِ دَرْج :

جعلَ اللهُ تعالىٰ دُورَه رَحْبَة العِراص، وسعادَتَه فى الازدياد وأعادِيَه فى الانْتِقاص؛ والدعاءَ لإحسانه مقرُونًا بِصِدْق النيَّة والإخْلاص :

وهــذا دعاءٌ لو سَكتُّ كُفِيتُه * فإنّى سألْتُ اللهَ فِيكَ وقَدْ فَعَل !

صدرَتْ هذه الخِدْمةُ تستَمْطِر سَحابَ كَرَمه، وهامِىَ دِيَمِه، وتسألُ جميلَ شِيَمِه، فى معْنىٰ مملوكِ المَوْلىٰ وداعِيه، والشاكِرِ لأيَادِيه، والمُلازِم علىٰ رِوايةِ أخبـارِ فضائله وبَثِّها؛ ونَشْرِ تفضُّـلاته وبَثِّها؛ فإنّه من بيتٍ كريم النَّجار، زائد الفَخَار؛ وله علىٰ مولانا حَقُّ خِدْمة؛ وهو يمُتُّ بسالف مَعْرفة؛ ومحبةُ المملوك له شَديده، والصُّحبةُ بينهما قديمةٌ وشُقَّة المَوَدّة جَديده؛ ولولا ذٰلك ماتَقَّل علىٰ خِدْمته، وتهجَّم علىٰ المولىٰ بمكاتَبته، وقد توجَّه إلىٰ بابه العالى مُهاجِرا، وناداه لسانُ جُوده فلَبّاه وأجابه مبادرا؛ وغرضُه أن يكونَ كاتبًا بين يدَيْه، ومملوكًا تقع عينُ العِناية عليــه؛ وهو من الكِرَام

الكاتبين، والراغِبين فى الآنتظام فى سِلْك خَدَمِه والمُؤْثِرين، وصِفاتُه بالجميل موصُوفه، وفَصاحتُه معرُوفه، وقلَمُه الذى يَقلِمُ ظُفُر المهمَّات ويكُفُّ كَفَّ الحَدَثان، ولسانُه الذى يُغْنِى بشَباته عن حَدِّ السِّنان، ورأيُه المقــدَّمُ فى الهَيْجاء علىٰ شجاعة الشُّجْعان؛ فإذا أنعَمَ المولىٰ باستِخْدامه، وتحقيقِ مَرامه، كانَ قد وضع الشيءَ فى محَلِّه، وصنَع المعروفَ مع أهْــلِه، وبيَّض وجهَ المملوك وشــفاعتِه، وصــدَّقَ الأملَ فى إحسانه ومُرُوءته، ورأيه العالى، إنْ شاء الله تعالىٰ .

وله شفاعة فى آستِخْدام جُنْدىّ :

لازالَ بِرُّه مطْلُوبا، وجُوده محْطُوبا، وذِكْر إحسانه فى الملإِ الأعلىٰ مكْتُوبا، ولا بَرِحتْ رِياضُ جُوده أزْهر وأنْضر من رَوْض الرُّبا، ويَدُه البيضاءُ ترقُم له فى سَواد القلوب سُطورَ حَمْدٍ أحْسنَ من نَوْر تُفَتِّحه الصَّبا. هذه الخدمةُ صدَرتْ علىٰ يدِ فلان تُهدِى إلىٰ المولىٰ سلامَ المملوك وتحِيَّته، ودُعاءَه الصالح الذى أخلص فيه نِيَّتَه، وتَشْفَع إليــه فى تنزيله فى الحَلْقة المنصورةِ وآستِخدامِه، وترتيبِــه فى سلْك جيشِــه المؤيَّد وآنْتظامِه؛ فإنه من الأجْناد الجِياد، وذَوِى الجَلَد علىٰ الجِلَاد، وهو الغشَمْشَم الذى لايُرَدّ، والشَّهْم الذى لايُصَــدّ، والباسلُ الذى لاتُحْصَر بَسالتُــه بوصف ولا تُحَدّ، والنقيبُ الميمونُ الغُرَّة والنقِيبــه، الموصوفُ فى الهيجاء بحَزْم الكُهُول وجَهْل ذَوِى الشَّبيبه . والمولىٰ وإن كان بحمدِ الله غيرَ محتاجٍ إلىٰ مُساعد، ولا مفتقِرٍ إلىٰ معاضِد؛ فإنَّ أسِنَّته لاتحتجب عن رُوح محتَجِب، ونفْسَه الشريفةَ تقوم وحدَها يومَ الكِفَاح مَقامَ عسْكرٍ لجِب، وقلبَه يغْنِيه عن الأطْلَاب والأبْطال، وجيوشَ سطوتِه لاتكلِّفه المُقامَ فى مَنازِل النِّزال؛ فإنَّ المملوكَ يعلَم أنَّ نفْسَه الشريفةَ تَهْوىٰ تَزيُّدَ عسكرِه وجُنْده، وتَرْعىٰ حرمةَ قاصِده وقصْده، فلهذا توَسَّل بشَفْع وَتْر الشَّفاعه، وتوصَّل إلىٰ إزالة

ضَرَع حالِه بكَثْرة الضَّراعه، فإذا أنعَمَ المولىٰ بقَبُول شفاعة المملوكِ فيه، وحقّق له من العِنَاية ما يؤمِّله و يَرْتَجِيه، كان قد شَـدّ للمشار إليه ما أضعَفَتْه العُطْلة من مُنَّته، وقلّد المملوكَ للمولىٰ جميلَ مِنَّته .

شفاعة فى ردّ معزول إلىٰ وِلَايته :

يقبِّل اليدَ العالية لازالتْ مقبَّله ، ولإسداءِ الخـير إلىٰ أهله مؤَهَّله ، و بأياديها علىٰ الكافَّة متفضِّله .

وينهِى ملازمتَه علىٰ شُكْر مواهِبِه ، ونشْر فضائله الجسيمة ومَناقِبِه، وحمْدِه كريم شِيَمِه، والاعتذارِ من تثْقيله علىٰ خِدْمة المولى بخِدَمِه، وسؤالِ إنعامِه بوجُوه مكاتَبتِه ولِسانِ قلَمِه، وما ذاكَ إلا لِمَـا يتحقَّقُه من كريم نِجَاره، وشدّة تطَلُّبه لإسداء العَوارِف و إيثارِه، والموجبُ لهذه الوسيلةِ وسُؤالِ مَكارِمه، وآستمطارِ سحائبِ مَراحِمه، مابلَغَه من عَزْل مملوكِ المولىٰ وعبْدِه، وواصِفِ جميلِ أوصافه بلسانِ شُكْرِه وحَمْدِه، فلان، أفاض اللهُ عليـه إحسانَ المولىٰ و إنعامَه ، وخلَّد لنا وله دَوْلته وأيَّامَه ، فإنه صاحبُ المملوكِ وصـديقُه، وشريكُه فى الدُّعاء لمولانا ورَفيقُه ، وهو من العُـدُول الأُمَناء ، والثِّقَات الأتقِياء، وهو قليلُ الجِدَة كثيرُ العِيال، لايَجِد حِيلةً إذا بَطَلَ بخلاف مايُحكىٰ عن البَطَّال، وقد تشفَّع بالمملوك ومكاتبتِه فى ملاحظةِ المولىٰ له بعيْنِ عِنَايته، والتقدُّمِ بردِّه إلىٰ جِهـةِ وِلَايته، فلهذا كَتَبَ إليه وأكَّد فى معناه السُّؤال، وعلَّق بتحصـيل أمله الآمال، يعلم ذٰلك موقَّقا .

شفاعة فى خلاص مسجون :

فَسَّح اللهُ فى مُدّتِه، وسهَّل أداءَ مايجِبُ من شُكْر نِعْمتـه ، وألزم الألْسِـنةَ بحمْدِه والقلوبَ بمحبَّته، وجعله مفَرِّجا كلَّ كرب، ومسَهِّلا من المقاصد كُلَّ صَعْب .

وبعـد، فإنَّ كافَّة الأُمَّة قد تحقَّقت رحمةَ قلبِ المولىٰ ورأفتَه، وتيقَّنتْ إحسانه ومُرُوءتَه، وأنه يُؤْثِر إعانةَ كلِّ عانٍ وإغاثَةَ كلِّ ملْهُوف، وأنه لايُمْسِك إلَّا بالْإحسانِ ولا يُسَرِّح إلَّا بالمعْرُوف، بحيثُ سارتْ بحُسْن سِـيرتِه الرِّكاب عوضًا عن الرُّكْبَان، ودرأتْ مكارِمُه[1] عن الأولياءِ نُوَبَ الزَّمان؛ وعَلَا علىٰ حاتِمٍ فلو تَشَبَّه بكَرَمه لقُلْنا له: (مَرْعًىٰ ولا كالسَّعْدان). وللمملوكِ من إحسانِه أوفَرُ نَصِيب، وهو يَرْفُـل من جُودِه فى ثَوْبٍ قَشِيب؛ وقد ٱشتَهَر مايُعامَلُ به من الإِكْرام، وأنَّ قِسْمه من العِنَايَة أوفَرُ الأقسامِ؛ وكان يُعدُّ من جملة العَبِيد فأصبحَ مُضَافا إلىٰ الأَزْلام؛ وهذا ممـا يُوجِب علىٰ المملوك أنْ يبتَهِل إلىٰ الله فى تخليد دَوْلتِه ويتضَرَّع، وعلىٰ حِلْم مولانا أنه إذا شَفَع إليه فى مُذْنب أن يُشَفَّع؛ وهو يَشْفَع إليه فى مملوكه وعَبْدِه، والملازمِ علىٰ رفْع راياتِ مجده وتِلَاوةِ آيات حَمْدِه، فلان؛ رزقَه اللهُ رضا الخواطِرِ الشريفه، وأسبَلَ عليـه حُلَّةَ عفوِه المنيفة علىٰ الحُلَل بظِلَالها الكَثِيفه؛ فإنه قد طالَتْ مدّةُ حَبْسه، وٱعترف بأنه الجانِى علىٰ نَفْسه؛ والمعترِفُ بذَنْبه كمن لاأذْنَب، والمغْترِفُ من بحر جُودِه يَرْوىٰ دُونَ أن يَشْرَب؛ والطالبُ لبِرِّه ينال سُؤْله والمَطْلَب؛ فإنْ حَسُن فى رأْيه العالى زاده اللهُ عَلاء، وضاعَفَ له سَناء، المشىُ علىٰ مَنارِ جُوده ومِنْهاجِه، وبُروزُ أمرِه المُطَاع بإطْلاقه وإخْراجه، ٱغتَنَم أجرَه، وجبَرَ كَسْره، وربِح فى هـذا الشهر المبارَك دُعاءه الصالِحَ وشُكْرَه؛ وكان قد أنعَمَ علىٰ المملوك بقَبُول شفاعتِه إليـه، وفعلَ مايُوجِب علىٰ كلِّ مسلم الثناءَ عليه، واللهُ الموفِّق.

شفاعة بسبب خلاصِ حقّ:

يخدُمُ المجلسَ الساميَ لافتِئَ بالتحيات مَخْدُوما، وحبلُ سَعده مَبْروما، ودُرُّ المَدائح لجِيـد جُودِه منظُوما، وعدلُه بين الأخصام قاضِـيًا فمـا يَتْرُك ظالمـًا ولا مظْلُوما.

(١) فى الأصلين «ودارت مكارمه على الأولياء» ويظهر أنه تصحيف من الناسخ.

ولا زالتِ الآمالُ متعلِّقةً بهِمّته ، مَنُوطةً بسعيد عَزْمَتِه ؛ راجيةً خَلاصَ كلِّ حقٍّ ممن هو فى جِهَتِهِ . وتُوضِّح لعلمه أنَّ فلانا أدام اللهُ سعادتَه ، وخلَّد سِيادتَه ، ذكر أنَّ له دَيْناً فى جهةِ غريم مُماطِلٍ مُدافِع ، وخَصْم مُمانِع ؛ وقد جعل هذه الخدمةَ ذريعةً إلىٰ خَلَاص حقِّه ، وخالَها إلىٰ الوصول إلىٰ عِنَاية المولىٰ أقْربَ طُرُقه ؛ وهو جديرٌ بالتقدُّم بإحضار غَرِيمه ومحاقَقتِه ، وأخْذِ ماللمملوك فى ذِمَّتِه ، وأن لا يُفْسَح له فى تأخِيره ؛ ولا يُسْمَح بقليلِ الصبْرِ ولا كثيرِه ؛ فإنه يعلم أنَّ المولىٰ المشارَ إليه واجِبُ الخِدْمه ، وافِرُ الحُرْمه ؛ وقد تعلَّق أملُه فى خَلَاص حقِّه بالمولىٰ ، ولا يُجاوِبُ عن هذه الخِدْمة بلَوْ ولَوْلا ، بل يبْذُل جُهْدَه ، ويُطلِقُ فى تحصيل الغَرَض لسانَ الاجتهاد ويَدَه ؛ ويعتمِد من الاهتمام مايليقُ بأمثاله ، ويبيِّض وجْهَ الشافع وسُؤاله ، موفَّقا . شعر :

وَلَوْ كانَ [لى] فى حاجَتِى أَلْفُ شافِع * لَمَا كانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودكَ شافِعُ

شفاعة فيمن آسمه سراجُ الدِّين إلىٰ من آسمه جمالُ الدين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وينهى بعدَ ولاءٍ يحكُم علىٰ القُلوب شافِعُ جَمَالِه ، وثناءٍ يجُرُّ علىٰ أكمامِ الزَّهْر فضْلَ أذْيالِه : أنَّ العلومَ الكريمةَ مُحيطةٌ بإيجابِ حقِّ منْ هاجرَ إلىٰ بابها ، وشكا غُلَّة الفاقةِ إلىٰ مَنْهَلِ مُنْهَلِّ سَحابِها ؛ وأنَّ الماثِلَ بهذه الخدمة ، فلان ، ذكر آحتياجَه إلىٰ عاطفةٍ من عَواطِفِ مولانا التى شَمِلَتْ ، وعارفةٍ من عَوَارفه التى لو آستمدّتْ من غُرَرها الليالى لما أظلمتْ ولا ظَلَمَتْ ؛ وأنَّ بيده وظيفةَ شَهَادةِ بيتِ لَحْمٍ بتواقيعَ شريفةٍ نظرَتْ فى حاله ، ونشرَتْ حالَ عيالِهِ وأطفاله ، وأنَّ ثمَّ من يُنازِعه فى جِهَته المعتاده ،

ويَقْصِد نَزْعَه والنَّزْع عن (١) تلك الشهادةِ المسطَّرةِ أخَفُّ من نَزْع الشَّهاده ، ومولانا أَوْلىٰ مَنْ رَحِم منبه ضَعْفا ، وٱشتَمَل عليه عَطْفا ، ودارَكَ بكرمه هذا السِّراجَ قبل أن يُطْفىٰ ، ورعىٰ سيرةَ مباشرتِه الحسنةِ الآثار ، وٱغتَنَم أدْعيتَه وأدعيةَ أولادِه الذين هم كقِطَع الشِّطْرَنْج صِغارٌ وكِبار ، وكَفَّ يدَ التعرُّض إليه فى أيام عَدْله فإنها أيامٌ لاضَرَرَ فيها ولا ضِرَار ، وعلىٰ الجملة فقد تركَتْه الأيَّامُ قِطعةَ لحم ، فمباشرةُ بيتِ لحم أَوْلىٰ به ، ورجالُه فِرجانية وأخواتُها أحقُّ أن يتعلَّق سببُها بأسبابه ، واللهُ تعالىٰ يُنير بِمَنِّ مولانا أحوالَ المَضْرورين فإنَّها ظَلَام ، وينصُرهم علىٰ حَرْب الأيَّام بسُيُوفه التى هى أقْلام ، ويمتِّع بأيامِ عدْله وإحسانِه التى تتنافَس فيها أعمارُ الرعايا فإنهم يُتْبِعُون أيَّامًا بأعوام .

وله إلىٰ شخص اسمه شمس الدين :

ويُنْهِى بعدَ قيامٍ بوظائِفِ ثناءٍ يتمَسَّك بنفَحاته [المتواليه] ، وولاءٍ يتمسَّك بحباله المتينةِ وما كلُّ شمسٍ حبالُها واهيه : أنه يرتادُ الأوقاتَ لخطاب مولانا بالأقْلام ، حيثُ حبَس البعدُ خِطابَ الكلام ، ويتخيَّر حَمَلةَ رسائل الشَّوْق ، وإنْ أضعفَ عَطْفُ النَّسيمِ رسائلَ السَّلام . ولما حضر من مكان كذا ، عارض هذه الخدْمة فلان ، وذكر توجُّهَه إلىٰ حِمىٰ حماةَ المحروسه ، وقصد كتاباً يكون فى وَحْشة الاغتراب أَنيسه ، فوافق ذٰلك غرضَ المملوك ، وسَلَك طريقَ مُرادِه ولا يُنْكَر من جهةِ هذا الرجُل الصالِح السُّلوك ، فأعلمته أنّ المَكارمَ الحمادية لاتحتاجُ غير الحمد والأجْرِ شافعًا إليها ، والمنازلَ الشمسيَّةَ لاتفتقر إلىٰ دليلٍ ينَبِّه عليها ، وطالَمَا جمعتْ لقاصِدِها الفعلَ والقولَ السخِى ، وطالما قال يوسف رحمه الله أخو مولانا أبقاه الله للقاصد : أنا يُوسُفُ وهذا أخِى ، ولكنِ المملوكُ يذكِّر الخاطرَ الكريمَ بهذا القادمِ فإنه من

(١) فى الاصل عند وهو تحريف من الناسخ .

أهله ، ويلقاه قبـلَ ذلك بالبِشْر المنشد * أُضَاحِكُ ضَيْفِى قَبْـلَ إنْزَالِ رَحْلِه * فإنَّه من أصحا بِ وَلِىٍّ لله طالمَـا فاضَ وَلِىُّ معرُوفِه ، وآسـتفاضتْ نِسبَتُه المُرْشِدِيَّة فكان وليًّا مُرْشِـدا قامتْ صفتُه مَقامَ موصوفِه ؛ وإنَّ آثارَ هذِه البركات علىٰ هـذا القادمِ لائِحه ، وإن علىٰ يده تجارةَ ذكرٍ وأجروهى فى سُوقِ هِمَمِ مولانا تجارةٌ رابِحه ، والله تعالىٰ يجعل له فى كلِّ ثناءٍ وثواب نَصيبا ، ويُدِيم قلَمَه الكريمَ مَقْصِدَ رِفْدٍ وجاهٍ (فطَوْرًا رِشاءً وطَوْرا قَلِيبا) .

وله : عن نائبِ الشامِ إلىٰ نائبِ حماةَ شفاعةٌ فى شخصٍ آسمه شهاب الدين، وهو بعد الألقاب :

لازالتِ الأقدارُ تُسْعِده، والملائكةُ تُنْجِده، ومَواطِنُ النصر تجرِّدُ حدَّ بأسه ومَوَاطنُ الحلْم تُغْمِده، والجُناةُ تلُوذُ بظلِّه : فأىُّ جانِى ذَنْبٍ مايعفو عنه ، وأىُّ جانى بِرٍّ مايَرِقُّ عليه ويَرْفِده، تقبيلًا يترادَفُ مَدَدُه، ولا تنتهِى فى القُرْب والبُعْد مُدَده .

وينهى بعـد ولاءٍ وثناء : هـذا لايَبْلىٰ جَدِيدُه وهـذا لا تخفىٰ جدده ؛ وشوق وآرتياحٍ كلاهمـا يُرْوىٰ عن آبن شِهَاب توقُّدُه ، ويحمل علىٰ يد شِهاب سـنَدُه : أنَّ العلوم الكريمة محيطةٌ بمقدار الحِلْم وفضـله ، والعَفْو ومحلِّه ، والتجاوُزِ عن هَفَوات المخطئين من القوم ،وطلبِ العفْو من الله غدًا بالعفو عن عباده اليَوْم،قال الله تعالىٰ : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ . ولمَّـا سَمِـع الصدّيقُ رضى الله عنه هـذه الآيةَ ، قال : (بلىٰ والله إنِّى لَأُحِبُّ أن يَغْفِرَ اللهُ لِى) ثم عَفَا عمن نزلَتْ بسببه ، ومملوك مولانا أعزَّ الله أنصاره فلان ، قد آعترف بهَفْوةٍ بدَتْ منـه، وزَلَّة نُقلتْ عنه؛ ما يسَعُها إلَّا عفْوُ مولانا ومَراحِمُه ؛ وقَدِم علىٰ المملوك فكأنَّه ماخرجَ عن ظلِّ مولانا ولا فارَقَتْـه معالمُهُ؛ وسأل سُؤالَ مولانا أن يشْـمَله بالعفْو، ويتجاوَزَ له

عن السَّهْو ؛ ويرْحَمَ كِبَرَسِنِّه وكبيرةَ جَهْله ؛ ويرعىٰ قِدَمَ هجرته لخدْمة هـذا الباب الذى نشأ عُمُرا طويلا فى ظِلّه، أهْلا لأن تشمَلَه عواطِفُ أهله ؛ وهو ـ كما عرَف المملوكُ واطَّلع عليـه حيثُ كان فى نيابة حمـاة ـ مشكورُ السِّيرة بالاعتبار، ناهضُ الخدمة بالاختبار ؛ ملازمٌ لثرىٰ الباب بعزْمٍ ماعليـه غُبَار؛ وله علىٰ المملوك بالأمْس حَقُّ خِدْمـة وباليوم حقُّ سؤال يشفَعُ بهما فى القلوب وهى كِبَار ؛ والمسئُول من صَدَقات مولانا تجاوُزُه عن هَفْوته، وردُّه إلىٰ أَمْنـه ووظيفته ؛ وإجراؤُه علىٰ عادة إقطاعه، وحاشاه فى أيَّام مولانا أن يُقْطَع، بل حاشىٰ المذكورَ أن لايستخبرَ وأن لايُقْطَع ؛ وآستقرارُه فى مكان خِدْمته، وإجابةُ سؤالِ المملوك فى كل مايتعلق بنجاح هِجْرته وعَزْمته ؛ لابَرِح مولانا مأمولَ المِنَن الغائبـة والحاضره، والمقيمةِ والسائره، مأهُولَ الخواطرِ برَفْع ذكره وقَدْرِه فى الدنيا والآخره .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

لا زالتِ المحامدُ بذِكْرها مُتَوَجِّه، ومقدِّماتُ الفضـل والفضائِل من تِلْقاء شِيَمِها مُنْتِجه ؛ ومَطالِعُ الكرِم والإكرامِ هاديةً إلىٰ حَرَمِها من آتَّجَه ؛ تقبيلَ مواظِبٍ علىٰ الدعاء يرفَعُـه، والولاء يجْمعُـه ؛ والثناء يقول بَضَّاعُ أرجه لا ممـا نُضَيِّعه بل ممـا نُضَوِّعه ؛ [وينهى] أن عارضَ هذه الخِدْمةِ علىٰ عارضِ كَرَم مولانا المُمْطِر، وبابِه الذى هو لكَبِد الحاسد وفَمِ الوارِدِ مُفَطِّر، فلان ؛ لقضاء تعلُّقاتٍ له أوّلُها التعلُّقُ بحبل رجائه المُحْصَد، وآنتمائِه المُرْصَد، والتجمُّل بقصد بابِ مولانا الذى هو المُهِمُّ المقدّم علىٰ كل مَقْصَد ؛ وهو من الفضلاء الذين يعرِفُهم آنتقادُ مولانا معرفةَ الخبير، وله آتصالٌ بالأكابر الذين سُلِّم منهم زِمامَ المفاخرِ كُلُّ كبير ؛ وقصَدَ من المملوك هذه الخدمةَ لمولانا تُؤْنِسُ آغترابه، وتنشد المَقَرّ الذى ماقَرَع سنَّ الندامة مَنْ قَرَع بابَه :

يَاغَرِيبَ الصِّفاتِ حَقٌّ لمنْ كا * نَ غَرِيبًا أنْ يَرْحَمَ الغُرَباء!

والمملوكُ يسأل من إحسان مولانا مُلاحظةَ المـذكور بعيْن عِنايَتِـه التى ما أغفَتْ عن القاصدين ولا غَفَلَتْ ، وعَواطِفِه التى طالمَا فتحتْ أبوابَها فأثنتْ عليها الركائبُ التى قفَلَتْ ؛ والله تعالىٰ يُديم تقليـدَ الأعناقِ بكَلمه وبِرِّه ، ويمتِّع الممـالكَ الساحليَّةَ بمـا قذَفَ لها من دُرَر بحْرِه .

النـــوع الخـامس

(التشـــوّق)

قال فى "موادّ البيان" : وينبغِى للكاتب أن يجمَع لها فِكْره، ويُظهِر فيها صناعتَه، ويأخُذَ فى نظمها مَأْخَذا من اللَّطافـة والرِّقَّة يَدُل علىٰ تمـازُج الأرواح ، وأْتِـلاف القلوب ، وما يَجرِى هـذا المَجْرىٰ؛ وأن يستخدِمَ لهـا أعذَبَ لفظٍ وألطفَ معنًى ؛ ويذْهبَ فيها مَذْهب الإيجاز والآختصار ، ويعدِلَ عن سُبُل الإطناب والإكثار ؛ لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيُمِلَّ ويُضْجِر، وينتظِم فى سِلْك المَلَق والتكلُّف اللذيْنِ لايعتادُهما المُتصافُون من الأصدقاء .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفـــرج الببغاء :

شوْقُ المملوكِ إلىٰ مَوْلانا بحسب مَكانِه من تفضُّـله ، وحظِّه من جميـلِ نَظَره ، وآختِصاصِه بإنعامه، وآغتِباطه بشَرَف خِدْمتِه، ومكانِه من إيثاره؛والله يجمَعُ للمملوك شَمْلَ السـعادةِ بمُشاهدة حَضْرته، وبسابه[1] من الدَّهْر بالنظر إلىٰ غُرَّته، علىٰ الحـال السارّة فيه وبِه .

(١) كذا فى الأصلين بإهمال النقط والمراد أنه يمتعه بالنظر اِلخ تأمل .

وله : شَوْق المملوك إليه شوقُ الظّمآن إلىٰ القَطْر، والسّارِى إلىٰ غُرّة الفَجر .

وله : شوْقِى إليه شوْقُ مَنْ لم يَجِدْ مع بعْدِه عِوَضًا منه، فتقودُه الزيادةُ إلىٰ الانصراف بالرّغبة عنه .

وله : شوْقى إليه شوْقُ من فقَد بالكُرْه سكَنه، وفارقَ بالضّرورة وطَنَه .

وله : لو كان مايُصْدِره من خِطاب، ويُناجِيه به من متَضَمّن كتاب، بقدر ماأُعانيه من ألَمِ الشوق إلىٰ غُرّته، ومَضَض الفائتِ من مشاهَدَتِه، لمَا أحاطتْ بذِكْره بَسْطةُ لسان، ولا نابَ فى إثباتِه استِخدامُ بنَان .

وله : أمّا الدهرُ فما يَستحِقّ من إبعاد المملوك عنه عَتْبا، ولا يُعدّ ماجَنَاه من ذلك ذَنْبا، إذ كان إنما نَقَلَ من حِشْمة المخاطَبه، إلىٰ انْبِساط المُكاتَبه .

وله : وقَدْره ـ أبقاه اللهُ تعالىٰ ـ يرتَفِع عن ذكر الشّوْق إليه، فالمملوكُ يعبّر عنه بذكر الشوق إلىٰ مافارقه من تفضُّله، وبعُدَ عنه من أوطان تطَوُّله .

وله : ولولا أنّ المملوكَ يُخْمِد نارَ الاشتياق، ويبَرّد أُوَار الفِراق، بالتخَيُّل المُمثّل لمَنْ نأتْ محَلَّته، والتفكُّر المصوّر لمن بَعُدتْ شُقّته، لأُلْهِبَتْ أنفاسُه، وأُسْعِرَت حَوَاسُّه، وهَمَت دمُوعُه، وأنقَضَتْ ضُلُوعُه، واللهُ المحمودُ علىٰ ماوَفّق له من تمَازُج الأرواح، عند تبَايُنِ الأشْباح .

وله : ولا بُدَّ أن يُكَفّ بالمكاتبات، من غَرْب الاشتِياق، ويستعين بأُنْس المُراسَلات، علىٰ وَحْشة الفِرَاق، فإنها ألْسُنٌ ناطقه، وعُيونٌ علىٰ البُعْد رامقه .

وله : عِنْد المملوكِ لمَوْلانا خَيَالٌ مُقيم، لا يبرَح ولا يرِيم، يجْلُو عليه صُورَته، ويُطْلِع علىٰ عينِ فكْرته طَلْعتَه، إن سَهِر المملوكُ سامرَ مُعينًا علىٰ السُّهاد، أو رقَد

تصوّر مُعْذِبا طَعْمَ الرُّقاد، لا يَمْطُله بزيارته، ولا يُوحِشُه بغَيْبَته، كأنما تَصَوّر بصُورته في الوَفَاء، وتخَلَّق بخُلُقه في المحافظة علىٰ الإخاء .

وله : إنْ تزايلَتِ الأشْـباح، فقد تواصَلَتِ الأرْواح؛ وإن نَزَحتِ الأشخـاصُ وبعُـدتْ، فقد دَنَت الأنفُس وتقاربَتْ؛ فلا تُمِضُّ الفُرْقةُ وتُؤْلِم، وتُنغِّصُ النَّوىٰ وتَكْلِم؛ وقد يُنالُ بتَناجِي الضَّمائر، وتَحَاوُرِ السَّرائر، مالا تَصِلُ إليه الإشاره، ولا تَدُلُّ عليه العِباره؛ إذ الأنفُس البسيطةُ أرقُّ مَسْرًى، وأبعَدُ من الألْسنة مَرْمًى .

التشوّق من كلام المتأخريـــن :

نسخة كتاب من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة؛ وهو بعد الصدر:

لازالَ الدَّهْرُ يَقْضِي خِدَمَه، ويُمْضِي رأْيَه وسيْفَه وقَلَمَه، ويُرْضِي الدُّولَ الشاكرةَ تقْـدِيمَه فِيها وقَدَمَه؛ ولا بَرِحت الأقدارُ المُعْرِبةُ تجْزِم أمْرَه وتَكْسِرُ ضِـدّه وترفع عَلَمَه؛ تقبيلًا إذا لَثَم التُّربَ التثَمَه، وإذا أُودِع القلْبُ في ذٰلك التُّرْب خَتَمه .

ويُنهِي مواظَبَتَه علىٰ وَلاءٍ لايَنْسَخ البُعْدُ مُحكَمَه، ودُعاءٍ يقابِلُ النُّجومَ ولا تَنْقَطِـع من القَبُول إدْراراتُه المنجَّمَه .

ويُنْهِي أنه سَطَّرها عن شوقٍ يَعِزُّ عليه أنيَنُوبَ فيه سَعْيُ القلم، عن سَعْيِ القَدَم، وٱرْتياحٍ إلىٰ القُرْب الذي بأنسه يؤْنِسُه أنوارا علىٰ أعْلىٰ عَلَم؛ وتطَلُّعٍ لمعاوَدةِ الأخبار أوْفىٰ من تطَلُّع العامِرىّ إلىٰ مُعاوَدةِ أيَّام ذِي سَلَم؛ وتعَلُّلٍ بقول القائل :

بعَثْتُ لَكُمْ سَوادًا في بيَاضٍ * لِأَنْظُرَكم بشَيْءٍ مِثلِ عَيْني !

وهيهاتَ! أينَ نظراتُ الحُروف المرْقُومة من نَظَرات العُيُون الرامِقه، وأينَ مَنالُ السُّلُوّ من شَجْو يقول : * أُعيذُها نَظَرات منْك صادقه *

ما يَحْسُبُ المملوكُ من النظر إلّا ما يَمْلأُ العينَ من ذٰلك الوجهِ الكريم ، ولا يَلْبَس من خِلَعِ الأيّام إلا ماتَحِيط الأهْدابُ علىٰ شَبا ذٰلك القُرْب الرَّقِيم ؛ وعلىٰ ذٰلك فقد جَهَّزها المملوكُ علىٰ يَدِ فلان ، وحَمَّله من رسائل الشَّوْق مايَرْجُو أنْ يَنْهَضَ فيه بأعباءِ الرِّساله ، ويَسْأَلُ الإصْغاء والمُلاحظةَ فيما توجَّه فيه وإنْ أدّتِ الأمَالِي إلىٰ المَلاله ؛ واللهُ تعالىٰ المسئُول أن يبلِّغ فى ٱمتِدادها مولانَا الأُمْنِيَّه ، ويمتِّع الدُّولَ منه بهذه البقِيَّة النقِيّه ، إن شاء الله تعالىٰ .

نسخة كتاب فى المعنىٰ عن نائب الشام ، إلىٰ القاضى عَلَاء الدين بن فضل الله ؛ كاتبِ السِّرِّ بالأبواب السلطانية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ أيضا ؛ وهو بعد الألْقاب .

لازال قَلَمُها مِفْتاحَ الرِّزْق لطالِبِه ، والجاهِ لكاسِبِه ، والظَّفَرِ لمستَنِيب كُتُبِها عن كتائبه ، والنُّجْحِ لرائِد مُطالبةِ الدَّهْرِ بعد المَطالِ به ، ولا بَرِح البأسُ والكَرَم يتحدّثانِ عن بَحْرِها ولا حَرَجَ عن عَجائِبِه ؛ تقبيلًا تَغْبِطُه فى مَرابِعِها ، ثُغُورُ الأزاهِر ، لابل تَحْسُدُه فى مَطالِعِها ، ثُغُور الزَّواهِر .

ويُنْهِى بعدَ دعاء أحسنَتْ فيه الألسِنةُ وأخلصَتِ الضَّمائر ، ووَلاءٍ وثناءٍ لهما مَصاعِدُ النَّجمَيْنِ إلّا أنَّ هٰذا فى القلُوبِ واقعٌ وهٰذا فى الآفاقِ طائِر ـ أنه جهَّز هٰذه الخِدْمةَ مُعرِبةً عن شوقٍ يتجدَّد ، وٱرتياحٍ لايتعدّىٰ ولا يتعَدَّد ، ساعيةً عنه بخطوات الأقلام ، أنْ منَع الوقتُ خَطَواتِ الأقدام ، نائبةً فى تقبيلِ الأناملِ التى تُستَسْقىٰ دِيَمُها علىٰ القُرْب والبُعْد ولا كَيْدَ ولا كَرامةَ للغَمَام ؛ وجهَّزها علىٰ يدِ فلان بعْدَ أنْ حَمَّله من رسائل الشوقِ ماإنَّ حِمْلنا من إحسانه ليُنْضِى عقُودَ الأنجم لو تعدّدت ، ومَفاتيحَ أبوابه لتَنُوءُ بالعُصْبة أُولِى القوّة لو تجسّدتْ ؛ وهو بين يدَيْه يقدِّمُ نَجْواها ، ويستشْهِد

بالخاطرِ الكريم قبلَ حضور دَعْواها ، والمسئول إصغاءُ السَّمْع الكريم إليه ، والملاحظةُ فيما توجَّهَ فيه متَّكِلًا علىٰ اللهِ وعليه ؛ وإذا عادَ مشمُولا بعنايةِ مولانا المعهُودَه، مكفُولًا برِعَايته المقصُورةِ علىٰ نُجْح الآمالِ الممْدُوده، فلْيُنْعِم علىٰ المملوكِ من المشرِّفاتِ الكريمة بما يسكِّن علىٰ جَوْر البُعْد خواطِرَه الدَّهِشه، ويُعِينُه علىٰ الوَحْشة التى حَرَّكها نحوه البِعَاد فهى الوَحْشَه ، واللهُ تعالىٰ يشكُرهِمَم مولانا غائبًا وحاضرا ؛ وشافِعًا لرسائل خَدَمه وناظِرا ؛ ويَخُصُّ بابَه العَلَوىَّ بسلام كسلامِ سَقِيط الطَّلّ عن ورَق الغُصْن ناضِرا .

آخَر من كلامه : كتب به إلىٰ بعض رؤساءِ مصر .

ويُنْهِى أنه سَطَّرها مُعْرِبةً عن شوقٍ مُقِيم ، وعهدٍ لا يَبْرَحُ علىٰ صِراطِه المستَقِيم ؛ وآرتياحٍ لجَنابِه، أو لكتابِه، ليتْلُو لإنصات شَجْوه : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ . متطلِّعا لمـا يَرِد من أخبار مولانا السارّةِ البارّه، مرتقِبًا لأنبائه آرتقابَ الزُّهَيْرة الفاغِرةِ إلىٰ ضَرْع الغَمام الدَّارّه، ولو أَنَّ كلَّ مايتمَنَّىٰ المرءُ يدْرِكه، وكلَّ مايقْتَرِح علىٰ الدَّهْرِ يمْلِكه، لغَنِيَ بقُرب المخاطبه، عن بُعْد المكاتَبه، وآستجلىٰ كوكبَ الجمال المُشْرِقَ وأقصَرَ فى ليالى الآنتظارِ عن المراقَبه . وقد جهَّزَها علىٰ يدِ فلان، وحمَّله من رسائل الشوق أوْفىٰ وأوفَرَ من رسائل الصَّفا، وسأَلَ الإصغاءَ والملاحظةَ من مولىً بحَارِه النيلِ معْروفِ المَنَافع والوَفَا ؛ ولآمالِ المملوك بمشرِّفاته وأوامِرِه جَمَالٌ حينَ يُرِيح وحِينَ يَسْرَح ،وحِينَ يَقْتصِر علىٰ مقْتَرَحات الأيامِ حينَ يشْرَح ؛ فيُنْعِم مولانَا بمواصَلتِها علىٰ هذه المقَدَّمه، ويجعلُ ذٰلك من إدرارات صِلاته المنجَّمَه ؛ والله تعالىٰ لا يُعْدِم المملوكَ فى حال كَرَمه : إما أن يُفيض فىالقُرب بَحْرَه وإما أن يبعَث علىٰ البُعْد دِيمَه .

وله إلىٰ كاتب السر :

أعلىٰ اللهُ أمْرَ قلمها علىٰ الأقْلام، وأدام بفيْض أنامِلِه عليه بَسْطَ كلمةِ الإسـلام، وراع بكتائب كُتُبه العِدَا إذا آنتبهُوا، فإذا أغْفَوْا «سلَّتْ عليهم سُيوفَهَا الأحلام» .

ولا زالتْ تلكَ الأقلامُ العاليةُ فى تلك اليدِ الكريمةِ إن لم تكُنْ من المنشئات فإنّهـا من المُنْشَآتِ فى البحر كالأعْلام ؛ تقبيلَ مُواظِب علىٰ دُعاء يطلعُ طُلُوعَ طُرَّة الصـبح تحتَ ذٰلِك الظلام ، وولاءٍ إذا آعتـبر الخاطرُ الكريمُ مَسْعاه وخِدْمتَه : ﴿ قال يابُشْرایَ هذا غُلَام ﴾ .

وينهى أنه جَهَّز هـذه الخدمةَ مقصورةً علىٰ وصْف الأشواق الممْدُودة ، وجَوانِح الشَّـجْو المعهوده ؛ وأنفاسِ التذَكُّر التى لولا شَرفُ مذكُورها لم تكُنْ عنده من الأنفاس المَعْدُوده ؛ فيالها مقصورةً علىٰ شوقٍ مافيها غيرَ طيور الجوانح خَفَّاقةُ الجَنَاح ، سَبَّاقةُ الآرتياح ؛ ويالَهَـا أنفاسَ ذكـر أغنَتْ منادمتُها عن كَيْس كأس وآقتراحِ وقتِ رَاح ؛ ويالهـا ورقةً فازتْ بمشافَهةِ لثْم اليـد الشريفةِ فكَرُمتْ وَصْفا ، ونأتْ عن نَخَار الروض عِطْفا ؛ وآستطابتْ بشِفاه السُّطُور علىٰ تِلك البَنانِ رَشْفا :

وسَطَّرتُها والجِسْمُ أنْحلُ مايُرىٰ * فياليْتِنِى أصبحْتُ فى طَيِّها حَرْفا

واصلةً إلىٰ البابِ الكريم بسلام وصلَ عبقُه قبْلَ ماوصلَتْ ، واردةً علىٰ يد فلان وقد حمَلَ من رسائلِ الصَّـفاء والوُدّ مثْلَ ماحمَلَتْ ، وحصلَتْ علىٰ القُرب ويا أسَفىٰ علىٰ ماحصَل وحصَلَتْ . والمملوكُ يسألُ الإصغاءَ إليها وإليه بفضل النظر والسَّمْع ، والإنعامَ علىٰ المُحِبِّ المفارِق بمشرِّفاتٍ تجلُو عليه أيامَ جَمْع ؛ وتُعينه علىٰ أوقاتِ وَحْشةٍ إذا وصفها المشتاقُون وأقلامُهم ولَّوْا وأعيُنُهم تَفِيضُ من الدَّمْع ؛ لابَرِح ذِكْرُ مولانا عليّا ، وبِرُّه بمَلْءِ الآمال مليّا ، ووصفُه بالتُّقىٰ وسحاب الجُود علىٰ الحالين وليّا :

*
* *

يامُنْيــةَ النَّفْس ويا مَالِكِي * مُذْ غِبْتَ عَنِّى لم تَـنْمَ مُقْلتِي!

إنْ بِنْتَ عن عَيْنِى بِرَغْمِى فقَدْ * سَكَنْتَ فى قلْبى وفِى مُهْجَتِي!

لا أوحشَ اللهُ من طَلْعتــه، ولا أخْلىٰ من كريم مساعدَتِه، وجمَعَ شَمْــلَ الأُنْس بخِدْمتـــه.

المملوك يشكُو من المولىٰ فِراقًا أوجب له علىٰ نَفْســه فَرَقا، وجيْشَ صُــدُود منحَه من العَزائم طوَائفَ وفِرَقا، وداءَ صَبابةٍ كلَّمــا ترجّى الإفْراقَ(١) منه آزْداد تلَهُّبا وحَرَقا، ووجُوبَ قلبٍ تحتَّم لغَيْبتــه ووجَب، ودَمْعَ عينٍ يمحو مهْما عَبَّر عنه لسانُ قلمه أوكتَبْ، وقد أطال الهَجْرُ تألُّمَه وعتْبَه، وأطار سِنَتَه ولُبَّــه؛ مُذْ وصل المولىٰ غيْرَه وقَطَع عنــه كُتْبه، والمولىٰ يعلمُ أنَّ المملوك لفظٌ والمولىٰ معناه، وسعْدَه شخص وأنت وجْهُــه الميمُونُ ويُمْناه؛ فيُواتر إرسالَ مكاتبَاته، ويُتْحِف بمأثُورِه ولُبَانَاته؛ ويُعَطِّر بذكرِه الجميــلِ الأماكِنَ ويُشَــنِّف المَسامع، كما شَرَّف بحُلُوله فيها الأضالِـع؛ واللهُ يُديمه ويُمِدّه بالإسْعاف والإسْعاد، وينصُره علىٰ الأضداد والحُسَّاد:

*
* *

أُقاسِى من بِعَــادِكَ ما أُقاسِى * وقَلْبُــكَ راحِمٌ وعَلَىّ قاسِى!

وأحْمِلُ مِن نَوَاكَ بضَعْفِ نفْسٍ * عَنَاءً يُعجِز الشُّمَّ الرَّوا سِى!

وتُبْعِــدُنِى وأمْرُك إنْ أتَانِى * جعلْتُ مَحَــلَّه عيْنِى ورَاسِى!

---

(١) أى البرء مصدر أفرق العليل إفراقا اذا برأ من علته . انظر اللسان ج ١٢ مادة ف ر ق .

قَرَّب اللهُ أوْبتَه، وعجَّل رُؤْيَتَه، وحرَس نَفْسه من الغِيَرِ والحادِثات، وصان حِجابَه المنيعَ عن الملِمَّات المُؤْلِمات، وجمَّل الأيامَ بوجُوده، والأنامَ بجُوده. ولا زالتِ الدنيا به مجَمَّله، وأعناقُ أبنائها لمِنَنه متحمِّله .

صدرتْ هذه الخدمةُ إلى خِدْمته متضمِّنةً إهداء سلامه، وشاكيةً لغَيْبته جَوْرَ أيَّامه، ومُنْهِيَةً شِدّةَ أشواقِه التى أفْنَتْ بالصَّبابة قَلْبَه، وأذهبَتْ حُشَاشَتَهُ ولُبَّه، وهى فى ذلك نائبةٌ مَنابَ سائرِ الخَدَم، ومعبِّرةٌ عن ألْسِنَة الأقاليم بلِسانِ القلَم، فإنَّ الأعيُنَ متطلِّعة إلى رُؤْيته، والقُلوبَ متعطِّشة إلى قُفُوله ورَجْعتِه، كما تتطلَّع إلى السماء عُيونُ النَّرْجِس، وتتعطَّش الرِّياضُ إلى الوابل الغَدَق بعد اليوم المُحِرِّ المُشْمِس، فالمولى يجعلُ مواصلَتَه بأخباره فَرْضًا لازمًا، ويمتنِع من إغفالِه كما يمتنِع من لَذَّة الطعام إذا كان صائمًا، فإنَّ المَوْلى هو صورةُ الجُود ومَعْناه، وبيتَه الكريمَ فِناءُ الخير ومَغْناه، والناسُ مالم يرَوْك أشْباه، حرسه الله وتولّاه، وضاعفَ عُلَاه، والسلام .

* * *

يا أجْملَ الناس سَناءً وسَنَا * جفَتْ جُفُونِى لجَفَاك الوَسَنَا!

ثِمارَ آلامٍ إلامَ أجْتنِى؟ * ياليْتنِى أعلَمُ خَطِّى ما جَنَا؟

وأنتُمُ ياأهْلَ بانِ لَعْلعٍ * مُذْ بِنْتُمُ لم أرَ شَيْئًا حَسَنا!

أقَمْتُمُ بمُنْحَنىٰ أضالِعى * وسِرْتُمُ ياأهلَ وادِى المُنْحَنا!

فى بُعْدِكم مَنِيَّتِى لاتَبْعُدُوا * وقُرْبُكم غايةُ سُؤْلِى والمُنَا!

خلَّد الله سعادته، وبلَّغه من العَلْياءِ إرادتَه، وأثَّل مَجْده، وأدام سعْدَه، وأعذَبَ مَنْهَله ووِرْدَه .

المملوكُ يتشَوّقُ إلىٰ لِقائِه، ويتشوّفُ إلىٰ أنْبائِه، ويصِفُ شديدَ اشواقه وصَبابته، وحنينَه إلىٰ مشاهدةِ المَوْلىٰ ومشافَهتِه، وما يجدُه لذٰلك من ألَمٍ فى جَوارحه الجَرِيحه، وسَــقَمٍ فى جَوانِحِه الصحِيحه؛ ويلتَمِس مواصلَتَه بكُتُبه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وأخبارِه السارّةِ ليتضاعفَ له مزِيدُ الاَستِبْشار؛ فإنّ القلْب بنَار الصَّــبابة قَدْ وَقَدْ، وأما صبرُه علىٰ [بُعْدِه] فقَدْ فَقَدْ؛ ومتىٰ ورد كتابُ المولىٰ شُفِى الغَلِيل، وأبَلَّ العَلِيل، ونَجع طعْمُ الحياة ونَجَح التأْميل؛ فليصَيِّرْ وَتْر مكاتَبَاتِه شَفْعا، ولا يجعَلْ لوصْلِهِنّ قَطْعا؛ والله يمَنح عيشَه خَفْضا ومكانَه رَفْعا، والسلام.

*
* *

شعر فى معنىٰ التشوّق :

قد كانَ لى شَرَفٌ يصْفُو برُؤْيتِكم * فكَدَّرَتْه يدُ الأيَّامِ حينَ صَفَا

غـــيره :

كتَبْتُ (١) للكُتّابِ مجَــلِّدُ * علىٰ أنَّه قَبْــلِي بلُقْياكَ يسْــعَدُ

النـــوع السـادس

(فى الاَســـتِزارة)

قال فى "موادّ البيــان" : رِقاعُ الاَستِزارةِ إنمـا تشتَمِلُ علىٰ وصْفِ حالاتِ (٢) الأُنْس ومجالِس اللَّذّات، ومَشَاهِد المَسَرّات. قال : ويجبُ علىٰ الكاتب أن يُودِعَها حُلْوَ الألفاظ، ومُؤْنِقَ المَعانِى وبارِعَ التشبيهات، ويُبالِـغ فى تشويق المســتَزار إلىٰ الحضُور، ويتلطَّف فيه أحسنَ تلطُّف.

---

(١) بياض فى الاصل ولعله "وشوقى للكتّاب الخ".

(٢) لعله مجالات كما لا يخفى.

وهذه نسخ من ذلك :

علي بن خلف :

رُقْعتى ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ـ ومجلِسى بمَنْ حلَّه من خَدَمه ، ونزلَهُ من صَنائع كرمه ، فلَكٌ مُزَيَّنٌ بأنجُمه ، فإنْ رأىٰ أن يُطْلِـع فيه بَدْرا بطُلُوعه وينقل قَدَمه إليهم ، ويُكمِّل نقْصَهم بتَمامِه ، ويُضِيف ذٰلك إلىٰ تَلِيد إنعامه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

قد ٱنْتظَمَ لنا ـ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ـ مجلِسٌ رقَّتْ حَواشِيه ، وتَبَسَّمتْ راحُه عن حَبَب ، كلآلِئَ علىٰ ذَهَب ، وقامتْ فيـه سُوقُ السُّرور ، لا يُكْسِدُها إلا تخلُّفُهُ عن الحضُور ، فإنْ رأىٰ أن يُكَمِّل جذَلَنا بإطْلاع طَلْعتِه علينا ، ويصَدِّق ظنَّنا بنَقْل قدمه إلينا ، سَرَّ وأبْهج ، وتمَّ من الإحسان ماأخْدَجَ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هذا ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا ـ يومٌ صَـفِيق الظِّلّ ، رقيقُ غِلالةِ الطَّلّ ، قد ترفَّعتْ شمسُـه ببُرْج أُنْسه[(١)] ، وٱفتَرَّ جذَلا عن مَضَاحك بَرْقه ، وترنَّم طَرَبا بزَمجرةِ رعده ، ووَشَتْ مَدارِجُ نَسِيمه ، بأرَجِ شَمِيمه ، وقام علىٰ مَنَابِر السُّرور يخطُب ٱبنةَ الكَرْم لأبناءِ الكِرام ، وينادِى بأعْلىٰ صَوْته : حَىَّ علىٰ المُـدَام ، فقد وجَب علىٰ كلِّ موفَّقٍ لاجتناءِ ثِمَـار السُّرور ، والْتحافِ عِطَاف الحُبُور ، أنْ يلَبِّىَ دعْوتَه ، وينتَهِز فُرْصَــتَه ، ويُعوِّضَه من شمسِه الآفِله ، براحٍ لإظهارِ ماٱختفىٰ من شُـعاعها كافِلَه ، ويقِفَه علىٰ التَّملِّى بالكاس والنُّدْمان ، ويجعلَه سِلْكا ينتَظِمُ فيه الإخْوان . ورُقْعتى هذه صادرةٌ إلىٰ مولاى وقد تهيَّأ لنا مجلِسٌ من مجالس الأُنْس ، يَبْسُط تجعُّدَ النفس

(١) لعله "افقه" .

فيه بَغْم ونَغْم ، ومِزْهر وزَهْر ، وخُلَّان قد تراضَعوا لِبانَ العُقار ، وتساهموا نَقْلَ(١) الوَقار ، وشَجُعوا فى مَعارِك الخَمّار ، وأدْمَنوا علىٰ المُماساةِ والاَبْتِكار ، إلَّا أنَّ هـذا المَجْلس مع تَمامِه مُخْدَج ، وعلىٰ كمالِه مختلَج ؛ لبُعْد مولاى الحالّ منـه محَلّ الواسطة من النِّظام ، والأرْواحِ من الأجْسام ؛ فإن رأىٰ أن يُكمِّل منه مانَقَص ، ويُميط عنه [مانَغَّص] فليَجَمِّلنا بالمَصير إلينا ، والطُّلُوع علينا ، وإعْفائِنا من إضْجار الاَنْتظار ، معتدًّا بذٰلك فى كريم الأيادِى والمَبارّ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـله :

هـذا اليومُ ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ـ يومٌ أعْرس فيـه الجَوُّ بالجارِيَة البيضاء نَخدّرها ، وحَجبها بسَجْف الغَمام وستَّرها ، وآختالَ آختيالَ المعَرَّس فى مُعَرَّسه ، بمُصَنْدَله ومُمَسَّكه ومُورَّسه ؛ وآتَّخـذ من ذَهَب البَوارق نِثَارا ، وآستنْطَق من زُنَّار الرَّواعد أوتارًا ، ودعا إلىٰ حُضُور وليمته ، والسُّرورِ بمَسَرَّته ؛ فإنْ رأىٰ أن يلَبِّىَ(٢) طلب هذا اليومِ الصَّفيق ، ويتمَّع بعيْشه الرافِغ الرَّفيق ، فليُطْلِـع علينا طَلعَته التى تَبْهرُ القمرَ المُزهِر ، وتَصْدَعُ الليلَ المعتكِر : ليُنْهِض غُرَّة الإصباح ، بغُرَّة الراح ، ويَقْطِف ثِمـارَ الأُنْس والمحاضره ، ويتملَّى بالسَّماع والمُذاكره ، ويأخُذ بحظٍّ من لَذاذة الفَيْخة الشبيهةِ بشمائله ، ويعُدَّ ذٰلك من مبارِّه وفواضِله ، [فعل] إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى الاَستزارة فى بُسْتان :

كتبتُ ـ أطال الله بقاءَ سيِّدى ـ وقد غدوْتُ فى هذا اليومِ [إلىٰ] بُستانِى والطَّيْرُ فى الأوْكار ، والأنْداءُ تَهْبِط كالنِّثار ، والليلُ مشتَمِلٌ علىٰ الصَّـباح ، آشْتِمال الأدْهَمِ

(١) هو بالفتح وبالضم وبالتحريك ما يتناقل به على الشراب . أنظر اللسان ج ١٤ .

(٢) فى الأصل « أبطل » ولعله من تصحيف الناسخ .

علىٰ الأَوْضاح ، عازمًا علىٰ مشارَفَته ومُشارَفَة ما آستمدَدْتُ من عِمارته ، لا للخَلْوة فيه بمُعاطاةِ المُدَام ، ومؤانَسةِ النِّدام ، فحين سَرَّحتُ الطَّرْف فى مَيادينه وجَداوِله ، وأقبَلْتُ علىٰ تصَفُّح حلَاه وحُلَله ، رأيتُ مَنَاظِرَهُ تعتلِقُ القلوبَ آعتلاقَ الأشْراك ، وتعتاقُ المستَوفِزَ عن الحَراك ، وتُقيم قاعِدَ المِزاج والنَّشاط ، وتُوقظ هاجِدَ الفَرَح والإِنْبساط : فمِنْ أشجارٍ كالأَوانِس ، فى رَيْحانِيِّ المَلَابس ، حاليةٍ من مُوَشَّع الزَّهَر والثمر ، بأنْصَع من الياقُوت والجَوْهر ، كأنما تحفَّلتْ لِآجتلاءِ عَرُوس ، أو مُعاطاةِ كُئُوس ، ما بين نَخِيلٍ قد نشَرَتْ عَذَب السُّنْدس علىٰ ذُرَاها ، وأطلعَتْ طَلْعا كالخَناجر غَشِيَها صَدَاها ، ونارَنْج يحمِلُ أكبَرَ العِقْيان ، أو وجنَات القِيَان ، وأُتْرُجٍّ قد آستعار ثمرَةَ أشْواقِ العُشَّاق ، إذا صالتْ عليهم يَدُ الفِراق . ومن رِيضانٍ[1] زاهيةٍ بنَشْرها ، وقُضُبُها مختالةٌ فى مَلَابِس زَهْرِها ، ونَرْجِسُها كعينِ محبٍّ حَدَّق إلىٰ الحبِيب ، وثنَىٰ جِيدَه خوفَ الرَّقيب ، إذا عبَثَ به النَّسيمُ جمعَ بينَ كلِّ قَضِيب وإلْفِه ، وسَعىٰ بالإعتناقِ من شَوْقه وكَلَفه ؛ ووَرْدُها كمَدَاهِنِ ياقوتٍ فيها نُضَار ، وشقيقُها كمُدامات عقيقٍ فيها صُوَار[2] ، وبَنَفْسَجُها نَخِذٌ تَمضى فيه من القَرْص آثار ، أو جامُ لُجَيْنٍ عليه من النَّدىٰ نِثَار . ومن أنْهارٍ قُدَّتْ حافاتُها قَدّ الأديم ، وحُدِّتْ علىٰ صراطٍ مستقِيم ، بحرة مَسْجوره ، كالسُّيوف المشْهُورة أو المَهارِق المنْشُوره ، إذا خَمَشَها الهوىٰ خلَع عليها مُتونَ المَبَارِد ، أو سُلُوخَ الأَساوِد ، يتخرّق ذٰلك كلَّه نسيمٌ رقيقُ الغَلَائل ، حُلْوُ الشمائل ، يسعىٰ بالنَّمِيم ، فى المَعَاطِس والشَّمِيم ، انْصَبَّتْ إلىٰ مجلِسٍ فَسيحِ البِناء ، ضيِّق الأفْناء ، مُوَشَّى الجُدْران والسَّماء ، فى صَدْره شاذَرْوان يرْمِى بكِسَر البَلُّور ، وفى وسَطه نَهر ينْسابُ ماؤه آنسياب

(١) الريضان والرياض جمع الروضة .

(٢) الصوار والصوار « أى بالضم والكسر » الرائحة الطيبة والقليل من المسك أنظر ج ٦ ــ ص ١٤٧ من اللسان .

الشُّجاع المَذْعُور ، وتتوسَّطه بِرْكةٌ مُنَمنَمَةٌ ينصبُّ الماء إليها بالدَّوالِى إلىٰ أربع شاذَرْوانات ، ويَخْرُج عنها من أربع فطيمات ؛ يحتَفُّها كلُّ شجرٍ مُثْمر ، وروْضٍ مُزْهِر . فقلت : هـذا المَرادُ الذى يحُطُّ به الرائدُ رَحْلَه ، ويُوفِدُ إليـه أهْـلَه ؛ ويدْعُو إلىٰ آختيار مَنْ يهُبُّ إلىٰ السُّرور ، ويُساعِد علىٰ الحضُور ، للمشاركة فى التملِّى ببَهْجتِه ، والتمتُّع بنَضْرته ؛ فكان مولاى أوّلَ مَنْ جَرىٰ إليه ذِكْرى ، ووقَع عليه طَرْفُ فِكْرى : لأنه الساكنُ فى فُؤادِى ، الحالُّ فى مَحِلِّ رُقَادى ؛ فإنْ رأىٰ أراه الله ما يُقِرُّ العينَ أن يُكَمِّل مسرَّتِى بنَقْل قَدَمِه إلىّ ، وإطْلاع سعدِ طَلْعته علَىّ : ليتمِّم محاسنَ ما وصَفْته ، ويكمل الآلتذاذ بمـا شرحْتُه ؛ فعل إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة رقاع الاستزارة

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المستزَار من الإجابة إلىٰ الحضُور أو التثاقُلِ عنه ، فإنْ حضَر علىٰ الفوْر ، فلا جوابَ لما نَفَذ إليـه ، وإن وعَد الحضُورَ وتلَوَّم ليقْضِىَ شُغُلا ويحضر ، فينبغى أن يَبْنِى الجوابَ علىٰ سُروره بمـا دُعِى إليه ، وحُسْنِ مَوْقِعِه منه ؛ وأنَّ تلَوُّمه للعائق الذى قَطَعه عن أن يكون جوابًا عما وردَ عليه ، وأن حضُوره يَشْفَع رُقْعته . وإن أَيِس من الحضور ، وجبَ أن يبنِىَ الجوابُ علىٰ مايمهِّد عُذْرَه ، ويقرِّرُ فى نفس مستَزِيره أنه لم يتأخَّر عن المساعدة علىٰ الأنس إلا لقواطِع صدَّت عنه ، يعْلَم المعتذَرُ إليه صحّتَها لينحرس ما بينهما من المودّة ، فإنَّ كثيرا ماتتفاسدُ الخُلّانُ من مثل هذه الأحوال .

النـــوع السابع

(فى ٱختِطاب المَوَدّة وٱفتتاحِ المكاتَبَــة)

قال فى " موادّ البيان " : الرِّقاع الدائرةُ بين الإخْوان فى ٱختطابِ المُعاشَره، وٱنماء المكاثره، وطلبِ الخُلْطة والمؤانَسة، يجب أن يقَدِّر الخطابُ فيها علىٰ أن يَصل المرغوبُ فى عِشْرته إلىٰ الٱنخراط فى سلك أحبائه، والٱنحياز إلىٰ أهل وَلَائه، ويبعَث علىٰ قَصْــده، فى الٱلتحاق بوُدّه، ويدُلّ علىٰ المماحصه، والصَّـفاء والمخالَصه، وما جرىٰ هذا المَجْرىٰ ممــا يتعامل به أخِلَّاء الصِّدق، ويجعلونه مَهْرا لمــا يلتَمسُونه من الممـازَجه، ويرُومُونه من الٱختلاط والمواشَجَه .

قال : وينبغى أن يذهب الكاتبُ فى هذه الرِّقاع مَذْهبا لطيفا، ويُحْسِنَ التوصُّلَ إلىٰ الإفصاح عن أغراضها : ليأخُذَ بمَجامِـع القُلوب، ويُعِين علىٰ نَيْل المطْلُوب .

وهذه نسخ من ذلك :

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ لم يزَلْ مُذْ وقع طَرْفُه علىٰ صُورتِه، وولَجَ سَمْعَــه بُعْدُ شِيمتِه، يُناجِى نَفْسَه بافتتاح مكاتَبَته ومراسلَته، وٱخْتِطاب ممازَجته ومواصلَته، رغبةً فى الٱعتقاد بإخائه، والٱرتشاف من مَشارع صَفَائه، والمقاديرُ تَطْوِى الطَّويَّة علىٰ ما فيهـا، والعوائقُ تمْطُل النيَّــةَ بَنجاز ماتَنْويه وتَلْوِيها، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعـالىٰ بإعْراضِ الأعْراض، وٱنقباض أســبابِ الٱنقباض، فأظهر المملوكُ مافى القُوَّه، واثقا من مَوْلانا بحُسْن المُرُوَّه، وأنه يوجب القَبُول بإجابته، ويُجيب إلىٰ مساعدته، ويرضىٰ المملوكَ أهلا لٱصطفائه، ومحلًّا لإخائه، عالمًا بإيجابه للحقّ، والمعرفة بالسَّبْق، وأن تُلقىٰ هذه الرغبةُ بالقَبُول، ويسَلَّم إليها مفتاحُ المأمُول .

رقعـــة : لو كانتِ المودّةُ لا تحصُـل إلّا عن أُلْفة تالِدَة ، ومُواصلةٍ سالفة ؛ لم يستَطْرِفِ المرءُ صفيّا ، ولم يستحْدِث وَلِيّا . وما زال البُعَداءُ يتقارَبُون ، والمتنا كِرُون يتعارَفُون ؛ ولمّـا نُمِيَ إلىٰ المملوك من أنبـاء مولانا ماتضَوَّع عِطْره ، وطاب نَشْرُه ؛ سافرَ بالأمَلِ إليه ، وقَدِم بالرَّغبة عليه ؛ طالبًا الآنخراطَ فى سلك أوْليائه ، والآختلاطَ بخاصَّــته وخُلَصائه ؛ ومثلُ مولانا مَنْ أجاب السُّول ، وصَــدَّق المأمول ؛ والمملوكُ يرجُو أن تكْشف الأيامُ لمولانا منه عن خُلَّة صادقة ، ومَوَدّةٍ صحيحة ، لا تَضِيعُ معها إجابتُه ، ولا تَخسر صَفْقتُه .

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ مازال مُذْ وقع طَرْفُهُ علىٰ صُورته البَدْرِيّه ، وأحاط علمًا بخلائِقِه المَرْضيَّه ؛ راغبًا فى مُواشَجَته ، باعثًا نَفْسه علىٰ آختطاب مودّته ، وإكبارُه يُقْعِده ، وإعظامُه يُبْعِده ؛ فلَمَّـا تطاوَلَ يراعُ هِمَّتــه ، شجعَتْ علىٰ إنفاذ عَزْمتِــه ؛ فقدّم مكاتَبَته أمامَ مشافهته ؛ فإن حظِىَ بالإجابة وتنويل الطَّلِبة ؛ فقدْ فاز قِدْحُه ، وتبَلَّج صُبْحُه ، ونال مُنَاه ، وبلغ رِضَاه ، وصادَفَ هَناه ، وَدِيدا موثُوقا بُوِدّه ، مسكونا إلىٰ عَقْـده وعَهْده ؛ يحمَدُه عنـد الآختِبار ، ويعرِفُ به صحَّةَ رأيه عند الآختيار ؛ والمملوك يرجو أن يصِحَّ ماسأله وكَفَله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ منْ عَمَر اللهُ تعالىٰ بثَنَائه المَحَافل ، وعَطَّر بأنبائِه الفَضائل ؛ وأقام من مَسَاعيه الكِرامِ خطيبًا يخْطُب بُسودَده وفَضْلِه ، ويُعرِب عن شرف مَحْتِده وأُصْـله ؛ تطلَّعتِ الآمالُ للآنتظام فى سِلْك أحبَّائه ، وتشوّفت الهِممُ إلىٰ الآمتزاج بخُلَصائه وأوْليائه : لـمـا يَضْفُو علىٰ المعتَصِم بعُرىٰ مُصافاته من لِباس جَمَـاله ، ويُحَلِّى المعتَـرِى إلىٰ وَلَائه من حِلىٰ جَلَاله ؛ وأحقُّ مَنْ أسـعفَه مولانا بالمودّة إذا خَطَبها ،

وأجابه إلىٰ المُصافاةِ إذا طَلَبها ؛ مَنْ بدأه بالرَّغْبه ، ومَتَّ إليه بالمحبَّه ، لا لمُرْغِب ولا مُرْهِب ، وٱختاره لنَفْسه علىٰ عِلْم بكماله ، ومعرفةٍ بشَرفِ خِلاله .

وما زال المملوكُ مُذْ أطلعه الله علىٰ ماخُصَّ به موْلانا من المحاسن المتعذِّرة إلَّا لديْه ، والفضائل الممتَنِعة إلَّا عليه ؛ يحُومُ علىٰ مَشارِعِ ممازَجتِه ولا يَرِدُها ، ويَرُومُ مواقِعَ مُواشَجتِه ولا يعتمِدُها ، إكبارا لقدره ، وإعظامًا لخَطَره ، وخوْفًا من تصَفُّحه ونَقْده ، وإبقاءً علىٰ ماءِ وجْهِه من ردِّه ؛ والمملوكُ وإن كان عالمًا بأنَّ كرَم مولانا يَرْقَع الخلَل ، وفضْلَه يُصَدّق الأمَل ؛ فإنه لايَعْدَم مذ رَغِب فى قُرْب مولانا مالعلَّه يجِدُه فيه ، مما يُخالِفُ مذْهَبه ويُنافِيه ؛ إذ كان لا يبْلغُ تَضاهيه فى التَّمام وتَوافِيه ، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعالىٰ بأن أبلغ نَفْسه الأُمنِيَّه ، وأظْهر ماطُوِيَتْ عليه الطَّوِيَّه ؛ فكتب هذه الرُّقْعةَ وجعلها فيما رامَهُ من الٱعتِلاقِ بحبْل موَدّته سَفِيرا ، وعلىٰ ماٱلتمَسه من الٱنْضِمام إلىٰ جُمْلته ظَهِيرا ؛ وقَدِمَ بها عليه وظَنُّه يترجَّحُ من الإعراض إلىٰ القَبُول ، ثقةً بقُرْب نَيْل المأْمول ؛ فإن رأىٰ أن يُجِيبه إلىٰ ماسأله ، ويَسُرَّه بتنويل ماٱقترَحَه ، فعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

اختطاب المودّة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ :

وضاعفَ للممالكِ ببقائِه الٱنتِفاع ، وبٱرتقائِه الٱرتِفاع ؛ وسَرَّ بمحاسن نظره وخَبَره العِيانَ والسَّماع .

ولا زال للمحبِّين من وُدِّه عَطْفُ المتلَطِّف وللأعداء من بأْسِه خَطْفُ الشُّجاع . أصدرها المملوكُ منْطوِيةً علىٰ ماعَهِد من صِدْق المحبَّه ، ووفاءِ العهُود المستَتِبَّه ، ودُرَر

المحامد التى لا تَسْوىٰ[1] لديْها دُررُ العُقود حَبَّه ، مُبْـديةً لعلمه الكريم أنَّ المودَّات إذا صفَتْ ، والقلوبَ إذا تجنَّدتْ وتعارفَتْ ، حثَّت المحبِّين فى البِعاد علىٰ المفاتَحة بكُتُبهم ورسائِلهم ، والمخاطبةِ فى ظِلال الأوراق بألْسِنة أقلامهم من لَهَواتِ أنامِلهم ، إيثارًا لتجديد الأُنْس و إنْ صَحَّ المِيثاق ، وتذْكارا لخَواطرِ الوُدِّ . وإن رسَختْ منه الأصُولُ ونَمتِ الأَعْراق ، ولذٰلك فاتَح بها مخاطِبا ، وٱرتقَبَ لُمناديها بالأخبارِ السارَّة مُجَاوِبا ، نائبةً عنه فى مشاهدةِ الوَجْه الكريم ، ومصافَحَة اليَدِ فى حديثِ بِرِّها القدِيم ، تستطلع أخبارَه ، وتستعرِض أوطارَه ، وتُحيِّي بالسلامِ وجهَه وعَهْدَه ودِيارَه ، علىٰ يد فلان ، وقد حَمَل من المودَّات والمشافَهات مايُعيـده علىٰ السَّـمْع الكريم المُنْعِم بإصْـغائه ، المُصْغِي بنَعْمائه ، المتْحِف بالمهِمَّات التى يحصُـل فوزُ القِيام بها ، والمشرِّفات التى كلُّ أسبابِ السُّرور متصلٌ بسببها ، والله تعالىٰ يُبْهِج من تِلْقائه سَمْعا ونظَرا ، ويُبْقِى عيشَ حاسده هَشِيما وعيشَ محبِّيه نَضِرا ، ويُدِيم رياضَ ذكره تاليةً علىٰ المسامع : ﴿فأخرَجْنا مِنْــه خَضِرا﴾ .

أجوبةُ ٱختطـابِ المَودّة

قال فى " موادّ البيان " : لايخلُو مَنْ يُرام ذٰلك منه من أن يُجيب أو يعتَلّ ، فإنْ اجاب بنىٰ الجواب علىٰ وُقُوع رَغْبة المختَطِب أحسنَ مواقِعِها ، وٱبتهاج المختَطَب بها ، ومعرفتِه بقَـدْر مارآه أهلًا له ومسارعتِـه إليه ؛ وإن ٱعتلّ بنىٰ الجواب علىٰ أنه قد عَرَض له مايقصر عنه ، ولا ترضى نفسُه به ، وأنَّ العذر [ليس] بعادةٍ له فى المُزَايلة ، وطريقةٍ فى الأنفراد والمجانَبَة .

---

(١) أى لاتساوى يقال سوى درهما يسوىٰ من باب تعب ومنعها أبو زيد . أنظر المصباح .

النـــــوع الثامن

(فى خِطْبــة النِّســاء)

قال فى "موادّ البيـان" : الرِّقاع فى ٱلتمـاس الصِّهْر والمواصَلة يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصْف المخْطُوب إليه بمـا يقتضِى الرَّغْبة ، ويدل الخاطب عن نفسه بمـا يؤدِّى إلىٰ الكِفَاية والإسعاف بالطَّلِبة .

قال : وينبغى للكاتب أن يُودِعَها من ألفـاظ المعانى المنتظِمة فى هــذا البابِ أوْقَعَها فى النُّفوس ، وأعودَها بتقريب المَرَام ، وأدَلَّهـا علىٰ صِدْق القول فيما تكفَّله من حسن معاشرةٍ، ولينِ معاملة، وأنْ يذهب بها إلىٰ الآختصار والإيجاز .

وهذه نسَخٌ من ذٰلك :

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

وأفضلُ تِلكَ المواهبِ مَوْقِعًا وألطَفُها وأحمدُها عاقبةً، وأرهنُها يدًا، مايؤلِّفُ الله به القُرُبات ، ويؤكِّد به الحُرُمات، ويوجِبُ به الصِّلات، ويجدّدُ به المَكْرُمات، ويُحْدِثُ به الأنْساب، ويقوِّى به الأسْـباب، ويكَثِّر به من القِـلَّة، ويجمَعُ به من الفُرْقة، ويؤْنِسُ به من الوَحْشة، ويُزادُ به فى الحُقوق وجُوبا، وفى المودّات ثُبُوتا؛ ثم لامثلَ لمـا كان لله طاعةً ورِضاء، وبأمره أخذًا وٱقتداء، وبكتابه قُدْوة وٱحتِذاء؛ فالله نسألُ الخِيَرَةَ فى قضائه، والبركةَ فيما يقوم (١) بناؤك عليه .

(١) فى الاصل فيما يعزم .

ومنـــه : تَصِلُ رَحِماً، وتعْقِد سبَبا، وتُحدِث نَسبا، وتُجدِّد وُصْلة، وتؤكِّد أُلْفة .

رقعـــة : مَنْ خصَّه الله تعالىٰ بمـا خَصَّ به سـيِّدى : من طَهارة الأعْراقِ والأنسـاب ، وشَرفِ الأخْلاق والآدابِ ؛ وأفردَه باجتماع خِلَال الخـير المتفرِّقة فى الأنَام، وعطَّر بثنائه مَلَابس الأيَّام؛ رغِبَ الأحرارُ فى مُواصَلته، وهانَ عليهم بَذْلُ الوجه فى ٱختِطاب ممازَجَته، وٱلتمـاس مُواشَجته ومناسبَتِه؛ وجديرٌ من رُغِب إليه، وطُلب مالدَيْه؛ وٱخْتِير للشابكَةَ فى الوَلَد واللُّحْمه، والمشاركةِ فى المـال والنِّعمه ـ أنْ يجيبَ ولا يمَنع ، ويصِـلَ ولا يقْطَع ؛ مصدِّقًا لأملِ من أفرده بٱرتِيَاده ، وتوحَّده بٱعتماده ؛ عارفًا له حقَّ ٱبتـدائه بالثِّقة التى لايجُوز ردُّ من ٱعتقـدَها، ولا صَدُّ من حَسَّن ظَنَّها؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أن [مضىٰ] للمملوك مدّة طويلة [وهو يَبْحَثُ] متطلِّبا مَرْبَعا للتأهُّـل، مُؤْثِرا لِعمَارة المنْزِل، راغبًا فى سَكَنٍ تطْمئِنُّ النفسُ إليــه ، وتعتمِدُ فى الفَواتِح والمَصايِر عليه؛ وكُلَّمـا عُرِض للمملوك بيتٌ أبَاه ، أو ذُكِر له جَنابٌ قطَع عنه رَجَاه : لعدم بعضِ الشروط التى يُرِيدُها فيه ، وتعذُّرها عليه ؛ فلمـا قَرَع سَمْعَه ذِكْرُ سيِدى ، علِم أنَّه الغايةُ التى لامَرْقىٰ بعدها ، والنهايةُ التى لامَطْمَحَ وراءَها، وأنه قد ظَفِر بالثِّقة، ووصـل إلىٰ الأُمْنِيَّــة ، ووجد من يجمع الخِلَال المرضِــيّة ويزيد؛ ويحُوز من الفضـل الشأْوَ البَعيد ، وكتب المملوك هــذه الرقعةَ خاطبا كريمتَه فلانة [ليكون لهـا] كالغِمْد الضامِنِ للمهنَّد ، والجِلْد الحافظ للمجلَّد؛ ويكونَ لمولانا كالوَلَد البَرِّ بأبِيه ، ولأخيها كالصِّنو الشفيق علىٰ أخِيــه ؛ فإنْ رأىٰ سيدى أن يتدبَّر ما كتبه المملوكُ ويَتَسمَّعَ من توكيد رُقْعته ماحمَلَتْه، ويجيبَه إلىٰ ماسأله فله عُلُوُّ الرأْيِ فى ذٰلك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رُقْعــة : ويُنْهِى أنَّ مَوْلانا بمـا تَمَّم اللهُ تعالىٰ من مَحَاسنه ومَنَاقِبه، جديرٌ أن يَلْقىٰ مَنْ خَطَب الاعتصامَ بعُرىٰ ممازجَتِه، وسعىٰ فى نَيْل عُلْقه من مُواشَجته، بالقَبُول، القاضى بنَيْـل المأمول ، ودَرْكِ الرَّغَب والسُّول ؛ ولا سِيَّما إذا كان عارفًا من سُمُوِّ خَطَره، وآعتلاءِ قَدْره، مايقْضى عليه بخَفْض الجَنَاح فى معاشَرته ، وغَضِّ الطَّرْف فى معامَلتِه ؛ والوُقُوف دُونَ درَجة المساواةِ والمماثَلَهْ ، والتزَحْزُح عن رُتْبة المُبـاراة والمُطاوَله ؛ والآنتظامِ فى سِلْك الأتباع والحاشيه، والخُدَّام والغاشيه ؛ وكثيرًا ماوجد المملوكُ البركَةَ فى مشاركةِ مَنْ هذه صفَتُه أوفَرَ منها فى مشاركةِ النُّظَراء، وكانت العاقبةُ فى مشابَكَة مَنْ هذه حالُه أجملَ منها فى مشابَكَة الأكْفَاء؛ الذين يُصادِفُون فى الحُقُوق شَطَطا ، ولا يغُضُّون عن يسيرِ الواجباتِ تبسُّطا : لأنهم يَرَوْن أنَّ الوُصْلة ممَّنْ داناهم فى الرُّتْبة والمنْزِلة ليستْ عائدةً عليهم بشَرَف ، ولا مُظْهِرةً لهم من خُمُول . ولأَنْ يَستخلِصَ مِثْلُ سيِّدى من الرُّؤَساء ، مثلَ المملوكِ من الأولياء، ويختصَّه بأَثْرة الآجتباء والآصْطِفاء ؛ فيكُونَ مَفْخَرُه إليه منْسُوبا ، وما يرقِّيه الله تعالىٰ إليه ببركَته من دَرَج الفضل فى نفسه محسُوبا ؛ أوْلىٰ من طلَبِ مُمـاثِل يُناوِئُ بقَدْره ويُطاوِل . علىٰ أنه لو طلَبَ ذٰلك لطَلَب مُعْوِزا ، ورام مُعْجِزا : لما أفرده اللهُ تعالىٰ به من السِّيادة التى لايُترامىٰ إلىٰ منْزِلتها ، ولا يُتسامىٰ إلىٰ مُطاوَلتِها ؛ وإذا كان النظيرُ معْدُوما ، والكُفُؤ مفقُودا ؛ ولو وُجِد لمَال متسلِّطا ، ووقَع سومُه(١) منبَسِطا ؛ ومَوْلانا يُطْلَبُ إليه ولا يَطْلُب ، ويُرْغَب فيما عنـده ولا يَرْغَب ، فقد سَهُلت السبيلُ إلىٰ ما يرُومُه المملوكُ من جِهَته ؛ ويؤْثِرُه من مُواصَلته ؛ وآتَّسع المجَال فيما يُقْدِم عليه من الرَّغْبة فى تقليده شَرَف مُصاهَرَته ، وإضافَتِه بذٰلك إلىٰ بِطَانته وأهل خاصَّته ؛ ويُخْرِجه علىٰ ما يُخْرِج عليه الوالدُ ولده ، والسيِّدُ عبدَه ؛ وقد حَمَّل المملوكُ موصِّلَ

(١) لعله يشير إلى المثل العربى «عرض عليه سوم عالة» يضرب لمن يعرض عليك ماأنت عنه غنى. تأمل.

مطالعته هذه مالم تسعْ إيداعَه المكاتبة، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُصْغِيَ إليه ويُجيبَ عبْدَه بمـا يعتَمِدُه المملوكُ فى ذلك فله الفضْل، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنـــ لذوِى المَناجب الطيِّبةِ الأنساب، والمَناحِت الزَّكيَّـة الأحســاب ، والأخلاقِ الكريمةِ والآداب ، بين الأنام لِسانَ صِـدق يخطب لهم بالمَحاسن والمحامد، ويُعَطِّر بثنائهم الصادرَ والوارِد، ويدْعُو القلوبَ إلىٰ نَيْل عُلَقه من ممـازَجَتهم، والتمسُّـكِ بطَرَف من مُواصـلتهم؛ وقد جمعَ اللهُ لمولانا من كريم المُتْلَد(١) والمُطْرَف، وقَدِيم وحديثِ الفضـل والشَّرَف ، ماتفرَّق فى السِّيادات، وتوزَّع علىٰ أهل الرياسات؛ وجعله فى طَهارة المَوْلِد، وطِيبة المَحْتِد، واستكمالِ المآثِر، واستِتْمامِ المَفَاخر، عَلَمـا ظاهِرا ، ونَجْما زاهِرا؛ فمـا مِنْ رئيس سِوىٰ مولانا تُعْجِزه خَلَّة من خِلَال الرياسة إلا وجدَها لديْه ، ولا نفيسٍ تُعْوِزُه خَصْـلةٌ من خِصال النَّفاسة إلَّا استماحها من يدَيْه ؛ ولذلك امتدّتِ الأعناقُ إلىٰ التمسُّك بحبْله ، وتطلَّعتِ الهِمَمُ إلىٰ مُواشَجَتهِ فى كريمِ أصْله ؛ وصار مرْغُوبا إليه لاراغِبا ، ومطلوبًا لدَيْه لاطالِبا ؛ وهو جديرٌ بما وهبَهُ الله من هذا الفضل الذَّائع، والنُّبْل الشائع،أن يُجيب سائلَه ، ويصَدِّق آملَه؛ ولا يتجهَّمَ فى وَجْه قاصِده، ولا يردَّه عن مَقْصَده؛ ولا سيَّما إذا كان قد أسلفَه الظنَّ الجميل، وبدأه بالثِّقةِ والتأْميل؛ وتعذَّر عليه قدرُ العارف بقَدْره، العالِم بخَطَره؛ المرتضى بشرائطه، النازل علىٰ حكمه، المتدَبِّر برأيه؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ المملوك مُذْ نشأ وصَلَح للتأَهُّل مرغوبٌ فيه، مخطوبٌ إليه؛ من عِدّةِ جهاتٍ جليلة ، وجَنَباتٍ رئيسة ؛ والمملوكُ صادٌّ عن الإجابة ، صارفٌ عن المطاوَعَة : لشُذُوذ بعض الشُّروط التى يرُومُ أن تكون مجتمعةً فى النَّسب ، الذى أَعُـدّه شريكًا فى الوَلَد والنَّشَب ؛

(١) المتلد (أى كمكرم) ماولد عندك من مالك أو نتج ومال متلد قديم .

ومُفاوضًا فى الحال والسَّبَب، مرتادُ من يقْنَع بالموافقه، ويرتِضِ ، بالعِشْرة والمرافقَه؛ حتّى أفضىٰ فى الاْنتقاد إلىٰ مولانا فوجد المُرادَ علىٰ آشتراط ، وألفىٰ المقصودَ علىٰ آشتطاط ؛ فدعاه ذٰلك إلىٰ التهَجُّم بعد الإحْجام ، وحمله علىٰ التجاسُر والإقْدام ؛ والتوسُّلِ إلىٰ مولانا بما يتوسَّل به الأحرار، إلىٰ الأخيار، وأمَّه بصادِق الرغبة وصميم المحبة والاْنبساط، فى خِطْبة كريمته فلانة؛ علىٰ أنْ يعاشِرَها بغاية الأُنْس، ويَصْحَبَها صُحبةَ الجسَد للنَّفْس ؛ ويَعْرِفَ لها من قَدْر أبوَّتها وأُمومتِها ماتستحِقُّ برياستها، وقد أصدر هذه الرقعةَ نائبةً عنه فى ذٰلك؛ فإنْ رأىٰ مولانا أن يُتْحِفَه بالقَبُول، ويجعله أهلا لإجابة السُّول، فله الفضل فى ذٰلك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن النادر الغريب ماذكره الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبي فى "حُسْن التوسُّل" فى الكتابة إلىٰ شخص فى تزويج أمه، وهو :

هذه المكاتبة إلىٰ فلانٍ ـ جعله الله ممن يُؤْثِر دينَه علىٰ الْهوىٰ، ويَنْوِى بأفعاله الوقُوفَ مع أحكامِ الله تعالىٰ فإنما لكُلِّ آمرِئٍ ما نوىٰ؛ ويعلَمُ أنَّ الخَير والخِيرَةَ فيما يسَّره الله من سُنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلم وأنَّ الشرَّ والمكروهَ فيما طوىٰ؛ نُعرِّض له بأمرٍ لاحرجَ عليه فى الإجابة إليه؛ ولا خَللَ يلْحَقُه به فى المُروءة وهل أخَلَّ بالمُروءة مَنْ فعل ماحَضَّ الشرْعُ المطَهَّر عليه؟ وأظهَرُ الناس مُروءةً من أبلغَ النفْسَ فى مَصالح حُرَمه عُذْرَها ، ووَفَّى من حُقُوق أخصِّهنَّ ببِرِّه كلَّ ماعلم أنَّ فيه بِرَّها ؛ وإذا كانت المرأة عَوْرة، فإنَّ كمالَ صَوْنها فيما جعل اللهُ فيه سَتْرَها، وصَلاحَ حالها فيما أصلحَ اللهُ به فى الحياة أمْرَها، وإذا كانتِ النساءُ شقائقَ الرجال فى باطن أمرِ البشَرِيَّة وظاهِره، وكان الأولىٰ تعجيلَ أسبابِ العِصْمة فلا فرقَ بين أوْقِ [وقت][1] الاْحتياج [إلىٰ ذلك][1]

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٦ .

وآخره ؛ وما جَدَع الحلالُ أَنْفَ الغيْرة إلّا ليزُولَ شَمَمُ الحَمِيّه ، وتنْزِلَ علىٰ حكم اللهِ فيما شرَعَ لعباده النُّفُوسُ الأبِيّه ؛ ويُعْلَم أنَّ الفضلَ فى الآنقياد لأمرِ اللهِ لافى آتِّباع الهوىٰ بعَضْل الوليّه ؛ وإذا كان بِرُّ الوالدة أتمّ ، وحقُّها أعمّ ؛ والنظرُ فى صَلاح حالها أهمّ ؛ تعيَّنت الإجابةُ إلىٰ مايصْلُح به حالُها ، ويسكُنُ إليه بالُها ، ويتوفَّر به مالُها ، ويعمُر به فِنَاؤُها ؛ ويحصُل به عن تقلُّد المِنَن آستِغْناؤُها ، وتُحمَلُ به كُلْفــةُ خَدَمها عنها ، وتُدفَع به ضَروراتٌ لابُدّ لذَوات الحِجابِ والجِمالِ منها ، ويَضْــفُو به سِــترُ الإحصانِ والحَصَانة عليها ، ويظْهَرُ به سرُّ ماأوجبه الله لها من تَتبُّع مَواقِع الإحسانِ إليها .

وقد تقدّمَ منساداتِ السَّلَف مَنْ تولّى ذٰلك لوالدته بنَفْسه ، وآعتدّه من أسباب بِرِّ يومِه الذى قابل به ماأسلفَتْه إليه فى أمْسِه ؛ عِلْمــا منهم أنَّ آستكمال البِرِّ ممــا يُعْلى قدْرَ المرءِ ويُغْــلى ؛ وقد أجاب زيدُ بنُ زينِ العابدين هِشَامًا لَمَّـا سأله : لِمَ زوّجت أُمَّك بعدَ أبيك؟ فقال : لتبشّر بآخَرمثْلى ، لاسِيَّمــا والراغبُ [إلىٰ المولى](1) فى ذٰلك ممن يُرْغب فى قُرْبه ، ويُغْبَط علىٰ مالَدَيْه من نِعَم ربِّه ؛ ويعَظُم لِآجتماعِ دُنْياه ودِينه ، ويُكْرَم لِيُمْن نَقيبتِه وجُود يمينِه ؛ ويعْــلَمُ أنَّ العقيلة تَحُلُّ منه فى أمْنَع حَرَم ، وتستظلُّ من ذَراه بأضْفىٰ سُتور الكَرم ، مع آرتفاعِ حَسَــبه ، وآشتهارِ نَسَبه ، وعلُوِّ قدْره فى مَنْصبه وحالِه وسبَبِه ، وأنه ممن يُحْسِنُ أن يحُلَّ من المولىٰ محَلَّ والدِه ، وأنْ يتجمَّل من ذُرِّيته بمن يكون فى الملِمَّات بَنانًا ليَدِه وعَضُدا لساعِده ؛ فإنَّ المرءَ كثيرٌ بأخِيه ، وإذا أُطْلِق عليه بحكم المَجاز لفظُ العُمُومة ، فإنَّ عمّ الرجل صِنْوُ أبِيــه ؛ وأنا أتوقَّع من المولىٰ الجوابَ بمــا يجْمع شَمْل التُّقىٰ ، ويُعْــلَمُ به أنه تخَيَّر من البِرِّ أفضلَ مايُنْتقىٰ ؛ ويتحقّقُ بفعْله أنَّ مثلَه لايُهمِل واجِبًا ؛ ولأمرٍ مّا قال الأحنفُ وقد وُصِف بالأناة :
لكِنِّى أتعجَلُ أنْ لا أردَّ كُفؤًا خاطِبًا .

(1) الزيادة من "حسن التوسل" .

النــــوعُ التــاسعُ

(فى الآستِرضاء والآستعطاف والآعِتِذار)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبةُ فى آستِعْطافِ الرُّؤساء ، ومُلاطَفة الكبراء ، تحتاج إلىٰ حُسْن تأتٍّ : لما تشتمِلُ عليه من إيجاب حُقُوق الخدمة ، وما أسلَفُوه من مَرْعِىِّ الخِدَم ، وما يَتْبع هذا من التنَصُّل والآعتِذار الذى يسُلُّ السخائِمَ من القُلوب ، ويستنزِلُ الأَوْغار من الصُّدور ، ويُطْلِع الأُنْس وقد غَرَب ، ولها موْقع فى تأليف الكلام .

قال : وينبغى للكاتبِ أنْ يستعمِلَ فيها فِكْرَه ، ويُوفِّيَها حقَّها من جَوْدة الترتيب ، وآستيفاءِ المعانى ، وأنْ يذهبَ إلىٰ آستعمالِ الألفاظ الجامعةِ لمعانى العُذْر ، الملوِّحة بالبَراءة مما قُرِف به[1] ، ولا يُخْرِج لفظَه مُخْرَج من يُقِيم الحجَّةَ علىٰ براءةِ الساحة مما رُمِى به ، فإنَّ ذٰلك مما يَكْرَهه الرؤساء : لأنَّ عادتَهم جاريةٌ بإيثار آعترافِ الخُدَّام لهم بالتقصير والتفريط والإخلالِ بالفُروض : ليكونَ لهم فى العَفْو عند الإقرار عارفةٌ توجبُ شكرا مستأْنفًا ، فأما إذا أقام التابعُ الحجةَ علىٰ براءتِه وسلامتِه مما رُفع عنه ، فلا يُوضَع الإحسان إلا إليه[2] فى إقراره علىٰ منْزِلته ، والرِّضا عنه والآستعطاف ، بل ذٰلك واجبٌ له ، فى منْعِه منه ظُلْمٌ .

---

(١) فى الاصلين «مما قرب منه» وهو تصحيف من الناسخ .

(٢) المراد أن إقراره والرضا عنه ليس من الاحسان بل من الواجب تأمل .

وهذه نسخٌ من ذلك :

لأبى الحســين بن سعد :

فإن رأيتَ أن تنْظرَ فى أمرى نظَرا يُشْبِه أخلاقَك المرضِيَّة ويكونُ لحسن ظَنِّى بك مصَدِّقا، ولعظيم أمَلِي [فيك] محققا، ولِما لم تزل تَعِـدُنيه مُنْجزا، ولِحقِّ حُرْمتِي بك وقديم ٱتِّصالى بأسبابك قاضِياً، فعلت ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنـــه : لسليمانَ بنِ وَهْب .

مَنِ ٱنصرَفَ فى ٱلاحتجاج إلىٰ الإقرار بما يَلْزَمه وإن لم يكن لازما، فقد لَطَّف الاِستعْطاف، وٱستوجب المسامحةَ والإنْصاف .

ومنـــه : وقد نالَنِي من جَفْوة الأمير بعـدَ الذى كنْتُ أتعَرَّف من بِرِّه وألطافه أمْرٌ أحلَّنِي محَلَّ المُذْنِب فى نَفْسى مع البَراءة من الذَّنْب ، وألزَمنِي الإساءةَ مع الخُروج من التقصـير، وزاده عِنْدى عِظَما وشِدّة أنّى حاولْت الخُروجَ منـه بالاِعتِذار، فلم أجِدْلى إلىٰ الأمير ذَنْبا أعتذر منـه ، ولا علَىَّ فيما ألزمَنِي من مَعْتَبَته حجةٌ أُحاوِلُ دَفْعها والتخلُّصَ منها ، فأصبحْتُ أُعالجُ من ذلك داءً قد خَفِىَ دَواؤُه، وأُحاوِلُ صلاحَ أمْرٍ لم أَجْنِ فَسادَه ، فإن رأيتَ أن تفْـعل كذا وكذا فتصِـلَ قَدِيم ما اصبَحَ عنـدى من معْروفِك بحديثه ، فليس عِنْدى فى مطالبةٍ حجّةٌ أنجَحُ من التوجُّه إلىٰ الأمير بنَفْسه ، والثقةِ عنده بفَضْله، فإن كنتُ مُذْنِبا عفَا، وإن كنتُ بَرِيئًا راجع .

ومنـــه : لأبى علىّ البصير .

وأنا أحدُ منْ أسكنْتَه ظِلَّك، وأعلَقْتَـه حَبْلك ، وحبَوْتَه بلطيف بِرِّك ، وخاصِّ عنايَتِك، وٱنتصفَ بك من الزَّمان، وٱستغنىٰ بإخائِك عن الإخْوان ؛ فهو لا يَرْغَبُ

إلّا إليك ، ولا يعتمد إلّا عليك ، ولا يستنجح طلبه إلّا بك ؛ وقد كان فرط منى قولٌ : إن تأوّلته لى ، أراك أوجه عذرى ، وقام عندك بحجّتى ، فأغنانى عن توكيد الأيمان على حسن نيّتى ، وإن تأوّلته علىّ ، أحاق بى (١) لائمتك وحبسنى على [أسوإ] حال عندك ؛ وقد أتيتك معترفا بالزّلة ، مستكينا للوجدة ؛ عائذًا بالصّفح والإقالة ، فإن رأيت أن تقرّ عينًا قرّت بنعمتك عندى ، ولا تسلبنى منها ما ألبستنى ، وأن تقتصر من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عتبك علىّ ، وتأمر بتعريفى رأيك بما يطامن هلعى ، وتسكن إليه نفسى ، ويأمن به روعى ، فعلت ، إن شاء الله تعالى .

ومنه : لابى الحسين بن أبى البغل .

نبوّ الطّرف من الوزير دليلٌ على تغيّر الحال عنده ، والجفاء ممن عوّد الله البرّ منه شديدٌ ، وقد آستدللت بإزالة الوزير إيّاى النّحل الذى كان نحلنيه بتطوّله ، على ما سوّت له ظنًّا بنفسى ؛ وما أخاف عتبا : لأنى لم أجن ذنبا ؛ فإن رأى الوزير أن يقوّمنى لنفسى ، ويدلّنى على مايريده منّى ، فعل ؛ إن شاء الله تعالى .

ومنه : لأبى الرّبيع .

أصدق المقال ، ماحقّقه الفعال ، وأفضل الخبر ، ماصدّقه الأثر .

ومنه : لمولانا سيرةٌ فى الفضل والإحسان ما أمّلها آمل إلّا جادت وسخت ومنحت ، وعوائد فى العفو مارجاها راجٍ إلّا صفحت وسمحت ؛ وأحقّ من تلقّاه عند العثار ، بالإقالة والاغتفار ، ووقف به عند حدّ التقويم والإصلاح ، ولم يعرّضه

(١) فى الاصل "على ما أحاق" تأمل .

لنَقيصــة الإقْصاء والاطِّراح، مَنْ شفَع الهَفْوةَ بالاعتِذار، وخطبَ التغَمُّد بلسان الإقْرار، ودلّت التجارِبُ منه علىٰ حَسْم الأضْرار، وكان له من سالف الخدَم وسائلُ وذَرائع، ومن صَحيح الإخلاصِ ممهِّد وشافِـع؛ فلا عَجَبَ أنَّ المملوكَ يَهْفُو فيعْفُو، ويَظْلِم فيَكْظِم، ويجهَل فيَحلُم، ويُخطِئ فيُصيب، ويدْعُو متنصِّلا فيُجيب؛ وقد جعل الله سَهْمَه المعَلَّى، ويَده الطُّولى، وألهمه التفضُّـلَ بالإنْعام، والتغميضَ عن زَلَّات الكِرام؛ وقد حصل للمملوكِ فى هـذه النَّبوة من إزْرائِهِ علىٰ عقْله، وتقْبيحه لفِعْله؛ أعظمُ تجْرِبه، وأكبرُ مأدَبه؛ والمملوكُ يسألُ إحسانَ سيِّدى أن يُعيـدَه إلىٰ رضاه ولُطْفه، ويُؤْنِس منه مستَوْحِشَ إقبالِه وعَطْفه؛ ويصَـدِّقَ رجاءَه فيـه، ويُجْزِلَ ثوابَ وِفادتِه عليه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــــة : المملوكُ يخْطُب صَفْحَ سـيِّده وإقالَتَه بلسانِ الاغتفار، ويسـتَعيدُ ماعَرَف من رِضاه وعاطِفَتِـه بوَسائِل الاعتِذار: ليكونَ المتفضِّلَ فى كلِّ الحالات، والمنعِمَ من كلِّ الجِهات؛ وقد عرفَ السَّهْوَ والنِّسيان، المعْتَرِضين للإنسان؛ وأنَّهما يَحُولانِ بينَهُ وبينَ قَلْبه، ويُزَوِّرانِ عليه خَطَأه فى صُورةِ صوابِه؛ فيتورَّطُ فى السَّقَط غيْرَ عامد، ويتهوَّرُ فى الغَلَط غيْرَ قاصد، وقد قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَـانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَـا عَقَّـدْتُمُ الْأَيْمَـانَ ﴾ . وما أوْلىٰ موْلانا بأن يحْفَظَ علىٰ المملوكِ جميـلَ آرائه، ولا يَسْلُبَه ماشَمِلَه من ظِلِّ آلائه؛ ولا يَسِمَه بمِيسَمِ العُقُوق فإنه يجدُ نفْسَه بخلاف ذٰلك فى طاعَتِه، ومرتَبَتها بغير هذه الرتبةِ فى خِدْمته .

فصـــل : وقد آوىٰ سـيدى المملوكَ من ظله، وأعْلَقَه من حَبْله، وأسبغ عليه من فَضْله، ماأنْصفَه به من الزَّمان، وأغْناه عن الإخْوان، ووقَف رَغَباتِه عليـه، وصَرَف آمالَهُ إليه، ونَزَّله مَنْزِلةَ مَنْ لايشُكُّ فى اعتقاده، ولا يستَرِيبُ بوِدَاده؛ وكان

المملوكُ أرسل لَفْظا علىٰ سبيلِ الإشْـفاق ذهَبَ به الحاسدُ إلىٰ غير مَعْناه ، وخالف فى تفسيرِه حقيقةَ مَغْزاه ، وأحاله عن بِنْيته ، وعرَضه عليه علىٰ غيْر صُورَته : لِيُوحِشَ محلَّ المملوكِ المأنوسَ من رِعايَتِـه ، ويَنْفِّرَ سِرْبَه المطمئِنَّ بملاحظتِه وعِنايتِـه ؛ وقد أرسل المملوكُ هذه العُبوديَّةَ سائلا فى مَحْو إظلام مَوْجِدته ، وأن يُعيدَ المملوكَ إلىٰ مَكانه من حَضْرته ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

لا أتوَسَّلُ إلَيْك إلَّا بك ، ولا آتيكَ إلا مِنْ بابِك ؛ ولا أستشْفِـعُ إليك بسِوَاك ، ولا أَكِلُ رَجْعةَ هوَاك إلَّا إلىٰ هوَاك ؛ ولا أنتظِرُ إلَّا عَطْفَتَك التى لاتقُودُها زخارِفُ الأموال ، ولا تُعيدُها شفاعاتُ الرجال :

إذا أنْتَ لم تَعْطِفْكَ إلَّاشفاعةٌ * فلا خَيْرَ فى وُدّ يكونُ بشَـافِع

شعر فى معنىٰ ذلك :

هَبْـنِى تخطَّيتُ إلىٰ زَلَّـةٍ * ولم أكُنْ اذنَبْتُ فيما مَضىٰ !
ألَيْسَ لِى مِنْ قَبْلِها خِدْمةٌ * تُوجِبُ لى منْكَ سَبِيلَ الرِّضىٰ !

غـيره :

وَحَقِّـكَ ما هَجَرْتُكَ مِنْ مَلَالٍ * وَلَا أَعْرَضْتُ إلَّاخوْفَ مَقْتِ !
لِأنَّ طَبَائِـعَ الإنْسَـانِ ليْسَتْ * علىٰ وَفْقِ الإرادَة كُلَّ وَقْتِ !

اعتذار عن التأخر ، من ترسل أبى الحسين بن سعد .

إنْ لم يكُنْ فى تأخُّرِى عنْك عُذْرٌ تقبَلُه ، فاجعَلْه ذَنْبا تَغْفره .

على بن خلف :

الأعذارُ ـ أطال اللهُ بقاء سَيِّدى ـ تَنْأىٰ علىٰ الآمتناع ، وتَضيق علىٰ الآتِّساع ؛ وذلك بحَسَبِ ماتُصادِفُه من قَبُول ورَدّ ، ومسامحةٍ ونَقْد ؛ وأنا أحمَدُ اللهَ علىٰ أن جعلَ عُذْرى إلىٰ من يتَمَحَّل العُذْر للمُعْتَذِر ، ويصْفَح صَفْح المالك المقْتَدِر ، كأنَّما ائْتَمَّ بقول الشاعر :

إذَا ماأتَتْ من صاحِبٍ لك زلَّةٌ * فكُنْ أنتَ مُحتالًا لزَلَّتِه عُذْرا

ولم يجعَلْه إلىٰ من يُغَلِّب هاجِسَ الظُّنون ، علىٰ واضح الحُجَّة ، ومعتَلَّ الشكِّ علىٰ صحيح اليَقين . ونُمِىَ إلىّ أنَّ غابطا لمكانى من حَضْرته ، حسدَنى علىٰ محلِّى من مودّتِه ، وزوّر ماينكشِفُ عن الإفك والبُهْتان ، ودلَّس الكذبَ فى صُورة البُرْهان ؛ فلما جَلَّاه فى مَعارِض زَخارِفِه أظهر لسيدى عُوارَه ، وأبدىٰ لطَرْفه شُوارَه[1] ؛ فشَلَّ سَمْعَه عن وَعْيِه ، وطَرَف طَرْفَه عن رَعْيِه ؛ وآستَمَّ عَلاَئِمَ شِيمَتِه ، فى حُسْن الظنِّ بأحبَّته ؛ فقدَّمتُ من الاعتذار مايُقدِّمُه المذنبُ نُزُولا علىٰ طاعتِه ، وتأدُّباً فى خِدْمته ، وشفعتُه من الشُّكْر بما يقتضيه إحسانُه ويوجبه .

أبو الفـرج الببغاء :

أحقُّ المَعاذِير بالتقبُّل وأوْلاها بسعَة القلُوب ماصدَرَ عن آستِكانة الأقْدار ، ودلَّ علىٰ حَسْم موادّ الأضْرار ، وصَفَا من كَدَر الآحتِجاجات ، وتنزَّه عن تمَحُّل الشُّبُهات : ليَخْلُص به مِلْكُ العفْو ، وتتكامَلَ نِعمةُ التَّجاوُز . ولستُ أكْرَه شرَفَ تأديبه ، ونُبْلَ تثقيفه وتهذِيبه ؛ مالم يتجاوَزْ فى العقُوبة والتقويمِ إلىٰ مُؤْلِمِ الإعْراض ، ومَضيض

(١) أى عيبه وشل سمعه أى طرده والمراد أنه لم يصغ اليه .

التنكُّر والاِنْقباض، ولا أخطُبُ الإقالةَ من تفضُّله إلَّا بلسانِ الِّثقة وشافِعِ الخِدْمة، هاربًا إلىٰ سَعَة كرمه مما دفعتْني المحبَّةُ إليه، وأشفىٰ بى عدَمُ التوفيقِ عليه، فإنْ رأىٰ أنْ يكونَ عِنْدَ أحسنِ ظنِّى به فى الصَّفْح، كما هو عِنْد أصدقِ أملى فيه بالإنعام، فعَل .

وله فى مثـــله :

ليس يَخْلُو الإغْراقُ فى التنصُّـل والمبالَغَةُ فى الاِعتذار من إقامةِ لحُجَّة، أو تمسُّك باعتراضِ شُـبْهة، وأنا أجِلُّ ما أخْطُبـه من عظيم عَفْوِه، وأُكْبِر ما أُحاوِلُه من نِعمةِ تجاوُزه، عن المقابلةِ بعيْنِ الاعتراف بالزَّلَل و بعد الاِستحقاق من الصَّفْح، مالم يُوجِبْ لى بَســعَة تأوُّله، ويعُدْ علىّ فيه بعاداتِ تفضُّله : لتصْفُوَ منه الأعْضاء، وتلْزَمَنى واجباتُ الشكر والثَّناء، غيْرَ ممتنِـعٍ معَ ذٰلك من التبرِّى إليه مما أَنْكَرَه من تجاوُزِ السَّهْو إلىٰ العـمَل، والتوجُّه إلىٰ مافَرَط بالاختيار والقَصْـد اللذيْنِ يُغْفَر بتجنُّبهـما مذْمومُ الأفعال، ويُتَغمَّدُ سَيِّءُ الأعمال، فإنْ رأىٰ أن يحمِلَ أمْرِى فيما قصدَتْنِى الأيامُ بتوجُّه الظُّنُون فيــه علىٰ غيْر النية لاظاهِرِ الفعل، إذ كانتْ صـفاتُ الإنسانِ بالأشْهر من أخلاقه والأكْثَرِ من أفعاله، ولا صِـفةَ لى أعْرَفُ بها وأُنْسَب إليها غيْرَ الاِعترافِ بإنعامه، والتَّطاوُلِ من اصـطناعه، آخذًا من كلِّ حال بالفَضْـل، ومشَفَّعا بَسْطة الرياسة والنُّبْل .

وله فى مثـــله :

لستُ أخلُو فى المُدّة التى تجاوَزَ الدهرُ لِى عَنْها فى خِدْمتِـه من توصُّـلٍ بفَرْط الاجْتهاد، إلىٰ ماوَصَل من رَأْيه إلىٰ رُتْبة التقبُّل والإحْماد، وليس يَحْبَط ماأَتيْتُه من مرضىِّ الخدمة بالنيَّة والعمْد بما لعَلَّه فَرطَ من غير مُراد، إذ كان ـ أيده الله بفائض

طَوْله، ومأثور فَضْله ـ آخذًا من آداب الله بما أحاكمه منه[(١)] : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ . و [لو] لا إيثارى[(٢)] مفترَض الطاعة وآستكانةَ الاعتداد، وأن لا أخْطُب رضاه بلسان الاحتجاج، ولا ألْتمس عفْوَه بوجُوب الاستحقاق : لتسْلَمَ له صِفاتُ التفضُّل، ولى مَوَاتُّ الاعترافِ بسالِف التطوُّل، لبرهَنْتُ على سَلامتى مما قُصِر علىّ بتوجُّه الظُّنون وآعتراضِ الأوهام، ولا أقول بشعَثِ النيَّـة وفَساد الرأْى، فإن رأى أن يحفَظَ ما آبتدأه مُخْتارا من آصْطِناعى بمـا يصُونُه عن التنكُّر، ويَصُونَ عادتى فى شكر ذٰلك والاعتدادِ به عن الفُتُور والتغيُّر، فعل .

أجوبة الاسترضاء والاستعطاف

قال فى " موادّ البيان " : لايخلُو المعتذَر إليـه من أمرين : أحدُهمـا أن يقْبَل العذْرَ، والآخر أنْ يستمرَّ على المَوْجِدَة ويرفُضَ مايأتى به من حُجَّة؛ فإن كان قد قَبِل العُذْرَ، وجب أن يبنىَ الجوابُ على وُصُول الكتاب، والوُقُوف عليه، والتقبُّل لمـا تضمَّنه ، وتبرئَةِ المعتـذِر عن الحاجة إلى الاعتِذار ، والانقياد إلى الاعتراف بالجُرْم والإقْرار، إكرامًا لخُلَّتـه عن التُّهَمة، وللمودّةِ عن الظِّنَّـة : فإن الأمر الذى أوجب العُـذرَ لو صدر منـه ، لاقتضى ودادُه التأوّلَ له بأنّه ما صـدر إلا عن باطِنٍ سليم ومصلحةٍ أوجبتـه . قال : وليس هـذا المعنى هو الذى يُجاب به مَنْ قُبِل عُذْره فقط : لأنه يجوز أن يجيب بأنه قد قَبِل العُذْر، وصفَح عن الجُرْم، على أنْ لايعودَ إلى مثله . وإن آستمرَّ على القصـد[(٣)] ، بنى الجوابُ على إبطال العُذْر ومعارضتِه بمـا

---

(١) كذا فى الاصل ولعله « إليه » .

(٢) فى الأصول «ولا ايثارى على مفترض .... ألا أخطب الخ» .

(٣) أى قصد الصدّ وبقى على هجره ولم يقبل الاعتذار .

يقتضيه ؛ والدلالة علىٰ خطإ المعتَذِر ، وأنه مما لايسُوغُ الصفْحُ عنه ، ولا يليق بالحَزْم إقالتُه .

قال : وهذانِ معنيانِ يَحْمِلان من العبارة مالا يكادُ ينْحصر فى قول مشْرُوح مبسوط ؛ فضلا عن قولٍ مجمَلٍ مُوجَز ، إلَّا أن المتدرِّب بالصناعة إذا مرَّت به هذه الأصول أمكنه التفريعُ عليها .

النوع العاشر

(فى الشكوىٰ ـ أعاذنا الله تعالىٰ منها)

قال فى " موادّ البيان " : رِقاعُ الشَّكْوىٰ ـ عصَمَنا الله من مُوجِباتها ـ يجبُ أن تكون مبنيَّةً من صِفَة الحال المُشْكِية ، علىٰ ما يُوجب المشاركة فيها ويقْضِى بالمساعَدَة إن آستُدْعِيتْ عليها ، من غير إغْراقٍ يُفْضى إلىٰ تَظْلِيم الأقْدار وإحْباط الأَجْر ، وشَكْوىٰ المبتَلِى بالخيْر والشرِّ سبحانه وتعالىٰ ، ويدلُّ علىٰ التهالك بالجَزَع ، وضعف التماسُك وقُوّة الهَلَع ؛ بآستيلاء القُنُوط والإيَاس ، وأن يشْفَع الشكْوىٰ بذِكْر الثقة بالله سبحانه ، والتسليم إليه ، والرِّضا بأحكامه ، وتوقُّع الفَرَج من عِنْده ، وتلَقِّى آختبارِه بالصبر ، كما نتلَقَّى نعمُه بالشكر ؛ ونحو هذا مما يليق به ويجرى مَجْراه . قال : وقد يكتُبُ الأتباعُ للرؤساء رِقاعاً بشِكاية الأحوال ومساءَلة النظر ؛ ثم ذكر أنَّ سبيل هذه الرِّقاع أن يُعْدَل بها عن التصريح بالشَّكْوىٰ إلىٰ لَفْظ الشُّكر ومَعْناه ، وطلب الزيادةِ والإلحاق بالنُّظَراء فى الإحسان : لما فى إطْلاق الشكاية ، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمُه النظرُ فيه من أحوال خاصَّتهم وتعهُّد مَرَافِقِهم من الكفَاية .

وهذه نسخ من ذلك :

رُقْعـــة شكوىٰ هُموم :

كتب المملوكُ هذا الكتابَ وهو رَهِينُ فِكْرٍ وغَمّ، وقَلَقٍ وهَمّ، وحَلِيفُ جَوًى قد سكَنَ القلب، وخوفٍ قد أطار اللُّبّ؛ وبالله العِياذ، وهو المَلاذ؛ وبيـده تُحَلُّ العُقَده، وبأمره تَزُول الشِّدّه؛ وقد ألهم اللهُ سبحانَه المملوكَ صَبْرا يَسَّر أمْرَه، وأمَلًا فى الفَرَج خفَّف ضُرَّه؛ وليس بآئسٍ من عَطْفته، ولا قانِطٍ من نِعْمتِه .

رقعـــة فى معنىٰ ذلك :

كتب المملوكُ وهو شاكٍ لتجاهُل الأيام، وَقِيذٌ من مواقِع سِهامها الرَّغيبة الكِلَام؛ مَنْهومٌ بهُمُوم تُضْعِف الجَلِيد، وتَسُوء الوَدِيد، وتَسُرّ الحَسُود، لاقٍ من قَسْوة الدهر وفَظَاظتـه، ونَبْوة العَيْش ونُفْرته، ما يردُّ الجفُونَ عن الهُجُوع، ويُغْـرق العيونَ بالدُّموع، ولله تعالىٰ فى عباده أقضِـيةٌ يَقْضِيها، وأقدارٌ يُمْضِيها؛ واللهَ أسألُ حسنَ العاقبة والخِتَام، وتمحيصَ الأوزارِ والآثام .

رقعـــة : كتبَ المملوكُ وجِسْـمُه صَحِيح، وقلْبـه قَرِيح، وجَنَانُه سَلِيم، وجَنَابه سَقِيم : لمـا يَتبادر إليه من نِكَاياتٍ تقْدَح وتقْرَح، وحادثاتٍ تَكْلِم وتَجْرَح؛ ونُوَبٍ تَهُضّ، وتَهْدِم وتَرُضّ، وخطوبٍ تُخاطِب شِفَاها، وتُوصِّل من اليَد إلىٰ اليد أذَاها؛ إلَّا أنَّ الله يُهِبُّ رِيح المِنَح، وقد تداكت المِحَنُ فينشِفُها، ويشقُّ عمودَ الفَرَح، وقد آدْلهمَّت فيَكْشِفُها؛ وظنُّ المملوكِ بالله تعالىٰ جميل، وله فى صُنْعه ولُطْفه تأْمِيل .

رقعـــة : ويُنْهِى أنه قد كتب هذه العُبودِيَّة بيدٍ قد أرعشَتْها الآلام، يُمْلِى عليها قلْبٌ قد قلَبَته الأسْـقام؛ بِجسمُه ناحل، وجَسَده بعـد النَّضْرة قاحل؛ وقُواه قد

وهَنَتْ ، وجَلَادتُه قد وهَتْ ؛ وصبره قد تخَلّى وٱضْطَرب ، وتحمّله قد نأىٰ وٱقترَبْ ؛ وعاد شَبَحا من الأشْباح ، وهَباءً تَذْرُوه الرِّياح ؛ فلو ٱعتلَق بشَعْرة لم تَنْصَرِم ، أو وَلَجَ خَرْتَ إبرةِ خيَّاط لم تنفَصِم ؛ ولولَا الثِّقةُ بالله وأنه يُتْبِـع السُّقْمَ بالصِّحه ، ويَشْفَع المحْنَةَ بالمِنْحه ؛ لذَهَب مابَقِيَ من ذَمائه ، وأطَلَّ علىٰ شَـفَا شَقَائه ؛ والمملوكُ يستشرف منه تعالىٰ لُطْفا يُعيد الكَليل حَدِيدا ، والمُخْلَقَ جَدِيدا .

رقعــــة : ويُنْهِى أنه قد كَتَب هــذه الرُّقْعة ، وقد ساءَ أثَرُ الأيَّام عليــه ، وقَبُحَ صُنْعُها لدَيْه ؛ وٱبتلَتْه بمُؤْلِم البَلْوىٰ ، وأنطقَتْه بلسان الشَّكْوىٰ ؛ فهو محترِقٌ بنارِ الْغَيْظ ، يدْعُو علىٰ نَفْسه بالفَيْظ ؛ إن لم يكن فَرَجٌ يفرِّجُ بين الأضْداد ، ولُطْفٌ يُرِيح من هذا الجِهَاد ؛ وكُلَّما طلبَ المُزايلةَ عوِّق ، أو طلَبَ الفِكَاكَ ٱعتلَقْ ؛ فهو قاطِنٌ فى صُــورة الظَّاعِن ، وحالٌّ فى حالِ الراحِل ، والله يمنُّ بالمَخْرَج ، ويأتِى بالفَرَج .

رقعــــة : وقد سَطَّر المملوكُ هذه العبُودِيَّة ، وقد ٱنجلَتْ هذه النَّبْوه ، عن البَلَاء والشِّقْوه ، ونَفَادِ المــال ، وٱستِحالةِ الحال ، وٱستيلاءِ العدُوّ ، وٱستِعْلاء السُّو ، وكذا الدهْرُ خَدُوع غَرُور ، خَئُون غَدُور ؛ إنْ وهبَ ٱرتَجع ، وإنْ ألبَسَ ٱنتزَع ؛ وإن أعْطىٰ أعطىٰ قَليلا وقَلَع ؛ وإنْ أحلىٰ أمرّ ، وإن نَفَع ضَرّ ؛ وإن أبْرَم نقَض ، وإنْ رفَع خفَض ؛ وإن أقبَــلَ أعْرَض ، وإن وعَدَ أمْرَض ؛ فنِعَمُه مقرونةٌ بالزَّوال ، ومِنَحُه معرَّضة للإنْتقال ؛ وصفْوُه مَشُوبٌ بالكَدَر ، وعيْشُــه ممْزُوجٌ بالغِيَر ؛ ما أجَنَّ الا أوجدَ خَلَلَا ، ولا أَمَّن إلا أتْبَع الأَمْن جَلَلَا ؛ والمملوكُ يحمَدُ الله تعالىٰ علىٰ أن أوسَعه فى حال البَلَاء شُكْرا ، وفى حال الإبتلاء صَبْرا .

أجوبةُ رِقاع الشـــكوىٰ

قال فى "موادّ البيان" : يجبُ أن تبنىٰ أجوبةُ هذه الرِّقاع علىٰ الآرتماض فى الحـال المُشْكِيةِ، والتوجُّع منها، وبَذْلِ الوُسْع فى المعُونة عليها، والمشاركةِ فيها؛ وما يجْرِى هذا المَجْرىٰ ممـا يلِيقُ به .

النـــــوع الحـادى عَشَر

(فى آستمـاحةِ الحـــوائج)

قال فى "مواد البيان" : ورقاعُ الآستماحةِ يُخْتار أن تكونَ مُودَعةً من الألفاظ ما يُحرِّك قُوىٰ السَّماح، ويبعثُ دَواعِىَ الآرتياح؛ ويُوجِب حُرمةَ الفضـل المسهِّلة بَذْلَ المـال الصَّعْبِ بذْلُه، إلّا علىٰ من وَفَّر اللهُ مُروءَته، وأرخص عليه أثمانَ المحامِد وإن غلَتْ .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطَّف فيها التلطُّفَ الذى يَعُود بنَجاح المَرَام، ويؤمِّنُ من الحصُول علىٰ إراقة [ماء] الوجْه، والخيبةِ بالردّ عن البُغْية، ويعْدِلَ عن التثقيل والإلحافِ المُضْجِريْن ولا يضَيِّق العُـذْر علىٰ السَّماح إلا أن يتمكَّن للثقة به، ويعلَم المشاركةَ فى الحال .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

من كتاب [أبى] الحسين بن سعد .

أفضلُ القول أصدَقُه، وأهنىٰ المعروفِ أعجَلُه، وأبلغُ الشُّكْر أظهَرُه .

ومنـــه : إن حضرَتْك نيَّةٌ فى قضاء حاجةٍ فعجِّلْها ، فإنَّ أهنىٰ المعروفِ ماعُجِّل ، وأنكَدَه ماتنازعته العِلل ، وآعترضته كثرةُ الاِقتِضاء .

ومنـــه : أنتَ أعزَّك اللهُ واجدُ السبيلِ إلىٰ آصْـطِناع المعروفِ وآكتســابِ الثَّواب ، وأنتَ أعرَفُ بمـا فى آستِنْقاذِ أسيرٍ من أسْرىٰ المسلمين ، من وارد الأَسْر ، وعَرْصة الكُفْر ، وآنتِياشِه من الذِّلَّة والفاقة ، والبَلاءِ والمشَقَّة ، من جزيلِ ثوابِ الله وكريم جزائِه [وأجلُّ] من أن تُخاطَب فى ذٰلك مخاطبَةَ من يحتـاجُ إلىٰ زيادةٍ فى بصيرته ، وتقويةٍ لنيَّته ؛ وبالله توفيقُك وعَوْنُك .

علىّ بن خلف :

قد تَمسَّكَ أمَلِى بضَمانك ، وتطلَّع رجائِى إلىٰ إحْسانك ، وكَفَل لى النجاحَ مشهورُ كرمِك ، ورَغْبتُك فى رَبِّ نِعَمِك ، ولِى من فضْلك نَسيب أعتزِى إليه ، ومن شُكْرى شفيعٌ أعتمِدُ عليه .

وله : المَوَاعيدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاىَ ـ غُرُوس ، حُلْو ثمرِها الإنجازُ والتعْجيل ، ومُرُّه المَطْلُ والتطويل ؛ وقد شامَ أمَلى من سَحائبِ فضْـله ، حقيقًا بأن ينْهمِر ويَهْمِى ، وآرتاد من روضِ نُبْـله ، جديرًا بأن يَزيدَ ويَنْمِى ، فإن كانتْ هـذه المَخيلة صادِقَه ، فلْتكُنْ منه هِمَّةٌ للرجاء محقِّقه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هَمَمتُ أنْ أستصْحِب إلىٰ مولاى ذَريعةً تحجُبُ مَطَلى ، وتكونُ حِجَـابا علىٰ وَجْهِى فى المطالعة بأَرَبِى ، فَلاحَ لى من أسارِيرِه بَرْقٌ أوضح مَقْصِـدى ، ومن أخلاقِهِ آنبساطٌ أمَالَ تجعُّدِى ، ولسْتُ مع معرِفَتِه بحقِّ نعمة الله تعالىٰ وحقِّ مؤمِّله ، محتاجًا عنده إلىٰ ذَريعة ولا مفتقرًا إلىٰ وَسيلة .

وله : ولا يحملُنى مولاىَ علىٰ ظاهرِ تجمُّلى ، وجميلِ توكُّلى ، علىٰ حالٍ[1] قد أحالَتْها العُطْلة ، وتخلَّلتها الخَلَّة ؛ وإنما أُبقِى بالتجمُّل علىٰ دِيباجة هِمَّتى ، وأصونُ بالتخْفيف عن الصديق مُروَّتى ؛ ولولا أنَّ الشكوىٰ تخفِّف متحمِّل البَلْوىٰ ، لأضرَبْت عن مُساءلتِه ، وأمسكْتُ عن تذْكيره ، ولٰكِنْ لابدَّ للوَصِيب الشاكى ، من ذِكْر حاله للطبيب الشافِى ؛ وقد كان بَرَق لى من سَحَاب وَعْده ما هو جَدِيرٌ بالآنْهمار ، وأوْرَقَ من نَمَائه ما هو حقِيقٌ بالإثْمار ؛ فإنْ رأىٰ أن يَسِمَ وجْهَ التأْميل ، بعد الإنجازِ والتعْجِيل ، فعل .

وله : ما حامَتْ آمالِى ــ أطال اللهُ بقاءه ــ إلَّا وقعتْ بحضْرته ، ولا صَعُبتْ علَىّ جوانبُ الرَّجاء إلا سهُلتْ من جِهَتِه ؛ ولا كَذَبَتْنِى الظُّنونُ إلَّا صدَقَها بعلُوِّ همَّتِه ؛ فلذٰلك أعْتلِقُ فى المُهِمّ بحبْلِه ، وأعتَصِم فى المُلِمِّ بظِلِّه ؛ وقد عَرَض لى كذا وعليه فيه المُعَوّل ، وهوالمرجُوُّ والمؤمَّل ؛ وما أوْلاه بالجَرْيِ علىٰ عادته فى رَيْش جَنَاحى ، والمَعُونةِ علىٰ صَلَاحى .

فى طلب كسوة ، من كلام المتأخرين :

أَلَا أيُّهـا المَوْلىٰ الَّذِى نَهْرُ جُودِه * يَزِيدُ وعَاصِى أمْرِه الدَّهْرَ ينْقُص !
إلَيْكَ آشْتِكَائِى من دِمَشْقَ وبَرْدِها * وما أَنَا فِيه مِنْ أُمُورٍ تُنَغِّص !
وإنِّى فى عُرْسٍ من البرْدِ دائِم * تُصَفِّقُ أسْنانِى وقلْبِى يَرْقُص !

المملوكُ يُنْهِى بعد الآبْتِهال إلىٰ اللهِ تعالىٰ فى إدامة نِعْمتِه ، وإدالة دَوْلتِه ، أنَّه ماأَلِفَ من إحسانِهِ إلا أنَّه يُضاعِفُ رَسْم الإنْعام ، ويُواتِرُ إرْسالَه علىٰ مَمَرِّ الأيّام والأعوام ؛ وللمملوكِ فى خِزَانته الشريفةِ فى كلِّ عامٍ تشْرِيفٌ يُفِيضه علىٰ جَسَده ،

(١) كذا فى الأصول والظاهر "بل أنا على" الخ .

ويُسَرّ به قلوبَ أوليائه ويفُتُّ أكبادَ حُسَّده، ويتّقِي به سَوْرة الشتاء وقُرّه، ويجعله قُرّة ويحمِلُ به من الدَّعَة وِقْرَه، وقد دَرَس رسمُه، وفُقِد من الدِّيوان المعمور آسْمُه، وهو يسألُ بُروزَ الأمرِ العالى بإجرائه علىٰ عادته المستمِرّه، وقاعدته السالفة المستقَرّه، بتشريفه بأخْذ التشريف ولُبْسه: ليدْفَع بذٰلك شِدّة البَرْد وألِيمَ مَسِّه، ويتذكَّرها فى يومه مايُوجِب حمدَ المولىٰ وذَمَّ أمْسِه، ورأيُه العالى.

وله فى طلب ورق:

يا أسْمحَ الناسِ ويامَنْ غدَا * جَبينُه يُخْجِل ضَوْءَ الشَّفَق!

جُودُك بالوَرْق(١) عميمٌ [فلِمْ] * أخَّرتَ يامَوْلاىَ بَعْثَ الوَرَق؟

وله فى طلب رَسْم:

رَسْمِى يامَوْلاىَ غَدَا * مُؤَخَّرًا ولو حَضَرْ!

ولَوْ أرادَ سيِّدى * إحْضارَه، كانَ أَمَرْ!

فقَدْ مَضىٰ مُحَرَّمٌ * وراحَتِى مِنْه صَفَرْ!

وكتب كاتبٌ إلىٰ مخدومه، وقد تأخّر صرفُ معلُومه:

وتَعْلَمُ أنِّى كثِيرُ العيَال * قَلِيلُ الجِرايَةِ والواجِبِ!

فلَسْتُ علىٰ ظَمَإ قانِعًا * بوِرْدٍ من الوَشَلِ الناضِبِ!

ولا شَكَّ فى أنَّنِى هارِبٌ * [فـ]ـقَدِّر لنَفْسك فى كاتِبِ!

---

(١) الورق مثلثة وككتف وجبل الدراهم المضروبة اهـ من القاموس.

قلت : وكتبتُ نظما لأمير المؤمنين المستعينِ بالله أبي الفضل العبّاس : خليفة العَصْر، أسْتمِيحه حاجةً فى مجْلِس كان فيــه هو وولَدُه يحيىٰ وأخَواه داودُ و يعقوبُ ماصــــورته :

إذا رُمْتَ أن تَحْظىٰ بنَيْـــل مآرِبٍ * فبادِرْ إلىٰ العَبَّاس مِنْ آلِ عبَّاس!

إمامٌ به ثَغْــرُ الخِـــلافة باسِـــمٌ * وعِرْنِينُها يَسْمُو علىٰ قِمَّـــة الراسِ!

أَبىٰ الفضْـــلُ إلاّ أنْ يَكُونَ لِأَهْلِهِ * [دواما]وأنْ يُدْعىٰ أبا الفَضْل فى الناسِ!

فلْلمستَعِينِ ٱقْصِــدْ تَجِدْ خَيْرَ مُنْجِدٍ * حرِيصٍ علىٰ المَعْرُوف بَرًّا بإِيناسِ!

فيَحْيا له يَحْـــيىٰ وداوُدُ صِـــنْوُه * ويعقوبُ أعْضادًا وحصْنًا من البَاسِ!

⁂

وكتبت لقاضى القُضاة شيخِ الإسلام جلالِ الدِّين عبد الرحمن ٱبن شيخ الإسلامِ عُمر البُلْقِينِيّ أستميحُه حاجة أيضا :

أَيا شَيْخَ إسْـــلامٍ وقاضِى قُضاتِه * ومَنْ قد سَما فى الناسِ عِلْمًا ومَنْصِبا!

لقَـــدْ عَمَّ نَوْءٌ منكَ كلَّ مُؤمِّلٍ * وحاشىٰ لبَرْقٍ شِمْتُ يظْهَرُ خُلَّبا!

أَأُحْرَمُ معْرُوفًا له كُنْتُ أرْتَجِى * ويَحْجُبُ ذُو بُعْدٍ من القومِ أقْربَا!

وما زِلْتُ أرجُو فى زَمانِك رِفْعةً * ولٰكِنْ جَوادُ الحَظِّ بالبُعْدِ قدْ كَبَا!

ولَنْ يَسْتعِيضَ الخَفْضَ بالرَّفْعِ ماجِدٌ * خُصوصًا ومَنْ أَخَّرْتَ مانَالَ مَطْلَبا!

ولَسْتَ ترىٰ مِنِّى إلَيْكَ وَسِـيلةً * سِواكَ وحَسْبِى بِٱعْتِلاكَ تَقَرُّبَا!

***

وكتبت لقاضى القُضاة جمالِ الدين محمود القَيْسَرانى (١) ، وهو يومئذٍ قاضى قُضاة الحنفيــة وناظرُ الجُيوش المنصورة ، أذكُرُ بِطَالةً عرضَتْ لى من وظيفةِ مباشرةٍ كانتْ بيدى :

إلىٰ اللهِ أشْكُو مِنْ زَمانِى بَوَارَهُ * فأمسَيْتُ فى الحِرْمانِ بِى يُضْرَبُ المَثَلْ !

تمـادَيْتُ بَطَّالًا وأَعْوَزَتْ حِيــلةً * ولم يَبْرَحِ البَطَّالُ تُعْرَفُ له الحِيَــلْ !

فلا مُلْتَجىً جاهٍ ولا عِزُّ صـاحِبٍ * ولا مالِكٌ يَحْنُو فيـاقَوْمِ ما ٱلعَمَلْ ؟

ولٰكِنَّ (محمـودَ) العَواقِبِ أرْتَجِى * ومَنْ يَحْمَدُ العُقْبَىٰ علىٰ القَصْدِ قد حَصَلْ !

***

وكتبت للقاضى شمسِ الدين العُمَرِىّ كاتب الدَّسْت الشريف فى حاجةٍ نَجَّزها :

إن لَّا أرىٰ عُمَرًا حَتّىٰ أُلِـمَّ بِهِ * أَلْفَيْتُ من نَسْلِهِ مَنْ كانَ لِى عُمَرا .

لم يَغْفُ عَن حاجَتِى حتّىٰ أُنَبِّهَـــه * وكَيْفَ يَغْفُو وفى المَعْروفِ كَمْ سَهِرا ؟

جَعَلْتُه مبتَــدًا فى رَفْعِـــه خَبَرِى * وعادةُ المبتَــدَا أَنْ يَرْفَعَ الخَبَرا !

أجوبة ٱستماحة الحوائج

قال فى "مواد البيان" : لايخلُو المستماح والمكلَّف حاجةً من أن يُسْعِف أو يمنَعَ ، فإن أسعَفَ فقد غَنِيَ عن الجواب ، وربما أجاب المُسْعِفُ بجواب مبنىٍّ علىٰ حُسْن موْقِعِ ٱنبِساطِ المستميح ، والاعتذار عن التقصيرِ فى حَقّه وإن كان قد بلَغَ به فوق

(١) نسبة إلى قيسارية على غير قياس .

ما يجِبُ له ـ تكرُّما وتفضُّلا ، و إن منع فربَّما أجاب بعُذْرٍ فى الوقت الحاضِرِ أو عُذْرٍ فى المستأْنِفِ ، وربما أخَلَّ بالجواب تغافُلًا .

❖

وهــذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقصُود ، كُتِب بها فى جوابٍ لكاتبِ السِّرِّ عن نائب الشام ، فى طَلَبِ إقطاع ، من إنشاء الشيخ جمــالِ الدين بن نُباتةَ إجابةً للطلوب ، وهى :

لازال قلَمُها يَمُدُّ علىٰ الإسلامِ ظِلًّا ظَلِيلا ، ويستَجِدُّ صُنْعا جميلا ، و يأخُذُ بأمْرِ الله أعداءَ دِينِه أخْذًا وَبِيلا ، ويقومُ باجتهادِه فى مَصَالحِ المُلْك النَّهارَ كُلَّه والليلَ إلَّاقليلا ؛ تقبيــلَ مُواظِبٍ علىٰ ولاءٍ لا يجِدُ له تبْــدِيلا ، وثناءٍ لو سمِعَه المُحِبُّ فشَافَهَ الأحبابَ إذًا لاتَّخذُوه خَلِيلا .

ويُنهِى ورُودَ مشرِّفة مولانا القديم فضْلُها ، الكريم وصلُها وأصلها ؛ فوقف المملوكُ عليها ، وأصْغىٰ بجملتِه إليْها ؛ وعلِم مارَسَم به مولانا ، وأشار إليــه تِبْيانا ؛ وكذٰلك بلَّغه مملوكُه الولدُ فلان المشافهة الكريمة خَبَرًا من صاحب السِّرِّ إسرارا و إعلانا ؛ وشكر لها مشَرِّفةً ومشافهةً أوردا الإحسانَ مَثْنَى مَثْنىٰ ، وسِرًّا سمعه المملوكُ لفْظا وآستهداه مَعْنىٰ ؛ فمــا مِنْهما فى الإحسان إلَّا زائده ، ولا فى الصِّلات إلا عائِدَه ؛ لا جَرَمَ أنَّ المملوك أقبل علىٰ قَبِيلهما بسمْعِه وناظِره ، وقلْبِه وخاطِرِه ، وجُمْلتِه وسائِرِه ؛ وآمتثل الإشارةَ العاليةَ التى من حقِّها أن تُقدّمَ علىٰ كلِّ مهِمٍّ يرِدُ عليه ، وأمْرٍ يتوجَّه إليــه ، ويدُ الزمان مشكورةٌ يأخُذُها منه بكِلْتَا يديْه ؛ وعيَّن المملوكُ لوقته الإقطاعَ المطلُوب ، وتقدّم بكِتَابةِ مربَّعته حَسَب ما رَسَم مَنْ تجرِى السعادةُ مِنْ سَطْره تحتَ مكتُوب ؛ وجهَّزها قرينَ هــذه الخدمة ومَنْ ذا يُقارِنُ سبْقَ ذٰلك البِرِّ المــديد ، وكيف تُوازِى

المربَّعة كتابا هو بالإحسان للعُنُق تقْليد، لابرِحتْ مراسِمُ مولانا معدودةً من رُسُوم نِعَمه، ومشرِّفاتُه محسوبةً من تشريفاتِهِ التى يَخْلَعُها علىٰ أبناءِ محبِّيه وخَدَمِه .

النــــوع الثـانى عشر

(فى الشـــكر)

قال فى "موادّ البيان" : رقاعُ الشُّكر يجبُ أن تكونَ مُودَعةً من الاعتراف بأقْدار المَوَاهب، وكِفاية الاستقلال بحُقوق النعم، والاضْطِلاع بحملِ الأيادى ، والنُّهوض بأعباء الصنائع ، مايَشْحَذ الهِمَمَ فى الزيادة منها، ويُوثِّق المصطَنِع بإفاضة الصُّـنْع ؛ ويعربُ عن كريم سجيَّةِ المحسِنِ إليه .

قال : وينبغى للكاتب أن يفتَنَّ فيها، ويقرّب مَعَانيها، وينتحلَ لهـا من ألفاظ الشكر أنْوطَها بالقلوب : لتستيْقِنَ نفسُ المتفضِّل أنه قد اجتنىٰ ثمرةَ تفضُّله ، وحصل من الشكر علىٰ أضعافِ مابذَلَه من مالِه أوجاهِه، إلَّا أنَّه ينبغى أنها إذا كانتْ صادرةً من الأتباع إلىٰ رُؤسائهم ، ومَنْ يرجع إلىٰ اختصاصٍ وأُثْرة، أنْ لاتبنىٰ علىٰ الإغراق فى الشكر : لأن الإغراق فى الشكر يحمل هذه الطبقةَ علىٰ التملُّق الذى لايليقُ إلَّا بالأباعد الذين يقصِدُون الدِّلالةَ علىٰ استقلالهم بحقُوق ما أُسْدِىَ إليهم ؛ فأما من ضَفَا عليـه من النعم مايدْفَع الشكَّ فى اعترافه بالذّل لديه ، فإنه يَغْنىٰ عن المبـالغة فى الشكر والاعتداد ؛ ثم قال : وإنمـا يجب أن يذهبَ فيما يكتب عن هٰؤلاء من هذا الفنِّ مذْهَبَ الاختصار، والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعَانى الشكر، دون مَذْهَب الغُلُوِّ والإفْراط، وذُو الطبع السليم ، والفكر المستقِيم ؛ يكتفى بيسير التمثيل .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفرج الببغاء، فى شكر تابع لمتبوع :

أنا فى شُكْرِه ـ أيده الله ـ مُبَرْهِنٌ عن مَواقِـع إحسانِه إلىّ، وتظَاهُرِ إنعامه علَىّ، لامقـدّرٌ أنّى مع المبالغةِ والإسْهاب، والإطالةِ والإطْناب؛ أجازى عفْوَ تفضُّله، ولا أجامِلُ أيسَرَ تطوُّله؛ وقد وَسَمَنى أيده الله من شَرَف اصْطِناعه، بمـا بوّأنى به أرفَعَ منازِل خَدَمه وأتْباعه؛ وإلى اللهِ أرغبُ فى توفيقٍ من مقابلة ذلك بالاجتهـاد فى خِدْمته، والمبالغةِ فى طاعتِه ـ لِمَـا أكونُ به للمزيد مستوْجِبا، وللحُظْوة مستحِقّا .

وله فى شكر قريب :

فرْضُ الشكر ـ أعزّك الله ـ لايَسْقُط بقرب الأنساب، ولذلك لا أستجيزُ إغفالَ الواجبِ علَىّ منه، ولا أجدُ عُدُولا فى التسامح فيـه والإضرابِ عنـه، وإن كنتَ غنيًّا عن الإفاضة فيما أعتقدُه من ذلك وأُضْمِره، وأُبْدِيه وأُظْهِره؛ بالمتعَالَم من خُلُوص النيةِ وصحة الاعتقاد، فلا أخْلاكَ [الله] من جميلِ تُسْدِيه، وتفضُّل تُولِيه؛ يمترِى لك المزِيدَ من سوابِـغ النِّعم وفوائِدِ الشكر .

وله : قد استنفَد مادّةَ شُكْرِى، ووُسْعَ اعتِـدَادِى ونَشْرى؛ تتابعُ تفضُّـلِك، وتوالِى تَطوُّلِك؛ ولستُ أقـدِرُ على النُّهوض بشكرِ منّـةٍ حتّى تطرُقَنى منك مِنّـه، ولا أُحاوِل مجازاةَ نِعمَةٍ حتّى تَفِدَ علَىّ مِنـك نِعمه؛ فبأىّ عَوارِفك أعتَرِف، أم بأىّ أياديك بالثّناء أنتَصِف؛ فقـد فزِعتُ إلى الإقْرار بالعجْز عمّـا يلزَم من فُروضك، وواجباتِ حقُوقِك، وانصرفتُ إلى سُؤال الله جلّ اسمه بإيزاءِ شُكْرِ ماوهبَ منك، والتّجاوُز للمكارم والفضل عَنْك .

وله : وقد شكرتُ بِرَّكَ الجليلَ موقِعه ، اللطيفَ موْضِعه ، الخفيفَ مَحْمَلُه ، العَذْبَ مَنْهَلُه ، وشافهتُك من ذٰلك بما ٱتَّسعتْ له القُدْرةُ لا ما تقتضيه حقُوقُ المِنَّة .

وله : أنا فى الشكر بين نعمةٍ تُنْطقنِى ، وعَجْزٍ عما يجِبُ لك يُخْرِسُنى ؛ ولستُ أفْزَعُ إلىٰ غير تجاوُزِك ، ولا أعتمِدُ علىٰ غير مسامحَتِك ، ولا أتطاوَلُ إلا بمَكانِى منك ، ولا أُفاخِر إلا بمَوْقِعى من إيثارك ؛ فالحمدُ لله الذى جعلَنِى بوَلَائك مشهُورا ، وفى شكرك مقْصُورا .

على بن خلف :

رقعة : وينهِى أنَّ الله تعالىٰ لَمَّا ألْهَم مولانا البِرَّ ، ألهم المملوكَ الشُّكْر ؛ فهو لايَزَالُ يُوسِع فى البِرِّ ويَزِيد ، والمملوكُ لايَزَالُ يُبْدى فى الشكر ويُعِيد ، ولٰكِنْ شتَّانَ بين فاعلٍ وقائِل ، ومُعْطٍ وقابِل ، وواهبٍ وسائِل ، ورافِد وحامِد ، وشاكر وشاكِد ؛ وٱلمملوك يحمَدُ الله تعالىٰ إذ جعل يدَه الطُّولى ، وحظَّه الأعلىٰ .

رقعة : وصل بِرُّ مولانا وقد أحالت الخَلَّةُ من المملوك حالَه ، وأمالَتْ آمالَه ؛ فلأَمَتْ ماصَدَعه الدهرُ من مَرْوَته ، وجدّدَتْ ما أخلقه من فَرْوته ، فكفَّ المملوك يديه [عن] ٱمتحان الخُلَّان ، وقبضَ لسانَه عن شِكاية الزَّمان ؛ وأقَرَّ ماءَ وجْهِه فى قَرَارته ، وحفِظ علىٰ جاهِه لِباسَ وَجاهتِه ؛ فيالَهُ من بِرٍّ وقَع من الفَقْر ، مَوْقِعَ القَطْر من القَفْر ؛ ولم يتقدّمْه من قدامة الوَعْد ، ما يتقدّم القَطْرَ من جَهَامة الرَّعْد ؛ وكلُّ مَعْروفٍ وإن فاضتْ ينابِيعُه ، وطالتْ فُروعه ، قاصرٌ عن الأمل فى كرمه ، واقعٌ دُونَ غاياتِ هممه ؛ كما أنَّ الشكر ولو واكبَ النَّجْم ، وساكبَ السَّجْم ؛ قاصرٌ عن مكافاة تفضُّله ، ومُجازاة تطَوُّله ؛ والمملوكُ يسأل اللهَ تعالىٰ الذى جعله قُدْوةَ

الكرام، وحسنَةَ الأيَّام، ورَبَّ الإنعام، وواحدَ الأَنَام؛ أن يُلْهِم المملوكَ من حَمْده، بقدر ما أسبغه عليه من رِفْده .

رقعـــة شكر : عِنْـد المملوك لسـيِّدى أيادٍ وصلَتْ سابقـةٌ هَوَاديها ، وظلَّتْ لاحِقةً تَواليها ؛ فصارتْ صُـدورُها نسـبا أعتَزِى إليـه ، وأعجـازُها [سببًا أُعوِّل فى الملمَّـات عليه] .

رقعـــة : لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ جعل الشُّـكر ثمرةَ البِرّ، والحمـدَ جزاءَ الرِّفْد، وأراد إقرارَهُما علىٰ أهلِهما من الغابِرِين ، وأن يجعَـلَ لهم مِنَّا لسانَ صِـدْق فى الآخِرِين ؛ لـكان الذى غَمَر به موْلانا من الإنْعام ، يُحَـدّثُ عنـه تَحَدُّثَ الرِّياح بآثارِ الغَمَام ؛ ويُكْفىٰ المملوكُ بالإشاره، مَئُونةَ العباره؛ والمملوكُ وإنْ رام تأدِيةَ ما يلزَمُه من شُكره، قاصرٌ عن غاية بِرِّه؛ ولو ٱستَخْدَم ألسِـنةَ الأقلام ، وٱستغْرقَ أمَدِى النِّثار والنِّظام؛ وموْلانا جديرٌ بقَبُول اليَسِـير، الذى لا تُمكِنُ الزِّيادة عليه؛ والصَّفْحِ عن التقصِـير، الذى تَقُودُ الضرورةُ إليه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : لو أنَّ هذه العارِفةَ بِكْرُ عَوارِفه ، وباكُورةُ لطائِفه ؛ لعجَزْتُ عن شُكْرِها ، وقَصَّرت عن نَشْرِها ؛ فكيفَ وقد سـبَقَها قرائِنُ ونظائِر، وتقدّمَها أترابٌ وضَرائِر؛[ممـا]أثقَلَ من المملوك كاهلَه ،وبَسَط به يدَىْ أملِه ؛فما يَعْدَم شيْئًا فيُرَجِّيه، ولا يَفْقِده فيَرْغَب فيــه ؛ والذى تَرُبُّه من المملوك جوارِحُه، وتَحْوِيه جوانِحُه؛ علمُه بأنه لايُجارِى أياديه ، ولا يُجازى مَسَاعِيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يخصُّه من الفضائل ، بمثل ماتبَرَّع به من الفَواضل .

رقعــة : ومِثْلُ مَوْلانا من [ذوى الشَّرَف] (١) والسُّودَد من حَسُن مَحْضَره، وطاب مَخْبَره، وكُرم غيبُه ومَشْهده، وصحَّ علىٰ تغايُرِ الأحوال عَقْدُه ووُدُّه؛ وقد آتَّصل بالمملوك ماأعاره له مَوْلانا من أوْصافه، وجرىٰ فيه علىٰ عادةِ فضْله وإنصافِه؛ فطَفِق لفضله شاكرا، ولطَوْله ناشِرا؛ وأضاف ذٰلك إلىٰ تَوالِدِ إحسانه، ونَظْمِه فى عِقْد آمتِنانِه .

رقعــة : قد طَوّقَ مولانا [مملوكَهُ] من فضله طَوقا كأطواق الحمائِم لايُنْزَع ، وألبسه بُرْدا من بِرِّه لا يُخْلَع؛ وأولاه من مَزِيده ما قَصَّرت الهِمَّة عن تَمَنِّيه، ولم تهتدِ القريحةُ إليــه فتستَدْعِيه؛ ولو وجد المملوكُ جزاءً علىٰ عارفَتِه ، وكِفَــاءً لَمثُوبته ، غيرَ المُوالاة الصَّريحَه، وعَقْــدِ الضمائرعلىٰ المودّةِ الصحيحه ؛ واللَّهَج بالشُّـكر، فى السِّرِّ والجَهْر، لرمىٰ مِن وراء عنايتِه، ولا استَبْعَدَ طُولَ شُـقَّته ؛ ولكنِ المملوكُ عادمٌ لمـا يقابِلُ به يَدَه الغَرّاء ، عاجزٌ عمَّا يقضِى به حَقَّ مَوْهبتِه الزَّهْراء؛ مالم يُحْسن كرمُه أمْرَه، ويَقْبَلْ منه علىٰ التقصير شُكْرَه؛ ويُضِفْ ذٰلك إلىٰ لطائفه، وينْظِمه فى سلْك عَوَارفه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــة : وآجتهادُ المملوكِ فى نَشْر أياديه وشُـكْرِها ، كآجتهادِ مولانا فى كِتْمانها وسَتْرِها؛ فكُلَّما أبديتُها بالثَّناء أخْفاها، أو نشَرْتُها بالإشادة طَوَاها؛ وهيهاتَ أن يخفىٰ عُرْفٌ كعَرْف المِسْك نَشْرا ، ومَنٌّ كالروضة نَوْرا والغَزالة نُورا ؛ ولوكان المملوك والعياذُ بالله ستَرهــذا العُرْفَ بكُفْر ، وآغْتمصه مانعاً لشـكْر ؛ لنَمَّ عليه حسنهُ نُمُومَ الصَّباح ، وتَوَقَّد توقُّدَ المِصْباح ؛ فكيفَ وللمملوكِ مِقْوَل لايُسامىٰ [يُعجِم سَـوَادَ] (٢) الليالى بالإخْماد ، ويَرْقُم صَفَحاتِ النهار بالآعْتِداد .

---

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من المقام .

(٢) فى الاصول « ولا يسامى الليالى » الخ وزدنا مايقتضيه المقام ويتم الكلام تأمل .

الأجوبة عن رقاع الشـــكر

قال فى "موادّ البيان" : [ان كانَتْ] هـذه الرِّقاع من المرءُوسين إلىٰ الرُّؤساء فلا جوابَ لهـا . و إن كانتْ من النَّظير فالواجبُ أن يُسْتعمل فى أجو بتها مندُوبُ التناصُف والتفاوض .

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين :

من ذٰلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الصدر :

خَلَّد اللهُ علىٰ الممالك نِعَمَه ، وعلىٰ المـاليك دِيَمَه ، وحَرَّم ببقائه ذَمَّ الزمان وأوجَبَ ذممـه ، ولا بَرِح نحوُ المحامد يُنـادِى يومَ الكَرم مُفْرَده ويومَ الهِيَـاج عَلَمه . تقبيلا يسحَبُ فى الفَخَار بُرودَه المُعْلَمه ، و يتذكَّر بالقرب فلايزال الشوقُ يُنْتِجه حيثُ كَلا التَّذْكارِ والعهد مُقَدِّمه .

و ينهِى ورُودَ المثال العالى بمـا مَلأَ القلبَ خيْرا واليَدَ بِرّا ، والسمْعَ بِشارةً والوجهَ بِشْرا ، حتّٰى تَنافسَتِ الأعضاءُ علىٰ تقْبِيله ، والجَوَارِحُ علىٰ تأميله ؛ فاليَـدُ تسابق إلىٰ مِنَنه بالٱمتِدَاد ، والقلبُ يسابِقُ إلىٰ كَرَم عَهْده بالٱعْتِداد؛ والوجهُ يقلِّب ناظِرَه فى سماء مَوَاقِع القَلَم ، والسمعُ يَنْعَم بمـا تقُصُّ عليه المَسارُّ من أخْبار جِيرة العَلَم ؛ حتّٰى كاد المملوكُ يمحُو بالتقبيـل أسْطُرَه ، و يشْتَغِلُ بذٰلك عن ٱستجلاءِ ماذكره المُنْعِم لاعدِم المملوكَ فى مصر والشام تكَرُّره ؛ وفهِم ما أشار مولانا إليه من الفضـلِ الذى مولانا أهْلُهُ ، وكرمِ العهد الذى لا يُنكَرُ من مثلِه وأين مِثْلُه؛ وقابل المملوكُ جميعَ ذٰلك بجَهْده من الأدْعِيَـة الصالحِه ، وبسَماحةِ الحمدِ المُتفاوِحه ؛ والٱعتـدادِ بنعمة مولانا الّتى لولا [مُوالاتُها](١) كلَّ وقتٍ لقيلَ فيهـا «ما أشبَهَ الليـلةَ بالبارِحه» وتَضاعفَ

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقـام .

نُهوضَ المملوك علىٰ قَدَم المُوالاة التى [يستشْهِد] فى دَعْواها بشَهادة الخاطر الشريف ، ويتقدَّم بها تقدُّما تحتَ لواء الولاءِ وتأتِى بقيَّة الأولياء فى اللّفيف ، والله تعالىٰ يُوزِع المملوكَ شُكرَ هذه النِّعَم المتصلِ مددُها ، والمِنَنِ التى لا يعْدَمُها ولا يعُدُّها، ويطيلُ بقاء مولانا لحمدٍ يجْتليه ويجتَنيه ، وشرفِ دنيا وأخرىٰ يهدِمُ وَفْره وعُمْره ويبتَنِيه .

النــــوع الثـالث عشر
(العِتَـــاب)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبـةُ بالمعاتَبة علىٰ التحوُّل عن المودّة والآستخفاف بحقُوق الخُلّة من المكاتبـات التى يجبُ أن تُستوفىٰ شروطُهَا، وتكمَّل أقسامُها : لأن ترخيصَ الصَّـدِيق لصَدِيقه فى المقـاطَعَة والمُصارَمة دالٌّ علىٰ ضَعْف الآعتِقـاد ، وآستحالة الوِدَاد .

من كلام المتقدّمين :

إنِّى ما أحدثتُ نَبْوه، إلَّا بعد أن أحدَثْتَ جَفْوه، ولا أبديتُ هَجْرا، إلَّا بعدَ أن أبديْتَ غَدْرا، ولا لَوَيْتُ وَجْها عن الصِّلة، إلَّا بعـد أن ثَنَيْت عِطْفا إلىٰ القَطِيعة، والأوّلُ مِنّا جان، والثانى حانٍ، والمتقدِّمُ مُؤْثِر، والمتأخِّرمُضْطَّر، وكم بين فعل المختارِ والمُكْرَه، والمبتَدِع والمتَّبِـع .

آخـــر : إنْ أمسَكْتُ ياسـيدى عن عِتَابِك ، مُرْخيا من عِنَانك ، كنتُ بين قَطْع لحَبْلك ، ورِضًا بفِعْلك ، أوآقتصرتُ فيــه علىٰ التَّلْويح به لم يُغْنِ ذاكَ مع كثْرة جُمُوحك، وشدّة جُنُوحك، وما آرتكبْته من رائك، وآستخرجْتَه من جفَائك .

رقعـــة عتاب : لمولانا لدىٰ المملوك عَوارِفُ لا يهتدى إلىٰ معرفتها فيوفِّيها كُنْـهَ المُراد، وأيادٍ لا يبْلُغ ماتستحقُّه من الإحماد ؛ ولو عَضَّدتْه خُطباءُ إياد ، أجلُّها فى نَفْســه خَطَرا ، وأحسَنُها عليــه أثَرا ؛ ما يَفْرِضُــه له من بِرّه و إكْرامه ، وتعهُّــدِه وآهتمامِه ؛ وقد غيَّر مولانا عادَتَه ، ونقَضَ شِيمَتَــه ؛ وبَدَّل المـــلوكَ من الْآنعطاف بالإعراض ، ومن الآنْبِساط بالآنقباض ؛ وحَمَّــله من ذٰلك ما أوْهىٰ قُوىٰ صَبْره ، وأظلَم بصائِرَ فِكْره ؛ فإنْ يَكُنْ ذٰلك لخطَإٍ واقَعَــه المملوكُ ساهِيًا ، وجُرْم آجتَرَمه لاهِيًا ؛ فمِثْـلُ مولانا لايُطالِب إلَّا بالقَصْد ، ولا يُعاقِب إلَّا علىٰ العَمْد ؛ إذ كانــ المملوكُ لا يُعْصَم من زَلَلَ ، ولا يَسْـلَم من خَلَلَ ؛ اللّهمَّ إلا أن يكونَ مولانا أرادَ من المملوك تَقْويمَه وتأديبَــه ، وإصلاحَه وتهذيبَه : ليُحْسِنَ أثَرَه فى خِدْمته ، ويَسْلُكَ السبيلَ الواضِحَ فى تِبَاعته ، فلا أعدَمَ اللهُ المملوكَ تثقيفَه ، ولاسلَبَه تبْصيره وتعْريفَه ؛ وإنْ كان ذٰلك لشَكٍّ عَرَضَ من المملوك فى وِدَاده(١) ، وآرتيابٍ خامَرَ فى حُسْن آعتقاده ؛ فأُعيذُه بالله من القَطْع بالشُّبُهات ، والعمــلِ بمُنْغِلِ(٢) السِّعايات ؛ ومولانا خليقٌ بأن يُطْلِـع من أُنْس المملوك ماغَرَب ، ويُنْبِط من سُروره مانَضَب ؛ ويُعيــدَه لِرِضاه ، ويُجْرِيَه علىٰ ما أحمدُه منه وأرْضاه .

رقعـــة : ليس المملوكُ يَرْفَع مَوْلانا فى إعراضه ، إلَّا إلىٰ فَضْله ، ولا يُحاكِمُه علىٰ آنْقباضه ، إلَّا إلىٰ عَدْله ، ولا يَستعينُ عليــه إلَّا بمــا يستَمْليه من آدابِه ، ولا يناظِرُه إلا بمــا أخذه عنه من مُحافظتِه وإيجابِه ؛ إذ كان المملوكُ مُذْ وصلَتْه السعادةُ بحباله ، ناسِجًــا علىٰ مِنْواله ؛ متقبِّلا شرائفَ خِلَاله . وما عهِــدْتُه عَمَر اللهُ مَعَاهِدَه ، وكبَتَ

---

(١) لعـــله للولىٰ .

(٢) يقال أنغلهم حديثا سمعه ثم إليهم به أنظر اللسان ج ١٤ ص ١٩٤ .

حاسـدَه ؛ يغضَبُ تقليدًا قبـل الاِختبار، ويُحْوج البرِىءَ إلىٰ موْقِف الاِعتذار ؛ ولا سِيَّـا إذا كان المظنُونُ به عالِمًـا بشرُوط الكرم ، عارفًا بمواقِـع النِّعم ؛ لايَنْسَخ الشكرَ، بالكُفْر، ولا يتعوَّضُ عن الحَمْد، بالجَحْد، وقد عرف مولانا ثناءَ المملوك علىٰ تَفضاله ، ووقف علىٰ بَلائه لأعمـاله ؛ وهو وفىٌّ برَبِّ عوارِفه وصنائِعه ، وتثمير مارَهَن لدَيْه من وَدائعه ؛ وتنزيهِ سمْعِه عن الإصغاءِ إلىٰ مايختلِقُه حاسِـد ، ويصُوغُه كائد ؛ وقد حكَّم المملوكُ علىٰ نفسه نَقْـدَه الذى لايُبَهْرَجُ عليـه ولا يدلَّس ، وكَشْفَه الذى لايُغَطَّى عليـه ولا يُلبَّس ؛ فليَحُكَّ أفعـالَ المملوك علىٰ مَحَكِّ بصـيرتِه ، وليُجِلْ فى تأمُّل مقاصِده طَرْفَ فكْرته ؛ فإنه ممن لاتُحِيلُه الأحوال ولا تُحَوِّله ، ولا تُغيِّره الغِيَرُ ولا تُبدِّله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : أفعالُ شكر[١] المملوكِ فى الحِلْم والغَضَب، والرِّضا والسَّخَط ، إذا لم يقْتض الحزمُ إيقاعهـا مَوْقِع الفضل ، واقعـةٌ موْقِعَ الإنصاف والعـدْل ؛ ولا يُغَلِّبُ هواه علىٰ رَأْيه ، ولا بادرتَه علىٰ أناته ؛ وقد جانَبَ مع المملوك عادتَه ، وبايَنَ فيـه شِيمتَه ؛ ونالَهُ من إعْراضه ، وجَفَائِه وٱنقْباضه ، وتغيُّر رأْيه ، ما وَسَمَ المملوكَ فيـه بالذَّنْب ولم يُذْنِبه ، وحمله علىٰ الجُرْم ولم يَحْتَقِبْه ؛ وأوقفه لدَيْه مَوْقِفَ الاِعتذار ، وأحْوَجه إلىٰ الاِستقالةِ والاِستغفار ؛ وليس المملوكُ يُحاكِمُه إلَّا إليه ، ولا يُعوِّل فى الاِنتصاف إلَّا عليـه ؛ وما أوْلاه بأن يُعيد المملوكَ إلىٰ محلِّه من رضاه ، فإنه لم يُواقِعْ فى خدْمته إلا مايَرْضاه ؛ وحسـبُه شاهدًا بذٰلك مايعلَمُ من المملوك من سَـلَامةِ غَيْبه ، وطهارةِ جَيْبه ، وفَضْل وُدِّه ، وصحَّة معتَقدِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) كذا فى غير أصل ولعله "أفعال شيَم المولىٰ" ليستقيم الكلام بعد .

رقعـــة بمعاتبةٍ على[(١)] :

كُلُّ مانعٍ مالَدَيْه مَنْ رَغِبه ، دافعٍ عمَّا عنده مَنْ طَلَبه ؛ فمستغنًى عنه إلَّا الله تعالىٰ المُبتـدِئ بالنِّعم، العوَّادُ بالكَرم ؛ ولو عَرَف مَوْلانا بطَعْم شجرةِ[(٢)] المعْرُوف، لأسرَعَ إلىٰ ٱحتِـذائِها، ولو علم مالله تعالىٰ عليـه من الحُقُوق فى مالِه وجاهِه، لم يُقَصِّر عن أدائِها ؛ غيرَ أنه ظَنَّ أنَّ الفوز بالوُجْد، غايةُ المَجْـد، وأنه إذا أحْمَدَ النَّسَبَ غنِيٌّ عن الحَمْـد ؛ وأنَّ النعمةَ تُرتَبَطُ بالرَّبْط علَيْها، وتَنْصرِف بالتَّصرُّف فيها ؛ وما ساء المملوكَ أن تنَزَّه عن تقلُّد مِنَّـة لئيم ، وحُرِم مَحْمَدَةً من كريم ؛ وهـذا الحِرمانُ أحسَنُ واللهِ فى عين المملُوك من النَّوال، وهذا الإكْداءُ أبَرُّلديْه من بُلُوغ الآمَال؛ وسينْشُر المملوكُ مَذْهَبه فى كلِّ نادٍ، ويكُفُّ عنه أمانِيَّ القُصَّاد؛ ويكفيه مَئُونةَ الاعتذار، ويصُونُه عن أن تُبْذَل إليه وُجُوهُ الأحْرار : ليعلَمَ أنَّ المملوكَ علىٰ مَنْعه لم يُقَصِّر فى بُلُوغ أوْطارِه، والسَّعيِ فى إيثارِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة فى المعنىٰ : ماردّ المملوكُ بِرَّمولانا مستَنْزِرا لقليلِه ، ولا لائِمًـا لنفْسه علىٰ تأميـله ؛ لٰكنَّه ٱنتجعه ٱنتِجاعَ من ظَنَّه عارفًا بقَدْره، راغبًـا فى شُكْره ؛ فلو أغضىٰ المملوكُ منـه علىٰ الاطِّراح لأمْرِه، لٱستدلَّ منـه علىٰ قِصر الهِمَّة ، وظَنَّ أنه قَوَّمه بدُونِ القِيمة ؛ لا سيَّما وهو يَفْرِض لمن لا يُجارِى المملوكَ فى مِضْمار ، ولا يُساوِيه فى مِقْدار؛ من غير قَصْدٍ بتأميلٍ ورَجَاء، وتقديم ذريعةٍ من تَقْريظ وثَنَاء، ماتضيق عنه الهِمَمُ الفِسَاح، ولا يَصِل إليه الاقتِراح .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله « على منع عطاء » .

(٢) لعله « ثمرة المعروف ... ... الى اجتنائها » تأمل .

رقعةُ عِتاب، علىٰ تقصير فى خطاب :

حُوشِىَ مولاىَ أن يجُرَّ الذَّيْلَ علىٰ آثارِ فَضْـلِه ، ويُمِيتَ من غُرُوس إحسانه ماهو جديرٌ أن يَتعهَّده بوَبْله ؛ ويُعَفِّىَ مِنِّى رُسُومَ كَرَمه، ويَصْدَعَ بمجانبة الإنْصاف صَفاةَ صِفاته وصفَائه، ويُنْطِقَ الألْسُنَ بعتابه؛ ويُصْلِتَ سيفَ التأنِيبِ من قِرابه؛ بمـا آستحسَنَه من مستقْبَح المُصارمَة فى المخاطبه، وآستوْطاه من جامح التَّرْبِيث فى المُكاتَبه ؛ ولا سِيَّما وهو يعـلَمُ أنَّ موْقِع الإكرام من الكِرام، ألطفُ من مَوْقع الإنْعام ؛ وأن مَحَلَّ القال، أفضلُ من محلِّ النَّوال، وأن تغيُّر العادة فى البِرّ، مُقَوِّض لمَعَاهِد الشُّكْر، وسبيح (؟) السنة فى الإنْصاف، قاضٍ بالآنْصراف بعد الآنْعطاف، وقد كان المملوكُ أزمَعَ أن يتحَمَّل تقصــيرَه به ، وأن يفُــلَّ من غَرْبه ، غير مطاوِعٍ للحميَّه ، ولا مُنْقادٍ لنفس العَصبية، ولا يَقْرَعَ سَمْعــه بعِتَاب ، ولا يُورِدَ عليه مُمِضَّ خِطاب ؛ ثم رأىٰ المملوكُ أن يُرْشِــدَه إلىٰ الأَزْيَن ، ويبعَثَــه علىٰ آعتمادِ الأحْسَن ؛ ويَحُضَّه علىٰ مُرَاجعةِ الأفضل، ومُعاودة الأجْمَــل : ليتحَفَّظ مع سِواه، ولا يَجْرِىَ مَجْراه ؛ فليس كلُّ أحدٍ يتحَمَّله، ويرضىٰ رِضَا المملوكِ بمـا يفْعَلُه ؛ فمولانا حبَّب اللهُ إليه الرَّشَد، ووفَّقه إلىٰ المَنْهَج الأسَدّ؛ هل هو من شيءٍ سوىٰ بَشَر ؛ فمـا هذا التِّيهُ والبَطَر ؟ ولِمَ هــذا الأزْلُ والأَشَر ؟ وما فِعــل الرئيس إلى مايصْغُر عنــه قَدر ؛ ولا ييْأَس من نَيْله عمر؛ ولا مضَتْ أقلامُك فى الأقاليم ، ولا أُشِــيرَ إليك ببَنَــان التعظيم ؛ ولا فُوِّضتْ إليك الوزارةُ والرِّدافَهْ ، ولا تأمَّرْتَ علىٰ الـكافَه؛ ولا طاوَلْتَ الأكفاءَ فطُلْت، ولا ناضَلْت القُرناءَ فنضَلْت؛ وإنمـا سَرَق إليك الحظُّ من ثِمَـاده وَشَـلا مُصَرَّدا ، وأدرَّ لك الدَّهْرُ من أخلافه مُجَدَّدا، فافتتحتَ المعامَلَة بظُـلْم الإخْوان، ونَسْخ شرائِــع الإحْسان؛ كذَبتْكَ نفْسُك، وغَرَّكَ حَدْسُك؛ كيف بك غدًا إذا آســتَرَدَّ الزمَنُ ماخَوَّلَك ، وآســترجَعَ مانوَّلَك ؛ وصَحَوْتَ بالعزْل من سَــكْرة

الوِلَايه، وتقرقرت بعـد طَلَب الغايه (١) ؛ وعُدْتَ إلىٰ إخوانك فوجدْتَ أوطانَ أُنْسِهم بك نابِيَه، ونُفُوسَهم للإقبال عليك آبِيَه ؛ ولو كان الزمنُ أمكَنَك من رَقَبتى، وطرّق لك الطريقَ إلىٰ إيداع عُرْفك فى جِهَتى ؛ لقَبُح بك أن تَطُول بطَوْلك، وتدَّعى الفضلَ بفَضْلك، ولم يحسُنْ أن تُبَـدِّل الإنعام، وتَضِنَّ بالآلتزام ؛ فإن كنت تفْخَر بسَلَفك وأبُوَّتك، وتُطاوِلُ بأوَّلِيَّتك وأُسْرتك ؛ فلو كان أبوك كِسْرىٰ، لمـا جبرَ منك كَسْرا، ولو كان جَدُّك بُخْتَ نَصَّر، لمـا آنتفعت به فى مُظـاهَرة ولا نَصَّر، فدَعْ أكثَرَ مافات، ولا تُعَوِّلْ علىٰ العِظَام الرُّفَات ؛ فمـا آستنَدَ إليها إلَّا عارٍ من الفضـل عاطِلٍ من الحِلىٰ . علىٰ أنَّك لو فاخَرتَنا بها لفخَرْناك، وتقدَّمْنا وأخَّرْناك ؛ وإن كنتَ تستَنِد إلىٰ ديانَتِـك، وتعتمِدُ علىٰ نُسُكك وأمانَتِك ؛ فهـذه خالصُ حالٍ لا تخْلُص مرتَبتُهـا ولا تتِمُّ فضيـلتُها إلا بآستِشْعار التَّواضُـع، والأخْذِ بمكارم الأخلاق لدىٰ التنازُع ؛ فارْجِعْ هِذْيَتَك (٢) إلىٰ الأجَلّ، وآعمَلْ بالأفضَـل، وقِفْ بحيثُ رُتْبَتِك ؛ ولا تتشـوَّفْ إلىٰ غير دَرَجَتِـك ؛ وإن أبيتَ ذاكَ فأقطَع المراسَـلَه، وأعْفِهـا من المواصَله، والسلام .

رقعة عتاب علىٰ تأخر المكاتبة :

من حُكْم الوِدَاد ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ـ الزيارةُ عند المُقَاربة، والمكاتبةُ عند المُبَاعدة ؛ وإن كانت المودّةُ الصريحةُ لايُغيِّرها آجْتِناب، إلا أنَّ الكُتُبَ ألسُنُ البِعَاد، والأعيُنُ التى تنظُر حقائِقَ الوِدَاد، ولها فى القُلُوب تأْثير، وموقِعُها فيها أَثِير ؛ وحُوشِىَ مولانا أن أَهُزَّ أرْيَحِيَّته لمـا يؤَكِّد الثقةَ بإخائه، ويشْهَد بوفَائه ؛ ولا سِيَّما وهو يَفْرِضُ ذٰلك لأحِبَّته، وقولُه واجبٌ فى شرع موَدّته .

(١) لعـــله «وتقهقرت» .   (٢) فى الأصل «عديتك» .

رقعـــة فى معنـاه :

إنِ ٱبتـدأ المملوكُ مولانا لم يُجِب ، وإنْ سأله الٱبتـداءَ لم يوجِب ؛ فلا حَقّ الإجابة تُؤَدِّيه ، ولا ناجِزَ المسـألة تَقْضـيه ؛ فإنْ كان إذا شَخَص غابَتْ عن فِكْره أشخاصُ أحبّتِه ، وإذا بَعُد عاملَهُم بتجافِيه وجَفْوتِه ؛ فقد كان ينبغى أن يتكَلَّف ويتجمَّل ، ويتصَنَّع ويتعَمَّل : فإنه لو علَّل مشوبا بالٱنتظار ، أوٱعتـذر ممرِّضًا بالٱعتذار ؛ لأقمتُ ذٰلك مُقامَ المُكاتبه ، وصُنْته عن مَحْض المُعَاتبه ؛ لٰكنَّه مال مع المَلَال ، ورِضِىَ الٱطِّراحَ والإهمـال ؛ ودلَّ علىٰ أنه مستقِلٌّ بالإخوان ، متنَقِّلٌ مع الزمان ؛ وأرجو أن تَصْدُقَ المَخيله ، ويَرْجِعَ إلىٰ العادةِ الجميله .

رقعة معاتبةِ رجل كريمِ الأصل لئيمِ الفعل :

قد عَرَف مولانا وَفَّقه الله ووقفَه علىٰ مَنْهج الرَّشاد ، أنَّ جنايةَ الغضَب الذَّميم ، تقْـدَح فى كَرَم الِجنْثِ[1] الكريم ؛ وأنَّ قَبيحَ الصَّلَف ، ينْسَخ تَليـدَ الشَّرَف ، وخبيثَ الذُّرِّيه ، يُعَفِّى علىٰ طِيبِ المَناحِتِ الزَّكيَّـه ؛ وأنه ليس لمن تحَلَّىٰ بالظُّـلم والجَوْر ، وتلَبَّس بالنَّـكْث والغَـدْر ، وسامح نفْسَه باطِّراح الحُقُوق ، وٱستِيطاء العُقُوق ؛ إلَّا إضاعةُ الحُرَم ، وإخْفارُ الذِّمم .

المعاتبة من كلام المتأخريـــن :

الشيخُ شِهاب الدين محمود الحلبى :

يُقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى أنه قد صار يَرىٰ قُرْبَه ٱزْوِرَارا ، وطويلَ سَلامه ٱخْتِصارا ؛ ويُغالِطُ فى ذٰلك حتّٰى شاهده عِيـانًا مِرَارا ؛ هـذا وبِكْر الوَلَاء ، صَقيلةُ الِجلْباب ،

(١) جنث الانسان أصله . ووقع فى الأصل "الحديث" وهو تصحيف .

وعَروسُ الثناء، جميلةُ البِزّة حسنَةُ الشَّباب، وهو لايفتأ من المُوالاة فى صَعَد وقَدْره فى صَبَب؛ فكُلَّما مَكَّن وَتَدَ الاستعْطاف يرجُو عدَمَ تخلْخُله فُصل بأيْسَرِ سَبَب؛ بحيثُ أطفأ الإهمالُ نارَ المُساعَفَة والمُساعَدَه، وانتقل تَوهُّمُ عدمِ العِناية إلى تيَقُّن وُجودِه بالمشاهَدَه؛ وقد كان يُرْفَع قدرُه نُخفِض، وعُوِّض فى الحال عن الرَّفْع بالابتداء، أنه مُفْرَد ويُنْصَب كالنكِرَة فى النِّداء، وأُهْمِل حتّى صار كالحُروف لا تُسْنَد ولا يُسْنَد إليها، وأُلْغِيَ حتّى شابَهَ ظننْتُ إذا وقعتْ متأخِّرةً عن مفعُولَيْها؛ ومتى يَقْلَقْ لأمر، أنشد نفسه * ما فِى وُقُوفِكَ ساعةً من باسِ *

وكان يَغْشىٰ مجْلِسَه الكريمَ خِدمةً وأداءً للواجب، وطلبًا لعادةٍ أكَّدها إحسانُه حتّى صارتْ ضربَةَ لازِب؛ فلا يخلُو مجلِسٌ من إظهار تغيُّرِ عادةٍ وَطَّد الجُودُ أساسَها، وانتقاضِ قاعدةٍ أبْرَم الكَرَمُ أمْرَاسَها؛ فينقَطِع سُلوكًا للأدَب وتخفِيفًا عن الخَواطِر، ويتلقّى مايصْدُرُ بقلبٍ شاكٍ ولسانٍ شاكِر؛ فإنْ كان قد عَزَم مولاه علىٰ طَرْده، وعوَّضه عن مِنْحة القُرْب المِحنَةَ ببُعْدِه؛ فإنه يأبىٰ ذٰلك جُودُه ولُطْفُه، ومعرفه يشْكُر ويزيدُ لا يمكِنُ صَرْفُه؛ ولو جاز الصَّرفُ لمجرّد (١) بالعُبُودية لمَنَعَه العَذْلُ من سيِّده، والحِلمُ الذى عُرِفَ من كريم مَحْتِده؛ فكان المُلوكُ يستحْسَن فى حِبْرِه وسِبْرِه، ويعَوَّضُ عن مقابلته بجَبْره؛ فقد صار سمينُه غَثًّا وشحمُه ورَمًا، وحديثُه رَثًّا وسهله عَلَما:

وعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عيْبٍ كَليلةٌ * كما أنَّ عيْنَ السُّخْط تُبْدِى المَساوِيَا

وما ثَمَّ بحمد الله مايُوجِب ذٰلك ولا بعْضَه، ولا يُحْدِثُ ذَمَّ المملوك وبُغْضَه؛ ولو بَدَا منه زَلَل، أو لَمَح منه خَطَل؛ فمكارمُ مولانا أوسَعُ من إبقاء ذٰلك فى صُدُور الصُّدور، و[أحرىٰ بـ]ـمَحْوِ آياتِ السيِّئات فإنه لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور.

---

(١) بياض بالأصل ولعله « لمجرد الشك بالعبودية ».

⁂

وله : يخدُم بدُعائه، وصادِقِ وَلَائِه؛ ويُنْهِى أنه آنكسر خاطِرُه، وأرق جَفْنَه وناظِرُه؛ وتضاعف بَلْبالُه، وتزايدَتْ فى النَّقْص أحوالُه؛ منذ تأخَّرت الأمثِلةُ الكِرام، وآنقطعَتْ عنه بانقطاعها المِنَنُ الجِسام؛ وهو يسأل العفْوَ عن ذَنْبٍ وَقَع، وتشريفَه بمثال يَرْفَع من قَدْره ما وَضَع؛ وآستعمالَ الصَّفْح عنه كسائر عاداتِه، وإجراءَه علىٰ اللُّطْف الذى ألِفَه من تفضُّلاته؛ فقد ضَعُف صبرُ المملوك وجَنانُه، وتفرّق للفِراق جَفْنُه وإنسانُه؛ وصَغُر قدْرُه، وأُهْمِل جانبُه وممَّن أمَرَ بإهانته نَخْره، ولهذا ضاقَتْ عليه المَسَالك، وكان لسانُ حاله [ينشد] فى ذلك :

وأهَنْتَنِى فأهَنْتُ نَفْسِىَ عامِدًا * ما مَنْ يَهُونُ عَلَيْـكَ مِمَّنْ يُكْرَمُ!

والمملوك معترِفٌ بأنه مازال يجهَلُ مايجب عليه من الخِدَم، ومُقِرّ بتقصيره عن القيام بحَمْل مايُواصَلُ به من النِّعم؛ لٰكنّه ألِفَ من مولانا أن يقابِل إساءَتَهُ بالإحسان، وجَهْلَه بصَفْح لايقُومُ بشُكره اللِّسان، بل جميعُ الجُثْمان؛ فإن كان ذَنْب من المملوك هو الذى أوجَبَ آطِّراحَه، وأوجدَ أسَفَه وأذهب أفْراحَه؛ وكان أيْسَر مما تقدّمه من جَهْله وإساءتِه، فحِلْمُك جديرٌ أن يُلْحِقَه بإخوته؛ وإنْ كان قد تزايدَ مِقْدارُه، فالمولىٰ قد تضاعَفَ علىٰ العَفْو آقتِدارُه؛ وإذا كَبِرت الخطيئةُ كَثُرَ أجرُ غُفْرانها، وَعلَتِ المجاوزَةُ عنها علىٰ أقْرانها؛ وعلىٰ كلَا الأمرين فقد آستحَقَّ المملوكُ المَغْفِرة بكلّ طريق، وأنْ يُقابَل رجاؤه بالتحقيق، وأملُه بالتصديق .

⁂

وله : ويُنْهِى أنه ما زالَ يتْلُو آياتِ محاسِنِه وحمْده، ويرفَعُ راياتِ إحسانه ومجْده؛ ويتولّاه ولا يتولّى عن محبّته، ويُكْثِر الثناءَ علىٰ ألْمِعِىِّ فِطْنته وجَزِيل

مُرُوءته ؛ وقد صار يُشَاهد من المولىٰ مَلَالًا وصُدُودا ، وإعراضًا يَغيظ به صـديقًا ويَسُرُّ به حَسُودا ؛ وٱطِّراحا أوْهمه أنه ألِفُ وَصْلٍ دُرِجتْ ، أو لفظةُ هُجْرٍ لُفِظت ؛ ولا يعْرِف له ذَنْبا يُوجِب إبْعـاده ، ولا جُرْما يستوجِبُ به أن ينقضَ حبلَ وَصْـله ويرْفُض وِدَادَه ؛ ولا يعلَمُ سببا يُوجِب سَبَّه ، ولا شَيْئا يُحْدِث عَتْبه ؛ مع أنَّ المملوكَ أحقُّ أن يَبْدأَ بالإعْراض ، ويَرْفُلَ من إغفال مَوَدّته فى الثَّوب الفَضْفاض ؛ فإنَّ المولىٰ آلَمَـه بالقَوْل مِرارا ، وجعل سَحابةَ حَيْفه تَهْمِى عليـه مِدْرارا ؛ وهو يحتمل الأَذىٰ ، ويُغْضِى علىٰ القَـذىٰ ؛ ولا يُظْهِر إلا محبَّـة ، ولا يُبْطِن له إلا مَوَدّة ؛ فإن شاهد المولىٰ بعد إعراضِه إعراضا فليَلُمْ نَفْسَه ، أو أحْرقه لَهَبُ نار الجَفَاء فلا يشكُو مَسَّه ؛ يُحِيط بذٰلك علما ، ورأيه العالى .

شـــعر فى العِتاب :

مَوْلاىَ قَدْ طالَ التَّبـاعُدُ بَيْنَنا * أَوَما سَئِمتَ قَطِيعَتِى ومَـلَالِى!
إنْ لَمْ تَرِقَّ لِحَالَتِى ياهَاجِرِى * مَوْلاى قُلْ لِى مَنْ يَرِقُّ لِحَالِى!

غـــيره :

يُباعِدُنِى عَنْ قُرْبِهِ ولِقَائِهِ * فلَمَّا أذابَ الجِسْمَ مِنِّى تعطَّفَا

غـــيره :

إنْ كانَ هِجْرانُنَا يَطِيبُ لَكُمْ * فلَيْسَ للوَصْل عِنْدَنَا ثَمَنُ

غـــيره :

شَمَّتَّ بِى الأَعْداءَ حينَ هَجَرْتَنِى * والمَوْتُ دُونَ شَمَاتَةِ الأَعْداء!

غـــيره :

تَنـامُ عَيْناكَ وتَشْـكُو الهَوىٰ * لَوْ كُنْتَ صَبًّا لم تَكُنْ نائِمَـا!

ولبعضهم : سيدى بادَأنِى[(١)] بلُطْفٍ من غير خِبْرة، وأعقَبنِي جَفاءً من غير ذَنْب؛ فأطْمَعَنِي أوّلُه فى إخائه، وآيَسَنِي آخِرُه من وَفائه ؛ فسُبْحانَ من لو شاءَ لكَشَف بإيضاحِ المُبْهَم عن عَزِيمةِ الرأْى فيه؛ والمملوك يقول :

عَجِبْتُ لقَلْبِكَ كَيْفَ ٱنقَلَبْ * وصَفْوِ وِدَادِكَ أَنّىٰ ذَهَبْ
وأَعْجَبُ مِنْ ذَا وذَا أَنَّنِي * أراكَ بعَيْنِ الرِّضَا فى الغَضَبْ

أجوبة رقاع العِتاب

قال فى "موادّ البيان" : حكم أجوبةِ هذه الرِّقاع حكْمُ رِقاع أجوبةِ الاعتذار إلّا أنها لا تخلُو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار علىٰ العِتَاب . قال : ويجبُ أن يسْلُك فيها المجيبُ مذْهَبَ المجيبِ عن رقاع الاعتذار .

زهر الآداب :

فى جواب العَتْب علىٰ تأخُّر مكاتبة .

وعلم المملوكُ ما أشارَ به من العَتْب بسبب تأخُّر خِدَمِه عن جنَابه ، وما توهَّمه من آشتغالِ المملوكِ بأهله وأصحابِه؛ وحاشاه أن يتَوَهَّمَ فى المملوك غيرَ الوَلَاء، والمُلازمةِ علىٰ الحمدِ والثَّناء؛ فهو لا يعتمِدُ ذٰلك إلّا تخفيفًا عن خاطره ، ووُثُوقا بما يتحقَّقُه المولىٰ من خالص مودَّتِه فى باطِنِه وظاهِره؛ حرسهُ الله ووفَّقه،وفتَح له بابَ السعادة ولا أغلقه، بمنّه وكرمه .

(١) ضمنه جواب عبد الله بن معاوية فى العتاب .

زهر الربيـــع :

جواب عِتاب :

زاد اللهُ جَنَابه حَنَانا، وأسبغَ عليه إنعامًا وإحْسانا، وخلَّد له علىٰ كلِّ عدوٍّ سلطاناً.

ولا زالت هِمَّتُه سماءً لَمنا كِبِ الكَوَاكب، وأياديه تُفيضُ علىٰ الأوليـاءِ غرائبَ الرَّغائب، ولا بَرِحَتْ سحائبُ إنعامه هاميه، وقُطوفُ إحسانِه دائمةً دانِيَه، وشرائعُ مِياه جُودِه تُجَفِّف جُفُونا من الفاقةِ دَاميه .

المملوك يجدّدُ خِدْمته، ويُواتِرُ للمولىٰ أدْعِيَتَه، ويعترِف بمِنَنِه التى أقرّتْ بها ألسِنةُ جوارِحه فلا يَستطِيعُ أن يُنْكِرَها، ويغترِفُ بيد تضرُّعه من بِحار جُوده التى تَثْعَبُ الوَلِىّ من سَحَابها إلىٰ كل وَلِىّ وتَقْذف له جَواهِرَها .

وينهِى وُرودَ المكاتبـة والعِلْمَ بمضْمُونها، والاَحتِواءَ علىٰ سائر مَعانِى فُنُونِهـا؛ وما أشار إليـه من العَتْب الذى يرجُو به بَقاءَ الوِدَاد، وآستِصحابَ حالِ التَّواصُل من غيرِ نَفَاد؛ والمملوك فلا يُنْكِر ذَنْبه، ولا يتنصَّل ولا يتوصَّل بل يعترِفُ بجُرْمه وقِلَّة خِدَمِه؛ ويَستمْسِك بالعُرْوة الوُثْقىٰ من إحسانه وحِلْمِه، ويسألُ مَكارمَه إجراءَه علىٰ عادته بالصَّفح عنه ورَسْمِه؛ وهو يرجُو أنَّ أمَّ هذه الهَفْوةِ لاتَلِد لهـا أُخْتا، وأنه لايعتمِدُ إلَّا مايَزِيدُه إلىٰ المَوْلىٰ مِقةً ويُزِيل مَقْتا؛ فإنَّ معاتبَـةَ مولانا قد وَعَتْها أُذُنٌ واعيه، ومَراضِيَه لاتَخْفىٰ علىٰ المملوك بعدَ ذٰلك منها خافِيَه، إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : أسعدَ اللهُ المَجْلِسَ وعَطَف للأوْلياءِ قَلْبَه، ونَصرَ كتائبَه وأنفذَ كُتُبَه؛ وأرْهَفَ فى نُصرة الإسلام سِنانَه وعَضْبه؛ وألْهَمَ حبَّـةَ قلب الزمان حُبَّه؛ وأقْدَره علىٰ الحِلْم الزائد حتّىٰ يغفرَ به لكلِّ مُذْنِب ذَنْبه .

[وينهى] وُرودَ الكتابِ الذى أعدَّتْه يدُ مولانا فصار كَرِيما، وكسَتْه عبارتُه ثوبَ بَرَاعتِه فأصبحَ مَنْظَرُه وَسِيما، وآستنْشَق عَرْفَ نَسِيمه المبارَكِ فطاب شَمِيما؛ وعلم المملوكُ منه شِدّةَ عَتْبه، ومُرَّ التجَنِّى الذى ظَهر من حُلو لفْظه وعَذْبه؛ ولم يَعرف لعَتْبه مُوجِبا، ولا لتغَيُّرِ مَوَدّته سَبَبا؛ فإنه ماحادَ عن طَرِيقِ وَلَائِه ولا حال، ولا زَلَّت قدَمُه عنه ولا زال؛ ولا مادَ عن مَنْهَج المودّةِ ولا مال؛ وما فَتِئَ لمحَاسنِه ناشِرا، ولإحْسانِه شاكرا؛ فإن كان قد نُقِل عنه إلىٰ مولانا شيءٌ أزْعَجَه، وأخرجه عن عادةِ حِلْمه وأحْرَجه؛ فإن الوُشاةَ قد آختلَقُوا قوْلَهم ونَقْلهم، وقصَدُوا تشتِيتَ المُصاحبةِ شَتَّت اللهُ شَمْلَهم:

وقد نَقَلوا عَنِّى الَّذِى لَمْ أَفُهْ بِهِ * وَما آفَةُ الأَخْبارِ إلَّا رُواتُها!

آخــر: وردت المشرَّفة العاليــة أعلىٰ اللهُ نَجْمَ مُرْسِلها، وأسبغَ أيادِيَه وشكر جسِيمَ تفضُّلِها، فابتهجتِ الأنفُس بحُلُولها وحُلَل جَمالها، وعُوملتْ بما يجب من إكرامِها وإجلالِها، وفُضَّ خِتامُهَا ففاحَ منها أرَجُ العَبِير والعَنْبَر، وتُليتْ ألفاظُها التى هى أبهىٰ من الرِّياضِ وأحلىٰ من السُّكَّر، فأغنَتْ كُئُوسُ فَصَاحتِها عن المُدام، وأزال ماؤُها الزُّلالُ الباردُ حَرَّ الأُوَام؛ وأعربَ مُنْشِيها عمّا فى ضميره من العَتْب، والضيقِ الذى حَصَل فى ذٰلك الصَّدرِ الرَّحْب؛ وهو يُقْسِم بنِعْمته، وبصادِقِ محبَّته؛ أنه لم يَبْدُ منه مايُوجِب عليه عَتْبا، ولا آنثَنىٰ عن الثَّناء علىٰ [مَحَاسِنه] (1) التى شغفَتْه حُبّا؛ فإن كان المولىٰ قد توهَّم شيئا أحْرجَه وأقلَقَه، وإلىٰ أليم العَتْب شَوَّقه؛ فلْيَزِل ذٰلك الوَهْمَ من خاطرِه، ولْيَثِق بما تحقَّق من مُوالاته فى باطِنِه وظاهِرِه؛ ورأيه العالى.

(1) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام.

آخـــر : أعزَّ الله عَزَماته، وشكَر جسِيمَ تفضُّلاته .

ولا زالتْ نِعمتُه باقِيــه، وقدَمُه إلىٰ دَرَج المَعَالى راقِيــه؛ وهِمَّتُه إلىٰ السُّمُوِّ علىٰ الكَوا كِب ساميه، وسماءُ جُوده علىٰ العُفَاة هاميَه؛ وعَزْمتُه لثُغُور الإسلامِ حاميَه، عبْدُ نِعَمه، وغَرْس كَرَمه، يُعلمُه بِصدْق وُدّه، والمداومةِ علىٰ شُكْره وحَمْـده؛ وأنه وَقَف علىٰ مُشَرِّفه وفَهِمه، وشاهَدَ منه عَتْبه وعَلِمَــه؛ وهو لا يشْكُو من المولىٰ جَفَاءً ولا يَعيب، و [عن] طريق المُصافاةِ والمُخالَصةِ فلا يغيب؛ بل يقول :

أنْتَ البَرِيءُ مِنَ الإسَاءةِ كُلِّها * ولَكَ الرِّضَا وأنا المُسِيءُ المُذْنِبُ

والمرجوُّ من لَطَافة أخلاقه، وطَهارةِ أعْرَاقه، أنْ يصْفَح عن زَلّته، ويعْفُوَ عن ذنبه وإساءته :

فأنْتَ الّذِي تُرْجىٰ لتَخْفيف زَلّتِي * وتَحْقِيق آمالِي ونَيْــل مَآرِبِي!

وقُرْبُك مقْصُودِي وبابُكَ كَعْبتِي * ورُؤْيَاكَ ياسُــؤْلِي أعَزُّ مَطَالِبِي!

قلت : وكتبتُ إلىٰ المولىٰ شِهاب الدين الدُّنَيْسِرىّ وقد بلغَنِي عنه مُساعدةُ بعضِ الجُهَّال علىّ فى بعض الأمور :

عَهِدْتُ شِهابَ الفَضْل يَرْمِي بِسَهْمِهِ * شَيَاطِينَ جَهْلٍ أنْ تُدانِي جَنَابَه!

فَمَا بالُ مولانَا علىٰ فَرْط فَضْـلِه * يُعَرِّفُ شَـيطانَ الجَهَـالةِ بَابَهُ ؟

النـــــوع الرابع عشر
(العِيادةُ والسُّؤال عن حالِ المريض)

رُقْعـــة عيادة :

ويُنْهِى أنه ٱتَّصـل بالمملوك مِنْ ألَمِ مَوْلانا ـ أطال اللهُ بقاءَه ، وحَرس حَوْباءَه ـ ما أهْمىٰ مَدَامِعَه ، وأحْمىٰ أضالِعَـه ، ومَزَّق جِلْده ، وحَرَّق خَلَده ، وأطار الوَسَن عن عَيْنِه ، ونَفَّر الهُدُوءَ عن مَضْجَعِه ؛ حتّٰى تداركَ اللهُ تعالىٰ بكتابِه الناطِق بإقْلاع المُلِمّ ، المعْرب عن دِفَاع المُهِمّ ؛ فرَقَأَ من دُمُوعى ما ٱرفَضّ ، وجَبَر من ضُـلُوع المملوك ما ٱرتَضّ ، والتأم من جِلْده ماتفطَّر ، وبَرُد من خَلَده ماتوقَّد(١) ، وجَثَم ماطار من وَسَنه وآنَس من الهُدُوء مانفَر عنه ، والتأمتِ الآمالُ بعد ٱنْثِلامها ، وبرزَتْ ثِمارُ الأمانِىّ من أكمامها ، وطَلَع من الرجاء آفِلُه ، ورَوِى من السُّرور ماحِلُه ؛ وتجدَّد من السُّؤدَد طامِسُه ، وضَحِك من الزمان عابِسُه ؛ والله تعالىٰ يغُضُّ طَرْفَ الحَدَثانِ ، عن مُهْجَته ، ويَصْرِف صُروفَ الزمان ، عن ساحَتِه ؛ ويهنِّيه بمـا أعاده إليه من الإبْلال ، ويُمَلِّيه بمـا أفاضه عليه من الٱستِقْلال ، بمنّه وكرمِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أن ماخامَرَه من قَلَق وجَزَع ، وفَرَقٍ وهَلَع ، بسبَب مابلَغَه من شَـكْوىٰ مولانا لاتَحْصُره الأوْهام ، ولا تُسَطِّره الأقْلام ؛ ولولا ثِقةُ المملوكِ باللهِ تعالىٰ لَوهَتْ عُقَد صَـبْره ، ولَا نْخلعَ فُؤادُه من صَدْره ؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ هـذا الأَلَم لو نُقِل إلىٰ المملوك لَمَـا ثقُل عليـه ، وكيف يستَثْقل مايخَفِّف عن مولانا وَصَبَه ويحْسِـمُه ، ويُعَكِّف له سِـلْكَ الشِّفاء ويَنْظِمُه ؛ والله تعـالىٰ يجعَلُه فى أمانٍ من كِفَايته ، وضَمانٍ من حِياَطتِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الاصل "توفر" بالفاء والراء وهو لايناسب المعنى .

أجوبة كُتب الشفاعات والعِنايات(١)

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكتُبُ إذا أُجيب الملتمِسُ إلىٰ حاجتـه فينبغى أن تُبْنىٰ أجوبتُها علىٰ شُكْر مَقْصد الشافِع ، والإدلالِ والاسترسالِ وإنالةِ المشفوع له وَطَرَه إيجابا لحقِّ الشافع ؛ وإن وقع الامتناعُ والتوقُّف عن الإجابة إلىٰ الملتَمس؛ فالواجب أن تُبنىٰ علىٰ إقامة العُذْر لاغيْر .

زهر الربيـــع :

جوابُ شفاعةٍ فى حقّ كاتب :

جدّدَ الله [له] السعادةَ وخَلَّدها ، وأصارها له شِعارًا وأبَّدها ، ووطَّد به الممـالكَ ومَهَّدَها ، وعضَّد به طائفةَ الإسلام وأيَّدها ، وشـكَرله صنائعَ يعُدُّ منها وَلِىٌّ ولا كُلٌّ يستطيعُ أن يعدِّدها .

المملوكُ يقبِّل اليـدَ الشريفةَ أداءً للفرضِ اللازِم ، وشُـكْرا لمـا أوْلَتْه من الأيادِى والمَكارم ، وحمدًا لألطافِهِ التى أطمعَتْه بالتميز فأصبح برَفْع قدرِه كالجازِم .

وينهى ورُودَ المشرِّف الذى نَزَّه ناظِرَه ، وجَبرقلْبَـــه بحُسْن ألفاظه وخاطِرَه ، والعلْمَ بمـا أمَرَ به ، وشَـفَع إلىٰ المملوكِ بسَبَبه ؛ وهو الكاتبُ الذى أشارَ إليه ، وقد رَكَن إلىٰ ما شكَرَه به المَوْلىٰ وأثنىٰ به عليه ؛ واعتَقَد يُمْنَ إغارة(٢) الشافِع فعقَـدَ علىٰ المشفُوع فيه خِنصِرَه ، وتَقَدّم بترتيبه فى ديوان إنْشائه ، وجعله من جُمْـلة خَواصِّه وخُلَصائِه ، وفعل ذٰلك كلَّه اتّباعًا لإشارتِه ، وقَبُولا لشَفَاعته ؛ فالمولىٰ يواصل بمراسِمِه وأمثلتِه ، فإنّها تَرِدُ علىٰ مُرْتَسِم ممتَثِل .

---

(١) حق هذه الأجوبة أن تكون تابعة للنوع الرابع فهى مؤخرة من تقديم فتنبه .

(٢) لعله إشارة الشافع .

ومنــــه : جواب شفاعةٍ فى ٱستخدام جُنْدىّ :

ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعمَه ، وأرْهفَ فى نُصْرة الإسـلام سَيْفه وقَلَمه؛ ولا بَرِحتْ أَلْسِنةُ الأنام ناطقةً بولَائه، وأَيْدى ذَوِى الرجاء مملوءةً من فَوَاضل نَعْمائه .

المملوكُ يُواصل بأدْعِيَته الصالحه ، ويستَنْشِق رُوحانِيّ رِيحِكم فيسْكُن منــه بلَذِيذ تلكَ الرائحــه ؛ ويشكُرُله مامنَحَه من المكَارم ، ويباهى بعزَماته اللُّيوثَ الضَّرَاغِم ؛ فلا يجد مُضاهِيًا لتلك العَزائم .

وينهِى ورُودَ المِثَـال الذى أشرقَتِ الوجُوه بنوره، وٱبتهجت الأنفُس ببـلاغة مُنْشِيه ووَشْيِ سُطُوره، وعلم إشارةَ المولىٰ فى مَعنىٰ فلان : أدام اللهُ سعدَه، وأعذَبَ مَنْهَلَه وِورْدَه، والتوصِيَة بأمرِه، وما أبداه من حَمْده وشُكْرِه، وأن يُقْطع إقطاعًا يليق بأمثاله، ويتَفَيّأ من خراجها ضافِيَ ظِلاله ، وعند مثُول مِثاله العـالِى ٱمتُثِلَ وٱلتُثِمْ، وٱستخْدَم المشارَ إليه لإشارته وخَدَم، وهذا بعضُ مايجب من قَبُول أمره، وتعظيم كتابه وتَبْجيل قَدْرِه، فيواصلُ بمراسِمِه فإنهـا تُقابَل بالآرتِسَام، ومشرِّفاتِه فإنها تُعامَلُ بوَافِرِ الإكرام .

جوابُ شــفاعة فى الجمــلة :

قُلْ ما تَشاءُ فإنَّنِي لَكَ طائِـعٌ * ماأنْتَ عِنْدى شافِعٌ بل آمِرُ!

جعله اللهُ لكلِّ خيرٍ سبَبًا ، وحقَّق به لأوليائِهِ ظُنُونا وحَصَّل أَرَبا ؛ ووَفَّر له من أجرشفاعتِه الحسَنة نَصِيبا، وأدامه عن كلِّ شرٍّ بعيدًا وإلىٰ كلِّ خيرٍ قريبا .

المملوكُ ينهِى تألُّمَـه لِفراقه ، وما يجِدُه من صَبـابَتِه وشِدّةِ أشْواقه؛ ويُعانيه من حَنِينه وأَتْواقه ، وأنه ورَد عليه كتابُه فاستـلَمه ولَثَمه، وبجَّله وعَظَّمه ؛ وعلِم ما أشار

إليه، وأخَذَ أمْرَ المشفُوع فيه بكلْتا يدَيْه ، وجعل قَضاءَ أَرَبِهِ أمرًا لازِما ، وما فتِئَ علىٰ ساقِ الآجتهادِ قائمـا ، إلىٰ أنْ حصَّلَ غَرضَه ، وأدّىٰ من حُسْن القيـام بأمره ما أوْجبَه مُشرِّفُه العالى وآفترَضه ؛ والمَوْلىٰ آمِرٌ غيرُ شـفيع ، ومَهْما وردَ من جِهَتِـه علىٰ المملُوك فواردٌ علىٰ سَميع مُطيع ؛ فيوَاصل من مَرَاسِمه بما سَنَح ، ومن أخباره بمـا تأرَّج طِيبُ عَرْفه ونَفَح ؛ ورأيُه فى ذلك العالى .

آخـــر : شـكَرَ اللهُ عوَارِفَها ، وتالِدَ جُودِها وطارِفَهَا ، ووافِرَ ظِلَالهـا ووارِفَها ؛ وينهى ثناءَه علىٰ مَعَاليه ، وملازَمتَه ومُداومتَه علىٰ بَثِّ محـاسنِه ونَثِّ أياديه ؛ وحمـدِ عواقِبِ إحسانه ومَبَاديه ، وشِـدّةَ أشواقِه إلىٰ جَنـابه ، ولذيذِ مشاهدتِه وخِطابِه ؛ وما يُعانيه من غَرامٍ لازَمه مُلازمةَ الغَرِيم ، وداءِ صـبابةٍ يُضاعِفُ شَوْقَه إلىٰ رؤية وجْهه الوَسِـيم ؛ ومُداومتَهُ علىٰ التعوُّض بشُكْر محاسِـنِه عن المُدامة والنَّـديم ؛ ونَظْم جواهرِ مَدْحه بِجِيد جُوده ، وحمْـدِ المولىٰ علىٰ ذلك التنظيم ؛ وأنه ورد عليه مشرِّفُه العالى فقبَّله ، ودعا لمُرْسِله دُعاءً يرجُو من الله تعالىٰ أن يستجيبَه ويتقَبَّله ؛ وحصَلَ له بوصولِهِ آبتهاجٌ عظيم ، وقال لمن حضر وُرودَه ﴿يأيُّها المَلأُ إنِّى أُلْقِيَ إلَىَّ كتابٌ كَرِيم﴾ وفَهِم مضمُونَه وفَحْواه ، وعلم معْناه وما أظهره فيـه وأبْداه : من الوصيَّة بفلان وما يُؤْثره من تسهيل مَطَالبه ، وتيْسيرِ مآربِه ؛ ووصـل المشارُ إليه وحصَلَ الأُنْس برُؤْيته ، وتمتَّعت النَّواظِرُ والمَسامعُ بمشاهَدَته ومشافَهتِه ؛ وقام المملوكُ فى أمْره قيامًا تامًّا ، وجعـل عينَ آجتهادِه فى مصلَحته متيَقِّظةً لاتعْرِف مَنَاما ؛ وشَمَّر عن سـاق الآجتهاد ، فى تحصيلِ المَرام والمُراد ، إلىٰ أنْ حصَل له الفوْزُ بنَيْل أمَلِه ، وعاد راتِعًا من العَيْش فى أخْضَره وأخْضَـله ؛ رافلاً من السُّرور فى أبْهىٰ حُلَله ، فيُحيط علمُه بذٰلك ، والله تعالىٰ يعضِّدُ به الدُّولَ والممـالك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : جعـله اللهُ مِفْتاحا لكلّ بابٍ مُرْتَجْ، وصَــدّق به [أملَ] كلّ آمل وحقّق رجاءَ كلّ مُرْتَجْ ، ولا زالتْ سحائبُ جُودِه هاميــةً بالوَسْمِيّ والوَلِيّ (١) ، ماطرةً بوَبْلها وطَلّها علىٰ الوَلِيّ .

المملوكُ يَخْدُم بتحيّة أرَقّ من النّسيم ، وسلامٍ أطْيب عَرْفا من بانِ النّقا إذا تحمّلتْ عَرْفَه رِيحُ الصَّرِيم .

ويُنهِى إلىٰ علمِــه الكريم ورُودَ مشرِّفته وأنه أحاطَ بمضْمُونها عِلْما، وشاهَدَ منها فى حال طَيِّها مَكارِمَ أصارَتْ تفضيلَه علىٰ حاتمِ الطائىّ حَتْما؛ ووَقَفَ منها علىٰ دُرِّ لَفْظ قذَفَه بحرُ خاطِرِه نَثْرا ونَظْما ؛ وبراعةِ عبارةٍ زادتْ قَلْبَ مُواليه غَراما وأنْفَ مُناوِيه رَغْمــا ؛ وفصاحةٍ عرَّفتْه قولَه صلّى الله عليه وسلم « إنَّ مِنَ الْبَيانِ لَسِحْرًا وإنَّ من الشِّــعر لَحُكْمًا (٢) » وفَهِم عنايتَه بفلان نفَع اللهُ بعلمه وعَمَله ، وقَرَّب له من الخــير مالا يُطْمِعُه به بعيدُ أمَلِه ؛ وإشارتَه بسبَب التنبيه والإرشادِ علىٰ جُمَل فضائله، ومفَصَّل مناقبِه المشهورةِ فى البِلاد، وإيضاحِ كِفايتِه فى وَجِيز تلك الفُصُول الصِّحاحِ الإسْناد، فحــالَ قُدومِ المذكــورِ وحلُولِه ، ووُرودِ مشَرِّفه ووُصُوله ؛ أنهىٰ المملوكُ أمْره إلىٰ مخْدُومِه ، وطالع به شريفَ عُلُومه؛ ولا زال يُحْسِن سعْيَه ، ويَعتمِدُ علىٰ مشيئةِ الله ولا يَتْرُك حِرْصَه ومَشْيَه؛ إلىٰ أنْ حقّق قصــدَه بقضاء شُغُله ، وقرّب له أمَدَ أمَلِه ، وكَتَبَ توقِيعَــه ولم يُرِد الله تَعْويقَه، ونجَع طعمُ قصده وأنْجَحَ اللهُ طريقَه ،وقد عاد مصحُوبًا بالسّلامه، معروفًا بتحصيل هذا القَصْد بأنه (طَلّاع الثّنايا) من غيرِ وضْع العِمامه، حسَبَ إشارةِ المولىٰ وأمْرِه، والله تعالىٰ يُمِدُّه بصوْنِه ونَصْره .

---

(١) الولى المطر الذى يأتى بعد الوسمىّ ووقع فى الأصول "الوبل" وهو تحريف واضح .

(٢) هو بضم الحاء وسكون الكاف العلم والفقه أى إن فى الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه ...... ويروى إن من الشعر لحكمة وهو بمعنى الحكم . انظر اللسان ج ١٥ ص ٣٠ .

آخـــر : فى آستخلاص حقّ .

شكَرَ اللهُ إحسانَه وإنعامَه، وحَصَّل به لكل وَلِيٍّ مَرامه، وحَمِدَ تطوُّلَه وتفضُّله، وأنال به لكلِّ آملٍ أملهِ، وخلَّد دولتَه، وأدام نِعْمتَه، وأنفذ كلمتَه؛ ولا زال فضلُه كاملا، وإحسانُه إلىٰ الأولياء واصِلًا؛ ونوالُه لبنِي الآمالِ شامِلا .

المملوك يخدُمُ بدعاءٍ أحسنَ من نَوْر الرُّبا، وثناءٍ ألطفَ من ريح الصَّبَا؛ وسلامٍ أطيبَ بمُروره من تذَكُّرِ أيَّام الصِّبا .

وينهى وُرُودَ الكتابِ الذى طابَ بالمولىٰ مَحْتِدُه ونِجارُه، وزاد علىٰ كتائبِ الكُتُب نَخَارُه، وأنه وقَف عليــه وُقُوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُرْسِلِه، شاكرٍ أنعُمَ فضـلِه وجسيمَ تفضُّلِه؛ فأسكرتْه تلكَ الفَصاحةُ بشَذَاها الأَرِجْ، ونزَّهتْ لحْظَه فى دُرِّلفظِها البَهِج؛ فظنَّها لَمَّـا آستنْشَق رائحتَها راحًا قَرْقَفَا، ولَـمَّا أبْهجَه لفظُها بألفاظٍ تُزْهِى علىٰ الرِّياض رَوْضةً أُنُفا؛ وعلِمَ الإشارةَ الكريمةَ فى معنىٰ فلان والوصيَّةَ بخِدْمته، وما أمَرَ به من مُساعدتِه ومُساعَفَتِه؛ وعنـد وُصُول مشرِّف المولىٰ وقَبْـل وَضْعه من يَدِه، نوىٰ المملوكُ مساعدةَ المذكورِ علىٰ مَقْصَده، فتقـدّم بإحضار غريمه فوجده عن البـلد غائبًا، فانتظَره إلىٰ أن عادَ آئبًا؛ فعند وصوله طلَبَــه وأحضَره، وسأله عمَّـا يدَّعيه عليه خصْمُه فأنْكَرَه؛ وطلب الحضُورَ إلىٰ القاضى، وحَثَّ علىٰ ذٰلك حتّى أوْهَمَ أنه المُتقاضِى؛ فلَمَّـا رأىٰ المملوكُ أنّ حُجَّة المشفُوع فيه لاتقُوم بصدْق دعواه وحُجج، ولا يظهَر بها علىٰ غريمه إلا من طريقٍ حَرِج؛ بذَلَ فى مُصالحتهما جُهْدَ الآجتهاد، وما زال يُرشِدُهما إلىٰ طريقِ الرَّشاد، ويدُلُّهما علىٰ سبيل السَّداد، ويعرِّفهما أنَّ التضارُرضَيْر، وأنَّ الصُّلح خَيْر؛ فكل منهما يَهِـيم فى وادْ، ويسْلُق خصْمَه بألسـنةٍ حداد؛ إلىٰ أنْ تراضَيا وتوافقَا، وسلَكَا طريقَ الرِّفق وترَافقَا؛ وصـدَّق الخصمُ

خَصْمَه فتصادَقَا ، وآنفصلا وكلٌّ منهما قد أرضىٰ خِدْنه ، وعن المحاكمة والمحاققة أغْضىٰ جَفْنه .

آخـــر : أيدَّ اللهُ سعدَ المولىٰ وأبَّده ، وأثَّل مجْـدَه ومجَّده ، وأعانه علىٰ إسْـداءِ العَوارِف وعَضَّده ، وأمدَّه من المَسَرَّات بما يُزِيل عن الأيَّام أبَدَه[1] ، وأناله سَعْدا لاتبلُغ الأنامُ أمَدَه ؛ ولا زال بُرْدُ جَدِّه من السعادة جَدِيدا ، ونجْمُ عدُوِّه آفِلًا ونجمُه سَعِيدا .

الذى نُحِيط به علْمَه الكريم أنَّ كتابه ورد فسَرَّى همَّ الأنفُس وسَرَّها ، وضاعفَ بمـا ضاعَ من نَشْره بِشْرَها ؛ وفاحَ منه شَذًّا عند إقْباله ، فقيل : قد هبَّتِ القَبُول ، ورَنَّح الأولياءَ ، فقيـل : قد هَبَّتْ رِيحُ الشَّمال وأُدِيرتِ الرَّاحُ الشَّمُول ؛ وأنَّ المملوكَ وقَفَ منه علىٰ ألفاظٍ سقَتْه كُئُوسَ سُرُورٍ لا كُئوسَ مُدَام ، وروَتْ له أخبارَ حِلْم لو أُسنِدَتْ إلىٰ سِواه لتُوهِّمتْ أضـغَاثَ أحْلام ؛ وروَتْ أكبادًا أضرَّ بها لغَيْبته حَرُّ ظَمَإٍ وأُوَام ؛ وبيَّنت سِحْرَ البَيَان ، وأعرَبَتْ بلسان حُسْنِها عمَّا لمُنْشِيها بل مُوَشِّيها من الإحْسان ، وأغربَتْ فى الفَصَاحة فخِلْنا كلَّ كلمة تنْطِقُ عن سَحْبانَ بلِسَان ؛ وزهَتْ بيانِـعِ ثِمَـارِ فضْلِها فنزَّهتْ كلَّ عينٍ فى بُسْتان ؛ وعلم إشارةَ المولىٰ فى معَنىٰ فلان ، وما أبداه من العِنَاية فى حقِّه ، والإيثـار لِصِـلةِ رِزْقه ؛ وأنه من الألْزام ؛ والذين تَجِب معاملتُهم بالإكرامِ والاحترام التـام ؛ وعنـد ماشاهدَ المملوكُ كتابَ من شَرَّفه ، وسَمِـع ألفاظَه التى بلُطْفها أتحفَه ؛ بل بِردائها علىٰ البَرْد ألحفه ، تقدّم بإجابة سُؤاله ، وترتيبِه فى جهةٍ تليق بأمثالِه ؛ وقمَّصه من العناية قميصًا لايَبْلىٰ ، وجمع لخاطِره والدَّعة شَمْلا ؛ وهذا حسَب إشارة المولىٰ التى لاتُخَالف ، وأمرِه الذى يقِفُ كلُّ أحدٍ عنده ولا يستَوْقِفُ ولا يُواقِف[2] .

(١) أى غضبه فهو مصدر أبد عليه كفرح اذا غضب .

(٢) هذا آخر ماحقه التقديم بعد النوع الرابع وقبل الخامس فتنبه .

كتاب إلى مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين :

حَاشَى مِزَاجَكَ مِنْ أذًى * وكَرِيمَ جِسْمِكَ من وَصَبْ!
يَا غَايَةَ المَأْمُولِ والْـ * ـمَرْجُوِّ يا كُلَّ الطَّلَبْ!
مُذْ غِبْتَ عَنِّى لَمْ أزَلْ * مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ فى نَصَبْ!
جَفْنِى غَرِيقٌ بالدُّمُو * عِ وماءُ صَبْرِى قد نَضَبْ!
واللهِ مَالِى فى البَقَا * ءِ وأنْتَ نَاءٍ مِنْ أرَبْ!
فَتَرَى أُبَشَّرُ (١) سَيِّدِى * أنَّ اللِّقَاءَ قَدِ اقْتَرَبْ!

حرَسَ اللهُ مِزَاجَ المَوْلَى! وأصار العافِيَةَ له شِعَارا، والصِّحَّةَ له دِثَارا، ولا زالَتْ ساكنةً فى جَوَانِحِه، مقيمةً حَشْوَ أعضائِه المباركةِ وجَوَارِحِه .

أصدرها المملوكُ تُعْرِب عن شوْقٍ يكِلُّ عن وصْفِه اللِّسان، وتَوْقٍ لايُحْسِن وَصْفَه البَنَان، ولاعِجٍ يَعْجز عن حملِ بعضِه الجَنَان، ملتَمِسا المواصلةَ بأخْباره، وواصفًا مايجِدُه القلبُ من ألَمِ الشوقِ وناره، وشاكِيًا من جَوْرِ أيَّامِ الفِرَاق، وراجيًا أن يُبَشَّر بالإبْلال من مَرَضِه والإفْراق، وداعيًا إلى اللهِ بتعجيلِ أيَّامِ التَّلاق . ومع ذلك فلو رُمْت أنْ أشرَحَ كلَّ ماأجِدُه من الصَّبابة لأسأمْتُ وأسْهَبْت، بل لو ذكرتُ ماأُعانيه لألَمَـه لثقَّلتُ على خاطِرِه وشَوَّشْتُ (٢)، لكن خاطِرُ المَوْلَى شاهدٌ بوَجْدى، وعارِفٌ بما تحمَّلتُه من الكآبة التى لم يحمِلْها أحدٌ قَبْلى ولا تُحمَلُ بَعْدى؛ فيُواصِلُ بأخبارِه، واللهُ يحرُسُه آناءَ ليلِه وأطرافَ نهارِه، إن شاء الله تعالى .

---

(١) مراده فتى أبشر . ولعله تصحيف من الكاتب .

(٢) نقل هـذا الفعل الفارابى وتبعه الجوهرى واستعمله كاتب هذه الرسالة وأنكره بعض الحذاق وقال الصواب هوّشت .

فى معنـــاه :

يامَنْ شَكَا فَشَكَا فُؤادِى حُرْقَـةً * لاتَنْطفِى وصَـبابةً لا تَبْرَحُ !

وغَدَا سَقِيمَ الجِسْمِ يَوْمًا واحِدًا * فَنَزَحْتُ دَمْعا للمَدَامِـعِ يَجْرَحُ !

وٱزْدادَ شَوْقِى نَحْوَ طلعتِـه الَّتِى * أبدًا بُيُمْنِ بَهائها أستَنْجِح !

لا زِلْتَ فى عِزٍّ وسَـعْدٍ دائمٍ * أيَّامُنـــا ببقَـــائِه تَتَبَجَّح !

وبَقِيتَ ما بَقِيَ الزَّمانُ مُؤيَّدا * تُمْسِى قَرِيرَ العينِ فيه وتُصْبِح !

كَمَّل اللهُ عافِيَـةَ المَوْلىٰ وحَرَسَـه ، ولا سَلَبَه ثَوبَ الصِّحَّة بل قَمَّصَه إيَّاه وألْبَسه ؛ وأخدَمَه الأيَّامَ فلا تستَطِيعُ مخالَفَـةَ أمْرِه ولا الخُروجَ عن حُكْمِه ، ورزَقَه أن يَمْلِكَ الدُّنيا بحذَافيرِها وهذا يحصُلُ بعافِيَةِ جِسْمِه .

المملوكُ يَنهى أنه ٱتَّصل به تألُّمُه فشَقَّ ذٰلك عليه، ووصلَ مِن القَلَق إلىٰ حَدٍّ لم يَصِـلِ المَوْلىٰ والحمدُ للهِ إليه؛ وٱبتهلَ إلىٰ اللهِ فى مُعافاة جَسَدِه، وأن يُعضِّدَه ببَقاء والدِه وولَدِه؛ ويُضاعفَ تسهيلَ مآرِبِه ومَقاصِـــدِه ، ويرفَعَ كلمتَه وقدْرَه علىٰ رَغْم مَعْطِس شانيهِ الأبْترِ وحاسدِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

جوابٌ إلىٰ من قَنْطره(١) فرسُه :

ثَبَّتَ اللهُ قواعِدَ مَجْدِه، وبلَّغه سَـعْدا لاتبْلُغه الآمالُ لبُعْــده ؛ وأهمىٰ علىٰ محِبِّيه سحائبَ جُودِه ورِفْدِه .

(١) جارىٰ فى هذا الفعل اللغة العامية والصواب قطره قال الشاعر :

قد علمت سلمى وجاراتها * ماقطر الفارس الا أنا

أنظر اللسان ج ٦ ص ٤١٨ .

المملوكُ يخْدُم بتحيَّة أرقَّ من النَّسِـيم ، و يشْكُر مواهبَه التى مازالتْ تحنُو عليه حُنُوَّ المُرْضعات علىٰ الفَطِيم .

ويُنْهِى ورُودَ الخبر بأنه كَبَابِه جوادُه عنـد مازَلَّت قوائِمُه ، وأثقلتْه فضائلُ المولىٰ ومكارِمُه ، فٱنْزعَج لذلك وتألَّم ، وكاد قلبُـه لولا المبَشِّر بسلامتِـه أنْ يتكلَّم ، وجوادُ المَوْلىٰ لاسبِيلَ إلىٰ ذَمِّه ، فإنه أسْمحُ جَواد ، ولا ٱتِّهـامِه بالعَجْز ، فإنَّه عُرِف بإتْهام وإنْجـاد :

لٰكِنَّه نَظَر الأفلاكَ ساجدةً * إلىٰ عُلاك فلَمْ تَثْبُتْ قوائِمه !

والمَوْلىٰ أولىٰ مَنْ قابل عُذْر طِرفه بطَرْف القَبُول ، وٱعتمد عليـه دُونَ سائِرِ الخُيُول : فإنَّ المولىٰ ولله الحمدُ فى صحةٍ دائمه ، وسـلامةٍ ملازمه ، وهـذا هو القَصْدُ والمُراد ، والٱستبشارُ الذى تفْتَرُّله ثُغورُ الثُّغور وتعْمُر به البِلاد ، جعله اللهُ فى سعدٍ ماله فَراغٌ ولا نَفَاد ، ورزقه مادعا به العِمادُ الفاضل والفاضِلُ العِماد ، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة كُتُب العيـادة

قال فى "موادّ البيان" : يجب أن تبنىٰ هذه الأجوبةُ علىٰ وُصُول الرُّقعـة ، وما صادفت المريضَ عليه من المَرَض ، وأنها أهدَتْ رَوْحَ الهُدُوء ، وأركَدت رِياحَ السُّوء ، وأقبلتْ بنَسيم الإبلال ، وتضوعَتْ بأرَجِ الٱسـتقْلال ، و بَشَّرت بالعـافيةِ والسَّلامه ، وآذنَتْ بالصَّلاح والٱستِقامه ، وأشباه هذا .

ابن نباتة المِصْرى :

شكَر اللهُ ٱفتِقـادَها وأُنْسَها ، وقلَمَها وطِرسَها ، وحمىٰ مِنْ عارض الخَطْبِ لامِنْ عارض الِخصْب شَمْسَها ، ولا أعدمَ الأولياءَ قصْدَها الجميل ، ووُدَّها الجليل ، و إحسانَ

رسائلِها التى كُرُمَتْ فما صَوْبُ الغَمَام لها رَسِيل ؛ وأمْتع الممالكَ يُمْنِها التى صحّت بتدبيره فليس غيْرَ النَّسِيم عَليل .

و يُنْهِى ورُودَ المشرِّف الكريم فتلقَّاه المملوكُ حَبِيبا وارِدًا، وطبِيبًا بإحسانِه وللجسدِ عائدًا ؛ وفَهِم المملوك ما ٱنْطوىٰ عليه من الصَّدَقات التى مازالَتْ فى فَهْمه ، والمحبةِ الصادقةِ التى ما عَزَبتْ عن عِلْمه ؛ وما تضَمَّن من فصولٍ كانَتْ أنفعَ من فُصُول أَبقْراط لمعالجة جِسْمِه؛ وأينَ أبِقْراطُ من بركاتِ كتَابِ مولانا الذى طالَعَ منه كتَابَ الشِّفاء علىٰ الحقيقه، والنَّجاةِ من عُرْوة البأس الوَثِيقه؛ وأدْنىٰ ورَقَته الحمراءَ لرأسه تبرُّكا و إكْراما وقال : نِعْمَ الجُلَّنارةُ المُعوِّذَةُ من الشَّقِيقه ، وٱستطَبَّ حُروفَها فإنها عن أيْدِى الكريم والكَرَامات، ولَثَم العلامةَ وتمسَّك بالسُّطور فإنها من أسبابِ الصِّحَّة والعَلَامات ؛ ووافقتْ عيادةُ مولانا مبادِىَ العافيَة وآذنَتْ بالزِّياده ، وصلَح خطُّه الكريمُ عائدا وما كُلُّ خطٍّ يصلُحُ للعِيَاده ؛ وما تِلكَ الجارحةُ المتألِّمَةُ إلا يَدٌ أثقلَتْها مِنَنُ مولانا فأعْيَتْ وتألَّمت؛ ثم أعانَتْها بركتُه هى والقدَمُ بالحمل العظيم وتقدّمَتْ ؛ وما بقِيَّة الجَوارِح إلا عيونٌ كانتْ تنتظِر لُطْفَ الله تعالىٰ و بركتَه وقد قَدِمَتْ ، فشُكْرا لها من بركاتٍ تَنْعَمُ بها قبلَ الجُسُوم أرواحُها ، وأدْويةٍ قلبِيَّة تُعالَجُ بها ذواتُ النُّفُوس فكيف أشباحُها؛ لا بَرِح جوْهَرُ كلماتِ مولانا يُؤْذِن بالشِّفاء من العَرَض، وسِهام أقلامه إذا كتبَتْ عائدةً أو جائدةً أصابت الغرَضَ وفوْقَ الغرَض .

وله : تقبَّلَ اللهُ منه وفيه صالحَ الأدْعيه ، وملأ بمحَاسِن ذكره وبِرِّه الآفاقَ والأنْديه، وشكرهِبَاتِه و بركاتِه التى تَنْزِل بعارِض الغيثِ قبل الاِستمطار وترفَعُ عارضَ الألَم قبلَ الأدْويه؛ تقبيلَ معترِفٍ بسابق النِّعم، مقيمٍ علىٰ صحَّة العُبُودية والولاء فى حالَتَى الصِّحَّة والسَّقَم .

وينهى وُرُودَ مشرِّف مولانا الكريم علىٰ يد فلان عائدًا من جهة العِياده ، وعائدًا من جهة الصِّـلات المعتاده ؛ ومُفْتقِدًا لاعَدِم الأولياءُ فى الشِّـدّة والرَّخاء ٱفتقادَه ، ما كان إلَّا رَيْثَمَا نَشِقَ العليـلُ نَسماتِه الصحيحه ، وتناوَلَ كأسَ ألفاظه الصَّريحه ؛ وإذا بقانُون المِزَاج قد هَمَّ باعتِدَاله ، وكتابِ الشفاءِ والنجاةِ قد تسنَّتْ فوائدُ إقْبالِه ؛ فتميَّز حال الصحَّة من المَرَض ؛ وٱستعمل جَوْهَرَ الألفاظ فعَزَم علىٰ زَواله العَرَض ؛ وبلَّغ الولدُ فلان المشافَهةَ وكلُّ مَقاصِد مولانا مبتَدَأة مبْتدَعة ، والمملوك[1] جوابَها وكلَّ أجوبته مُنَوَّلةٌ منوَّعه ؛ شكر اللهُ عوارِفَ مولانا المتَّصِـله ، ورُسَلَ ٱفتقاده التى منها العائدُ ومنها الصِّله .

وله : فى جواب كتاب عِيادة وارد فى يومِ عِيد علىٰ يد من ٱسمه جمال الدين محمود .

شـكَر اللهُ مِنَنَهـا التى إذا أَبْدتْ أعادتْ ، وإذا جادَتْ أجادت ؛ وإذا كَرَّرتْ الأفتقـادَ حَلَا وإذا تصـدَّتْ لمَوَدّاتِ القلوب صادَتْ ؛ تقبيـلَ مخلِصٍ فى وَلَائه وٱبتهاله ، مُقيم علىٰ صحة العهدِ والحمد فى صِحَّته وٱعتِلاله .

وينهِى ورُودَ مشرِّفة مولانا الكريمة علىٰ يدِ الولدِ جمـال الدين محمود متفقِّدا علىٰ العـاده ، مكرِّرا لعيادة الإحسانِ وإحسانِ العياده ؛ فقابل المملوكُ بالحمد وارِدَها ، وبعوائد الأعتِدادِ عائدَها ؛ وفَهِم ماتضمَّنته من تألُّم قلب المـالك علىٰ ضَعْف المملُوك ، وقَلَقِ خاطره علىٰ بَدَن كَبِيْتَ[2] العُروض مَنْهُوك ؛ وأنه كان ٱبتدأ ضَعْفُ المملوك فتألَّم ، ثم تَلَا خبَرُ الصحة فتَـلَا : ولكنَّ اللهَ سَـلَّم ؛ ثم بلغه أنَّ آلامًا تراجعَتْ ، ومَوادَّ واصلَتْ بعد ما قاطعَتْ ؛ فحملَتْه خواطِرُ الإشفاقِ علىّ علىٰ تكريرِ العِيَاده ، وارتقابِ فَعلَاتِ الشفاء المستَجاده ؛ جاريًا من إحسانه وٱفتقادِه علىٰ أجمل معْهُود ، باعثا مشرِّفته

(١) مراده وناول أى أوصل المملوك الخ تأمل .

(٢) فى الأصول ''كثيب'' وهو تصحيف من الناسخ .

وحاملَها وكلاهُما حسَنُ الحال محُمود ، فعند ماوصَلاَ أوصَلاَ كَمالَ العافيه ، وحقَّقتُ أخْيِلَةَ البُرْءِ الشافيه ، وما كان المشكُوُّ إلا مادَّة يسيرةً و زالتْ ، وبقِيَّةَ ضَعْف تولّت بحمد الله و بركة مولانا وما توالَتْ ؛ وما عيَّدَ المملوكُ إلا وشـفاءُ الجسد فى آزْدِياد ، والنفس بالوقت و بالمشَرِّفة فى عيدَيْن قائمَيْنِ بأعياد ؛ لا زالتْ مِنَنُ مولانا إزاءَ اللَّحْظ حيثُ دار ، ووُدُّه وحِمَاه جامعين فَضْلَ الجارِ والدَّار .

زهر الربيـــع :

لازالَ محروسَ الشِّيَم ، هاطِلةً سحائِبُه بالدِّيَم ، مشكورًا بلسانَىِ الإنسانِ والقَلَم .

المملوك يقبِّل يدَه الشريفــةَ مُؤَدِّيا للواجب ، ويواصِلُ بدعاءٍ صالِحٍ أصاره إنعامُه ضَرْبَةَ لازِب .

وينهى إلىٰ كريم علمــه وُرُودَ مشرِّفه الذى أبهجَ الأنفُسَ وضاعفَ الصَّـبابه ، وأفنىٰ الصــبْرَ عن مُحيَّاه وإنْ كان ماأفناه أيْسَرَ صُبَابه ؛ وأنَّه عَلِم منــه إنعامَه وتشوُّفَه إلىٰ المملوك و إلىٰ سَمَـاعِ أخبارِه ، وما أبْداه من شَفَقةٍ أُلِفَت من إحسانه وعُرِفتْ من كريم نِجَاره ؛ وتُحُقِّقتْ من شِيَمِه علىٰ من ينْأىٰ عن بابه العالى ودارِه ، فاللهُ يحرُس هٰـذه الأخلاقَ التى هى أرقُّ من المـاء الزُّلاَل ، والشمائلَ التى تفعَل بلُطْفها فِعـلَ الجِرْيال ؛ والمملوكُ فواللهِ لايُحْصى شَوْقَه إلىٰ الخدْمة العاليــة ولا يَحْصُرُه ، ولا يَقْدِر علىٰ وصف مايُسِرُّه من الأتْواق ويُظْهِره ؛ إنمــا الاْعتمادُ فى ذٰلك علىٰ شاهِدَىْ عدْلٍ من خاطره وقَلْبه ، وهما يُغْنِيان المملوكَ عن شَرْح وَلاَئه بألسنةِ أقلامِه ووُجُوه كُتْبه ؛ وأما السؤال عن أخبـار مِزَاج المملوك فإنه كان فى ألم دائِم ، وسُقْمٍ مُلازِم : لشـدّة المَرَض ، الذى كاد يحتوى علىٰ جَوْهَر جسـمه والعَرَض ؛ فمُـذْ وردَ كتابُ المولىٰ آنتعشَتْ قُوّته ، وآشْتدّتْ مُنّته ؛ وصدَقَتْ فى طلب تنـاوُل الغذاء شَهْوتُه ؛ وترجّى

الشفاءَ بعدَ أن كان علىٰ شَفَا التَّلَف ، وكان له كالطبيبِ الآسِى فى إزالة مَرَض الأَسَا والأَسَفْ . وقد حصلت للملوك مَسَرّتان بكتاب المولىٰ وعافيتــه ، وفَرْحتانِ بمـا أهداه إليه من عَفْو إنعامه ومَحْو أثَر الألم وتعْفيَتِهِ ؛ وكلُّ ذلكَ بسعادَتِه .

ومنـــه : ورد المُشرَّفُ العالى لا زال قَدْرُ مُرْسِله شريفا ، وشَرَفُه الباذِخُ يجعل كلَّ شريفٍ مشْرُوفا ؛ وسحائبُ جُوده تُهْدى إلىٰ الأولياءِ من مكارمه تَليدا وطَريفا ؛ وقواضِبُه تَرُدّ [طَرْف] حوادثِ الأيَّام عنه مطْرُوفا ؛ وأياديه تبعثُ لمحبيــه تُحَفا ، وهيبتُه تُهْدى إلىٰ الأعداء خَوْفا ، والدهرُ بخدمةِ جَنَابه العالى مشْغُوفَا ؛ فوقفَ عليه وُقوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُسطِّرِه ، متنَزِّه فى ربيع ألفاظِه وحُسْن أسْــطُرِه ؛ وعَرفَ منـه إحسانًا ماقَتِيَّ يعْرِفه ، وتفضُّــلا مازال المَوْلىٰ بمثـله يُتْحِفُه ؛ وما أشار إليه من شِدّة إيثارِه ، لرُؤْية المملوك وسماعِ أخباره ؛ والذى يُنْهِيه أنّ جسده كان قد تَضَاعف ضَعْفُه ، حتَّى أتعبَ الألسِـــنةَ وصْفُه ؛ فلمـا وقَفَ من مشَرِّف المولىٰ علىٰ خَطٍّ هو الوَشْىُ المنَمْنَم ، وألفـاظٍ هى الرَّحيق المُخَتَّم بل الدُّرُّ المنَظَّم ؛ وسحرٍ هو محلَّل وكلُّ سحرٍ مُحَرّم ؛ أَبَلَّ المملوكُ و بَردَتْ غُلّتــه ، و برَأَتْ عِلَّتـه ؛ وكان كمن آسـتوفىٰ نصيبَه من النَّصَب ، وأخذ قِسْمَه من السُّقْم والوَصَب ؛ فسَقَاه مشَرِّفُه الصحةَ فى كاس ، وأفاضَ عليه من العافية أفخرَ لباس .

آخـــر :

وَرَدَ الكتابُ فَعَمَّتِ الأفْراحُ * وأضَاءَ فى لَيْل الأَسَا الإصْباحُ !

وآفْـــترَّ ثغرُ للزَّمانِ بفَرْحةٍ * ولِلفْظه طَرِبَتْ رُبًى وبِطاحُ !

وتَضوَّعَتْ أرْواحُ طيبٍ عَرْفُها * تَحْيـا بِهِ الأجْسامُ والأرْواحُ !

وسَقىٰ سُلافَ فَصاحةٍ وبلاغةٍ * ما المِسْكُ عندَ شَمِيمِها ما الرَّاحُ !

شكر اللهُ مِننَه، وأخدمه زَمَنَه، ومنَحَه من العَيْش أغَضَّه وأحْسَنه؛ وشَرَّف ببقائه الدهْرَ وشنَّف بمَدْحه أُذُنَه .

المملوكُ يُنْهِى إلىٰ علمه وُصُولَ مشرِّفه الذى تنَزَّهت الأعيُنُ فى حُسْن مَنْظَره، ويانِع ثمارِ لفظه البديعِ ووَشْيِ أسْطُره؛ وأنه آستَنْشَقَ من رِيحه أطيَبَ نَفْحه، وتَقَمَّص منه ثَوْبَى دَعةٍ وصِحَّه؛ فشفىٰ داءً شَفَّ منه جِسْمُه، وزاد لوُروده سُروره وزال هَمُّه؛ وعلِم إنعامَ المولىٰ الذى لا يَشُكُّ فيه، وإحسانَه الذى لا يحْصُره لسانُ مادحٍ ولا يُحْصِيه؛ وما ذكره من الألَم المُلِمِّ به وآشتغالِ خاطرِه الكريم لمَا ألَمَّ بجِسْمه، والمرضُ بسعادة المَوْلىٰ قد بَقِيَ منه قُلُّه، وتقلَّص بعدَ ما آمتدّ ظلُّه؛ والعافيةُ تتكمَّل إن شاء الله تعالىٰ برُؤْية مُحيَّاه الكريم ومشاهدَتِه، والمُثُولِ بين يدَيْه العاليتين فى خدْمته .

النوع الخامس عشر
(فى الذّمّ)

ذَمُّ بخيل: لأحمد بن يوسف :

كأنَّ البُخْلَ والشُّؤْم صارا معًا فى سَهْمه، وكانا قبْلَ ذلك فى قِسْمه، فحازَهُما بالوِراثه، وآستحَقَّ ما آستَمْلك منهما بالشُّفْعة، وأشهَدَ علىٰ حِيازتِهما أهلَ الدِّين والأمانة، حتّىٰ خلَصا له من كلِّ مانع، وسَلِما له من تَبِعةِ كلِّ مُنَازع؛ فهو لا يُصيب إلّا مُخْطِيا، ولا يُحْسِن إلّا ناسيا؛ ولا يُنْفِق إلّا كارِها، ولا يُنْصِف إلّا صاغرا .

وفى مثله : وصلَ كتابُك فرأيْناك قد حَلَّيته بزَخارِف أوْصافك، وأخْليْتَه من حقَائِقِ إنْصافك؛ وأكثَرْتَ فيه الدَّعاوىٰ علىٰ خَصْمك، من غير بُرْهانٍ أتيتَ به علىٰ دَعْواك وزَعْمك .

ومنــه : ولو أراد غيرَ ذلك من الأخلاقِ السَّنِيَّه، الشريفةِ الهَنِيَّه، لاستوحش في سُبُلهـا، ووقَع في مَضَّة منها، ولن يجِدَ من سَلَفِه ولا نَفْسه دليلًا عليهـا، ولا هاديًا إليها .

ومنــه : لأبي العَيْناء :

أما بعــدُ، فلا أعلَمُ للمعروف طريقًا أحْذَرَ ولا أوْعَرَ من طَرِيقه إليــك، ولا مستَوْدَعا أقَلَّ زكاءً ولا أبعَـدَ ثمرةَ خيْرٍ من مكانه عِنْـدكَ : لأنه يحصُلُ منك في حَسبٍ دَنِيّ، ولسان بَذِيّ، ونَسَبٍ قَصِيّ، وجهْلٍ قد ملَكَ طِباعَك، فالمعروفُ لديْك ضائـع، والشُّكْرعِنْـدكَ مَهْجور، وإنمـا غايتُكَ في المعروف [أنْ] تُحرِزه، وفي وَلِيِّه أن تكفُرَ به .

ومنــه : لمحمد بن الليث :

بكم عَلَنَ الظُّـلمُ، وظهَرتِ البِدَع، وآندفَنَ الحقُّ، وعَزَّ الفاجِر، وظَهَر الكافِر، وفَشَتِ الآثَام، ونُقِضَت الأحْكام، وآتُّخِذ عبـادُ الله خَوَلا، وأمْوالُه دُوَلا، ودِينُه دَخَلا .

ومنــه : لأبي عليّ البصير :

عَدُوُّك مُنْعزِل عَنْك، وصديقُك على وَجَل منك، إن شاهدْتَه عاقَّك، وإن غِبتَ عنه حاقَّك، تسألُه فوقَ الطاقه، وتَرْهَقُه عنـد الفاقَه، وإن آعتذَرَ إليكَ لم تَعْذِرْه، وإن آستنْصَرَك لم تَنْصُره، وإنْ أنعَمَ عليك لم تَشْكُره، ولا يزِيدُك السِّنُّ إلا نَقْصا، ولا يُفيدك الغِنى إلا حِرْصا، تَسْمُو إلى الكبير، بقَـدْر الصغير، وتَسِفُّ للتَّطْفيف لا للتخْفيف، تعترِض الناس بالسُّؤال، غير مُحْتَشِم من الإمْلال، ولا كارِهٍ لأن يُنْظَر إليكَ بعين الآِستقلال، حتّى لقد أخرجْتَ الأضْغان، وقَبَّحْتَ الإحْسان، وزهَّدتَ

فى ٱصطِناعِ المعرُوف، و إغاثةِ الملْهُوف، والنـاسُ منك بينَ أسرارٍ تُفْشىٰ، وبوائِقَ تُخشىٰ، وشَناعاتٍ وارِدَه، ونَوادِرَ بارِدَه، وُدُّك تَخَلُّق، وشكْرُك تَمَلُّق .

ومنـــه : لسعيد بن حميد :

رجلٌ يَعنُف بالنِّعَم عُنْفَ من قد ساءَتْه مُجاوَرَتها، ويستَخِفُّ بحقِّها ٱستِخْفافَ من لايَخِفُّ عليه مَحْمَلُها، ويُقَصِّر فى شُكْرها تقصيرَ مَنْ لا يعلَمُ أنَّ الشكر يرتَبِطُها؛ ومن كانتْ هذه حالَهُ فى ٱختيارِه لنَفْسه، فكيف أرجو حُسْنَ ٱختيـارِه لى ؟ ومَنْ كان فى مُدّة من ٱبتلاءِ الله بعيدةِ مابينَ الطَّرَفَيْن لاأدرى أينفُـذُ بى الأجلُ إلىٰ أقصاها؛ أم يُقَصِّر بى فى أدْناها؛ فكيف يتَّسع الصـدْرُ للصبر عليه ، إنَّ اللهَ لايَخافُ الفوتَ فهو يُمْهِله ، وإنه إنْ ماتَ لم يخرُجْ من سـلطان الله جلَّ وعزَّ إلىٰ سلطان غيره فيعُاجِلَه؛ وأنا علىٰ خوفٍ من إعجال المَدىٰ عن بلُوغ [مناى فأذهب](١) حرِجًا صدْرى، وعلىٰ ثقةٍ منْ الشُّغُل فى الآخرة بنَفْسى عن التَّشفِّى من أهل عدَاوتى وترَتى ؛ وأحمدُ الله علىٰ المِحْنة ، وأسأله تعجِيلَ رَوْح النعمة، وفُسحةَ العافية .

النـــــوع السـادس عشر

(فى الأخبـــار)

قال فى "موادّ البيان" : كُتُب الأخبار وإن كانت من الكُتُب الكثيرة الدَّوَرانِ فى الٱستعمال فليسَتْ ممـا يُمْكِن تمثيلُه ، ولا حصْرُ المعانى الوامقة(٢) فيه برُسُوم تشتمل عليها، نعَمْ ولا أن نقدِّم له مقدّمةً تكون توطئةً لمـا بعدها، كما يجرِى الأمْرُ فى سائر فُنُون المكاتبات الأُخَر التى لاتخْلُو من مقدّمات تَحُلُّ منها محلَّ الأَسَاس من البُنْيان،

---

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) مراده الواقعة فيه ولعله مصحف عنه تأمل .

والرأس من الجُثمان ؛ لكن المقدِّماتُ التى تُوضَـعُ فى الكتب من شَرْطها أن تكون مشتقَّةً من نفس معنىٰ الكتاب، ومُنْهِى الخبر لايمكنه أن يَسْتنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدّمةً تكون بساطا له ؛ وإنمـا يقول : كتبت من موضـع كذا يومَ كذا، والذى أنهيه كذا ؛ بل الذى يلزمه أن يتحدّاه بِطاقَتِه، ويتحرّاه بجهده، أن يبيِّنَ مايطالِـعُ به من الأخبار ؛ ويكشِفَه ويوَضِّحَه ويُفْصِح عنــه ، ولا يقِفَ منه إلّا عنـد الشفاء والإقناع لتتقرَّر صورتُه فى نفس من يُنْهِيه إليه ؛ اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدبُ العُدولَ عن لفظه الخاصِّ به، والإخبارَ عنه بألفاظٍ تؤدِّى معناه، ولا يهجُم علىٰ المُخْبَر بمـا يسُوء سماعُه ، كأن يكون خبرا يرفَعُه إلىٰ سلطانٍ عن عبدٍ له قد أَطْلَق فيه ما يَضَع منه ويُسْقِط مَهَابته ، أو نحو من ذٰلك ممـا يثْقُل علىٰ السلطان المنغص منه ؛ فإنه ينبغِى أنْ يُعدَل فى هذا وأمثاله عن التصريح إلىٰ التعريض، ومن التصحيح إلىٰ التَّمْريض، وعن المكاشَفَة إلىٰ التَّوْرِية ، وأن يأتِيَ بألفاظ تَدُلُّ علىٰ معانِى مايُروم إبداءه، ويحْرِص [علىٰ] صورة منْزِلة الســلطان وتوقيره عن قَرْع سمعه بمـا يكْرَهه ولا تجوزُ مقابلَته به ؛ وأن يقصِـد إلىٰ آستعمال الإيجاز والإطنـاب فى المواضع التى تحتمل كلًّا منهما، فهذا ما يمكن أن يُتعرَّف من رسوم هذا الباب .

قال : ومن نَفَذ فهمُــه وخاطرُه فى الصناعة وتدرَّب فيهـا ، يكتفِى بهذه اللُّمْعة ولا يَحتاج إلىٰ زيادةٍ عليها .

فى الإخبار بوُقُوع مطر وسَيْل

من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

فالمـاءُ منه يَفِيضُ علىٰ العُمْران، بعد أنْ ضاقَتْ به المَغَايِصُ والغُدْران ؛ فأَتَىٰ علىٰ كثير من التِّلال والرَّوابِى ، فضْــلا عن الرَّساتِيقِ والقُرىٰ ؛ وصار الوادى علىٰ آتِّساع

عَرْضه، وآمتدادِ طُولِه، وَسَعة مَصَبِّه، وفُسْحة مَغيضه، لايفِى بِهَضْمه، ولا يقُوم بحَمْله؛ ففاضَ منه ماعطَّل العُمْران ونَسَف الدُّور ومَحَق الزُّروع، فعَظُم به البَلَاء، وكَثُر له الجَلَاء، وشمِل الفَساد، وعَظُم الخَراب .

صدر كتابٍ بإخبارٍ عن الخليفة :

كتبتُ، ومولانا أميرُ المؤمنين فى توطُّد من خِلَافته، وتمهُّدٍ من دَوْلته، وعُلُوٍّ من رَأْيه، ونَفاذٍ من كلمته، وعِزٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ مِنْ شَانه؛ ونِعَم سابغةٍ عليه وعلىٰ أهل طاعتـه؛ قالصةٍ عن أعدائه وأهـل مخالَفته، وآستقامةٍ من أطرافِه وثُغُوره، وآسْتِتبابٍ من أحوالِه وأمُوره؛ والحمـدُ لله علىٰ إحسانه حمدًا لايَقِف دُونَ رضاه، ولا يُحِيط بمقداره سِواه .

صدر بإخبار عن الوزير :

كتبتُ، وحضرةُ الوِزَارةِ الساميةِ فى نِعَمٍ مُخْصِبةُ الأَكْناف، بَعيدةُ الأطْراف، سادِرةُ الوَيْل، ساحِبةُ الذَّيْل؛ وما أنظُرُ فيـه من أمر دَوْلتـه منتظِم، وأُراعيه من أحوال رَعِيَّتـه ملْتئِم؛ وقد وَطَّأ اللهُ له أوْعارَ السِّياسـة والتَّدْبير، ووَقَفه علىٰ جَوَادِّ المصلحة فى التقـديم والتأْخِير؛ والحمدُ لله حمـدًا يستقِلُّ بحقِّه فيَقْضيه، وبواجبـه فيؤدِّيه، وينْتهِى إليه عزُّ سلطانه فيُرْضِيه .

صدر بإخبارٍ عن أمير :

كتبتُ، والأميرُ فى عُلُوٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ من شانِه، وظَفَرٍ يُواكِبُ ألوِيَتَه، ونصْرٍ يُصاحِب دَوْلَتَه؛ ووافىٰ علىَّ من ظِلِّه، وشَمِلنى من فَضْله، ماسَبغ لباسُه، وطابتْ أغْراسُه؛ والحمدُ لله آعترافًا بنعمتِه، حمدًا يُوجب شُمولَ منَّته؛ ويستدْعِى الشكرَ عليها؛ ويقْضِى بمَزِيدِ منها .

صدر باخبـارٍ عن عافيةِ المكتوب عنه :

كتبتُ، وأنا صالحُ الحال، وقد مَنّ اللهُ تعـالىٰ بالعافيةِ والإنعاش، والإقالة والا (١) اش؛ وأعاد إلىَّ الصحةَ بعد نَبْوِها وذَهَابها، والسلامةَ بعد نَجْعِها وإغْرابِها؛ وأسبَلَ النِّعمةَ بعد الإنْذار، والتحذيرِ من الاغْترار؛ ممحِّصًا بما ألَمَّ من الآلام عَصبَ الأيَّام؛ والحمدُ لله أولىٰ ماأُتليتْ به النِّعم، وطُرِّز به المفتَتح والمختَتَم؛ حمدًا يؤمِّن من التغيير والتبديل، ويُعِيذ من الانتقال والتَّحْويل .

ابن أبى الخصال، فى الإخبار عن زَلْزَلَة عظيمةٍ وقعتْ بمدينةِ قُرْطُبَة من الأنْدَلُس .

الشيخُ الأجَلّ، الولِىُّ الأكرمُ الأفضل؛ أبو فلان، الذى أطْرفَهُ اللهُ تعالىٰ بعجَائِب الأخبار، وأذْهَبَ به فى مَسْلَك الاتِّعاظ ومَنْهَج الادِّكار؛ أبقاه الله آخذًا فى سَنَن الانْزِعاج ونَهْجِ الازْدِجار . المخلِص له المَحْضَ الناصِعَ من الوَلاء، ومَعْرفةَ غَرِيبِ الآثار وعَجِيبِ الأَنْباء؛ فلان .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله و بركاتُه .

أمَّا بعدَ حمد الله الذى جعل عِبَرَه أنْواعا متلَوِّنةً وصُنُوفا ، وأرسلَ الآياتِ ﴿وما نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ . والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمدٍ المصطفىٰ صلاةً طيِّبةً تعْبق تَأْرِيجًا وتَضُوعُ تَعْرِيفا؛ وعلىٰ آله وأصحابِهِ الطاهرين الذين حَضَرُوا حُرُوبا وشَهِدُوا زُحُوفا؛ والدعاءِ لسيدنا الإمامِ أميرِ المؤمنين فى نَصْرٍ عزيزٍ يُؤَنِّس مَذْعورا ويُؤَمِّن مَخُوفا؛ فإنى كتبتُه ـ كتبَ اللهُ لكم دَعةً حافظةً وأمَانا، وتصديقًا بآياتِ الله البيِّنة و بُرْهانا ـ من موضع كذا، عنْدَ ماطرَأ علينا ماكَحَل العُيونَ بقَذَاها، ومَنَعها لَذِيذَ كَرَاها، وأخْفَق الضُّلوعَ الحانيةَ وأقْلق مَصَارِينَ حَشَاها : وهو أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

(١) بيض فى الأصول لهذا الحرف .

ذَكَّر عباده إنْ نفعت الذِّكرىٰ، ونَبَّههم إنْ تنبَّهوا ولم يأمَنُوا منه كيْدًا مُبِيرا ولا مكْرا؛ وذٰلك بزلْزال قضىٰ به علىٰ قُرطُبَةَ وبعضِ أعمالها، وملأ نُفُوسَ ساكِنيها من رَوْعاتها وأَوْجالها، وحالَتْ لذٰلك فى الخَوْف(١) والارْتِفاع أقْبح حالِها، حتّى نحَوْا إلىٰ الاستِكانة والضَّراعه، وأطاعَ اللهَ مَنْ لم يكُنْ له قبْلَ ذٰلك طاعَهْ؛ وخَشُوا بل كانُوا يُوقِنُون أنَّها زَلزلَةُ الساعه. وكان من عظيم آثارها، وكَرِيهِ إيرادِها وإصْدارِها، آنْهِدامُ القُبَّة العُظْمىٰ فى المسجد الجامع صانَهُ الله، وكانتْ قُبَّةً أُسِّس علىٰ التَّقْوىٰ بِناؤُها، وذهبَ فى المَشارق والمَغارب ذِكْرها العاطِرُ وثَناؤُها؛ وتهدّمتْ بسبَب ذٰلك الهَدْم دِيارٌ كثيره، وحدَثَ به حوادثُ مُبِيره. وأما تلوكة من أعمالها، وكان فيها مَبْنًى من مَبانِى الرُّوم، فإنه غادَرَها قاعًا صَفْصَفا، وقَرًّا نَفْنَفا؛ وآضْطَرَّ ذٰلك الخَطبُ الفادِح، والرِّيحُ القادح؛ إلىٰ أنْ خرج السيِّدُ أبو إسحاقَ وكافَّةُ أهل قُرطُبَةَ من دِيَارهم، وفرُّوا من الموت بأقْواتِهِم وأصحابِهِم؛ ثم إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ تَدارَكَ بالرُّحْمىٰ، وكشَفَ تِلكَ الغُمّى، جعل الله ذٰلك صَقْلا لقُلُوبنا، وتوبةً عما سبَقَ من ذُنُوبنا؛ وعصَمنا من جُرْمنا المُوبِق وحُوبِنا، وأَوْلانا وإيَّاكم أمْنا من الغِيَر، وآزْدجاراً بما ظَهر من العِبَرْ؛ وجعل كِلانَا(٢) جميلَ الحوادثِ طيِّبَ الخبرِ، بمَنّه؛ والسلامُ الطيبُ المبارَك ورحمةُ الله وبركاتُه.

من كلام المتأخرين فى الإخبار بقدوم نائبٍ إلىٰ نيابةٍ.

من ذٰلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلىٰ كافل المَمالك الإسلامية مُخْبِرًا له بوُصُوله إلىٰ دِمَشْق، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة. وهو بعد الألقاب:

(١) لعله فى الخفض.

(٢) جرى الكاتب فى كلا على لغة من يعربها اعراب المقصور على حد قوله:

نعم الفتى عمدت إليه مطيتى * فى حين جدّ بنا المسير كلانا   شرح الأشمونى

لا زالتْ آفاقُ الممَـالك مُضيَّةً بأنوارِ شَمْسه، هَنِيَّةً بأُنْس سعادتِهِ وسَعادةِ أُنْسِـه؛ سَنِيَّةَ المَقاصد التي قام في كَفالتِها بنَفاسة نَفْسه؛ ولا بَرِح يستَثْمِر من خَيْر الدُّنيا والآخِرة ماقَدَّم صُـنْعُه الجميلُ من غَرْسه. تقبيلًا يُشافِه به القلَمُ القِرْطاس، ويَوَدّ المملوكُ لو شافَه به الخِدَم ساعِيًا سعْيَ القَلَمِ على الرَّاس. ويُنهِي قيامَه بوظائِفِ دُعاء يُنـيرِ الحَلَك، ووَلَاءٍ يدُورُ بكَواكـب الإخْلاص إدارةَ الفَلَك؛ وحَمْـدٍ تَذْهب به صَفَحاتُ الصُّحُف حيثُ ذَهَب وتَسْـلُك عُقُودُ الأفلاك حيث سَلَك، وأنَّه خدم بهـذه العُبُودِيَّة عند وُرُوده إلى دِمَشْق المحروسةِ لنيابةٍ كانتْ عنـايةُ مولانا سـفيرةَ أمْرِها، ومميِّزةَ بِرِّها، يوم كذا؛ وسـعادةُ مولانا السلطان ـ خلَّد اللهُ مُلْكَه ـ تَعلَمه وتُعْلِمه، والغيثُ ببركاتِ الدولة القـاهِرة يُسايِره ويَقْدُمه؛ وثَغْرُ المطر يسابِقُ ثغرَ المملوكِ إلى مشافَهـةِ الثَّرى ويَلْثِمُه؛ والرعِيَّة منه آمنـةٌ في سِرْبهـا، وادعةٌ بِظلَال الأبواب الشريفةِ مع بُعْـدها دعَةَ الصَّوارِم في قُرْبِها، وباكرَ المملوكُ يومَ الآثنين الذي بُورِكَ فيه: في الخَميسَـيْنِ من يوم وجَيْش، وآنتصب لمُهِـمَّاتٍ على مثلها في الخِـدْمة يَطِيب أن يَرْفُع لِينُ العَيْش؛ مجتَهِدا فيما هو بصَدَدِه، مستمِدًّا من رَبِّه عز وجل وسَعادةِ سلطانه برَشَدِه، معتَدًّا نِعَمَ مولانا فيما يأتِي [في] ذلك من أوفى وأوفَرِ عُدَده ومَدِده، والله تعـالى يُعين المملوكَ على شُكْرِ منَن مولانا الباطنـةِ والظاهِره، والغائبةِ والحاضِره، والمُقيمةِ والمسافِره، ويصِلُ نَفْع المملوك بوَلَائِه في الدنيا والآخِره؛ ويُقِيم الرَّعايا بالأمْن في كَفَالته التي مابَرِحتْ بعُيُون الأعداء فإذاهُمْ بالسَّاهِره.

الأجوبة عن كتب الأخبار

قال في "موادّ البيان": الأخبارُ على أكثر الأحوال لاأجْوِبةَ لهـا، وإنمـا هي مُطالَعاتٌ بأمور يُنْهِيها الخُـدَّام، وأصحابُ البُرُد إلى السلاطين، ممـا تخْرُج أوامِرُهم

إلىٰ الوُلاة بمـا تضَمَّنته : ممـا يقتضيه كلُّ خبر ينهى من سياسةٍ عامَّة ، أو مصلحة تامّة . قال : فأما ما يستعمِله الإخوانُ فى المكاتبـة بالأخبار التى يكِلُ بعضُهم إلىٰ بعض الإخبارَ بها ، فمنها مايقتضِى الجوابَ ، ومنهـا ما لا يقْتضِيه . قال : وأجوبةُ مايقتضى الجوابَ منهـا تُفْتَنُّ بحسَبِ آفتنان الأخبار والأغراض التى يجيب المُجيبُ بها ، وهو أيضا ممـا لا يعبَّر عنه بقولٍ جامعٍ ولا برَسْم رَسْم كُلِّىّ ، و إنمـا يرجَعُ فيـه إلىٰ الأمور التى يبتدأُ بها ويُجابُ عنها .

النـــــوع السابع عشر
(المُدَاعبـــةُ)

قال فى "موادّ البيان" : وَمعانِى المُدَاعبَاتِ التىيستعمِلها الإخوانُ غيرُ مُتناهِيَه ، والأغراضُ التى ينْتظِمُها المِزاح وتُعـدُّ من طَلَاقة النفس لا تَقِف عند قاصِــيه : لِأنها مســتَمْلاةٌ من أحوالٍ متباينه ، ومأخوذَةٌ من أُمُور غير معيَّنه ، وحصْرُها فى رُسومٍ جامعةٍ يستحيلُ ، وتمثيلُها غير مُفِيد : لأنه لاتعلُّق لبعضها ببعْض ، ولا نِسبةَ بينَ الواحِد والآخَر ؛ ثم قال : والأحسَنُ بأهل الوِدَاد والصَّـفاء ، والأليَقُ بذَوِى المخالَصَة والوَفَاء ، أن يتنَزَّهوا فى المُداعَبة الدائرةِ بيْنَهُم عن بَذِىء اللفظ ومُفْحَشه ، ومؤلِمِ الخطاب ومُقْذِعه ؛ ويكُفُّوا اللسانَ واليَدَ عن الآنطلاقِ بمـا يدُل علىٰ خفَّة الأحلام ، والرِّضا بالرَّذْل من الكلام اللائقِ بسُـفَهاء العَوامّ ؛ ويتحرَّجُوا من إرسالِ قولٍ يَبْقىٰ وَصْمةً علىٰ [مَدىٰ الأيَّام] إذْ لافرقَ بين جَرْح اللسانِ وجَرْح اليَد ، وقد نطَقَ بهذا المَثَلُ : لما فىذلك من الترفُّع عن دَنَايَا الأُمُور التى لايتنازَلُ إليها الكُرماء ، والتنزُّه عن المَسَاقط التى لايستعمِلُها الأُدَباء ، وصيانةِ المُروءة عما يَشِينها ويَخْدشُها ، وتَوْقيرها

عما يَنْقُصها ، والأَمْنِ من الجواب الذى رُبَّما قَدَح فى النفس وأثَّر ، وأحْمىٰ الصدْرَ وأوْغَر ؛ ونَقَل عن التَّوادُد إلىٰ التَّضادُد ، وعن التَّـدانِى إلىٰ التَّبَاعُد ؛ وقد أشارَ إلىٰ ذٰلك أميرُ المؤمنين علىّ كَرَّم اللهُ وجْهَه بقوله من أبياته المنسوبة إليه :

فَـرُبَّ كَلَامٍ يَمضُّ الحَشَـا * وَفِيهِ من الضِّحْك ما يُستَطاب

مع مُراعاةِ السلامةِ من المُداخَلة المُنْطوِيَةِ علىٰ الغِلّ ، والمُراآةِ المبنيَّة علىٰ المكْر ؛ إذا لم يكُنْ للمقابَلَة علىٰ الآبتـداء المُمِضّ بالجواب المريض ، وغير ذٰلك مما لا تُؤْمَن عاقبتُه ، ولا تَحْسُن عائدتُه . قال : ويكون المستعْمَل فى هذا الفَنِّ ماخَفَّ موْقِعُه ؛ ولَطُف مَوْضِعُه ، وهَشَّ له سامِعُه ؛ وتلَقَّاه الواردُ عليه مستَحْليا لِثِمارِه ، مستَدْعِياً لأنْظاره ، ولا يُعـدَل به عن سَمْت الصِّدْق ، وطريق الحَقّ ، ومَذْهب التحرُّز من المَذْق ؛ ويُقتَصَر فيه علىٰ النادِرة المستَطْرَفه ، والنُّكتة المُستَظْرَفه ؛ واللُّمْعة المستحْسَنَة ، والفِقْرة المستَغْربة ؛ دُونَ الإطالة المُمِلَّة ، ولا يجعل المَزْحَ غالباً علىٰ الكلام ، مُداخِلًا لجميع الأقسام : فإنَّ ذٰلك يُفْسِد معانِىَ المكاتبـه ، ويُحِيل نِظامَ المخاطَبـه ، ويَضَع من مَعْناها وإنْ كانَ شَرِيفا ، ويُوخِمُ لَفْظَها وإن كان لَطِيفا ؛ ويَذْهَبُ بجِـدِّها فى مَذْهب الهَزْل ويُميله عن القَصْد ؛ وإلىٰ ذٰلك يُشِير بعضُهم بقوله :

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالجِدِّ راحةً * بلَهْوٍ وعَلِّلْهُ بِشَىْءٍ من المَزْحِ!

ولٰكنْ إذا أعْطَيْتَهُ المَزْحَ فلْيَكُنْ * بمِقْدارِ مايُعْطىٰ الطَّعامُ مِن المِلْحِ!

وأنْ يَقْتصِد مع ذٰلك . ثم قال : وينبغى أن يَقْصد إلىٰ آستِعْمال الدُّعَابةِ فى المواضع اللائقةِ بهـا ، والأحوالِ المشابِهةِ لهـا ؛ ولا يُودِعَ باباً من الأبواب ، مالا يحتَمِلُه من الخطاب : فإنَّ القصْدَ فى هذا النَّوْع من المكاتبات إنما هو الإعْرابُ عن الظَّرْف والبَرَاعة ، والإبانَةُ عن طَلَاقة النَّفْس ؛ والآنِسـلاخُ من تعبيس الفَـدامة

والجَهَامة؛ ثم عَقَّب ذلك بأن قال : ومَنْ وَقَف من ذلك عند الحدّ الكافِى، ولَزِم فيه الأَدَبَ اللائق بأهْلِ التَّصافِى ، دلَّ علىٰ ما ذكرناه ، وشهد لمستعْمله بإحراز ما وصَفْناه ؛ ومَنْ تعدّىٰ ذلك عُدّ من المُجُون والمُلَاعبة ، وحُسِب من رَذَالة الطبع ونَذَالة الخِيم وسَفَه اللسان ، وغير ذلك من الأمور التى لاتليقُ بالكاتبين الكِرام ، الذين هم خِيَارُ الأَنَام، ووُلاةُ النقض والإبْرام . وختم ذٰلك بأن قال : والكاتب إذا كان مهيَّأً الطبع للانطباع برسوم الصِّناعة ومُناسبةِ أوضاعها ، أغناه الوقُوفُ علىٰ هذا القول المجمَل فى آستعمال مايقَع فى هذا البابِ عن تمثيلٍ مفصَّل . ولم يذكر له مِثَالا .

ابن أبى الخصال :

سيِّدى وواحِدى الذى أَجَمِّل ذِكْرَه ، وأُوالِى شُكْره ؛ لا زال مَغْناكَ رَحيبا ، وزَمانُك خَصيبا ، ولا زِلْتَ تأخُذ لِأُخْراك نصيبا ؛ عبدُك فلان مؤدِّيها ينتجع الكِرام ، ويُبارِى فى جَرْيها الأيَّام : فتارة يجْمَع ، وأخرىٰ يفرِّق ؛ وطورًا يُغَرِّب، وطورًا يُشَرِّق ؛ وأَمَّ الحضْرة ـ وصلَ اللهُ حِراسَتَها ، وأدام بهْجَتَها ونَفاسَتها ـ والمُلْك بها غَضُّ الشَّباب، أخضَرُ الجِلْباب؛ وإحسانُك إحسانُك، ومكانُكَ من المُرُوءة مَكانُك؛ فأَوْسِعْه قِرَى، وآمْلأْ عينَيْه علىٰ الشِّبَع كَرىٰ ، أستَغْفِر الله، بل أَمْجِدْه تِبْنا وعَلَفا ، وأَرْكِبْه حَزْنا من الأرض ظَلَفا (١) ؛ ودُونَكَه لم يقلِّب أرضَه بَيْطار ، ولا لِجنايةٍ به جَبَّار، وجُرْحُه جُبَار ؛ وعنده كما علمت دعاءٌ مُبَاح ، وثناءٌ فى الشكر مَساءً وصَباح ؛ والسلام .

---

(١) الظلف بالتحريك ماغلظ من الارض فلم يؤدّ [أى لم يظهر] أثرا . انظر اللسان ج ١١ ص ١٣٤ .

من كلام المتأخريـــن :

كتب بعضُهم إلىٰ كمال الدِّين بنِ الأثير ، وقد جاء إليــه فى بُســتانه فلم يجِدْه ولا وجد مَنْ أنْصفَه .

حضَر المملوكُ البُسْــتان، مســتَدْنياً قُطوفَ الإنعامِ والإحْسان، وٱسْتَمْطر سحائبَ فضله ، وهزّ إليه بجِذْع نَخْلِه ، فلم تَتَساقَطْ عليــه رُطَباً جَنِيّا ، فعلِم أنه قد جاءَ شَيْئاً فَرِيّا ، فثبّت نَفْسَه مع تَصاعُد الأنفاس ، والطمعُ ينشده :

* مافى وُقُوفِك ساعةً من بَاس *

فانطلق حتّى أتىٰ القرية مستطْعِما أهلَها فأبَوْا أن يُضَيِّفُوه، مستعْطِفا حاشِيَتَه الرقيقَــة فأبَوْا[1] حاشِيتُه أن يستَعْطِفُوه، وقال كلُّ منهم : تُطالِبُ بالقِرىٰ كما تُطالِبُ بدَيْنِك! ٱرجِعْ حيثُ شِئْتَ هــذا فراقُ بَيْنِي وبَيْنِك! وعلِمَ أنه لو أقامَ بها جِدَارا لَمَـا أُعْطِىَ عليه أجْرا، ولو حاول قِرًى لسَمِع من التوبيخ مالم يَسْتَطِعْ عليه صَـبْرا، فرجع بخُفَّىْ حنين، بعْدَ مَشَاقّ جرّعتْ كاساتِ الحَيْن، فأينَ هــذه المعاملة ممـا نُشِيعه عنه من كريم الخِلاَل، وكيف نَشْكو نَقْصَ حظّ وله كمالُ الإحسان وإحْسانُ الكَمال .

الأجوبةُ عن رِقَاع المُدَاعبــــة

قال فى "موادّ البيان" : ينبغِى للمُجيب عن المُداعبة أن يشْتَقّ من نفس الابتداء جواباً مناسِبًا لهــا ، وأن يَبْنِيَه متىٰ أحبَّ الأخْذَ بالفضــل علىٰ المُسامحة ، وٱطِّراح المناقشة، والإغضاءِ عمّـا يُمِضُّ إبقاءً علىٰ المودّة، وتحسيناً لقُبْح الصَّديق ، وتعوُّدا لعادةِ الحلم والٱحتمال، وأن يَذْهَب فى الجواب مَذْهبَ الٱختصار ، وإيرادِ النُّكَت الرائعة كما فى الٱبتداء، علىٰ ما تقدّم .

(١) كذا فى النسخ وهو على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة .

الفصـــــل الثـامن [1]
(فى إخفـاء ما فى الكُـتُب من السِّرّ)

وهو ممـا تَمَسُّ الحاجةُ إليـه عند آعتراض معترِضٍ من عدوّ ونحوه يحُولُ بين المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه : من مَلِكين أو غيرهما حيث لم تُفِد المُلطّفات لضرر الرَّصْد و زيادة الفَحْص عن الكُتُب الواردةِ من الجانِبَيْنِ، وهو علىٰ نوعين :

النـــــوع الأوّل
(مايتعلّق بالكتابة، وهو علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل
(ما يتعـــلّق بالمكتـــوب به)

وذٰلك بأنْ يُكتَب بشىْء لايظْهَر فى الحال، فإذا وصـل إلىٰ المكتوب إليه فعل فيـه فِعْلا يكونُ مقرّرا بين المتكاتبين من إلقاء شىْء علىٰ الكتابة، أو مَسْحه بشىء، أو عَرْضِه علىٰ النار ونحو ذٰلك .

وقد ذكروا لذٰلك طُرُقا :

منهـا — أن يُكْتَب فى الوَرَق بلَبَنٍ حلِيبٍ قد خُلِط به نُوشَادِر فإنه لاتُرىٰ فيـه صورةُ الكتابة، فإذا قُرِّب من النار ظهَرتِ الكتابةُ .

ومنهـا — أن يُكتَب فى الورق أيضا بمـاءِ البَصَل المُعْتَصَر منه فلا تُرىٰ الكتابةُ فإذا قُرِّب من النار أيضا ظَهَرت الكتابةُ .

---

(١) أى من الباب الثانى من المقالة الرابعة وهو آخر فصولها فهى ثمانية لاستة وتقدم فى ج ٦ ص٣٦٥ أنها ستة موافقة للأصول فتنبه .

ومنها — انه يَكتُب فيا أراد من وَرَق او غيره بماءٍ قد خُلِط فيه زاجٌ، فلا تظْهَر الكتابةُ، فإذا مُسِح بمـاءٍ قد خُلِط فيه العَفْص المدقُوق، ظهرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يَكْتُب فى الورق غيرِ المُنَشّى بالشَّبِّ المحلُول بمـاء المطر، ثم يُلْقيه فى المـاء أو يَمْسَحُه به، فإنه إذا جَفَّ ظهرتْ فيه الكتابةُ .

ومنها — أن يكتُبَ بمَرَارة السُّلَحْفاة فإنَّ الكتابة بهـا تُرىٰ فى الليـل ولا تُرىٰ فى النهـار .

ومنها — أن تأخُذَ الليمونَ الأسـودَ وعُروقَ الحَنْظل المقْلُوَّةَ بزيتِ الزيتونِ جزأين مُتساوِيَيْنِ وتَسْحَقَهما ناعمًا، ثم تُضيفَ إليهما دُهْنَ صَفَار البَيْض وتكتُبَ به علىٰ جسد من شئْتَ، فإنه يَنْبُتَ الشَّعرُ مكانَ الكتابة، وهو من الأسْرار العَجيبة؛ فإذا أُريد إرسالُ شخصٍ بكتابٍ إلىٰ مكانٍ بعيدٍ، فُعِل به ذٰلك، فإنه إذا نبتَ الشَّعر قُرِئت الكتابةُ .

الضـــرب الثـانى

(ما يتعـــلق بالخَـــطّ المكـتُوب)

بأن تكون الكتابةُ بقَلَمٍ ٱصطَلَح عليه المُرسِلُ والمُرْسَـل إليـه لايعرِفُه غيرُهمـا ممن لعَلَّه يقِف عليه، ويسمَّى التعمية، وأهـلُ زمانِنا يعبِّرون عنه بحَلِّ المُتَرْجَم، وفيه نظر: فإنَّ الترجمةَ عبارةٌ عن كَشْف المُعَمَّى، ومنه سُمِّى المعَبِّر لغيره عن لُغَة لايعرِفُها بلُغةٍ يَعْرِفُها بالتَّرْجُمان، وإليـه يَنْحَلُّ لفظُ الحلِّ أيضا؛ إذ المرادُ من الحلِّ إزالةُ العَقْد فيصيرُ المرادُ بحَلِّ المُتَرْجَم ترجمـةَ المُتَرْجَم أو حَلّ الحل، ولو عُبِّر عنه بكَشْف المُعَمَّى لكان أوفقَ للغرض المطلُوب .

ثم مبنىٰ ذلك علىٰ قاعدتين :

القاعدةُ الأُولىٰ — كيفية التعمية .

اِعلَم أنَّ التعميةَ بالنِّسبة إلىٰ كلِّ واحد من الناس باعتبار ما يجهَلُه من الخُطُوط ، فيعَمَّى علىٰ العربيِّ فى اللغــةِ العربيَّة بالخُطُوط غير العربيــة ، كالرُّوميَّة والعِبْرانيَّـة ونحوهما ، إذا كانت حروفُ تلكَ اللغةِ تُوافِقُ لغةَ العرب ، أو بقلمٍ مصطلَح عليه علىٰ وَفْق حُروف العربيــة ؛ وكذٰلك يعمَّى علىٰ غير العربيِّ من الرُّومى ونحوه ممن يجهلُ الخطَّ العربيَّ بالقلم العربىّ ، وعلىٰ ذٰلك .

ثم للناس فى التعمية مَذْهبانِ :

المَذْهَبُ الأوّلُ — أن يُكتَبَ بالأقلام القديمة التى ليستْ بمتداوَلةٍ بين النــاس ممــا لا يعْرِفُه إلَّا الآحادُ ، إذا وافق ذٰلك القلمُ اللغةَ التى تُرِيد الكتابة [بها] .

وقد ذكر ابنالدُّرَيْهِم أنَّ أقلَّ اللُّغات المُغْل وهو ســبعَةَ عشَرَ حرفا ، وأطولهــا الأرْمنِيُّ ، وهو ستةٌ وثلاثونَ[1] حرفا . ثم قال : والتركىُّ عشرون[2] حرفاً ، وكذٰلك الفارسىّ إلا أنَّ فى الفارسىّ ثلاثةَ أحرف ليستْ فى التُّركى ، وهى الهاءُ والفاءُ والدالُ . وفى التركىّ ثلاثة ليست فى الفارسى : وهى الصادُ والطاءُ المهملتانِ والقافُ ، والعِبْرانىّ والسُّريانىّ آثنان وعشرون حرفا [من أوّل أبجد إلىٰ آخر قرَشَتْ . واليُونانِىُّ والرومىّ القديمُ أربعةٌ وعشرون حرفا][3] ولهم قلَمٌ آخر ثلاثون حَرْفا ، والقِبْطىُّ آثنان وثلاثون حَرْفا ، وذكر أنَّ جميع الأقلام مقطَّعةُ الحروف علىٰ آصطلاح أبجــد ، خلا العربِىَّ والمُغْلىّ

(١) فى هذا الحصر مخالفة لمــا تقدّم فى ج ٣ ص ١٩ من هذا المؤلف فراجعه وحرر .

(٢) قد تقدّم أنه من أربعة وعشرين الى ستة وعشرين حرفا فتنبه .

(٣) زائد فى بعض النسخ .

والسُّريانىّ فإنّ حروفها تُوصَل وتُقْطَع، وقطع السريانى كالعربى، وأقلامُ المتقدّمين المُقرّرة : كالرُّومىّ والفَرَنْجىّ وغيرهما معلومةٌ لاحاجة إلىٰ التمثيل بشىءٍ منها.

المذهب الثانى — أنْ يَصْطَلِح الإنسانُ مع نَفْسه علىٰ قلم يبْتكِره وحُروف يُصَوّرها، وقد ذكر ٱبن الدُّرَيْهِم أنّ الناس ٱختلفَتْ مقاصِدُهم فى ذلك :

فمنهم — من يصطلِح علىٰ إبدال حرفٍ معيّن بحرفٍ آخَرمعيّن حيثُ وقع فى القلم المعروف بالقُمّى، وهو أنهم جعلُوا مكان كلّ حرف من حروف العربية حرفًا آخر من حروفها، فجعلوا الكافَ ميما وبالعكس، والألفَ واوًا و بالعكس، والدّال المهملة راءً مهملة و بالعكس، والسينَ المهملةَ عينا مهملة و بالعكس، والفاءَ ياءً مثناة تحتيةً و بالعكس، فيكتب محمد «كطكر» وعلى «سهف» ومسعود «كعسار» وعلىٰ ذلك، وقد نظم بعضهم ذلك فى بيتٍ واحد ذكر فيه كلّ حرف تلو مايُبْدَل به، وهو :

كَمْ أَوْ حَطِ صِلاَ لَهُ دَرْ سَعُ * فى بَزْ خَشِ غَضٌ ثج تَدَفق

قال : ومنهم — مَنْ يعكِسُ حروفَ الكلمة فيكتُب محمد «دمحم» وعلى «يلع».

ومنهـم — من يبُـدِل الحرفَ الأوّلَ من الكلمـة بثانِيهِ مُطْلَقا فى سائر الكلام فيكتب محمد أخو على «حمدم خا عويل» إلىٰ غير ذلك من التمييزات.

ومنهـم — مَنْ يُبْـدِل الحروفَ بأعدادها فى الجُمّـل ؛ فيكْتب محمد أربعون، وثمـانية، وأربعون، وأربعة، وتعمل التعميةُ صفةَ محاسَبة.

ومنهـم — من يكتُب عِوضَ عدَد الحرف حُرُوفا وهو ابلغُ فى التعْمِيَة ؛ فيكتب محمد «لى بو لى اج» لأنّ اللام والياء بأربعين وهى عدد ماللميم الأولىٰ، والبـاء

والواو بثمانية وهى عدد ما للحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهى عدد ما للميم الثانية، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ماللدال، فكأنه قال : م ح م د . وإن شاء أتىٰ بغير هذه الحروف ممـا يتضمن هذه الأعداد .

ومنهـم — من يجعَلُ لكلِّ حرفٍ ٱسمَ رجل أو غيره .

ومنهـم — من يَضَع الحروفَ علىٰ منازل القمر الثمانيـة والعشرين علىٰ ترتيبهـا علىٰ حروف أبجد : فيجعل الألف للشَّرَطين ، والباء للبَطِين، والجيم للثُّرَيَّا ، وهكذا إلىٰ آخرها ، فيكون بطنُ الحوت للغين من ضـظغ . وربمـا ٱصطُلِح علىٰ الترتيب علىٰ أسماء البُلْدانـ أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذٰلك ، أو صُوَر الطير وغيره من الحيوانات، إلىٰ غير ذٰلك من ضروب التَّعامِى التى لايأخُذُها حَصْر. وأكثَرُ أهل هذا الفنّ علىٰ أن يرْسُم الحروفَ أشـكالا يختَرِعها قلَمـا له مقطَّعـة علىٰ ترتيب حروف المعجم . والطريق فى ذٰلك أن يُثْبِت حروف المعجم ثم يُرتِّب تحتَ كل واحد شَكْلا لايمـاثِلُ الآخَرَ، فكلما جاءه فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لايقَعُ عليـه غلطٌ؛ ثم يفصل بين كلِّ كلمتين : إما بخط أو بنقط أو ببياض أو دائرة أو غير ذلك؛ وأكثَرُ المتقدِّمين يجعلون الحرفَ المشدّدَ بحرفين، والمتأخرون يجعلونه حرْفًا واحدا، وهذه صور حروفِ مترْجَمٍ كان قد وصل إلىٰ الأبوابِ السلطانية من مُناصِحينَ فى بغداد يُقَاس عليه

ص	ش	س	ز	ر	ذ	د	خ	ح	ج	ث	ت	ب	ا
حو	ع	طه		/	محام	ه	#	عد	لم	س	لا	ط	ه

ى	لا	و	ه	ن	م	ل	ك	ق	ف	غ	ع	ظ	ط	ض
كم	٨	لد	ے	هد	د	لا	مى	سجد	٥	٦	٢	=	نعر	لل

القاعدة الثانية — حلُّ المعمَّى، وهو مقصودُ الباب ونتيجتُه .

ويحتاج المتصدِّى لذٰلك مع جَوْدة الحَدْس وذَكاء الفطرة أن يعرفَ اللغـةَ التى يروم حلَّ مترْجَمِها ممـا وَقَع به التعميةُ فيها، ومِقدارَ عدد حُروفِها؛ ولا خفَاءَ فى أن حروفَ العربية ثمـانيةٌ وعِشْرون حرفًا ، ويجب أنْ يعرِفَ الحروفَ التى تدخُل كلَّ لغة والحُروفَ الممتنعةَ الوقُوعِ فيها كما تقدّم .

ثم المعَوَّل عليـه، والمنصَبُّ القول إليـه، فيما هو متعارَف فى هذه المملكة لغـةُ العرب التى [هى] أشرفُ اللغات وأبْذَخُها .

والناظِرُ فى حَلِّ مترجَمِها يحتاجُ إلىٰ أصلين :

الأصلُ الأوّلُ — معرفة الأُسّ الذى يترتَّب عليه الحَلُّ ؛ والذى تمسُّ إليـه الحاجةُ من ذٰلك سبعةُ أُمُور :

أحدها — أن يعرف مَقَادير الحروفِ التى تتركَّب منها الكلمة .

واَعلَمْ أنَّ كلام العرب منـه ما يُبْنىٰ علىٰ حرفٍ واحدٍ مثـل «ق» من الامر بالوِقَاية، و «ع» من الأمر بالوَعْيِ؛ ومنه مايبنىٰ علىٰ حرفَيْنِ من الأفعال مثل «قُمْ» فى الأمر بالقيام ، و «كُلْ» فى الأمر بالأَكْل؛ ومن الحروف نحو : مِنْ فِي رُبَّ هَـلْ بَلْ وما أشـبه ذٰلك ؛ ومن الأسمـاءِ المبنيَّة نحو : ذِي ذَا مَنْ كَمْ ؛ ومن الضـمير مع حروف الجرّ نحو : بِكَ لَهُ ؛ ومنـه ما يُبنىٰ علىٰ ثلاثةِ أحرُفٍ وأربعـةٍ وخمسـةٍ فى الحُروف والأفعـال والأسمـاء ، ثم تدْخُل فيه أحرف الزيادةِ العشرةِ ، وهى « هَوِيتـه السِّمانَ » وثلاثةُ أحْرُف أُخَر، وهى الفاءُ وباءُ الجرِّ وكافُ التشبيه

وكافُ الخطاب إلىٰ أنْ تبلُغَ الكلمةُ علىٰ اصطلاح الكُتَّاب [أربعةَ] عشَرَ حَرْفا ، كقولك مخاطبًا لرجلين [أنْشَآ] جُنَينةً : أَفَلَمُسْتَنْزَهاتِكُمَا أعددتماها .

قال ابن الدُّرَيْهِم : وليس فى كلامِ العربِ كلمةٌ رُبَاعِيَّة الأصل أو خُماسيَّةُ الأصل ليس فيها حَرْف من الحُرُوف الذَّلَقِيَّة كاللام والنون والواو، والشَّفَوِية كالفاءِ والمِيم والباء إلا ماشَذَّ مثل «عَسْجَد» من أسماء الذَّهَب .

قال : ونهايةُ الأسماءِ العربيَّة قبل الزِّيادة خمسةٌ، وشَذَّ(؟) مثلُ عَنْدَلِيب ، والأفعالِ قبل الزيادةِ أربعةٌ، وليس فى القرءان كلمة خُماسِيَّةُ الأصل سِوىٰ الأسماءِ الأعْجَمِية مثل إبْراهِيم ، ولا يمكنُ أن يتكرّر حرفٌ [فى] كلمةٍ واحدةٍ أكثرَ من خمسة كقول القائل ما رأينا [كُكَكا كَكُكَكُكْم](١) جمع كُكَّة وهو المركب الكبير مثل عُكَّة وعكَك، وأربع كافات فى قولك (٢) وكَكَعْكِك .

الثانى — أن يعرِفَ الحروفَ التى لا يُقاربُ بعضُها بعضا بمعنَى أنها لا تجتمع فى كلمةٍ واحدة .

واعلم أنَّ فى الأحرف مالا يُقارب بعضُه بعضا مطلقا بتقْديم ولا تأخير كالثاء المثلَّثة ، فإنها لاتقارِب الذالَ المعجمة والزاىَ المعجمةَ والسينَ والصادَ المهملتين والضاد المعجمةَ، وكذلك الجيم لاتُقارب الطاء المهملة ولا الظاءَ المعجمة ولا الغينَ

(١) بيض له فى الاصول وقد صححناه من المقام ، ولكن لم نعثر علىٰ هذا البناء فى كتب اللغة ولعله عامىّ تأمل .

(٢) بياض فى الاصل .

المعجمةَ ولا القافَ ولا الكافَ، وما وقع من ذلك فى الكلام نحو : نُغْجَة وبَرْجَق وجُرْمُوق وجَوْلَق وجُلَاهِق ومَنْجَنِيق وجَوْقة وجَوْسَق وصَنْجَق وسَنْجَق وجَرْدَق ونحو ذلك فليست عربيـةً : لأنه لا يجتمع فى كلام العرب جيم وقاف فى كلمةٍ واحدة ؛ وكذٰلك الدال المهـملةُ لا تقارنُ الظـاءَ المعجمة والذالُ المعجمة لا تُقارن الزاى المعَجمةَ والصادَ والضادَ والطاءَ والظـاءَ ، وما وقع فى الكلام من ذٰلك فليس بعربىّ، مثل طبرزذ فارسىّ والزُّطُّ نبطىّ ، ولا تقارن السينُ المهملةُ الصادَ المهملةَ والضادَ المعجمةَ والظاء المعجمةَ ؛ ولا تقارن الصادُ المهملة الضادَ المعجمةَ ولا الظاء المعجمةَ ، ولا تقارن الضادُ المعجمةُ الشـينَ والظاء المعجمتين ؛ ولا تقارن الطـاءُ المهملةُ الظاء المعجمةَ ؛ ولا تقارن القاف الغين المعجمةَ ولا الكافَ فى كلمةٍ أصلية ، وشَـذَّ نَغق الغُرابُ وناقة نَغيق [(1)] ؛ ولا تقارن الكافُ الخاءَ المعجمةَ فى كلمة أصلية ، ولا تقارن الميمُ البـاءَ الموحَّدة والفاءَ فى كلمة أصليَّة إلا فى فَمٍ وأصـله فوَه ، وأما بَمٌّ لأحدِ أوتار العُود فليس بعربىّ ؛ والحروفُ الحَلْقيَّة لا يُقارن بعضُها بعضًا خَلَا الهاءَ فإنها تَعْقُبها زائدة ، كهاءِ الضمير وهاء التأنيثِ ، وتعقب العيْنَ أصليةً كالعَهْد والعَهْر وعَهِر ؛ وليس فى كلمةٍ أصلية حرفانِ حلْقيَّان سِوىٰ ما تقدّم من الهـاء ، وقد تعقُب بواسـطةٍ كغَيْهَب وعَبْهر ؛ أما حَيْهل فمركَّبة ، ولا يجتمع حرفان من هـذه الخمسة : وهى الهاءُ والطاءُ المهملة (؟) والعينُ والغينُ والخاء المعجمةُ فى أوّل كلمة سِوىٰ ماذكر ، ولا فى أثناء الكلمةِ إلّا الهاء مع العين كهَلعَ والهاء مع الغين كأَهْيَغ ، والخاء مع الغين كأَخْيغ ، والهاء مع الخـاء المعجمة فى كلمة واحدة وهى هَبَيَّخَة [(2)] ؛ ولا تجتمع الهـاءُ

---

(١) فى الأصول العين المهملة وهو غير مستقيم . وفى كتب اللغة ناقة نغيق «أى باعجام الغين» اذا كانت تبغم مرة بعد مرة .

(٢) لم توجد فى كتب اللغة التى بأيدينا .

الأصليةُ مع الخاءِ المعجمةِ ، ولا الحاءُ المهملةُ والعينُ المهملةُ إلا أن تكون مركّبة مثل هرقصع (؟) والحَيْعَلة .

الثالث — أن يعرِف الحُروفَ التى لا تُقارن بعضَ الحروف فى الكلمات إلّا قلِيلا، كمقارنة السِّين المهملة للشِّين المعجمة فى شِسْع والشين مع الزاى كشَزْر والراء مع اللام كورَل .

[وٱعلم] أنَّ الحرفَ الواحدَ يتكرر فى الكلمة الواحدةِ كثيرًا مثل دَهْدَه وتَهْتَه ونَهْنَه وحَصْحَص وحَبْحَب وحَمْحَم وجَلْجَل وخَلْخَال وشَعْشَعة وزَعْزَع ودَغْدَغ وبَغْبَغ ونَعْنَع وعَسْعَس وزُعَازِع وغَوْغاء وضَحْضَاح وخَوْخ وما أشبه ذٰلك .

الرابع — أن يعرف ما يجوز تقديمُه علىٰ غيره من الحروف وما يمتنِع ، فالثاء لا تتقدّم الشِّينَ المعجمة ، والدالُ المهملة لا تتقدّم علىٰ زاى[1] ولا صادٍ مهملة ولا طاءٍ مهملة بدليل أنهم لما عرَّبوا مُهَنْدِز ، أبدلوا الزاى سينا فقالوا مُهَنْدِس وهَنْدَسة ، والذالُ المعجمة لا تتقدّم الجيمَ ولا السِّينَ المهملةَ ولا الشينَ المعجمةَ ولا العينَ المهملةَ ، ومن هنا لَمَّا عرَّبوا الفالُوذَج من الفارِسيِّ قالوا فالُوذَق ؛ والشين المعجمة لاتتقدّمها الزاىُ المعجمةُ ولا السينُ المهملةُ ولا الصادُ المهملةُ ؛ والطاء المهملةُ لا تتقدّم الكافَ فى كلمة أصلية ؛ والسين المهملة لاتتقدّم علىٰ الدال المهملةِ إلّا قليلا كسَدَاب[2] ، والذالُ المعجمة لا تتقدّم علىٰ الدال المهملة إلا قليلا كقولك فى الأمر ذُدِ الغَنَم .

---

(١) فى الأصل "علىٰ نون" وهو غير مستقيم كما لايخفى .

(٢) أورده القاموس بالذال المعجمة وتكلم عليه شارحه ثم قال ويوجد فى بعض كتب النبات بالدال المهملة .

الخـامس ــ أن يَعْرِف ما لا يقَع فى أوّل الكلمات من الحروف كالجيم لا تقع بعدها التـاء المثناةُ فوق ولا الصادُ المهملة ولا الضادُ المعجمةُ ولا الغين المعجمةُ؛ أما الجِصُّ فمَعَرَّب .

السادس ــ أن يعرِفَ أنه لا يتكَرَّر حرفٌ فى أوّل كلمة إلاَّ من هذه العَشْرة الأحرِف وهى: الكافُ واللامُ والميمُ والنونُ والتـاءُ المثناة فوقُ والألفُ والبـاءُ الموحَّدة والواوُ والقافُ واليـاءُ المثناة تحتُ ويجمعها قولك «كُلُّ مَنْ تابَ وُقِى» وأقلُّها وقوعا كذٰلك الياءُ .

السابع ــ أن يعرِف أكثَرَ الحروف دَوَرَانا فى اللُّغة، ثم الذى يليه من الحُروف فى الكَثْرة إلىٰ أقلِّها دَوَرَانا .

وٱعلم أنَّ كلامَ العرب أكثَرُ مايقَع فيـه علىٰ ما دلَّ عليـه ٱستقراءُ القرءانِ الكريم الألفُ ثم اللامُ ثم الميمُ ثم اليـاءُ المثناة تحتُ ثم الواوُ ثم النُّون ثم الهـاءُ ثم الراءُ المهـملةُ ثم الفـاءُ ثم القافُ ثم الدالُ المهـملةُ ثم الذالُ المعجمةُ ثم اللامُ ألف ثم الحاء المهملةُ ثم الجيمُ ثم الصادُ المهملة ثم الخـاء المعجمةُ ثم الشـينُ المعجمة ثم الضادُ المعجمة ثم الزاىُ المعجمة ثم الثـاءُ المثلَّثة ثم الطاءُ المهملة ثم الغينُ المعجمةُ ثم الظاء المعجمةُ؛ وقد جمع بعضهم أحرفَ الكَثْرة فى قوله (اليمونه) وبعضهم يجمعها فى قوله (اليوم هن) وجمع الحروفَ المتوسطةَ فى قوله (رعفت بكدس نخج)[1] وجمع أحرفَ القلَّة فى قوله (طظغ صخذز قش) .

(١) تأمل هذا المثال وما بعده وحررهما .

قال ٱبن الدُّرَيْهِم : وقد يقع فى لَفْظ غير القُرءان علىٰ خلاف ذٰلك كما يتعمَّدون النَّظْم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة، وقد يكون الكلام ألفاظا قلائلَ لاتستوعِبُ الحروف .

الأصل الثانى ـ كيفيةُ التوصُّل بالحَدْس إلىٰ حَلِّ المتَرْجَم :

قال ٱبن الدُّرَيْهِم : إذا أردْتَ حلَّ ماتُرْجِم لك، فٱبدَأْ أوّلا بعدد الحروف، وكم تكَرَّر كلُّ شكلٍ منها مرةً فأثبِتْه أوّلا فأوّلا . قال : وأوّلُ ماتستخرج الفاصلَةُ إن كان الذى عمّى قد بالغ فى التعمِيَة، يعنى بإخفاء الفاصلةِ فى ضِمْن الحروف؛ وذٰلك أنك تأخذ حرفا فتظُنُّ أنّ الفاصلةَ تكون الثانى فتُجْريه علىٰ ماتقرّر من الكلمات من المقادير علىٰ ماتقدّم؛ فإنْ وافق وإلا أخذتَ الثالثَ ، فإن وافقَ وإلَّا الرابع وهكذا حتّى يصحَّ لك انفصالُ الكلماتِ، ثم تنظر أكثَرَ الحروف دَورَانا فى الكلام فتُقاربُه من الترتيب المتقدّم فى أكثر الحُرُوف دَوَرانا علىٰ ماتقدّم، فإذا رأيت حرفًا قد وقع فى الكلام أكثَرَ من سائر الحروف فتظنُّ أنه الألف؛ ثم الأكثر وقُوعا بعده فتظُنُّ أنه اللام؛ ويؤيد صحةَ ظنك أن اللام يُدَار فى أكثر ٱستعمالاته تابعًا للألف؛ ثم تنظر إن كان فى الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف؛ ثم أوّل ماتلَفِّق من الكلام الثنائيةَ بتقريب حُرُوفها حتّى يصحَّ معك شيءٌ منها فتنظر أشكالَها وترقُمُ عليها، وتُجْرِى الكلامَ فى الثُّلاثيَّات حتّى يصحَّ معك شيءٌ منها فترقُم نظائره؛ ثم تجرى الكلام فى الرُّباعيَّات والخُماسيَّات علىٰ الوزن المتقدّم؛ وكلُّ ما ٱشتبه فاحتمل ٱحْتمالين أو ثلاثةً أو أكثر تُثْبتُه إلىٰ حين يتعيَّن من كلمةٍ أخرىٰ ؛ فما ٱنتظم لك من ذٰلك

فتُثْبِت الباقِيَ عليـه، وإذا رأيت حرفًا قد تقدّم الألف واللام فى أوّل الكلمة فتظن أنه إما باء واحدة وإما فاء وإما كاف غالبا .

قال : وينبغى أن يكتب للبتدئ أوّلا كلَّ كلمة علىٰ حدتها منفصلةً، وأن يكتب له الشِّـعْر دُون النثر، فإنَّ الوزن يساعده علىٰ ظُهور بعض الحُروف، كهاء التأنيث وتاء التأنيث الساكنة وتاء المتكلِّم والساكن الذى لايمكن أن يكونَ إلا أحد حروف العلةِ الدائرةِ فى الكلام وأمثـالِ ذٰلك، ثم ضرب لذٰلك مثلا بأنك إذا رأيت هـذه الأسطر مكتوبةً بهذا القلم

قال : فينبغى قبلَ كلِّ شيءٍ أن يبدأ فيرقُمَ تحت كلِّ شكلٍ من هذه الأشكال كم تكرر مرَّة أوّلاً فأوّلاً علىٰ هذا المثال

فيجد قد تكَرَّر معه هذا الشكل ه أكثر من كلِّ الأشكال بكثيرٍ، فيعلم أنَّه الألفُ فيرْقُمُ عليه فى مواضعه، ثم المكَرَّر بعده أكثَرَ من باقى الأشكال هـذا الشكل ع فيظُنُّ أنه اللامُ ويحقِّق ظنَّه كونُه تابعًا للألف فى سبعةِ مواضِعَ من الكلام؛ ثم ينظُر فيجِدُ فيـه حرفًا واحدا كلمةً فيظُنُّ أنهـا اللامُ ألف؛ ثم يجد الكلمة الثالثـةَ ثُنائيَّة ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه : بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا غلا فلا كلا هلا ولا؛ ثم يجد هذا الشكل ⵀ الذى مع اللام ألف قد ورد مكررا فى أوّل كلمـة آمتنع أن يكون جيا أو حاء أو خاء أو سينا أو عينا أو غينا أو هاء فلم يبق معنا سوىٰ بلا تلا فلا كلا ولا ؛ ثم يجد الكلمةَ الخامسةَ ثُنائيَّة ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا، ثم يترجَّح أنهـا ما أو يا لأن هذا الشكل ⌶ قد تكرر أكثر من باقى الحروف فيكون إمَّا الميمَ أو اليـاء وإن قاربهما النون لكِنْ ما ويا أكثر وقْعا فى الكلام من نا فإنها غريبةُ الوقوع، ثم رأينا هـذا الشكلَ المتقدّم قد تلا الشكلَ الذى مع اللام ألف الذى ظننـا أنه أحد هـذه ه ب ت ف ك وفى الكلمة الثلاثيـة المكرر أوّلهـا ⊂⊃ ⊏⊐ ⌶ فجـرَّبنا الحروف مع المـيم فظهر منهـا لفظة «ففى» لاغير؛ ثم نظرنا هذا الحرف ⊏⊐ فوجدناه وقع فى أربعة مواضع فى الكلام لاغير، فقلنا إنه الفاءُ : لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثَرَ من ذلك غالبا، فصَحَّ معنا أنَّ الكلمة الثالثـةَ «فلا» والكلمة الخامسة «يا» والحرفَ المفرد «لا» والكلمة الخامسة منـه هى رايد ذلك أننا وجدْنا الكلمةَ الحـاديةَ عشرةَ قد تكرر [فيها] بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر، ولا يُمكن أن يتكَرَّر حرف فى مثل هذا المكان سوىٰ الميم إذا جَرَّبته علىٰ جميع الحروف، فقلنا : المَمَات

المَاح المَار المَاس المَاع ؛ ورأينا هذا الشكل T الذى هو آخر الكلمة
قد تكرر أكثرَ من باقى الحروف بعد الألف واللام والباء ، فبقى أن تكون هـــذه
ر س ت ع لأن الميم قد صح معنـا ولم يكن النونَ فعلّمنا علىٰ الميم فى مواضـعه ؛
ونظرنا فرأينا هـذا الشكل T أوّلَ الكلمة الرابعـة الثُّلاثيَّة وقد صح ثانيها اللام
وثالثها الميم فجـرَّبناها علىٰ هذه الحروف فسقطتِ الراءُ وبقى أحد هذه : سلم تلم علم ؛
ثم نظرنا الكلمة المجارِية للمات المماع المماس ، فرأينا قبـل الألف واللام حرفا
يكون أحد هذه ب ل و : لأن الفاء علّمناها ؛ ونظرنا هذا الحرف m قد تبع
الألف واللام قبلَ الياء ، ووجدناه بين البين فى كلمة ثلاثية تكون إحدىٰ هـذه
أبا أذا أسا أنا ، فجرَّبنـا الكلمة علىٰ البـاء والدال والسـين والنون علىٰ أن يكون
الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط « سـلم » ثم جَرَّبناها علىٰ أن تكون
العين فحصل منه بعدَ الحرف الأوّل البياع ؛ ثم علىٰ أن تكون تاء فحصل منه الثبات
السيات فسقط وبقى أبا أسا أنا ؛ ثم نظرنا الكلمة السابعة وهى ثلاثية أوّلُها اللامُ
وثانيها هـذا الحرف m الذى قبل الياء وثالثها هذا T الدائر بين العين والتاء
قلنا يقوم منها « لست » وسقط الباء والنون ، وإنمـا لم يقم منه « كسع » لأنه
لمـا سقطت البـاء سقطت العين من البياع ، فصح أنّ تلك « السيئات » ونظيرها
« الممـات » والثلاثية « تلم » وسـقط علم ، فرقمنا علىٰ التاء فى مواضعها وعلىٰ السين
فى مواضعها ، فصارت الثلاثية « أسا » فقد صح معنا من الكلمات : « فلا تَلُمْ يا
لسْتُ الممـاتِ لا أَسَا ففى » وبقِيَ الحرف الذى قبلَ السيئات ؛ ثم نظرنا الكلمة
العاشرة الثُّلاثية فيها ت ى فجرَّبناها علىٰ الحروف فظهر منها « حتّى » لايشارِكُها
شيء فعلَّمنا علىٰ الحاء فى مواضـعها ؛ ثم نظرنا كلمـةً خماسيةً قد بقى منهـا الحرفُ

الوسط، بجرّبناها على الحروف فقام من ذلك : « حَسَرات حسكات حَسَنات » فعلمنا أنه حسنات : لأن هـذا الشكل ںه تكرر أكثر من باقى الحروف بعـد الألف واللام واليـاء والتاء، وقد صَحّ الميم فأثبتنا النُّون فى موضعها؛ ثم نظرنا هذا الشكل ںا فى أوّل كلمتين ثُلاثِيتّين وقد صح من إحداهما ن ى ومن الأُخْرىٰ ل ى، بجرّبنا الحرف فوجدناه إمّا عينا أو واوا، فيقوم منهما عنى على وبى ولى فتعين أن يكون عينا لقلة الحرف عن مرتبـة الواو ؛ ثم نظرنا كلمة سُباعِيَّة قد بقى منها حرف مجهول، جَرّبناها علىٰ الحروف فصحت «البَيَانُ» لايشاركها لفظةٌ أخرىٰ، وللحرف هذا الشكل ـہ الذى قبلَ السيِّئات فتعيّنت الباء فى مواضعها؛ ثم نظرنا كلمةً سُداسِيَّة ثالثُها حرفٌ مجهول ، بجرّبناها فظهر منها «الكتَاب» ؛ ثم نظرنا كلمة خُماسِيَّةقبل التى قبل «هذه» قد بقِىَ حرفُ الوَسَط [منها] مجهولا، بجرّبناها علىٰ الحروف فقـام لمحيف لمدنف لمصنف فتعينت « لمصنف » بسبب سياق الكلام بلفظ « الكتاب » ورقمنا علىٰ الصاد؛ ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقِيَ منها رابعُها مجهولا، بجرّبناها علىٰ الحروف فصَحَّت «المَوْصِل» وصحَّت الكلمة التى بعد لست أنها «أسلو» فرقمنا علىٰ الواو؛ ثم نظرنا الكلمة الأولىٰ وهى ثنائيـة أوّلها ص بجرّبناها فصحت صَدَّ، وإنما كناأخّرناها لقِلَّة وَقْع حروفها، ثم علَّمنا علىٰ الدال فوجدنا كلمةً ثنائية آخرها «د» بجرّبناها علىٰ باقى الحروف التى لم تظهر، فقام منها جد حد قد هد؛ ثم نظرنا كلمة ثلاثية فصح أوّلها ت وآخرها ل وسطها هذا الحرف ‡ الذى قبل الدال فى الثُّنائيـة، بجرّبناها علىٰ الجيم والحاء والقاف والهاء، فسقطت الهـاء وبقى تجل تقل تحل؛ ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل علىٰ أن الكلمة قبل أسا «قد» والثلاثية « تَقُلْ » فانتظم الكلام « لاتَقُلْ قَدْ أَسَا » ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقى منهـا

ثانيها مجهُولا ، بجرّبناها على باقى الحـروف فصحت « عَذُولى » ، فرقمنا على الذال فى مواضعه؛ ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التى بين «لمصنف» وبين «الكتاب» أوّلها هذا الشكل ◯ وقدصح منها «ذا» فعلِمْنا أنَّها «هذا» ورقمنا على الهاء؛ ثم نظرنا الكلمة الخُمَاسِيَّة التى بين «ففِى» وبين «منه» قد بقى رابعُها ، بجرَّبناها على باقى الحروف فصحت « الوجه» ؛ ثم نظرنا الكلمة السباعية التى قبل الأخيرة وقد بقى منها رابعُها مجهولًا، بجرَّبناها فظهر منها الدُّرَيْهِم، فتكمل الحلُّ وظهر الكلام :

صُـدَّ عَنِّى فلا تَـلُمْ يا عَذُولِى * لَسْتُ أسْلُو هَواهُ حتَّى المَمَات

لا تَقُلْ قَدْ أسا فَفِى الوَجْهِ منه * حَسَناتٌ يُذْهِبْنَ بالسَّيِّئات

هذا البيانُ لمصَنِّف هذا الكتَابِ، عَلِيّ بن الدُّرَيْهِم المَوْصِلىّ .

وعلى مثل هـذا المِنوال يَجْرِى الحلُّ ؛ ثم ٱنظر إلى حروف هـذا الكلامِ كيف جاءَتْ أحدًا وعِشْرِين حرفًا ، ونقص منه ثمـانيةٌ لم تُوجَد فيـه ، فإذا نظرتَ إلى ما قرّرتُ لك من ترتيب وَقْع الحروف كما جاءت فى الكتاب العزيز، رأيتَ الثمـانية الناقصة هى آخِرُ الترتيب سواء لم يختلط منها شىء بتقديم أو تأخير، وهـذا ٱتفاقٌ : لأنه قد يَقَع الحرف قريبا من رُتْبته كما تقدّم ؛ وكما تقدّمت الياء على الميم فى هـذا الكلام، والفاءُ على الميم والنُّون، وتقدّمت الهاءُ على الميم أيضا؛ لكن الأصل معرِفةُ وَقْع الحروف بالتقريب وتجربةُ الكلمات ، ومقارَبةُ ما دَلَّ عليه سِياقُ الكلام .

ولْنَضْرب مثالا آخَرَ : لتتِضحَ أنواعُ الحَلِّ .

وهذا مثال آخر أورده ابن الدُّرَيْهِم ، وهو :

فتعدد المكررات من الأشكال كما مرّ وترقمها على هذه الصفة .

فتنظر فإذا أكثرها وقعا ثم ثم ثم هــذين ثم هــذين ثم هــذا ثم هــذه فتظن أن هــذا الشكل الألف ، وهــذا في اللام : لكونهمــا أكثر وقعا

من الجميع فلم يوافق : لأنه قد تقرّر أن اللام تكون تابعـــة للألف فى أكثر المواضـع ولم نجده تبعه البتة ، بل وجدنا العكس فعلمنا أن هـذا هو الألف وهـــذا هو اللام ، ورقمنا عليهـــما فى مواضعهـــما فإذا الكلمة الثانيـة الثُّلاثية فيها لامان، بقى حرف آخِرها مجهول؛ بجربناها علىٰ الحروف فظهرت الهـاء لايمكن غيرها، فعلمنا أنها « لِلّٰهِ » ورقّمْنا علىٰ الهاء فى مواضعها، ثم وجدنا الكلمة الخُماسِـيَّة قد بقِىَ رابُعها مجهُولا ؛ بجرَّبناها فظهر الهما ألهجا ألها الهنـا ، ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كلِّ الحروفِ بعـدَ الألِف واللام ؛ فظننا أنه الميُم، لكنه يحتمل أن يكون النون ، وسقط البـاء والجيم فوجدناه فى الثنائيات فى كلمتين قبـل الألف؛ فعلمنا أنهـا « ما » فرقمنا علىٰ الميم فى مواضـعها، ثم رأينـا الميم قد تبعـه فى الثُّنائيَّات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مض مط مع من ، ورأينـا الحرف كثير الوقوع ، وقد تكررتْ ثلاث لفظات؛ فعلمنـا أنها « مِن » ورقمنا علىٰ النون فى مواضعه ، ثم رأينا هذا الشكل أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفى أوائل الكلمات فقلنـا إنه الواو ، ثم رأينا آخر كلمـة قد بقى منها رابعها مجهولا ، بجرَّبنـاها فظهر والبهم والتهـم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهم ؛ ثم وجدنا هــذا الحرف الذى فيها قد جاء قبل حرف فى الثُّنائيَّات وذٰلك أكثرُ ما وقع بعـد الألف واللام والميم، فيحتمل أن يكون اليـاء ، ووجدنا قد بقى من كلمةٍ هذا الحرف فصَحَّ أن يكون النُّهىٰ وأُخرىٰ أُولِى ، فعلمنا أنها الياء ، بجربنـا الحرف معها؛ فظهر بى نى، ووجدنا كلمة خُماسِيَّة هـذا الحرف رابعُها وبعدُ حرفٌ آخر، جربناها علىٰ الياء والفاء فظهر اللبث اللبـد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفج اللفح اللفظ اللفق؛ ثم وجدنا هذا الحرفَ الآخر أوّل كلمة بعده لامان وهاء؛ بجربناها فظهر منهـا الحرف الثالث مجهولا ، جَرَّبناها ظهر

التّمام الحَمَام الذِّمام الشمام الغمام الغَمَام الكمام؛ فرأينا سياق الكلام يدُلُّ علىٰ أنه «ظَلَّل الغَمَام» وتعينت تلك اللفظة والأخرى الفَهْم والثنائيــة، فرقمنا علىٰ الفــاء؛ ثم رأينا الكلمة الثالثة الثُّلاثِيَّة ثانيها لام وآخرُها ياءٌ وبعدها«ما ألْهمَا» فدل سياقُ الكلام علىٰ أنها «علىٰ» فرقمنا علىٰ العين، فرأينا الرُّباعِيَّة التى بعـد «وآله» قد بقى ثالثُها مجهولا؛ فخَرَّبناها فظهرتْ مَعْجِن معْدِن فتعين معْدِن والثنائية التىبعدها؛ وقيل «علم كل» فرقمنـا علىٰ الدال فى مواضعه ورأينا الكلمة الأولىٰ قد بقى وسطها مجهُولا؛ فخرَّبناها وظهرت الثمد الحمد الصمد، فدلَّ سياقُ الكلام أنها الحمْدُ : لأن بعدها «لله علىٰ ما ألهما» فرقمنا علىٰ الحــاء فى مواضعها، ورأينا الثالث من الرُّباعِيَّة التى بين علىٰ وظَلَّلَه، فخرّبناها فظهرت « الذى » ورأينا الكلمة الخُماسِيَّة التى بعد «مُحَمَّد» قد بقى رابعها [مجهولا] ، فخرَّبناها فظهرت «النبى» فرقمناعلىٰ الياء فى مواضعها ورأينا قد بقى ثالثُ السُّداســيَّة التى بعدَ «من» هــذا الشكل ب وهو ثالثُ رُباعيَّــة أوّلهـا الألفُ وثانيها فاء وآخرها حاء، وثانِى خماسيَّة أوّلُها واو وثالثها حاءورابعها باء وخامسها هاء؛ فتعينت الصاد، فالأولىٰ « الصَّواب » والأُخْرىٰ «أنصح» والأخرىٰ «وصَحْبه» وتعينت الثنائيــة التى هى أوّل البيت الثــانى بعدَ الســطر الأوّل « ثم » والتى تليها « صلاة » وتعين السين فى الســلام ؛ فصار، «ثُمَّ صلاةُ اللهِ والسَّلامُ» وكلمــا تمرّن الإنسان فى ذٰلك ظهر له أسْرَع بكثرة المباشرة، ثم تعين رابع السُّداسِيَّة التى بعد أفصح مَنْ أنه الضاد، وتعيَّن بسياق الكلام أن بعد بالضاد « فى اللَّفْظِ نَطَق » فرقمنا علىٰ القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس المِصْراع « خَلَق » فرقمنا علىٰ الخاء، وتعينت الكلمة التى قبــل « مَنْ خُلِق » أنها « خير » فتكملت الأبياتُ وظهر أنهـا :

الحَمْـــــدُ لِلهِ علىٰ ما أَلْهَـما * مِنَ الصَّوابِ وعلىٰ ما عَلَّما
ثُمَّ صلاةُ اللهِ والسَّـلامُ * علىٰ الَّذِى ظَلَّلَـه الغَمَامُ
محمدِ النبيّ خَـيْرِ مَنْ خَلَقْ * أفْصَحِ مَنْ بالضادِ فى اللَّفظ نَطَقْ
وآلِهِ مَعْدِنِ كلِّ عِـلْمِ * وَصَحْبِـهِ أُولِى النُّهىٰ والفَهْمِ

قلت : ومما يلتحق بتعمية الخَطِّ المتقـدّمةِ الذِّكرِ ماحكاه ٱبنُ شيثٍ فى معالِمِ الكِتابة : أنَّ بعض الملوك أمر كاتِبَـه أن يكتُب عنه كتاباً إلىٰ بعض أتْباعه يُطَمِّنه فيه لِيَقْبِضَ عليه عند ٱنتهازِ فُرْصةٍ له فى ذٰلك ؛ وكان بينَ الكاتِب والمكتوبِ إليه صَداقةٌ فكتب الكتَابَ علىٰ ما أَمَر به من غير خُروج عن شَىءٍ من رَسْمه، إلا أنه حين كتب فى آخِرِه « إنْ شاء الله تعالىٰ » جعل علىٰ النُّون صورةَ شَـدّة ، فلما قرأه المكتوبُ إليه، عَرَف أنَّ ذٰلك لم يكن سُدًى من الكاتب فأخذ فى التأويل والحَدْس فوقع فى ذِهْنه أنه يُشِير بذٰلك إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿إنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ . فأخذ حِذْره، وٱحترز علىٰ نَفْسه، وبلغ الملِكَ ٱحترازُه علىٰ نفْسه فاتَّهم الكاتبَ فى أنه ألحقَ فى الكتابِ شيئا نَبَّهه به علىٰ قَصْـد الملِك ، فأحضره وسأله عن ذٰلك، وأمره بأن يكتُبَ الكتَابَ علىٰ صُـورة ما كَتَبَ به من غير خُروج عن شيءٍ منـه ، فكتبه ولم يغـيِّر شيئا من رَسْمه حتّٰى إنه أثبتَ صُورةَ الشدّة علىٰ النُّون ؛ فلما قرأه الملِكُ ونظر إلىٰ صورة الشـدّة أنكرها عليه، وقال : ما الَّذِى أردْتَ بذٰلك ؟ قال : أردت قوله تعالىٰ : ﴿إنّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ . فأُعْجِب بذلك وعفا عنـه لصِـدْقه إيَّاه .

النــــوع الثــانى

(الرُّموزُ والإشاراتُ التى لاتعلُّق لها بالخطِّ والكتابة)

وهى التى يعبِّر عنها أهلُ المَعانى والبيان بالاِستعارة بالكِنايَةِ «بالنون بعد الكاف» وقد يعَبَّر عنها بالوحْيِ والإشارة .

ومن غريبِ ما وقع فى ذلك ما حكاه العَسْكرىّ فى "الصناعتين": أنَّ رجلا من بَنِي العَنْبر أُسِرَ فى بَنِي حَنْظلةَ، وفَهِم عنهم أنهم يَقْصِدون الغارةَ علىٰ قومه بَنى العَنْبرِ، فقال لبنى حنْظلةَ : إنَّ لى حاجةً عند أَهلى وأُرِيد رسولًا من قومكم أُرْسِله فيها، فأجابُوه إلىٰ ذلك بشرْط أنْ يخاطِبَه فى حاجته بحُضُورهم ؛ فأحضروا له رجُلا فى الليل وقدْ أوقدتِ العربُ نِيرانَها ، فأقبل علىٰ الذى أتَوْه به وقال له : أتَعقِل ؟ قال : إنِّى لعاقلٌ . فقال : ٱنظُر إلىٰ السماء ونجومِها ، فنَظَر ؛ ثم قال : ٱنظُرْ إلىٰ نِيرانِ العرب ، فنظر ؛ فقال له : ماأَكْثَرُ؟ نجومُ السماء أو نيران العرب؟ فقال : إنَّ كلًّا منها لكثير ؛ قال : إنك إذًا لعاقِل ، ثم دفع إليه حنظلةً وصُرّةً فيها رَمْل وصُرّةً فيها شَوْك ، وقال ٱذهبْ إلىٰ قومى فادفعْ إليهم هذه الحنظلةَ وهاتَيْنِ الصُّرَّتَيْن ، وقُلْ لهم يُعْرُوا ناقتِي الحَمْراء، ويُرْحِلوا جَمَلي الأوْرَق ، وسَلُوا أخِى الأعورَ يُخْبِرْكم الخَبَر . فقال الحاضرون : ليس فى هذا مايُنكَر، ٱذهَبْ فى حاجته ؛ فذهب إلىٰ بنى العَنْبر ودفع إليهم ذٰلك وقَصَّ عليهم القِصَّةَ ورجع ، فبعث القومُ إلىٰ أخيه الأعورِ فحضر ، فأخبروه الخَبَرَ . فقال إنه يقول : أتاكُمْ بنُو حنظَلَةَ فى عدّ الشَّوْك والرَّمْل ، وإنَّ نِيرانَ العرب تُعادُّ نُجُومَ السماء ، ويأمُرُكم أن ترْحَلُوا عن الدَّهْناء وانْزِلُوا مكان كذا ؛ ففعلوا ورحَلُوا لوقتهم فصَبَّحهم بنُو حنظلةَ فلم يُدْرِكوا منهم أحدا .

وفى معنىٰ ذٰلك ماحكاه المَقَـرّ الشِّهابىّ بنُ فضـل الله فى كتابه "التعريف" : فى الكلام علىٰ المكاتبة إلىٰ الأدفونش مَلِك الفَرَنج بطُلَيْطُلَة من بلاد الأنْدَلُس ، كان خبيثَ النيـةِ ، سَيِّئَ المقاصد لأهل الإسلام ؛ وأنه أرسل مَرَّة إلىٰ الملِك النـاصر محمدِ بن قلاوون : صاحب الديار المِصْرية هـديةً فيها سَيْفٌ وثوبٌ بُنْدُقِيٌّ وطارقةٌ مستَطِيلة تُشْبِه النَّعش كأنه يقول : أقتُلُك بهذا السَّيف ، وأُكَفِّنك فى هذا الثوب ، وأحمِلُك علىٰ هذا النَّعْش . قال : وكان الجوابُ أنْ أرسل إليه حَبْلا أسودَ وحَجَرا ، أى إنه كلب يُرمىٰ بهذا الحَجَر أو يُرْبَط فى هذا الحبل .

قلت : وممـا وقع من ذٰلك فى زماننا أنه فى الدولةِ الظاهِرِيَّةِ «بَرْقوق» وتمرلنك يومئذ ببلاد العِراق يُغَاوِر الممَـالكَ الشامية لقصد الاستيلاء عليها ورَدَ عليه كتابٌ من المملكة الحلَبِية فيـه : أنه وقع بتلك البلادِ سَيْلٌ عظيم ساقَ جملةً من الأُسْد والنُّمورة والحَيَّات ، وأنه دَفَع حيَّة عظيمةً سَـعةُ رأسها بقَدْر قَوْس ، وقرئَ الكتابُ بحضرة السلطان ، وحملُوا ذٰلك علىٰ ظاهره : من أنَّ المراد حقيقةُ السيل ، وأنه لقوَّته ساقَ تلكَ الحيَّةَ والسِّباع وغيرها ، وشاع ذٰلك بينَ الكافَّة من الأمراء وأهل الدولةِ وسائر الرعِيَّـة ، ومضىٰ الأمر علىٰ ذٰلك ؛ ثم ظهر أنَّ المقصودَ بذٰلك السيلِ وما فيـه هو تَمُرلَنْك وعساكره ؛ وأنه كُنِيَ بالحيـة العظيمة عنه نَفْسِـه ، وبالسِّباع والحيَّات عن عساكره .

ومن لطيف ماوقع فى ذٰلك أنه ورد علىٰ السلطان الملِكِ الناصرِ «فَرَج بن بَرْقُوق» فى أواخر دولته كتابٌ عن صاحب تُونُس من بلاد المغْرِب فى آخره خطابا للسلطان (وعلىٰ إحسانِكم المُعَوّل ، وبيتُ الطُّغرائِىِّ فى لاميَّـة العجم لايُتأوّل) فسألنى بعضُ أعيان ديوان الإنشاء عن المراد من ذٰلك ولم يكن الكتاب متضمِّنا لغير الوصية

علىٰ حُجّاج المَغَاربة ، وكان رَكْب المغاربة قبلَ تلك الحَجّة قد عرضَ لهم عارضٌ من عَرَب دَرْب الحجاز آجتاحُوهم فيه ، وقتلوا منهم خَلْقا كثيرا ، ونهبُوا منهم أموالا جَمّةً ، فعرضتُ ذٰلك علىٰ أبيات اللامية ، فلاح لى أنه يُشِير إلىٰ قوله فيها :

فقُلْتُ أرْجُوكَ للجُلّى لتَنْصُرَنى * وأنتَ تَخْذُلُنِى فى الحادِثِ الجَلَلِ

والجُلّى بضم الجيم هى الأمرُ الجليل العظيمُ ، والجَلَل بفتح الجيم فى اللُّغة من أسماء الأضدادِ ، يقع علىٰ الشىء الجليل وعلىٰ الشىء الحقير ، كأنه يقول : أنا كنتُ أرجُوك للأمور العِظام لتنصُرَنى فيها فخذَلْتنى فى هذا الأمر الحَسِيس ، وهو الأخذُ بثأر حُجّاج بِلَادى ممن آعتدىٰ عليهم من عرب بِلادِك : فخاب ظنِّى فيما كنتُ أرجُوه فيك ، وأؤمِّله منك ، وأشار بقوله لايُتأوّلُ إلىٰ أنه لايحملُ الجَلَل فى قول الطُّغرائىّ علىٰ الشىء الجليل كما قال الصَّلاحُ الصفدِىُّ فى شرح اللامية ، بل علىٰ الأمر الحَسِيس : لأنه هو اللائقُ بالمَقَام .

وآعلم أنَّ مثل هذه الأمورِ تحتاجُ إلىٰ قوّة ذكاء وآحتدام قريحة من الذى يَقَع مِنه الرمزُ ، وإلىٰ قوّة حَدْس من الذى يحاوِلُ إدراكَ المَقْصَد من تلك [المَعَامِى] كما يقع فى الألغاز والأحاجِىّ للُغز ، والمتصدّى لحَلِّ ألغازه والجواب عنه ، والله تعالىٰ هو الهادى إلىٰ سبيل الصَّواب .

المقـالة الخـامســـة

فى الوِلَايات ، وفيهـا [أربعـــة][(١)] أبوابٍ

البـاب الأوّل

فى بيـان طَبَقاتها وما يقعُ به التفاوُتُ ، وفيــه ثلاثةُ فصول

الفصـــــل الأوّل

فى بيان طَبَقات الولَايات، وهى على ثلاثِ طَبَقات

الطبقةُ الأُولىٰ — الخِلَافة ؛ ولِمَا يكتب فى وِلَايتها طريقان : إمَّا عهدٌ من الخليفة الأوّل، وإما بَيْعةٌ من أهْل الحَلِّ والعَقْد إن لم يُوجَدْ عهـدٌ من الخليفة قَبْلَه علىٰ ماسيأْتى بيانُه إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانية — السَّلْطنة ؛ ولِمَا يكتَبُ فى ولايتها طريقان : أحدُهما العهْـدُ من الخليفة، والثانى العهْدُ من السلطان قَبْلَه . قال فى "التعريف" : أمَّا مَنْ قام من المُلُوك بغيْر عهْد، فلم تجر العادةُ أن تُكتَبَ له مبايَعةٌ .

الطبقة الثالثةُ — الولاياتُ عن الخلفاء والمُلُوك وما يُكتَبُ عن السلطان بالديار المصريّة فى أقطار المملكةِ بمصرَ والشامِ والحِجازِ : ممـا يكتَبُ من ديوان الإنشاء الشريفِ بالأبواب السلطانية .

وهى علىٰ خمســـة أنواع :

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح ممـا تقدم فى ج ١ ص ٢٤ من هذا المؤلف .

النـــــوع الأوّلُ

(ولاياتُ أربابِ السُّيوف ؛ وهم علىٰ ثلاثة أصناف)

الصِّنف الأوّل — النُّوّاب من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وغالِبُ مَنْ يكتَب له منهم بالبلاد الشاميــةِ ومُضافاتِها ؛ كنُوّابِ السلطنةِ بدِمَشْقَ وحَلَب وطرَابُلُس وحَماةَ وصَــفَدَ والكَرَك ، ومُقَدَّمى العســكر بغَزَّةَ وسِيسَ ؛ ونُوّابِ القِلاع بالمُدُن العِظام ذواتِ القِلاع الرفيعةِ القَــدْر : كالنائبِ بقلعة دِمَشْقَ ، والنائبِ بقَلْعة حَلَبَ ، والنائبِ بقَلْعة صــفَدَ . أمَّا طرابُلُسُ وحَمَــاةُ ، فليس بهما قلعــة ؛ وكذٰلك النِّيابات الصِّغارُ المُضافةُ إلىٰ القواعد الكِبَار : كالقُدْس الشريف وحِمْص ومِصْياف من مُضَافات دِمَشْقَ ، وقلعةِ المسلمين والرَّحبة والبِــيرةِ والرُّها وشَيْزَر وعَيْنتاب وبَهَسْنىٰ ومَلَطْيَةَ وآياس والأُبُلُسْتَيْن وأَذَنة وطَرَسُوسَ من مضافات حلَبَ ، واللَّاذِقِيَّة وحِصْــن عَكّار من مضافات طرابُلُس وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك ، علىٰ ما ســيأتى بيانُه مفصلا فى مواضِعه ، إن شاء الله تعالىٰ .

أمَّا مادُونَها من النِّيابات فإنَّ نُوّاب السلطنة بالمملكة يستقِلُّون بالتولية فيها .

قلت : والضابِطُ فى ذٰلك أنَّ كلَّ نيابةٍ كان نائبُها تَقْدِمةَ ألْف فوِلايتُها عن السلطان بمرسوم شريف من ديوان الإنشاء بالأبواب الســلطانية ، وكلَّ وِلايةٍ كان نائبُها جُنْديًّا أو مقــدَّمَ حَلْقة فوِلايتها عن نائب السلطنة بالمملكة التى هى مُضافةٌ إليها بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بهــا ؛ وكلَّ نيابةٍ كان نائبُها أميرَ طَبْلخاناه أو عشرة ربَّمــا وَلّى فيها السلطانُ وربما ولّى فيها نائبُ السلطنة ، إلا أنَّ توليةَ السلطان لنُوّاب الطبلخاناه أغلَبُ ، وتوليةَ نُوّاب السلطنة لنُوّاب العشرةِ أغلَبُ .

أمّا الديارُ المِصريةُ فإنه كان يُكتَبُ فيها أوّلًا لوُلاة الوجهين : القبـلىِّ والبَحْرىّ جَرْيا علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى زمَن الخُلَفاء الفاطميِّين، وكذٰلك والى الإسكَنْدرِيّة قبل أن تستقِرّ نيابةً ، ووالِيَا الوُلاة بالوجهين قبل أن يستقِرّا نيابتَيْن ، فى جماعةٍ أُخرىٰ من أرباب الوظائف : كالنائب الكافل وأتابك الجُيُوش كإسْتادَار وأميراخُور ومقدَّم المماليك ووالِي مصرَ والقاهرةِ؛ ثم صارت الكتابةُ لذَوِى الوظائِف من أرباب السُّـيوف قاصرةً علىٰ النـائب الكافل إذا كان موجُودا والنُّوّاب المستَجِدّين بالإسكندرية والوجهين : القبلىّ والبحرىّ؛ وبطل ماعَدَا ذٰلك ممـا كان يُكْتَب ، وكأنَّ المعنىٰ فيه القُربُ من مَقَرّة السلطان؛ والكتابةُ إنمـا تقَع فى الغالب مع البُعْد : لتكونَ حجـةً للتولىِّ علىٰ بُعْـد المَدىٰ ، ولا ينتقضُ ذٰلك بمـا يُكتَب للخلفاء والملُوك فى الحضرة، فإنَّ ذٰلك من الأمور العامَّة التى يُخافُ ٱنتقاضُها أو جُحودُها، إذ مثـلُ ذٰلك لايجوز فى الولايات عن السلطان : لأنه متىٰ شاء عزَلَ مَنْ وَلّاه .

الصِّنف الثـانى ــ ولايةُ أُمَراء العُرْبان، وهٰؤُلاء لاحظَّ لهم فى الكتابة بالولاية بالديارالمِصريَّة الآنَ؛ وربّمـا يُكْتَب لأمرائهم بالمملكة الشاميَّة : كأميرِ آلِ فَضْل، وأميرآلِ مِرا ، وأمـيرآل عَلِىّ ، ومُقَـدَّم جَرْم ، وكذٰلك أمـيرُمكةَ المشرَّفـة ، وأميرُالمدينـة النبوِيَّة علىٰ ساكنهـا أفضلُ الصلاة والسـلام ، والتحية والإكرام ، والنـائبُ بالْيَنْبُع من البلاد الحجازيَّة . والمعنىٰ فى ٱختصاص مَنْ بَعُـد منهم ماتقدّم فى الكلام علىٰ أرباب السُّـيوف مع ضَـعْف شأن عَرَب الديار المِصْريَّة وعـدمِ الاِهتمام بأمْرهم .

الصنف الثالث ــ ولاية المُقَدَّمين علىٰ الطَّوائف : كمقدَّمى التّرْكُمان، والأكْراد، والجَبليَّة بالبلاد الشاميـة، وأتابكِ طائفةِ الإسماعيلية بقِلاع الدَّعْوة ، وحاكم البُنْدُق

ونحوهم؛ وهذه الطوائفُ ممّن يكتَبُ له إلىٰ الانَ؛ أما حاكم البُنْدُق، فإنه لم يُعْهَد له كِتابةٌ من ديوان الإنشاء بمصر والشام . علىٰ أنَّ المقَرّ الشهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر وصيَّته فى "التعريف" ولعلَّه ممن كان يكتَب [له] فى زمانه أو قبْلَه ثم تُرِك، وإنما يكون ذٰلك بحسَب ٱعتِناءِ السلطان بشأْن البُنْدُق وعدمِه كما فى لباس الفُتوَّة، وأنه رُبَّما ٱعتنىٰ به بعضُ الملوك فكتب له ثم تُرِك .

النوع الثانى

(ولايةُ أرباب الأقلام ، وهم صنفان)

الصّنف الأوّل

(أربابُ الوظائف الدينيَّة ، وهم علىٰ ثمانيةِ أضْرُب)

الضرب الأول — أكابِرُ القُضاة بأقطار المملكة : كقُضَاة القُضَاة بالحَضْرة السلطانية بالدِّيار المِصرية وثَغْر الإسكَنْدرية ، وكذلك قُضاة القُضاة بدِمَشْق وحَلَب وطرابُلُس وحَماة وصَفَد والكَرَك ، وقُضاةُ العَسْكر بالديار المِصْرية ؛ أما القُضَاة بالنِّيابات الصِّغار المضافاتِ إلىٰ دمشْق وحلَب ونحوهما فولايتُهم إلىٰ قُضاة القُضاة بها ، وقُضاةُ العسكر بدِمَشْق وحلَب ومافى معناهما إلىٰ النُّوّاب بتلك الممالك .

الضرب الثانى — المُفْتُون بدار العَدْل بالديار المصرية؛ أما المُفْتُون بدار العدل بالممالك الشاميَّة فولايتُهم إلىٰ نائبِها .

الضرب الثـالث — أكابرُ المحتَسِبين : كمحتَسِبَىْ مصر والقاهرةِ ؛ أما الممـالك الشاميَّةُ فلا يُولَّى فيها إلا نُوّابُها .

الضرب الرابـع — أكابر المدَرِّسين فى عامَّة العُلُوم بأماكَنَ مخصوصةٍ : كالزَّاوية الخَشَّابِيَّة بالجامع العَتِيق بمصر، والمدرسةِ الصَّلاحية بتُرْبة الإمام الشافعىّ بالقَرافة، ونحو ذٰلك بأقطار المملكةِ من مُدَرِّسى الفِقْه والحديثِ والتفسيرِ وغير ذٰلك من العلوم الدِّينيَّـــة .

الضرب الخامس — أكابرُ الخُطَبـاء بجوامِعَ مخصوصـةٍ بأقطار المملكة : كجامع الناصِرِىّ بقلعة الجَبَل، والجامع الأُمَوىّ بالشام ونحوِهما .

الضرب السادس — وُكَلاءُ بيتِ المـال بالدِّيار المِصرية وغيرها .

الضرب السابـع — المتحدِّثُون على الوظائف المعتَبَرة : كنِقَابة الأشْراف، ومَشْيَخة الشُّيوخ، فمـا كان بالدِّيار المِصربة فولايتُه من السـلطان ، وتوقيعُه من ديوان الإنشاء، وما كان منها بالممـالك الشاميَّة فوِلايتُها إلى نُوّاب السَّلْطنة بها .

الضرب الثـامن — المتحدِّثُون على جِهات البِرِّ العامَّة المصلحةِ: كنظر الأَحْباس وأنظار البِيمارسْتَانات ونحوها : فمـا كان منها بالدِّيار المصريَّة : كنَظَر الأَحْبـاس والبِيمارسْتانِ المنصُورىّ وما أشبه ذٰلك فتوليتُه[1] إلى نُوّابها ، مالم يكن لها ناظرٌ خاصٌّ فيكون ذٰلك مختصًّا به .

---

(١) لعله فتوليته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الانشاء ، وما كان منها بالممالك الشامية فتوليته الخ كما لا يخفى تأمل .

الصـــنف الثـانى

(أرباب الوظائف الدِّيوانيـــة)

ودَواوِينُها علىٰ ثلاثة أضْــرُب :

الضرب الأوّل — دَواوينُ المـال؛ وأربابُ الخِدَم بها ممن تُكتَب وِلاياتُهم من ديوان الإنشاء : إمَّا ناظِر، أو وَزِير، أو صاحبُ دِيوان، أو شهادةٌ، أو آستيفاءٌ؛ فأمَّا الوِزارة فلا يُصَرَّح بها إلَّا للوزير بالأبواب السُّلطانية، وربمـا صُرِّح بهـا لوَزِير دمشْقَ إذا وِليهَا من آرتفعَتْ مرتَبَتُه، وإلَّا عُبِّر عنه بناظِرِ المملكة .

وأما النَّظَر، فكنظر الدَّواوين المعبَّر عنــه بنظَر الدَّوْلة، ونَظَر الخـاصِّ، ونَظَر الخِزَانة الكُبرىٰ، ونظَر البُيُوت « الحاشِيَة » ونظر بيْتِ المـال، ونظر الإصْطَبْلات السلطانية ، ونظرِ دار الضِّـيافة والأَسْواق ، ونظر خَزائِنِ السِّـلاح ، ونظر البَهَـار والكارِمِيّ ، ونظَــر الأَهْراء، ونظر المَوَاريث الحَشْرِيَّة، ونظر ثَغْر الإســكَنْدريَّة المحروس؛ وغير ذٰلك من وظائف الأنظار بالديار المصرية . وكذلك نظرُ المملكة بدِمَشْقَ إذا لم يُصَرَّح لمتولِّيه بالوِزَارة، ونظر المملَكَة بحلَبَ، ونظر المملكة بطَرَابُلُسَ، ونظر المملكةِ بحَمَاةَ ، ونظر المملكةِ بصَفَد ، ونظر المملكة بِسِيسَ، ونظر المملكة بغَزَّة، ونظر المملكة بالكَرَك .

وأمَّا صَحَابةُ الدِّيوان، فكصَحَابة دِيوان الجَيْش وصَحابة ديوان الخاصِّ ، ونحو ذٰلك .

وأمَّا الشَّهادة ، فكشَهادة الخِزَانة الكُبرىٰ، وشهادة خِزانة الخاصِّ ونحوهما .

وأمَّا الآستِيفاء ، فكآستيفاء الصُّحْبة ، وآستيفاءِ الدَّوْلة ، وآسـتيفاءِ الخاصِّ ، ونحو ذلك . ولاحَظَّ لغير النُّظّار من دَواوين الأموال بالممالك الشاميَّة : من صاحب ديوانٍ ولا شاهدٍ ولا مستَوْفٍ ، فى الكتابة بالوِلاية من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ؛ بل وِلايتُها من نُوّاب الممالك الشامية بتواقِيعَ من دَواوِين الإنشاءِ بها .

الضرب الثانى — دَواوينُ الجُيوش بالديار المصرية وغيرِها من الممـالك الشاميَّـة . وأربابُ الخِدَم بها لايخْرُجُون عن ناظرٍ ، وصاحبِ ديوانٍ ، وشاهـدٍ ، ومسـتَوْفٍ .

والذين يُوَلَّوْنَ عن السلطان منهـم [و] تُكْتَبُ تَوَاقِيعُهم من ديوان الإنشـاءِ الشريف ناظِرُ الجيش بالأبوابِ السلطانية ، وناظِرُ الجيش بِدمَشْقَ ، وناظرُ الجيش بحلَبَ ، وناظرُ الجيش بطرابُلُسَ ، وناظرُ الجيش بحَمَـاةَ ، وناظرُ الجيش بصَفَدَ ، وناظر الجيش بغَزَّةَ ، وناظرُ الجيش بسِيسَ ، وناظرُ الجيش بالكَرَك ، وصاحبُ ديوان الجيش بالأبواب السلطانية ، والشُّهودُ ، والمستوفُون بها ؛ أمَّا مَنْ عدَا هؤلاء : من نُظّار الجيش وأصحابِ الدواوين والشُّهود بالممـالك الشامية ، فوِلايتُهم إلى نوّاب السـلطنة بها .

الضرب الثالثُ — دَواوينُ الإنشاء ؛ وأربابُ الخِدَم بها لايخرُجُون عن كاتبِ سِرٍّ ، وكاتب دَسْتٍ ، وكاتبِ دَرْج .

والذين يُوَلَّوْن عن السلطان من كُتَّاب هذه الدَّواوين وتكْتَب تواقيعُهم من ديوان الإنشاء السلطانِيِّ صـاحبُ ديوانِ الإنشاء بالأبوابِ السـلطانية ، وصاحبُ دِيوان الإنشاء بدِمَشْقَ ، وصاحبُ ديوان المكاتبات بحلَبَ ، وصاحبُ ديوان المكاتَبات

بطرابُلُس ، وصاحب ديوان المكاتَبَاتِ بحَمَاةَ ، وصاحبُ ديوان المُكاتَبات بصَفَدَ ، وكاتبُ الدَّرْج بِسِيس ، وكاتبُ الدَّرْج بغَزَّة ، وكاتبُ الدَّرْج بالكَرَك ، وكاتبُ الدَّرْج بالإسكَنْدرِيّة ، وكُتَّابُ الدَّسْت وكُتَّاب الدرج بالأبواب السلطانيـة ؛ أما كُتَّاب الدَّسْت وكُتَّاب الدَّرْج بالممالك الشاميـة فإلىٰ نُوّابها بتواقِيعَ من دَواوين الإنشاءِ بها .

النـــوع الثـالث

(وِلاياتُ أربابِ الوظائف الصِّـناعيَّة)

كالأَطِبَّاء ، والكَحَّالين ، والجَرَائِحِيَّة ، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم من سائرِ أربابِ الوظائف التى هى من تَتِمَّة نظام المُلْك ؛ فما كان منها بالأبوابِ السلطانية فوِلايتُه عن السلطان بتَوْقِيع من ديوان الإنشاءِ السلطانى ؛ وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلىٰ نُوّاب السلطنة بها .

النـــوع الرابع

(ولاياتُ زُعَماء أهل الذِّمَّة . وهى ضربان)

الضرب الأوّلُ — وِلايةُ بَطَاركة النَّصارىٰ من اليَعاقِبة والمَلِكانِيَّة[1] .

الضرب الثانى — وِلايةُ رئِيسِ اليهُود الحاكم علىٰ طوائِفِهم .

---

(١) لم ينص على من له توليتهما .

النـــــوع الخامس

(ما لا يختَصُّ بطائفة ولا يندرِج تحت نَوْع)

كصغار الأُمُور التى يُكتَب فيهـا لكلِّ فَرْدٍ فَرْد : إما ٱبتـداءً ، وإما بالحمل علىٰ ما بِيَدِه من ولايةٍ سابقةٍ : من نائبٍ أو قاضٍ أو ناظرٍ وقْف أو غير ذٰلك ؛ ممـا لا ينحصِرُ كثْرةً .

قلت : وربمَّـا وَلَّىٰ السـلطان فى بعض الوظائف بالممالك الشاميَّة ممـا تختصُّ توليتُه بنُوّاب السلطنة إذا كانتِ الوظيفةُ وضـيعةَ المنْزِلة وأدركتِ المُولَّىٰ عِنـايَتُه ، وربَّما ولَّى بعضُ نُوّابِ السلطنة ما تَختصُّ توليتُه بالسلطان إذا عظُمتْ رتبةُ النائب وٱرتفعتْ منْزِلتُه ، خصوصًا إذا كان نِظامُ المملكة محلُولا وأمرُها مضْطَرِبا .

الفصـــــل الثانى

من البـاب الأوّل من المقـالة الخامسة

(فى بيان ماتجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة الوِلايات علىٰ سبِيل الإجْمال)

قال الشيخ شِهابُ الدين محمودُ الحلبىّ رحمه الله فى "حُسْن التوسل": يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى ذلك أمورًا .

منها — بَرَاعةُ الاِستهلال بذكر الرُّتبـــة، أو الحـالِ، أو قدرِ النِّعمة، أو لَقَب صاحب الولاية، أو اسْمِه؛ بحيثُ لايكونُ المطّلِع أجنبيًا من هذه الأحوال، ولا بعيدًا منها، ولا مبايِنًا لهـا؛ ثم يستصحِبُ ماينـاسب الغرضَ و يوافق القَصْـد من أوّل الخُطْبة إلىٰ آخرها .

ومنها — أن يراعِىَ المناسَبة وما تقتضيه الحـالُ : فلا يُعْطِى أحدا فوقَ حَقّه، ولا يصِفُه بأكثرَ مما يُراد من مثله؛ و يراعى أيضا مقدارَ النعمة والرُّتبة فيكون وصْفُ المِنَّة بها علىٰ مِقْدار ذلك .

ومنهـا — أن لايصفَ المتولِّىَ بمـا [يكون[1]] فيـه تعريضٌ بذَمِّ المعْزُول [وتَنقيصٌ[1] له]؛ فإنّ ذلك ممـا يُوغِر الصُّـدور، و يُورِث الضَّغائن فى القلوب، ويدلُّ علىٰ ضَعْف الآراء فى اختيار الأوّل، مع إمكانِ وصْف الثانى بمـا يحصُل به المقصود من غير تعريض بالأوّل .

ومنها — أن يتخيَّرَ الكلامَ والمعانِىَ فإنه ممـا يَشِيع ويَذِيع، ولا يُعْـذَر المقصِّر فى ذلك بعَجَلة ولا ضِـيقِ وقت، فإنَّ مَجَال الكلام متَّسع، والبـلاغة تظْهَر فى القليل والكثير .

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٠ .

قلت : ومنها أن يَحْرِص الكاتبُ علىٰ أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى السَّطْر الأوّل أو الثانى ولا يُؤَخِّرُها عن ذٰلك . ومما كان يراعىٰ فى ذٰلك أن تكون الخطبةُ من أوّلها إلىٰ آخرها علىٰ رَوِىّ واحدٍ فى السَّجْع ، وكذٰلك الدعاءُ فى أوّل صِغَار التواقيع والمَراسيم المبتدأةِ بلفظ « رُسِم » بخلاف مابعد ذٰلك إلىٰ آخر ما يكتب، فإنه يتَّفق فيه روىُّ السجعتين والثّلاثِ فما حولَها ، ثم يخالَفُ رويُّها إلىٰ غيره ؛ ولا يكَلَّف الكاتبُ الإتيانَ بجميعها علىٰ روىٍّ واحد ؛ وعلىٰ ذٰلك كانت طريقة فُحُول الكُتَّاب بالدولة التركية، كالقاضى محيى الدِّين بن عبد الظاهر، والشيخ شهابِ الدين محمود الحلبى، والمقرِّ الشهابىِّ بن فضل الله، ومَنْ عاصرهم إلّا فى القليل النادر؛ فإنه رُبَّما وقع لبعضهم مخالفةُ رَوِىّ الخطبة ؛ وإلىٰ هذا قد جنَحَ غالب كُتَّاب ديوان الإنشاء فى زماننا ومالُوا إليه : لما فى الْتِزام الرَّوِىِّ الواحد فى جميع الخُطْبة من التكلُّف وعُسْر التلفيق علىٰ مَنْ يتعاناه .

ثُمَّ الكلامُ فيما يُكتَب فى الولاية قد يكون جميعُه بلفْظِ الغَيْبة؛ مثل أن يقال : عَهِد إليه بكذا ، أو قَلَّده كذا ، أو فَوّضَ إليه كذا ، أو أنْ يستقِرَّ فى كذا ، ونحو ذلك، ثم يقال : وأَمْره بكذا ، أو ونحن نُوصِيه بكذا ، أو فعلَيْه بكذا ، وما أشبه ذٰلك ؛ وقد يكون جميعُه بلفظ الخِطاب، مثل أن يقال : وقد عهِدَ إليكَ بكذا، أو قلّدك كذا، أو فوّضَ إليك كذا ثم يقال : ونحن نُوصيكَ بكذا، أو فعليكَ بكذا، ونحوه ؛ وقد يُصَدَّر بلفظ الغَيْبة ثم يُلتفَت منها إلىٰ الخطاب ؛ وقد يُصدّر بلفظ الخطاب ثم يلْتفَتُ منه إلىٰ الغيبة بحسَبِ مايُؤْثِره الكاتب وتُؤَدِّى إليه بلاغتُه مما ستَقِفُ علىٰ تنويعه فى خِلَال كلامهم فى أصناف الوِلَايات الآتية فى هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــــل الثـالث

من البـابِ الأوّلِ من المقالة الخامسة

(فى بيان مايَقَعُ به التفاوُتُ فى رُتَب الولايات، وذٰلك من سبعةِ أوجُه)

الوجــــــه الأوّل

(الألقـابُ، وهى عــلىٰ ثلاثة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(ألقابُ الخُلَفــاء)

وسبيلُها الاِختصارُ دُونَ البَسْط، اكتفاءً بما هو ظاهِرٌ من أُبَّهة الخِلافة، وعُلُوّ مَقَام الإمامة، إذ هى الزَّعامة العُظْمىٰ، والرتبةُ التى هى أعلىٰ الرُّتَب وأسْمىٰ .

وهى صنفان :

الصنفُ الأوّل — ألقابُ الخلفاء أنفُسهم، وغايةُ مايُنعَتُ به الإمام وأميرُ المؤمنين.

الصنف الثانى — ألقابُ أولياءِ العَهْد بالخلافة، وألقابُهم نحوُ السيِّد الجليل وذَخيرة الدِّين، ونحو ذٰلك علىٰ ماسيأتى بيانُه فى عهود الخلفاء عن الخُلَفاء .

النـــوع الثانى

(ألقابُ المُلُوك، وهى صنفان أيضا)

الصنفُ الأوّلُ — ألقابُ السلطان نفْسِه، والكُتَّابُ تارة يبتدئُونَها بالسلطان، وتارة يبتدئُونها بالمَقَام، ولكلٍّ منهما نعوتٌ تخصُّه، وسيأتى الكلامُ علىٰ ذٰلك مستوفًى فى الكلام علىٰ عُهُود الملوك عن الخلفاء، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — ألقابُ أولياء العهْد بالمُلْك ، والملوكِ المنفَردين بولايةِ صِـغَار البُلْدان عن السلطان الأعظم ، وهى لا تُفْتَتَح إلّا بالمَقَام ليس إلّا ؛ ولها نعوتٌ تخصّها يأتى الكلامُ عليها فى الكلام علىٰ عهُودهم أيضا .

النـــوع الثـالث

(ألقـابُ ذَوى الولاياتِ الصادرات عن السلطان : من أرباب الوظائفِ الواقعةِ فى هـذه المملكة)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ الألقـاب فى مقدّمة الكِتاب أنّ أصولَ الألقاب المستعملةِ فى ذٰلك خمسةُ ألقاب علىٰ الترتيب : وهى المَقَرّ، ثم الجَنَاب، ثم المَجْلِس، ثم مجْلس مضـافا : كمجلس الأمير، ومجلِس القاضى ، ومجلِس الشـيخ ، ومجلس الصَّدْر، ثم الاقتصارُ علىٰ المضاف إليه وحذفُ المضاف : كالأميرِ والقاضى والشيخِ والصَّـدْر ؛ ويلتحق بذٰلك لأهل الذِّمّة الحَضْرة ، وحَضْرة الشـيخ ، والشيخ مجرّدًا عن حَضْرة، وتقدَّم فى الفصل الأوّل من هـذا الباب أنَّ أربابَ الولايات خمسةُ أنواع : أربابُ السُّيُوف، وأربابُ الأقلام، وأربابُ الوظائف الصِّناعية، وزُعَماء أهل الذمّة ، ومَنْ لايختص بطائفةٍ لِصغَرهم . وجميعُ هـذه الأنواع علىٰ اختلاف أصنافهم لا يخرُجُون عن الألقاب المتقدّمة ؛ وقد تقدّم الكلامُ علىٰ هـذه الألقاب ونُعوتِها لمن يُكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف مستوفًى فى المكاتَبَات ، إلّا أنه قد يُولّىٰ عن السـلطان مَنْ لم يؤَهَّل للمكاتبة عنـه ، كأكثرِ أرباب الوظائف من حَمَلة الأقلام وغيرهم ، فاحْتِيج إلىٰ تعريف مراتبِ الألقاب لكلِّ نوع من أرباب الولايات .

فأما أربابُ السُّيوف، فأعلىٰ ألقابِهم المَقرّ، وأدناها مجلِسُ الأمير، ثم الأمير مجرّدا عن مجلس .

وأمّا أرباب الوظائف الصِّناعيّة، فأعلىٰ ألقابِهم المجلسُ وأدناها مجلِسُ الصَّدْر، ثم الصَّدرُ مجرَّدا عن مجلس .

وأما من لايختص بطائفة لصغره، فيقتَصَر فيه علىٰ لقب التعريف وهو فلانُ الدِّين إن عُظِّم وإلّا ٱقتُصِر علىٰ ٱسمه خاصّة .

وأما زعماء أهل الذِّمّة، فأعلىٰ ألقابهم الحَضْرة، ثم حَضْرة الشيخ، ثم الشيخ مجرّدًا عن حَضْرة .

وٱعلم أنَّ كلَّ مَنْ كانت له مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، فلقَبُ وِلايتِه ونُعوتُه كما فى مكاتبته، غير أنه يُزادُ فى آخر النُّعوت المركَّبة ذكرُ ٱسمِه العلم، ونسبتُه إلىٰ السلطان: كالناصِرىّ، والظاهِرىّ، ونحوهما إن كان ممن يَنْتَسب إليه بنيابةٍ ونحوها؛ ثم إن كانت مكاتَبتُه تُفْتَتح بالدعاء نُقِل ذٰلك الدعاء من أوّل المكاتبة إلىٰ مابعد ٱسمه والنسبة إلىٰ السلطان فى الولاية، كما إذا كانت مكاتبتُه : أعَزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم، فإنه يُدْعىٰ له عقِيبَ ٱسمه والنسبةِ إلىٰ السلطان ـ إن كانت ـ بأعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَه، وكذٰلك فى البواقى .

وإن كانت مكاتبتُه تُفْتَتح بغير الدعاء: كصدرَتْ هذه المكاتبةُ ونحو ذلك، فإنه يدعىٰ له فى الولاية عقِبَ الأسم والنسبةِ إلىٰ السلطان ـ إن كانت ـ بما يُدْعىٰ له فى مكاتبته فى آخِرِ الألقاب، كما إذا كان من أرباب السُّيوف ومكاتبتُه صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى أو المجلِس السامىّ بالياء فإنه يُدْعىٰ له بمثل: أدامَ اللهُ سعادتَه، وأدام اللهُ رفعتَه، ونحو ذلك؛ وإن لم تكن له مكاتَبةٌ عن الأبواب السُّلْطانية

كُتِب له فى الولاية مايُناسِبُه من اللَّقب والنُّعوت، ثم يذكر ٱسْمُه والدعاءُ له إن كان مستحقًّا للدعاء؛ وسيأتى لقَبُ كلِّ ذِى وِلاية من الأنواع الخمسةِ المتقدّمةِ الذِّكرِ ونعوتُهُ عند ذكر وِلَايته فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم للألقاب فى الولايات مَحَلَّان :

أحدهما — الطُّرَّة . ويُقتَصر فيها علىٰ اللَّقب : من المقرّ أو الجَناب أو المَجْلس أو مجلِس مضافا وما بعده من النعوت إلىٰ اللَّقب المميِّز للوظيفة كالأَميرىّ والقَضَائىّ ونحوهما ، ثم يُذكر لقَبُه الخاصُّ به وهو الفُلانىّ أو فُلان الدين ، ثم يذكر ٱسْمُه وٱنتسابُه إلىٰ السلطان إن كان، علىٰ ماسيأتى بيانُه مفصَّلا، إن شاء الله تعالىٰ .

الثانى — فى أثناء الوِلَاية . وهُناك تستوفىٰ النُّعوتُ ويُؤْتىٰ بما فى الطُّرَّة فى ضِمْنه إلا أنه يُجعَلُ لقبُ التعريف — وهو الفلانىُّ أو فلانُ الدِّين — بين النعوت المفردة والمرَكَّبة فاصلا بينهما .

الوجـــــه الثـانى

(ألفاظ إسناد الوِلَاية إلىٰ صاحب الوظيفة؛ ولها سِتُّ مراتِبَ)

الأولىٰ — لفظُ العَهْد، مثل أن يقال : أنْ يُعْهَد إليه، وهى خاصَّةٌ بالخلفاء والمُلُوك .

الثانية — لفظ التَّقْليد، مثل أن يقال : أن يُقلَّد كذا، ويكون مع المَقرّ الكريم والجَنَاب الكريم .

الثالثة — لفظ التَّفْويض، مثل أن يُقَال : أنْ يفوَّض إليه كذا، ويختصُّ بالجناب لأرباب السيوف، وكذٰلك الجنابُ والمجلسُ العالى لأرباب الأقْلام .

قلت : وكُتّابُ زماننا يستعمِلونها[1] مع المَقَرّ أيضا ، ولا يستعمِلون لفظَ يُقلَّد في التقاليد لتوهُّمهم الاكتفاءَ بلفظ تقليدٍ عنها ، ولم يعلَمُوا أنَّ يقلَّد فوق يُفوَّض كما تقدّم . على أنَّ المَقرّ الشهابيَّ بنَ فضل الله قد صرَّح بذلك في "التعريف" كما سيأتى في موضعه إن شاء الله تعالى .

الرابعة — لفظ الاستِقرار والاستمْرار، مثل أن يقال أنْ يستقِرَّ في كذا ، أو يستَمِرّ في كذا . ولفظ يستقرّ مختصٌّ بالمستَجِدّ ، ولفظ يستمرّ مختصٌّ بالمستَقِرّ ؛ ويكونان مع المجلِس الساميّ بالياء ، والمجلِس السامِي بغير ياء لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم ؛ أما المجلسُ العالى فإن كانت مكاتبتُه تُفْتتح بالدعاء ، مثل : أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى كنائب السلطنة بالكَرَك ، فإنه يقال فيه أن يُفوَّض إليه ، وإن كانتْ مكاتبتُه تُفتَتَحُ بصدرَتْ هذه المكاتبة كنائب القُدْس ونحوه ، فإنه يقال فيه أن يستَقِرّ .

الخامسة — لفظ الترتيب ، مثل أن يقال : أن يُرَتَّب في كذا ، ويكون مع مجلس مضافا ، مثل مجلِس الأميرِ ومجلِس القاضى ونحوهما ، وربَّما استُعْمِلت مع السامى بغير ياء .

السادسة — لفظ التقدّم ، مثل أن يقال أن يُقدَّم فلانٌ على الطائفة الفلانيَّة ونحو ذلك .

قلت : وهاتان المرتبتان أعني السادسةَ والخامسةَ قد ذكرهما المقرُّ الشهابيُّ بن فضل الله في "التعريف" فقال : وقد يقال أن يُرتَّب وأنْ يُقدَّم . وهما موجودان في كتابة مُعاصِريه بمصر والشام ؛ أمَّا كُتّاب زمانِنا فقد رفضُوهُما جملةً وأضْربُوا عن استعمالها بكلّ حال ، واكتفَوْا عنهما بالمَرْتبة الرابعة وهى لفظُ الاستِقْرار ،

[1] أى لفظة "يفوّض" .

والواجب إثباتُهما لتفاوُتِ ما بين المَرَاتب . علىٰ أنّ آستعمال لفظ يُرتَّب موجودٌ فى كلامهم بكَثْرة، ولفظ يُقدّم لم يستعمِلوه إلا فى النَّزْر اليسير، والله أعلم . وهــذه الألفاظُ تقَع فى الطُّرَّة وفى أثناءِ الكلام علىٰ حدّ واحدٍ .

الوجــــــه الثـالث

(الآفتِتاحاتُ ، وهى راجعةٌ إلىٰ أربعِ مراتِبَ)

المرتبة الأُولىٰ — الآفتتاحُ بلفظ : هــذه بَيْعة ، أو هذا ماعَهِــد ، ونحو ذٰلك فى البَيْعات والعُهُود علىٰ المذهَب القديم ؛ أو بالحمدُ لله . ويقَعُ الآبتداء به فى العُهُود والبَيْعات إذا آبتُدِئ العهدُ أو البيعةُ بخُطْبة علىٰ ما عليه آستعمالُ أهل زمانِنا؛ وكذٰلك فى التقاليد لأربابِ السيوف والأقلامِ، والمَراسيم المكَبَّرة لأرباب السيوف؛ والتواقيع الكِبَار لأربابِ الأقلام .

المرتبة الثانية — الآفتتاحُ بأمَّا بعدَ حمدِ الله . ويقَعُ الآبتداءُ به فى المَرْتَبة الثانية من أرباب المراسيم المكَبَّرة من أصحاب السُّيوف؛ والمرتبةِ الثانية من أرباب التَّواقيع من أصحابِ الأقلام .

المرتبة الثـالثةُ — الآفتتاحُ بُرسِمَ بالأمرِ الشريف، ويقع الآفتتاحُ به فى المرتبـة الثالثة لأرباب التَّواقِيع والمَرَاسِيم من سائر أربابِ الوِلَايات .

المرتبة الرابعةُ — ما كان يُستعْمَلُ من الآفتتاح بأما بعدُ فإنَّ كذا . أومَنْ حَسُنَتْ طَرائقُه، وحُمِدت خَلائِقه، فإنه احَقُّ، وما أشبهَ ذٰلك؛ كما أشار إليه فى "التعريف" إذ كانَ الآنَ قد رُفِض وتُرِك علىٰ ما سيأتى بيـانُه فى موضعه إن شاء الله تعـالىٰ؛ وقد كان ذلك يُستَعْمَل فيما تقدّم لأرباب السُّيوف والأقلامِ جميعاً .

الوجـــــه الرابع

(تعدُّدُ التحميد فى الخُطْبة أو فى أثناء الكلام وآتحادُه)

فقد قال فى " التعريف " فى الكلام علىٰ عُهُود المُلُوك للمُلُوك : وكُلَّما كَثُرت التحميداتُ فى الخُطَب، كان أكْبَرَ: لأنها تدلُّ علىٰ عِظَم قَدْر النِّعمة ؛ وذكر فى الكلام علىٰ عُهود الخلفاء عن الخُلَفاء أنه يُنْتَهىٰ فى التحميد إلىٰ سَبْعة .

الوجـــــه الخامس

(الدعاءُ . وله ثلاثة مواضـــع)

الموضع الأوّل — فى طُرَّة الولَاية بعد ذكر ما يُكْتَب فى الطُّرَّة من ألقابه ، ولا يُزاد فيه علىٰ دَعْوة واحدة تناسبه .

الموضع الثانى — فى أثناءِ الولايةِ بعد آستيفاء الألقابِ وذكرِ الأسمِ ؛ وهو ما فى الطُّرّة من الدعوة المناسبة له بغيرِ زائدٍ علىٰ ذلك .

الموضع الثالث — [فى] آخِر الولاية بالإعانة ونحوها . قال فى "التثقيف": وأقلُّها دعوتان، وأكثرُها أربعٌ . قال فى "التعريف" : ومَن آستُصْغِر من المُوَلَّين لايُدْعىٰ له فى آخرِ ولايته .

ثم قد تقدّم فى المكاتَبَات أنَّ الدعاءَ مع تنزيه الله تعالىٰ : كأعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ، وضاعف الله [تعالىٰ] نعمةَ الجناب ونحو ذلك أعْلىٰ من حذْفه[1] ؛ كأدام اللهُ سعدَه، وأعزّه الله ونحو ذلك؛ ولا شكَّ أنه فى الولايات كذلك .

---

(١) أى حذف التنزيه وفى الأصل حذفها أى جملة التنزيه .

الوجـــــــه السادس

(طُولُ الكلام وقِصرُه ، فكُلَّما عظُمت الوظيفةُ وٱرتفع قدْرُ صاحبها كان الكلام فيهـا أبسَــطَ)

قال فى "حُسْن التوسل" : ويحسُن أنْ يكونَ الكلامُ فى التقاليد منقسِما أربعةَ أقسام متقارِبة المَقادير، فالرُّبعُ الأول فى الخُطْبة ؛ والرُّبع الثانى فى ذكر مَوْقِع الإنعام فى حق المقلَّد ، وذكر الرتبـة وتَفْخِيم أمرها ؛ والربعُ الثـالثُ فى أوصاف المُوَلَّى[1] ، وذكرِ ما يناسبُ تلك الرتبةَ ويُناسبُ حالَه من عَدْل وسياسةٍ ومَهَابة وبُعْد صيتٍ وسُمْعة وشجاعةٍ إن كان نائبا ؛ ووَصِف الرأى والعَـدْل وحُسْن التدبير والمعرفةِ بوُجُوه الأموال ، وعِمـارة البلاد ، وصَلاح الأحوال ، وما يناسبُ ذٰلك إنْ كان وزيرا ؛ وكذلك فى كلِّ رتبة بحسَبِها ؛ والربع الرابع فى الوَصايَا .

قال فى "التعريف" : والذى أختـارُه ٱختصارُ مِقْــدار التحميدة [التى][2] فى الخُطْبة والخُطَب مطلقا وإطالةُ ما بعــد ذٰلك ؛ والإطنابُ فى الوصايَا [اللهم][2] إلا لمن جَلَّ قدْرُه [وعظُم أمره][2] فإن الأولىٰ الاقتصارُ فى الوصايا علىٰ أهَمِّ الجُمْليَّات ، ويعتذِرُ فى الاقتصار بما يُعْرَف من فضله ، ويُعْلَم من عِلْمه ، ويُوثَق به من تَجْربته ومن هذا ومثله . قال : والكاتب فى هــذا [كلِّه][2] بحسَبِ ما يراه ، ولكلِّ واقعةٍ مَقَال يليقُ بها ، ولمَلْبَس كلِّ رجل قدرٌ معروف لايليقُ به غيرُه ؛ وفى هــذا غِنًى لمن عَرَف ، وكفايةٌ لمن عَلِم ؛ علىٰ أن المقرّ الشهابىَّ تابع فى ذلك القاضى « محيي الدين ٱبن عبــد الظاهر» رحمه الله، فإنك إذا تأملْتَ تقاليــدَه وتواقيعَــه، وجدتَها كلَّها

---

(١) فى حسن التوسل ص ١١٠ «المقلد» وهى بمعناها .

(٢) الزيادة من التعريف ص ٨٨ .

كذلك ، ولكلٍّ وجهٌ ظاهر ؛ فإنَّ المطوّل للخطبة لا يُخْليها من بَراعةِ الاستهلال ، المناسبةِ للحال ؛ والمقَصِّر لها مُراعٍ لزيادة الإطناب فى الوَصْف .

قلت : ولا يخفىٰ أن ما ذكراه فى التقاليد يجىءُ مثلُه فى العُهُود لجرْيها علىٰ مُوجِبها من مُولٍّ ومُولًّى .

أما إذا كانت الولايةُ بَيْعةً فإنه يجعَلُ موضِعَ الوَصايا ذكْرَ ٱلتزام الخليفةِ البِرَّ والإحسانَ للخلق ، ووَعْدَ النظر فى أمُور الرعية ، وصلاحِ أحْوالهم ؛ وذكرِ التحليف للخليفة ، أوله وللسلطان إن كان معه سلطان قام بعقْد البَيْعة له علىٰ الوَفَاء بالعَهْد والدُّخُول تحت الطاعة . قال فى "حسن التوسل" : والأمْرُ الجارى فى ذلك علىٰ العادة معروفٌ لكنه قد تَقَع أشياءُ خارجةٌ عن العادة فيحتاجُ الكاتبُ فيها إلىٰ حُسْن التصرُّف علىٰ مايقتضيه الحالُ ؛ وذكر من ذلك تقليدًا أنشأه لمتملّك سيسَ ، وتقليدًا كتبه بالفُتُوَّة ؛ وسيأتى ذكر ذلك مع ماشاكله فى مواضعه إن شاء اللهُ تعالىٰ .

الوجـــــه السـابع

(قطـــع الورق)

وٱعلم أنَّ الولاياتِ من ديوان الإنشاءِ بالأبواب السلطانية بجملتها يَنْحصِر قَطْعُ الورَق فيها فى خمسة مَقاديرَ لا يتعدَّاها :

أحدها ــ قَطْع البغدادىِّ الكاملِ ؛ وهو مختصٌّ بالبَيْعات والعُهُود مُطْلَقا علىٰ أىِّ الافتتاحات كان .

الثـانى ــ قَطْع الثلثَيْن من المنصورىّ، وهو لأجل الوِلاياتِ السُّلطانياتِ لأرباب السُّيوف وبعضِ أرباب الأقلام، ولا يفْتَتَح فيها إلّا بالحمد .

الثالث ــ قطع النِّصف منه،وهو لما دُونَ ذٰلك،ولا يفتَتَح فيه إلّا بالحمد أيضا :

الرابع ــ قطع الثُّلُث منه ، وهو لمـا دُونَ ذلك .

وآعلم أنه إذا وُلِّىَ صاحبُ وظيفـةٍ تستحِقّ قطعَ النصف وظيفةً أُخْرىٰ تستحق قَطْع العـادة ، فإنه يُراعىٰ مقدارُ صاحبِها ويُزادُ علىٰ مِقْـدار العادة ؛ إلا أنه لا يَبْلُغ مَبْلَغَ رتبة وظيفَتِه العُلْيـا ، بل ينبغِى أن يتُوَسَّط بينهما ؛ فيكتب له فى قَطْع الثلث لتكون رتبة بين رُتْبتين فتحصُل مراعاةُ تعظيمه من حيث الزيادةُ علىٰ قَطْع العادة ، ومراعاةُ قدر الوظيفة من حيثُ إنها لم تَبْلُغ شَأْوَ وظيفتِه العُلْيا ؛ أما إذا وُلِّىَ منحَطُّ القدر وظيفةً تستحق القَطْع الكبير، فإنه يكتَبُ له فيه ، وتكون توليتُه لهـا رَفْعًا إلىٰ درجَتِها .

الخامس ــ قطعُ العـادة، وهو أصغَرُها، والأصلُ أن يفتَتَح فيـه بلفظ «رُسِم بالأمر الشريفِ» وربمـا علتْ رتبـةُ صاحبِ الوِلاية ولم يؤهَّـلْ للكتّابة فى قطع الثلث فيُكْتَب له فيه : أما بعدَ حمد الله، وهو قليلُ الآستعمال، فإن آستُعْمِل أما بعدُ فإنّ كذا ، أو إنَّ أوْلىٰ ، أو إن أَحَقَّ ونحو ذلك كُتِب فى قَطْع العادة أيضا .

الباب الثانى

من المقالة الخامسة فى البيعات، وفيه فصلان

الفصل الأول

(فى معناها)

البَيْعات جمع بَيْعة، وهى مصدرُ[(١)] بايَعَ فلانٌ الخليفةَ يُبايِعه مُبايعةً؛ ومعناها المعاقَدةُ والمُعاهَدةُ، وهى مُشَبَّهة بالبَيْع الحقيقِيِّ . قال أبو السَّعادات بْنُ الأثير فى نهايته فى غريب الحديث : كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما باعَ ماعِنْدَه من صاحبِه وأعطاه خالصةَ نَفْسه وطاعَتَه ودَخِيلةَ أمْرِه . ويقال : بايَعَه، وأعطاه صَفْقةَ يدِه؛ والأصلُ فى ذٰلك أنه كان من عادةِ العربِ أنه إذا تَبايَعَ اثنانِ صَفَقَ أحدُهما بيده علىٰ يَدِ صاحبِه .

وقد عَظَّم الله تعالىٰ شأْنَ البيعةِ وحَذَّر من نَكْثِها بقوله خطابا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيما ﴾ . وأمر بمبايعة المُؤْمنات فى قوله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّها النَّبِىُّ إذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلىٰ أنْ لايُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وبايع النبىُّ صلى الله عليه وسلم الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهم بيْعَتَيْنِ .

---

(١) ليس مراده المصدر الصناعى كما لايخفى والأوضح "وهى اسم مصدر لبايع" الخ تأمل .

الفصـــــــل الثـانى

(فى ذكر تنويع البَيْعات ، وهى نوعان)

النـــوع الأوّل

(بَيْعـاتُ الخُلفَــاء، وفيهــا سبعة مقـاصِــدَ)

المقصــــــد الأوّل

(فى أصل مشروعيتها)

فالأصْل فى ذٰلك بعد الإجماع ماثبَت فى الصحيحين من حَديث عائشة رضى الله عنها " أنّه لمـا تُوُفِّىَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ، ٱجتَمَعتِ الأنصارُ إلىٰ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فى سَقِيفَةِ بَنِى ساعِدَةَ ، فقالُوا : مِنَّا أَميرٌ ومِنْكُمْ أَميرٌ ، فذهب إليهم أبُو بَكْرٍ وعُمَرُ وأبُو عُبَيْــدَةَ بْنُ الجَرَّاح ، فذهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فأسْـكَتَهُ أبُو بَكْرٍ ، وكان عُمَرُ يقُول : ما أَرَدْتُ بذٰلك إلّا أنّى قد هَيَّأْتُ كَلامًا أَعْجَبَنِى خَشِيتُ أن لَّايَبْلُغَهُ أبُو بَكْرٍ ، ثم تَكَلَّمَ أبو بَكْرٍ فتكلَّم أبلغَ النـاسِ . فقال فى كلامِه : نَحْنُ الأُمَرَاءُ وأَنْتُمُ الوُزَراء . فقال الحُبَـابُ بْنُ المُنْذِر : لَا واللهِ لانَفْعَلُ ! مِنَّا أَميرٌ ومِنْكُمْ أَمير . فقال أبو بَكْر : لَا ولٰكِنَّا الأُمَرَاءُ وأنْتمُ الوُزَراءُ . فبايِعُوا عُمَرَ أَوْ أبَا عُبَيدةَ . فقال عمرُ : بَلْ نُبَايِعُكَ فأَنْتَ سيِّدُنا وخَيْرُنا وأَحَبُّنا إلىٰ رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ، فأخذ عُمَرُ بيدِه فبايَعه وبايَعَ النّاسُ " .

وهــذه أوّلُ بيعةٍ بالخِلافَةِ كانتْ فى الإسلام ، ولكن لم يُنْقَل أنه رضى الله عنه كُتِبَ له مبايعةٌ بذٰلك ، ولعلَّ ذٰلك لأنَّ الصحابةَ رِضوانُ الله عليهم كانوا إذا بايَعُوا لايَجْحَدُون البَيْعَةَ بعد صُدُورها ، بخِلاف مابعد ذٰلك .

المقصـــــد الثانى

(فى بيانِ أسبابِ البَيْعة المُوجبة لأخْذها علىٰ الرَّعِيَّة)

وهى خمســـة أسباب :

السببُ الأوّل — موتُ الخليفة المنتصِبِ من غير عَهْد بالخلافة لأحدٍ بعـده ، كما فى قِصَّة الصِّـدِّيق المتقدِّمة بعد وَفَاة النبىّ صلّى الله عليه وسلم ؛ أو بتَرْكها شُورىٰ فى جماعة معيَّنة ، كما فعل عمرُ رضى الله عنه عند وَفَاته حيثُ تَرَكها شُورىٰ فى ستة : علىّ بنِ أبى طالب ، والزُّبَير بن العَوَّام ، وعُثْمَانَ بنِ عفَّان ، وعبدِ الرحمٰن بنِ عَوْف ، وطلحةَ ، وسعدِ بنِ أبى وَقَّاص ، رضى اللهُ عنهم .

السبب الثـانى — خَلْع الخليفةِ المنتصِبِ لمُوجِب يقتضِى الخَلْع ، فتحتاجُ الأمةُ [إلىٰ] مبايعةِ إمام يقُوم بأمورها ، و يتحمَّل بأعبائها .

السبب الثالث — أن يتوَهَّم الخليفةُ خُروجَ ناحيةٍ من النَّواحِى عن الطاعة فيُوجِّه إليهم من يأخُذ البيعةَ له عليهم : لينقادُوا لِأمْرِه ، ويدخُلوا تحتَ طاعتِه .

السبب الرابع — أن تُؤْخَذَ البيعةُ للخليفة المعهودِ إليه بعدَ وَفَاة العاهد ، كما كانتِ الخلفاءُ الفاطميُّون تفعَلُ فى خِلَافتهم بمصر ، وكانوا يُسَمُّون البيعةَ سِجِلًّا كما كانوا يُسَمُّون غيْرَها بذٰلك .

السبب الخـامس — أن يأخُذَ الخليفةُ المنتصبُ البيعةَ علىٰ الناس لولِىّ عهـدِه بالخلافة بأن يكونَ خليفةً بعدَه إمضاءً لعَهْده ، كما فعل معاويةُ رضى الله عنه فى أخذه البيعةَ لولده يَزِيدَ .

المقصـــــد الثـالث

(فى بيان ما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة البَيْعة)

وٱعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة البَيْعة أمورا :

منها — أن ياتِىَ فى بَراعة الِاستهلال بما يتهيَّأ له من ٱسم الخليفة أو لَقَبه : كفلانِ الدِّين، أولقَبِ الخلافة : كالمتوكِّل أو المستكْفِى، أومقتضىٰ الحال المُوجِب للبَيْعة من موتٍ أو خَلْع ونحوهما، أو غير ذٰلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة وعُلُو قدْرها ورِفْعة شأنها ، وأنها الغايةُ التى لافَوْقَها، والدرجةُ التى لابَعْدَها ؛ وأن كلَّ رُتْبة دُونَ رُتْبتها ، وكلَّ مَنْصِب فرعٌ عن مَنْصِبها .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ مَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام ، ودِعايَة الضَّرورةِ إليه ، وأنه لايستقيمُ أمْرُ الوجود وحالُ الرعِيَّة إلّا به ، ضرورةَ وُجوبِ نصبِ الإمام بالإجماع، و إن شذَّ عنه الأصمُّ نخالف ذٰلك .

ومنها — أنْ يُشِيرَ إلىٰ أنَّ صاحبَ البَيْعة ٱستوعبَ شُروطَ الإمامةِ وٱجتمعتْ فيه ، ويصِفَه منها بما يَعِزُّ وجُودُه، ويُتَمَدّحُ بحصوله : كالعِلْم والشَّجاعة والرأْى والكفاية ؛ بخلاف مالا يعِزُّ وجودُه ولا يُتَمَدَّحُ به و إن كان من الشروط : كالحُرِّية والذُّكورة والسمْع والبصَر ونحو ذٰلك ؛ فإنَّ الوصف بذٰلك لا وجْهَ له .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ أفضليةِ صاحبِ البَيْعة وتقدُّمه فى الفضل وٱستيفاءِ الشُّروط علىٰ غيره : ليخْرُج من الخِلاف فى جَواز تولِيَةِ المفضُول مع وجُود الفاضل .

ومنها — أن يَنبِّه علىٰ أنَّ المختارين لصاحب البَيْعة ممن يُعْتَبَر ٱختيارُه من أهل الحَلِّ والعَقْد : من العلماء والرُّؤساء ووجُوه النـاس الذين يتيسَّر حضُورُهم علىٰ الوجه المعتَبر .

ومنها — أن يَنبِّه علىٰ تعيين المختارِين للبَيْعة، إن كان الإمامُ الأوّلُ نصَّ عليهم ؛ إذ لايصِحُّ الاختيار [من] غير من نَصَّ عليه، كما لايصحُّ إلا تقليدُ من عَهِد إليه .

ومنها — أن ينَبِّـه علىٰ جَرَيان عَقْـد البَيْعةِ من المختارين، ضرورةَ أنه إن ٱنفردَ شَخْصٌ بشروط الإمامة فى وَقْته لم يَصِرْ إماما بمجرّد ذلك .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ سبب خَلْع الخليفة الأوّلِ إن كانت البيعةُ مترتِّبة علىٰ خَلْع، إذ لايصح خَلْع الإمام القائِم بلا سبَب .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ قَبُول صاحب البيعةِ العقدَ و إجابته إليه إذ لابُدّ من قَبُوله .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنَّ القَبُول وقع منـه بالٱخْتيار : لأنه لايصِحُّ الإجبارُ علىٰ قَبُولها ؛ أللهم إلّا إن كان بحيثُ لايصلُح للإمامة غيْرُه فإنه يجبَرُ عليها بلا خِلَاف .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ وُقُوع الشهادة علىٰ البَيْعة، خروجًا من الخلاف فى أنه هل يُشْتَرَط الإشهادُ علىٰ البيعة أم لا ؟ .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنها لم تقْترن ببَيْعةٍ فى الحالِ ولا مسبُوقةٍ بأُخْرىٰ، إذ لايجوز نَصْبُ إمامَيْن فى وقتٍ واحدٍ وإنْ تباعَدَ إقْليماهُما ، خلافا للأُسـتاذ أبى إسحاق الأَسْفَرايِينِى حيثُ جوّز نصْبَ إمامين فى إقليمَيْن .

ومنها — أن ينَبِّـهَ علىٰ أنه بمجرّد البَيْعـة تجبُ الطاعةُ والٱنقيادُ إليـه ، ويجب علىٰ كافَّة الأمة تفويضُ الأمور العامّة إليـه ، وطاعتُـه فيما وافَقَ حكمَ الشرع وإنْ كان جائِرا .

ومنها — أن يعزِّىَ فى الخليفة الميت ويُهَنِّىَ بالمستَقِرّ إن كانت البيعةُ مبنيَّةً علىٰ موتِ خليفةٍ ؛ وأن يبيِّن سببَ خلْع الخليفة الأوّل إن كانت مرتَّبةً علىٰ خَلْع [1] .

أما التَّعزِيَةُ والتهنئـةُ بموت الأوّل ، فعليـه جرىٰ عامّة الكُتَّاب ؛ إلّا أنه يختصُّ فى عُرْفهم بمـا إذا كان الخليفةُ الأوّلُ شـديدَ القُرْب من الثانى ؛ كأبيه وأخيه وابن عمّـــه .

وكان الأوّلونَ يتعَاَنْون ذٰلك فى خطاب الخلَفاء بالتهنئـة بالخلافة بعدَ أقارِبهم ، وقد رُوِى أنَّ عطاءَ بنَ أبى صَـيْفِىّ دخل علىٰ يَزِيدَ بن معاويةَ فهنَّأه بالخلافة وعزَّاه فى أبيه فقال :

رُزِئْتَ بأمير المؤمنـين خليفـةِ الله ، وأُعْطِيتَ خِلافةَ الله ؛ قضىٰ معاويةُ نَحْبَـه ، فغفرَ اللهُ ذَنْبه ؛ ووُلِّيت الرِّياسه ، وكنتَ أحقَّ بالسِّياسه ؛ فاْحتَسِبْ عندَ اللهِ جليلَ الرَّزِيَّه ، واْشكُرْه علىٰ جَزِيل العطِيَّـه ؛ وعَظَّم اللهُ فى معـاويةَ أجْرَك ، وأحسنَ علىٰ الخلافة عَوْنَك .

وتعرَّضتْ أعرابيَّة للنصور فى طريق مكَّةَ بعد وفَاة أبى العَبَّاس السَّفَّاح ، فقالت :

ياأميرَ المؤمنين اْحتَسب الصَّبر ، وقدِّم الشُّكْر ؛ فقد أجزلَ اللهُ لك الثَّواب فى الحالين ، وأعظَمَ عليك المِنَّةَ فى الحادثَيْن ؛ سَلَبَكَ خليفةَ الله ، وأفادكَ خِلافَةَ الله ؛ فسَلِّم فيما سَلَبك ، واْشكر فيما مَنَحك ؛ وتجاوزَ اللهُ عن أمير المؤمنين ، وخارَ لَكَ فيما ملَّكك من أمر الدُّنيا والدِّين .

وأما التعريف بسبب الخَلْع [1] ، فلأنه لا يصِحُّ خَلْعُ الإمام بغير مُوجِب للخَلْع .

ومنها — أن يشير إلىٰ ذكر السلطان القائِم بالبَيْعة إن كان القائمُ بهـا سلطاناً علىٰ ما اْستقرّت عليه قاعدةُ الكُتَّاب فى ذٰلك .

---

(١) سبق التنبيه على هذا فى الصفحة قبل .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنَّ من ٱستُحْلِف فى البَيْعة من وُجُوه الدولة وأعيان المملكة إن جرىٰ حَلِفٌ، ويذكر صفةَ حلِفِهم وما ٱلتزمُوه من الأيمـان المؤكَّدة، والمَوَاثيق المغلَّظـة .

المقصـــد الرابع

(فى بيان مواضع الخلافة التى يستَدْعِى الحالُ كتابةَ المبايَعات فيها)

وهى أربعـة أمـور :

أحدها — موتُ الخليفـة المتقدِّمِ عن غير عهدٍ لخليفةٍ بعـده ، وهو موضوعها الأصلىّ الذى عليه بُنِيتْ .

الثـانى — أن يَعْهَد الخليفةُ إلىٰ خليفةٍ بعدَه ، ثم يموتَ العاهِد ويستقرّ المَعْهود إليه بالخلافة بالعَهْد بعده، فتؤخَذله البَيْعةُ العامَّة علىٰ الرَّعية، إظهاراً لوقُوع الإجماع علىٰ خلافته، والاتِّفاقِ علىٰ إمامتِه .

الثالث — أن تؤْخذ البيعةُ للخليفة بحضْرة وِلَايته ، ثم تُنَفَّذ الكتُبُ إلىٰ الأعمال لأخْذ البَيْعة علىٰ أهلها، فيأخذُ كلُّ صاحب عملٍ له البيعةَ علىٰ أهل عَمَله .

الرابع — أن يَعْرِض للخليفة خَلَلٌ فى حال خلافته : من ظهور مخالِف أو خُرُوج خارجىّ، فيحتاج إلىٰ تجديد البَيْعة له حيثُ وَقَع الخلافُ .

ولكلٍّ من هذه الأحوال ضَرْبٌ من الكتابة يُحتاجُ فيه إلىٰ بيان السبَب الموجب لأخْذ تلك البيعةِ .

المقصـــــد الخـامس
(فى بيـان صورة مايُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء، وفيها أربعة مذاهب)

المـــــذهب الأوّل
(أن تُفتتحَ المبايعةُ بلفظ «تُبَايِع فلانا أمـيرَ المؤمنيـــن» خطاباً لمن تُؤْخَذ عليـــه البَيْعة)

ويذكر ما يقَعُ عليـه عقدُ المُبايعة، ويأتى بمـا سَنَح من أمر البَيْعـة، ثم يذكر الحاِفَ عليها، وعلىٰ ذٰلك جرىٰ مصطَلَح كُتَّاب خلفاء بنى أُمَيَّةَ، ثم خلفاءِ بنى العَبَّاس بعدهم ببغدَادَ .

وٱعلَمْ أنه قد تَقَـدّم فى المَقْصد الأوّل من هـذا الفصل أنه لم يُنْقَـل أنه كُتِب للصدّيق رضى الله عنه ولا لمن وَلِىَ الخلافةَ بعـده من الصَّحابة من غير عهدٍ بيعةٌ . ولمـا كانتْ خلافةُ بنى أُمَيَّة ، وآلَ الأمْرُ إلىٰ عَبْد المَلِكِ بنِ مَرْوان ، وأقام الحَجَّاجَ ٱبنَ يوسُفَ علىٰ إمَارة العِراق، وأخَذ فى أخْذ البيعة لعبد الملك بالعِراق ، رَتَّب أيمانا مَغَلَّظةً تشتمل علىٰ الحَلِف بالله تعالىٰ والطَّلاقِ والعَتَاق والأيمان المُحْرِجات يُحْلَف بها علىٰ البَيْعة ، وٱشتهرَتْ بين الفُقَهاء بأيمـانِ البيعةِ، وٱطَّرد أمْرُها فى الدولة العبَّاسيَّة بعد ذٰلك . وجرىٰ مصطلَحُهم فى ذٰلك علىٰ هذا الأُسْلوب .

وهـذه نسخةُ مبايعـــةٍ ، ذكرها أبو الحُسيْـن بن إسحـاقَ الصـابِى فى كتابه "غُرَرِ البَلاَغة" وهى :

تُبَايِع عبـدَ الله أمير المؤمنين فلانا بَيعةَ طَوْع وٱخْتِيار ، وتَبَرُّع وإيثار ، وإعلانٍ وإسْرار، وإظْهارٍ وإضْمار، وصِحّة من نَغَل ، وسلامة من غير دَغَل، وثباتٍ من غير

تبديل، ووقار من غير تأويل ؛ وٱعترافٍ بما فيها من ٱجتماع الشَّمْل، وٱتِّصال الحَبْل ؛ وٱنتظامِ الأمور، وصَلَاح الجُمْهور ؛ وحَقْن الدِّماء، وسُكُون الدَّهْماء ؛ وسعادةِ الخاصَّة والعامَّه، وحُسْن العائدة علىٰ أهل المِلَّة والذِّمَّه ـ علىٰ أنَّ عبدَالله فلانا أمير المؤمنين عبدُالله، الذى ٱصطفاه ؛ وخليفتُه الذى جعل طاعتَه جاريةً بالحق، ومُوجَبَةً علىٰ الخَلْق ؛ ومُورِدةً لهم مَوَارِدَ الأَمْن، وعاقدةً لهم مَعاقِدَ اليُمْن ؛ وولايَتَه مُؤْذِنةً لهم بجميل الصُّنْع، ومؤدِّيةً بهم إلىٰ جزيل النَّفْع ؛ وإمامتَه الإمامةُ التى ٱقترَنَ بها الخيرُ والبَرَكه، والمصلحةُ العامّةُ المشتَرَكه ؛ وأمَّل فيها قمعَ المُلْحد الجاحد، وردَّ الجائرِ الحائد ؛ ووَقْم العاصى الخالع، وعَطْفَ الغازى المُنازِع ـ وعلىٰ أنَّك ولِيُّ أوليائه، وعدُوُّ أعدائه : من كلِّ داخِلٍ فى الجُمْله، وخارجٍ عن المِلَّه، وحائدٍ عن الدَّعْوه. ومتمَسِّكٌ بما يدليه، عن إخْلاصٍ من رَأْيك، وحقيقةٍ من وَفَائك ؛ لا تنقُضُ ولا تَنْكُث ولا تُخْلِف ولا تُوارى ولا تُخادِع، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل ؛ علانيتُك مثل نِيَّتك، وقولُك مثلُ طَوِيَّتك ـ وعلىٰ أن لا تَرْجِع عن شيءٍ من حُقُوق هذه البيعةِ وشرائطِها علىٰ مَرِّ الأيام وتَطَاوُلها، وتغيُّرِ الأحوال وتنقُّلِها، وٱختلافِ الأزمانِ وتقلُّبها ـ علىٰ أنَّك فى كلِّ ذلك من أهل المِلَّة الإسلامية ودُعاتِها، وأعوانِ الدولة العبَّاسيَّة ورُعاتِها ؛ لا يُداخِل قولكَ مُواربةٌ ولا مُداهَنه، ولا تعتَرِضُه مغالَطَةٌ ولا تتعقَّبُه مخالَفه ؛ ولا تَخِيس به أمانه، ولا تَغُلُّه خِيَانه ؛ حتّى تلقىٰ الله تعالىٰ مقيماً علىٰ أمْرِك، وَفِيًّا بعَهْدك ؛ إذ كان مُبايِعو وُلاة الأمور وخلفاءِ الله تعالىٰ فى الأرض ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

عليكَ بهذه البيعةِ ـ التى أعطَيْت بها صَفْقة يَدِك، وأصْفيْتَ فيها سَرِيرةَ قلْبك ؛ وٱلترمتَ القيامَ بها ماطالَ عُمُرك، وٱمتدّ أجلُك ـ عهدُ اللهِ إنَّ عهدَ الله كانَ

مسئُولا ، وما أخذه علىٰ أنبيائِه ورُسُله وملائكتِه وحَملةِ عَرْشـه من أيمـانٍ مغلَّظةٍ وعُهُودٍ مؤكَّده، ومَواثِيقَ مشـدَّده ، علىٰ أنك تَسْمَع وتُصْغِى، وتُطِيع ولا تَعْصِى ؛ وتعتَدِلُ ولا تَمِيل، وتسـتَقِيم ولا تَحِيد ؛ وتَفِى ولا تَغْدِر، وتثبُتُ ولا تتغيَّر ؛ فمتىٰ زِلْتَ عن هذه المَحجَّة حاقرا لأمَانتِك، ورافِعًا لديانَتِك ؛ فجحدْتَ اللهَ تعالىٰ رُبُوبِيَّته، وأنكَرْتَه وَحْدانِيَّته ؛ وقطعْتَ عِصْمةَ محمدٍ صلّى الله عليه وسـلم وجذَذْتَها، ورميْتَ طاعَتَـه وراءَ ظهرِك ونبذْتَها ؛ ولَقِيتَ اللهَ يومَ الحشر إليه، والعَرْض عليـه، مُخالِفًا لأمْره، وخائنًا لعَهْده، ومقيماً علىٰ الإنكارِ له ؛ ومُصِرًّا علىٰ الإشراكِ به ؛ وكُلُّ ما حالَّه الله لك محرَّمٌ عليـك، وكلُّ ماتملكه يومَ رُجُوعك عن ذٰلِك، وآرتجاعك ما أعطَيْتَه فى قولك : من مالٍ موجودٍ ومَذْخُور، ومَصُـوغ ومَضْروب، وسارِحٍ ومَرْبوط، وسائمٍ ومعقُول ؛ وأرضٍ وضَـيْعه، وعَقَار وعُقْـده، ومملوكٍ وأَمَه، صـدقةٌ علىٰ المَسَاكين ، محرَّمةٌ علىٰ مرّ السِّنين ؛ وكلُّ آمرأةٍ لك تملكُ شَعَرها وبَشَرها ، وأُخرىٰ تتزوَّجُها بعدها، طالقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّنَّة لارجْعةَ فيـه ولا مَثْنوِيَّةَ ؛ وعليك الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحرامِ الذى بمكَّةَ ثلاثين دَفْعـة حاسِرًا حافِيـا ، راجِلًا ماشِـيا ؛ نَذْرا لازما ، ووَعْدا صادقا ؛ لايبرِّئُك منها إلا القضاءُ لهـا ، والوفاءُ بها ؛ ولا قَبِلَ اللهُ منك تَوْبةً ولا رَجْعةً ؛ وخذَلَك يومَ الآستنصار بحَوْله ، وأسلَمَك عنـد الآعتصام بحبْله ؛ وهذه اليمينُ قولُك قلتَها قَوْلا فَصِيحا ، وسرَدْتَها سَرْدا صحيحا ؛ وأخلصْتَ فيها سِرَّك إخلاصًا مُبِينا ، وصدَقْتَ فيها عَزْمَك صِدْقا يَقِينا ؛ والنيةُ فيها نيةُ فلان أميرِ المؤمنين دُونَ نيّتك ، والطَّوِيّةُ [فيها طويَّتُه] دُونَ طوِيَّتك ؛ وأشهدتَ اللّهَ علىٰ نَفْسك بذٰلك وكفىٰ باللهِ شَهِيدا ، يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نفس عليها حافظًا ورَقِيبا .

⁂

وهـذه نسخةُ بَيْعةٍ أُخرىٰ من هذا الأُسْلوب ، أوردها آبنُ حَمْدُونَ فى تَذْكِرته ، وربَّمـا وافقَ فيها بعضَ ألفاظ البيعة السابقةِ، وهى :

تُبايعُ الإمامَ أميرَ المؤمنين فلانا بيعةَ طَوْع وإيثـار ، وآعتقادٍ وإضمار ، وإعلان وإسْرار ؛ وإخلاصٍ من طوِيَّتك، وصِـدْقٍ من نِيَّتك ؛ وآنشراحِ صـدرِك وصِحَّة عزِيمتِك؛ طائعًا غيرَ مُكْرَه، ومُنْقادا غيرَ مُجْبَر ؛ مُقِرًّا بفضلها، مُذْعِنـا بحقِّها؛ معترِفا ببركتها، ومعتـدًّا بحُسْن عائدتها؛ وعالمـًا بمـا فيها وفى توْكيدهامن صَلَاحِ الكافَّه، وآجتماعِ الكلمـة [من] الخـاصَّة والعامَّه؛ ولَمِّ الشَّعَث، وأَمْن العَواقِب؛ وسُكُون الدَّهْماء، وعِزِّ الأولِيـاء ، وقَمْعِ الأعداء ــ علىٰ أنَّ فلانا عبدُ الله وخليفتُه، المفترَضُ طاعتُه، والواجبُ علىٰ الأمة إقامتُه ووِلايتُه؛ اللازمُ لهم القيامُ بحقِّه، والوفاءُ بعهْده؛ لاتشُكُّ فيـه ، ولا ترتابُ به ، ولا تُداهِن فى أمره ولا تَمِيل . وأنك وَلِىُّ وليِّـه ، وعدُوُّ عدوّه: من خاصٍّ وعامّ، وقريبٍ وبعيـدٍ، وحاضِرٍ وغائب؛ متمسِّكٌ فى بَيْعته بوَفَاء العهْد، وذِمَّة العَقْد؛ سريرتُك مثـلُ علانِيَتِك ، وظاهرُك فيه وَفْقُ باطنِك ــ علىٰ أنْ أعطيتَ الله هـذه البَيعةَ من نَفْسـك ، وتوكيدَكَ إيَّاها فى عُنُقـك ، لفلانٍ أميرِ المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك ، وآسـتِقامةٍ من عَزْمك ؛ وآستمرارٍ من هَوَاك ورَأْيك ــ علىٰ أن لاتتأوَّلَ عليـه فيها ، ولا تَسْـعىٰ فى نَقْض شىءٍ منها؛ ولا تقْـعدَ عن نَصْره فى الرَّخاء والشِّـدّة ، ولا تَدَعَ النصرَ له فى كلِّ حالٍ راهنةٍ وحادثة ؛ حتّٰى تلقىٰ الله مُؤَدِّنا بهـا ، مُؤدّيا للأمانةِ فيها ؛ إذ كان الذين يُبـايعونَ وُلاةَ الأمرِ ، وخلفاءَ الله فى الأرض ﴿ إنَّمـا يُبايِعُـونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْديهِـمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمـا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسه ﴾ .

عليـك بهذه البيعـة ـ التى طوّقتها عُنُقك ، وبَسَطْتَ لهـا يدَك ، وأعطيْتَ فيها صَفْقتك ، وما شُرِط عليكَ فيها : من وفاءٍ ومُوالاة ، ونُصْح ومشايَعه ، وطاعةٍ وموافقـة واْجتهاد ومتابعه ـ عهـدُ الله إنّ عهـدَ الله كان مَسْـئُولا . وما أخذ اللهُ تعالىٰ علىٰ أنبيائه و رُسُـلِه عليهم السلام ، وعلىٰ مَنْ أخَذَ من عبـاده ، وَكِيدات مَوَاثِيقه ومُحْكَمَات عُهُوده ؛ وعلىٰ أن تَمَسَّكَ بها ولا تُبَدِّل ، وتستقيمَ ولا تَميل ؛ وإن نكثْتَ هـذه البيعةَ أو بدَّلت شَرْطا من شُرُوطها ، أو عَفَّيْت رسْمـا من رُسُومها ، أو غيَّرت حُكْما من أحكامها ، معْلِناً أو مُسِرًّا أو مُحتالا أو مُتأوِّلًا ؛ أو زِغْتَ عن السبيل التى يَسْلُكُها من لايُحقِّر الأمانه ، ولا يستحِلُّ الغَدْر والخيانه ، ولا يستجيزُ حَلّ العقود ، فكلُّ ماتملِكُه من عينٍ أو وَرِق أو آنيـه ، أو عَقَار أو سائِمة ، أو زَرْع ، أو ضَرْع ، أوغير ذلك من صُنُوف الأملاك المعتدَّه ، والأموال المُدّخَره ، صدقةٌ علىٰ المساكين ، محرَّمٌ عليك أن ترجع من ذٰلك إلىٰ شيء من مالك بحيلةٍ من الحِيَل ، علىٰ وَجْه من الوجوه ، وسببٍ من الأسْباب ، أو مَخْرَج من مَخَارج الأَيمـان ؛ وكلُّ ماتعتدّه فى بقِيَّـة عمرك من مالٍ يقِلُّ خَطَرُه أو يجِـلُّ فتلك سـبيلُه إلىٰ أن تتوفَّاك منِيَّتُك أو يأتيك أجَلُك ؛ وكلُّ آمرأةٍ لكَ اليومَ (1) : وأخرىٰ تتزوّجها بعدها مدّةَ بقـائك طالِقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّـنّة لامَثْنوِيَّةَ فيه ولا رجْعَـة ؛ وعليك المشيُ إلىٰ بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجَّة حافيا ، حاسِرًا راجلا ؛ لايَرْضىٰ اللهُ منك إلّا بالوفاء بهـا ، ولا يقْبـلُ اللهُ منـك صَرْفا ولا عَدْلا ؛ وخَذَلك يوم تحتاجُ إليـه ؛ وبرّأك من حَوْله وقُوَّته ، وألجأك إلىٰ حَوْلك وقُوّتك ، والله عزّ وجل بذٰلك شهيدٌ ، وكفىٰ به شَهِيدا .

---

(١) فى الأصول "وكل مملوك لك اليوم من ذكر وأنثى مدة" الخ وهو غير مناسب كما لايخفى .



وهـذه نسخة أُخرىٰ من هـذا الأسـلوب، أوردها أبو الحسين الصابى في "غُرَر البلاغة" وهي :

تُبايِعُ أميرَ المؤمنين بقُوَّةٍ من بَصيرتك، وصحّة من سَريرتك، وصَفاءٍ من عَقيدتك، وصِدْقٍ من عَزيمتك، علىٰ الرِّضا [به] والوَفاء له، والإخلاص فى طاعته، والآجتهاد فى مُناصحته، وعَقْد النيَّة علىٰ مُوالاته، وبَذْل القُدْرة فى ممالاته، وأن تكونَ لأنصاره عَوْنا، ولأوْليـائه حزْبا، ولأعدائه حَرْبا، عارفين بمـا فى ذٰلك من الحَظِّ، ومعترفين بمـا يلزَمُ فيه من الحقّ، ومحافِظين علىٰ ماحَرَس المِلَّة الإسلاميّة، والدولةَ العبّاسيه، ثبَّت الله قواعِدَها، وأحكم مَعاقِدَها، وزادها آستِمْرارا علىٰ مَرِّ الدُّهور، وآستقرارًا علىٰ كَرِّ العُصُور، وعِزًّا علىٰ تنقُّل الأمور، وآشتِدادا علىٰ تغلُّب المَقْدور، فإن خالفْتُ ذٰلك مُسِرًّا أو مُعلِنا، وحُلْتُ عنه مُظْهِرا أو مُبْطِنا، وحلَلْتُ عقُودَه ناكثًا أو ناقضا، وتأوّلتُ فيه مُحاوِلا للخُروج منه، وآستثنيْتُ عليه طالبًا للرّجوع عنه، فبرِئني الله من حولِه وقُوّته، وسلبَنِي ماوَهبَ من فضْله ونِعمته، ومنعني ماوعدَ من رأفته ورحمته، وخَلّانى من يَدَيْه، يومَ الفَزَع الأكبر لدَيْه، وحنث كلّ يمين حلَفها المسلمون علىٰ قديم الأيّام وحديثِها، والتّناهى فى تأكيدها وتشديدها، وأعرَوْها من لباس الشُّبْهه، وأخْلَوْها من دَواعِى المخاتَله، وهذه اليمينُ يمينى : أوردتُها علىٰ صِدْق من نيّتى، وصِحّـةٍ من عزيمتى، وآتّفـاقٍ من سرّى وعَلانيَتى، وسَرَدْتُها سرْدا متتابِعا من غير فَصْـل، وتلفظت بها تلفُّظا من غير قطع، والنيَّةُ فيها نيَّةُ فلان : علىٰ حُضُور منـه وغَيْب، وبُعْـد وقُرْب، وأُشْهِد الله تعالىٰ بمـا عقدْتُه علىٰ نفسى منها، وكفىٰ بالله شهيدا علىٰ من أشهده، وحسيبًا علىٰ من آجترأ علىٰ إخفار عهْده، ونقض عقده .

قلت : فإن كان من تؤخذ عليــه المبايعة ٱثنين ، أُتِى فى المبايعة بِصيغة التثنية؛ أو ثلاثة فأكثر، أُتِى بصيغة الجمع . ولم أقِف علىٰ كيفية وضْعِهم لذلك فى الكتابة، والذى يظهر أن المبايعة كانتْ تكتَبُ علىٰ الصورة المتقـدّمة ، ثم يكتُب المبايِعُون خطوطهم بصُدُورها عنهم؛ كما يفعل الآنَ فى تحليف من يحَلَّف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممـالك الشامية ، أو يُشْهَد عليهــم فى آخر البيعة بمعاقَدتِهم عليها ورضاهُم بها ونحو ذلك .

المــــذهب الثـانى

(ممـا يكتب فى بَيْعـات الخلفـــاء)

أن تُفْتَتح المبـايعةُ بلفظ « من عبْدِ الله ووليِّــه فلانٍ أبى فلان الإمام الفُلَانى » إلىٰ أهل دَوْلته، ونحو ذلك(١) بالسَّلام عليهم، ويُؤْتَىٰ بما سَنَح من الكلام؛ ثم يُقال : أمَّا بعدُ، فالحمدُ لله ؛ ويؤْتىٰ علىٰ وصْــفِه بشريف المَنَـاقِب، وٱستحقاقِه للخِلافة ، وٱســتِجْماعه لشُرُوطها، وما يجْرِى هذا المَجْرىٰ؛ ثم يَنْخرِطُ فى سِلْك البيعة ، ويذكُر القـائِمَ بأخذها علىٰ الناس من سُلْطانٍ أو وزيرٍ عظـيم أو نحو ذلك؛ ويذكُر من أمْر ولايةِ الخليفةِ ما فيــه ٱســتجلابُ قلُوبِ الرعية والأخذُ بخواطرهم وما يَنْخــرط فى هذا السِّلْك .

وهذه نسخةُ بَيْعةٍ من هذا الأُسْــلوب ، لولِيِّ عهْد بعد موْتِ العاهد ، كُتِب بها لبعضِ خُلَفاء الفاطميين ، ليس فيها تعرُّض لذكر الوزير القائم بها، وهى :

---

(١) لعله ونحو ذلك ويتبع ذلك الخ تأمل .

من عبدِ الله ووليِّه «أبى فلان فلان بن فلان» الإمامِ الفلانىّ، بأمرِ الله تعالىٰ أميرِ المؤمنين، إلىٰ من يضُمُّه نِطاقُ الدولة العَلَوِية : من أُمرائها وأعيانِها، وكُبَرائها وأوليائها؛ علىٰ ٱتِّساع شُعُوبهم ، وعساكِرِها علىٰ ٱختلاف ضُرُوبِهم ؛ وقبائِل عَرَبِها القَيْسيَّة واليَمَنِيَّه ، وكافَّةِ من تشمَلُه أقطارُها من أجناس الرعيَّه : الأميرِ منهم والمأْمُور، والمشهورِ منهم والمَغْمُور؛ والأَسْودِ والأحمر، والأصْغَر والأكْبر؛ وفَّقهُم الله وبارَكَ فيهم .

سلامٌ عليكم ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليكُمُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو ، ويسأَلُه أن يُصَلِّى علىٰ محمدٍ خاتَمِ النبيِّين، وسيِّدِ المرسَلين، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله الطاهِرِين، الأئمة المَهْدِيِّين ، وسلَّم تسليما .

أما بعدُ، فالحمدُ لله مُولِى المَنِّ الجَسِيم، ومُبْدِى الطَّوْل العَمِيم، ومانحِ جزيلِ الأجْر بالصَّبْر العظيم؛ مُفِيدِ النعم المتشَعِّبة الفُنُون، ومُدْنِى المُهَج المتعالِية لتناوُل المَنُون؛ ومُبِيدِ الأعمارِ ومُفْنِيها ، وناشِرِ الأمواتِ ومُحْيِيها؛ والفاتحِ إذا ٱستَغْلَقَتِ الأَبْواب، والقائلِ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ الذى لا يغيِّر مُلْكَه مُرورُ الغِيَر، ولا يَصْرِف سلطانَهُ تصرُّفُ القَدَر؛ ولا يُدْرَك قِدَمُه وأزليَّته، ولا يَنْفَدُ بقاؤُه وسَرْمَدِيَّتُه؛ مُسْلِمِ الأنامِ للحِمَام ، ومُصْمِى الأنفُسِ بِسِهامِ الاْخْتِرام ؛ ومُورِدِ البَشَر من المنيَّة مَنْهَلا ما بَرِحُوا فى رَنْقِه يكْرَعُون، ولمُرّه المُشْرِق يتجرّعُون؛ ومعزز ذلك بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقَةُ المَوْتِ ونَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنةً وإلَيْنا تُرْجَعُونَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نَصَب الأنبياءَ لمَرَاشِده أعلاما، وحفِظ ببَعْثِهم من الحقِّ والهُدىٰ نِظَاما؛ وجعل نُبوّةَ جَدِّنا محمدٍ صلّى الله عليه وسلم لنُبوّاتِهم خِتاما، وعَضَّد بوَصِيِّه أبينا

اميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب كَمالا للدِّين وإتمـاما ، وٱستخلَص من ذُرّيتهما أئمةً هادينَ إتْقانًا لصَـنْعتِه وإحْكاما ، وأتَامَ الحُجَّــة على الأُمَم بأنْ أقامَ لكلّ زمانٍ منهم إمامًا ، وعاقَبَ بيْنَ أنوار الإمامةِ فإذا ٱنقبَضَ نُورٌ ٱنبَسَط نُور ، وتابـعَ ظُهورَ بُدُوره لِيُشرِق طالعٌ إثرَ غاربٍ يغُور ، رحمــةً شاملةً للعـالَمين ، وحكمةً تامّةً حتّى يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خيرُ الوارِثِين ، ولم يُخْلِ نَبيًّا مع ما شرَّفه [به] من تناوُلِ وَحْيه وتلقِّيه ، ولا عَصَم إماما مع ٱختِصاصِـه بفُروعِ مَنْصِب الإمامة وترَقِّيه ، من لِقـاء المنيَّه ، ووَدَاع الأَمنيَّه ، بل أجَّل لكلٍّ منهم أجَلًا مكتُوبا ، وفَسَّح له أَمَدًا محصُورا محسوبا ، لا يَصْرِفُه عن وُصُوله نَضيله ، ولا يَصِل إلىٰ تجاوُزه بقُوّةٍ ولا حِيله ، قُدْرةٌ محكمَة الأسـباب ، وعِبْرةٌ واضحةٌ لأُولِى الألباب ، وقضِـيّةٌ أوضَحَها فُرقانُه الذى أقرَّ بإعجازه الجاحِدُون ، إذ يقول مخاطبا لنبيه : ﴿ وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإنْ مِتَّ فَهُمُ الخَـالِدُونَ ﴾ .

والحمـدُ لله الذى مَنَـح أميرَ المؤمنين من خَصائِص الإمامةِ وأنْوارِها ، وحازَ له من ذَخائِرِها وأودَعَه من أَسْرارِها ، ماخوّلَهُ فاخرَ تُراثِها ، وأصار له شَرفَ مِيراثِها ؛ وجعله القائمَ بحقّه ، والمرشدَ لخلْقه ، والماحىَ بهُدَاه ليْلًا من الضَّلال بهيا ، والحاوِىَ بخلافته مجدًا لا يزالُ ثناؤه عظِيما : ﴿ ذٰلك الفضْلُ مِنَ اللهِ وكَفىٰ بِاللهِ عَلِيما ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنـين علىٰ أنْ أوضَحَ بآبائه الأئمـةِ سُبُلَ الحقـائق ، فأصبحُوا خلفاءَ الخـالِق وأئمّـةَ الخـلائق ؛ وخوّلَهُ ما ٱختصّهم به من الإمامه ، ورفَعَـه بها إلىٰ أشْمخ منـازِلِ العُلَا وأرفَع مَواطِن الكَرامه ؛ ويستمِدُّه شُـكْرا يُوازِى النِّعمَ التى أثبتَتْ [له] علىٰ سرير الخلافة وسِرِّها قَدَما ، وصَبْرا يُوازِنُ الفجيعةَ التى قَلَّ لها فيضُ المَـــدامع دَمًا .

ويسأله أن يصلّى علىٰ جدّه محمد الذى فضّ بجهاده جُموعَ الإلحاد، وحصدَ باجتهاده مَنْ مال عن الهُدىٰ وحاد ؛ وصدَع بما أُمِر به حتّى عمّ التوحيد ، ودانتْ لمُعجِزاته الأممُ وقد دعَاها وهو المُفْردُ الوحيد ، ولم يزلْ مبالِغًا فى مَرْضاة ربّه ، حريصًا علىٰ إظهار دينِه بيدِه ولسانِه وقلبِه ؛ حتّى آستأثَر به وقبَضه ، وبدّله من الدنيا شرفَ جِواره وعوّضَه ؛ وأصاره إليه أفضلَ نبيّ بصّر وبشّر ، وأحيا دينَ الله وأنشَر ؛ وعلىٰ أبيه أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب إمامِ الأمّه ، وأبى الأئمّه ؛ وقُدوةِ السعداء ، وسيّد الشّهداء ؛ وعاضدِ الدّين بذى الفقَار ، ومَنْ لم يزَلِ الحقُّ إلىٰ ذَبّه شديدَ الآفتِقار ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آبائه والأئمةِ من ذرّيّتهما الذين أيقظُوا العُقولَ بإرشادِهم من السّنَه ، وأفاضُوا من العَدْل والإحسان ماأَلْهجَ بتمْجيدهم الألسِنَه .

وإنّ الإمامَ الفلانىّ لدين الله أميرَ المؤمنين كان وليًّا لله شرّفه الله وآستخْلَصه ، وأفردَه بإمامة عَصْره وخَصّصه ؛ وفوّض إليه أمْرَ خِلافته ، وأحلّه محلًّا تقَعُ مَطارحُ الهِمَم دونَ علوّه وإنافتِه ؛ نقام بحقّ الله ونَهَض ، وعمِل بأمره فيما سَنّ وفرَض ؛ وقهرَ الأعداءَ بسَطَواتِه وعزَائمه ، وصرّف الأمورَ بأزِمّة التدْبير وخزائمه ؛ وبالغ فى الذّبّ عن أشْياع المِلَّه ، وآجتهدَ فى جِهَاد أعداءِ القبلَه ؛ ووقف علىٰ مصلحةِ العِباد والبلادِ أمَلَه ، ووفّر علىٰ مايُحظِى عندَ اللهِ قولَهُ وعمَلَه ؛ ولم يترُك فى مَرْضاة خالِقه مشقّة إلا آحتمَلَها ، ولا رويّةً إلا صَرّفها فى إرشادِ خلقه وأعملَها ؛ حتّى بلغ الغايةَ المحدُوده ، وآستكمَلَ الأنفاسَ المعدُودَه ؛ وأحسنَ اللهُ له الآختيار ، وآثرله النُّقلةَ من هذه الدار والزّامِى بسُكنىٰ دار القَرار ، والفوزَ بمصاحبة الأنبياءِ الأبرار ، والحُلولَ فى حظائر قُدُسه مع آبائه الأئمّةِ الأطهار ؛ فسار إليه طاهرَ السّريره ، جميلَ المَذْهَب والصُّوره ؛ مستوجبًا بسَعْيه أفضلَ رضوانِه ، ممهّدا بالتقْوىٰ لتَدْبيره أكنافَ جنانه .

وأمير المؤمنين [يحتسب] عندَ اللهِ هذه الرَّزِيَّةَ التى عظُم بها المُصـاب، وعظم عنـد تجرّعها الصَّاب؛ وأضرمت القلوبَ نارا، وأجرَتِ الآماقَ دَمًا مُمَـارا[1]؛ وأطاشَتْ بهَوْلها الأكبادَ بالحَرَق، وكَحَلَتِ الأجفانَ بالأَرَق؛ وكادتْ لهُجُومها الصدورُ تَقْذِفُ أفئدَتَها، والدنيـا تَنْزِعُ نَضْرتَها وبهجَتَها؛ وقواعدُ المِلَّة تضْعُفُ وتَهِى، والخطوبُ الكارثةُ تُصِرُّ[2] ولا تنتَهِى، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون!! تسليماً لأمْره الذى لا يُدْفَع، وإذعانًا لقضائه الذى لا يُصَدّ ولا يُمْنَع.

وكان الإمام الفلانىّ لدين اللهِ أميرُ المؤمنين عند نُقْلته جعل لِى عَقْـدَ الخلافه، ونصَّ علىَّ بارتقـاءِ مَنْصِبها المخصوصِ بالْإنَافه؛ وأفضىٰ إلىَّ بِسِرِّها المكْنُونِ، وأودعَنِى غامضَ عِلْمها المَصُون؛ وعَهِد إلىَّ أن أشْمَلَكُمْ بالعَدْل والإحسان، والعَطْف والحَنَان؛ والرحمةِ والغُفْران، والمَنِّ الرائقِ الذى لا يكَدِّره آمتِنان؛ وأنْ أكونَ لأعلام الهُـدىٰ ناشِرا، وبمـا أَرْضىٰ اللهَ مُجَـاهِرا، ولأحزابِ القبـلة مُظافِرا مُظاهِرا، ولأعداء الملةِ مُرْغِمـا قاهِرا؛ ولِمَنار التوحيـدِ رافعا، وعن حَوْزة الإسلام بغـاية الإمكان دافِعًا؛ مع علمه بما خُصِصْتُ به من كَرَمِ الشِّيَمَ، وفُطِرتُ عليه من الخِلَال القاضيةِ مصالحَ الأُمَمِ؛ وأُوتِيتُه من آستحقاق الإمامة وآسْتِيجابهـا، ومُنِحتُه من الخصائص المُبْرِمة لأسبابها.

فتَعَزَّوْا جميعَ الأولياء، وكافَّةَ الأُمَراء؛ وجميعَ الأجناد، والحاضِرِ من الرَّعايا والْبَاد؛ عن إمامِكم المنقُول إلىٰ دار الكَرامه، بإمامكم الحاضِرِ الموجودِ الذى أوْرثه الله مَقَامَه؛ وآدخُلُوا فى بَيْعته بصُدُورٍ مشروحةٍ نَقِيَّه، وقلوبٍ علىٰ مَحْض الطاعة مطْوِيَّه؛ ونيَّات

---

(١) مار الدم سال وأماره أساله . انظر القاموس .

(٢) أى تدوم من قولهم أصر علىٰ الأمر داوم عليه .

فى الوَلاء والمشايَعة مَرْضِيَّه ، وبصائرَ لاتزال بنُور الهُدىٰ والإستبصار مُضيَّه ؛ وأميرُ المؤمنين يسألُ اللهَ أن يجعل إمامَته محظُوظةً بالإقبال ، دائمةَ الكمال ، صافيةً من الأكدار ، معضُودةً بمُواتاة الأقدار ؛ ويوالى حَمْدَه علىٰ مامَنَحه من الإصطفاء الذى جعله لأمور الدِّين والدنيا قِوَاما ، وأقامه للبريَّة سيِّدا وإماما ؛ فاعلمُوا هذا واعملُوا به ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

وكتب فى يوم كذا من شهر كذا سنة كذا .

⁂

وهذه نسخة بيعة : كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمىّ بعد وفاة ابن عمه الآمرِ بأحكام الله ، قام بعَقْدها الوزيرُ أبو الفتح يانِس الحافظى ؛ اقتصَر فيها علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ ، وعَزّى بالخليفة الميِّت ؛ ثم انتقل إلىٰ مقصُود البَيْعة ، وهى :

من عبدِ الله ووليِّه عبدِ المجيد أبى الميْمُون ، الحافظ لدينِ الله أميرِ المؤمنين ، إلىٰ كافَّة أهل الدولة شريفِهم ومشْرُوفِهم ، وأميرِهم ومأمُورِهم ، وكبيرِهم وصغيرِهم ؛ وأحمَرِهم وأسْوَدِهم ، وفَّقهم الله وباركَ فيهم .

سلامٌ عليكم ، فإنّ أميرَ المؤمنين يحمَد إليكم اللهَ الذى لاإلٰه إلّا هو ، ويسألهُ أن يصلى علىٰ جدّه محمدٍ خاتمَ النبيين وسيِّد المرسَلين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، الأئمة المهْديِّين ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

أما بعد ، فالحمدُ لله اللطيف بعبادِه وبَرِيَّته ، الرءُوف فى أقداره وأقضيتِه ، المُهيْمن فلا يخرج شىءٌ عن إرادتهِ ومشيئته ؛ ذى النِّعم الفائضة الغامرة ، والمِنَن المتتابِعة

المتظاهِرَهْ، والآلاءِ المَتواليــةِ المُتَناصِرَه ، القائل فى محكَم كتابه : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ فى الحياةِ الدُّنْيا وفِى الْآخِرَهْ ﴾ . مدبِّرِ أرضه بخُلَفائه، الذين هم زينةٌ للدنيا وبَهْجَه، وهادى خَلْقِه بأوْليائه، لئلا يكونَ للنَّاس علىٰ اللهِ حُجَّه ؛ فسُبْحانَ الذى هو للنعم مُسْبِــغ وبالكرم جَدِير، و ﴿ تَبَـارَكَ الَّذِى بِيَـدِهِ المُلْكُ وهُوَ علىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِير ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنين أنْ جعَلَه خليفةً دُونَ أهل زَمانِه، وأوجبَ ثوابَ المستَجيبين له بكَفَالتــه وضَمانه، وجعاهم يوْمَ الفَزَعِ الأكْبرِ مكْنُوفِينَ بحِفْظه مشمُولِين بأَمَانه ؛ وأوْزَعَه الشُّــكْرَ علىٰ ما آسترعاه إيّاه من أمرِ هذه الأُمَّه ، ونَقَله إليْه من تُراث آبائه الهُداةِ الأئِمَّه، وكشفه بإمامته من أجْفع نائبةٍ وأفظع مُلِمَّه .

وصلّى اللهُ علىٰ جدّنا محمدٍ رسولِهِ الذى أخبر الأنبيــاءُ المرسَلُونَ بصفتِه ونَعْته، وتَداوَلُوا البُشْرىٰ بمــا يُســتقْبَلُ من زمانِهِ وبعْثِه ؛ وذَكَرُوه فيما أتَوْا به من كلِّ كتاب أوحاه اللهُ وأنزَلَه ، وآعترفُوا بأنه أفضَلُ من كلِّ من نَبَّأه اللهُ وأرسَله ؛ فيَسَّر اللهُ سبحانَهُ ما كان مُرْتقَبًا من ظُهُوره، وأَذِن فى إشراقِ الأرض بمَـا آنتشَر فى آفاقِها من نُورِه؛ وبعَثَهُ ــ جلَّتْ قُدرتُه ــ إلىٰ الأُمَّة بأَسْرِها قاطِبَــه ، وجعل ألْسِــنةَ الأغمادِ مجادِلةً لمن خالف شَرْعَه مخاطِبَه ؛ فكان لآيةِ الكُفْر ماحِيا، وفى مصالح البَرِيَّة ساعِيًا، وإلىٰ سبيلِ ربِّه بالحِكْمة والمَوْعظة الحَســنَةِ داعِيًا؛ إلىٰ أن لَمَعَتْ آياتُ الحقِّ وسطَعَتْ، وآنحَسمتْ مادّةُ الباطلِ وآنقطعَتْ؛ وظهَر من آياته ما كَبُر له المُخْبِتُون، وآشتهَر من مُعْجِزاته ما خُصِم به المتعنِّتُون ، وخاطبه اللهُ فيما أنزَلَ عليه بقوله : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُون ﴾ . فحينئذ نقلهُ اللهُ إلىٰ ما أعدّ له من جَنَّاته، وخصّه بشرفِ الشَّفاعة

فى يوم مُجازاته، وصدَقه وعْدَه فيما بوَّأه من النعيم المُقيم : ﴿ ذٰلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتيه مَنْ يشاءُ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم ﴾ .

وعلىٰ أبينا أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب أَوْلىٰ الناس بالنّبىّ، وأوّلُ من ٱتّبعه من ذَوِى قرابةٍ وأجنَبِىّ؛ وٱبنِ عمِّه الذى ٱختصَّه بمُؤاخاته، وجعله خليفةً علىٰ كافّة الناس بعدَ وفَاته؛ وتحمَّل بأمر الله، فيما وَلّاه وأوْلاه، وخطبَ الناسَ فى حَجّة الوَداع فقال : «من كُنتُ مَوْلاه فَعَلِىٌّ مَوْلاه»، وعلىٰ آلهما الكِرَام الأبْرار، وعِتْرتِهما المصطَفَيْن الأخْيار؛ وهُداةِ المسلمين وقُدْوتِهم، وأمراءِ المؤمنين وأئمّتهم؛ الذين حكَموا فأقْسطوا وما قَسَطُوا، وسلك الحٰضِرُون منهم سَنَنَ أسلافهم الذين فَرَطُوا، وٱقْتفَوْا آثارَهم فى السِّياسة فما قَصَّروا ولا فَرَطُوا؛ ولم يزلْ كلٌّ منهم ءاملاً من ذٰلك بما حَسَّن أيامَه، فاعلاً فى أمر الدِّين مارَفَع مَنَاره ونَشَرأعلامَه ، حتّى ٱختار اللهُ له ماعِنْده فنَصَّ علىٰ مَنْ أقامه الٱستحقاقُ مُقَامه ؛ وسَلَّم عليهم أجمعين سلامًا لا ٱنْقضاء لأَمَدِه، ولا ٱنْقِطاعَ لمَدَده؛ فنيل المطالب بكرمه ومَلَكُوتُ كل شىءٍ بيَده .

وإنَّ الحقَّ إن ءَخِفىَ حِيناً فلا بُدَّ لهِلَاله من الإبْدار وٱنْبِساطِ النُّور، وإن الشمسَ إن توارتْ بالحِجاب فما أوْشَكَ ءَوْدَتَها إلىٰ البُزُوغ والظُّهور؛ وإنَّ حسنَ الصبر إلىٰ أن يبلُغَ الكتابُ أجلَه يُؤَمِّن من تَدْلِيَة الشيطانِ بالغُرور، قال اللهُ عزَّ وجلَّ فى كتابه، الذى هَدانَا به : ﴿ وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذٰلكَ مِن عَزْمِ الأُمُور ﴾ .

وإنَّ الله تعالىٰ لرأْفتِه بمَن أبْدَعَهُ من خَلْقه وأنْشاه، ولسابقِ عِلْمه فى عِمارة هذه الدار علىٰ ماأراده عزَّ وجَلَّ وشاه؛ لا يُخْلِى الأرضَ من نُورٍ يستَضِىءُ به السارى فى الليلِ البَهِيم، ولا يَدَعُ الأمّةَ بلا إمام يَهْدِى إلىٰ الحَقِّ وإلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيم؛ فهو جَلَّ وعَلَا أعدَلُ من أن يجعَل جِيدَ الإيمانِ من حِلىٰ الإمامة عاطلا، أو يَترُكَ

الخلق هَمَـلا وقد قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَـا السَّـمٰوَاتِ وَالْأَرضَ وما بَيْنَهما باطِلًا ﴾ .
بل يقْطَعُ أعذارَ العِبَاد فيما خَلَقهم له ووقَفَهم، ويَهْديهم بالأئمة إلىٰ التوفُّر علىٰ عَمَـل ماألزمهم وكَلَّفهم ؛ فالأمور محروسةُ الترتيبِ محفُوظةُ النِّظام، والأرضُ إذا أظلمتْ لفَقْد إمامٍ، أضاءتْ وأشرقتْ لقِيـام إمَام . وقد علِمَ الكافَّةُ أنَّ حجةَ الله فى أرضه، والمجتَنِبَ من الأعمـال مالم يُرْضِـه، والمحسِنَ إلىٰ البريَّة ببعثِه علىٰ المصالح وحَضِّه ؛ الإمامَ الآمِرِ بأحكام الله أميرَ المؤمنين الذى آتاه اللهُ الحُكْمَ صبِيًّا، ورَفَعه من إرْث النبُّوة مكانًا عليًّـا ؛ وآستَخْلفه علىٰ خلْقِهِ فكان للفضل باسِطًا ولرايةِ العَـدْل ناشِرا، وجعَله لشَمْل المحاسن جامِعاً ولأئمة الخُلَفاء الراشدين عاشِرا ؛ لم يزلْ ناظرًا فى البعيد والقَريب ، عاملًا فى سياسـة الأُمَّة عمـلَ المجتهِدِ المُصيب ؛ مستقْصِياً حِرْصَـه فى المحافظة علىٰ إعزاز المِلَّه ، مستنفِداً جُهْدَه فى الجِهَاد فيمن خالَفَ أهل القِبْـله ، باذلًا من جزِيل العَطَاء وكثيرِه ما لا يُعرَفُ معه أحدٌ من خاصَّـته بالفَقْر ولا يُنْسَب معه إلىٰ القِلَّه ؛ حتّى آستوفىٰ مُدَّتَهُ المَوْهوبه ، وآستوعَبَ غايتَـهُ المكتُوبه ؛ وناله من القَضَاء ما أخرجه من الدُّنيا سَعيدا ، وأقدَمَه علىٰ الله شَهِيدا ، وأصارَهُ إلىٰ ماأعَدّ له من نَعيم لايُرِيد به بَدِيلا ولايطْلُب عليه مَزِيدا ؛ وكان آنتقالُهُ إلىٰ جِوار ربِّه تبارك وتعالىٰ ، كآنتقال أبيه أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب بَغْيًا من الكافرين وآغْتيالا .
وقد كان يَذْكُر مايعلَمُه من حقِّ أمير المؤمنين [١] تارةً مُجاهِرا وتارة مُخافِتا ، إلىٰ أنْ صار علىٰ بَسْط القول فى ذٰلك وتبيينِه مُثابِرا مُتهافِتا ، وأفصحَ بمـا كان مستَبهِما مستعْجِما ، وصَرَّح بمـا لم يزَلْ فى كَشْـفه ممرِّضًا وعن إفْصاحه مُحْجِما ؛ وذٰلك لمَّـا ألفاه أشْرف فَرْع من سِنْخ النبوّه، ورآه أكْرَم فى نَخَارة الأُبُوَّه ؛ وعلمه من أباه الأميرِ أبَا [٢] القاسم

(١) المراد به الحافظ لدين الله صاحب هذه البيعة .
(٢) جرىٰ الكاتب علىٰ لغة القصر .

عَمِّهِ سلامُ الله عليه الذى هو سَلِيلُ الإمامة القَلِيلُ المِثْـل ، ونجلُ الخلافة المخصوصُ من الفَخْر بأجزل حظٍّ وأوْفَرِ كِفْل ، كان المستنصرُ بالله أميرُ المؤمنين سمّاه ولىَّ عهْد المسـلمين ، وتضمّن ذلك ما خرجَتْ به توقيعاتُه وتسو يغاتُه إلىٰ الدواوين ، وثُبِّت فى طُرُز الأبْنيه ، وكُتبِ الابْتياعات والأَشْرِيَه ، وعلمته الكافّةُ علمًا يقينا ظلّت فيه غيرَ مُرْتابةٍ ولا ممتَرِيَه ، وفى ضمن ذلك باطنٌ لايعقلُه إلا العالمُون ، ولا يُنْكِره إلا من قال فيهم : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ . وذلك أنَّ أميرَ المؤمنين الغرضُ والمَقْصَد ، والبُغيةُ والمَطْلَب ، وله عَهْد بالتلْوِيح والإشارَه ، وإلَيْه أوحىٰ بالنَّصِّ وإن لم يُفْصِـح فيه بالعبـاره ، وكان والدُه الأميرُ أبو القاسم ـ قدَّس الله رُوحَه ـ بمنزلة الأشجار التى يُتأنَّى بهـا إلىٰ أنْ يَظْهر زَهَرُها ، والأكمامِ التى يُنْتَظَر بها إلىٰ أن يخرج ثَمرُها ، والزَّرَجُونة التى نَقَلتِ المـاءَ إلىٰ العُنقود ، والسَّـحابةِ التى حَملتِ الغيثَ فعمّ نفعُه أهلَ السُّهول والنُّجود ، وممـا يبيِّن ذلك ويُوضِّحه ، ويحقِّقه ويصحِّحه ، وتَثْلَج به للمؤمنين صُدُور وتَقْوىٰ أفْئِـده ، وتَشْهد البصائرُ أنَّ النعمةَ به علىٰ الإسلام متابعةٌ متجدِّدَه ، أنَّ الأمرَيْنِ إذا تشابَهَا من كلِّ الجهات ، وكانتْ بينهما مُدَد مُتطاولاتٌ متباعدَات ، فالسابق منهما يُمَهِّد للتـالِى ، والأوّلُ أبدًا رمْزٌ علىٰ الثانى ، ولا خِلاَف بين كافَّة المسلمين فى أنَّ اللهَ تعـالىٰ أمر جدَّنَا محمدًا صلىٰ الله عليه وسـلم بعقْد ولايةِ أمير المؤمنين علىِّ بنِ أبى طالب صلىٰ اللهُ عليه فعَقَدها له يومَ غَدِيرخُمٍ ، وأميرالمؤمنين علىٌّ ٱبنُ عمِّـه وكان له حينئذ عَمٌّ حاضر ، وأمضىٰ ما أُمِر به والإسلامُ يومئذٍ غَضٌّ وعُودُه ناضِر ، وكذٰلك أنَّ أمير المؤمنين ، هو ٱبنُ عمِّ الإمام الآمرِ بأحكام الله أميرِ المؤمنين ، وقد نصَّ مع حضور عُمُومته عليـه ، وفعل مافَعَل جدُّه رسـولُ الله ٱقتداءً به وٱنتهاءً إليه ، وكان أبو علىّ المنصورُ الإمامُ الحـاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين صلواتُ الله عليه ، جعل ٱبنَه عبدَ الرَّحيم إليـاسَ ولِىَّ عهد المسلمين ، ومَيَّزه بذلك

علىٰ كافَّة الناس أجمعين؛ ونقَش اسْمَه فى السِّكَّه، وأمر بالدعاء له علىٰ المنابر وبمكَّه؛ وألْبسه شَدّةَ الوَقار المرصَّعةَ بالجوهر، وٱسْتنابَهُ عنه إمامَ الأعيادِ فى الصلاة وفى رُقِىّ المِنْبَر؛ وأقامه مُقامَ نَفْسه فى الٱستغفار لمن يُتوفَّى من خواصِّ أوليائه، وفى الشَّفاعة لهم بمَتقبِّلِ مُناجاتِه ومَسْمُوع دُعائِه، مع عِلْمِـه أنه لايَنالُ رُتبـةَ الخلافه، ولا يبلغ درجةَ الإمامه؛ وأن الإمامَ الظاهرَ لإعزازِ دِينِ الله ــ صلى الله عليـه ــ هو الذى خُلِقَ لها؛ وحِينَ حُمِّلَ أعباءَها أقَلَّها وما ٱستثْقلَها؛ وإنمـا تحتَ ذٰلك معنًى لطيفٌ غامض، وسرٌّ عن جُمْهور الناس مستترٌ وبرقُه لأُولى البصائر وامِض: وهو أنَّ مكْنُونَ الحِكْمه، ومكتُومَ علْم الأمـه؛ يدُلَّان علىٰ أنَّ الإمامَ المنصورَ أبا علىّ، سيَفْعل فيمن يستخلِفُه بعده مثلَ فِعْل النبىّ؛ وقد علم الإمام الحاكم ــ عليه الســلام ــ أنَّ المرادَ بذٰلك مَنْ يأتى بعده ممن أوْلده أو أنْسَله، لأنَّ ولَدَه حاضرٌ والمقصودُ مَنْ لاوَلَدَ له؛ فجعل وِلايةَ عبد الرحيم العهْدَ تأْسيسا لمـا سيكون، وتَنْقلا للنُّفُوس من الٱنزعاج إلىٰ أن تشمَلَها الطُّمأْنينة والسُّكُون؛ فلمَّا أفضىٰ اللهُ إلىٰ الإمام المنصور أبى علىّ الإمامِ الآمرِ بأحكامِ اللهِ أميرِ المؤمنيـن بالخلافة التى جعلها واجبًا له حقًّا، ووافقَ جَدّه ــ عليه الســلام ــ وكان لقبُه من لقبِـه مشتَقًّا، ظهر المنكَتِم، ووَضَح المستَتِر؛ وعاد التعريضُ تَصْريحا، والتمريضُ تَصْحيحا؛ والرَّمزُ إبَانَه، والنصُّ علىٰ أميرِ المؤمنيـن أمانه؛ فاقتدىٰ بجـدّه رسولِ الله صلَّى الله عليه وسـلم فى ٱستخلاف أمير المؤمنين مع حُضُور عُمُومته، وفَعَـل فى ذٰلك فَعْلَتَه وجرىٰ علىٰ قضيَّته؛ وكَشَف عمَّا أبْهمَهُ الإمامُ الحاكُمُ بأمر الله قَدَّس الله لطيفَتَه فتَساوىٰ الخاصُّ والعامُّ فى معْرِفته؛ ثم حلَّه أميرُ المؤمنين محلَّ نفْسه فى الجُلُوس علىٰ الأسْمِطه، وعَمِـل لأوليائه ورعيَّته فى ذٰلك بالقَضَايا المُحِيطه؛ ونَصَبه مَنْصِبَه فى الصلاة علىٰ مَنْ جرتْ عادتُه بالصلاة علىٰ مِثْله؛ وجمع فى اعتمادِ ذٰلك بيْنَ إحسانه وفَضْـله وبينَ امتنانه وعَدْله؛ وإذ قد تبيَّن هـذا

الأمرُ الواضحُ الجَلِىّ ، وتساوىٰ فى علمه الشانئ والوَلِىّ ؛ وعلم هو ماخَصَّ الله به أميرَ المؤمنين من الإمامه ، وأزاله عن العقول من ضَبابٍ متكاثِف وغَمامه ؛ وشَمِله به من فَضْله ورافته ، ونصَبه فيه من مَنْصِب خلافته ؛ التى أيَّدها بوليِّه ووزيره ، وعضَّدها بصفيِّه وظهيره ، السيد الأجل أبى الفتح يانس الحافظىّ الذى جعله الله علىٰ اعتنائه بدَوْلة أمير المؤمنين من أوْضَح الشواهد والدلائل ، وصَرَف به عن مملكته محذُورَ الصُّروف والغَوائل ؛ وأقام منه لمُناصحة الخلافة مُخْلِصا جمعَ فيه أسبابَ المَناقب والفَضائل ؛ وأيده بالتوفيقِ فى قوله وفِعْله فأربىٰ علىٰ الأَواخِر والأَوائل ؛ ودلَّت سيرتُه الفاضلةُ علىٰ أنه قد عَمَر مابينَ الله وبيْنه ، وحكمتْ سُنَّته العادلةُ أن كلَّ مدْح لا يبلغُ ثناءَه وكلَّ وصف لايقعَ إلّا دُونه ؛ والله يضاعف نِعَمه عنده ولدَيْه ، ويفتَحُ لأمير المؤمنين مشارِقَ الأرض ومَغارِبَها علىٰ يدَيْه ؛ وهذا يحقِّق أنَّ الإسلام قد أحدثَ له قُوّةً وتمكينا ، وأن ذَوِى الإيمان قد ازدادُوا إيمانا واستِبْصارا ويقينا ؛ فيجبُ[1] عليكم لأمير المؤمنين أن تدخُلوا فى بَيْعته مُنشرحةً صُدُورُكم ، طيِّبة نفوسُكم ؛ مجتهدين له فى خدْمة تُقابِلون بها إحسانَه ، متقرّبين إليه بمناصَحة تُحْظيكم عندَ الله سبحانَه ؛ عاملين بشرائط البَيْعة المأخُوذةِ علىٰ أمثالكم الذين يُتَّبَعون فى فعلهم ، ويقعُ الإجماع بِمِثْلهم ؛ ولكم علىٰ أمير المؤمنين أن يكون بكم رَحِيما ، وعن الصغائر مُتجاوِزا كريما ، وبالكافَّة رءُوفا رفيقا ، وعلىٰ الرَّعايا عَطُوفا شفيقا ، وأن يصفح عن المسىء مالم يأتِ كبيره ، ويُبالغَ فى الإحسان إلىٰ مَنْ أحسن السِّيره ؛ ويُولِىَ من الإفضال مايستخلِصُ الضمائر ، ويُسبِغَ من الإنعام مايقتضى نَقاءَ السرائر ؛ وأمير المؤمنين يسألُ اللهَ أن يعرِّفكم بركةَ إمامته ، ويُمْنَ خلافته ؛ وأن يجعلها ضامنةً بلُوغَ المطالِب ، كافلةً لكافَّتكم بسعادة المَبادئ والعَواقب ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) هذا متعلق إذ قد تبين كما لايخفىٰ .

المـــــــذهب الثـالث

(أن تُفْتَتح البيعةُ بعدَ البسملة بخُطبة مفتَتَحة بالحمدُ لله،
ثم يؤتىٰ بالبعديّة ويُتخلَّص إلىٰ المقصُود ، وقد يُذْكَر السـلطان القائمُ بهـا
وقد لايُذْكَر . وعلىٰ ذلك كانتْ تكتَبُ بيعاتُ خُلَفاء بنى أُميَّة
بالأندَلُس ، ومن ٱدَّعىٰ الخلافة ببلاد المَغرِب)

وهذه نسخةُ بيْعةٍ كتب بهـا طاهرُ الأندَلُسىّ ، فى أخذ البيعة علىٰ أهل دانِيَـة من الأندَلُس ، للرشيد بن المأمُون الأُمَوِىّ ، وهو منتصِبٌ فى الخلافة : تَخلُّفٌ توهَّمه من الرعية . ٱقتصر فيهـا علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ ، وليس فيها تعرُّض لسلطانٍ قائم بعقْدها ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى أسبَغَ إنعامَه باطنًا وظاهِرا ، وسوَّغَ إفضاله هامِلًا وهامِرا ، وأعْجز عن وصْف إحسانه ناظِما وناثِرا ، وقَهر الخلقَ ناهيًا وآمِرا ، وتعـالىٰ جَدُّه فلا ترىٰ له مُضاهِيًا ولا مُظاهِرًا ، ولا مُوازِيا ولا مُوازِرا ، ونصر الحقَّ وكفىٰ به وليًّـا وكفىٰ به ناصِرا ، وجعل جَدّ المطيع صاعِدًا وجَدّ العَصِىّ عاثِرا ، وحَذَّر من الخلاف باديًا وحاضِرا ، وماضِيًا وغابِرا .

نحمدُه سبحانَه علىٰ نِعَمه حمدَ من أصبح لعُلَق الحمد ذاخِرا ، ونَشكُره علىٰ مِنَنه ولن يُعْـدِمَ المزيدَ منه شاكِرا ، ونَضْرَع إليه أن يجعل حظَّنا من بركةِ الاعتصام وافِرا ، ووجْهَ نِيَّتنا فى الانتظامِ سافِرا ، وأن يمنَحَ أولياءَه النصرَ ظاهِرًا والفتحَ باهِرا ، وأعداءَه الرُّعْب شاجِيًا والرُّمْح شاجِرا ، ونشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ شهادةَ من أقرّ له بالوَحْدانيَّـة صاغِرا ، وأضْحىٰ لأوامِره ممتثِلًا ولنواهيه مُحاذِرا ، ونسألُه أن يجعلَ حِزْب الإيمان

ظافرا، ويمدّه بنصره طالبًا للثار ثائرا، وصلّى الله على سيدنا محمد رسوله الذى انتخبه من صفوة الصّفوة كابرًا فكابرا، وجعله بالفضيلة أوّلًا وبالرّسالة آخرا، فأيقظ بالدّعاية ساهيًا وناسيًا وسكّن بعد الإبانة منافيا ومنافرا، وأذهب بنوره ليلًا من الجهالة ساترا، وقام بجهاد الكفرة ليثا خادرا، وباشر بنفسه المكاره دارعا وحاسرا، وشهد بدرا مبادرا، وحنينًا منذرًا بالخبر نادرا، وظهر عليهم فى كلّ المشاهد غالبا وما ظهروا نادرا، وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبه وخليفته، المعلومة رأفته، أبو بكر الذى اقتحم لهول الرّدّة مصابرا، وسلّ فى قتال الرّوم أهل الجلد والشّدّة سيفا باترا، ومنهم القوىّ فى ذات الله عمر الذى أصبح به ربع الإسلام عامرا، ولم يخش فى الله عاذلًا ولم يرجُ غادرا[1]، ومنهم الأصدق حياءً عثمان ملاقى البلوى صابرا، والخفر الذى لم يرَ للأذمّة خافرا، ومنهم أقضاهم علىّ الذى قاتل باغيًا وكافرا، وبات لخوف الله ساهرا، ورضى الله عن الإمام المهدىّ الذى أطلعه نورا باهرا، وبحرًا للعلم زاخرا، وأتى به والضّلال يجرّ رسنه سادرا، والباطل يثبت وينفى واردا وصادرا، فجدّد رسم الحقّ وكان داثرا، وقام بآرائه علما هاديا وقرما هادرا، وعن الخلفاء الراشدين المرشدين من أصبح حائدًا عن الحقّ جائرا، المجاهدين خاتلًا بالعهد خاترا.

أما بعد، فإنّ الله سبحانه جعل الإمامة للناس عصمه، ومنجاةً من ريب الالتباس ونعمه، بها تمهّد عمارة الأرض، ويتجدّد صلاح الكلّ والبعض، ولولاها ظهر الخلل، واختلط المرعىّ والهمل، وارتكبت المآثم، واستبيحت المحارم، واستحلّت المظالم، وانتقم من المظلوم الظالم، وفسد الائتلاف وافترق النّظام، وتساوى الحلال والحرام، فاختار لأمرهم رعاةً أمرهم بالعدل فعدلوا، وبالتواصل

(١) أى لم يخف وفى بعض النسخ «ولا يبرح غادرا» وهو غير مناسب.

فى ذات الله والتّقـاطُع فقطَعوا فى ذاتِ اللهِ ووصَلُوا ، وعدَلُوا بين أهْليهم وأقْرَبيهم فيما وُلُّوا ، ونَهَضُوا بأعبـاء الكِفايةِ والحِماية وآسـتقَلُّوا ، وألزمهم الآتِّفاقَ والآنقياد ، وحظَر عليهم الآنشِقاق والعِناد ، فملَكُو بأزمَّة العقل قِيادَ الأُمُور ، وأشرقَتْ بسِيرتِهم المباركةِ أقاصِى المعْمُور ، وشاهد الناسُ فواضِلَ إمامهم ، وتبيَّنُوا من سيرتِهم العادلة عُلُوَ محلِّهم فى الخلائِف ومَقَامِهم ، ولم يُطْرَقْ فى مُدّتهم للإسلامِ جَنَاب ، ولا آقْتُحِم له باب ، وأنّى وسُيُوفُهم تقْطُر من دِمَاء الأعداء ، وبلادُهُم ساكنةُ الدَّهْمـاء ، والكَفَرةُ بالرُّعب المُخامِر والداءِ العَيَاء ، وأهلُ الإيمان ، يَجُرُّون ذُيولَ العَزائم ، وعَبدةُ الصُّلْبان ، يعْثُرُون فى ذَيْل الهَوَان الدائِم ، إلىٰ أنْ عَدِمتِ الأرضُ منهم بِحارَها الزَّواخِر ، وأنوارَها البَوَاهِر ، ورأتْ بعـدَهم العُيونَ الفواقِئَ والمُتُونَ الفواقِر ، وآكْفهَرَّ وجهُ اللأْواء ، وتفرّقت الفِرقُ بحَسَب الأَهْواء ، وسُفِكت الدِّماء ، ورُكِبتِ المَضَلّةُ العَمْياء ، وآحتُقِبتِ الجَوائِر ، وأُهْمِل الشرْعُ والشَّـعائِر ، ثم إنَّ الله تعـالىٰ أَذِنَ فى كشْف الكُرَب ، وأطلَع بالغَرْب نُورا مَلأَ الدَّلْوَ إلىٰ عَقْـد الكَرَب ، وهو النُّور الذى أضاء للبَصَائر والأَبْصار ، وطلع علىٰ الآفاق طُلُوعَ النَّهـار ، وذُخِرتْ أيَّامُه السـعيدةُ لدَرْك الثار ، وكَفِلتْ به الخلافةُ وطال بهـا كَافِهُ ، وقام بالإمامة مثـلَ ما قام بها الخلفاء الراشدون سَلَفُه ، وذٰلك هو الخليفـةُ الإمامُ أمير المؤمنين الرشيدُ بالله آبنُ الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعيـــن ، وخَلّد فى عَقِبِهم الإمامةَ إلىٰ يوم الدِّين ، وهو الأسَدُ الهَصُور ، ومَنْ أبُوه المأمونُ وجدّه المنْصُور ، العريقُ فى الخلافه ، والحقيقُ بالإمامـة والإنافه ، فجمَع ما آفترَق ، ونَظَّم الأمورَ ونَسَّـق ، ومنَع الحَوْزَةَ أن تُطْرق والملّةَ أن تَفْتَرِق أو تُفَرّق .

* * *

وهذه نسخةُ بيعةٍ كتبَ بها أبو المطرِّف بنُ عُميرةَ الأندلُسىّ بأخْذ البيعة على أهل شاطِبةَ من الأندلُس لأبى جعفر المستنْصِر بالله العبَّاسِىّ ، قام بعَقْـدها أبو عبدِ الله محمد بنُ يوسفَ بنِ هُودٍ صاحبُ الأندلس ، ثم أخذ البيعةَ بعد ذلك عليهم لنَفْسه ، وأن يكون ٱبنُه ولىَّ عهْده بعدَه ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعَل الأرضَ قرارا ، وأرسَـلَ السَّماء مِدْرارا ، وسَخَّر ليْلا ونَهارا ، وقدَّر آجالًا وأعْمارا ، وخَلَق الخَلْق أطْوارا ، وجعل لهم إرادةً وٱخْتيارا ، وأوجَدَ لهم تفكُّرا وٱعتبارا ، وتعاهَدَهم برحمتِه صِغَارا وكِبَارا .

نحمَدُه حمَدَ من يَرْجُو له وَقَارا ، ونَبْرأُ ممن عانَدَه ٱستِكْبارا ، وألْحَدَ فى آياته سَفَاهةً وٱغْتِرارا ، وصـلَّى الله على سيدِنا محمد الشريف نِجَارا ، السامِى نَخَـارا ، فرفع اللهُ[1] من شريعتِه للأُمَّة مَنَارا ، وأطْفأ برسالته للشِّرْك نارا ، حتَّى عَلَا الإسلامُ مِقْدارا ، وعَزَّ جارًا ودارًا ، وأذعن الكُفْرُ ٱضْطِرارا ، وٱستسْلَمَ ذِلَّةً وصَغَارا ، فمضٰى وقد ملأَ البسيطَةَ أنْوارا ، وعمَّها بدَعْوته أنجادًا وأغْوارا ، وأوجب لوُلَاة العَهْد بعـدَه طاعةً وٱئْتِمارا ، فجزاه اللهُ أفضـلَ ماجزىٰ نبيًّا مخْتارا ، ورسولًا ٱجتباه ٱخْتِصاصًا وإيثارا ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله الطيبين آثارًا وٱختِبارا ، وعلىٰ أصحابه الكِرام مهاجِرِين وأنْصارا ، صلاةً نُوالِيها إعْلانا وإسْرارا ، ونرجُو بها مغْفِرةَ ربِّنا إنَّه كانَ غفَّارا .

أما بعـدُ ، فإنَّ المستأْثِر بالدَّوام ، اللَّطيفَ بالأَنَام ، أنشأهُمْ على التغايُر والتبايُن ، وٱضْـطرهم إلىٰ التَّجاوُرِ والتعاوُن ، وجعل لهم مصلَحةَ الإشْتراك ، ومنفعةَ الإلْتحامِ

(١) لعله " الذى رفع الله به من " الخ . تأمل .

والاشتباك ؛ طريقًا إلى الأفضل فى حياتهم ، والأسعد لغاياتهم ؛ و بعث النبيين مرغبين ومحذرين ، ومبشرين ومنذرين ؛ فأدوا عنه ماحمل ، و بينوا ماحرم وحلل ؛ وكان أعمهم دعوه ، وأوثقهم عروه ؛ وأعلاهم فى المنزلة عنده ذروه ، وأعطفهم للقلوب وهى كالحجارة أو أشد قسوه ؛ المخصوص بالمقام المحمود ، والحوض المورود ، وشفاعة اليوم المشهود ، ولواء الحمد المعقود ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم أفضل صلاة تفضى إلى الظل الممدود ، وتبلغنا من شفاعته أفضل موعود ؛ بعثه الله للأحمر والأسود ، والأدنى والأبعد ؛ فصدع بأمره وظلام الليل غير منجاب ، والداعى إلى الله غير مجاب ؛ وأهل الجاهلية كثير عددهم ، شديد جلدهم ، بعيد فى الضلالة والغواية أمدهم ؛ فسلك من هدايتهم سبيلا ، وصبر لهم صبرًا جميلا ، يحب صلاحهم وهم العدو ، و يلين لهم إذا جد بهم العتو ، ويجهد فى إظهار دينه ولدين الله الظهور والعلو ؛ حتى انقادوا بين سابق سبقت له السعاده ، ولاحق تداركته المشيئة والإراده ؛ ولما رفعت راية الإسلام ، وشفعت حجة الكتاب حجة الإسلام ، ودعى الناس إلى التزام الأحكام ، ونهوا عن الاستقسام بالأزلام ، أخبتوا إلى الرب المعبود ، وأشفقوا من تعدى الحدود ، ووعظوا فى الأيمان والعهود ؛ فأتمروا للشرع حين أمر ، وخافوا وخامة من إذا عاهد غدر ؛ فكان الرجل يدع الخوض فيما لايعلمه ، و يترك حقه لأجل يمين تلزمه ، وشرعت الأيمان فى كل فن بحسب المحلوف عليه ، وعلى قدر الحاجة إليه ؛ فواحدة فى المال لحق الأداء ، وأربع مخمسة عند ملاعنة النساء ، وخمسون انتهى إليها فى أحكام الدماء ، فتوثق للحدود على مقاديرها ، وجرت أمور العبادات والمعاملات على أفضل تقديرها ؛ وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والعدل قائم ، والشرع على القوى والضعيف حاكم ، والرب

(١) لعل المراد بالأول الدين وبالثانى الانقياد إن لم يكن مصحفا عن الاستسلام .

جَلَّ جلالُه بما تُخْفِى الصدورُ عالم ؛ وقام بعده الخلفاءُ الأربعة أركانُ الدِّين ، وأعضادُ الحقِّ المبين ؛ يحملون الناسَ على سَنَنِه الواضح ، وينفِّذون أمورَ المَصالح ، ويتفقَّهون فى الأحكام وُقوفًا مع الظاهر وترجيحًا للراجح ؛ وكانوا يتوقَّفُون فى بعض الأحيان ، ويطلُبون للشُّبَه وجْهَ البيان ، ويستظْهِرون على تحقيقِ كثيرٍ من الوقائع بالأيْمان ؛ حتّى كان علىٌّ كرم الله وجهه يستثْبِتُ فى الدِّرايه ، ويستحْلِفُ الراوِىَ على الرِّوايه ؛ وما أنكر ذلك أحدٌ ، ولا أعْوزَه من الشرع مستَنَد ؛ رضى الله عنهم أئمَّةً بالعَدْل قَضَوْا ، وعلى سبيله مَضَوْا ، والسِّيرةَ الجليلةَ تخيَّرُوا وآرتضَوْا ؛ وعن سيدِ الأَنَام ، ومستنْزِل دَرّ الغَمَام ، عمّ نبيِّنا عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ الحامى الحَدِب ، والمَعْقِل الأَشِب ؛ والغيثِ الهاملِ المُنْسكِب ، أبى الفضْل العبَّاس بنِ عبد المطَّلب ؛ وعن الفائزين بالرُّتْبة الكريمه ، والصُّحْبة القديمه ، والمَنَاقب العظيمه ؛ بُدُورِ الظَّلام وبُحُورِ الحِكَم ، وصُدُورِ أنْدِيَة الفضلِ والكَرَم ؛ وسائرِ صحابِه عليهم السلامُ الذين أسلموا على عُمْرِه[1] ، وأسلفُوا جِدًّا فى نَصْره ، وأدركُوا من بَرَكةِ عِيانه وزمانِه مالا مُدْرَك لحصره ؛ كرَّم الله مآبَهُم ، وأجزَل ثوابَهُم ، وشكر لهم صَبْرَهم وآحتسابَهم ؛ فلقد عَقَدُوا نيَّةَ الصِّدق عند قِيامِهم لأداء فريضةِ الإطاقَهْ ، وآستباحُوا صلاةَ الشكر حينَ رفَعُوا حدَثَ الرِّدّة وأراقُوا سُؤْر الشِّرك وقد آستحَقَّ بنجاستِه الإراقَهْ ، وآبتزُّوا كِسْرىٰ زِينَتَه فأبرزُوها على سُراقَه ؛ فرأَوْا عِيانًا ما أخبر به سيدُ المرسَلين ، وملَكُوا ما زُوِىَ له منها فاطَّلع عليه بحقِّه المبين ؛ وذهبُوا فأظلَمَت الأرض من بعْدِهم ، وتنكَّرت المَعارِفُ لفَقْدِهم ، وآختلط الهَمَل والمَرْعىّ ، وتشابَهَ الصَّريحُ والدَّعِىّ ؛ وثارت الفِتَنُ من كل جانِب ، وصارت الحقوقُ نُهْبةَ [كل] ناهِب ؛ ولَمَّا بَرِحَتِ[2] العُهود ، وتُعدِّيت

(١) مراده على عهد النبى وفى زمنه .

(٢) لعله ولما تركت العهود . تأمل .

الحُدُود، بلَغ الوقتُ المحدُود، وطلعتْ بِبياضِ العَدْل الراياتُ السُّود ؛ تحتَها ساداتُ النـاس ، وذَادَةُ مَوْقِف الْباس ؛ وشُهُبُ اليومِ العَمَاس، ونُجُبُ البيت الكريم من بنى العَبَّاس ؛ فأعادُوا إلىٰ الأمْر رونَقَــه ، ونفَوْا عن الصَّفو رَنْقه ؛ وحَمَوْا حُرَمَ المسلمين ، وأحْيَوْا سُــنَّةَ ٱبن عَمِّهم سـيِّدِ المرسَلِين ؛ فأصبحَتِ الأُمُورُ مضْبُوطه ، والثُّغُور محُوطه ؛ والسُّبُل آمنه ، والرعيَّةُ فى ظلِّ العَدْل والأمْن ساكِنَه ؛ وكان الناسُ قَبْلَهم قد رَكِبُوا الصَّعْبَ والذَّلُول ، وٱمتَطُوا الحَزْنَ والسُّهول ؛ فوثِقُوا منهم بطاعَتِهِم ، وٱستحْلَفُوهم علىٰ بَيْعاتِهِـم ؛ ذٰلك بأنهم ألزمُوهم منهـا واجباً علىٰ القَطْع ، لازماً بإلزام الشَّرْع ؛ ووجَدُوا لِمَصْلَحةِ الٱرتباط بالأَيْمـان شواهِدَ من الآثار المَقُوله ، والأُصُول المَقْبُوله ؛ ومَنْ أعطىٰ من نَفْسه كلَّ ما عليها ، وراعىٰ جمـلةَ المصالح وكلَّ ما تطَرَّق إليها ، فكيف لا يكونُ فى سَعةٍ من هــذا التكليف المستَنِد إلىٰ الآثار الشرعيَّه ، الداخلِ فى أقسام المَصالح المرعِيَّه ؛ كما سلَفَ من الأئمة المُهتَدِين ؛ آباءِ أمير المؤمنين وخليفةِ ربِّ العالمين ، ٱبن عمِّ سيِّدنا وسيِّد المرسَلِين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين .

لَـمَّـا دعا الناسَ بالمملكة الفُلَانيةِ حَماها اللهُ إلىٰ حُجَّتِهم القَوِيَّه ، وإمْرتِهم الهاشِميَّه ؛ مجاهِدُ الدين ، بسيْفِ أمير المؤمنين ، جمـالُ الإسـلام ، مجْدُ الأَنَام ، تاجُ خَوَاصِّ الإمَام ؛ فَخْرُ مُلُوكه ، شرفُ أُمَرائه ؛ المتوكِّلُ علىٰ الله تعالىٰ أميرُ المسلمين أبو عبد الله محمدُ بْنُ يوسُفَ بن هود ، أسـعَدَ الله أيَّامه ، ونصَرَ أعلامَه ؛ وقام لذٰلك متوحِّدا المَقَام الكريم ، مشمِّرا عن ساعِدِ التَّصْمِيم ؛ ماضِـيًا إلىٰ الهَوْل مَضاءَ الحُسَام القاضِب ، غاضبًا لأمر الله ورضاه علىٰ غايةِ هــذا الغاضب ؛ مالَتْ إليه الأجياد ، وٱنثالَت عليه البِلَاد ؛ فانتظَمَها مَدِينةً مَدِينه ، وجعل التوكُّلَ علىٰ الله سبحانه شريعةً مَنِيعة وذريعةً مُعِينه ؛ وتقَـدَّمَ ـ أيده الله ـ بأخْذ البيعة علىٰ نَفْسه وعلىٰ أهـل المِلَّة قاطبــةً للقائِم بأمْرِ الله سـيِّدِنا ومولانا الخليفـــة الإمامِ المستنصِرِ بالله أبى جعْفر

أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلىٰ آله الخُلَفاء الراشدين ؛ وكان له فى ذٰلك المَرامُ السَّعيد، والمَقامُ الحميد، والقَدَمُ[1] الذى رضِىَ إبْداءَه وإعادتَه المُبْدِئُ المُعيد؛ وخاطب الدِّيوانَ العزيزَ النبوىَّ -خلَّد الله شرَفه- متضرِّعا لوسائِلِ خِدْمته، متعرِّضا لعوَاطِف رحْمَتِـه ؛ وبعثَ رسُولَه علىٰ أصْـدق رجاءٍ فى القبُول ، وأثبتِ أمَلٍ فى الإسْـعاف بالمأمُول ؛ وأثْناءَ هـذه الإرادةِ القَويمه، والسَّـعادةِ الكَرِيمه ؛ تفاوضَ أهـلُ البِلاد فى توثِيقِ عَقْدهم للسلطان فلان المشارِ إليـه الذى هو حُكْم من أحكام الإجْماع المنعَقِد ، وأصلٌ أفضىٰ إليه نظَرُ الناظِرِ وآجتِهادُ المجتَهِد ؛ إذ أجالُوا الأمْرَ فيما يَزِيدهُ وَثاقَهْ، ويكْسُو وجْهَه علىٰ الأيَّام بِشْرا وطَلَاقه ؛ ويجعـل القلوبَ مطمئِنَّةً برُسُوخه فى الأعْقاب، وثُبُوتِه علىٰ الأَحْقاب؛ فلم يَرَوْا رأْيا أسَدّ، ولا عَملًا أحْصَفَ وأشَدّ؛ من أن يطْلُبُوه بعقْد البيعة لِآبْنِه الواثِقِ بالله المعتصِم به أبى بكرمحمدِ بنِ مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين ، علىٰ أن يكونَ ولِىَّ عهـدِهم مُدّةَ والده مَدّ اللهُ فى حَياته، وأميرَهم عند الأجَل الذى لابُدَّ من مُوافاتِه ؛ فأمضىٰ لهم ذٰلك من آتِّفاقِهم ، وأَثْبتُوا علىٰ ماشرَطَتْه بيعتُـه فى أعناقهـم ؛ وبعـد ذلك أتىٰ صولةُ الإسـلام ، وصِلةُ دار السـلام؛ وورد رسول مَثابَةِ الجلاله ، ونِيَـابَةِ الرِّساله؛ ومُلْتَزَم المَلَائك ، ومعْتَصَم المَمَالك؛ ومعـه الكتابُ الذى هو نصٌّ أغنىٰ عن القِيـاس ، بل هو نورٌ يَمْشِى به فى الناس ؛ وأدّىٰ إلىٰ السلطان فلان المشارِ إليه من تشريف الدِّيوان العزيز النبوىِّ ماوَسَمه من الفَخار بأجَلِّ وَسْمِه، وقلَّده السيْفَ الصارمَ وسَمَّاه بِآسْمِه؛ فتلاقىٰ السيْفان المضْرُوبُ والضارِب ، وآشْتَبه الوَصْـفَانِ المـاضى والقاضِبْ ؛ وبرزَتْ تلكَ الخِلَعُ فابيضَّ وجهُ الإسلام من سَوادها، ووُضِع الكتابُ فكادتِ المَنابِرُ تَسْعىٰ إليه شوْقًا من أعْوادها ؛ وقُرِئت وَصَايَا الإمام ، علىٰ الأَنَام ؛ فعلمُوا أنهـا من تُراثِ الرِّساله ،

(١) ذكر القدم لأنه بمعنى السبق تأمل .

وقالوا : كافلُ الإسلام جدّدَ له بهذا الصُّقْع الغربِيّ حُكْمَ الكَفَاله ؛ وسَمِعُوا من التقدُّم بإنصافهم، والتهمُّم بمَوَاسطهم وأطْرافهم ؛ جُمَلاً عَفَّروا لها الجِبَاهَ جُوداً بالجهد، وسجَدُوا للشُّكر والحمد ؛ فأدركُوا من بركة المَشَاهِد أثبتَ شَرفٍ وأبْقاه ، ورأَوْا حقيقةَ ما كادتِ الأوْهامُ تزُولُ عن مَرْقاه ؛ وآزدادوا يقيناً بفضْل ماصارُوا إليه، ورأَوْا عِياناً يُمْنَ مابايَعُوا عليه ؛ فتوافَتْ طوائِفُهم المتبُوعه، وجماهيرُهُم المجمُوعه ؛ بِدَارًا إلىٰ المَرَاضِي الشَّريفه ، وبناءً علىٰ وَصَايَا عَهْدِ الخَليفه، أن يُجدِّدوا البَيْعةَ لمجاهِدِ الدِّين ، سيفِ أميرِ المؤمنين ؛ تولّى الله عَضْدَه ؛ ولاَبنهِ الواثِق بالله المعتصِمِ به أنْهضه اللهُ بإمْرتِهِ بعْدَه ؛ ولم تَعْدُ أن تكونَ الزِّيادةُ الطارئةُ شَرْطا فى تقْرير الإمْرة المؤدَّاة وإثْباتِها ، أو جاريةً مَجْرىٰ السُّنَن التى يُؤْمَرُ المصَلِّى بالإعادة عِنْد فوَاتِها ؛ فأعادوا بَيْعته أداءً للفَريضة ورجاءً للفَضِيله ؛ وآستنَدُوا إلىٰ الإشارات الجليله ، بعْدَ الآستِخارات الطويله ؛ ورأَوْا أنْ يأخُذوا بها عادةَ البَيْعات العبّاسِيَّه ، واتخاذُ حُكْمِ الأصل طرِيقُ الإلحاقات القِياسِيَّه ؛ فبايَعُوا علىٰ تذكُّرٍ بيعةً أكَّدوها بالعُهُود المستحْفَظه ، ووَثَّقوها بالأيمانِ المغَلَّظَه ؛ وبادَرُوا بها نِداءَ مُنادِيهم، وأعطَوْا علىٰ الإصْفاقِ بها صَفْقةَ أيْدِيهم .

ولمَّا آنتهىٰ ذٰلك إلىٰ المَلَإ من أهل فلانةَ وجِهاتِها، رأَوْا أن يحْلِفَ من سَبَقْ ، ويَصْدُقُوا النِّيَّة مع مَنْ صَدَق، ويعْقِدُوا ما عقَدُوه علىٰ ماصَرَّح به العهْدُ الشريف ونَطَق ؛ فحضر منهم العلماءُ والصُّلحاءُ، والأجنادُ والوُزَراءُ والفُقهاءُ، والكافَّةُ علىٰ تبايُنِهِم فى المَرَاتب ، وتفَاوُتِهِم فى المَنَاصِب ، وآخْتِلافِهم فى المَوَاطن والمَكاسب ؛ فأمْضَوْها بيعةً كريمةَ المَقاصِد ، سليمةَ المَعاقِد ؛ عَهْدُها مُحْكَم ، وعَقْدُها مُبْرَم ؛ ومُوجَبُها طاعةٌ وسَمْع ، والتقيُّد بها سُنَّة وشَرْع ؛ ويَعْمُرونَ بها أسْرارَهُم ، ويُفْنُون عليها أعمارَهُم ؛ ويَدِينُون بها فى عُسْر ويُسْر، وربْح وخُسْر ؛ وضيق ورَفاهِيَه، ومحبَّة

وكَرَاهِيَه؛ تبرَّعُوا بذٰلك كلِّه طَوْعا، وآستوْفَوْه فصْلًا فَصْلًا ونَوْعا نَوْعا؛ وعاهدُوا عليها الذى يعـلم السِّرَّ وأخفىٰ، وأضمرُوا منها علىٰ ما أبَرَّ علىٰ الظـاهر وأَوْفىٰ؛ وتقَبَّلُوا من الوَفَاء به ماوصف الله به خليلَه إذ قال : ﴿و إبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾؛ وأقسموا بالله الذى لاإلٰهَ إلا هو عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحيم، و بمـا أخَذَه علىٰ أنبيائه الكِرام من العُهُود المؤكَّده، والمَوَاثيقِ المُشَدَّده، علىٰ أنهم إن حادُوا عن هذه السبيل، وآنقادُوا لداعِى التحْريف والتَّبْديل؛ فهُم بُرَآءُ من حول الله وقوّته إلىٰ حَوْلهم وقُوّتهـم، تاركون ذِمَّته الوافيةَ لذِمَّتهم؛ والأَيْمانُ كلها لازمةٌ لهم علىٰ مذهب إمامِ دار الهجرة، وطلاقُ كل آمرأةٍ فى مِلْكِ كل واحدٍ منهـم لازمٌ لهم ثلاثا، وأيُّمـا آمرأةٍ تزوّجَها فى البلاد الفلانيـة فطلاقُها لازمٌ له، كلَّما تزوّجَ واحدٌ منهن واحدةً خرجتْ طالقا ثلاثا؛ وعلىٰ كلِّ واحدٍ منهم المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام علىٰ قدمَيْه، مُحْرِمًا من مَنْزِله بحَجّةٍ كفَّارةً لاتُجْزِئ عن حَجّة الإسـلام؛ وعبيدهُم وأرِقَّاؤُهم عُتَقاءُ لاحقُونَ بأحرار المسـلمين، وجميعُ أموالِهم عَيْنا وعَرْضا، حَيَوانًا وأرْضا، وسائرُ مايَحْوِيه المُتملِّكُ كُلًّا وبعضا، صدقةٌ لبيتِ مال المسلمين؛ حاشىٰ عَشَرَة دنانير. كُلُّ ذٰلك علىٰ أشدّ مذاهب الفَتْوىٰ، وألزمها لكلمةِ التَّقْوىٰ؛ وأبْعـدها من مخالَفة الهَوىٰ والظاهر والفَحْوىٰ؛ أرادُوا بذٰلك رضا الخلافة الفلانيـة والفلانية (بلقبى السلطنة) للسلطان وولده المأخُوذِ لهما البيعةُ بعد بيْعته، وأشهدُوا اللهَ علىٰ أنفسهم، وكفىٰ بذلك آعْتِزاما وآلْتِزاما، وشَدًّا لمـا أَمَر به وإحْكاما : وَ﴿مَنْ نَكَثَ فَإِنَّمـا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِـه﴾ ﴿ومَنْ يفْـعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاما﴾. وهم يرفعُون دعاءَهم إلىٰ الله تضَرُّعا وآستِسْلاما، ويسألُونه عِصمةً وكفايةً آفْتِتاحا وآخْتِتاما؛ اللهم إنَّا قد أنفَذْنا هـذا العقْدَ آقتـداءً وآهْتِماما، وقضَيْنا حقَّه إكمَالًا وإتمـامًا، وأسلَمْنا وجْهنا إليـك إسْلاما؛ فعَرِّفْنـا من خيره وبركتِـه نَمـاءً ودوَاما، وآكْلأْنا بعينك حركةً وسُـكُونا ويقَظَةً ومَنَاما :

و﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْواجِنَا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وٱجْعَلْنا للمُتَّقِينَ إماما ﴾ إنك أنتَ اللهُ منتهىٰ الرَّغَبات، ومجيبُ الدَّعوات، وإلٰهُ الأرض والسَّمٰوات .

⁂

وهـذه نسخةُ بيعة مرَتَّبة علىٰ موتِ خليفة، أنشأتُها علىٰ هـذه الطريقة لموافقتها رأْى كُتَّاب الزمان فى ٱفتتاح عُهُود الملوك عن الخلفاء بالحمـدُ لله كما سيأتى بيانه فى موضـعه إن شاء الله تعالىٰ؛ وتعرّضت فيها إلىٰ قيامِ سـلطانٍ بعقْدِها : لمطابقة ذٰلك لحال الزّمان، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جعَـلَ الأُمَّةَ المحمدية أبذَخَ الأُمَمِ شَرَفا ، وأكْرَمها نِجارًا وأفضَلَها سَلَفا، وجعل رُتْبَة الخلافة أعلىٰ الرُّتَب رتبةً وأعزَّها كَنَفا ، وخصَّ الشجرةَ الطيِّبة من قريش بأنْ جعـل منهم الأئمـةَ الخُلَفا، وآثر الأُسْرةَ العبَّاسيَّة منها بذٰلك ، دعوةٌ سبقَتْ من ٱبن عمِّهم المُصْطفىٰ ، وحفِظ بهم نِظامَها علىٰ الدَّوام فجعـل ممن سلَفَ منهم خَلَفا .

نحمَدُه علىٰ أنْ هيَّأَ من مقدِّمات الرَّشَد ماطاب الزَّمانُ به وصَفَا، وجدَّدَ من رُسُوم الإمامة بخـير إمامٍ مادَرَس منها وعفَا، وأقام للسلمين إمامًا تأرَّج الجوُّ بنَشْره فأصبح الوجُودُ بعَرْفه معترِفا .

ونشهدُ أنْ لاإلٰهَ الَّا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ مخلص تمسَّـكَ بعهْدها فوَفىٰ، وأعطاها صَـفْقةَ يده للبايَعـةِ فلا يَبْغِى عنها مَصْرِفا، وأنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى تداركَ اللهُ به العالمَ بعد أنْ أشْفىٰ فشَفىٰ، ونَسخَتْ آيةُ دينـه الأديانَ وجَلاَ بشرْعته المُنيرة من ظُلْمة الجهل سَدَفا ، وجَعَلَ مُبايعه مُبايِعا للهِ يأخُذُه بالنَّكْث ويُوفِّيه أجْرَه علىٰ الوَفَا، صلّىٰ الله عليـه وعلىٰ آلِه الأطهار وعِتْرتِه الشُّرَفا، ورضى اللهُ عن أصحـابه

الذين لَيس منهم مَنْ عاهد اللهَ فَغَدر ولا وَادَّ فى الله بَخَفَا، خصوصًا مَنْ جاء بالصِّدْق وَصَدَّق به فكان له قرابةٌ وصَفْوةَ الصَّفا ، والمرجوعَ إليه فى البَيْعة يوم السَّقيفة بعدما آشرأَبَّت نحوَها نفوسٌ كادتْ تذوبُ عليها أسَفًا ، والقائمَ فى قتال أهلِ الرِّدّة من بنى حنيفةَ حتّى آستقامُوا علىٰ الحنيفيَّة السَّمْحةِ حُنَفا . ومَنِ آستحالَ دَلْوُ الخلافة فى يَدِه غَرْبا فكان أفيَدَ عبقرىّ قامَ بأمْرِها فكَفىٰ ، وعَمَّتْ فتوحُه الأمصارَ وحُمِلَتْ إليه أموالُها فلم يُمسِكها إقتارًا ولم يُبَذِّر فيها سَرَفا . ومَنْ كان فضْلُه لسَهْم الآختِيار من بيْنِ أصحابِ الشُّورىٰ هَدَفا ، وجمع الناسَ فى القُرءان علىٰ صَحِيفةٍ واحدةٍ وكانتْ قبْلَ ذٰلك صُحُفا . ومَنْ سرىٰ إليه سِرٌّ : "أَمَا تَرْضىٰ أنْ تكُونَ منِّى بمنزلة هارُونَ من مُوسىٰ " فغَدَا يجُرّ من ذَيْل الفَخَار سَجْفا ، وآستولىٰ علىٰ المَكارم من كلِّ جانبٍ فحازَ أطْرافَها طَرَفًا طَرَفا ، وعلىٰ سائر الخلفاء الراشدين بعدهم ممَّن سلَك سبيلَ الحق ولطرِيق الهُدىٰ آقْتفىٰ ؛ صلاةً ورِضْوانًا يُذْهِبان الداءَ العُضَالَ من وَخامة الغَدْر ويَجْلُبان الشِّفا ، ويرفَعان قدْرَ صاحبِهما فى الدنيا ويُبَوِّئانِ منتحِلَهما من جَنّات النعيم غُرَفا .

أمّا بعدُ، فإنَّ عَقْد الإمامة لمن يقُومُ بأمْرِ الأمّة واجبٌ بالإجماع ، مستنِدٌ لأقْوىٰ دليلٍ تنقَطِع دُونَ نقْضه الأطْماع ، وتنبُو عن سَمَاع ما يخالفُه الأسْماع ؛ إذ العبادُ مجبولون علىٰ التبايُنِ والتغايُر، مطْبُوعون علىٰ التحالُف والتناصُر ؛ [مضْطَرُّون إلىٰ التَّعاوُنِ والتَّجاوُر، مفْتقرُون إلىٰ التعاضُد والتَّوازُر](١) ؛ فلا بُدَّ من زعيم يمنعهُم من التظالُم، ويحمِلُهم علىٰ التناصُف فى التداعى والتحاكُم ؛ ويُقِيم الحُدودَ فتُصانُ المحارمُ عن الآنْتِهاك ، وتُحْفَظ الأنساب عن الآختلاط والآشْتِراك ؛ ويَحْمِى بيضةَ

(١) زائد فى بعض النسخ .

الإسلام فيمنع أن تُطرق ، ويصون الثغور أن يتوصّل إليها أو يتطرّق : ليعزّ الإسلامُ دارا ، ويطمئنّ المستخفي ليلا ويأمن الساربُ نهارا ؛ ويذُبُّ عن الحُرَم فتحترم ، ويذود عن المنكرات فلا تُغشىٰ بل تُصطلم ؛ ويجهز الجيوش فتنكأ العدوّ ، وتغير علىٰ بلاد الكفر فتمنعهم القرار والهدوّ ؛ ويرغم أنف الفئة الباغية ويقمعها ، ويُدغم الطائفة المبتدعة ويردعها ؛ ويأخذ أموال بيت المال بحقّها فيطاوع ، ويصرفها إلىٰ مستحقّها فلا ينازع ـ لاجَرم اعتُبر للقيام بها أكمل الشروط وأتمّ الصفات ، وأكرمُ الشِّيَم وأحسنُ السِّمات .

وكان السيدُ الأعظمُ الإمامُ النبوىّ ، سليلُ الخلافه ، ووليُّ الإمامه ؛ أبو فلان فلان العبّاسىّ المتوكّل علىٰ الله « مثلا » أميرُ المؤمنين ، سلك الله تعالىٰ به جَدَدَ آبائه الراشدين ؛ هو الذى جمع شروطها فوفّاها ، وأحاط منها بصفات الكمال واستوفاها ؛ ورامت به أدنىٰ مراتبها فبلغت إلىٰ أغياها ، وتسوّر معاليها فرقِىَ إلىٰ أعلاها ، واتّحد بها فكان صورتها ومعناها ـ وكانت الإمامةُ قد تأيّمت ممن يقوم بأعبائها ، وعزّت خُطّابها لقلّة أكفائها ، فلم تُلف لها بَعْلا يكونُ لها قرينا ، ولا كُفئا تخطُبه يكونُ لديها مكينا ، إلّا الإمامَ الفلانىَّ المشار إليه ، فدعته لخطبتها وهى بيتُ عرسه : ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ﴾ فأجاب خِطبتها ، ولبّى دعوتها : لتحقّقه رغبتها إليه ، وعلمه بوجوب إجابتها عليه ؛ إذ هو شِبلها الناشئُ بغابها ، وغيثها المستمطر من سحابها ؛ بل هو أسدُها الهَصور ، وقطبُ فلكها الذى عليه تدور ؛ ومعقِلها الأمنعُ الحصين ، وعِقْدُها الأنفَس الثمين ، وفارسُها الأروع وليثُها الشهير ، وابنُ بجدتها الساقطةُ منه علىٰ الخبير ، وتلادُها العليمُ بأحوالها ، والجديرُ بمعرفة أقوالها وأفعالها ؛ وترجُمانها المتكلّم بلسانها ؛ وعالمُها المتفنّن فى أفنانها ؛ وطبيبُها العارفُ بطبّها ، ومُنجِدُها الكاشفُ لكربها .

وحين بلغت من القصد سولها، ونالت بالإجابة منه مأمولها، وحرم على غيره أن يسومها لذلك تلويحا، أو يعرج على خطبتها تعريضا وتصريحا، احتاجت إلى ولي يوجب عقدها، وشهود تحفظ عهدها؛ فعندها قام السلطان الأعظم الملك الفلاني (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) خلد الله سلطانه، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه؛ فانتصب لها وليا، وأقام يفكر في أمرها مليا؛ فلم يجد أحق بها منه فتجنب عضلها، فلم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها؛ فجمع أهل الحل والعقد، المعتبرين للاعتبار والعارفين بالنقد: من القضاة والعلماء، وأهل الخير والصلحاء، وأرباب الرأي والنصحاء؛ فاستشارهم في ذلك فصوبوه، ولم يروا العدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه؛ فاستخار الله تعالى وبايعه، فتبعه أهل الاختيار فبايعوا، وانقادوا لحكمه وطاوعوا؛ فقابل عقدها بالقبول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت، ومضى حكمها على الصحة وانبرمت. ولما تم عقدها، وطلع بصبح اليمن سعدها، التمس المقام الشريف السلطاني الملكي الفلاني المشار إليه أعلى الله شرف سلطانه ورفع محله، وقرن بالتوفيق في كل أمر عقده وحله، أن يناله عهدها الوفي، ويرد منها موردها الصفي: ليرفع بذلك عن أهل الدين حجبا، ويزداد من البيت النبوي قربا؛ فتعرض لنفحاتها من مقراتها، وتطلب بركاتها من مظناتها؛ ورغب إلى أمير المؤمنين، وابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، أن يجدد له بعهد السلطنة الشريفة عقدا، ويأخذ له على أهل البيعة بذلك عهدا؛ ويستحلفهم على الوفاء لها بما عاهدوا، والوقوف عند ما بايعوا عليه وعاقدوا: ليقترن السعدان فيعم نوءهما، ويجتمع النيران فيبهر ضوءهما؛ فلباه تلبية راغب، وأجابه إجابة مطلوب وإن كان هو الطالب؛ وعهد إليه في كل ما تقتضيه أحكام إمامته في الأمة عموما وشيوعا، وفوض له حكم الممالك الإسلامية جميعا؛ وجعل إليه أمر السلطنة المعظمة بكل

نِطَاق، وألقىٰ إليه مَقالِيدَها وصَرَّفه فيها علىٰ الإطْلاق ؛ وأقامه فى الأمة لعَهْد الخلافة وَصِيّا، وجعله للإمامة بتَفْويض الأمْرِ إليه ولِيّا؛ ونَشَر عليه لواءَ المُلْك وقلّده سيْفَه العَضْب ، وألبَسَه الخلعةَ السَّوداء فابيَضّ من سَوادِها وجْهُ الشرقِ والغَرْب ؛ وكَتَبَ له بذٰلك عهْـدًا كَبَتَ عدُوَّه، وزاد شَرَفه وضاعَفَ سُمُوّه ؛ وطُولِب أهـلُ البيعة بالتَّوثيق علىٰ البَيْعتين بالأيمـان فأذعَنُوا ، وآستُحْلِفُوا علىٰ الوَفَاء فبـالَغُوا فى الأيمـانِ وأمْعَنُوا ؛ وأقسـمُوا باللهِ جَهْد أيمـانهم ، بعـد أن أشْهدُوا اللهَ عليهم فى إسْرارِهم وإعْلانِهـم ؛ وأعطَوُا المواثيـقَ المغَلَّظةَ المشـدَّده ، وحَلَفوا بالأيمـانِ المُؤكَّدة المعَقَّده، علىٰ أنهم إن أعْرَضُوا عن ذٰلك أو أدْبَرُوا، وبَدَّلوا فيه أو غَيَّرُوا؛ أو عَرَّجُوا عن سبِيله أو حادُوا، أو نَقَصُوا منه أو زادُوا؛ فكُلُّ منهم بَرِىء من حَوْل الله وقوّتِه إلىٰ حوْلِ نفْسِه وقوّته، وخارجٌ من ذِمّته الحصينةِ إلىٰ ذِمّته؛ وكلُّ آمرأةٍ فى نكاحِه أو يتَزوَّجُها فى المستقْبَل فهى طالقٌ ثلاثا بَتاتَا، وكُلّما راجعها فهى طالِقٌ طلاقا لايقْتضِى إقامة ولا ثَبَاتا ؛ وكلُّ ممـلوكٍ فى مِلْكه أو يملِكه فى المسـتقبل حُرٌّ لاحِقٌ بأحْرار المسـلمين، وكلُّ ما مَلَكه أو يَمْلِكُه من جَمَـاد وحيوانٍ صـدقةٌ عليه للفُقَراء والمساكين؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيتِ اللهِ الحَرَام، والوقوفُ بعرفَةَ وسائرِ المَشَاعِرِ العِظَام؛ مُحرِمًا من دُوَيْرَةِ أهـلِه ماشِيا، حاسِرًا عن رأسه وإن كان به أذًى حافِيا؛ يأتِى بذٰلك فى ثلاثينَ حَجَّة متتابعةً علىٰ التمام، لاتُجْزِئه واحدةٌ منها عن حَجَّة الإسلام؛ وإهـداءُ مائةِ بدنةٍ للبيت العَتِيق كلَّ سنةٍ علىٰ الدَّوام، وعليه صومُ جميع الدَّهْرِ إلَّا المَنْهِيَّ عنـه من الأيَّام، وأنْ يفُكَّ ألفَ رقبـةٍ مؤمنةٍ من أَسْر الكفر فى كلّ عام ؛ يمِينُ كلٍّ منهم فى ذٰلك علىٰ نيَّـةِ أمير المؤمنين ، وسلطانِ المسلمين ، فى سِرِّه وجَهْره وأوّلِه وآخِرِه، لانيَّـةَ للحـالف فى ذلك فى باطنِ الأمرِ ولا فى ظاهِرِه؛ لا يُورِّى فى ذٰلك ولا يستَثْنِى ، ولا يتأوّلُ ولا يستفْتِى ؛ ولا يَسْعىٰ فى نَقْضها، ولا يخالِفُ فيها

ولا فى بعْضِها ؛ متىٰ جنَح إلىٰ شيءٍ من ذلك كان آثِما ، وما تقدّم من تَعْقِيد الأيمان له لازِمًا ؛ لا يقبلُ اللهُ منه صرْفا ولا عدْلا ، ولا يُجْزِئُه عن ذلك كفّارةٌ أصْلا ؛ كلُّ ذلك علىٰ أشدّ المذاهِب بالتخصيص ، وأبعدِها عن التساهل والتّرْخيص ؛ وأَمْضَوْها بيعةً ميْمُونه ، باليُمن مبتدأةً بالنُّجْح مقْرونه ، وأشهدُوا عليهم بذلك مَنْ حضر مجلِسَ العقد من الأئمةِ الأعلام ، والشُّهود والحُكّام ، وجعلُوا اللهَ تعالىٰ علىٰ مايقُولُون وكيلا ، فٱستَحَقَّ عليهم الوفاءُ بقوله عزّت قدرتُه : ﴿ وأَوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَـدْتُمْ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمـانَ بَعْدَ تَوْكِيدها وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُم كَفِيلا ﴾ . وهم يرغَبُون إلىٰ الله تعالىٰ أن يُضاعِفَ لهم بحُسْن نِيّتِهم الأُجُور ، ويلجَـُون إليه أن يجعَلَ أئمتَهم ممّن أشار تعـالىٰ إليه بقوله : ﴿ الَّذينَ إنْ مَكَّنّاهُمْ فى الأرضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عن المُنْكَرِ ولِلهِ عاقِبَةُ الأُمُور ﴾ . إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهـذه نسخةُ بيعةٍ مرتَّبة علىٰ خَلْع خليفةٍ ، أنشأتُها علىٰ هـذه الطريقةِ أيضا ، وتعرَّضْت فيها لذِكر السلطان القائم بها ، علىٰ ماتقدّم فى البَيْعة المرتَّبة علىٰ موتِ خليفةٍ ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل بيتَ الخلافة مَثابةً للناس وأَمْنا ، وأقام سُورَ الإمامةِ وِقايةً للأنامِ وحِصْنا ، وشَدّ لها بالعِصَابة القُرَشيّة أَزْرا وشادَ منها بالعُصْـبة العبّاسيّة رُكْنا ، وأغاثَ الخلْقَ بإمامِ هُدًى حَسُنَ سِيرةً وصفَا سريرةً فراقَ صُورةً ورَقّ معْنىٰ ، وجمع قلُوبَهم عليه فلم يستَنْكِفْ عن الآنقيادِ إليه أعلىٰ ولا أدْنىٰ ، ونزع جِلْبابَها عمّنْ شُغِل بغيرها فلم يُعِرْها نَظَرا ولم يُصْغِ لها أُذُنا ، وصَرَفَ وجْهَها عمّن أساء فيها تصرُّفا فلم يرْفَعْ بها رأْسا ولم يَعْمُرْ لها مَغْنىٰ .

نحمـده على نِعم حَلت للنفوس حين حلَّت ، ومنن جلت الخطوب حين جلَّت ، ومسارَّ سرت إلى القلوب فسرَّت ، ومبارَّ أقرت العيون فقرَّت ؛ وعوارف أمَّت الخليقة فتوالتْ وما ولَّت ، وقدم صدْق ثبتت إن شاء الله فى الخلافة فما تزلزلت ولا زلَّت .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادةً تكونُ لنا من درك الشُّكوك كالئه ، ولمهاوى الشُّبه دارئه ، وللمقاصد الجميلة حاويه ، ولشُقَّة الزَّيغ والآرتياب طاويه ؛ وأنَّ محمدًا عبده ورسوله الذى نَصح الأمَّة إذ بلَّغ فشفى عليلها ، وأوردها من مناهل الرَّشد ماأطفأ وهجها و برَّد غليلها ؛ وأوضح لهم مناهج الحقِّ ودعاهم إليها ، وأبانَ لهم سُبُل الهداية : ﴿ فمن آهتدى فإنَّما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنَّما يضلُّ عليها ﴾ صلَّى الله عليه وعلى آله أئمة الخير وخير الأئمَّه ، ورضى عن أصحابه أولياء العَدْل وعُدول الأمَّه ؛ صلاةً ورضوانا يعمَّان سائرهم ، ويشملان أولهم وآخرهم ؛ سيَّما الصديق الفائز بأعلى الرُّتبتين صِدْقا وتَصْديقا ، والحائز قصب السبق فى الفضيلتين علما وتحقيقا ، ومن عدل الأنصارُ إليه عن سعْد بن عُبادة بعد ماأجمعوا على تقديمه ، وبادر المهاجرون إلى بيْعته آعترافا بتفْضيله وتكريمه . والفارُوق الشديد فى الله بأسا واللَّين فى الله جانبا ، والمُوفى للخلافة حقًّا والمؤدّى للإمامة واجبا ؛ والقائم فى نُصْرة الدِّين حقَّ القيام حتَّى عمَّت فتوحُه الأمصار مشارق ومغاربا ، وأطاعته العناصرُ الأربعة : إذْ كان لله طائعاً ومن الله خائفاً وإلى الله راغبا . وذى النُّورين المعوَّل عليه من بين سائر أصحاب الشُّورى تنْويها بقدْره ، والمخصوص بالآختيار تفخيماً لأمْره ، من حُصر فى بيْته فلم يمنعه ذلك عن تلاوة كتاب الله وذكره ، وشاهد سُيوف قاتليه عِيانا فقابلَ فتكاتها بجميل صبْره . وأبى الحسن الذى أعرض عن الخلافة حين سُئلها ، وآستعفى منها بعد ما آضْطُرَّ إليها وقبلها ، وكُشف له عن حقيقة

الدنيا فما أمَّ قِبْلَتها بقلبه ولا وَلّى وجْهَه قِبَلَها، وصرَّح بمقاطعتِها بقوله : « ياصَفراءُ غُرِّى غَيْرى يابَيضاءُ غُرِّى غَيْرى » لَمَّا وصَلَها مَنْ وصَلَها ؛ وسائرِ الخلفاء الراشدين بعدهم، الناهِجِين نَهْجَهم والوارِدِينَ وِرْدَهم .

أما بعدُ، فإنَّ للإمامة شُروطًا يجبُ آعتبارُها فى الإمام، ولَوازِمَ لايُغْتَفر فواتُها فى الآبتداء ولا فى الدَّوام، وأوْصافاً يتعيَّن إعمالُها، وآداباً لايسَعُ إهمالُها ؛ من أهمِّها العَدَالةُ التى مِلاكُها التَّقْوىٰ ، وأساسُها مراقبةُ الله تعالىٰ فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ؛ وبها تقعُ الهَيْبةُ لصاحبها فيُجَلّ ، وتميلُ النُّفُوس إليها فلا تمل ؛ فهى المَلَكةُ الداعيةُ إلىٰ تَرْك الكبائر وآجْتِنابِها ، والزاجِرةُ عن الإصْرار علىٰ الصَّغائر وآرْتِكابِها ؛ والباعثةُ علىٰ مُخالَفة النفْس ونَهْيِها عن الشَّهوات ، والصارِفةُ عن آنْتِهاك حُرُماتِ الله التى هى أعظَمُ الحُرُمات ؛ والموجبةُ للتعفُّف عن المَحَارِم، والحاملةُ علىٰ تجنُّب الظُّلامات وردّ المَظَالم. والشَّجاعةُ التى بها حِمايةُ البَيْضة والذَّبُّ عنها،والآستظهارُ بالغَزْو علىٰ نِكايةِ الطائفة الكافرةِ والغَضِّ منها؛ والقُوَّةُ بالشوكةِ علىٰ تنفيذِ الأوامِرِ وإمضائِها، وإقامةِ الحدودِ وآستِيفائِها، ونَشْرِكلمة الحق وإعلائِها، ودَحْضِ كلمةِ الباطل وإخفائِها ، وقطْعِ مادّةِ الفسادِ وحسْم أدوائِها؛ والرأْىُ المؤدِّى إلىٰ السياسةِ وحُسْن التدبير، والمُغْنِى فى كثيرٍ من الأماكن عن مَزِيد الجِدّ والتشمير؛ والمعينُ فى خُدَع الحرب ومَكايده، والمُسْعِف فى مَصَادر كلِّ أمرٍ ومَوارِدِه .

هذا وقد جعلَنا اللهُ أمّةً وسَطا ، ووعَظَنا بمن سَلَفَ من الأُمَم ممن تمرَّد وعَتا أو تجبرَّ وسَطَا؛ وعصَمَ أُمّتنا أنْ تجتمعَ علىٰ الضَّلال، وصانَ جَمْعنا عن الخَطَل فى الفِعال والمَقَال ؛ وندَبَنا إلىٰ الأَمْر بالمعرُوف والنَّهْىِ عن المنكر، وسوّغَ لأَئمّتنا الآجتهادَ فى النَّوازل والأحكام فاجْتِهادُهم لايُنْكَر، خصوصًا فى شأن الإمامةِ التى هى

آكَدُ أسباب المَعَالم الدينيّة وأقواها ، وأرفعُ المناصبِ الدُّنيويّة وأعلاها ، وأعزُّ الرُّتَب رُتْبةً وأغلاها ، وأحقُّها بالنظر فى أمرِها وأولاها . وكان القائمُ بأمر المسلمين الآنَ فلانُ بنُ فلان الفلانىّ ممّن حادَ عن الصِّراط المستقيم ، وسلَكَ غيرَ النَّهج القويم ؛ ومالَ عن سَنَن الخُلَفاء الراشدين فأدْركه الزَّلَل ، وقارفَ المآثِمَ فعادَ بالخَلَل ؛ فعاثَ فى الأرض فَسادا ، وخالفَ الرَّشد عِنادا ، ومالَ إلىٰ الغىِّ اعْتِمادا ، وأسلَمَ إلىٰ الهوىٰ قِيادا ؛ قد انتقلَ عن طَوْر الخلافه ، وعزيزِ الإنافه ، إلىٰ طَوْر العامّة فاتّصف بِصفَاتهم ، واتَّسم بِسِماتهم ؛ فمُنكَرٌ يجبُ عليه إنكارُه قد باشَره ، وصديقُ سَوْء يتعيَّن عليه إبعادُه قد وازَرَه وظاهَرَه ؛ إنْ سلك فسبيلَ التُّهمة والارتياب ، أو قصَدَ أمْرا نَحَا فيه غيرَ الصَّواب ؛ منهمِكٌ علىٰ شَهَواته ، منعكِفٌ علىٰ لَذّاته ، متشاغلٌ عن أمر الأمّة بأمرِ بَنِيه وبَناته ؛ الجُبْنُ رأس ماله ، وعدَمُ الرأى قرينُــه فى أفْعاله وأقواله ؛ قد قَنِـع من الخلافة باسْمِها ، ورضِىَ من الإمامة بوَسْمِها ؛ وظَنَّ أنَّ السُّودَد فى لُبْس السَّواد فمال إلىٰ الحَيْف ، وتوهَّم أنَّ القاطعَ الغِمْدُ فقطعَ النظَرعن السَّيْف .

ولمّـا اطَّلع الناسُ منه علىٰ هذه المُنْكَرات ، وعرَفُوه بهذه السِّمَات ، وتحقَّقُوا فيه هذه الوَصَمَات ؛ رغِبُوا فى استِبْداله ، وأجمعُوا علىٰ خَلْعه وزَوَاله ؛ فلَجَئُوا إلىٰ السلطان الأعظَمِ الملك الفلانى (بالألقاب السلطانية إلىٰ آخرها) نصر الله جُنودَه ، وأسْمىٰ جُدُودَه ، وأرهَف علىٰ عُدَاةِ الله حُدُودَه ؛ ففوَّضُوا أمْرَهم فى ذلك إلَيْـه ، وألقَوْا كَلَّهم عليه ؛ بجمع أهلَ الحلِّ والعَقْد منهم ، ومَنْ تصْدُر إليهم الأمورُ وتَرِدُ عنهم ؛ فاستخارُوا الله تعالىٰ وخلَعُوه من وِلَايته ، وخرجُوا عن بَيْعته ، وانسلَخُوا عن طاعته ؛ وجَرَّدُوه من خِلافتِه ، تجريدَ السَّيْف من القِرَاب ، وطَوَوْا حكمَ إمامتِه ، كطَىِّ السِّجِلِّ للكِتاب . وعند ماتَمَّ هــذا الخَلْع ، وانطوىٰ حكمُه علىٰ البَتِّ والقَطْع ، التمس الناسُ إماما يقُوم بأمور الإمامة فيُوفِيها ، ويجمع شُروطَها ويستوْفِيها ؛ فلم يجِدُوا لهـا أهلا ،

ولا بِهَا أحقّ وأَوْلىٰ، وأوفىٰ بها وأَمْلىٰ، من السيِّد الأعظم الإمام النبوى سليل الخلافة، ووليّ الإمامة أبى فلانٍ فلان العباسيّ الطائع لله «مثلا» أمير المؤمنين.
لازال شرفُه باذخا، وعِرْنينُه الشريفُ شامخا؛ وعهْدُ ولايتِه لعهدِ كلِّ ولايةٍ ناسخا، فساموه بيْعَتها فلَبّى، وشامُوا بَرْقَه لولايتها فأجابَ وما تأبّى؛ عِلْمًا منه بأنها تعيّنتْ عليه، وانحصرتْ فيه فلم تَجِدْ أعلىٰ منه فتَعدِلَ إليه؛ إذ هو ابْنُ بَجْدتها، وفارسُ نَجْدتها، ومُزِيلُ غُمّتها، وكاشفُ كُرْبتها؛ ومُجْلِي غَيَاهِبِها، ومُحْمِدُ عواقِبها، ومُوَضِّحُ مذاهبها؛ وحاكمُها المَكين، بل رشيدُها الأَمين؛ فنهضَ المقامُ الشريفُ السلطانيّ المَلَكيّ الفلانيّ المشارُ إليه: قَرَنَ اللهُ مقاصِدَه الشريفةَ بالنَّجاح، وأعمالَه الصالحةَ بالفَلاح؛ وبَدَر إلىٰ بيعته فبايَعْ، وأَتَمَّ به مَنْ حَضَرَ من أهل الحَلِّ والعَقْد فتابَعْ، وقابل عَقْدَها بالقَبُول فمضىٰ، ولزِم حُكْمُها وانقضىٰ؛ واتّصل ذٰلك بسائر الرعيّة فانْقادُوا، وعلِمُوا صوابَهُ فمَشَوْا علىٰ سَنَنِه وما حادُوا؛ وشاع خبرُ ذٰلك فى الأمصار، وطارتْ به مُخَلَّقاتُ البشائر إلىٰ سائر الأَقْطار؛ فتعرّفُوا منه اليُمْنَ فسارَعُوا إلىٰ امتثاله، وتحقّقُوا صِحّتَه وثباتَه بعد اضْطِرابه واعتِلاله؛ واستعاذُوا من نَقْصٍ يُصيبه بعد تمامه لهذا الخليفةِ وكمالِه؛ فعندها أبانت الخلافةُ العبّاسيةُ عن طِيبِ عُنْصُرها، وجميلِ وفائِها وكريمِ مَظْهَرِها؛ وجادَتْ بجزيل الامْتِنان، وتلا لسانُ كَرَمِها الوَفِيّ علىٰ وَلِيِّها الصادق: ﴿هَلْ جزاءُ الْإحْسانِ إلّا الإحْسان﴾ فجدّد له بالسَّلْطنة الشريفةِ عَهْدا، وطوّقَ جِيدَه بتفويضها إليه عِقْدا؛ وجعله وَصِيَّه فى الدِّين، وَوَلِيَّه فى أمر المسلمين؛ وقلّده أمْرَ الممالك الإسلامية وألقىٰ إليه مَقاليدَها، وملّكه أزِمّتها وحقّق له مَوَاعِيدَها؛ وعَقَد له لِواءَها ونَشَر عليه أعلامَهَا، وصرّفه فيها علىٰ الإطْلاق وفوّضَ إليه أحْكامَها؛ وألبسه الخِلْعةَ السَّوْداء فكانت لسُؤْدده شِعارا، وأسبغ عليه رداءَها فكان له دِثارا؛ وكَتَب له العهدَ فسقىٰ المَعاهدَ صَوْبُ العِهاد، ولهِج الأنامُ

بذكره فاطمأنّت العِبادُ والبِلاد ؛ وعِنْـد ما تمّ هذا الفصْل ، وتقرّر هـذا الأَصْل ، وأمْستِ الرَّعايا بمـا آتاهمُ اللهُ من فضـله فرِحين ، وبنعمتِـه مستبْشِرين ، طُولِبَ أهلُ البيْعة بمـا يحمِلُهم علىٰ الوفَاء ، ويمنعُ بيْعتَهم من التكدُّر بعد الصَّفاء : من توْثيق عَقْـدها بمؤكّد أيمـانها ، والإقامة علىٰ الطاعة لخليفتها وسُلْطانها ؛ فبادَرُوا إلىٰ ذٰلك مُسْرِعين ، وإلىٰ داعِيـه مُهْطِعين ؛ وبالغُوا فى المَواثيـق وأكَّدُوها ، وشـدَّدُوا فى الأَيمـان وعقَّدُوها ؛ وأقسمُوا بالله الذى لا إلٰهَ إلَّا هو عالمُ الغَيْب والشَّهاده ، عالِمُ خائنةِ الأعْيُن وما تُخْفِي الصُّدور فى البَدْء والإعادَهْ ، علىٰ الوَفَاءِ لها والمُوَالاه ، والنُّصْح والمُصافاه ؛ والمُوافَقة والمُشايَعه ، والطاعة والمُتابَعَهْ ؛ يُوالُون مَنْ والاهما ، ويُعادُون مَنْ عاداهمـا ؛ لا يقْعُدون عن مُناصرتِهما عند إلْمَامِ مُلِمَّه ، ولا يَرْقُبُون فى عدُوّهما إلًّا ولا ذِمّه ؛ جارِينَ فى ذٰلك علىٰ سَنَن الدَّوام والآستِمرار ، والثُّبوت واللُّزوم والآستِقْرار ؛ علىٰ أنَّ من بدّلَ منهم من ذٰلك شَرْطا أو عَفَّىٰ له رَسْمـا ، أو حادَ عن طريقِـه أو غيّرله حُكْما ؛ أو سَـلَك فى ذٰلك غيرَ سبيل الأمانَه ، أو آستحلَّ الغَـدْر وأظهَرَ الخِيانَه ، مُعلِنا أو مُسرًّا فى كلّه أو بَعْضه ، متأوِّلًا أو مُحتالا لإبْطاله أو نقْضه ؛ فقد بَرِئَ من حولِ الله المتينِ وقُوّته الواقيه ، ورُكْنه الشـديد وذِمّته الوافيه ، إلىٰ حول نَفْسه وقُوّته ، ورُكْنه وذِمّتـه ؛ وكُلُّ آمرأةٍ فى عِصْمته الآنَ أو يتزوّجُها مدّةَ حياتِه طالِقٌ ثلاثا بصريح لَفْظ لايتوقّف علىٰ نِيَّه ، ولا يُفْرَقُ فيه بين سُـنَّة ولا بِدْعة ولا رَجْعةَ فيـه ولا مَثْنَوِيَّه ؛ وكلُّ مملوك فى مِلْكه أو يمْلِكه فى بقيَّـة عُمُره من ذكرٍ أو أُنثىٰ حُرٌّ من أحرار المسلمين ؛ وكلُّ ما هو علىٰ مِلْكه أو يملِكُه فى بقِيَّـة عُمُره إلىٰ آخرِ أيّامه من عينٍ أو عَرْض صدقةٌ للفُقَراء والمساكين ؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجّةً بثلاثين عُمْرةً راجلًا حافيًا حاسِرا ، لايقبلُ الله منه غيْرَ الوفاء بها باطِنًا ولا ظاهِرا ؛ وإهْداءُ مائةِ بدنةٍ فى كل حَجّـة منها فى عُسْرته ويُسْرته ، لاتُجْزئُه

واحدةٌ منها عن حَجّة الإسلام وعُمْرته ؛ وصومُ الدهر خلَا المنهِىّ عنه من أيّام السَّنه ، وصلاةُ ألفِ ركعةٍ فى كل ليلةٍ لا يُباح له دُونَ أدائها غَمْض ولا سِنَه ؛ لا يقبلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلا ، ولا يُؤْجَر على شىءٍ من ذلك قَوْلا ولا فِعْلا ؛ متى ورّى فى ذلك أو آستثنى ، أو تأوّل أو آستفتى ، كان الحنثُ عليه عائدا ،وله إلى دار البَوَار قائدَا ؛ معتمِدًا فى ذلك أشدَّ المَذاهب فى سِرّه وعلانِيَتِه ، على نِيّة المستحلِف له دُونَ نِيّته ؛ وأمضَوْها بيعةً محكمةَ المَبَانى ثابتةَ القَواعد ، كريمةَ المَساعى جميلةَ المقاصِد ؛ طيِّبةَ الجَنَى جليلةَ العَوائد ، قاطعةَ البراهين ظاهرةَ الشَّواهد ؛ وأشهَدُوا على أنفُسِهم بذلك مَنْ حضر مجلِسَ هذا العَقْد من قُضاة الإسلام وعُلَمائه ، وأئمة الدِّين وفُقَهائه ؛ بعد أن أشهَدُوا الله عليهم وكفى بالله شهيدا ، وكفى به للخائنين خَصِيما : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . والله تعالى يجعلُ آنتقالَهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يُسْرى إلى يُمْنى ؛ ويحقِّق لهم بمَن آستخلَفه عليهم وَعْدَه الصادقَ بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ . إن شاء الله تعالى .

المـــــذهب الرابع

(ممـا يُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء أن يفْتَتح البيعةَ بلفظ : هذه بيعة ، وَيصِفَها ويذكُر مايناسِبُ ، ثم يعزِّى بالخليفة الميِّت ، ويهنِّى بالخليفة المستقرّ ، ويذكر فى حقِّ كلٍّ منهما مايَليق به من الوَصْف علىٰ نحوٍ مما تقدّم)

وهذه نسخةُ بيعةٍ أنشأها المَقَرّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله ، علىٰ مارأيته فى "الجواهر المتقَطة" المجموعةِ من كلامه ، للإمام الحاكم بأمر الله «أبى العبّاس»[1] «أحمد بن أبى الرَّبيع سُلَيمان» [المستكفى بالله] ٱبنِ الإمام الحاكم بأمر الله ، بعد موتِ أبيه .

وذكر القاضى تقىُّ الدين بن ناظِرِ الجيش فى "دُسْتُوره" أنه إنمـا عَمِلها تجربةً[2] لخاطره ، وهى مُرتَّبة علىٰ موتِ خليفة .

ونصها بعد البسملة الشريفة :

﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَـا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أوْفىٰ بِمَـا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيما ﴾ .

هـذه بيعةُ رِضْوان وبَيْعةُ إحْسان ، وبيعةُ رِضًا تَشْهَدُها الجمـاعة ويَشْهَد عليها الرحمٰن ؛ بيعـةٌ يلزَمُ طائرُها العُنُق ، وتَحُوم بشائرُها علىٰ الأُفُق ، وتحمِلُ أنْباءَها البَرارِىُّ والبِحارُ مشحونةَ الطُّرُق ؛ بيعةٌ تصلُح لِنسَبها الأُمَّه ، وتُمْنح بسَبَبها النِّعمه ، وتُؤلَّف بهـا الأسْباب وتجعل بَيْنَهم مودّةً ورَحْمــه ؛ بيعةٌ تَجْرى بهـا الرِّفاق ، وتتزاحَمُ زُمَرُ

---

(١) كذا فى تاريخ أبى الفداء، وٱبن إياس والعبر أيضا ووقع فى ج ٣ ص ٢٦٥ من هذا المؤلف أن لقبه المستعصم والصواب ماهنا .

(٢) أى امتحانا لفكره .

الكواكب على حوض المجرة للوفاق؛ بيعة سعيدة ميمونه، بيعة شريفة بها السلامة في الدين والدنيا مضمونه؛ بيعة صحيحة شرعيه، بيعة ملحوظة مرعيه؛ بيعة تسابق إليها كل نية وتطاوع كل طويه، وتجمع عليها أشتات البريه؛ بيعة يستهل بها الغمام، ويتهلل البدر التمام؛ بيعة متفق على الإجماع عليها، والاجتماع لبسط الأيدي إليها؛ انعقد عليها الإجماع، وانعقدت صحتها بمن سمع لله وأطاع، وبذل في تمامها كل امرئ ما استطاع، وحصل عليها اتفاق الأبصار والأسماع، ووصل بها الحق إلى مستحقه وأقر الخصم وانقطع النزاع؛ وتضمنها كتاب كريم يشهده المقربون، ويتلقاه الأئمة الأقربون.

﴿ الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ : ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ . وإلينا ولله الحمد وإلى بني العباس . أجمع على هذه البيعة أرباب العقد والحل، وأصحاب الكلام فيما قل وجل؛ وولاة الأمور والأحكام، وأرباب المناصب والحكام؛ وحملة العلم والأعلام، وحماة السيوف والأقلام، وأكابر بني عبد مناف، ومن انخفض قدره وأناف؛ وسروات قريش ووجوه بني هاشم والبقية الطاهرة من بني العباس، وخاصة الأئمة وعامة الناس؛ بيعة ترسى(١) بالحرمين خيامها، وتخفق على المأزمين أعلامها، وتتعرف عرفات ببركاتها وتعرف بمنى أيامها؛ ويؤمن عليها يوم الحج الأكبر، وتؤم ما بين الركن والمقام والمنبر؛ ولا يبتغى بها إلا وجه الله الكريم، وفضله العميم؛ لم يبق صاحب سنجق(٢) ولا علم، ولا ضارب بسيف ولا كاتب بقلم؛ ولا رب حكم ولا قضاء، ولا من يرجع إليه في اتفاق ولا إمضاء؛ ولا إمام مسجد ولا خطيب، ولا ذو فتيا يسأل

(١) لعله ترى بالحرمين تأمل .

(٢) في الأصل سيف وهي تصحيف .

فيُجيب، ولا مَنْ بينَ جَنَبَتِي المساجد ولا من تضُمُّهم اجنحةُ المحـارِيب ، ولا مَنْ يجتَهِد فى رأيٍ فيُخْطِئُ أو يُصِيب ، ولامتحدِّثٌ بحديث، ولا متكلِّم بقديم وحديث ؛ ولا معروفٌ بدِينٍ وصَلَاح، ولا فُرسانُ حربٍ وكِفَاح ؛ ولا راشِقٌ بسِهام ولا طاعنٌ برِماح ، ولا ضاربٌ بصِفَاح ، ولا ساعٍ علىٰ قدَم ولا طائرٌ بغيرِ جَنَاح ؛ ولا مخـالِطٌ للناس ولا قاعدٌ فى عُزْله ، ولا جمعُ كَثْرة ولا قِلَّه ؛ ولا مَنْ يستقِلُّ بالجَوْزاء لِوأُوه ، ولا يقِلُّ فوْقَ الفرقد ثَوأُوه ؛ ولا بادٍ ولا حاضِر ، ولا مُقيمٌ ولا سائر ؛ ولا أوّلٌ ولا آخِر ، ولا مُسِرٌّ فى باطن ولا مُعْلِنٌ فى ظاهر ؛ ولا عربٌ ولا عَجَم ، ولا راعِى إبل ولا غَنَم ؛ ولا صاحبُ أناةٍ ولا إبْدار ، ولا ساكنٌ فى حضَر وباديةٍ بِدَار ؛ ولا صاحبُ عَمَـد ولا جِدَار ، ولا ملَجِّجٌ فى البِحار الزاخرةِ والبرَارِىِّ القِـفَار ؛ ولا من يتوَقَّلُ صَهَواتِ الخيل ، ولا مَنْ يُسْبِل علىٰ العَجَاجة الذيل ، ولا من تطْلُع عليـه شمسُ النهار ونُجُوم الليل ؛ ولا من تُظِلُّه السماء وتُقِلُّه الأرض ، ولا مَنْ تَدُلُّ عليه الأسماء علىٰ آختلافها وترتفِعُ درجاتُ بعضِهم علىٰ بعض ؛ حتّٰى آمَنَ بهذه البَيْعة وأمّنَ عليها ، ومَنّ اللهُ عليه وهداه إليها ؛ وأقرّ بها وصدّق ، وغَضَّ لهـا بصَره خاشـعًا وأطْرق ؛ ومدّ إليها يَدَه بالمُبَايَعه ، ومُعتقَدَه بالمُتَابعه ؛ رضِىَ بها وآرْتضاها ، وأجاز حُكْمَها علىٰ نَفْسه وأمضاها ؛ ودخل تحتَ طاعتِهـا وعَمِـل بمقتضاها : ﴿ وقُضِىَ بَيْنَهُـمْ بِالْحَقِّ وَقِيـلَ الحمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نصب الحاكم لِيَحْكُم بين عِباده وهو أحكَمُ الحاكِمين ، والحمدُ لله الذى أخَذَ حقَّ آلِ بيتِ نبيِّه من أيْدى الظالمين ؛ والحمدُ لله ربِّ العالمين ، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين ، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين ، والحمدُ لله رب العالمين .

وإنه لمـَّا آستأثر اللهُ بعبْدِه سُليمانَ أبِى الرَّبيع الإمامِ المستكْفى بالله أمير المؤمنين ـ كَرّم اللهُ مثواه ـ وعَوّضه عن دار السِّلام بدار السَّـلَام ، ونقله فزَكّى بدنَهُ عن

شهادة السَّـلام بشهادة الإسْـلام؛ حيثُ آثَره ربُّه بقُرْبه، ومَهَّد بجنبه وأقْدمه علىٰ ماأقدمه مَنْ يرجُوه لعمَله وكَسْـبه ، وخار له فى جِوَاره رَفِيقا، وجعل له علىٰ صالح سَـلَفِه طرِيقَا ؛ وأنزله ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقا﴾. اللهُ أكبرُ ليومه لولا مخلَّفه كادَتْ تَضِيقُ الأرضُ بمـا رَحُبَت ، وتُجْزىٰ كلُّ نفس بمـا كَسَبَتْ ؛ وتُنْبِئُ كلُّ سريرةٍ بمـا أدَّخرتْ وما خَبَّتْ ؛ لقـد آضْطَرم سعيرٌ، إلا أنَّه فى الجَوانح ، لقد آضْطربَ منبرٌ وسريرٌ، لولا خَلَفُه الصالح ، لقد آضْطَرب مأمورٌ وأميرٌ، لولا الفِكْرُ بعْدَهُ فى عاقِبة المَصَـالح؛ لقد غاضَتِ البِحار ، لقد غابَتِ الأَنْوار، لقـد غالب البُـدُور ما يلْحَقُ الأهِـلَّةَ من المِحَاق ويُدْرِكُ البَـدْرَ من السِّرار؛ نُسِفتِ الجبالُ نَسْفا، وخبَتْ مَصابِيحُ النُّجوم وكادَتْ تُطْفىٰ : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . لقـد جَمعتِ الدنيـا أطرافَهَا وأزمَعَتْ علىٰ المَسير، وجُمِعت الأمَّةُ لهَوْل المَصِير، وزاغَتْ يومَ موْتِه الأبْصـار : ﴿ إنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِير ﴾ . وبقِيَت الألبابُ حَيارىٰ ، ووقفَتْ تارةً تُصَـدِّق وتارةً تُمارىٰ ؛ لا تعرِف قرَارا ، ولا علىٰ الأرضِ آستِقْرارا : ﴿ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيْءٌ عَظِيم يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عَمَّا أرضعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارىٰ وما هُمْ بِسُكَارىٰ ﴾ .

ولم يكن فى النَّسَب العباسىّ ولا فى جميع من فى الوُجُود، لا فى البيتِ المسترْشِدىِّ ولا فى غيره من بيوت الخلفاء من بَقايَا آباءٍ لهم وجُدُود ، ولا مَنْ تلِدُه أُخْرىٰ الليالى وهى عاقِرٌ غير وَلُود ؛ من تسَلِّمُ إليه أمّةُ محمد صلىٰ الله عليه وسلم عَقْدَ نِيَّاتها، وسِرَّ طوِيَّاتها ؛ إلا واحدٌ وأين ذلك الواحد ؟ هو والله من آنْحصَر فيه آستحقاقُ مِيراث آبائه الأطهار ، وتُراثِ أجداده ولا شيءَ هو إلا ما آشتمل عليـه رِداءُ الليل والنَّهار ؛ وهو آبنُ المنتقل إلىٰ ربِّه، وولدُ الإمام الذاهبِ لصُلْبـه؛ المجمَعُ علىٰ أنه فى الأنَام،

فردُ الأيَّام، وواحدٌ وهكذا فى الوُجود الإمام ؛ وأنه الحائزُ لمـا زُرِّرت عليه جُيوبُ المَشارِق والمَغارِب، والفائزُ بملك مابين الشارق والغارب ؛ الراقى فى صَفِيح السماء هذه الذِّرْوةَ المنِيفه، الباقى بعدَ الأئمةِ المـاضينَ رضى الله عنهم ونِعْم الخَلِيفه ؛ المجتمعُ فيه شروطُ الإمامه ، المتَّضع لله وهو من بيتٍ لا يزال المُلْك فيهـم إلىٰ يومِ القيامه ؛ الذى تَصفَّح السَّحابَ نائلُه ، والذى لا يغُرُّه عاذرُه ولا يُغَـيِّره عاذِلُه ؛ والذى :

تعوّدَ بَسْطَ الكفِّ حتَّى لو انَّه * ثَنَـاها لقَبْضٍ لم تُطِعْـه أنامِلُه

والذى :

لا هُوَ فى الدُّنْيـا مُضِـيعٌ نصيبَه * ولا وَرِقُ الدُّنْيا عن الدِّين شاغِلُه

والذى ما ٱرتقىٰ صَهْوة المِنْبَر بحضرة سلطانِ زمانِهِ إلَّا قال ناصرُه وقام قائمه ؛ ولا قعَـدَ علىٰ سرير الخلافة إلَّا وعُرِف بأنَّه ما خاب مستكْفِيه ولا غاب حاكِمُه ؛ نائبُ الله فى أرضه، والقائمُ بمَقام رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخليفتُه وٱبن عمِّه، وتابِـعُ عملِه الصالح ووارِثُ عِلْمه، سيدنا ومولانا عبدُالله ووليُّه «أحمد أبو العَبَّاس» الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، أيَّدَ الله تعالىٰ ببقائه الدِّين، وطوّق بسَيْفه [رقاب] المُلْحدين ، وكبتَ تحتَ لِوائِه المعتَـدِين ؛ وكتَب له النصرَ إلىٰ يوم الدين ؛ وكَفَّ بجِهَاده طوائفَ المُفْسدين، وأعاذَ به الأرضَ ممَّن لا يَدِين بِدِين ؛ وأعاد بعَدْله أيامَ آبائه الخلفاءِ الراشـدين والأئمة المَهْديين؛ الذين قضَوْا بالحق وبه كانُوا يَعْـدِلون، وعليه كانُوا يعمَلُون ؛ ونَصر أنصارَه، وقدَّر ٱقتِداره ؛ وأسكن فى قلوب الرعيَّة سكينتَه ووَقَارَه ، ومكَّن له فى الوُجُود وجمعَ له أقْطارَه .

ولمَّـا ٱنتقل إلىٰ الله ذٰلك السيدُ ولَحِق بدار الحقِّ أسْلافَه، ونُقِل إلىٰ سرير الجنة عن سَرير الخلَافه ؛ وخَلَا العصْرُ من إمامٍ يُمْسِـك ما بقىَ من نَهاره ، وخليفة يُغالب

مُرْبَدَّ الليل بأنْواره ، ووارثِ بنى بمثله ومثلِ أبيه آستغنىٰ الوجُود بعد ابن عمه خاتَم الأنبياء صلّى الله عليه وسلم عن نبيٍّ مقتَفٍ علىٰ آثارِه؛ ونَسِيَ ولم يعْهَدْ فلم يبق إذ لم يُوجَد النصُّ إلّا الإجماع ، وعليه كانت الخلافةُ بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نِزَاع ، آقتضتِ المصلحةُ الجامعةُ عَقْدَ مجلسٍ كلُّ طَرْف به معْقُود ، وعَقْدَ بيعةٍ عليها اللهُ والملائكةُ شهُود ، وجُمِـع النـاسُ له ﴿ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له الناسُ وذٰلِكَ يومٌ مَشْهُود ﴾ . فحَضَرمن لم يُعبأ بعده بمن تخَلَّف، ولم يُرْبأْ[1] معـه وقد مدّ يدَه طائعا بمن مَدَّها وقد تكَلَّف ؛ وآجتمعُوا علىٰ رأيٍ واحدٍ وآستخارُوا الله تعالىٰ فيه فخَـار ، وناهيكَ بذٰلك من مُخْتار ؛ وأُخذتْ يمينٌ تُمَـدُّ إليها الأَيْمـان ، ويُشَدّ بها الإيمـان ؛ وتعطىٰ عليها المَوَاثيق ، وتُعرَض أمانتُهـا علىٰ كلِّ فريق ؛ حتّى تقـلَّد كلُّ من حضر فى عُنُقه هـذه الأمانَهْ ، وحطَّ يدَه علىٰ المصـحف الكريم وحَلَفَ بالله العظيم وأتَمَّ أيمـانَه ؛ ولم يَقْطَع ولم يستثْن ولم يتردَّد ، ومن قَطَع من غير قصدٍ أعاد وجَدّد ؛ وقد نَوىٰ كلُّ مَنْ حلف أنَّ النيةَ فى يمينه نيّةُ من عُقِدت هذه البيعةُ له ونيةُ من حَلَفَ له ، وتذمَّم بالوفاء فى ذمَّته وتكفَّله ؛ علىٰ عادةِ أيمـان البيعة بشُروطها وأحكامِها المردَّده ، وأقسامِها المؤكَّده ؛ بأن يبذُل لهذا الإمام المفترضة طاعتُه الطاعه ، ولايُفارقَ الجمهورَ ولا يُظْهِرَ عن الجماعة آنْجِاعَه ؛ وغير ذٰلك ممـا تضمَّنته نُسَخُ الأيمـان المكتتبُ فيها أسمـاءُ من حلف عليها ممـا هو مكتوبٌ بخُطوط من يكتُب منهم ، وخطوط العُدُول الثِّقات عَمَّن لم يكْتُبْ وأذنوا لمن يكتب عنهم ؛ حسَبَ مايشْهَدُ به بعضُهم علىٰ بعض ، ويتصادقُ عليـه أهلُ السماء والأرض ؛ بيعةٌ تمَّ بمشيئة الله تمـامُها ، وعَمَّ بالصَّوْب الغَدَق غَمامُها ؛ ﴿ وقالوا الحمدُ لِلهِ الذى أذْهَبَ عنَّا الحَزَن ﴾ . ووهبَ لنا الحسَن ؛ ثم الحمدُ لله الكافى عبْـدَه ، الوافِى وَعْدَه ، المُوافى لمن يُضاعِفُ علىٰ كل

---

(١) أى لم يبال به ولم يكترث . انظر اللسان والقاموس .

مَوْهِبة حَمْدَه، ثم الحمدُ لله علىٰ نِعمٍ يرغَبُ أميرُ المؤمنين فى آزْدِيادها، ويرهَبُ إلّا أن يقاتِلَ أعداءَ الله بأمْدادها ؛ ويرْأَبُ بها ماآثر فيما أثر ممــاليكه (؟) مابانَ من مُباينةِ أضــدادِها .

نحمُده والحمد لله، ثم الحمدُ لله كلمةً لا نَمَلُّ من تَرْدادها، ولا نَبْخَل بمــا يُفوِّق السِّهامَ من سَدَادها، ولا نَظلُّ إلّا علىٰ مايوجب كثرةَ أعْدادِها، وتيسيرِ إقرار علىٰ أورادِها ؛ ونشهدُ أنْ لاإلٰه إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتقايسُ دَمُ الشهداء ومَدُّ مِدادها، وتَتَنافَسُ طُرَرُ الشَّــباب وغُرَرُ السَّحاب علىٰ آستمدادها ؛ وتجانَسُ رُقومُها المدَبَّجــة وما تلْبَسه الدولةُ العباسيَّة من شِعَارها، والليالى من دِثَارِها، والأعداءُ من حِدَادها؛ ونشهدُ أنَّ ســيدنا محمدا عبدُه ورسولُه صلَّى الله عليه وســلم وعلىٰ جماعةِ آلِهِ مَنْ سَفَل من أبنائها ومن ســلَف من أجدادِها ؛ ورضى اللهُ عن الصحابة أجمعين ، والتابعين لهم باحسانٍ إلىٰ يوم الدين .

وبعــدُ، فإنَّ أميرَ المؤمنين لِمَــا أكْسبه الله تعالىٰ من مِيراث النُّبوّة ما كان لجَدّه، ووَهَبه من الملك السُّلَيْمانىّ عن أبيه مالا ينْبغي لأحدٍ من بعده ؛ وعَلَّمه مَنْطِقَ الطيرِ بمــا تَحمَّلُه حمائمُ البطائقِ من بَدائع البيــان ، وسَخَّر له من البَرِيد علىٰ مُتُون الخيــل ماسَخَّر من الرِّيح لسليمان؛ وآتاه من خاتَم الأنبيــاء ماأمدّه به أبُوه ســليمان وتَصَرَّف، وأعطاه من الفَخَار ماأطاعه به كلُّ مخلوق ولم يَتخَلَّف؛ وجعل له من لِبَاس بنى العَبَّاس مايقضِى له سوادُه بسُؤْدَد الأجداد، وينفُضُ علىٰ كَحَل الهُدْب مافضَل عن سُوَيْداء القلب وسَوَاد البصر من السَّواد؛ ويَمُدُّ ظِلَّه علىٰ الأرض فكلُّ مَكانٍ حَلَّه دارُ مُلْك وكلُّ مدينــةٍ بَغْداد ؛ وهو فى لَيْــله السَّجَّاد، وفى نهــاره العَسْكرِىُّ وفى كرمه جَعْفَر الجَوَاد ــ يُدِيم الآبتهالَ إلىٰ الله تعالىٰ فى توفيقه، والآبتهاجَ بما يُغصُّ كلَّ عدُوٍّ بريقه؛ ويَبْدَأ يومَ هذه المُبايعةِ بما هو الأهَمُّ من مَصَالح الإسلام، وصالح الأعمال ممــا يتحَلَّى

به الإمام، ويُقدِّمُ التقوىٰ أمامَه ، ويقْرُن عليها أحكامَه ؛ ويتّبع الشرعَ الشريفَ ويَقف عنده ويُوقِفُ الناس، ومَنْ لايحْمِلُ أمرَه طائعًا علىٰ العين حملَهُ بالسَّيف غَضْبا علىٰ الرَّاس ؛ ويعجِّلُ أميرُ المؤمنين بما يَشْفِي به النُّفوس، ويُزِيل به كَيْدَ الشيطان إنه يَئُوس ، ويأخُذُ بقلوب الرَّعايا وهو غنيٌّ عن هذا ولٰكِنْ يَسُوس ؛ وأميرُ المؤمنين يُشْهِد الله وخليقَتَه عليه أنه أقرَّ كلَّ آمْرِئٍ من وُلاة الأمور الإسلاميَّة علىٰ حاله ، وآستَمَرَّ به فى مَقِيله تحتَ كَنَف ظِلَاله ؛ علىٰ آختِلاف طبَقَات وُلَاة الأمور، وتفرُّقِهم فى الممالك والثُّغُور ؛ برًّا وبَحْرا، سَهْلا ووَعْرا، وشَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا، وكُلَّ جليلٍ وحَقِير، وقَليلٍ وكثِير ؛ وصَغير وكبِير، ومَلِك ومملُوك وأمير،وجُنْدِيٍّ يَبْرُق له سيْفٌ شَهِير،ورُمْحٌ طَرِير؛ ومَنْ معَ هٰؤلاء من وُزَراءَ وقضاةٍ وكُتَّاب ، ومَنْ له يدٌ تبقىٰ فى إنشاءٍ وتحقيقِ حِساب ؛ ومَنْ يتحدَّثُ فى بَرِيد وخَرَاج، ومن يُحتاجُ إليه ومن لا يُحْتَاج ؛ ومَنْ فى الدُّروس والمَدَارس والرُّبُط والزَّوَايا والخَوَانق، ومَنْ له أعظَمُ التعلُّقات وأدْنىٰ العلائق؛ وسائرَ أربابِ المراتب، وأصْحابِ الرَّواتب؛ ومَنْ له فى مال الله رِزْقٌ مقْسوم، وحقٌّ مجهولٌ أو معْلُوم ؛ وآستِمْرارَ كلِّ أمْرٍ علىٰ ماهو عليه ، حتّىٰ يستخيرَ اللهَ ويتبيَّنَ له مابين يدَيْه ؛ فما زاد تأهيلُه ، زاد تفضيلُه ؛ وإلَّا فأميرُ المؤمنين لايُرِيد سِوىٰ وجْهِ الله، ولا يُحابِى أحدًا فى دِين، ولا يُحامى [عن] أحد فى حقّ ؛ فإن المُحاماةَ فى الحقِّ مداجاةٌ علىٰ المسلمين ؛ وكلُّ ما هو مستمِرٌّ إلىٰ الآنَ، مستقِرٌّ علىٰ حُكْم الله مما فَهَّمه الله له وفَهَّمه سليمانَ ، لا يغيرُ أميرُ المؤمنين فى ذٰلك ولا فى بعضه ، معتبر مستمرٌّ بما شكَرَ اللهَ علىٰ نعمه وهكذا يُجازِىْ من شَكَر ، ولا يكدِّر علىٰ أحدٍ موْرِدا نَزَّهَ اللهُ به نِعمَه الصافيةَ عن الكَدَر، ولا يتأوَّلُ فى ذٰلك متأوِّلٌ ولا من بَخَر النعمةَ أو كَفَر، ولا يتعلَّل متعلِّل فإنَّ أميرَ المؤمنين يعُوذُ بالله ويُعيذ أيَّامه من الغيَر؛ وأمَرَ أميرُ المؤمنين ـ أعلىٰ اللهُ أمرَه ـ

أن يُعْلِنَ الخطبـاءُ بذكرِه وذكرِ سـلطان زمانه علىٰ المنَـابر فى الآفاق، وأن تُضْرَب باسمهما النُّقُودُ المتعامَلُ بها علىٰ الإطْلاق ؛ ويُبْتَهج بالدعاء لهما عطْف الليل والنهار، ويُصَرَّحَ منه بمـا يُشْرق به وجهُ الدِّرْهم والدِّينار؛ وتُباهى به المنابرُ ودورُ الضرب : هاتيك ترفَعُ آسمهما علىٰ أسرَّة مُهُودها، وهذه علىٰ أساريرِ نُقُودها؛ وهذه تقامُ بسببها الصَّلاة، وتلك تُدامُ بها الصِّلات؛ وكِلاهما تُستمالُ به القلوب، ولا يُلام علىٰ ماتَعِيه الآذانُ وتُوعِيه الجُيُوب؛ وما منهما إلَّا من تُحَدِّق بجواره الأحْداق، وتميلُ إليه الأعناق؛ وتُبْلَغ به المقاصد، ويقْوىٰ بهما المُعاضِد؛ وكلاهمـا أمرُه مطاعٌ، من غير نزاع ، وإذا لمعَتْ أزِمَّةُ الخُطَب طار للذَّهب شُـعَاع ؛ ولولاهمـا ما آجتمع جمعٌ ولا آنضمّ، ولا عرفَ الأنَامُ بمَنْ تأتَمّ ؛ فالخُطَب والذهبُ معناهمـا واحد، وبهما يذكُر اللهَ قُيَاءُ(١) المساجِد؛ ولَوْلا الأعمال، مابُذلت الأَمْوال، ولوْلا الأموال، ماوُلِّيت الأعمال؛ ولأَجْل ما بينهما من هذه النِّسبه، قيل إنَّ الملِكَ له السِّكَّة والخُطْبه؛ وقد أسمع أميرُ المؤمنين فى هذا الجمع المشْهُود مايتناقَلُه كلُّ خطِيب ، ويتداوَلُه كلُّ بعيد وقريب ، وإنَّ الله أمر بأوامر ونهىٰ عن نَواهٍ وهو رقِيب ؛ وتستفْزِعُ الأولياءُ لهـا السَّجايا،وتتضَرَّعُ الخطباءُ فيها بنُعوت الوَصَايا؛ وتكَمِّلُ بها المَزَايا، ويتكلَّم بها الواعظُ ويُخْرِج من المشايخ الخَبَايا من الزَّوايا ؛ وتَسْـمُرُ بها السُّمَّار ويترنَّم الحادِى والمَلَّاح، ويُروق شَجْوُها فى الليل المُقْمِر ويُرقَمُ علىٰ جَنْب الصَّـباح ؛ وتُعَطِّر بها مكةُ بِطْحاءَها وتحيا بحديثها قُباه ، ويلقِّنُها كلُّ أبٍ فَهْم آبنِه ويسأل كلَّ آبنٍ أن يُجِيب أباه ؛ وهو لكم أيُّها الناسُ من أمير المؤمنين رُشْـد وعليكم بيِّنه ، وإليكم مادعَاكُمْ به إلىٰ سبيل ربِّه من الحِكْمة والمَوْعِظة الحَسَنه؛ ولأمير المؤمنين عليكم الطاعةُ ولولا قيامُ الرَّعايا بها ما قَبِل اللهُ أعمالها ، ولا أمسَكَ بها البحر ودحا الأرْضَ وأرْسىٰ جبالَهَا ؛ ولا آتفقتِ

---

(١) كذا ضبط فى بعض النسخ ولعل الصواب قيَّام ، أوقوام . تأمل .

الآراءُ علىٰ من يستحق وجاءتْ إليه الخلافةُ تجرّ أذيالَها ، وأخذها دُونَ بنِي أبيه ولم تكُنْ تصلُح إلَّا له ولم يكُنْ يصْلُح إلَّا لها ؛ وقد كفَاكم أميرُ المؤمنين السُّؤال بما فَتَح لكم من أبواب الأرزاق ، وأسبابِ الاْرتِفاق ؛ وأحسن لكم علىٰ وِفاقكم وعَلَّمكم مَكارِمَ الأخْلاق ، وأجراكم علىٰ عوائِدِكم ولم يُمْسِكْ خَشْيةَ الإمْلاق ؛ ولم يَبْقَ علىٰ أمير المؤمنين إلَّا أن يسِيرَ فيكم بكتابِ اللهِ وسنةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلم ، ويعمَلَ بما ينتفِعُ به مَنْ يجيء ـ أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ من بعده ، ويَزِيدَ علىٰ كل من تقدَّمَ ، ويُقِيمَ فروضَ الحج والجهاد ، ويُنِيمَ الرعايا بعَدْله الشامل فى مِهَاد ؛ وأمير المؤمنين يُقِيمُ علىٰ عباده مَوْسِمَ الحجِّ فى كل عام ، ويشمَلُ سُكَّان الحرمين الشريفين وسَدَنةَ بيتِ الله الحرام ؛ ويجهِّزُ السبيل علىٰ عادته ويرجُو أن يعُودَ إلىٰ حاله الأوَّل فى سالف الأيَّام ، ويتدَفَّقَ فى هذين المسْجِدين بحرُه الزاخر ويُرسِلَ إلىٰ ثالثهما البيتِ المقدَّس ساكِبَ الغمام ؛ ويقُومَ بقَوَمة قُبُور الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ أينَ كانُوا وأكثَرُهم فى الشام ؛ والجُمعُ والجماعاتُ هى فيكم علىٰ قَدِيم سُنَنِها ، وقَوِيم سَنَنِها ؛ وستَزِيدُ فى أيَّام أمير المؤمنين بمن آنضمَّ إليه ، وبما يتسلَّمُه من بلاد الكُفَّار ويُسْلِم علىٰ يديه .

وأمَّا الجِهَاد ، فيكْتفِي بآجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بأُمُوره ، المقلَّدِ عنه جميعَ ماوراء سَرِيرِه ؛ وأمير المؤمنين قد وَكَل إليه ـ خلد الله سلطانه ـ عَناءَ الأيَّام ، وقلَّده سيفَه الراعب بَوارِقُه ليَسُلَّه واجدُه علىٰ الأعداء [وإلَّا] سَلَّ خيَالُه عليهم فى الأحْلام ؛ ويؤكِّد أمير المؤمنين فى آرتجاع ماغلَب عليه العِدا ، وآنتزاع [ما بأ] يْدِيهم من بلاد الإسلام فإنَّه حَقُّه وإنْ طال عليه المَدىٰ ؛ وقد قدّم الوصية بأنْ يُوالِي غزْوَ العَدُوّ المخذول بَرًّا وبحرا ، ولا يكُفَّ عمَّن يَظْفَر به منهم قَتْلا وأسْرا ، ولا يَفُكَّ أغلالا ولا إصْرا ؛ ولا يَنْفَكّ يرسل عليهم فى البحر غِرْبانا ، وفى البرِّ من الخيل عقْبانا ؛ يحْمل

فيهما كلَّ فارسٍ صَقْرا، ويحمِى الممالكَ ممن يحوزُ أطرافها بإقدام، ويَتَخَوَّلُ أكنافَهَا الأقْدام ؛ وينظُر فى مصالحِ القِلَاع والحُصُون والثُّغور، وما يُحتاج إليـه من آلاتِ القِتَال، وما تُجْتاح به الأعداءُ ويعجِزُ عنه المُحْتال، وأُمَّهاتِ الممـالك التى هى مَرَابِطُ البُنُود، ومَرَابِضُ الأُسُود، والجَنَاحُ الممدود ؛ ويتفقَّدُ أحوالَهُمْ بالعَرْض، بمـا لهم من خَيْلٍ تعْقِد [بالعجاج] ما بين السماء والأرض ؛ ومالهم من زَرَدٍ مصُون، وبَيْضٍ مَسَّها ذائبُ ذهبٍ فكانتْ كأنَّها بَيْضٌ مكْنون ؛ وسيوفٍ قَوَاضِب، ورِماحٍ لكثْرة طعنِها من الدِّماء خَوَاضِب، وسِهام تُواصِـل القِسِىَّ وتفارقُها فتحِنُّ حنِينَ مفـارقٍ وتُزْجِرُ القوس زجْرةَ مُغاضِب.

وهـذه جملةٌ أرادَ أميرُ المؤمنيـن بهـا تَطْييبَ قلوبِكم، وإطالةَ ذَيْل التطويلِ علىٰ مطْلوبكم ؛ وماؤكم وأموالُكم وأعراضُكم فى حِمَـايةٍ إلا ماأباح الشرعُ المطَهَّر، ومَزِيدُ الإحسان إليكم علىٰ مِقْدار مايخفىٰ منكم ويظْهر.

وأما جُزْئِيَّات الأمور، فقد علِمْتم بأنَّ فِيمن تقلَّد عن أمير المؤمنين غِنًى عن مثل هـذه الذِّكْرىٰ، وفتىٰ حقٍّ لا يَشْـغَل بطلب شىءٍ فكرا ؛ وفى وُلَاة الأمور، ورُعاة الجُمْهور ؛ ومَنْ هو سَداد عمله، ومِدَادُ أمـله، ومُرادُ من هو منكم معشر الرعايا من قِبَله ؛ وأنتم علىٰ تَفاوُتِ مقادِيرِكم وديعةُ أمير المؤمنين ومَنْ خَوَّلكم وأنتم وهم فمـا مِنْكم إلَّا من ٱسـتعرف أمير المؤمنين وتمشى فى مَراضى الله علىٰ خُلُقه، وينظر ما هو عليه ويسير بسـيرته المُثْلىٰ فى طاعة الله فى خلقه ؛ وكُلُّكم سواء فى الحق عند أمير المؤمنين وله عليـكم أداءُ النَّصيحه، وإبداء الطاعة بسَريرةٍ صحيحه ؛ وقد دخل كلٌّ منكم فى كَنَف أمير المؤمنيـن وتحت رأْفتِـه، ولزِمَ حُكْمَ بيعته ؛ وأُلْزِم طائِرَه فى عُنُقه، ويستعمل كلٌّ منـكم فى الوفاء ما أصبحَ به عليما : ﴿ ومَنْ أَوْفىٰ بمـا عاهَدَ عليهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرا عظيما ﴾ .

هذا قولُ أميرِ المؤمنين، وعلىٰ هذا عُهِد إليه وبه يَعْهَد، وماسوىٰ هذا فهو بُخُور لا يُشْهَد به عليه ولا يَشْهَد؛ وهو يعملُ فى ذلك كلِّه ما تُحْمَد عاقبتُه من الأعمال، ويَحمِلُ منه ما يصْلُح به الحال والمآل؛ وأميرُ المؤمنين يستغفرُ اللهَ علىٰ كل حال، ويستعيذُ بالله من الإهمال؛ ويَختِمُ أميرُ المؤمنين قولَه بما أمر اللهُ به من العدل والإحسان، ويَحمَدُ الله وهو من الخلق «أحمَد» وقد آتاه اللهُ مُلْكَ سليمان؛ والله تعالىٰ يمتِّع أميرَ المؤمنين بما وَهَبه، ويملِّكه أقطارَ الأرض ويُورِثه بعد العُمُر الطويل عقِبَه؛ ولا يزال علىٰ أَسِرَّة العَلْياء قُعودُه، ولباسُ الخلافة به أبَّهة الجلالة كأنَّه ماءات منصورُه ولا رَدى مَهْدِيُّه ولا ذهب رَشِيدُه (١).

المقصد السادس

(فيما يكتب فى آخر البَيْعة)

إذا انتهىٰ إلىٰ آخر البَيْعة، شرع فى كتابة الخَواتم علىٰ ما تقدّم، فيكتُب: "إن شاء الله تعالىٰ" ثم يكتب التاريخ. ثم الذى يقتضيه قياسُ العُهُود أنه يكتب المستَنَد عن الخليفة فيكتب «بالإذنِ العالى المولَوِىّ الإمامىّ النبوىّ المتوكِّلىّ - مثلا - أعلاه الله تعالىٰ» وكأنَّ الخليفة الذى عُقدت له البيعةُ هو الذى أذِن فى كتابتها.

قلت: ولو أُسقِط المستَنَد فى البيعات فلا حرج بخلاف العُهُود: لأنها صادرة عن مُولٍّ وهو العاهد، فحُسن إضافة المستَنَد إليه، بخلاف البيعة فإنها إنما تصْدُر عن أهل الحَلّ والعَقْد كما تقدّم. ويُكتفىٰ فى المستَنَد عنهم بكتابة خُطُوطهم فى آخر

---

(١) هذه المعاهدة من قلم القاضى الفاضل ليست لابسة حلل بلاغته ولا متسربلة جلابيب فصاحته فهى تجربة لم تنقح ومسودّة لم تصحح كما أشار إليه ابن ناظر الجيوش فليتنبه .

البيعة كما سيأتى ؛ ثم بعـد كتابة المستَنَد ـ إن كُتِب ـ تُكتَب الحمدلةُ والصلاةُ علىٰ النبيّ صلىٰ الله عليه وسـلم والحَسْبلة ، علىٰ ماتقـدّم فى الكلام علىٰ الفَوَاتح والخَوَاتم فى مقدّمة الكتاب .

ثم يكْتُب مَنْ بايع من أهل الحلّ والعقْد والشهود علىٰ البَيْعة .

فأما منْ تَوَلَّى عقْـدَ البيعة من أهل الحلّ والعقْد فيكتب : « بايعتُه علىٰ ذٰلك ، وكتب فلانُ بنُ فلان» ويدعو فى خلال ذٰلك قبل ٱسمه بمـا يناسب : مثل أن يقال « بايعتُـه علىٰ ذٰلك قدّس الله خلافَتَه » أو « زاد الله فى شَرَفه » أو « زاد الله فى ٱعْتِلائه» وما أشبه ذٰلك .

وأما الشهود علىٰ البَيْعة فالواجب أن يكتُب كلُّ منهـم : «حضَرْتُ جَرَيانَ عقد البَيْعـة المذكورة، وكتب فلانُ بنُ فلان» كما يكتب الشاهد بجَرَيان عقْـدِ النكاح ونحوه؛ ولا بأس أن يدعُوَ فى رسم شهادته قبل كتابة ٱسمه بما يناسب : مثل « قرَنَها اللهُ تعالىٰ باليُمْن أو بالسداد » أو « عَرَّف الله المسلمين برَكَتها » وما أشبه ذٰلك .

المقصـــــد السابع

(فى قَطْع الورق الذى تُكتَب فيه البيعةُ ، والقلمِ الذى تُكتَب به ، وكيفيَّـــةِ كتابتها ، وصورةِ وضْـــعها)

وٱعلم أنَّ البَيْعاتِ لم تكن متدَاوَلةَ الٱستعمال لقلّة وُقُوعها، فلم يكن لها قَطْع ورق، ولا تصويرٌ متعارَفٌ فيتبع؛ ولٰكنه يُؤْخَذ فيها بالقياس وعمومِ الألفاظ .

فأمّا قَطْع ورَقها، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنيّ فى كتاب "القَلَم والدَّواة" أنّ قطع البغدادىّ الكامل للخُلَفاء والمُلُوك . ومقتضىٰ

ذٰلك أنّ البيعات تُكتَب فيه ، وهو قياسُ ماذكره المقرّ الشّهابىّ بنُ فضل الله فى " التعريف " من أنّ للعهود قطْعَ البغدادىّ الكامل علىٰ ماسيأتى ذكره .

قلت : لٰكن سيأتى فى الكلام علىٰ عُهود الخلفاء أنهـا الآنَ قد صارتْ تكتَبُ فى قطع الشامى الكامِل ، وبينَهُما فى العَرْض والطُّول بَوْن كبير علىٰ ما تقـدّم بيانُه فى الكلام علىٰ قَطْع الورق ؛ وحينئذٍ فينبَغِى أن تكونَ كتابةُ البَيْعات فى قَطْع الشامىّ مناسبةً لمـا تُكتَبُ فيه عهودُ الخلفاء الآنَ .

وأمّا القلم الذى يُكتب به فبحَسَب الورق الذى يُكتَب فيه : فإن كُتبتِ البيعةُ فى قطع البَغْدادىّ، كانت الكتابةُ بقلَمِ مختصَر الطُّومار إذْ هو المناسبُ له ؛ وإن كُتِبتْ فى قطع الشامىّ، كانت الكتابَةُ بقلَمِ الثلُث الثقيلِ إذ هو المناسبُ له .

وأما كيفيّة الكتابة وصورةُ وضعها، فقياسُ ماهو متدَاوَل فى كتابة العُهُود وغيرِها، أنه يبتدأُ بكتابة الطُّرّة فى أوّل الدَّرْج بالقلم الذى تُكتَب به البيعةُ سُطورا متلاصقةً لا خُلُوَّ بينها ، ممتـدّةً فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلىٰ آخره من غير هامشٍ . ثم إن كانت الكتابة فى قطع البغدادىّ الكامِل ، جرىٰ فيه علىٰ القاعدة المتداوَلَة فى عُهُود الملوك عن الخلفاء علىٰ ماسـيأتى ذكره؛ ويتْرُكُ بعد الوصـل الذى فيه الطُّرّةُ سـتة أوصال بياضًا من غير كتابة : لتصيير بوصل الطرّة سبعةَ أوصال؛ ثم يكتُب البسملة فى أوّل الوصـل الثـامن بحيث تكون أعالى ألِفاته تكاد تلحقُ الوصـل الذى فَوْقه بهامشٍ عريضٍ عن يمينـه قدرَ أربعة أصابعَ أو خمسـةٍ مطبوقةً؛ ثم يكتُب تحتَ البسملة سـطرا من أوّل البيعة ملاصقًا لهـا ؛ ثم يخلِّى مكانَ بيت العلامة قدرَ شبر جَرْيا علىٰ قاعدة العُهُود وإن لم تكن علامةٌ تُكتب، كما يخلّى بيتُ العلامة فى بعض المكاتبات ولا يكتَبُ فيـه شيء ؛ ثم يكتب السطر الثانى تحت بيت العلامة علىٰ

سَمْت السـطر الذى تحتَ البسملة فى بقيَّـة الوصل الذى فيـه البسملةُ ؛ ويحْرِص أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى أثناء السطر الأوّل أو الثانى ؛ ثم يسترسل فى كتابة بقيَّـة البيعة ويجعل بين كل سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش كما سـيأتى فى العهود ؛ ويستصْحِب ذٰلك إلىٰ آخر البيعـةِ ، فإذا ٱنتهىٰ إلىٰ آخرها كـتب "إن شاء الله تعالىٰ" ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحَمْدلةَ والصلاةَ علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والحَسْبلةَ ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفواتح والخواتم فى مقـدّمة الكتاب ؛ ثم يكْتُبُ من بايعَ من أهل الحَلِّ والعقد خُطوطَهم ، ثم الشهودُ علىٰ البيعة بعدهم .

وإن كانت الكتابة فى القطع الشامىّ ، فينبغى أن ينقُصَ عددُ أوصـال البياض الذى بين الطرَّة والبسملة وصلين فتكون خمسة ، وينقص الهامش فيكون قدْرَ ثلاثة أصابع علىٰ ما يقتضيه قانونُ الكتابة .

وهذه صورة وضعه فى الورق ممثّلا لهـا بالطرَّة التى أنشأتُها لذٰلك ، والبيعة الثانية من البيعتين اللتين أنشأتُهما

بياض بأعلىٰ الدرج بقـــدر إصـــبع

الطرة

هذه بَيْعةٌ ميمُونه ، باليُمْن مبتَدَاة بالسـعد مَقْرونه ؛ لمولانا السـيدِ الجليل الإمام النبوىّ المتوكّل علىٰ الله أبى عبـدِ الله محمدٍ أمير المؤمنين ، ٱبن الإمام المعتضِـدِ بالله أبى الفتح أبى بكْر العبَّاسىّ : زاد اللهُ تعالىٰ شرفَه علُوّا ، وفخاره سُمُوّا . قام بعَـقْدها السلطانُ السيدُ الأعظم ، والشاهنشاه المعظَّم ، الملكُ الظاهر أبو سعيد برقُوق ، خلَّد الله تعالىٰ سـلطانَه ، ونصر جُيُوشَه وأعوانه ؛ بمجمَعٍ من أهـل الحَلّ والعَقْد ، والاعتِبار والنقد : من القُضَاة والعلماء والأمراء ، ووجوه الناس والوزراء والصُّلَحاء والنُّصَحاء ؛ وإمضائها علىٰ السَّداد ، والنُّجْح والرشاد . علىٰ ماشرح فيه

ابتداء العرض

ابتداء العرض

بياض ستة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمدُ لله الذى جعلَ بيتَ الخلافة مَثابةً للناس وأمْنا . وأقام

بيت العلامة

تقدير شبر

سُورَ الإمامة وِقَايةً للأنام وحِصْنا ، وشدّ منها بالعِصَابة

تقدير ربع ذراع

القُرشِيَّة أزْرا وشاد منها بالعُصْبة العبَّاسيّة رُكْنا . وأغاث

تقدير ربع ذراع

الخلقَ بإمامٍ هُدًى حَسُن سِيرةً وصَفَا سريرةً فراقَ صورةً ورقَّ معنى .

ثم يأتى على الكلام إلى آخر البيعة على هذا النَّمط إلى أن ينتهِىَ إلى

قوله : والله تعالى يجعَلُ انتقالهم من أدْنى إلى أعلى ومن يُسْرى إلى يمنى ،

ويحقِّق لهم بمن استخلَفَه عليهم وعْدَه الصادقَ بقوله تعالى : ﴿ وعَدَ اللهُ

هامش

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

إن شاء الله تعالىٰ

كتب فى الثانى من جمادىٰ الأولىٰ مثـلا

سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة

بالإذن العالى المولوى الإمامى النبوى المتوكلى مثـلا

أعـــلاه الله تعالى

الحمدُ لله وحدَه ، وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبِه وسلامُه

حسبُنا اللهُ ونِعم الوكيل

صورة خط المبايعين للخليفة من أهل الحل والعقد

بايعته علىٰ ذلك	بايعته علىٰ ذلك	بايعته علىٰ ذلك
قدّس الله تعالىٰ خلافته	زاد الله تعالىٰ فى شرفه	زاد الله تعالىٰ فى آعتلائه
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

صورة خط الشهود على البيعة

حضرت	حضرت	حضرت
جَرَيان عقد	جَرَيان عقد	جَرَيان عقد
البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة
قرنَهـــا الله تعالىٰ	قـــرَنَها الله تعالىٰ	عَرَّف اللهُ المسلمين
باليُمْن والبركة	بالسَّـــداد	بركتَهَـــا
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

النـــوع الثـانى
(من البَيْعات ، بيعاتُ المـــلوك)

وآعلم أنَّ المقرّ الشّهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "التعريف" : أنَّ مَنْ قام من الملوك بغير عهد ممن قَبْـله لم تجر العادةُ بأن تُكتَب لهم مبايعةٌ ؛ وكأنّه يريد آصطلاحَ بلاد المَشْرِقِ والديار المِصْرية ؛ أما بلادُ المغرب فقد جرتْ عادة مصطَلَحهم بكتابة البَيْعات لملُوكهم ، وذٰلك أنه ليس عندهم خليفةٌ يَدِينون له ، يتقلَّدون المُلْكَ بالعـهد منه . بل جُلُّهم أو كلُّهم يدَّعى الخلافةَ فهم يكتُبون البيعاتِ لهذا المعنىٰ .

وهذه نسخةُ بيعةٍ من هـذا النوع ، كُتِب بها للسـلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان أبى الحَجَّاج بن نَصْر بن الأحمر الأنصارىّ ، صاحبِ حمراء غَرْناطةَ من الأندَلُس ، مفتتحةٌ بخُطبة علىٰ قاعدتهم فى بَيْعات الخلفاء علىٰ ماتقدّم ذكره ؛ وربما تكرَّر الحمدُ فيها دلالةً علىٰ عِظَم النعمة . من إنشاء الوزير أبى عبدالله محمدِ بنِ الخطيب صاحب ديوان إنشائه ، علىٰ مارأيتُه فى ديوان ترسُّله ، وهى :

الحمدُ لله الذى جلّ شانا، وعزّ سُلطانا ؛ وأقام علىٰ رُبُوبيّته الواجبةِ فى كلّ شىء خَلَقه بُرهانا، الواجبِ الوجودِ ضرورةً إذ كان وُجودُ ماسواه إمكانا؛ الحىِّ القيُّومِ حياةً أبديّةً سَرْمديّةً منزّهة عن الابتداء والانتهاء [فلا تَعْرِف وقْتا ولا تستَدْعِى زمانا؛ العليم الذى يعْلَمَ السِّرَّ وأخفىٰ[1]] فلا يعزُبُ عن عِلْمه مِثقالُ ذَرّة فى الأرض ولا فى السماء إلّا أحاط بها عِلْما وأدركها عِيانا؛ القديرِ الذى ألْقتِ الموجُوداتُ كلُّها إلىٰ عَظَمتـه يَدَ الخُضُوع آستِسْلاما له وإذْعانا . المُريدِ الذى بمشيئته تصريفُ الأقدار، وآختلافُ الليلِ والنّهار ، فإن منع مَنَع عَدْلا وإن مَنَح مَنَح إحسانا ؛ شَهِد تداوُلُ المُلوك بدَوَام مُلْكه ودلّ حدُوثُ ماسواه علىٰ قِدَمه ، وأثنتْ ألْسِنَةُ الحىّ والجمادِ علىٰ مَواهبه وقِسَمه ، وفاضَ علىٰ عَوَالم السماء والأرض بحرُ جُوده العميم النَّوال من قَبْل السؤال وكَرمه ، وإنْ مِنْ شَىْء إلا يُسبِّح بحمده ويُثْنِى علىٰ نِعَمه سرا وإعلانا . فهو اللهُ الذى لاإلٰهَ إلّا هو ليس فى الوجود إلّا فعلُه ، ألَا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ وإليه يَرْجِعُ الأمْرُ كُلُّه، وَسِعَ الأكوانَ علىٰ تباينها فَضْلُه ، وقَدَّر المواهِبَ والمقاسِمَ عدلُه ، مَنْعا ومَنْحا وزيادةً ونُقصانا .

والحمدُ لله الذى بيده الآختراعُ والإنشاء ، مالكِ الملك يُؤتِى المُلْكَ مَنْ يَشَاء ويَنْزِع الملك ممَّن يَشَاء، سبَقَ فى مكنُون غيبه القَضاء، وخَفِيتْ عن خلقه الأسبابُ وعَمِيتْ عليهم الأنباء، وعجَزتْ عقولُهم أن تُدْرِك منها كُنْهًا أو تكْشِف منها بيَانا .

والحمدُ لله الذى رفَعَ قُبّة السماء ما آتّخذ لها عِمَادا ، وجعل الأرضَ فِراشًا ومِهَادا، وخلق الجبالَ الراسِيَةَ أوْتادا ، ورتّب أوضاعَها أجنـاسا متفاضلة، وأنواعًا متباينةً مُتقابِلة : حَيوَانًا ونباتًا وجمادًا ؛ وأقام فيها علىٰ حكمة الإبداع دلائلَ باهرةَ الشُّعَاع

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب لابن الخطيب (ص ٤٨ ج ١) .

وأشهادا ، وجعل الليل والنهار خلفة والشمس والقمر حسبانا . وقدّر السياسة سياجا لعالم الإنسان يضمّ منه ما انتشر ، ويطوى من تعدّيه ما نشر ، ويحمله على الآداب التى ترشده إذا ضلّ وتقيمه إذا عثر ، وتجبره على أن يلتزم السّنن ويتّبع الأثر ، لطفا منه شمل البشر وحنانا .

ولما عمر الأرض بهذا الجنس الذى فضّله وشرّفه ، ووهب له العقل الذى تفكّر به فى حكمته حتّى عرفه ، وبما يجب لربوبيّته الواجبة وصفه ، جعلهم درجات بعضها فوق بعض فقرا وغنًى وطاعةً وعصيانا . واختار منهم سفرة الوحى وحملة الآيات ، وأرسل فيهم الرّسل بالمعجزات ، وعرّفهم بما كلّفهم من الأعمال المفترضات : ﴿ليجزى الّذين أساءوا بما عملوا ويجزى الّذين أحسنوا بالحسنى﴾ . يوم اعتبار الأعمال واعتبار الحسنات ، ونصب العدل والمجازاة فى يوم العرض عليه قسطاسا وميزانا .

نحمده وله الحمد فى الأولى والآخره ، ونثنى على مواهبه الجمّة وآلائه الوافره ، ونمدّ يد الضّراعة ، فى موقف الرّجاء والطّاعة ، إلى المزيد من مننه الهامية الهامره ، ونسأله دوام ألطافه الخافية وعصمه الظاهره ، واتّصال نعمه التى لا نزال نتعرّفها مثنى ووحدانا . ونشهد أنّه الله الذى لا إله إلّا هو وحده لا شريك له . [شهادةً نجدها فى المعاد عدّةً واقيه ، ووسيلةً للأعمال الصالحة إليه راقيه ، وذخيرةً صالحةً باقيه ، ونورا يسعى بين أيدينا ويكون على الرضا والقبول فينا عنوانا[1]] . ونشهد أنّ سيدنا ومولانا محمّدا النبيّ العربيّ القرشيّ الهاشميّ عبده ورسوله الذى اصطفاه واختاره ، ورفع بين النبيّين والمرسلين مقداره ، وطهّر قلبه وقدّس أسراره ، وبلّغه

(١) الزيادة من ريحانة الكتاب ص ٤٩ .

من رِضَـاه ٱخْتِيارَه ، وأعطاه لِواءَ الشفاعة يَقْفُو آدَمُ ومَنْ بعـده من الأنبياءِ الكِرام آثارَه ، وجعله أقْربَ الرُّسُل مكانَةً وأرفعَهم مكانَا . رسولُ الرحمـه، ونُورُ الظُّلْمه ، وإمامُ الرسُل الأَئِمَّـه ، الذى جمع له بين مَزِيَّة السَّبْق ومزية التَّتِمَّه ؛ وجعل طاعته من العذَابِ المقيم أمانَا . صاحبُ الشَّفاعة التى تؤَمَّل ، والوسـيلةِ التى إلىٰ الله بهـا يُتَوسَّل ، والدرجةِ التى لم يُؤْتَها المَلَكُ المقرَّب ولا النبيُّ المُرْسَل ، والرتبةِ التى لم يُعْطِها اللهُ سواه إنسانَا . انتخَبَه من أشرفِ العَرَب أُمًّا وأبًا ، وأزكىٰ البرِيَّة طينـةً وأرفعها نسبًا ، وٱبتعَثَه إلىٰ كافَّة الخلق عَجَمًا وعَرَبا ، ومَلأ بنُور دعوتِهِ البسيطة جَنُوبا وشَمالا ومَشْرِقا ومَغرِبا ، وأنزل عليه كتابَهُ الذى آمنتْ به الجِنُّ لَمَّـا سمِعَتْه وقالوا ﴿ إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبا ﴾ . تمامًا علىٰ الذى أحسَنَ وتفصيلاً لكلِّ شيء وتِبْيانا . فصدَعَ صلّى الله عليه وسـلم بأمْرِ من ٱختار ذاتَهُ الطاهِرةَ وٱصـطَفَاها ، وأدّى أمانَةَ الله ووَفَّاها ، ورأىٰ الخلائِقَ علىٰ شفىٰ المَتَالف فتلافَاها ، وتَتَبَّع أدواءَ الضَّلال فشَفَاها ، ومَحَا معالِمَ الجهـل وعفَّاها ، وشادَ للخلقِ فى الحقِّ بُنْيانا . مؤيَّدا بالمُعْجِزات التى حُجَجُها تُقْبَل وتُسَـلَّم : فمن جذْع لِفراقِه يتألَّم ، وجَمَـادٍ بِصدْق نُبُوّتِه يتكلَّم ، وجيشٍ شَكَا الظَّمأَ ففَجَّر لدَيْه المَعين منه بَنَـانا . وأىُّ مُعْجِزةٍ ككتاب الله الذى لاتنقضِى عجائبُه ، فهو اليَمُّ والعُلومُ النافعةُ كلُّها مَذَانِبُه ، وأُفُق الحق الذى تَهْدِى فى ظُلُمات البرِّ والبحر كواكِبُه ، والحُجَّةُ البالغةُ التى أصبحَتْ بين الحق والباطل فُرْقانا . فأَشْرقتِ الأرضُ بنُور ربِّها وآياتِه ، وتمّت كلمةُ الله صِدْقًا وعَدْلا لامُبَدِّلَ لكلماته ، وبلغ مُلْكُ أُمَّتـه مازُوِى له من أقْطار المعمُور وجِهاتِه ، حتّى عَمَر من أكناف البسـيطةِ ، وأريافِ البِحار المحيطة ، وِهادا وكُثْبانا . ونُقِلَتْ كنوزُ كِسْرىٰ بعِزِّ دعوته الغالبـه ، وظَفِرتْ بفَلْج الخِصام أيْدى عزائِمِها المُطالِبه ، وأصـبح إيوانُ فارسَ مَجَرَّ رِماح العَرَب العاربه ، وقَذَفَتْ جُنودَ قيصَرَ من ذوابِلِها بالشُّهُب الثاقبه ، حتّى فَرّ عن مَدَرتِه الطيِّبة

آئبـا بالصَّفْقة الخائبـه، وخلَصَتْ إلىٰ فُسْطاطِ مصر بكتائبها المُتعاقبه، فلا تسمعُ الآذانُ فى إقامتِهِم إلَّا إقامةً وأذانا. ولا دليلَ أظهرُ من هـذا القُطْرِ الأندلُسِىّ الغريبِ الذى خلَّصتْ إليه سُيوفُها أثباجَ البِحار، علىٰ بُعْد المَراحل ونُزُوح الدِّيار، وتكاثُفِ العمَالات وٱختلافِ الأَمْصار، ومُنْقَطَع العِمَارة بأقصىٰ الشَّمال ومحَطِّ السُّفَّار، طلعَتْ عليه كلمةُ الله طُلُوعَ النهار، وٱستوطنَتْه قبائلُ العرب الأحرار، وأرغمتْ فيه أُنُوفَ الكُفَّار، ضِراباً فى سبيلِ اللهِ وطِعانا.

ولَمَّـا ٱسـتقام الدِّين، وتَمَّ معالِمَ الإيمـان الرسُولُ الأمِين، وظَهَر الحقُّ المُبِـين، وراقَ من وَجه المِـلَّة الحنيفيَّة السَّـمْحةِ الجَبِين، وأخذ المَسالكَ والمآخذَ الإفصاحُ والتبيين، وتقرَّرتِ المسـتَنَداتُ المعتَمَداتُ سُـنَّةً وقرآنا، أشـعره الوحْىُ بالرِّحْلة عن هذِه الدار، والاَنتقالِ إلىٰ محلِّ الكرامة ودارِ القَرار، وخَيَّره المَلَكُ فاختار الرَّفيقَ الأعلىٰ مُوفَّقًا إلىٰ كرم الاختيار، [و]وجَدَ صَحْبُه رضى الله عنهم فى الاَستِخْلاف بعده والإيثـارِ حُجَجا مُشْرِقَةَ الأنوار، أطلَقتْ بالحـقِّ يدًا وأنطقَتْ بالصِّـدْق لسـانا. صـلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحابته، وأُسْرته الطاهـرةِ وعِصَابته، وأنصارِه وأصهارِه وقَرَابتِه، الذين كانوا فى مُعاضَـدَتِه إخْوانا، وعلىٰ إعْلاء إمْرة الحقِّ أَعْوانا. نُجومِ المِلَّة وأقمارِها، وغُيوثِها الهـاميةِ وبِحارِها، وسُيوفِ الله التى لاتنْبُو شِفَارُها، وأعلامِ الهدىٰ التى لاتَبْلىٰ آثارُها، ودَعائمِ الدِّين التى رَفعَتْ منه علىٰ البِرِّ والتقوىٰ أركانا.

وحَيَّا اللهُ وجُوهَ حَىّ الأنصار بالنعيم والنَّضْره، أُولِى البأْس عنـد الحَفيظة والعَفْو عند القُدْره، الراضُون أن يذهَبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ويذْهَبُوا برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم فنِعْمَتِ المَنْقَبةُ والأُثْره، الحائزُون ببيعةِ الرِّضوان فضْلًا من الله ورضوانا. وُزَراؤُه وظُهراؤُه فى كل أمر، وخالصتُه يومَ أُحُد وبَدْر، لم يزالوا صـدْرا فى كلِّ

قَلْبٍ وقَلْبـاً فى كلِّ صدرٍ، يَصْلَوْن دُونَه كلَّ جمرٍ، ويَفْـدُونَه بنُفُوسهم فى كلِّ سِرٍّ وجهرٍ، ويعمَلُون فى إعلاء دينِـه بيضًا عِضَابًا وسُمْرا لِدَانا . صلاةً لا تزالُ سحـائبُها ثَرّه، وتحيةً دائمةً مستمِرّه، ما لَهِجت الألسُنُ بثنائهم، ووقفَت المَفاخرُ علىٰ عَلْيائهم، وتُعُلِّمت المواهِبُ من آلائِهم، وقَصُرت المحـامدُ علىٰ مُسمَّياتهم وأَسْمـائهم، وكان حُبُّهم علىٰ الفَوْز بالجنةِ ضَمَـانا .

ونسألك اللهم لهـذا الأمْر النَّصْرِىِّ الذى سَـبَبُه بسببِهم موْصُول، وهم لفُرُوعه السامِيةِ أُصُول، فيالهَاَ من نُصُول خلَفَتها نُصُول، أنجزَتْ وعْدَ النصر وهو ممْطُول، وأحيت رُبُوعَ الإيمانِ وهى طُلُول، نَصْرا عزيزًا وفَتْحا مبينا، وتأْييدًا علىٰ أعدائِك وتمْكينا، ومُلْكا يبقىٰ فى الأعقـابِ وأعقابِ الأعقابِ وسُـلطانا . وأعِنَّا اللهمَّ علىٰ ما أوجبْتَ له من مفرُوض الطـاعه، وتأديةِ الحقِّ بجَهْد الاِسـتِطاعه، وٱعْصِمْنا بإيالتِه العادلةِ من الإضَاعه، وٱحمِلْنا من مَرْضاته علىٰ سَنَنِ السُّنَّة والجماعه، وٱجعَلْها كلمةً باقيةً إلىٰ قيام الساعه ﴿ وٱعفُ عنَّا وٱغفِرْ لنَا وٱرْحَمْنا أنْتَ مَوْلانا ﴾ .

أما بعدَ ما ٱفتُتِح به من تحميدِ الله وتمجيدِه، والثناء الذى تتعَطَّرُ الأنْديةُ بتَرْديده، فإنَّ من المشهور الذى يعَضِّـده الوجودُ ويؤيِّده، والمعلومِ الذى هو كالشمس ضَلَّ من يُنْكِره أو يجْحَدُه، والذائع بكلِّ قُطرٍ ترْويه رُواةُ الأنبـاءِ وتُسْنِده، ماعليه هـذا المُلْك النَّصْرِىُّ الحِمىٰ، الأنصارىُّ المُنْتمىٰ، الذى يُصيبُ شاكلةَ الحقِّ إذا رمىٰ، ويَعُمُّ العبـادَ والبلادَ غيثُه مَهما هَمىٰ : من أَصَالةِ الأَعْراق، وكَرَم الأخْلاق، والفضل الباهرِ الإشْراق، والجهادِ الذى هو سَمَر الرَّكْب وحديثُ الرِّفَاق، وأنَّ قَوْمه الملوكَ الكِرام إن فُوخِروا بنسبٍ ذكَرُوا سعدَ بن عُبادةَ ومجْدَه، أو كُوثِرُوا بعددٍ غَلَبوا بالله وحْدَه، أو ٱستُنْصِروا فرّجُوا كلَّ شدّه، وٱستظْهَرُوا من [عِزهم](١) الموْهُوب،

(١) من ريحانة الكتاب .

وصَبْرهم علىٰ الخطوب، بكلّ عَدَد وعُدّه؛ دارهم الثغرُ الأقصىٰ ونعمتِ الدّار، وشِعَارُهم «لا غالِبَ إلّا اللهُ» ونِعْم الشّعار؛ زُهّادٌ إذا ذُكِر الدّين، أُسُودٌ إذا حَمِيت المَيَادين؛ جبالٌ إذا زحفَت الصّفوف، بُدُورٌ إذا أظلَمت الزّحُوف؛ غيوثٌ إذا مُنِع المعرُوف، أفرادٌ إذا ذُكِرت الألُوف؛ إنْ بُويِعوا فالملائكةُ وُفُود [وحملةُ العِلْم](١) وحملةُ السِّلاح شُهُود؛ وإن وَلَدُوا فالسّيوفُ تمائمُ والسّروج مُهُود، وإن أصْحَرُوا للعدُوّ فالظّلال بُنُود، وجُنودُ السبع الطّباقِ جُنُود، وإن أظلم الليلُ أسهَرُوا جُفُونَهم فى حياطة المسلمين والجُفُونُ رُقُود .

وإنّ هـذا القُطرَ الذى ٱنتهىٰ سَـيْلُ الفتح الأوّلِ إلىٰ ناحيتـه، وأُجيلتْ قِداحُ الفوز بالدّعوة الحنيفيّـة علىٰ الأقطار فأخذ الإسـلامُ بناصِيتَه؛ كان من فَتْحه الأوّل ماقد عُلِم، حَسَبَ ماسُطِّر ورُسِم؛ وإنّ موسىٰ بنَ نُصَير وفتَاه، حَلّ من فُرْضَة مَجَازه مَحَلّ موسىٰ وفتَاه؛ وحلّ الإسـلامُ منه دارَ قَرار، وخِطّةً خليقةً بارْتيـادٍ وٱختيار؛ وبلدًا لايُحصىٰ خَيْره، ولا يَفْضُـلُه بشىءٍ من المزِيّة ماعدا الحَرَمين غَيْرُه؛ وٱمتدّتِ الأيّامُ حتّىٰ تأنّس العدُوّ لرَوْعتِـه، وخَفّ عليه ما كان من صَرْعته؛ وقدَح فأورىٰ، وأعضل داؤُه وٱسْتَشْرىٰ، وصارتِ الصُّغْرىٰ التى كانت الكُبْرىٰ؛ فلولا أنّ الله عَمَدَ الدِّين منهم بالعُمْدة الوَثيقه، حُماةِ الحقِيقه، وأئمةِ الخليقَهْ، وسُلالةِ مفتَتِحى اليمـامةِ ومفتَتِحى الحَديقه، لأجهز النصل، وٱجتُثّ من الدِّين الفرْعُ والأصْـل؛ لٰكنّهم ٱنتَدبوا إلىٰ إمساكِ الدِّين بها ٱنتِـدابا، ووصَلُوا للإسلام أسْبابًا؛ وتناولَها منهم صَقْرُ قَبِيـلِ الخَزْرَجْ، ذُو الحُسام المُضَرّج، والثناء المؤرّج؛ أبو عبد الله الغالب بالله محمدُ ٱبن يوسف بن نصر أميرالمسلمين، المنتَدَب لإقامة سنّة سيد المرسلين، قُدوةُ الملوك المجـاهدين : نَضّرالله وجهه وتقبّـل جِهاده، وشـكَردفاعَه عن حوزة الإسـلام

---

(١) من ريحانة الكتاب .

[وجِلَادَه ؛ فأقشَعتِ الظُّلمــه ، وتمـاسَكت الأُمَّه ؛ وكفَّ العــدُوُّ وأقْصر ، ورأىٰ الإســلامُ بمَنِ آستَنْصر ، وآستَبْصَر فى الطاعة](١) من آستَبْصَر ؛ وهبَّتْ بنصرِ الله العَزائم ، وكثُرتْ علىٰ العــدُوّ الهَــزَائم ؛ وتوارَثُوا مُلْكَها ولَدًا عَن أب ، مستنِدين إلىٰ عَدْل وبَذْل وبَسَالة وجَلَالة وحَسَب ؛ تتَّضح فى أُفُق الجَلال نجومُ سِيَرِهم هاديةً للسائرين ، وتفرَق من سَطَواتهم فى الله أُسودُ العَرِين ؛ إلىٰ أن قام بالأمرِ وُسْــطىٰ سِــلْكهم ، وبركَةُ مُلْكهم ؛ الخليفــةُ الواجبُ الطاعة بالحق علىٰ الخَــلْق ، الشهيرُ الجــلالةِ والبَسَالة فى الغرْب والشَّرْق ، أميرُ المسلمين بواجِبِ الحق ؛ ساحبُ أذيال العَفَاف والطَّهاره ، السعيدُ الإيالة والإماره ، البعيدُ الغــارَه ؛ مَنْ ذُعِرِ العدوُّ لبَأْس حُسَامه ، وذُخِر الفتحُ الهنِيُّ لأيَّامه ؛ صدرُ الملوك المجاهدين ، وكبيرُ الخلفاءِ العادلين ، البعيدُ المَدىٰ فى حِمايةِ الدِّين ؛ السعيدُ الشهيد ، أبُو الوليد ، آبن المَوْلى الهمامِ الأوحد ، الرفيــع المُمجَّد ؛ الطاهرِ الظاهرِ الأعْلىٰ ، الرئيس الكبير الجليل المقــدّس الأرضىٰ ؛ « أبى سعيد » بن أبى الوليد ، بن نصر . فأحيا رحمه اللهُ معالِمَ الكِتَابِ والسُــنَّة ، وجلّى بنُور عدْله غياهبَ الدُّجُنَّه ؛ وأعزَّ الإسلامَ وحَمَاه ، ورمىٰ ثُغْرة الكُفْر فأصْماه ؛ قدّس الله رُوحَه الطيِّب ، وسقىٰ لحــدَه من الرحمــة الغَمَامَ الصيِّب ؛ وأوْرث المُلْكَ الجهادىَّ من ولده خيرَ ملك قُبِّلَتْ منه كَفّ ، وآســتدار به موكبٌ للجهاد مُلْتفّ ؛ وشَمخ بخِدْمته أَنف ، وسَمَا إلىٰ مشاهدته طَرْف ؛ وتأرَّج من ذكره عَرْف ، وجرىٰ إلىٰ بابه حَرْف ؛ مولانا الملكَ الهُمام ، الخليفةَ الإمام ؛ من أشْرقَ بنُور إيَالتِه الإسلام ، وتشرَّفتْ بوجوده الليــالِى والأيَّام ؛ بَدْرُ المُلْك وشمسُه ، وسِرُّ الزمان الذى قَصُر عن يومه أمْسُــه ؛ الذى آشتهر عدْلُه ، وبَهَر فضْلُه ، وظهرتْ عليه عِنـايةُ ربِّه ، وكان الخضوع له فى سَلْمه وحَرْبه ؛ مولانا أميرُ المسلمين ، وقُدوةُ الملوكِ المجاهدين والأئمَّة

(١) الزيادة عن ريحانة الكتّاب لآبن الخطيب وهى لازمة لاستقامة الكلام .

العارفين ؛ السعيدُ ، الشهيدُ ؛ الطاهرُ ، الظاهِر ؛ الأوحدُ الهُمام ، الخليفة الإمام (أبو الحَجَّاج) رفعَ الله درجتَه فى أوليائه ، وحَشَره مع الذين أنْعم عليهم من أنبيائه وشُهَدائه ؛ فوضَحت المَسالكُ وبانَتْ ، وأشرقتِ المعاهدُ وآزْدانتْ ؛ وشَمِل الصُّنعُ الإلٰهىّ واللُّطف الخفىّ أقطارَ هذه الأمة حيث كانَتْ . ولما آختار الله له ماعنده ، وبلَغَ الأمدَ الذى قدّره سبحانه لحياته وَحَدَّه ؛ وقَبَضه إليه مستغفِرا لذنبه ، مطمئنًّا فى الحالة التى أقربُ ما يكون العبدُ فيها من رَبِّه ؛ كأنما تأهَّب للشهادة [فاختار] مكانَها وزمانَها ، وطهَّر بالصوم نَفْسه التى كَرَّم اللهُ شانها ، وطيَّب رَوْحها ورَيْحانَها ؛ فوقعت آراءُ أرباب الشُّورىٰ التى تصِحُّ الإمامة باتِّفاقها ، وتنعقدُ بعَقْد ميثاقِها : من أعلام العلم بقاعدة [مُلْكه] غَرْناطة حرسها اللهُ تعالىٰ التى غيرُها لها تَبَع ، وحُماةِ الإسلام الذين فى آرائهم للدين والدنيا منْتفَع ؛ وخُلْصانِ الثِّقات ، ووُجُوه الطَّبَقات ، علىٰ مبايعة وارثِ مُلْكه بحقِّه ، الحائز فى مَيْدان الكمال وإحراز ما للإمامة من الشروط والخلال خَصْل سَبْقه ؛ كبيرِ وَلَده ، وسابقِ أَمَده ؛ ووارثِ مُلْكه ، ووُسْطىٰ سِلْكه ؛ وعِمادِ فُسْطاطه ، وبَدْرِ الهالة من بِساطه ؛ مولانا قمرِ العَلْياء ، ودُرّةِ الخُلَفاء ، وفَرْعِ الشجرة التى أصلُها ثابِتٌ وفَرْعُها فى السماء ؛ الذى ظهرَتْ عليه مَخايِلُ المُلْكِ ناشِئا ووليدا ، وآستشْعرتِ الأقطارُ به وهو فى المَهْد أماناً وتمهيدا ؛ وآستشرف الدِّينُ الحنيفُ فأتلعَ جِيدا ، وآستأنَفَ شباباً جدِيدا ؛ ناصرِ الحقِّ ، وغياثِ الخلْق ؛ الذى تميَّز بالسكينة والوَقَار ، والحياءِ المُنْسدِل الأسْتار ، والبَسالةِ المرهُوبةِ الشِّفار ؛ والجُود المُنْسكب الأمطار ، والعدلِ المُشْرِق الأنوار ؛ وجمَعَ الله فيه شُروطَ الملك والآختيار ، مولانا ، وعُمْدة ديننا ودُنْيانا ؛ السلطان الفاضل ، والإمامِ العادِل ؛ والهمامِ الباسل ، الكريمِ الشمائل ؛ شمسِ الملك وبَدْرِه ، وعَيْنِ الزمانِ وصَدْرِه ؛ أميرِالمسلمين ، وقُرّة أعين المؤمنين ، أبو عَبْد الله : وصلَ الله أسبابَ سَعْده ، كما حَلَّى أجيادَ

المنابر بالدّعاء لمَجْده، وجعل جُنودَ السماء من جُنْده، ونَصَره بنَصْره العزيز فما النَّصرُ إلا مِن عِنـده، ورأَوْا أن قد ظَفِرتْ بالعُروة الوُثْقىٰ أيديهم، وأمِنَ فى ظلِّ الله رائحُهم وغادِيهم، ودلَّت علىٰ حُسْن الخواتم مَبَادِيهم؛ فتبادَرُوا وآنثالُوا، وتبختَرُوا فى ملابِس الأَمْن وآختـالُوا؛ وهَبُّوا إلىٰ بَيْعتِه تطـيرُ بهم أجنِحةُ السُّرور، ويُعْلِن آنطلاقُ وُجُوهِهم بانْشِراح الصُّـدور؛ وآجتمع منهم طوائفُ الخـاصّة والجُمْهور: ما بين الشريف والمَشْروف، والرُّؤساءِ أُولى المَنْصِب المعْروف؛ وحَمَلةِ العـلم وحملةِ السُّـيوف، والأُمَناء ومَن لَدَيْهم من الأُلُوف، وسائرِ الكافّة أُولِى البِـدَار لمثْلِها والخُفُوف؛ فعقَدُوا له البيعةَ الوثيقةَ الأَسَاس، السعيدةَ بفضلِ اللهِ علىٰ النـاس، البرىءَ عهْدُها من الآرتيابِ والآلْتِباس؛ الحائزةَ شُروطَ الكمال، الماحيةَ بنُور البيان ظُلَمَ الإشْكال؛ الضَّمينةَ حُسن العُقْبىٰ ونُجْحَ المآل، علىٰ ما بُويِـع عليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسـلم ومَنْ له من الصَّحابة والآل؛ وعلىٰ السَّمْع والطـاعه، ومُلازَمة السنّة والجَمَاعه؛ فأيديهم فى السِّلْم والحَرْب رِدْءٌ لِيَده، وطاعتُهم إليه خالصةٌ فى يومِه وغَدِه؛ وأهواؤُهم متَّفِقة فى حالَى الشِّدّة والرَّخاء، وعقُودهم محفوظةٌ علىٰ تداوُلِ السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ أشهَدُوا عليها اللهَ وكفىٰ باللهِ شهيدا، وأعطَوْا صَفَقات أيمانهم تثْبيتا للوفاء بها وتأْكِيدا، وجعلوا منها فى أعناقهم ميثاقًا وثيقًا وعهدًا شـديدا؛ واللهُ عزّ وجل يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمـا ينكُثُ علىٰ نَفْسِه ومَنْ أَوْفىٰ بِمَـا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيه أجْرا عَظِيما﴾. ومن أصْدَقُ من اللهِ وَعْدا أو وَعِيـدا. وهم قد بسَطُوا أيديَهـم يستنْزِلُون رحمةَ الله بالإخلاصِ والإنَابه، وصرَفُوا وجُوهَهـم إلىٰ من أمَرَهم بالدعاء ووعدَهم بالإجابَه؛ يسألُونه خيْرَ مايقْضِيه، والسيْرَ علىٰ مايُرْضِيه.

اللهمَّ بابَكَ عنـد تقلُّب الأحوالِ عَرَفْنـا، ومن بحرِ نِعَمِك العميمةِ آغْترفْنـا، وعفْوُك ستَرَ من عيُوبنا كلَّ ما آجترَحْنا وآقترَفْنا؛ ومن فَضْلك أغنَيْتَنا، وبعينِك التى

لاتنامُ حرسْتَنا وحميْتَنا [فانصُرْ حيَّنا وارحم ميّتنا](١) وأوْزِعْنا شُكْر ما أوليتنا، واجعل لَنَا الخَيْرَ والخِيرَةَ فيما إليه هديْتَنا .

اللهُمَّ إنَّ قطرنا من مادّة الإسلام بعيد ، وقد أحدق بنا بحرٌ زاخرٌ وعدوٌّ شديد ، وفينا أيِّم وضعيف وهَرِمٌ ووَلِيد [وأنتَ مولانا ونحنُ عبيد .

اللهم مَنْ بايَعْنا فى هذا العقد](١) فأسعِدْنا بمبايعتِه وطاعتِه، وكن له حيثُ لا يكونُ لنفسه بعد استنفادِ جُهْده فى التحفُّظ واستِطاعتِه؛ وكُفَّ عنه كَفَّ عدوّك وعدُوِّه كُلّما هبَّت به رياح طَمَاعتِه؛ يامَن يُفْرِده العبدُ بضراعتِه، ويعُوذُ بحِفْظه من إضاعتِه .

اللهمَّ أدِّعنَّا حقَّه فإنا لانقوىٰ علىٰ ادائِه، وتولَّ عنَّا شكر ماحَمِدناه من سِيرته وسيرة آبائِه، واحمِله من توفيقك علىٰ سَوَائِه .

اللهمَّ إنّا إليه ناظِرُون، وعن أمره صادِرُون، ولإنجاز وعدِك فى نصر من يَنْصُرك منتظِرُون؛ فأعِنْه علىٰ ماقلَّدته، وأنجز لدينا علىٰ يدَيْه ماوعَدْته؛ فما فَقَد شيئا مَنْ وَجدك، ولا خاب من قَصَدَك، ولا ضَلَّ من اعتَمَدك، آمين آمين يارِبَّ العالمين .

وكتب الملأُ المذكورون أسماءَهم بخطوط أيديهم فى هذا الكتاب ، شاهدةً عليهم بمـا التزموه دُنيا ودِينا ، وسلَكُوا [منه] سبيلًا مُبِينا ؛ وذٰلك فى الثانى والعشرين لشوّال من عامِ خمسٍ وخمسين وسبْعِمائة .

قلت : وقد أخبر آخرَ هـذه البيعة بأن المبايعين للسلطان تُؤخَذُ خُطُوطُ أيديهم فى كتاب البيعة شاهدة عليهم بمـا بايعوا عليه . والظاهر أن كتابةَ البيعة عندهم كما فى مكاتباتهم فى طُومارٍ واحدٍ كبيرٍ متضايق السُّطور، وأنه ليس له طُرَّة بأعلاه كما فى كتابة المصريين .

---

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لابن الخطيب .

البـاب الثـالث

من المقـالة الخامسة فى العُهُود، وفيه فصلان

الفصـــــل الأوّلُ

(فى معنىٰ العَهْد)

العهْدُ لفظٌ مشتَرَك يقع فى اللغة علىٰ ستة مَعانٍ :

أحدها — الأمَانُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ .

الثـانى — اليَمينُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ﴾ .

الثالث — الحِفَاظ . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم : "حُسْنُ العَـهْدِ مِنَ الإيمـان" .

الرابع — الذِّمَّة . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم "لا يُقْتَل مُسْـلِمٌ بكافر ولا ذُو عَهْدٍ فى عَهْده" .

الخامس — الزَّمان . ومنه قولهم : "كان ذٰلك علىٰ عَهْدِ فلان" .

السادس — الوَصِـيَّة . ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ ولَقَدْ عَهِدْنَا إِلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِيَ ﴾ وهو المراد هنا .

قال الجَوْهرىّ : ومنه اشْتُقّ العهدُ الذى يُكْتَب للوُلَاة(١) .

(١) بهامش الاصل هنا حاشية نصها «ولهم سابع ، وهو قولهم فى الدعاء للملك بعد موته : سق الله عهده برحمته أى مكانه المدفون فيه يسق بالرحمة . فصح أن يطلق على الزمان والمكان» .

الفصـــــــل الثـانى
(فى بيانِ أنواعِ العُهُــود ، وهى ثلاثةُ أنواع)

النـــــوعُ الأوّل
(عهودُ الخُلَفاء عن الخُلَفاء ، ويتعلّق النظرُ به من ثمـانيةِ أوجه)

الوجـــــهُ الأوّل
(فى أصـــل مشروعِيَّتِهـا)

والأصـلُ فى ذلك ماثبت فى الصحيحين من حديثِ آبنِ عمرَ رضى الله عنهما، أنه قيل لِعُمَرَ عِنْدَ موته "ألا تَعْهَدُ؟ فقال: أأتحمّلُ أمْرَكُمْ حيًّا وميّتًا؟ إنْ أَستَخْلِفْ فقد آستَخْلَفَ مَنْ هو خَيْرٌ مِنِّى ،[يعنى أبا بكر](1) : وإنْ أتْرُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هُو خَيْرٌ منِّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم" . فأثبتَ آستخلافَ أبى بكر رضىَ الله عنه بذلك ، مشيرًا إلىٰ مارُوِى : "أنَّه لما آشْتدَّ بأبى بكر الصدّيقِ رضى الله عنه الوَجَعُ ، أرسلَ إلىٰ علىّ وعُثْمانَ ورجالٍ من المهاجِرين والأنصارِ ، فقال : قد حَضَر ما تَرَوْن ، ولا بُدّ من قائمٍ بأمْرِكم ، فإن شِئْتم آستَخَرْتُم لأنفُسكم ، وإن شِئْتم آستخَرْتُ لكم . قالوا : بل آختَرْ لنا ، فأمَرَ عثمانَ فكتبَ عهْدَ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه (علىٰ ماسيأتى ذكره) ــفقال عمر : لا أُطِيقُ القِيامَ بأمور الناســ فقال أبو بكر هاتُوا سَيْفِى ! وتهدّدَه فانقاد عمرُ؛ ثم دخل عليه طلحةُ فعاتَبَه علىٰ آستخلافِ عُمَرَ . فقال : إنَّ عُمَرَ والله خيرٌ لكم وأنتم شَرٌّ له ، واللهِ لو ولَّيتُكَ لجعلْتَ أَنْفَكَ فى قَفَاكَ ، ولرفَعْتَ نَفْسَك فوقَ قَدْرها حتّى يكونَ اللهُ هو الذى يَضَعُها . أتيتَنِى وقد وَكَفَتْ عيْنُك ، تريدُ أن تَفْتِنَنى عن دينى

(1) الزيادة من صحيح مسلم (ج ٢ ص ٨٠) .

وتَرُدَّنِى عن رأْيِى، قُمْ لاأقامَ اللهُ رِجْلَك، واللهِ لئِن بلغَنِى أنك غَمَصْـتَه وذكرتَه بسُوءٍ لأُلْحِقَنَّك بحَمَضات قُنَّةٍ حيثُ كنْتم تَسْقَوْن ولا تَرْوَوْن، وتَرْعَوْن ولا تَشْبعون، وأنتم بذلك بَجِحُون راضُون، فقام طلحةُ فخرج ".

قال العسكرىّ : الحَمَضات جمع حَمْضة ضَرْبٌ من النَّبْت، والقُنَّة أعلىٰ الجبل .

قال الماوردىّ : وكان آستخلافُ أبى بكر رضى الله عنه عُمَرَ بآتِّفاقٍ من الصحابة من غير نكيرٍ فكان إجماعا .

وقد عهِدَ عمرُ رضى الله عنه إلىٰ سـتةٍ، وهم عثمانُ، وعلىٌّ، وطلحةُ، والزُّبيرُ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف، وسعدُ بن أبى وَقَّاص؛ وتركها شُورىٰ بينهم، فدخَلُوا فيها وهم أعيانُ العصر وأشرافُ الصَّحابة رِضوانُ الله عليهم .

الوجـــــه الثـانى

(فى معـنىٰ الآِسـتخلاف)

قال البغَوىّ رحمه الله فى كتابه "التهذيب" فى الفقه : الآسـتخْلافُ أن يجعلَه خليفةً فى حيـاته ثم يخْلُفَه بعده . قال : ولو أوصىٰ بالإمامةِ فوجهانِ(١) : لأنَّه يخْرُج بالموت عن الوِلَاية فلا يصِحُّ منه توليـةُ الغير . وآستشكلَ الرافعىُّ رحمه الله هــذا التوجيهَ بكلّ وصـية؛ وبأنَّ ماذكره من جعله خليفةً بعده : إن أُرِيد به آستنابتُه فلا يكون ذلك عَهْدا إليه بالإمامة . وإنْ أُرِيد جعلُه إماما فى الحـال، فهو : إمَّا خلْعُ نفس العاهد، وإمَّا آجتماع إمامين فى وقت واحد . وإن أريد جعله خليفة أو إماما بعد موته فهو الوصية من غير فرق .

---

(١) أى وأصحهما عنده عدم الجواز . بدليل التعليل .

قلت : وهـذا جُنوحٌ من الرافعىّ رحمه الله إلىٰ صِحّة الخلافة بالوصيّة أيضا ، كما تصح بالآستخلاف[1] .

الوجــــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه)

وآعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة العهد بالخلافة أمُورا :

منهـا — بَراعةُ الآستهلال بذكر مايتّفِق له : من معنىٰ الخلافة والإمامة وآشتقاقِهما، وحالِ الوِلاية ، ولقبِ العاهِد والمعهُود إليه، ولقبِ الخلافة ، إلىٰ غير ذٰلك ممـا سبق بيانُه فى الكلام علىٰ البَيْعات .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة، وعُلُوّ قدرها، ورِفعة شأنها، ومَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام، ودِعَاية الضرورة إليه، ونحو ذلك ممـا سبق فى البيعات أيضا .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ آجتماعِ شروطِ الإمامة فى المعهُود إليـه من حِينِ صدور العهد بهـا من العاهد ، فقد قال المـاوردىّ : إنه تُعتبَر شروط الإمامة فى المعهُود إليه من وَقْت العهد، حتّىٰ لو كان المعهودُ إليـه صغيراً أو فاسقًا وقْتَ العهد و بالغًا [عَدْلا] عند الموت ، لم تَصِحّ خلافتُـه حتّىٰ يستـأنِفَ أهلُ الآختيارِ بَيْعَتَه . قال الرافعىّ رحمه الله : وقد يُتَوقَّف فى هذا . قال النووىّ رحمه الله فى "الروضة" : لاتَوقُّفَ . والصواب ماقاله المـاوردىّ .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ آجتهاد العاهِد وتروِّى نظره فى حقِّيَّة المعهود إليـه : فقد قال الماوردىّ : وإذا أراد الإمامُ أن يَعْهَد بالإمامة، فعليه أن يُجْهِد رأيَهُ فى الأحَقّ بها، والأقْومِ بشُروطها، فإذا تعيَّن له الآجتهاد فى أحد، عَهِد إليه .

(١) فى الأصول كما لاتصح الخ والظاهر أن « لا » زائدة من الناسخ تأمل .

ومنها — أن يُشير إلىٰ تقدُّم الآستخارة علىٰ العهْد ، وأنَّ آستخارتَه أدّتْه إلىٰ المعهود إليه ؛ فإنَّ الآستخارةَ أمرٌ مطلوب فى كل أمر ، خصوصًا أمْرَ المسلمين وعُمومَ الولايةِ عليهم ، فإنَّ آختيارَ الله للخلق خيرٌ من آختيارهم لأنفُسِهم ، والله يَقُولُ الحقَّ وهو يَهْدِى السَّبِيل .

ومنها — أن يَنبِّه على أنَّ عهدَه إليـه بعد مَشُورة أهل الآختيار ومراجَعَتِهِم فى ذٰلك ، وتصويبِهِم له ، خروجًا من الخِلاف . فقد حكىٰ الرافعىُّ رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهودُ إليه أجنبيًّا من العاهد ليس بوَلَد ولا والِدٍ : هل يجوزُ أن يَنْفَرِد بعقْد البيعةِ له وتفويضِ العهْدِ إليه ولا يستشِيرَ فيه أحدا ؟ أصحُّهما الجوازُ : لأنَّ العهدَ إلىٰ عمر رضى الله عنه لم يُوقَفْ علىٰ رضا الصحابة رضوان الله عليهم ، ولأنَّ الإمام أحقُّ بها ، فكان آختيارُه فيها أمْضىٰ ، وقولُه فيها أنفَذ .

وحكىٰ المـاوردىّ فى جواز آنفراد العاهِدِ بالبيعة فيما إذا كان المعهودُ إليه والدًا أو ولدا ثلاثةَ مذاهب :

أحدهـا — ما آقتصر الرافعىُّ رحمـه الله علىٰ نسبتِه إلىٰ المـاوردىِّ ، ومقتضىٰ كلامه ترجيحُه : أنه يجوزُ الآنفرادُ بعقْدِها للوَلَد والوالد جميعا : لأنه أميرٌ للأمة نافذُ الأمر لهم وعليهم ؛ فغُلِّب حكمُ المَنْصِب علىٰ حكم النسب ؛ ولم يجعلْ للتُّهَمة طريقًا علىٰ أمانته ، ولا سبيلًا إلىٰ معارَضَته .

والثـانى — أنه لايجوزُ آنفرادُه بها لوَلَد ولا والد حتّى يُشاوِرَ فيه أهلَ الآختيار فيرَوْنه أهْلا لها ، فيصحُّ منه حينئذ عَقْدُ البيعة : لأن ذٰلك [منه] تزكيةٌ [له] تجرِى مَجْرىٰ الشهادة ، وتقليدُه علىٰ الأمة يجرى مَجْرىٰ الحكم ؛ والشهادةُ والحكمُ ممتنِعان من الولد والوالد للتُّهَمة ، لمـا جُبِل عليه من المَيْل إليهما .

والثالث — أنه يجوز أنْ ينفرِد بعقْد البيعة لوالده دُونَ وَلَده : لأنَّ الطبع إلىٰ الولَد أميل ؛ فأما عقْدُها لأخيه وغيره من الأقارِب والمناسِبين فكعَقْدها للأجانب فى جواز الآنفِرادِ بها .

ومنها — أن يَنبّه علىٰ العلم بحياة المَعْهُود إليه ووجُوده إن كان غائبا . فقد قال الماوردىّ : إنه لو عَهِد إلىٰ غائبٍ مجهولِ الحياةِ لم يِصحّ عهدُه ، وإن كان معلومَ الحياة صح ، ويكونُ موقُوفا علىٰ قُدُومه .

ومنها — أن يَنبّه علىٰ أن المَعْهُود إليه منصوصٌ عليه بمُفْرده ، أو وقع العهْدُ شُورىٰ فى جماعةٍ وأفضتِ الخلافةُ إلىٰ واحدٍ منهم بإخراج الباقين أنفُسَهم منها ، أو آختيارِ أهل الحَلّ والعقْد أحدَهُم : إذ يجوز للخليفة أن يَعْهَد إلىٰ آثنين فأكثَر من غير تقديم البعضِ علىٰ البعض ، ويختارُ أهلُ الآختيارِ بعد موته واحدًا ممن عهد إليه : فإنَّ عمرَ آبن الخطاب رضى الله عنه جعلها شُورىٰ فى ستة ، فقال : الأمْرُ إلىٰ علىّ وبإزائه الزُّبيرُ بنُ العوّام ، وإلىٰ عُثمانَ وبإزائه عبدُ الرحمن بنُ عوف ؛ وإلىٰ طَلْحةَ وبإزائه سعدُ بن أبى وَقّاص . فلما تُوفِّى عمرُ رضى الله عنه ، جعل الزبيرُ أمْرَه إلىٰ علىّ ، وجعل طلحةُ أمْرَه إلىٰ عثمانَ ، وجعل سعدٌ أمره إلىٰ عبد الرحمن بنِ عَوْف ؛ نخرج منها ثلاثةٌ ، وبقيت شُورىٰ فى عُثْمان وعلىّ(١) ؛ ثم بايَعَ علىٌّ عثمانَ . والمعنىٰ فى الشُّورىٰ انه لايجوز أن تُجعلَ الإمامةُ بعد العاهد فى غير المعهودِ إليهم .

ومنها — أن يُنبِّه علىٰ عَدَد المعهود إليهم وترتيبهم إن كان قد رَتَّب الخلافةَ فى أكثَرَ من واحد ، إذ يجوز أن يَعْهَد إلىٰ آثنين فأكثَرَ علىٰ الترتيب . فلو رَتَّب

(١) أى بعد أن أخرج عبد الرحمن منها نفسه . وفى كتاب الأحكام السلطانية للماوردى فصارت الشورى بعد الستة فى هؤلاء الثلاثة وخرج منها أولئك الثلاثة ... ... ثم بعد الثلاثة فى آثنين علىّ وعثمان .

الخلافةَ فى ثلاثة مثلا ــ فقال : الخليفةُ بعدى فلان، فاذا مات، فالخليفةُ بعدَه فلان؛ [فإذا مات فالخليفة بعده فلان](١) كانت الخلافة منتقلة إليهم علىٰ مارَتَّبها . ففى صحيح البخارىّ من رواية آبنِ عمرَ رضى الله عنهما "أنَّ رسـولَ الله صلّى الله عليه وسـلم آستَخْلَفَ علىٰ جَيْش مُؤْتَةَ زَيْدَ بنَ حارثَةَ ــ وقال: إن أُصيبَ فجَعْفَرُ بن أبى طالِب، فإن أُصيبَ فعبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ، فإن أُصيبَ فلْيَرْتَضِ المسلمون رجُلا، فتقدّم زيدٌ فقُتِل، فأخذَ الرايةَ جعفرٌ وتقدّم فقُتِل، فأخذَ الرايةَ عبدُالله بنُ رَوَاحةَ وتقدّم فقُتِل، فٱختار المسلمونَ بعـده خالدَ بنَ الوليد" . قال المـاوردىّ : وإذا جاز ذٰلك فى الإمارة جاز مثلُه فى الخلافة . قال : وقد عَمِل بذٰلك فى الدولتين مَنْ لم يُنْكِر عليه أحدٌ من علماء العصر :

فعهد سليمانُ بنُ عبد الملك إلىٰ عمرَ بنِ عبد العزيز؛ ثم بعـده إلىٰ يزيدَ بن عبد الملك، وأقرَّه عليه مَنْ عاصره من الناس، ومَنْ لاتأخذُه فى الله لومةُ لائِم .

ورتَّبها الرشـيدُ فى ثلاثةٍ من بَنِيه : الأمينِ، ثم المأمون، ثم المؤتَمَن، من غير(٢) مَشُورةٍ من عاصره من فُضَلاء العلماء .

ولو قال العاهد : عهِدْتُ إلىٰ فلان، فإن مات فلانٌ بعد إفضاء الخلافةِ إليـه، فالخليفةُ بعده فلان، لم تصحّ خلافةُ الثانى، ولم ينعقدْ عهْدُه بها : لأنه لم يَعْهَدْ إليه فى الحال، وإنمـا جعله ولىَّ عهده بعد إفضاء الخلافةِ إلىٰ الأوّل، وقد يموت قبل إفضائها إليه فلا يكون عهدُ الثانى بها مُنْبرِما .

ومنها ــ أن يُنَبِّه علىٰ أنَّ صدُورَ العهد فى حال نُفُوذ أمر العاهد وجَوَازِ تصرُّفه، فإنه لو أراد ولىُّ العهد قبـل موت العـاهد أن يُردَّ ما إليه من وِلَاية العهدِ إلىٰ غيره

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٠ ويظهر أنها سقطت من قلم الناسخ .

(٢) فى "الأحكام السلطانية" عن مشورة الخ حرر .

لم يجُزْ: لأنَّ الخلافة لا تستقرُّ إلا بعدَ موت المستخْلِف . وكذا لوقال : جعلتُه ولىّ عهدٍ إذا أفضتِ الخلافةُ إلىّ لم يجُزْ: لأنه ليس فى الحال بخليفة، فلم يصحَّ عهْدُه بالخلافة .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ قَبُول المعهود إليه العَهْدَ، فإنه إذا عَهِد الإمامُ بالخلافة إلىٰ مَنْ يصحُّ العهدُ إليه علىٰ الشُّروط المعتَبَرة فيه، كان العهدُ موْقُوفا علىٰ قَبُول المعهُودِ إليه : فإن قَبِل صَحَّ العهدُ وإلّا فلا، حتّى لو آمتنع من القَبُول بُويِع غيره . والعبرةُ فى زمَن القَبُول بما بين عَهْد العاهد ومَوْتِه علىٰ الأصح، لتنتقلَ عنه الإمامةُ إلىٰ المعهُود إليه مستقِرّةً بالقَبُولِ المتقدمِ . وقيل : إنما يكون القَبُول بعد موتِ العاهدِ : لأنه الوقتُ الذى يَصِحُّ فيه نظَرُ المعهودِ إليه .

ومنها — أنْ يُورِد من وَصايَا العاهِد للعهود إليه ما يَلِيق به . وقد ذكر الماوردىُّ أنَّ الذى يلزَمُه من أمور الأمّة عَشَرةُ أشياءَ :

أحدها — حِفْظُ الدِّين علىٰ أصوله المستقِرّة ، وما أجمع عليه سلَفُ الأمّة ، وأنه إن نَجَم مبتَدِعٌ أو زاغَ ذُو شُبْهة عنه ، أوْضح له الحُجّةَ، وبيَّن له الصَّواب ، وأخذه بما يلزمه من الحُقُوق والحدُود : ليكون الدِّين محروسًا من الخَلَل، والأمّةُ ممنوعةً من الزَّلَل .

الثانى — تنفيذُ الأحكام، بين المتَشاجِرين ، وقطْعُ الخِصام، بين المتنازعين؛ حتّى تعُمَّ النَّصَفَةُ فلا يتعدّى ظالم ولا يَضْعُف مظلُوم .

الثالث — حمايةُ البَيْضَة، والذَّبُّ عن الحُرَم : ليتصرَّفَ الناسُ فى المَعَايش، وينتشِرُوا فى الأسْفار آمنين من تغْرير بنفْس أو مال .

الرابـع — إقامةُ الحُـدود لتُصانَ محارِمُ الله تعالىٰ عن الاْنتهاك ، وتُحْفَظَ حقُوقُ عباده من الإتْلاف والاْستهْلاك .

الخامس — تحصينُ الثُّغُور بالعُدّة المانِعه ، والقُوّة الدافِعه ، حتّىٰ لايظْفَرَ الأعداءُ بِغِرَّة ينتهِكُون بها محْرما ، أو يَسْفِكُون فيها لمسلِمٍ أو معاهَدٍ دماً .

السادس — جِهادُ مَنْ عانَدَ الإسلامَ بعد الدَّعوة حتّىٰ يُسْلِم أو يدْخُلَ فى الذِّمّة : ليقام بحقِّ الله تعالىٰ فى إظهارِه علىٰ الدِّين كلِّه .

السـابع — جِبَايةُ الفَيْءِ (١) والصَّدَقاتِ علىٰ ما أوجبه الشرْعُ نصًّا واْجتهادا من غير حَيْف ولا عَسف .

الثـامن — تقدير العطاء وما يُستَحَقُّ فى بيتِ المـال من غير سَرَف ولا تقْتير ، ودفعُه فى وقت لاتقديمَ فيه ولا تأْخير .

التـاسع — اْستِكفاءُ الأُمَنـاء ، وتقليدُ النُّصَحاء ، فيما يفوِّضه [إليهم من الأعمال] (٢) ويكلُه إليهم من الأموال : لتكونَ الأعمالُ بالكُفَاةِ مضبُوطة ، والأموالُ بالأُمَناءِ محفُوظة .

العـاشر — أن يُباشِرَ بنَفْسه مُشَارَفَةَ الأمور وتصَفُّحَ الأحوال : لِيَنْهَضَ بسياسة الأُمّة ، وحِراسـة المِلّة ؛ ولا يُعوّل علىٰ التفويض تشاغُلًا بلذّة أو عبادة ، فقد يخونُ الأمينُ ويغُشُّ الناصحُ . وقد قال تعـالىٰ : ﴿ يا دَاوُدُ إنَّا جعَلْنَاكَ خَلِيفةً فى الأَرْض فاْحكُمْ بيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوىٰ فيُضِلَّكَ عن سَبِيل الله ﴾ . فلم يقتَصر اللهُ

---

(١) يطلق الفىء على الغنيمة والخراج والمراد هنا الثانى .

(٢) الزيادة من ""الأحكام"" .

تعالىٰ علىٰ التفويض دُونَ المُبَاشَرة ، بل أَمَرَه بمباشَرةِ الحُكْم بين الخَلق بنَفْسه . وقد قال صلىّٰ الله عليه وسلم : "كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكم مَسْئُولٌ عن رَعِيَّته" ولله درُّ محمدِ بنِ يَزْدادَ وزيرِ المأمون، حيثُ قال مخاطبا له :

مَنْ كانَ حارِسَ دُنْيَا إنَّهُ قَمِنٌ * أنْ لاينامَ وكُلُّ الناس نُوَّامُ!

وكَيْفَ ترقُدُ عَيْنَا مَنْ تَضَيَّفه * هَمَّانِ مِن أمْرِه : حَلٌّ وإبْرامُ!

وحينئذ فيجب علىٰ الكاتب أن يضَمِّن هذه الأمورَ العشرةَ فى وصايَا المعهُود إليه . وقد ذكر المَقَرّ الشِّهابىُ بنُ فضل الله فى "التعريف" فى وصيَّة ولىِّ العهد بالخلافة ومَنْ فى معناه من الملوك ووُلاة عهْدِهم هذه الأمورَ ممتزِجةً بأمور أخرىٰ من مُهِمَّات الملك وحُسْن تدبيره وسياسته .

قلت : إنما يحسُن إيراد هذا كلِّه فى وصايا وُلَاة العهد إذا كان الأمرُ علىٰ ما كانت الخلافةُ عليه أوّلا من عُموم التصرُّف؛ أما الآنَ فالواجبُ أن يُقْتَصر فى وصاياهم علىٰ حُسْن التأتِّى فى العهد بالسلطنة لمن يقُوم بأعبائها، وأن يكونَ ماتقدّم مختصًّا بوصايا المُلوك فى العهُود عن الخلفاء .

الوجـــــه الرابع

(فيما يُكتَب فى الطُّرَّة ، وهو تلخيصُ مايتضمَّنُه العهدُ)

وهذه نسخة طُرَّة أنشأتُها ليُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

هذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُوده ، وزادَ فى الإرتقاء فى العَلْياء صُعُودُه، وفُصِّلت بالجواهر قلائدُه ونُظِّمتْ بنفيس الدُّرّ عقُودُه . من عبدِ الله ووليِّه الإمام المتوكِّل

علىٰ الله أبى عبد الله محمدِ بن الإمام المعتضـدِ بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة المقدَّسة، لولده السيِّد الجليـل ذخيرةِ الدِّين، وولىِّ عهد المسلمين؛ أبى الفضـل العباس : بلَّغه الله فيه غايةَ الأمل ، وأقرّ به عينَ الأمة كما أقرّ به عيْنَ أمير المؤمنين وقد فَعَل علىٰ ماشُرِح فيه .

الوجـــــه الخـامس

(فيما يُكتَب لأولياءِ العهـد من الألقـاب)

[وهو] كما سيأتى فى الطريقة الثانيـة من المَذْهب الأوّل ممـا يُكتَب فى مَتْن العهد من كلام المقرّ الشهابىّ بن فضـلِ الله فى "التعريف" أنه يقال فيه : الأمير السَّيِّد الجليل، ذخِيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين، أبى فلان فلان . وفى المَذْهَب الثالث فيما كتب به للمستوثِق بنِ المستكفى ما يوافِقُه ؛ وقد تقـدّم أنه لا يَقَع فى ألقابهم إطنابٌ، ولا تعدُّدُ ألقاب، فليقتَصَرْ علىٰ ذلك أو مايشابهه .

الوجـــــه السـادس

(فيما يكتب فى مَتْن العهـد ، وفيه ثلاثة مذاهبَ)

المـــذهب الأوّل

(أن يفتَتَح العهدُ بعد البسملة بلفظ « هذا »)

مثل : «هذا ماعَهِد به فلان لفلان» أو « هذا عهدٌ من فلان لفلان» أو «هذا كتابٌ اكتَتَبه فلان لفلان» ونحو ذلك .

وللكُتَّاب فيه طريقتان :

الطريقــة الأُولىٰ
(طريقــةُ المتقدِّمين)

وهى أنْ لايأتى بخُطْبة فى أثناءِ العَهْـد ، ولا يتَعَرَّض إلىٰ ذكرِ أوصافِ المعهود إليه والثناءِ عليه ، أو يتعرَّض لذلك باختصار ؛ ثم يأْتِى بالوصايا ؛ ثم يختِمُه بالسلام أو بالدعاءِ أو بغيرِ ذلك ممـا يُناسِب . وعلىٰ ذلك كانتْ عهودُ السَّلَف من الصَّحابة والتابعين فَمَنْ بعدَهم ، ٱتِّباعاً للصِّدِّيق رضى الله عنه فيما كَتَب به لعُمَرَ بنِ الخطَّاب ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الاستشهاد .

ونسختُه فيما رواه البيهقىُّ فى "السُّنَن" وٱقتصر عليــه الشيخُ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ فى "حسن التوسُّل" .

«هذا ماعهِدَ أبو بكر خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم آخِرَ عهْدِه بالدنيا وأوّلَ عهدِه بالآخِرة : إنى ٱستخلفْتُ عليكم عمرَ بنَ الخطاب فإنْ بَرَّ وعدَلَ فذلك ظنِّى به ، وإن بدّلَ أو غيَّرَ فلا عِلْمَ لى بالغَيْب ، والخيْرَ أردتُ بكم ، ولكلِّ ٱمرِئٍ ما ٱكتَسَبَ مِنَ الإثْم : ﴿وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون﴾» .

وذكر أبو هلال العســكرىّ فى كتابه "الأوائل" عن المدائنىّ أنه حِينَ دعا عثمانَ ٱبنَ عفَّانَ رضى الله عنه لكتابة العهْد بالخلافة بعــده قال : ٱكتُبْ « هذا ماعهِدَ أبو بكرِ بْنُ أبى قُحافةَ فى آخرِ عهدِه بالدنيا [نازحا عنها](١) وأوّلِ عهــده بالآخرة داخلًا فيهـا حيثُ يتوبُ الفاجِرُ ، ويُؤْمِن الكافر ، ويَصْـدُق الكاذِب ؛ وهو يشْهَدُ أن لاإلٰهَ إلّا اللهُ وأنَّ محمدًا عبـدُه ورسوله ، وقد ٱسْتَخْلَف» ـــ ثم دهمْتَه غَشْيةٌ فكتب عثمان : « عُمَرَ بنَ الخطَّاب » . فلمَّـا أفاق ، قال : أ كتبْتَ شيئا ؟ قال نعمْ عُمَرَ

(١) الزيادة من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

ابن الخطاب . قال : « رحمك الله ، أما إنك لو كتبت نفسك لكنت أهلا لها، اكتب قد استخلف عمر بن الخطاب ورضيه لكم ، فإن عدل فذلك ظني به ورأيي فيه، وإن بدل فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ » .

وعلى هذه الطريقة كتب عهد عمر بن عبد العزيز بالخلافة عن سليمان بن عبد الملك، ثم من بعده إلى أخيه يزيد بن عبد الملك .

وهذه نسخته فيما ذكره ابن قتيبة فى تاريخ الخلفاء :

هذا ما عهد به عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين وخليفة المسلمين . عهد أنه يشهد لله عز وجل بالربوبية والوحدانية، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، بعثه إلى محسني عباده بشيرا، وإلى مذنبيهم نذيرا . وأن الجنة والنار مخلوقتان حقا : خلق الجنة رحمة وجزاء لمن أطاعه، والنار نقمة وجزاء لمن عصاه، وأوجب العفو جودا وكرما لمن عفا عنه . وأن سليمان مقر على نفسه بما يعلم الله من ذنوبه ، وبما تعلمه نفسه من معصية ربه، موجبا[1] على نفسه استحقاق ما خلق من النقمة ، راجيا لنفسه ما خلق من الرحمة ووعد من العفو والمغفرة، وأن المقادير كلها خيرها وشرها مقدورة[2] بإرادته ، مكونة بتكوينه، وأنه الهادى فلا مغوى ولا مضل لمن هداه وخلقه لرحمته، وأنه يفتن الميت فى قبره بالسؤال عن دينه ونبيه الذى أرسل إلى أمته ، لا منجى لمن خرج من الدنيا إلى الآخرة من هذه المسألة إلا لمن استثناه عز وجل فى علمه . وسليمان يسأل الله الكريم بواسع فضله، وعظيم منه ، الثبات على ما أسر وأعلن من معرفة حقه وحق نبيه عند

(١) كذا فى الأصول بالنصب وكذلك وقع فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

(٢) فى كتاب الامام والسياسة لابن قتيبة «خيرها وشرها من الله وأنه هو الهادى الخ» .

مَسْأَلة رُسُله ؛ والنَّجاةَ من هَوْل فتنة فَتَّانيه . ويشْهَدُ أنَّ الميزان يومَ القيامة حقٌّ يقين، يزِنُ سيئاتِ المسيئين ، وحسَناتِ المحسنين : ليُرِىَ عبادَه من عظيم قُدْرته، ماأراده من [الخير] لعباده بما لم يكونُوا يحتَسِبُون ؛ وأنَّ من ثقُلَتْ موازِينُه فأولٰئكَ هم المُفْلِحُون ، ومَنْ خَفَّتْ موازِينُه يومَئذٍ فأولٰئك هم الخاسِرُون . وأنَّ حوضَ محمدٍ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم يومَ المَحْشَر والموْقِف للعرْض حقٌّ، وأنَّ عدَدَ آنيتِه كنُجُوم السماء، من شَرِبَ منه لم يظْمَأْ أبدا ، وسليمان يسألُ الله بواسع رحمتِه أن لا يُردَّه عن حوض نبيِّه عطشان . وأنَّ أبا بكر وعمرَ خيرُ هذه الأمة بعد نبينا، والله يعلمُ بعدَهما حيثُ الخيْرُ وفيمن الخَيْرُ من هذه الأمة. وأنَّ هذه الشهادةَ كلَّها المذكورةَ فى عهدِه هذا يعلمُها الله من سِرّه وإعلانه وعَقْد ضميره، وأنه بها عبَدَ ربه فى سالفِ أيَّامه وماضِى عُمُره، وعليها أتَاه يقينُ ربه، وتوفَّاه أجَلُه، وعليها يُبْعَث بعد موتِه إن شاء الله . وأن سليمان كانت له بينَ هذه الشهادة بَلَايَا وسيِّئَاتٌ[1] لم يكُنْ له عنها مَحِيد ولابُدّ، جرىٰ بها المقدور من الرَّبِّ النافِذُ إلىٰ إتمام ماحَدّ؛ فإن يعْفُ ويصْفَحْ فذاك ماعُرِف منه قديمًا ونُسِب إليه حَديثا، وتلك صِفَتُه التى وَصَف بها نفسه فى كتابه الصادقِ، وكلامه الناطق ؛ وإنْ يُعاقِبْ ويَنْتَقِم فبما قدّمتْ يَداه، وما اللهُ بظَلَّام للعبيد . وأن سليمان يُحَرِّج علىٰ مَنْ قرأ عهدَه هذا وسمِعَ ما فيه من حكمة أن ينْتهِىَ إليه فى أمْره ونَهْيه ، باللهِ العظيم ، ومحمدٍ رسولِهِ الكريم ؛ وأن يَدَعَ الإحَنَ المُضْغَنه ، ويأخُذَ بالمكارم المُدْجَنه ؛ ويرفَعَ يديه إلىٰ الله بالضمير النَّصُوح والدُّعاءِ الصحيح ، والصَّفْح الصَّريح ؛ يسأله العفْوَ عنِّى، والمغفرةَ لى، والنجاةَ من فَزَعى والمسألةِ فى قَبْرى، لعلَّ الوَدُودَ، أن يجعَلَ منكم مُجابَ الدعوة بما مَنَ اللهِ علَىَّ

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « لم يكن له عنها محيص ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ فى محكم الوحى فان يعف » الخ .

من صَفْحه يعود، إن شاء اللهُ . وأنَّ ولىّ عهدِ سليمان بنِ عبد الملك أميرِ المؤمنين، وصاحبَ أمْره بعد موتِه، فى جُنْـده ورعِيَّته وخاصَّته وعامته؛ وكلِّ من ٱستخْلَفنى الله عليه، وٱستَرْعانِى النظرَ فيه، الرجلُ الصالح «عمرُ بن عبد العزيز» بنِ مَرْوان ٱبنُ عمِّى، لمـا بلَوْتُ من باطن أمْره وظاهِره، ورجوتُ الله بذلك [وأردت] رِضاه ورحمتَـه إن شاء الله . ثم من بعده تُسلَّمُ إلىٰ يَزِيدَ بنِ عبد الملك بن مَرْوان إن بقِى بعْده، فإنِّى مارأيتُ منه إلَّا خيرا ولا ٱطَّلعتُ له علىٰ مكْروه . وصِغار ولَدى وكبارُهم إلىٰ عُمَر، إذ رجوتُ أن لا يألُوَهم رَشَدا وصَلاحا، والله خليفتِى عليهم وعلىٰ جماعةِ المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين ؛ وٱقْرءُوا عهْدى عليكم السلام ورحمة الله . ومن أبىٰ أمْرِى هذا أو خالَف عهْدى هذا ـ وأرجو أن لايخالفه أحدٌ من أمة محمد ـ فهو ضالٌّ مضِلٌّ يُستعْتَب، فإنْ أَعتبَ وإلَّا فإنى لمن صاحب(؟) عهدى فيهم (١) بالسـيف السيف والقتلِ القتل، فانهم مستوجبون لهم، وهم لهيبته ملقحون، والله المستعان، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله القديم الإحسان .

تم ذلك والحمدُ لله وحده، وصلواته علىٰ سيدنا محمد وآله .



وعلىٰ نحوٍ من ذٰلك كتب المأمونُ العباسىُّ عهدَ علىّ بن موسى العَلَوىّ (المعروف بالرِّضىِّ) بالخلافة بعده .

وهذه نسخته فيما ذكر صاحب العِقْد :

هذا كتابٌ كتبه عبدُ الله بن هارونَ الرشيد أميرُ المؤمنين بيده، لعلىّ بنِ موسىٰ بن جعفر ولىِّ عهْده .

---

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « والا فالسيف والله المستعان » وهى واضحة .

أما بعدُ، فإنّ الله عز وجلّ ٱصطفىٰ الإسلامَ دينا، وٱصطفىٰ له من عباده رُسُلا دالِّين عليه، وهادين إليه، يبَشّر أوّلهم بآخرهم، ويصدِّق تاليهم ماضيَهم؛ حتّى ٱنتهت نبوّةُ الله إلىٰ محمدٍ صلّى الله عليه وسلم علىٰ فَتْرةٍ من الرُّسُل، ودُرُوس من العلم، وٱنقطاعٍ من الوَحْى، وٱقترابٍ من الساعةِ؛ نختم اللهُ به النبيِّين وجعله شاهِدًا لهم، ومُهَيْمنا عليهم؛ وأنزل عليه كتابَهُ العزيز الذى ﴿لا يأْتيه الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفه تَنْزيلٌ من حَكيمٍ حَميدٍ﴾. فأحَلَّ وحَرّم، ووعَدَ وأوْعَد؛ وحذّر وأنْذَر، وأمَر به ونَهىٰ عنه: لتكونَ له الحجةُ البالغة علىٰ خَلْقه: و(١) ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنةٍ، ويَحْيَا مَنْ حَىَّ عن بَيِّنَةٍ وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليم﴾. فبلَّغَ عن الله رسالتَهَ، ودعا إلىٰ سبيله بما أمره به من الحِكْمة والمَوْعظة الحَسَنة، والمجادلةِ بالتى هى أحسَن، ثم بالجهاد والغِلْظة حتّى قَبَضَه اللهُ إليه، وٱختار له ماعِنْده صلّى اللهُ عليه؛ فلمَّا ٱنقضتِ النبوّةُ وخَتَم الله بمحمد صلّى الله عليه وسلم الوَحْىَ والرسالة، جعلَ قِوَامَ الدين، ونِظامَ أمر المسلمين، بالخلافةِ وإتمامِها وعِزِّها، والقيامِ بحق الله فيها بالطاعةِ التى تُقَام بها فرائضُ الله وحُدُوده، وشرائعُ الإسلام وسُنَنُه، ويُجاهَد بها عدُوُّه. فعلىٰ خُلَفاء الله طاعتُه فيما ٱستحْفَظهم وٱسترْعاهم من دِينه وعِبادِه، وعلىٰ المسلمين طاعةُ خُلَفائهم ومُعاونَتُهم علىٰ إقامةِ حقِّ الله وعَدْله، وأَمْنِ السُّبُل وحَقْن الدِّماء، وصلاح ذاتِ البَيْن، وجَمْع الألفة؛ وفى إخلال ذلك ٱضطرابُ حَبْل المسلمين وٱختلالهم، وٱختلافُ مِلّتهم، وقَهْرُ دِينهم، وٱستعلاءُ عدُوِّهم، وتفَرُّقُ الكلمة، وخُسرانُ الدنيا والآخرة. فحقٌّ علىٰ من ٱستخْلَفه اللهُ فى أرضه، وأئْتَمنه علىٰ خَلْقه [أنْ] يُؤْثِر مافيه رضا اللهِ وطاعتُه ويعْد[ل] فيما اللهُ واقفُه عليه وسائلُه عنه، ويحْكُمَ بالحق ويعمَل بالعدل فيما حَمَّله الله وقلّده؛ فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام:

(١) لعل الجار والمجرور فى المحلين زائد من قلم الناسخ.

﴿يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾ . وقال عز وجل : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وبلغنا أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب قال : « لو ضاعَتْ سَخْلةٌ بجانبِ الفُراتِ لتخوّفْتُ أن يسألَنِي اللهُ عنها » . وَايْمُ اللهِ إنَّ المسئُول عن خاصَّةِ نفْسه ، الموقُوفَ علىٰ عمله ، فيما بَيْنَ الله وبَيْنه ، لَمُتعرِّضٌ لأمرٍ كبير ، وعلىٰ خَطَرٍ عظيم ، فكيف بالمسئُول عن رعاية الأُمَّة ؛ وبالله الثِّقةُ ، وإليه المَفْزَع والرَّغْبة فى التوفيق مع العِصْمة ، والتَّسْديد والهداية إلىٰ مافيه ثُبوتُ الحُجَّة ، والفوزُ من الله بالرِّضوان والرحمة . وأنظَرُ الأئمة لنفسه ، وأنصَحُهم فى دِينه وعبادِه وخلافتِه فى أرضه ، مَنْ عمِل بطاعة الله وكتابه وسنَّة نبيه عليه السلام فى مدّة أيَّامه ، واجتهَدَ وأجهَدَ رأْيَه ونظَره فيمن يُولِّيه عَهْدَه ، ويختارُه لإمامة المسلمين ورِعايَتِهم بعدَه ، ويَنْصِبُه عَلَما لهم ، ومَفْزَعا فى جَمْع أُلْفتِهم ، ولَمِّ شَعَثِهم ، وحَقْن دمائِهم ، والأمْنِ بإذْن الله من فُرْقتِهم ، وفسادِ ذاتِ بينِهم واختلافِهم ، ورَفْع نَزْغ الشيطان وكيدِه عنهم ؛ فإن الله عز وجل جعل العهْدَ بالخلافة من تمام أمرِ الإسلام وكمالِه وعِزِّه وصَلاحِ أهله ؛ وألْهم خلفاءَه من توْسيده لمن يختارُونه له من بعدهم ماعظُمتْ به النِّعمة ، وشَمِلَت منه العافية ، ونقَضَ الله بذٰلك مَرَّ[1] أهل الشِّقاق والعَداوة والسعْيِ فى الفُرْقة والرَّفْض[2] للفتنة ؛ ولم يزَلْ أميرُ المؤمنين منذُ أُفضَتْ إليه الخلافةُ فاختبَر بَشَاعةَ مَذَاقتِها ، وثِقَلَ مَحْمِلها وشِدّةَ مَئُونتِها ؛ وما يجب علىٰ من تقلَّدها من ارتباط طاعةِ الله ومراقبته فيما حَمَّلَه منها[3] ؛ فأنْصَبَ

(١) فى اللسان ج ٧ ص ١٥ « المر بفتح الميم الحبل » .

(٢) أى تركها تسير فى الناس ؛ ففى اللسان الرفض أن يطرد الرجل غنمه وابله إلى حيث يهوى فاذا بلغت لها عنها وتركها .

(٣) لعله ناظرا فيها بما يقتضيه منصبها وما يجب اخ وبه يستقيم الكلام بعد تأمل .

بدَنَه، وأسهر عينَه؛ وأطال فِكْرَه فيما فيه عِزُّ الدين، وقمعُ المشركين؛ وصلاح الأمّة، ونشرُ العدل، وإقامةُ الكتاب والسُّنَّة؛ ومَنَعه ذلك من الخَفْض والدَّعة بهَنِيِّ العيش: علما بما اللهُ سائلُه عنه، ومحبّةً أن يلْقىٰ الله مُناصِحَه في دِينه وعباده، ومختارا لوِلَاية عهْدِه، ورعايةِ الأمّة من بعده، أفضلَ مَنْ يقدِر عليه في دِينه ووَرَعه وعِلْمه، وأرجاهم للقيام بأمْرِ الله وحقِّه؛ مناجيًا لله بالآستخارة في ذلك، ويسأله إلهامَهُ ما فيه رضاه وطاعتُه في ليله ونهارِه، ومُعْمِلا في طلَبه وآلتماسه من أهل بيتِه من وَلَد عبد الله آبن العباس وعليّ بن أبي طالب فِكْرَه ونَظَره، ومقتَصِرا فيمن عَلِم حالَه ومذْهَبَه منهم علىٰ علمه، وبالغًا في المسألة عمّن خَفِيَ عليه أمْرُهُ جُهْدَه وطاقَتَه، حتّىٰ آستقْصىٰ أُمورَهم بمعرفتِـه، وآبتلىٰ أخْبارَهم مشاهَدَة، وكشَفَ ماعندهم مُسَاءلة؛ فكانت خِيرتُه بعد آستخارته لله وإجهاده نفْسَـه في قضاء حقِّه وبلاده، من البيتين جميعًا «عليَّ بنَ موسىٰ بن جعفر» بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب: لمـا رأىٰ [من] فضْلِه البارع، وعلمِه الناصع؛ وورَعِه الظاهر، وزُهْدِه الخالص، وتخلِّيه من الدنيا، وتسلُّمَه من الناس؛ وقد آستبان له مالم تزَل الأخبارُ عليه متَواطِئه، والألسُنُ عليـه متفقةً والكلمةُ فيـه جامعه؛ ولمـا لم يَزَلْ يعرِفُه به من الفضل يافِعًا وناشِئا، وحدَثا ومُكْتَهِلا؛ فعقَد له بالعَقْد والخلافة إيثارًا لله والدِّين، ونظَرًا للسلمين، وطلَبًا للسلامة وثباتِ الحجّة والنجاة في اليوم الذى يقُومُ الناس فيه لربِّ العالمين.

ودعا أميرُ المؤمنين وَلَده، وأهلَ بيتـه، وخاصّـتَه، وقُوّادَه، وخَدَمَه، فبايعُوه مُسْرِعين مسْرُورين، عالمين بإيثارِ أمير المؤمنين طاعةَ الله علىٰ الهوىٰ في وَلَده وغيرِهم ممن هو أشْـبَكُ به رَحِمًا وأقرب قرابة، وسمّـاه «الرِّضيّ» إذ كان رَضيًّا عند أمير المؤمنين.

فبايِعُوا معْشَرَ بيتِ أمير المؤمنين ومَنْ بالمدينة المحروسة من قُوَّاده وجُنْده، وعامة المسلمين « الرِّضيَّ » من بعده، علىٰ آسم اللهِ و بركته وحُسْن قضائِهِ لدينه وعبادِه؛ بيعةً مبسوطةً إليها أيْديكم، منشرِحةً لهـا صدُورُكم، عالمين بمـا أراد أمير المؤمنين بها، وآثَرَ طاعةَ الله والنظرَ لنفْسه ولكم فيهـا، شاكِرِينَ للهِ علىٰ ماألْهَم أميرَ المؤمنين من نَصَاحتِه فى رِعَايتكم، وحِرْصــه علىٰ رُشْـدِكم وصَلَاحكم، راجينَ عائدَه فى ذلك فى جمع أُلْفتِكم، وحقْن دِمائِكم، ولَمِّ شَعَثِكم، وســدِّ ثُغُوركم، وقُوَّةِ دينكم، ورَغْم عدوّكم، وآستقامةِ أموركم. وسارِعُوا إلىٰ طاعة الله وطاعةِ أميرالمؤمنين، فإنَّه الأمْرُ إن سارعْتُم إليه، وحمِدتُمُ اللهَ عليه؛ عرَفْتُم الحَظَّ فيه. إنْ شاء الله تعالىٰ.

* * *

وعلىٰ هــذه الطريقةِ كتب الوزيرُ أبو حفْص بنُ بُرْد عهْدَ النـاصر لدين الله عبــدِ الرحمن بنِ المنصور بنِ أبى عامر العـامرىّ، عن المؤيّد بالله هشام بن الحكم الأُمَوىّ، الخليفةِ بالأنْدَلُس. وهذه نسخته :

هذا ما عَهِدَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله أمير المؤمنــين إلىٰ الناس عامَّه، وعاهدَ اللهَ عليــه من نَفْسه خاصَّــة وأعطىٰ به صَفْقةَ يمينِه بيعةً تامَّه، بعد أنْ أنْعمَ النظرَ وأطال الآستخارةَ وأهمَّه ماجعل اللهُ إليه من الإمامة، وعَصَب بهِ من أمرِ المؤمنين، واتَّقىٰ حُلُولَ القَدَر بمـا لايُؤْمَن، وخافَ نُزولَ القضاء بما لايُصْرَف، وخَشِيَ إنْ هَجَم محتومُ ذلك عليه، ونزلَ مقْدُورُه به، ولم يرفَعْ لهذه الأمّة عَلَما تأْوِى إليه، ومَلْجأً تنْعطِف عليــه، أنْ يكونَ يلقىٰ ربَّه تبارك وتعـالىٰ مفرِّطا ساهياً عن أداء الحق إليها؛ ويُغْمِضَ عنــد ذلك من أحيــاء قُرَيش وغيرها من يستَحِقُّ أن يُسْنَدَ هــذا الأمْرُ إليــه، ويُعوَّل فى القيام به عليــه؛ ويســتوجبُه بِدينه وأمانتِه، وهَدْيِه وصيانتِه؛

بعدَ ٱطِّراح الهوىٰ والتحرِّى للحق ، والتزلُّف إلىٰ الله جلَّ جلاله بما يُرْضِيه . وبعدَ أنْ قَطَع الأواصِرَ، وأسْخط الأقارِبَ، فلم يجِدْ أحدًا أجْدَرَ أن يولِّيه عهْدَه ، ويفوِّضَ إليه الخلافةَ بعْدَه : لفضلِ نَفْسه ، وكَرَم خِيمه، وشرفِ مَرْتبته ، وعُلُوِّ مَنْصِبه، مع تُقَاه وعَفَافه ، ومَعْرفته وحَزْمه ونَقَاوته ، من المأمُونِ العَيْب، النَّاصِح الجَيْب «أبى المطرِّف عبد الرحمن بن المنصور» أبى عامر محمد بن أبى عامر وفَّقه الله ، إذ كان أميرُ المؤمنين ـ أيده الله ـ ٱبْتلاه وٱختبَره، ونظَر فى شأنه وٱعتبَره، فرآه مُسارِعا فى الخيْرات، سابقًا فى الحَلَبات، مستولِيًا علىٰ الغَايَات، جامعا للمَأْثُرات، ومَنْ كان المنصورُ أباه، والمظفَّرُ أخاه، فلا غَرْوَ أن يبْلُغَ من سبيل البِرِّ مدَاه، ويحْوِىَ من خِلَال الخير ماحَوَاه ، مع أنَّ أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ بما طالَعه من مكنُون العِلم ، ووعَاه من مخْزُون الأَثَر، يرىٰ أن يكونَ ولِىُّ عهدِه القَحْطانِىَّ الذى حدَّث عنه عبدُ الله بن عمْرو بن العاص وأبو هريرةَ : أنَّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلم قال : " لاتَقُومُ الساعةُ حتّى يَخْرُجَ رجُلٌ من قَحْطانَ يَسُوقُ النَّاسَ بعَصَاه " فلما ٱستَوىٰ له الاختِيار، وتقابلَتْ عنْدَه فيه الآثار، [و]لم يجِدْ عنه مَذْهبا، ولا إلىٰ غيره مَعْدِلا، صرَّح إليه فى تدبير الأُمور فى حياته، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وَفَاته، طائعا راضيًا مجتهِدا، وأمضىٰ أميرُ المؤمنين هذا وأجازه وأنْفذه، ولم يشترط فيه مَثْنَوِيَّةً ولا خِيارا ، وأعطىٰ علىٰ الوَفَاء به فى سِرّه وجهره وقولِه وفِعْله عَهْدَ الله وميثاقَه ، وذِمة نبيه محمد صلَّى الله عليه وسلم ، وذِمَمَ الخلفاء الراشدين من آبائه ، وذِمَّةَ نَفْسه : أن لايُبَدِّل ، ولا يغَيِّر ، ولا يَحُول ، ولا يزُول ، وأشهد الله علىٰ ذٰلك والملائكةَ ﴿ وكَفىٰ بِاللهِ شَهِيدا ﴾ . وأشهد من أوقَع ٱسمَه فى هذا ، وهو جائز الأمر، ماضِى القولِ والفِعل، بمَحْضَرٍ من ولىِّ عهدِه المأمونِ أبى المطرف عبدالرحمن بن المنصور وفَّقه الله، وقبُوله ما قلَّده، وإلزامه نفْسَه ما ألزمه ، وذٰلك فى شهر ربيع الأوّل

سنة ثمـان وتسعين وثلثمائة . وكَتَبَ الوزراءُ والقضاةُ وسائرُ الناس شهاداتِهم بخطوط أيديهـم بذلك .

الطريقة الثانيــة
(طريقــة المتأخِّرين من الكُتَّاب)

أن يأتى بالتحميد فى أثناء العَهْد، ويأتِىَ من ألقاب ولىِّ العهد بمـا يناسب علىٰ الاختصار، وعليها اقتصر المَقَرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى "التعريف" فقال : واعلم أنَّ عهودَ الخلفاء عن الخلفاءلم تَجْر عادةُ مَنْ سلَف من الكُتَّاب أنيستفْتِحها إلا بمـا يذكر، وهو :

«هـذا ماعَهِد[به] عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىّ أميرُ المؤمنين، عهد إلىٰ ولَده، أو [إلىٰ] أخيــه الأميرِ السيد الجليل، ذَخيرةِ الدِّين ، وولىِّ عهد المسلمين أبى فلان فلان، أيَّده الله بالتمكين، وأمدَّه بالنصر المُبين ، وأقرّ به عيْنَ أمير المؤمنين» . ثم يُنْفِق كلُّ كاتبٍ بعد هذا علىٰ قَدْر سَعَته، ثم يقول :

« أما بعدُ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يَحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو، ويصلِّى علىٰ نبيه محمدٍ صلَّى الله عليه وسـلم » ويخطُبُ فى ذٰلك خُطْبة يُكْثِر فيها التحميدَ ويَنْتَهِى فيه إلىٰ سبعة، ثم يأتى بعد ذلك بمـا يُناسِب من القول : يصِف فكرالذى يَعْهَـد فيمن بعْـدَه، ويصِفُ المعهودَ إليه بمـا يليق من الصِّفات الجليـلة . ثم يقول : «عهد إليــه وقلَّده بعــدَه جميع ماهو مقلَّده، لمـا رآه من صَلَاح الأمةِ، أو صَلَاح الخلق، بعــدَ أنِ استخارَ اللهَ تعـالىٰ فى ذٰلك، ومكَث مدّةً يتدبّرذٰلك ويُرَوِّى فيه فكْره وخاطِرَه، ويستشيرُ أهــلَ الرأى والنظر، فلم يَرَ أقومَ منه بأمور الأمة ومَصَالح

الدنيا والدِّين» ومن هذا ومثله ؛ ثم يقال : «إنَّ المعهودَ إليه قبلَ ذلك منه» ويأتى فى ذلك بمـا يليقُ من محَاسن العبارة وأحاسِنِ الكلام .

قلت : ولم أظْفَر بنسخة عهدٍ علىٰ هذا الأُسْلوب الذى ذكره المقرُّ الشِّهابىّ ؛ وقد أنشأت عهدًا علىٰ الطريقـةِ التى أشار إليها، آمتحاناً للخاطر : لأنْ يكونَ عن الإمام المتوكِّل علىٰ الله أبى عبـدِ الله محمدِ بن المعتضِد أبى الفتح أبى بكر، خليفـةِ العصر، لوَلَده العباس : ليكون أُنْموذَجا يُنْسَج علىٰ مِنْواله .

ومن غريبِ الآتِفاق أنِّى أنشأْته فى شُهُور سنةِ إحدىٰ وثمـانمائة آمتحانا للخاطر كما تقدّم ، وضمَّنته هـذا الكتابَ وتمـادىٰ الحالُ علىٰ ذلك إلىٰ أن قبضَ اللهُ تعـالىٰ الإمامَ المتوكِّل ـ قدّس الله تعالىٰ رُوحَه ـ فى سـنة ثمـان وثمانمـائة ؛ فأجمع أهلُ الحلِّ والعَقْد علىٰ مبايعته بالخلافة ؛ فبايَعُوه وحقَّق الله تعالىٰ ما أجراه علىٰ اللِّسان من إنْشاء العهد باسمه فى الزَّمن السابق ؛ ثم دعَتْنِى داعيةٌ إلىٰ التمثُّل بين يديه الشريفتين فى مستَهلِّ شهر ذِى القَعْدة الحرام سـنةَ تسع وثمـانمائة ، فقرأته عليه من أوّله إلىٰ آخره، وهو مُصْغٍ له مظهرٌ الآبتهاجَ به ؛ وأجاز عليـه الجائزةَ السنية . ثم أنشأتُ له رسالةً وضمنتُه إيَّاها وأُوِ عتْ بخِزانته العالية عَمَرها اللهُ بطُول بقائه .

وهـــذه نسخته :

هذا عهدٌ سعيدُ الطالع ميمونُ الطائر، مبارَكُ الأول جميلُ الأوسط حميدُ الآخر؛ تَشْهد به حضَراتُ الأمْلاك ،وترقُمُه كَفُّ الثُّريَّا بأقلام القَبُول فى صحائِف الأفْلاك ؛ وتُباهِى به مُلُوكُ الأرض ملائكةَ السما، وتَسْرِى بنَشْره القَبُولُ إلىٰ الأقطار فتنْشُر له بكلِّ ناحيةٍ علَما، وتُطْلِـعُ به سعادةُ الجَدِّ من ملُوك العَدْل فى كلِّ أُفُقٍ نجْما، وترقُص من فرحها الأنهار فتنَقِّطها شمسُ النَّهار بذَهَب الأصيل علىٰ صَفَحات المـا ؛ عهِدَ به

عبدُ الله ووليُّه أبو عبد الله محمدٌ المتوكِّلُ علىٰ الله أميرُ المؤمنين إلىٰ وَلَده السيد الجليل عُدَّة الدِّين وذَخيرته ، وصَفِيِّ أمير المؤمنين من وَلَده وخِيرتِه ؛ المستعينِ بالله أبي الفضل العَبَّاس بلَّغ الله فيه أميرَ المؤمنين غايةَ الأمَل ، وأقرّ به عينَ الخلافة العبَّاسيَّة كما أقرّ به عينَ أبيه وقد فَعَلْ .

أما بعـدُ، فالحمدُ لله حافِظِ نِظام الإسـلام وواصِلِ سَبَبه، ورافِعِ بيتِ الخلافة ومادّ طُنُبه ، وناظِمِ عِقْد الإمامة المعظَّمة فى سِـلْك بَنِى العباس وجاعِلِها كلمةً باقيةً فى عَقِبِــه .

والحمـــدُ لله الذى عَدَقَ أمْرَ الأمة منهم بأعظَمِهم خطَرا ، وأرفَعِهم قَـدْرا ؛ وأرجَحِهم عَقْلا وأوسَعِهم صَدْرا ، وأجزلِهم رأْيا وأسلَمِهم فِكْرا .

والحمـدُ لله الذى أقرّ عيْنَ أمير المؤمنين بخيْرِ وَلِىّ وأفضَلِ وَلَد، وشدّ أزْرَه بأكرم سـيد وأعزِّ سَنَد ، وصرَفَ ٱختيارَه إلىٰ مَنْ إذا قام بالأمر بعـدَه قيل هذا الشِّبلُ من ذاكَ الأسَد .

والحمــدُ لله الذى جمعَ الآراءَ علىٰ ٱختيار العاهد فما قَلَوْه ولا رفَضُوه ، وجبَل القلوبَ علىٰ حُبِّ المعهود إليه فلم يَرَوُا العُدُولَ عنه إلىٰ غيره بوجه من الوُجُوه .

والحمـدُ لله الذى جدّدَ للرعيَّة نِعمةً مع بَقاء النِّعمة الأُولىٰ، وأقام لأمْرِ الأمّة من بَنِى عمِّ نبيِّه المصطفىٰ الأوْلىٰ بذٰلك فالأَوْلى ، وٱختار لعهد المسلمين مَنْ سبقَتْ إليه فى الأزَلِ إرادتُه فأصبح فى النُّفُوس معظَّما وفى القلوب مَقْبُولا .

والحمـدُ لله الذى أضحك الخلافةَ العبَّاسية بوجُود عبَّاسها ، وأطاب بذِكْره ريَّاها فتعطَّر الوجودُ بطيبِ أنفاسِهـا ؛ ورفع قَدْرَه بالعهد إليــه إلىٰ أعلىٰ رُتْبــة مُنيفه ،

وَخَصَّه بمشاركةِ جَدّه العبَّاسِ فى الٱسم والكُنْية ففاز بما لم يَفُزْ به قبْلَه منهم ست[1] وأربعون خَلِيفه .

والحمـــدُ للهِ الذى أوْجبَ علىٰ الكافَّة طاعةَ أُولِى الأمْر من الأئمَّـه ، وألزَمَهم الدُّخولَ فى بيْعـــة الإمامِ والٱنقيادَ إليه ولو كانَ عبْدًا أسْودَ فكَيْف بمن أجْمع علىٰ سُؤْدَده الأمّه ، وأوضَح السبيلَ فى التعريف بمَقام الآلِ والعِتْرة النبويَّة ﴿فلا يَكُنْ أمْرُكُم عليكُمْ غُمَّه﴾ .

يحمَـدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما مَنَحه من طِيبِ أُرُومةٍ سَمَتْ أصـلا وزَكَتْ فَرْعا ، وحَبَاه من شَرَفِ محْتِدٍ راقَ نظَرا وشاقَ سَمْعا ، ووصله به من نِعَمٍ آثرتْ نَفَّاعا وأثَّرتْ نَفْعا ، ويشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثُونها كالخلافة كابِرًا عن كابِر ، ويُوصِّى بها أبدًا الأوّلُ منهم الآخِر ، ويُؤْذِن قيامُهم بنُصْرتها أنَّهم مَعْـدن جوهرِها النَّفيسِ ونِظامُ عِقْدِها الفـاخِر ، ويشهَدُ أنَّ سـيِّدنا محمدًا عبدُه ورسولُه ، الذى خصَّ عمَّه العباسَ بكريم الحِبَاء وشريفِ الإنافَهْ ، ونبَّه علىٰ بَقاء الأمرِ فى بَنِيه بقوىٍ ضَلَّ مَنْ أظهر عِنادَه أو أضمر خلافَه ، حيثُ أسَرَّ إليـه : "ألا أُبَشِّرُكَ يا عَمِّ بِى خُتِمتِ النبوَّةُ و بوَلَدِك تُخْتَم الخلافه" صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعم بركتُها الوَلَدَ والوالِد ، ويشْمَل معروفُها المعهودَ إليه ويَعْرِفُ شرَفَها العاهد ، ويعترِف بفضلها المُقِرُّ ولا يَسَـعُ إنكارُها الجاحد ، مانُوِّهَ بذكر الخلافة العباسـيَّة علىٰ أعواد المَنابِر ، وخَفَقتِ الراياتُ السُّود علىٰ عساكر المَوَاكب ومَوَاكب العساكر ، وسـلَّمَ تسليما كثيرا .

---

(١) ذكَّر اسم العدد علىٰ حد ماأنشده الفراء .

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

هــذا وكلُّ راعٍ مسئول عن رعيَّته، وكلُّ آمْرِئٍ محمولٌ علىٰ نيَّته ، مخبِرٌ بظاهره عن جميلِ ما أكنَّه فى صَدْره وما أسَرّه فى طَوِيَّته ؛ والإمامُ منصوبٌ للقِيام بأمر الله تعالىٰ فى عِباده ، مأمورٌ بالنصيحة لهم جُهْدَ طاقته وطاقَةَ آجْتهاده ، مطلوبٌ بالنظر فى مَصَالحهم فى حاضِرِ وقتِهم ومستقبله وبَدْءِ أمرهم ومَعَاده؛ ومن ثَمَّ آختلفَتْ آراءُ الخلفاء الراشدين فى العهد بالخلافة وتباينَتْ مقاصِدُهم ، وتنوّعَتِ آختياراتُهم بحسَب الآجتهاد وآختلفتْ موارِدُهم ؛ فعَهِد الصــدِّيقُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه متثبِّتا، وتركَها عمرُ شُورىٰ فى ســتَّة وقال : « أتحمّــل أمرَكُم حيًّا وميِّتا ! » وأتىٰ رضى الله عنه لكلٍّ من المذهبين بما أذْعن له الخَصْمُ وسلَّم، فقال : « إنْ أعهَدْ فقد عَهِد مَنْ هُو خيرٌ منِّى أبو بكر، وإنْ أترُكْ فقد ترَكَ مَنْ هو خيرٌ منِّى رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم » فأخذ الخلفاءُ فى ذٰلك بسنَّتهما، ومشَوْا فيــه علىٰ طريقتهما؛ فمن راغبٍ عن العهد وراغبٍ فيه، وعاهدٍ إلىٰ بعيــدٍ منه وآخَرَ إلىٰ آبْنه أو أخيه ؛ كلٌّ منهم بحسَبِ مايؤدِّى إليه آجتهادُه، وتقْوىٰ عليه عزيمتُه ويترجَّحُ لدَيْه آعتمادُه .

ولمّــا كان أميرُ المؤمنين ــ أحسنَ الله مآبه ــ قد نَوّر اللهُ عيْن بصيرتِه، وخَصَّــه بطهارةِ سِرِّه وصفاء سريرتِه؛ وآتاهُ الله المُلْك والحِكْمه، وأقامه لِمَصالح الرعيَّة وصلاحِ أمرِ الأُمَّه؛ وعلَّمه ممَّــا يشَاء فكان له من عِلْم الفِراســة أوْفرُ قِسْم ، وآصطفاه علىٰ أهلِ عصْره وزاده بَسْطةً فى العِلْم والجِسْم ؛ فلا يعْزِمُ أمْرا إلّا كان رَشَادا، ولا يعتَمِد فِعْلا إلا ظهرَ سَــدَادا ؛ ولا يرتئِى رأْيا إلا أُلْفِى صوَابًا، ولا يُشير بشْىء إلا حُمِدت آثارُه بِدايةً ونِهايةً وآستِصْحابا ؛ ومع ذٰلك فقــد بَلَا الناسَ وخَبَرَهم ، وعلم بالتجْربة حالَهُم وخَبَرهم ، وآطَّلع بحُسْن النظر علىٰ خَفَايا أمورهم ، وما به مصْلحةُ خاصَّتهم وجُمْهورهم ؛ وترجَّح عنده جانبُ العهدِ علىٰ جانبِ الإهمال، ورأىٰ المبادرةَ إليه أَوْلىٰ من الإمْهال ؛ ولم يزلْ يُروِّى فكرتَه ، ويُعْمل رَويَّتــه؛ فيمن يصْلُح لهــذا الأمر

بعده ، وينهض بأعبائه الثقيلة وحده ؛ ويتبع فيه سبله ويسلك طرائقه ، ويقتفى في السيرة الحسنة أثره ويشيم في العدل بوارقه ؛ ويقبل على الأمر بكليته ويقطع النظر عما سواه ، ويتفرغ له من كل شاغل فلا يخلطه بما عداه .

وقد علم أن الأحق بأن يكون لها حليفا من كان بها خليقا ، والأولى بأن يكون لها قرينا من كان بوصلها حقيقا ، والأجدر أن يكون لديها مكينا من آتخذ معها يدا وإلى مرضاتها طريقا ؛ والأليق بمنصبها الشريف من كان بمطلوبها مليا ، والأحرى بمكانها الرفيع من كان بمقصودها وفيا ، والأوفق لمقامها العالى من كان خيرا مقاما وأحسن نديا ؛ وكان ولده السيد الأجل أبو الفضل المشار إليه هو الذى وجهت الخلافة وجهها إلى قبلته ، وبالغت في طلبه وألحت في خطبته ؛ على أنه قد أرضع بلبانها وربى في حجرها ، وآنتسب إليها بالبنوة فضمته إلى صدرها ؛ وكيف لا تتشبث بحباله ، وتتعلق بأذياله ؛ وتطمع في قربه ، وتتغالى في حبه ؛ وتميل إلى أنسه ، وتراوده عن نفسه ، وهو كفؤها المستجمع لشرائطها المتصف بصفاتها ، ونسيبها السامى إلى أعاليها الراقى على شرفاتها ؛ إذ هو شبلها الناشئ في آجامها ، بل أسدها الحامى لحماها ومجيرها الوافى بذمامها ؛ وفارسها المقدم في حلبة سباقها ووارثها الحائز لجميع سهامها ؛ وحاكمها الطائع لأمرها ، ورشيدها المأمون على سرها ؛ وناصرها القائم بواجبها ، ومهديها الهادى إلى أفضل مذاهبها ؟ قد آلتحف من الخلافة بردائها ، وسكن من القلوب في سويدائها ، وتوسمت الآفاق تفويض الأمر إليه بعد أبيه فظهر الخلوق في أرجائها ؛ وآتبع سيرة أبيه في المعروف وآقتفى أثره في الكرم ، وتشبه به في المفاخر (ومن يشابه أبه فما ظلم) وتقبل الله دعاء أبيه فوهب له من لدنه وليا ، وأجاب نداءه فيه فمكن له في الأرض وآتاه الحكم صبيا ؛ فاستوجب أن يكون حينئذ للمسلمين ولى عهدهم ، واليا على أمورهم في حلهم وعقدهم ؛ متكفلا بالأمر في قربه وبعده ،

مُعِينًا لأبيـه فى حياتِه خليفةً له من بعْـدِه؛ وأن يصَرِّحَ له بالاستخلافِ ويُوضِّح، ويتلوَ عليه بلسان التفويض ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾.

وٱقتضتْ شفَقةُ أمير المؤمنين ورأفتُـه، ورِفْقُه بالأمة ورحمتُه؛ أن ينْصِب لهم ولىَّ عهدٍ يكونُ بهذه الصِّفات متَّصِفا، ومن بَحْره الكريم مغْتَرِفا، ومن ثِمَـار معروفِه المعروفِ مقتَطِفا؛ ولمَنْهَـله العَذْب وارِدا، وعلىٰ بيتِـه الشريفِ وسائِر الأمَّة بالخير عائِدا؛ فلم يجِدْ من هو مستكمِلٌ لجميعها، مستوعبٌ لأُصُولها وفُروعِها؛ وهو بمطْلُوبها أَملىٰ، وعلىٰ قلوب الرعيَّـة أحلىٰ؛ وللغَليل أشْـفىٰ، وبالعهدِ الجميلِ أوْفىٰ؛ من ولده المشارِ إليه. فاستشار فى ذٰلك أهلَ الحَلِّ والعقْد من قُضاتِه وعلمائِه، وأُمَرائه ووُزَرائه، وخاصَّته وذَوِيه، وأقاربه وبَنِيه، وأعيانِ أهل العصر وعامَّته، وجُمْهوره وكافَّته؛ فرأَوْه صوابًا، ولم يَعْرُهم فيه ظِنَّةٌ ولا مُسْترابا[1]، ولا وجدَ أحدٌ منهم إلىٰ باب غيره طريقًا ولا إلىٰ طريقِ غيرِه بابًا؛ فاستخارَ الله تعالىٰ فيه فأقبلَ خاطرُه الشريفُ عليه، وكَرَّر الٱستخارَةَ فلم يجِدْ عنه مَحِيدًا إلَّا إليه.

فلمَّـا رأىٰ أنَّ ذٰلك أمرٌ قد ٱنعقد عليه الإجماعُ قوْلا وفِعلا، وعُدِم فيه المخالِفُ بل لم يكُنْ أَصْلا؛ حمِدَ الله تعـالىٰ وأثْنىٰ عليه، وسأله التوفيقَ ورَغِب إليه؛ وجَدَّد الٱستخارةَ وعَهِد إليه بأمْر الأمَّة، وقلَّده ما هو متقَلِّده من الخلافة المقدَّسـة بعْدَه علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمَه من الخُلَفاء المـاضين، وقاعدةِ مَنْ سلَف من الأئمة المَهْدِيِّين؛ وفوَّض إليه ماهو من أحْكامِهـا ولَوَازِمها، وأُصولهـا ومَعالِمها: من عَهْدٍ ووِصَايه، وعَزْل ووِلَايه؛ وتفْويِضٍ وتَقْليـد، وٱنتِزاعٍ وتَخْليـد؛ وتفْرِيقٍ وجَمْـع، وإعطاءٍ ومَنْع، ووَصْـل وقَطْع؛ وصِلة وإدْرار، وتقْليـلٍ وإكْثار؛ جُزْئيِّها وكلِّيِّها، وخفيِّها

---

(١) اضطره السجع إلىٰ نصب المرفوع.

وجَلِيِّها، ودانيها وقاصيها، وطائعها وعاصيها؛ تفويضًا شرْعِيًّا، تامًّا مَرْضِيًّا، جامعًا لأحكامِ الوِلَايَة جَمْعا يعمُّ كلَّ نِطاق، ويَسْرِى حكمُه فى جميع الآفاق، ويدخلُ تحْتـه سائرُ الأقالِيم والأمصارِ علىٰ الإطْلاق؛ لايغيَّرحكمُه، ولا يُمْحىٰ رسْمُـه؛ ولا يَطِيشُ سَهْمه، ولا يأفِلُ نَجْمه .

قبِلَ المعهودُ إليه ـ أعلىٰ الله مَقامَه ـ ذلك بمحْضَر من القُضاة والحُكَّام، والعلماء الأعْلام؛ ولزِمَ حكمُه وآنْبرَمْ، وكُتِب فى سِجِلَّات الأفلاكِ وآرْتَسَم، وحُمِلت رسائلُه مع بُرُد السَّحاب فطافَتْ به علىٰ سائرِ الأُمَم؛ وهو ـ أبقاه الله ـ مع ماطُبِعت عليه طِباعُه السليمه، وجُبِلت عليه سَجاياه الشريفةُ وأخلاقُه الكَرِيمه؛ قد تلقّىٰ عن أميرِ المؤمنين من شريِفِ الآدابِ ماغُذِّى به فى مَهْـده، وتلقَّف منـه من حُسْن الأَدَوات مايَرْوِيه بالسَّـنَد عن أبيـه وجَدِّه؛ ممـا آنْطَبع فى صَفاء ذِهْنـه الصَّقيل وآنتقَشَ فى فَهْمِه، وآختلَط من حال طُفُولِيَّته بدَمِه ولَحْمِه وعَظْمِه؛ حتّىٰ صار طبْعا ثانيا، وخُلُقا علىٰ ممَـرّ الزمان باقِيا؛ وآجتمع لدَيْه الغَرِيزىُّ فكان أصْلا ثابِتا، وفَرْعا علىٰ ذٰلك الأصلِ القوىِّ نابِتا؛ لكنْ أميرُ المؤمنين يُوصِيه تبرُّكا، ويشْرَح له مايكونُ به ـ إن شاء الله ـ متَمَسِّكا؛ والمرءُ إلىٰ الأَمْر بالخير مَنْدُوب، ووصيَّةُ الرجل لبَنِيه مطلوبةٌ فقد قال تعالىٰ : ﴿ ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ ﴾ .

فعليكَ بمراقبةِ الله تعالىٰ فَمَنْ راقبَ اللهَ نجَـا، و [اجعل] التَّقْوىٰ رأسَ مالك : ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وآلجأْ إلىٰ الحق فقد فازَ مَنْ إلىٰ الحق لجَا؛ وكتابُ الله هو الحبلُ المتين، والكتابُ المُبيـن ، والمَنْهَج القوِيم، والسبيلُ الواضِحُ والصِّراطُ المستقيم؛ فتمَسَّكْ منه بالعُروة الوثقىٰ، وآسْلُكْ طريقتَه المُثْلىٰ وآهتَدِ بهَدْيِه فلا تَضلّ ولا تَشْقىٰ؛ وسُـنَّةَ نبيِّه محمد صلى الله عليه وسـلم عليك بالاقتداءِ بأفْعالهـا الواضِحه، والإصغاءِ لآثار أقوالها الشارحه؛ عالمـًا بأنَّ الكتاب والسـنة أخَوان لا يفْتَرِقان ،

ومُتلازِمانِ بحبْل التبايُن لا يعتَاقِان ؛ والبِلادَ والرَّعايا خُطْهما بنَظَرك ما ٱستطعْت ، وتثبَّت فى كل قَطْع ووَصْل فأنتَ مسْئُول عن كل ما وصَلْتَ وقطَعْت ؛ والآلَ والعِتْرَةَ النبويَّة فَفِيهِمَا حقَّ القرابة منك ومنْ رسـولِ الله صلّى الله عليه وسـلم الذى أشرقَتْ به ؛ وٱعلم أنك إذا أكرمْتَ أحدا منهم فإنما أكرمتَه بسَببِه ؛ وٱتَّبع فى السِّيرة سِـيرةَ آبائك الخلفاء الراشدين لاتَزِغْ عنها ، ولا تعمَلْ إلّا بها و بمـا هو - إن ٱستطعتَ - خيرٌ منها ؛ وٱقْفُ فى المعروف آثارَهم المقدّسَةَ لتحْوِىَ من المآثِرِ ماحَوَوْا ، وٱحْذُ حَذْوَهم فى طريقِهم المباركةِ وٱبنِ المجدَ كما بنَوْا ؛ وأَحْيِ من العمل سنّةَ سلَفِك المصطفَيْنَ الأخيار ، وٱحرِصْ أن تكونَ من الأئمة الذين يُظِلُّهم الله تحتَ عرشه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الأشْهادُ يَوْمَ لايَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ولَهُمُ اللَّعْنَـةُ ولَهُمْ سُوءُ الدَّار ﴾ . وأسْلِف خيرًا تُذْكَرُ به علىٰ مَرِّ اللّيالى ، و ينتظِمُ ذِكْرُه فى عُقُود الأيّام كما تنتَظم فى السِّلْك اللّآلِى ؛ ولْيُكُنْ قصْدُك وجهَ الله ليكونَ فى نُصْرتك فإنَّ مَنْ كان الله تعالىٰ فى نُصْرته لايُبالِى ؛ ولْتعْـلَمْ حقَّ اليقينِ أنَّ حسنَةَ الإمام تُضاعَفُ بحَسَبِ ما يترتَّب عليهـا من المَصالِح أو يتجدّدُ بسببها ، وسيِّئته كذلك فمن سَنَّ سيئةً كان عليه إثمُها و إثمُ مَنْ عمِـل بها ؛ ودُرْ مع الحقِّ كيفَ دارَ ومِلْ معــه حيثُ مال ، وٱعلَمْ بأنَّ اللهَ لا يُغيِّر مابقَوْم حتّى يغيِّروا ما بأنْفُسِهم و إذا أرادَ اللهُ بقوم سُوءًا فلا مَرَدَّ لَهُ وما لهم مِنْ دُونِه مِن وال ؛ ولا تُخطِرْ ببالك أنَّ هذا الأمْرَ ٱنتهىٰ إليكَ بقُوّه ، أو يغُرَّكَ ما قدّمناه من الثناء عليـك فالتأثُّر بالمَدْح يُخِـلُّ بالمُرُوّه ؛ ولا تتّكِلْ علىٰ نَسَبك فَمَنْ أطاعَ اللهَ أدْخلَه الجنةَ ولو كان عبْدا حبشيّا ، ومَنْ عصاه أدخلَهُ النارَ ولو كان هاشِميًّا قُرَشِيًّا ، وٱستنْصِر اللهَ ينصُرْك وٱستعِنْ به يكُنْ لك عَوْنا وظَهِيرا ، وٱستَهْدِه يَهدِكَ ﴿ وَكَفىٰ بِرَبِّكَ هادِيًا ونَصِـيرا ﴾ وكُنْ [من] الله خائِفًا ومن مكره من المُشْفِقين ، فإنَّ الأرضَ لِلهِ يُورِثُها من يَشَاءُ من عباده والعاقبةُ للمتّقين .

هــذا عهْدُ أمير المؤمنين إليك ، ووصيّته تُملىٰ عليك ؛ ﴿ وذَكِّر فإنّ الذِّكْرىٰ تَنْفَع المُؤْمِنــين﴾ والله تعالىٰ يبلّغُه منك أملا ، ويحقّق فيك عِلْمــا ويزكّى بك عملا ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطّ المقدّس الإمامىّ المتوكلىّ ــ أعلاه الله تعالىٰ ــ أعلاه ، حجةٌ فيه إن شاء الله تعالىٰ .

المـــــــذهب الثانى

(أن يَفْتتحَ العهدَ بعد البسملة بلفظ «من فلان إلىٰ فلان» كما يُكْتَب فى المكاتبات ثم يأتِىَ بالبعدية ويأتِىَ بمـا يُناسِبه ممـا يقتضيه الحالُ من ذكر الوِلاية ، ووصْف المتولّى ، واختيار المُوَلِّى له ونحو ذلك)

ثم قاعدة كُتّابهم أنهم يأتُون بعد ذلك بالتحميد فى أثناء العَهْد .

وهــذه نسخةُ عهدٍ من ذلك ، كُتِب بهــا عن الحافظ لدين الله الفاطمىّ ، لولَدِه حَيْدرةَ بأن يكونَ ولىَّ عهد الخلافة بعده ؛ وليس فيها تعرُّض لتحميد أصلا ، وهو .

مِنْ عبدِ الله ووليّه عبدِ المجيد أبى الميْمُون الحافظِ لدِين الله أمير المؤمنين ، إلىٰ وَلَدِه ونجْله ، وسُلالته الطاهرةِ ونَسْــله ، والمُجْمَع علىٰ شَرَفِــه والعــامل بمرضاةِ الله فى قوله وفعــله ، وعَقْــده وحلّه ؛ الأمينِ أبى تُراب حَيْــدَرةَ ، ولىّ عهــدِ أمير المؤمنين ، عليه السلامُ .

سلامٌ عليك : فإنّ أمير المؤمنين يحمَــدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو ، ويسألُه أن يصَلّى علىٰ جَدّه محمدٍ خاتَم النبيين ، وسيّد المرسلين ، صلّى الله عليه وعلىٰ آلِهِ الطاهرين ، الأئمة المهدِيّين ؛ وسلّم تسليما .

أما بعْدُ ، فإنّ اللهَ تعالىٰ لبَدِيع حِكْمته ، ووَسِيع رحْمتِه ، استوْدَع خُلفاءه مَنْ خَلَقه وبَرأه ، واستكفىٰ أُمناءَه مَنْ صوّره وذَرَأه ؛ ورتّبهم مَرْتَبــةَ النفُوس من الأجساد ،

ونزّلهم بمنزلة الضّـياء من الأزناد ، وجعلهم مستخدمين لأفكارهم فى مصالح البريّة التى غدت فى أمانهم ، وحصلت فى ضمانهم ، فظلّت فى ذمامهم ، وسعدت فى عزّ مقامهم وظلّ أيّامهم : لأنهم نصبوا للنظر فيما جلّ ودقّ ، وتعبوا لراحة الكافّة تعبا صعب وعظم وشقّ ؛ وكان ذلك سرّا من أسرار الحكمه ، وضربا من أفضل تدبير الأمّه ، إذ لو ساوى بين الرئيس والمرءوس ، والسائس والمسوس ؛ لاختلط الخصوص بالعموم ، ولم يبق فرقٌ بين الإمام والمأموم .

وقد استخلص الله أمير المؤمنين من أشرف أسرة وأكرم عصابه ، وأيّده فى جميع آرائه بالحزامة والجزالة والأصالة والإصابه ؛ وقضى لأغراضه أن يكون السعدُ لها خادما ، وحتم لمقاصده أن يصاحبها التوفيقُ ولا ينفكّ لها ملازما ؛ وجمع له ما تفرّق فى الخليقة من المفاخر والمناقب ، وألهمه النظر فى حسن الخواتم وحميد العواقب .

ولما كان ولىُّ عهد أمير المؤمنين أكبرَ أبناء أمير المؤمنين ، والمنتهى لأشرف المراتب من تقادم السّنين ، وقد استولى على الفخر باكتسابه وانتسابه ، وتصدّت له مخطوباتُ الرُّتب ليحوزها باستحقاقه واستيجابه ؛ وله من فضيلة ذاته ما يدلّ على النبإ العظيم ، وعليه من أنوار النبوّة ما يهتدى به السارى فى الليل البهيم ؛ وحين حوى تالد الفخر وطارفه ولم يستغن بالقديم عن الحديث ولا بالحديث عن القديم ؛ والصّفاتُ إذا اختلفت أربابُها لا تقع إلا دونه ، والثوابُ الجزيلُ مما أعدّه الله للذين يخلصون فيه ويتولّونه ، وليفخر بأن خُصّ من العناية الملكوتيّة بالحظّ الأجزل ، وليتسمّح على البرايا ليكون ممدوحا بالكتاب المنزّل ؛ وليبذخ فإنّ وصفه لا تُبلغ غايته وإن استخدمت فيه الفكر ، وليبجح فإن فضله لا يُدرك حقيقةً إلا إذا تليت السُّور ، فأمتعه الله بمواهبه لديه وأمتع أمير المؤمنين به ، وأجرى أموره عاجلا وآجلا بسببه .

رأى أميرُ المؤمنين أن[(١)] يختصَّه بوِلَاية عهد أمير المؤمنين تميزاً له بهـذا النعت الشريف، وسُمُوًّا به إلى مايجب لمَجْده الشامخ ومحلِّه المُنِيف ، وٱقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يُشَرِّفُون به أبناءهم الأكْرَمين ، وتخصيصًا له بمـا يبقى فخرُه على متجدِّد الأزمان ومُتطاوِل السِّـنين . وأمر أمير المؤمنين أن يُتَخَيَّر من رجال دوْلته، ووُجُوه أجناده وشِـيعتِه ، طائفةٌ يكونُ إليه ٱنتمـاؤُها ، وإلى شَرَف هـذا النعتِ ٱنتسابُها وٱعتزاؤُها ، فتُوسَم بالطائفة العَهْديَّه ، وتَحْظى إذا أخلصَتْ في الوِلَاية بالسَّعادة الدائمة الأبديَّه ، وتظلّ موقُوفةً على خِدْمته ، متصرِّفةً على أوامِره وأمْثِلته ، منتهيةً في طاعته إلى أغراضـه ومآرِبه ، ملازمةً لِلَّازم المتَعيَّن من مُلازمة الخِـدْمة في موَاكِـبِه ؛ والله تعالى يجعلُ ماراه أميرُ المؤمنين من ذلك كافِلًا بالخيرات ، ضامنًا لشُمول المنافِع وعمومِ البركات ، إن شاء الله تعالى : والسلامُ على وليِّ عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه .

* * *

وهذه نسخةٌ بولايةِ العهد من خليفةٍ لولده بالخلافة على هذه الطريقة ، من إنشاء القاضِي الفاضِل ، أتى فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاثَ مرَّات ، وهي :

من عبـدِ الله ووليِّه فلان أبي فلان الإمام الفلانيّ إلى فلانٍ الفلاني ، والصلاة والسلام على النبيّ صلَّى الله عليه وسلم على نحو ماتقدّم في العهد قبله .

أما بعـدُ ، فالحمدُ لله الذى ٱستحقَّ الحمدَ بفَضْلِه ، وأجرى القَضَاءَ [على ماأراده][(٢)] ووَسِـعَ الجَرائِمَ بعفْوه وعدْله ، وصرَّف المَراحِمَ بين قوْله وفِعْـله ، وأعلى منارَ الحق

(١) لعل هذا جواب الشرط في أول الفقرة قبـل ويكون العامل في حين بعـده محذوفا دل هذا عليه . تأمل .

(٢) بياض في الأصل والتصحيح من المقام .

وأرشَدَ إلىٰ أهله ؛ واختارَ الإسلامَ دِيناً وعَصَم المعْتلِقِين بحَبْله ، وأوضح سُبُل النَّجاة بمـا أوْضَح لسالِكِيه من سُبْله ؛ وتعالىٰ عُلاه إلىٰ الصِّفات ، فلم يُوصَف بمثل قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه ﴾ وتنزَّه عن آشـتراكِ التشبيهات ، فى كلِّ جليل الوصف مستقِلِّه وغيرِ مستَقِلِّه ؛ عِلمَ ما آشتملَتْ عليه خَطَراتُ الأَسْرار ، وأشارتْ إليه نَظَراتُ الأبْصار ، وآنْفرجَتْ عنـه غَمَراتُ الأخطار ، وأخفَتْه سَتَراتُ الظلمـاء وباحتْ به جَهَراتُ الأنْوار : ﴿ سَـوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ به ومَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْل وسارب بِالنَّهار ﴾ .

والحمدُ لله الذى جعل الدِّين عِنْده الإسلام ، فمن آبتغىٰ غيْرَه ضَلَّ المَنْهج ، وأبْعد المَعْرَج ، وآستَلْقَح المُخْدَج ، وغَلِط المَخْرَج ، وفارقَ النُّورَ الأبْلَجْ ، وركِبَ الطريقَ الأعْوَجْ ، وأتىٰ يومَ القيـامة باللِّسان المُلَجْلَج ؛ ومَنْ أسْـلَمَ وجْهَـه إليه فاز بالسَّعْيِ النَّجِيح ، وحاز المَتْجَرَ الرَّبِيح ؛ ووَرد المَوْرِدَ الأحْمَد ، ويَمَّ القَصْد الأقْصَد ، ووجد الجَـدَّ الأسْـعد ، وسلك المَنْهَج الأرْشَـد ؛ فهو العُرْوة الوُثْقىٰ ، والطريقةُ المُثْلىٰ ، والدرَجةُ العُلْيا ؛ وأُمِر به خيْرُ المرسَلين ، المنعوتُ فى سِـيَرِ الأوّلين ، المبعوثُ بالحق المُبِين ، والقائمُ رسولًا فى الأمِّيين ، والهـادى إلىٰ الحقِّ وإلىٰ طريقٍ مستقِيم ؛ والداعِى الذى مَنْ أجابه وآمَنَ به غُفِر له ما تقدَّم من ذَنْبه وأُجِيرَ من عذابٍ ألـيم ، والمستقِلُّ [بالعِبْء](١) العظيم ، بفَضْـل مامُنِح من الخُلُق العظيم ، والممْدُوحُ بقوله : ﴿ لَقَـدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْـهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمدُ لله الذى وَصَل النبوّةَ بالإمامَهْ ، وجعلَها كلمةً باقيةً فى عَقِبه إلىٰ يومِ القِيامه ، وخصَّها بالخَصَائص التى لاتَنْبغِى إلا لتـامِّ الكَرَامه ، وأجار بها خَلْقَـه من مَتَالِف

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام . تأمل .

الطامّة وبوادي النّدامه، وهدىٰ بشرف مقامه إلىٰ دار المُقامه؛ وٱستردّ بأنوار تدبيره من ظَلَام الباطِلِ الظُّلَامه، وأحسَنَ بما أجراه من نَظَره النظرَ للخاصّة والعامهْ، ﴿ إنّ هٰذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينِ ﴾ .

يحمَدُه أميرالمؤمنين أنْ رَفَعه إلىٰ ذلك المحلّ المُنيف، وٱستَعْمَر به المَقامَ الشريف، وأظهرَ كلمةَ الدِّين الحنيف، ونفىٰ عنه تَغَالِيَ التعمُّق وتَجْديفَ التحريف، وبَيّن بموافَقة تَوْفِيق هَدْيه طريقَ التكليف، وأمدّه بموادّ إلٰهيّةٍ تشتهر فتستغْنِي عن التعريف، وتتَّصِل فتقْطَع موادّ التكْييف .

ويسألُه أن يصلِّيَ علىٰ جدّه محمدٍ الذى نَسَخ بشريعتِه الشرائع ، وهذَّب بهِدَايته المَشَارع ، وأيَّده بالحُجَج القواطِع ، والأنوارِ السَّواطع ، وجعل من ذُرّيَّته جبالَ الله القَوَارع ، ومن مِشْكاته نُجومَ الهُدىٰ الطَّوَالع ، وعُدِقتْ صنائعُه بالله إذا ٱفتخَرت المُنْعمون بالصَّنائع ؛ وعلىٰ أخِيه وأبِينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب المخصوص بأُخُوَّته ، وأبى الثقلَيْنِ من عِتْرته ، والسابقِ إلىٰ الإسلام فهو بعْدَه أبو عُذْرتِه ؛ وإلى تفريج الكَرْب عن وجْهه فى الحَرْب فهو ٱبنُ بَجْدَتِه . وعلىٰ الأئمةِ من ذرّيتهما مَصابِيح الظُّلُمَات ، ومَفاتيحِ الشُّكوك المُبْهَمات ، والممنوحين من شَرف السِّمات، ماجَلَّ عن المُسامَات ، والممدوحينَ بفضْل الجاه فى الأرَضين والسَّموات .

وإن الله بحكمته البَديعه، ورحمتِه الوَسيعه؛ أقام الخلفاء لخلقه قِواما وبحقّه قُوَّاما، وجعل نارَ الحوادثِ بنُورهم بَرْدا وسَلَاما ، وجعل لهم الهداية بأمره لِزَاما، وٱستَصْرَف بهم عن الخَلْق عذابَ جَهَنّم ﴿ إنَّ عَذَابَها كانَ غَرَاما ﴾ ؛ فهم أرواحٌ والخلائقُ أجسام، وصَباحٌ والمَسَالكُ أظْلام ، وثمراتٌ والوجُودُ أكمام ، وحُكّام والحقائقُ أحْكام ، يَسْهَرُون فى منافع الأنَام وهم نِيَام ، وينفرِدُون بوَصَب النَّصَب

ويُفْرِدُونهم بلذّات الحَمام ، ويهتدون بهداياتهم إلى ماتدقّ عنه حوائطُ الأفهام ، ولا يُدْرَك إلّا بوسائط إلهام . وقد آصطفى اللهُ الأميرَ من تلك الأُسْره، ورقّاه شرف تلكَ المنابِرِ ومُلْك تِلكَ الأسِرَّه، وأنار بمقامه نُجومَ السعادة المستَسِرَّه، وآستخْدَم العالَمَ لأغْراضه ، وسدّدَ كلَّ سهمٍ فى رَمْيه إلىٰ أغراضه، وأقرضَ اللهَ قرْضًا حسَنا فهو واثقٌ بحُسْن عواقب إقراضه ، وآفترضَ طاعتَه فى خَلْقه فالسعيدُ من تلقّى طاعة أميرِ المؤمنين بآفْتِراضه ، وأمضىٰ أوامِرَهُ علىٰ الأيّامِ فما يقابِلُها صَرْفٌ من صُروفها باعْتِراضه، وأدار الحقَّ معه حيثُ دار، وكشَفَ له ماآستجَنَّ تحتَ أستارِ الأقْدار، ووقَفَ الخيرةَ والنُّصْرة علىٰ آرائِهِ و راياتِهِ فهو المستَشَار والمستَخَار، وألهمه أن يحفظَ للأمة غَدَها كما حَفِظ لها يومَها ، وأن يُجْرِىَ لها مَوارِدَ توفيقِ الآرتيادِ ولا يُطِيلَ حَوْمَها، وأن يجعل المؤمنَ علىٰ ثَلَج من الصُّدور، وفَلَج من الظُّهور، ويُودِعَ عندها بَرْدَ اليقينِ بالإشارةِ إلىٰ مستَوْدَع النُّور، ويجعلَها علىٰ شريعةٍ من الأمر فتتّبِعها ، ويُحِلّها بمنزلة الخِصْب فترتَبِعها ، ويُعلِم نَدىَّ خَيْره ليكونَ غايَتَها ومَفْزَعها ، ويُعرِّفها من تنتظِرُه فتتَّخذه مآلَهَا ومَرْجِعَها، ويقتدى فى ذٰلك بسيد المرسَلين فى يومِ الغَدِير، ويُشير إلىٰ مَنْ يقُوم به المشيرُ مقام البشير .

ولمّا كنتَ حافظَ عهد أمير المؤمنين والسيِّدَ الذى لا بُدّ أن يتوّجَ به السَّرير، والنَّجْمَ الذى لابُدّ أن نستطيلَ إلىٰ أنْواره ونستَطِير، والذَّخيرة التى ادّخَرها اللهُ لِنَيْل كل خَطَر ودَفْع كلِّ خَطِير، والسَّحابَ الذى فيه الثَّجُّ المَطِير، والنَّجمُ المُنِير، والرَّجْمُ المُبِير، وقد تجلّتْ لكَ أوجُهُ الكرامات وتبدّتْ ، وتبرّجَتْ لك مخطُوبات المَقامات وتصدّتْ ، وطلبَتْك كُفْئًا لنَيْل عَقيلتها وسُكْنىٰ مَعْقِلها فما تعدّتْ ، وأدّت إليكَ لطائفُ فَهْمِكَ من أسرار الحقائقِ ما أدّتْ ، وعرَفْتَ من سِيماكَ هَدْىَ النبوّه ، وآجتمع لكَ مزِيّةُ الشرفين من الطَّرَفيْنِ الأُبُوّة والبُنُوّه ، وأخذْتَ كتابَ الحكمة

ومَصُون العِصْمة بقُوه ، وأجْرتَ القلوبَ التى بعوارض الشَّكِّ ممْنُوه، وآثرْتَ العقائدَ التى بنواقِص العقْد مملُوه، وغدَتْ وُجُوه الأنام بأيَّامك مجلُوَّه، وتوافقت الألْسُنُ علىٰ مَدْحك ولا مِثْــلَ ما مُدِحْتَ من الآيات المتلُوَّه ، وكنتَ بحيثُ تَذْهبُ بالأهوال المسْلُوه ، وتُقْبِــل بالآمالِ المرْجُوه ، ولو أنَّ ركْبا ضلَّ لَهَداهُ نورُك فى الليــلِ البَهِيم ، ولو أنَّ ذِكْرَك شذَّ لتبــدَّى فى الآياتِ والذِّكرِ الحكيم ، ولو أنَّك طلَعْتَ علىٰ الأوَّلين لمـا تساءَلُوا ولا ٱختلَفُوا فى النَّبإِ العظيم ، ولوأنَّ قديمًا عَلا فوق كلِّ حديثٍ لقام لكَ الحديثُ مَقَامَ القديم ، ولو أنَّ جميعَ الأنام فى صــعيدٍ واحدٍ لصَعِدتَ دُونَهم المقَــامَ الكريم ،ولو أنَّ يدَكَ البيضاء تجَسَّمتْ للناظرين لأعدْتَ آيةَ موسىٰ الكليم ، ولو أنَّ هِدايتَكَ الغرَّاء تنسَّمتْ للذاكرين لأحيَيْتَ بهــا العِظامَ وهى رَمِيم ، ولو أنَّ عُلُومَك ٱنتشرتْ بينَ العلَماء لتلَوْا : ﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾ ولو أنَّ ليلةَ وِلادتِك رصدَتْها البصائرُ، رأت كيف يُفْرَقُ فيها كلُّ أمْرٍ حكِيم ،والصِّفاتُ إذا ٱحتفل أربابُها وقفَتْ لك عبيــدا ، والأيامُ إذا كانتْ ظُروفًا لفضائلِكَ كان كلُّ يوم منها للعبيد عِيدا ، والأنسابُ إذا عددْتَها كان الجَدُّ سعِيدا ، فلْتفخَرْ قبْلَ السير بأن أمليْت عليها السُّوَر ، وأبشِرْ بأن المنتَظَر من فضل الله لكَ فوْقَ ما تعجَّله النظَر ، وٱشمَخْ بأنَّ سادةَ القبائل مُضَرُ وأنك بعــد أمير المؤمنين سـيِّدُ مُضَرْ ، وٱبذَخْ بأنك عِوَضٌ من كلِّ مَنْ غاب وماعنك عِوضٌ فى كل مَنْ حضَر ، وٱبجَحْ بأنك قد أُهِّلْتَ لأمرٍ أبىٰ الله له إلا أُولِى العَزْم والخَطَر ، وٱشكُرِ اللهَ علىٰ نعمة خلقَك لها بِقَدَرْ ، ومزيَّةٍ لا يُوفِّى حقَّها من أضمر فأغْرقَ أو نطق فشكَر : وقُلِ ﴿ الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ : ﴿ وقُــلْ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلىٰ وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاه ﴾ .

فإليك هـذا الأمرُ يَصير، وأنت لَهُ واللهُ لك نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النَّصير؛ وتأَهَّبْ له في درجته التي لايَنَـالُها باعٌ قَصِير، ولا يمْتَطِيها إلاَّ من آختارهُ اللهُ علىٰ عِلْمٍ من أهل الثقلين ولو أنَّ بعضَهم لبعضٍ ظَهير، ولا نرىٰ لها أهلا إلَّا مَنْ أراه الله من آياتِه أنه هو السَّميع البصير، وفاوِضْ أميرَ المؤمنين في مُشْكِلات الأمر ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبير، وٱقْتَدِ منه بمن هو [في] أهل دهره وَصِيُّ الوصِيّ ونظِيرُ النَّذِير، وٱهتَدِ بنُوره الذي هو بالنُّور البائنِ دُونَ الخلق بشِير، وسِرْ إذا آستعْمَلك اللهُ فيهم بما رأيتَ أميرَ المؤمنين به فيهم يَسِير، وٱدْعُ اللهَ بأن يُيَسِّر علىٰ يَدِك مَنَاجِحَهم إنَّ ذٰلك علىٰ الله يَسِير، وٱعْرِف ما آثرك اللهُ به من أنه لم يجعل لِيَدِك كُفُؤًا إلا ذا الفَقَار ولا لقَدَمك كُفُؤًا إلا المِنْبَر والسرير، وتحدّثْ بنعمة الله وإجرائِها فأميرُ المؤمنين اليومَ عليك أميرٌ وأنت غدًا علىٰ المؤمنين أمير: ﴿ هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لنفســـه ﴾.

وأما العــدْلُ وإفاضَتُه، والجَوْرُ وإغاضَــتُه، والصَّعْبُ ورِياضَــتُه؛ والجَذْب وترويضُه، والخَطْب وتفْويضه؛ والجهادُ ورَفْع علَمه، والذبُّ عن دِينِ الله وحِفْظُ حُرَمه؛ والأمْرُ بالمعروف ونَشْر رِدَائه، والنهيُ عن المنـكر وطَيُّ آعتِدائه؛ وإقامةُ الحدّ بالصَّفح والحَـدّ، والمُساواةُ في الحقِّ بين المَوْلىٰ والعَبْد، وبثُّ دعوة الله في كل غَوْر من البلاد ونَجْد، وأمرُ عباد الله إن عباد الله في زمنك الرغد؛ فذٰلك عهدُ الأئمة الراشدين، وهو إليك من أمير المؤمنين، عَهْدٌ مؤكَّد العَقْد: وهو سُنَّة فضل الخلفاء التي لاتَجِـدُ لهـا تحويلا، ومعنىٰ العـهدِ الذي أمر اللهُ بالوفاء به فقـال: ﴿ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولا ﴾.

وهل يُوصىٰ البحرُ بتلاطُم أمْواجه؟ وتَدَافُع أفْواجِه؟ وبتَزَاخُر عَجَاجِه؟ وهل يُحَضُّ البدرُ المنيرُ علىٰ أن يُنِير سِراجُهْ، ويَطْلَعَ ليتّضح للسالك مِنْهاجُه؟ أو يُنَبَّهُ علىٰ هدايته

إذا تهادته أبراجه ؟ وعليك من سرائر أنوار الله مايغنيك أن توصى ، ولديك من ظواهر لطائف الله ماتميز به عن الخلق إذ أضحيت به مخصوصا ، ومن شواهد آختيار الله ماتظاهرت عليك آياته نصوصا ؛ فبسلام الله يحييك المؤمنون ، وبالاعتلاق بعصمة ولائك فى يوم الفزع الأكبر يأمنون ، والله منجز لك وعده كما أنجزه لمن جعلهم أئمة لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ؛ والله سبحانه يهدى إليك تحية من عنده مباركة طيبه ، ويسدى إلى مقام شرفك سحابة رحمة غدقة صيبه ؛ ويجعل مارآه أمير المؤمنين من ولايتك عهده ، وكفالتك للأمة بعده ، للمسرات ناظما ، وللمساءات حاسما ؛ وللبركات جامعا ، وللباطل خافضا وللحق رافعا . وأمر أمير المؤمنين أن يعين على رجال من أولياء دولته ، ووجوه شيعته ؛ وأنصار سريته ، عدة يكون إليك آعتزاؤها وبك آعتزازها ، وببابك العالى إقامتها وإلى جنابك آنحيازها ؛ فتكون موسومة بالعبوديه ، ومتعرضة بالولاء للسعادة الأبديه ؛ فتمتثل (١) على ماتمثله من المراسم ، وتتصرف على ماتصرفها عليه من العزائم ؛ وتكون أبدا لما ينفذ عنك من أحكام الهبات والمكارم ، وتقوم من ملازمة الخدمة فى مواكبك بما هو لكل خادم فرض لازم ؛ وتسارع فى مطالبك إلى مايسارع إليه الحازم ، وتجود بأسماء الإنعام بالغدق الساجم . وتقدر لها من الواجبات والزيادات ماتقتضيه همم المكارم ؛ تبذل فى الخدمة الآجتهاد ، وتنافس فيما تستمد [به] الحظوة بحضرته والإحماد ، وعرضها من الإحسان الجم للآزدياد ، وبلغها المراد بما تبلغ بها من المراد : لتتشرف بأن تكون تحت ركابه العالى متصرفه ، وتفتخر بأن تكون أنسابها باسمه العالى متشرفه ؛ إن شاء الله تعالى .

---

(١) لعله فتتمشى على .

المـــذهب الثالث

(أن يَفْتَتِح العهدَ بعد البسملة بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله» ثم يأتِىَ بالبعديَّة، ويأتى بما يُناسبُ الحالَ علىٰ نحو ماتقدّم؛ وعليه عمل أهل زماننا مع الاقتصار علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ، والاختصارِ فى القول)

وهذه نسخةٌ أوردها علىّ بنُ خلَف من إنشائه فى كتابه "مواد البيان" لترتيب الكتابة فى زمن الفاطميين، وهى :

الحمد لله مُعزّ دينه بخُلَفائه الراشدين، ومرتّب حقّه بأوليائِه الهادين؛ الذى آختار دينَ الإسلام لصَفْوته من بريَّته، وخَصَّ به من آستخْلَصَه من أهل طاعتِه؛ وجعله حَبْلَه المَتين، ودينَه الذى أظهَرَه علىٰ كلِّ دِين؛ وسبِيلَه الأفسح، وطريقَه الأَوْضَح؛ وآبتعثَ به نبِيَّه محمدًا صلّى الله عليه فصدَعَ بأمْره، وأعْلَن بذِكْره؛ والناسُ فى فَتْرة الضَّلاله، وغَمْرة الجَهاله؛ فلما أنجز فى نُصْرة حَقِّه، وتأييده لسُعَداء خَلْقه [قبضه][1] إليه محمودَ الأثَر، طَيِّب الخبَر [وقام][1] بخلافتِه، مَن آنتخَبه من طَهَرة عِتْرته؛ وأوْدعَهم حكمتَه، وكفَّلهم شريعتَه؛ فآقتفَوْا سبِيلَه، وآتبعُوا دلِيلَهْ؛ كُلَّما قَبضَ منهم سَلَفا إلىٰ مَقرّ مَجْده، آصطفىٰ خَلَفًا للإمامة من بَعْدِه .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن أفْضىٰ إليــه بتُرَاث الإمامةِ والرِّساله ، وهَدىٰ به كما هدىٰ بجَدّه من الزَّيْغ والضَّلاله ؛وآختَصَّه بمِيراث النبُوّة والخلافه، ونصَبَه رحمةً للكافهْ؛ وأتمّ نعمتَه [عليه] كما أتمَّها علىٰ آبائِه، وأجْزَل حظَّه من حُسْن بَلائه؛ وأعانَهُ علىٰ ما آستَرْعاه، ووفَّقه فيما ولّاه؛ وأنْهضَه بإعْزاز الملَّه، وإكرام الأُمَّه ؛ وإماتةِ البِدَع، وإبطال

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما يقتضيه المقام .

المَذْهَبِ المخترَع ؛ وإحْياءِ السُّنَن ، والاستقامة علىٰ لاحِبِ السَّنَن ؛ ووَهَبه من بَنِيه وذُرِّيَّتِهِ ، مُوَازِرِين علىٰ ماحَمَّله من أعباء خِلافَتِه ، ومُظاهِرِين علىٰ ما كَلَّفَه من إمعان النظر فى بَرِيَّته .

ويسألُه الصلاةَ علىٰ محمدٍ خاتمَ أنبيائه ، والخيرةِ من خُلَصائه ؛ الذى شرَّفه بختام رُسُله ، وإقرار نِيَابته فى أهله ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وآبنِ عمِّه وباب حِكْمَتِه ، علىّ بن أبى طالب وَصِيِّه فى أُمَّته ؛ وعلىٰ الأئمة الطَّهَرة من ذرّيّته ، مَنَاهِجِ رحمتِه ، وسُرُجِ هِدايتِه ، وسلّمَ تسليما .

وإنَّ الله تعالىٰ جعل الخلافةَ للكافَّةِ عِصْمه ، ولأهْلِ الإيمان رَحْمه ، تجمعُ كَلِمَتَهم ، وتحفَظُ أُلْفتَهم ؛ وتُصْلِح عامَّتَهم ، وتُقِيم فرائضَه وسُنَنه فيهم ، وتُمُدُّ رُواقَ العدل والأَمَنَة عليهم ؛ وتحسِمُ أسبابَ الكُفْر والنِّفاق ، وتقْمَع أهلَ العِناد والشِّقاق ؛ ولذٰلك وصلَ اللهُ حبْل الإمامه ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِب أوليائه إلىٰ يومِ القيامه .

ولما نظرَ أميرُ المؤمنين بعين اليَقِين ، وآقتبَس من الحقيقة قَبَس [الحق] المُبِين ، عَرَف مابُنِيَتْ عليه الدنيا من سُرْعة الزَّوال ، ووَشْك التحوُّلِ والآنْتِقال ؛ وأنَّ مافَوَّضَ الله إليه من خلافته لا بدّ أن يَنْتَقِلَ عنه إلىٰ أبنائه المَيَامِين ، كما آنتقل إليه عن آبائِهِ الراشدين ؛ فلم يغتَرَّ بمَوَاعِيدِها المُحَال ، وأضربَ عمَّا تَخْدَع به من الأَمَانِيِّ والآمال ؛ وأشفَقَ علىٰ مَنْ كَفَّله الله بسياسَته ، وحمَّله رعايَتَه من أهل الإسلام المعتصِمِين بحبل دَعْوَته ؛ المشتملين بظِلِّ بَيْعَته ، عند تَقَضِّى مُدّته ونُزُوعه إلىٰ آخرته ، فى الوقت المعْلُوم ، بالأجل المَحْتُوم : من آنتشار الكَلِمه ، وآنبِتَاتِ العِصْمه ، وآنشِقَاق العَصَا ، وإراقة الدِّما ، وآستيلاء الفتَن ، وتعطيل الفُرُوض والسُّنَن ؛ فنظر

لهم بمـا يَنْظِم شَمْلَهم ، ويصِـلُ حَبْلَهم ؛ ويَزْجُر ظَلَمَتَهم ، ويَجْمع كلِمتهم ، ويؤلِّف أَفْئِدَتَهم ؛ ورأىٰ أن يَعْهَـد إلىٰ فلان ولَدِه : لأنه قرِيعهُ فى علْمِـه وفَضْله ، وعقِيبُه فى إنصـافِه وعَدْله ؛ والمَلْمُوح من بعـده ، والمرجُوُّ ليومه وغَدِه ، ولِمـا جمعَ اللهُ له من شُرُوط الإمامه ، وكَّمله له من أدوَاتِ الخلافه ، وجَبَله عليـه من الرَّحمة والرَّافه ؛ وخَصَّه به من الرَّصَانة والرَّجَاحه ، والشَّجاعة والسَّماحه ؛ وآتاه من فَصْل الخِطَاب ، وجَوامِع الصَّواب ومحاسِنِ الآداب ؛ ووِقايةِ الدِّين ، والغِلْظة علىٰ الظالمين ، واللُّطْف بالمؤمنين ؛ بعْدَ أن قدَّم آستخارةَ الله تعالىٰ فيه ، وسأله توْفِيقَه لما يُرْضِيه ؛ ووقَفَ فِكْرُه علىٰ آختِياره ، ولم يكن بآختياره مع إيثَارِه ؛ ويَلُوح فى شمـائله ، ويَسْـتَوْضِحُ فى مَخايِله ؛ أنَّه الولىُّ المجتبىٰ ، والخليفةُ المصْـطفىٰ ؛ الذى يحيى اللهُ به ذِمارَ الحقّ ، ويُعْلى بسلطانه شِـعَارَ الصِّدْق ؛ وأنه ـ سبحانه ـ قد أفضىٰ إليه بمـا أفْضىٰ به إلىٰ الخُلَفاء من قَبْله ، وأفاضَ عليـه من الكامِنَات ما أفاضَهُ علىٰ أهله ؛ وبعدَ أنْ عاقده وعاهَدَه علىٰ مثل ما عاهَدَه عليـه آباؤُه : من تقوىٰ اللهِ تعالىٰ وطاعتِـه ، وآستشعار خِيفَتِه ومراقبتِه والعملِ بكتابه وسُنَّته ؛ وإقامةِ حُدُود الله التى حدّها ، بفُرُوضه التى وَكَّدها ، والاقتداءِ بسَلَفه الراشـدين ، فى المُكافَحَة عن الدِّين ، والمسامحة عن أوزار المسلمين ؛ وبَسْـط العدْل علىٰ الرعِيَّـه ، والحكم بينهم بالسَّوِيَّه ؛ وإنصافِ المظلومِ من الظَّلُوم ، وكفِّ يَدِ المغتَصِب الغَشُوم ؛ وصَرْف وُلَاة الجَوْر عن أهل الإسلام ، وتخَيُّرِ من ينْظُر بينهم فى المَظالِمِ والأحْكام ؛ وأن لا يُوَلِّيَ عليهم إلَّا من يَثِق بعدَالته ، ويسْكُنُ إلىٰ دِينه وأمانَتِه ؛ ولا يَفْسَحُ لشريف فى التعدِّى علىٰ مَشْرُوف ، ولا يَقْوىٰ فى التسَـلُّط علىٰ مَضْعوف ؛ وأن يحمِـل الناس فى الحُقُوق علىٰ التَّساوِى ، ويُجْرِيَهم فى دَوْلته علىٰ التَناصُف والتَّكافِى ؛ ويأمر حُجَّابه ونُوّابَه بإيصال الخاصَّة والعامّة إليه ، وتمكينِهم من عَرْضِ حوائِجهم ومَظَالمهم عليه : ليعلموا : الوُلاةُ والعُمَّال ، أنَّ رعيته

علىٰ ذُكْر منه وبَال؛ فيتحَامَوُا التثقيلَ عليهم والإضرار بهم . وأشهد عليه بكلّ ماشرَطَه وحَدَّده ، والعملِ بما يحمد إليه فيما تقلّده . علىٰ أنه غَنِيّ عن وَصِيَّة وتبصير ، وتنبيه وتذكير؛ إلا أنَّ محمَّدا سيدَ المرسلين يقول لعليّ صلىّ الله عليهما " أرسِلْ عاقِلاً الا فأوصه "(1) .

فبايِعُوا علىٰ بركة الله تعالىٰ طائعينَ غيرَ مُكْرَهين ، برَغْبةٍ لا برَهْبه ، وبإخلاصٍ لا بمُدَاهَنه ، بيعةَ رِضًا وآختيار ، وآنْقِيادٍ وإيثَار ؛ بصحّةٍ من نيّاتكم ، وسلامةٍ من صُدُوركم ؛ وصفاءٍ من عَقائِدكم ، ووفاءٍ وآستقامةٍ فيما تضَعُون عليه أيْمانَكم : لِيُعَرِّفَكم الله [من] سُبُوغِ النِّعمه ، وشُمولِ الخَبْره ، وحُسْنِ العاقبه ، وآتفاقِ الكلمه ؛ مايُقِرُّ نواظِرَكم ، ويُبَرِّد ضمائرَكم ؛ ويُذْهِبُ غِلَّ صُدُوركم ويُعِزُّ جانبكم ، ويُذِلُّ مُجانِبَكم ؛ فاعلموا هذا وآعملوا به إن شاء الله .

وقد يُغْنِي هذا الكتابُ الذى ذكرناه مَغْنَى العهد ، فلا يُحتاج إلىٰ عَهْد :

وعلىٰ ذلك كُتِبَ عن الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، آبن الحاكم بأمر الله أحمد ، عهدُ ولدِه المستوثِقِ بالله « بركة » بالخلافة بعده . وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذى أيَّد الخلافةَ العبَّاسيَّة بأجلِّ والدٍ وأبرِّ ولَد ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه والسَّنَد كالسَّنَد ، وآواهُم من أمْرِهم إلىٰ الكَهْف فالكَهْف وإن تناهىٰ العَدَد ، وزان عِطْفَها بسُودَدِ سَوادِ شِعارهم المسجِّلةِ أنوارَهم ولا شكَّ أن النُّور فى السَّواد ، وعَدَق(2) بصَوْلتهم النبويّ مُعْجِزُها كلَّ مُناد .

(1) كذا فى الأصول مضببا عليه وحرر .

(2) لعله وقدع . أى كفّ . تأمل .

نحمَدُه علىٰ مامنّ به من تمَـام النِّعمة فيهـم، ونُزُول الرحمة بتَوَافِيهم ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مَحْضَـةَ الإخْلاص ، كافلًا مَحْضُها بالفَكَاك من أسْرِ الشِّرْك والخَلَاص ؛ ونشهد أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بمـا أوضَح سُبُلَ الرَّشاد، وقَمَع أهـلَ العِناد، والشـفيعُ المشَفَّع يوم التَّنادْ ؛ صـلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ٱنقضاءَ لهـا ولا نَفَاد، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ فإنَّ أميرَ المؤمنين (ويذكر ٱسمه) يَعْتَصِم بالله فى كلِّ مايأْتِى ويَذَر ممـا جعل اللهُ [له] من التفويض ، ويُشِير إلىٰ الصَّواب فى كل تَصْريح منه وتعريض ؛ وإنه شَدّ اللهُ أزْرَه، وعَظَّم قَدْره، ٱستخار اللهَ سبحانَه وتعالىٰ فى الوصيَّة بمـا جعله الله له من الخلافة المعظَّمة المفَخَّمة الموروثةِ عن الآباء والجُدُود ، المُلْقاةِ إليه مقاليدُها كما نَصَّ عليه ٱبْنُ عمِّه صلّى اللهُ عليه وسلم فى الوالد من قُرَيش والمَوْلُود ؛ لوَلَده السيِّد، الأجلِّ، المعظَّم، المكَرَّم، فلان ؛ سـليلِ الخلافةِ وشِـبْلِ غابِها، ونُخْبةِ أحْسابها وأنْسابها ؛ أجلَّه اللهُ وشرَّفه ، وجَمَّـل به عِطْفَ الأمانَةِ وفَوَّفَه : لِمَـا تلَمَّحه فيه من النَّجَابة اللائحةِ علىٰ شمائِله ، وظَهَر من مستَوْثِق إبْداءِ سِرِّه فيه بدَلائل بُرْهانه وبُرْهان دلائله ؛ وأشهدَ علىٰ نَفْسه الكريمة ـ صانها الله تعالىٰ ـ مولانا أو سيدُنا أمير المؤمنين ، مَنْ حضَر من حُكّام المسلمين : قُضاة قُضاتهم ، وعلمائهم ، وعُدُولهم ، بمجلسه الشريف ؛ أنه رضِيَ أن يكون الأمرُ فى الخلافة المعظَّمة ، الذى جعله الله له الآنَ لولده السـيِّد الأجلِّ فلان بعد وفاته ، فسَّح الله فى أجَلِه ؛ وعَهِد بذٰلك إليه ، وعوّل فى أمر الخلافةِ عليـه ؛ وألقىٰ إليه مقاليدَها ، وجعل بيـده زِمامَ مُبْدِئها ومُعِيدها ؛ وصّى له بذٰلك جزئيِّه وكُلِّيِّه ، وغامضه وجليِّه ؛ وصيَّةً شرعيـةً بشُروطها اللازمة المعتبره ، وقواعِدِها المحرَّره ؛ أشهَد عليه بذلك فى تاريخ كذا .

الوجـــــه السابع

(فيما يكتب فى مستَنَد عهدِ ولىّ الخلافة عن الخليفة ، وما يكتُبه الخليفة فى بيت العَلاَمة ، وما يُكْتَب فى ذَيْل العــهد بعد إتمـام نُسْخته من قَبُول المعهود إليه ، وشهادةِ الشُّهود علىٰ العهد)

أما مايكتب فى المستَنَد ، فينبغى أن يكونَ كما يُكْتَب فى عُهود المُلُوك عن الخلفاء ، علىٰ نحو ماتقدّم فى البيْعات ؛ وهو أن يُكْتَب : «بالإذْن العالى ، المولَوِىّ ، الإمامىّ ، النبوىّ ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالىٰ » أو نحو ذٰلك من الدعاء .

وأما مايكتُبُه الخليفة فى بيت العلامة ، فينبغى أن يَكْتُب : « عهِدتُ إليه بذٰلك » : لأنه اللفظُ الذى ينعقِدُ به العــهد . ولوكتب : « فوّضْتُ إليه ذٰلك » كما يكتُب الخليفةُ فى عهد السلطان الآنَ علىٰ ماسيأتى ، كفىٰ ذٰلك . والأليقُ بالمقام الأوّلُ .

وأما مايُكتَبُ فى ذيل العهد بعد إتمـام نُسْخته ، فالمنقولُ فيه عن المتقدّمين ما كَتَبَ به « علىّ الرِّضىّ » تحت عهْد المأمون إليه بالخلافة ، وهو :

الحمـدُ لله الفعّالِ لمـا يَشَاء ، لامُعقِّبَ لحُكْمه ، ولا رادَّ لقَضائه ، يعـلَمُ خائنـةَ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّـدور ؛ وصـلواتُه علىٰ نبيِّـه محمدٍ خاتَمِ النبيين ، وآلِهِ الطيِّبين الطاهرين . أقولُ وأنا علىُّ بنُ موسىٰ بن جعفر : إنَّ أميرَ المؤمنين عَضَّـده الله بالسَّداد ، ووفَّقه للرشاد ؛ عَرَف من حقِّنا ماجهِله غيره : فوَصَلَ أرْحاما قُطِعتْ ، وأمَّنَ أنفُسًا فزِعتْ ، بل أحياها وقد تَلِفَتْ ، وأغْناها إذ ٱفتقَرت ؛ مُتَّبعا رِضا ربِّ العالمين ، لايُريد جزاءً من غيره وسـيَجْزِى اللهُ الشاكِرِين ، ولا يُضيعُ أجْرَ المُحْسِنين ؛

وإنه جعل إلىّ عَهْدَه، والإمْرَةَ الكُبْرىٰ إن بَقِيتُ بعْـده؛ فمن حَلَّ عُقْدةً أمر اللهُ بشَدّها، أو فَصَم عُروةً أحبَّ الله إيثاقها، فقد أباحَ حَرِيمَه وأحَلَّ محرَّمه؛ إذ كان بذٰلك زارِيًا علىٰ الإمام، منتهكًا حُرمةَ الإسـلام؛ بذٰلك جرىٰ السالفُ فصـبر منهم علىٰ الفَلَتَات، ولم يُعترَض بعدَها علىٰ العَزَمات؛ خوفًا علىٰ شَتَاتِ الدِّين، وٱضطِراب حَبْل المسلمين؛ ولقُرب أمر الجاهليةِ ورَصْد فُرْصة تُنْتَهز، وباقيةٍ تُبْتَدر؛ وقد جعلتُ لله تعالىٰ علىٰ نَفْسى إنِ ٱستَرْعانى علىٰ المسلمين، وقلّدنى خِلافتَه، العملَ فيهم عامّـة وفى بنى العبّاس بن عبدالمطّلب خاصّـة بطاعتِه وبسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأنْ لا أَسْفِك دمًا حراما، ولا أُبِيحَ فَرْجا ولا مالا؛ إلا ماسفكَتْه حدُودُه، وأباحتْه فرائضُه؛ وأن أتخيَّر الكُفَاة جُهْدى وطاقتِى. جعلتُ بذٰلك علىٰ نَفْسى عهدًا مؤكّدا يسألُنِى [الله] عنه، فإنه عزّ وجل يقول: ﴿وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مَسْـئُولا﴾. فإن أحدثت أو غيَّرتُ أو بدّلْتُ، كنتُ لِلغيَرِ مستحِقا، وللنَّكال متعرِّضا؛ وأعوذُ بالله من سَخَطه، وإليه أرغَبُ فى التوفيق لطاعته، والحولِ بينى وبين معْصيتَه، (فى عامّة المسلمين؛ والخاصّة والحضريد لاانـ على ضدّ ذلك)[1]: ﴿وَمَا أَدْرِى مايُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: ﴿إنِ الحُكْمُ إلَّا لِلّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفاصِلِينَ﴾. لٰكنّى ٱمتثلْتُ أمْرَ أمير المؤمنـين وآثرْتُ رِضاه، والله يَعْصِـمُنى وإيّاه؛ وأشهدْتُ اللهَ علىٰ نفسى بذٰلك وكفىٰ بالله شهيدا. وكتبتُ بخطّى بحضرة أمير المؤمنين ـ أطال اللهُ بقـاءه ـ والفضلِ بن سَهْل، وسهلِ بن الفضل، ويحيىٰ بن أكْثَم، وبِشْرِ بنِ المعتمِر، وحمَّاد ٱبنِ النُّعمان، فى شهر رمضان سنة إحدىٰ ومائتين.

ثم كتب فيه مَنْ حَضَر من هٰؤلاء، وهذه صورة كتابتهم.

فكتب الفضل بنُ سَهْل وزيرُالمأمون ماصورته:

(١) ثبتت هذه العبارة فى الاصل وعليها علامة التوقف. ولم نعثر عليها فى غير هذا الكتاب. تأمل.

"رسَمَ أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءَه قراءةَ مضمُون هذا المكتوب: ظهرِه و بطنِه، بحَرَم سيدنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، بين الرّوضة والمِنبر على رُءُوس الأشهاد، ومَرْأَى ومَسْمَع من وجوه بنى هاشِم وسائر الأولياء والأجناد؛ وهو يسألُ الله أن يعرِّف أمير المؤمنين وكافّةَ المسلمين بركةَ هذا العهدِ والمِيثاق؛ بما أوجب أميرُ المؤمنين الحجةَ به على جميع المسلمين، وأبطَلَ الشُّبْهةَ التى كانتِ اعترضَتْ آراء الجاهلين: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾. وكتب "الفضلُ بن سهل" فى التاريخ المعيَّن فيه".

وكتب عبدُ الله بنُ طاهر ما صورته «أثبتَ شهادتَه فيه بتاريخه عبدُ الله بن طاهرِ بنِ الحسين».

وكتب يحيىٰ بنُ أكثَمَ القاضى ماصُورته: «شهد يحيىٰ بنُ أكثَمَ علىٰ مضمُون هذه الصحيفة ظهرِها وبطنِها، وكتب بخطه بالتاريخ».

وكتب حَمّاد بن النُّعمان ماصورتُه: «شَهِد حَمّاد بن النعمان بمضمون ظهره وبطنِه، وكتب بيده بتاريخه».

وكتب بِشْرُ بنُ المعتمر ماصورته: «شهد بمثل ذلك بِشْرُ بن المعتمر، وكتب بخطه بالتاريخ».

قلت: وعلىٰ نحو ما تقدّم من كتابة المعهود إليه بالقَبُول وشهادةِ الشُّهود علىٰ العهد ينبغى أن يكونَ العملُ أيضا فى زماننا: ليجتمعَ خطُّ العاهد بالتفويض علىٰ ماتقدّم، وشهادةُ الشهود. ولو اقتصر المعهودُ إليه فى الكتابة علىٰ قوله: «قبِلتُ ذلك» كان كافياً، وإنْ كان أُمِّيًّا اكتُفِى بشهادة الشهود.

الوجـــــه الثـامن

(فى قطع الورق الذى تُكتَب فيه عهودُ الخلفاء، والقلِم الذى يُكتَب به، وكيفيّـــةِ كتابتها وصورةِ وَضْــعها)

أما قطْعُ الورق فمقتضىٰ قول المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أنّ للعهود قَطْعَ البغدادىّ الكامل، وأن عُهودَ الخلفـاء تُكْتَب فى البغدادىّ كما هو مستعْمَل فى عهود الملوك عن الخلفاء، علىٰ ماسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ. وهو مقتضىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ قَطْع الورق فى مقدّمة الكتاب نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القلم والدواة" أنّ القطع الكامل للخلفاء.

قلت : وقد أخبرنى من يُوثَقُ به أنه وقَفَ علىٰ عهد المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، والدِ المتوكل علىٰ الله : أبى عبـدِ الله محمد خليفة العصر، وهو مكتوب فى قطع الشامىّ الكامل؛ وأنه كُتِبَ عهد المتوكّل علىٰ ظهره بخط الشهود دون كاتبِ إنشاء. وكأنهم لمـا تقهقَرتِ الخلافةُ وضَعُف شأنُها، وصار الأمْرُ إلىٰ الملوك المتغلّبين علىٰ الخلفـاء، تنازلُوا فى كتابةِ عُهُودهم من قطـعِ كامل البغدادى إلىٰ قطع الشامىّ. وهذا هو المناسبُ للحال فى زمانِنا.

وأما القـلم الذى يُكتَب به، فالحكْمُ فيـه ما تقدّم فى البيْعات، وهو إن كُتِب العهدُ فى قطع البغدادىّ، كتِبَ بقلم مختَصَر الطُّومار. وإن كُتِب فى قطع الشامىّ، كتب بقلم الثلثين الثّقيل.

وأما كيفيّة الكتابة وصورةُ وضْعها، فعلىٰ ماتقدّم فى كتابة البيْعات، وهو أن يُبتدأ بكتابة الطُّرّة فى أوّل الدَّرْج بالقلم الذى يُكتَب به العهدُ سُـطورا متلاصقةً ممتـدّةً

فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلىٰ آخره من غير هامش . ثم إن كانتِ الكتابةُ فى قَطْع البَغْدادىّ الكامل، جرىٰ فيه علىٰ القاعدة المتداوَلة فى عهُود الملوك عن الخلفاء، فيُتْرَكُ بعد الوصل الذى فيه الطرّة ستَّةَ أوصال بياضًا من غير كتابة، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بحيثُ يُلْحِق أعالِىَ أِلفَاته بالوصل الذى فوقه ، بهامش قَدْر أربعة أصابع أو خمسة، ثم يكتُب تحتَ البسملة سَطْرا من أوّل العهد ملاصقا لها، ثم يخلِّى مكانَ بيت العلامةِ قَدْرَ شبر كما فى عُهُود الملوك، ثم يكتُب السطر الثانى تحتَ بيتِ العلامة علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة . ويَحْرِص أن تكونَ نهايةُ السجعةِ الأُولىٰ فى السطر الأوّل أو الثانى، ثم يَستَرْسِل فى كتابة بقيَّة العهد إلىٰ آخره، ويجعل بين كلِّ سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُمَاش . فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخر العَهْد، كتب « إن شاء الله تعالىٰ » ثم المستَنَد، ثم الحمدَلَةَ، والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبَلَةَ، علىٰ ماتقدّم فى الفواتح والخَواتم . ثم يكتب المعهودُ إليه والشهودُ بعد ذلك . وإن كُتِب فى قطع الشامى، فعلىٰ ما تقدّم فى البَيْعات : من أنه ينبغى أن يُقْتَصر فى أوصال البياض علىٰ خمسة أوصال ، ويكونُ الهامشُ قدْرَ ثلاثة أصابع .

وهذه صورة وضعه فى الورق، ممثَّلا فيها بالطرَّة التى أنشأتها، علىٰ ماتقدّم ذكره فى العهد الذى أنشأته علىٰ لسان الإمامِ المتوكلِ علىٰ الله خليفةِ العصر لولَده العبَّاس . وهو العهد الأخير من المَذْهب الأوّل من عُهُود الخلَفَاء عن الخلفاء

بياض بأعلى الدرج تقدير اصبع

(بياض العرض) هـذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُودُه، وزاد فى الارتقاء فى العَلْيـاء صُعُوده، وفُصِّلتْ (بياض العرض) بالجواهر قلائدُه ونُظِّمت بنفيس الدُّرِّ عُقُوده، من عبـدِالله ووليّـه الإمامِ المتوكِّلِ علىٰ الله أبى عَبْد الله محمد ابن الإمام المعتضِدِ بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة المقدّسةِ لولَده السيد الجليل، ذَخِيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين، أبى الفَضْل العبَّاس، بلَّغه الله تعـالىٰ فيه غايةَ الأمل، وأقَرَّ به عينَ الأمّة كما أقرّ به عينَ أبيـه (بياض) وقد فعَل على ماشرح فيه

بياض ستة أوصال

بســـم الله الرحمن الرحيم

هامش هـــذا عهدٌ ســـعيدُ الطالع ميمُون الطائر مباركُ الأوّل

(صورة خط الخليفة) عهدت إليـــه بذلك

وكتب فلان بن فلان (بياض العلامة قدر شبر)

(قدر ربع ذراع والباقى بالنسخ) جميـــلُ الأوسَط حميـــدُ الآخِر تشهد به حضَراتُ الأمـــلاك

وترقُمُـــه كفُّ الثُّريّا بأقلام القَبُولُ فى صحائف الأفْلاك وتُبـاهِى

به ملائكةُ الارض ملائكةَ السما، وتَسْرِى بنَشْره القَبُولُ إلىٰ الأقطـار

هامش فتنْشُر له بكل ناحية عَلَمـا، وتُطْلِـعُ به سـعادةُ الجَدّ من مُلوك العدْل في كلّ أُفُق نَجْما .

ثم يأتى علىٰ الكلام إلىٰ آخر العهْد علىٰ هذا النَّمَط إلىٰ أن ينتهِىَ إلىٰ قوله فيه «والله تعالىٰ يبلِّغه منك أملا، ويحقق فيك عِلْما ويُزَكِّى بك عملا»

إن شاء الله تعالىٰ

كُتِب في اليوم الأوّل من المحرّم
سنة إحدىٰ وثمانمائة

بالإذن العـالى، المولَوِىّ، الإمامىّ، النبـوىّ، المتـوكِّلىّ،

أعــــلاه الله تعـالى

الحمد لله وحْدَه وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصَحْبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

صورة خط المعهود | قبلتُ ذلك
وكتب فلانٌ ولىُّ
عهدِ أمير المؤمنين

صورة خط شهود العهد | شهد علىٰ العاهد والمعهود إليه
فيه زادهما الله شرفا
وكتب فلان بن فلان
وكذا بقيـــة الشهود

النـــوع الثانى

(عهودُ الخلفاء للملوك ، ويتعلّق النظر به من سبعةِ أوجُه)

الوجـــه الأوّل

(فى أصـل مشـروعيّتها)

والأصلُ فيها ماروَاه ابن إسحاق وغيرُه : أنه لمـا رَجَع وفْدُ بنى الحرِث بنِ كعب إلىٰ قومهم باليَمَن بعد وُفُود [هم] علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ وفاتِه بأربعة أشهر، بعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعدَ أن وَلَّى وَفْدَهم عَمْرو بنَ حَزْم، يُفَقِّهُهم فى الدِّين، ويعلِّمُهم السنَّةَ ومَعَالِمَ الإسلام، ويأخُذُ منهم صدَقاتِهم . وكتب له كتاباً عَهِد فيه عَهْدَه ، وأمَرَه فيه أمره ، علىٰ ماسيأتى ذكُره فى أوّل نُسَخ العُهُود الواردةِ فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ . فقد فوّض النبيُّ صلّى الله عليه وسلم أمْرَ ايمن فى حياتِه إلىٰ عَمْرو بن حَزْم رضى الله عنه . وذٰلك أصرحُ دليـل وأقومُ شاهدٍ لمـا نحن فيه .

الوجـــه الثانى

(فى بيانِ [معنىٰ] المُلْك والسَّلْطنة اللتين يقَعُ العهدُ بهما)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب نقْلا عن "الفُروق" فى اللغـة للعسكرى أن المُلْك أخصُّ من السَّلْطنة : لأن المُلْك لايطلَقُ إلا علىٰ الوِلَاية العامَّة، والسَّلطنة تُطْلق علىٰ أنواع الوِلَايات، حتّى إنَّ الفقهاء يعبِّرون عن القاضى ووالى البلد فى أبواب الفقه بالسُّلْطان .

ثم تفويضُ الخليفــة الأُمورَ فى البــلاد والأقاليم إلىٰ مَنْ يدَبِّرها ويقُوم بأعبائهــا علىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل — وهو أعلاها وِزارةُ التفويض، وهو أن يَسْـتوزِرَ الخليفــةُ من يفَوّض إليه تدبيرَ الأمور برأْيه وإمضاءَها علىٰ اجتهاده ، وينظُرُ فيهـا علىٰ العُمُوم . وعلىٰ ذٰلك كانتِ السـلطنةُ فى زَمَن الخلَفـاء الفاطميين بمصر علىٰ ماسيأتى ذكره . قال المـاوردىّ فى "الأحكام السـلطانية" : ولا يمتنِـعُ جوازُ مثـلِ ذٰلك : لأنَّ كلَّ ما وُكِل إلىٰ الإمام من تدبيرِ [الأمة](١) لايقْدِر علىٰ مباشرة جميعه إلَّا بالاستِنابةِ، ونيابةُ الوزيرِ المشاركِ له فى التدبير أصَحُّ فى تنفيذ الأمور، [من تفرّده بها](١) ليستظْهِر به علىٰ نَفْســه ولنَفْسه، فيكُونَ أبعـدَ من الزَّلَل ، وأمنَعَ من الخلَل . قال : وتعتبر فى [تقليد](٢) هذه الوزارة شروطُ الإمامة إلا النَّسبَ وحده . وقد تقـدّم بيانُ شروط الإمامة فى الكلام علىٰ البيعات . ثم قال : وكُلُّ ماصحَّ من الإمام صَحَّ من وزير التفويض إلا فى ثلاثة أشياءَ :

أحدها — ولايةُ العهد. فإنَّ لإمام أن يَعْهَدَ إلىٰ مَنْ يرىٰ وليس ذلك للوزير.

الثـانى — أنَّ للإمام أن يستَعْفِيَ الأمّةَ من الإمامة وليس ذلك للوزير.

الثـالث — أنّ للإمام أنـ يعْزِل من قَلَّده الوزيرُ وليس للوزير أن يعْزِلَ من قلَّده الإمام .

وتفارق هذه الوزارةُ الخلافةَ فى عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين :

---

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

(٢) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

أحدهما ـ مختَصّ بالإمام وهو أن يتصَفّح افعالَ الوزير وتدبيرَ الأمور : ليُقِرّ منها ماوافق الصّواب ، ويستدْرِك ماخالَفه : لأنّ تدبير الأمة إليه موكُول، وعلى آجتهاده محُمول .

والثانى ـ مختَصّ بالوزير . وهو مطالعةُ الإمام بما أمضاه من تدبيرٍ، وأنفذه من ولايةٍ وتقليدٍ : لئلا يصيرَ بالآستبْداد كالإمام .

أما وِزَارةُ التنفيذِ فسيأتى الكلام عليها فى تقليد الوزارة إن شاء الله تعالىٰ .

القسم الثانى ـ إمارة الآستكفاء .

وهى التى تنعَقد عن آختيارٍ من الخليفة . وتشتَمل علىٰ عملٍ محدودٍ ونظرٍ معْهود، بأن يفوِّض الخليفةُ إليه إمارةَ بلدٍ أو إقْليم ولايةً علىٰ جميع أهله ؛ ونظَرًا فى المعهُودِ من سائر أعماله ، فيصيرُ عامَّ النظر فيما كان محُدودا من عملٍ ، ومعهُودا من نَظَر . قال الماوردىّ : فينظر فيما إليه فى تدبير الجيش ، وترتيبِه فى النّواحى، وتقديرِ أرْزاقِهم إن لم يكُنِ الإمامُ قد قدَّرها ، وإدْرارها عليهم إن كان الإمام قدَّرها ؛ وكذلك [النظر فى] الأحكامِ ، وتقليدِ القُضاة والحُكّام، وجِبايةِ الخَراج، وقَبْض الصّدَقات والعملِ فيهما ، وتفريق مايستحق منهما، وحمايةِ الحَرِيم ، والذّبّ عن البيْضة ، ومراعاةِ الدِّين من تغييرٍ أو تبْديل، وإقامةِ الحُدُود فى حقُوق الله تعالىٰ وحُقُوق الآدميين ، والإمامةِ فى الجُمَع والجماعات بالقيام بها، والآستِخْلاف عليها ؛ وتسييرِ الحَجيج من عَمَله ومَنْ يمرّ عليه من غير عَمَله ؛ وجهاد من يَليه من العدُوّ، وقَسْم الغنائم فى المقاتِلَة ، وأخْذِ خُمُسها لاهل الخُمُس . وله أن يتّخذ وزيرَ تنفيذ لا وزيرَ تفْويض .

وعلىٰ هذا كانتِ الأمراءُ والعُمَّال فى الأقاليم والأمصار منَ آبتداء الإسلام إلىٰ أن تغلَّب المتغلِّبون علىٰ الأمر وآستُضْعِف جانبُ الخلفاء .

قال الماوردىّ : ويعتبَرُ فى هذه الإمارة ما يُعتَبر فى وِزَارة التفويض من الشروط : إذ ليس بين عُمُوم الوِلَاية وخُصوصِها فَرْقٌ فى الشروط المعتَبَرة فيها .

القسم الثالث — إمارة الآستيلاء .

وهى أن يقلِّده الخليفةُ[1] الإمارةَ علىٰ بلاد ويفوِّض إليه تدبِيرَها ، فيستَوْلى عليها بالقوّة ، فيكون [الأمير] بآستيلائه مستَبِدًا بالسياسة والتدبير ، والخليفةُ بإذنه ينَفِّذ أحكامَ الدين : لتخْرُج عن الفساد إلىٰ الصِّحَّة ، ومن الحَظْر إلىٰ الإباحة ، نافذَ التصرُّف فى حقوق الملة وأحكامِ الأُمَّة . وهذا ما صار إليه الأمرُ بعد التغلُّب علىٰ الخلفاء ، والآستبدادِ بالأمر بالغَلَبة والقوّة .

قال الماوردىّ : وهذا وإنْ خرج عن عُرْف التقليد المطْلَق فى شروطِه وأحكامِه ، ففيه [من] حفْظ قوانينِ الشرع وحِرَاسة الأحكام الدينية مالا يجُوزُ أن يُتْرك مختَلًّا مدْخُولا ، ولا فاسدًا معْلولا ؛ فجاز فيه مع الآِستيلاءِ والآضطرار ، ما آمتَنع فى تقليد الآستِكْفاء والآِختيار : لوُقُوع الفَرْق بين شروط المَكِنة[2] والعَجْز . قال : والذى يُتحفَّظ بتقليد المستولِى من قوانين الشريعة سبعةُ أشياء ، يشترِك فى التزامها الخليفةُ المولِّى والأميرُ المستَوْلى ، ووجُوبُها فى جهة المستولى أغلظُ .

(١) عبارة "الأحكام السلطانية" وإمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطراب فهى أن يستولى بالقوّة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوّض إليه الخ وهى أوضح وأصرح .

(٢) فى المصباح . وله مَكِنَةٌ أى قوّة وشدّة .

أحدها — حِفْظ مَنْصِب الإمامة فى خلافة النبوّة، وتدبيرِ أمورِ الأمة : ليكون ما أوجبه الشرعُ من إقامتها محفُوظا، وما تفرّعَ عنها من الحقوق مَحْروسا .

والثـانى — ظهورُ الطاعةِ الدِّينية التى يزُولُ معها حكمُ العِناد فى الدين ، و ينتفى بها مأْثَم المُبايَنَةِ له .

والثالث — ٱجتماعُ الكلمةِ علىٰ الأُلْفة والتنَاصُر : ليكونَ المسـلمونَ يدًا علىٰ مَنْ سـواهم .

والرابع — أن تكونَ عقُود الولايات الدينيَّة جائزة، والأحكامُ والأقضيةُ [فيها] نافذة، لا تبطل بفساد عُقُودها، ولا تسقُط بخَلَل عُهُودها .

الخامس — أن يكونَ ٱستيفاءُ الأموال الشرعيَّة بحقٍّ تبرأ به ذمَّةُ مؤدِّيها ، و يستَبِيحه آخِذُها ومُعْطِيها .

السادس — أن تكونَ الحدُودُ مستوفاةً بحقٍّ ، وقائمةً علىٰ مستَحِقّ ؛ فإنَّ جَنْب المؤمِن حِمًى إلّا من حقُوق الله تعالىٰ وحُدُوده .

السـابع — أن يكون للأُمَّـة فى حِفْظ الدين وازِعٌ عن محارم الله تعالىٰ، يأمُرُ بحقِّـه إن أُطيع ، و يدعُو إلىٰ طاعتـه إن عُصِى . ثم قال : فإن كَمُلت فيـه شُروطُ الاختيارِ المتقـدّمةُ، كان تقليدُه حتْما ٱسـتِدْعاءً لطاعتـه ، ودفْعا لمشاقّته ومخالَفته ؛ وجرىٰ علىٰ مَنِ ٱستَوْزره أو ٱستَنابه أحكامُ من ٱستَوْزَره الخليفة أو ٱستَنابه . و إن لم تكْمُل [فيه] شروطُ الاختيار ، جاز له إظهارُ تقليدِه ٱستدعاءً لطاعته وحَسْما لمخالَفته ومعانَدَته ، وكان نفُوذُ تصرُّفاته فى الحقُوق والأحكامِ مَوْقُوفا علىٰ أن يستنيب الخليفةُ

له مَنْ تكاملَتْ فيه الشُّروط . قال : وجاز مثلُ هذا و إن شَذَّ عن الأصول : لأن الضرورةَ تُسْقِط ماأعْوزَ من شُروط المَكِنة .

قلت : ومملكةُ الديار المصرية من حِينِ الفتح الإسلامىِّ وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا دائرةٌ بين هذه الأقسام الثلاثة، لاتكادُ تخْرُج عنها : فكانتْ فى بِداية الأمر « إمارة ٱستكفاء» يولِّى عليها الخليفةُ فى كلِّ زمن مَنْ يقُوم بأعبائها، ويتصرَّف فى أمورها، قاصرُ الوِلاية عليها، واقِفٌ عند حَدِّ مايَرِد عليه من الخليفة من الأوامِر والنَّواهى، إلَّا ما كان فى أيام بَنِى طُولُون من الخُروج عن طاعةِ الخلَفاء فى بعض الأحيان . فلمَّا ٱستَوْلىٰ عليها الفاطِميُّون وٱستوْزَرُوا أربابَ السُّيوف فى أواخِرِ دوْلتهم ، وعظُمتْ كلِمتُهم عندهم، صارتْ سلطَنتُها "وزارةَ تفْويض" .وكان الخليفةُ يحتَجِب والوزيرهو المتصرِّف فى المملكة كالمُلوك الآنَ أو قريبٍ منهم . وكانوا يُلَقَّبون بألقاب المُلوك الآنَ : كالمَلِك الأفضل رِضْوان وزيرِالحافظ ، وهو أوَّل من لُقِّب بالمَلك منهم فيما ذكره المؤيَّد صاحبُ حماةَ فى تاريخه . والملِك الصالِح طَلائِع بن رُزِّيك وزيرالفائز ثم العاضِد . والملِك المنصُور أسدِ الدين شِيركُوه بن شادِى وزيرِ العاضد، وٱبنِ أخيه صلاحِ الدين يوسفَ بنِ أيُّوب وزيرِ العاضد أيضا ، قبل أنْ يستقِلَّ بالمُلْك ويخطُبَ بالديار المصرية لبَنِي العَبَّاس ببَغْداد . ولانُكْرَ فى تسمية الوزير مَلِكا، فقد قيل فى قوله تعالىٰ فى قِصَّة يوسفَ عليه السلام : ﴿ وقَالَ المَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسى ﴾ إنَّ المرادَ بالملِك الوزيرُلا الملِكُ نفْسُه . ولما ٱنتزِعتْ من الفاطميين وصارتْ إلىٰ بنِي أيُّوبَ ، وكانوا يَلُونَها عن خُلَفاء بنى العبَّاس ، صارتْ « إمارةَ ٱستيلاءٍ » لاستيلائِهم عليها بالقُوّة ، وٱستبدادِهم بالأمْر والتدبير معْ أصْلِ إذنِ الخليفة وتقْليده . وكان الرشيدُ قد لقَّب « جَعْفَر بن يَحْيىٰ البَرْمَكىّ »

فى زمن وِزارته له بالسـلطان ، ولم يأخُذ النـاسُ فى التلقيب به . فلمّـا تغلّب الملوكُ بالشّرْق علىٰ الخلفاء وٱستبَدُّوا عليهم ، صار لَقَبُ السلطان سِمةً لهم ، مع ما يختصُّهم به الخليفةُ من ألقـاب التشريف : كشَرَف الدَّوْلة ، وعَضُد الدولة ، ورُكْن الدولة ، ومُعِزّ الدولة ، وعِزّ الدولة ، ونحو ذلك . وشاركهم فى لَقَب السلطنة غيْرهم من مُلوك النواحى ، فتلقَّب بذٰلك صـلاحُ الدين يوسفُ بنُ أَيُّوبَ ، وتلقَّب بالملك الناصِر عند ٱستبداده بالمُلْك علىٰ العاضـدِ الفاطمىّ بعدَ وِزارتِه له ، ونَقَـل ما كان من وِزَارة التفويض والعهدِ بها إلىٰ السلطنة ، وصارتِ الوزارةُ عن السلطان معدُوقةً بقَـدْرٍ مخصوصٍ من التصرُّف . وبقِى الأمْرُ علىٰ ما هو عليه من الاِستيلاء والاِستبدادِ بالمُلْك ، مع أصلِ إذْن الخليفة وكتابةِ العَهْد بالمُلْك ، وهى علىٰ ذلك إلىٰ زماننا ؛ إلا ما كان فى زمنِ تعطيلِ جِيـد الخلافة من الخُلَفاء ، من حينِ قَتْل التتارِ « المسـتَعْصِمَ » آخر خلفـاء بنى العباس ببغداد إلىٰ حينِ إقامةِ الخليفـة بمصر فى الدولة الظاهرِيَّة بِيبَرْس . علىٰ أنَّ فى السلطنة الآنَ شَبَهًا من وِزارة التفويض ، فإن الخليفةَ يفوّض إليـه فى تقليده تدبِيرَ جميع الممـالكِ الإسلامية بالتفويض العامّ لايَسْتثْنِى منها شيئاً . وغيرُ هذه المملكة وإن كان خارجًا عن يَده فهو داخل فى عُمومِ وَلَايتـه ، حتّى لو غَلَب علىٰ شىء منها أو فتحه لم يَحْتَجْ فيه إلىٰ توليةٍ جديدةٍ من الخليفة . ولا مانِـعَ لذلك : فسيأتى فى الكلامِ علىٰ المناشير أنه يجوزُ للإمام أن يُقْطع أرضَ الكُفْر قبل أن تُفْتَح ، وإذا جاز ذٰلك فى الإقطاع ففِى هذا أَوْلىٰ . وحينئذ فتكون سلطنةُ الديار المِصْريّة الآنَ مركَّبة من وزارة التفويض وإمارةِ الاِستيلاء .

الوجـــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فيــه)

وآعلم أنه يجب علىٰ الكاتب مراعاةُ أمور :

منها — براعةُ الآستهلال بمـا يتهيّأُ له من آسْمِ السـلطان أو لَقَبه الخاصّ : مثل فلان الدين ، أو لَقَبِه بالسلطنة : مثل الناصِر، والظاهِر ، ونحوِهما ؛ أو غيرِ ذٰلك ممـا يدُلُّ علىٰ مابعده قبلَ الإتيان به كما تقدّم فى البَيْعات وعُهُود الخُلَفاء .

ومنها — التنبيهُ علىٰ شَرَف السَّلْطنة وعُلُوِّ رُتْبتها ، ووجُوبِ القيام بأمْر الرعِيَّــة ، وتحمُّل ذٰلك عن الخليفة .

ومنها — الإشارةُ إلىٰ آجتهاد الخليفةِ وإعمـال فِكْره فيمَنْ يقُوم بأمْر الأُمَّــة ، وأنه لم يجِدْ بذٰلك أحقَّ من المعهود إليه ولا أوْلىٰ به منه ، فيَصِفُه بالصِّفات الجميلة ، ويُثْنِي عليه بمـا يليقُ بمَقَام المُلْكِ .

ومنها — الإشارةُ إلىٰ جَرَيان لفظٍ تنعقِد به الوِلايةُ من عَهْد أو تقليدٍ أوتفويض ، وقبولِ ذلك ، ووُقُوع الإشهاد علىٰ الخليفة بالعهد .

ومنها — إيرادُ مايليقُ بالمَقَام من الوصيَّة ، بحَسَب مايقْتضيه الحال : من علُوِّ رتبة الخلافة وآنْخِفاضها ، مبيِّنا لما يلزَمُه القيامُ به : من حِفْظ الدِّين علىٰ أصولِه المستقرّة ، وما أجمعَ عليه سلف الأمّة ، وتنفيذِ الأحكام ، وإنصافِ المظلومِ من الظالم ، وحِمايةِ البَيْضة ، والذَّبِّ عن الحُرَم ، وإقامةِ الحُدُود ، وتحصين الثُّغُور ، وجهاد أعداءِ الله وغَزْوِهم ، وجبايةِ الفَيْء والصَّدَقات علىٰ ما أوجبه الشرعُ من غير حَيْف ولا عَسْف ،

وتقديرِ العطاء، وصَرْف مايُسْتَحَقُّ فى بيت المال من غير سَرَف ولا تقْتِير، فى وقْتِ الحاجة إليه، وٱستِكْفاءِ الأَمَناء، وتقليد النُّصَحاء للأعمال والأموال، ومُباشرةِ الأمورِ بنَفْسه وتَصَفُّح الأحوال ؛ إلى غير ذٰلك من الأمور المتعلّقة بالإمامة : من إقامة مَوْسِم الحجّ، وتأمين الحَرَم الشريف وإكرام ضرائح الأنبياء وبيتِ المقدِس، وتحرير مقادير المُعامَلات، وغير ذٰلك مما يقتضيه أمْرُ المملكة .

الوجـه الرابـع
(فيما يكتب فى الطـرّة، وهو نمطان)

النَّمَط الأوّل — ما كان يُكتَب فى وِزارة التفويض فى دَوْلة الفاطميين .

وكان الخليفةُ هو الذى يكتُب بيده . وهذا أمْرٌ وإن كان قد تُرِك فالمعرفةُ به خيرٌ من الجهل، خصُوصًا وقد أثبتَ المقرُّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله عهْدَىْ أسد الدين شيركوه وٱبنِ أخيه السلطانِ صَلاح الدِّين يوسُفَ بن أيوب بالوزارة عن العاضد، فى جملة عُهُود الملوك علىٰ ما سيأتى ذِكْره . وسَنُورِدُهما فى جملة عُهُود الملوك عن الخلفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك ما كتب به العاضِدُ فى طُرّة عهدِ أَسَد الدّين شيركوه المتقدّم ذكره، وهو :

«هذا عهْدٌ لا عَهْدَ لوزيرٍ بمثله، وتقليدُ أمانةٍ رآك اللهُ تعالىٰ وأميرُ المؤمنين أهْلًا لحَمْله، والحجةُ عليْك عندَ الله بما أوضحه لكَ من مَرَاشد سُبُله ؛ فخُذْ كتابَ أميرِ المؤمنين

بِقُوّه، وٱسْحَب ذَيْلَ الفَخار بأنِ ٱعتزتْ خِدمَتُكَ إلىٰ بُنُوّة النُّبُوّه ؛ وٱتخِذْ أميرَ المؤمنين للفَوْز سبيلا ﴿ ولا تَنقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عليكُمْ كَفِيلا ﴾ » .

⁂

ومن ذلك ما كتب به العاضدُ أيضا فى طرّة العهد المكتَتَب عنه بالوِزارة للسلطان صلاحِ الدّين يُوسفَ بن أيُّوب قبل ٱستِقْلاله بالسلطنة ، وهو :

« هذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليْك، وحُجّتُه عند الله تعالىٰ عليْك ؛ فأَوْفِ بعَهْدك ويَمينِك، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بيَمينك ؛ ولِمَنْ مَضىٰ بجدِّنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم أحسَنُ أُسْوه، ولمن بَقِي بقُرْبنا أعظَمُ سَلْوه ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادا والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين ﴾ » .

النمط الثانى — ما يُكْتَب فى طُرّة عهود الملوك الآنَ .

وهو قريب مما كان يُكتَب أوّلا مما تقدّم ذِكْرُه ؛ إلَّا أنه يُبدّل فيه لَفْظ الوِزارة بالمُلْك والسَّلْطنة ؛ ويكونُ الذى يكتبه هو الذى يكْتُب العهدَ دُونَ الخليفةِ . ثم هو بحسَب ما يُؤْثره الكاتبُ مما يدُلُّ علىٰ صَدْر العهد علىٰ مايقتضيه الحال .

وهذه نسخةُ طرّةِ عهدٍ ، كتَب بها القاضى محيي الدين بن عبْد الظاهر، فى نسخةِ عهدٍ أنشأه للسلطان الملكِ الناصرِ محمد بن قلاوُون، فى سنة سبعَ عشْرَة وسبعمائة، وهو :

« هذا عهدٌ شريفٌ تجدّدتْ مَسَرّاتُ الإسلام بتَجْديده ، وتأكدتْ أسبابُ الإيمان بتأكيده، ووُجِد النصرُ العزيز والفتحُ المبينُ بوُجُوده، ووَفَد اليُمْنُ والإقبالُ

علىٰ الخليقة بوُفُوده، وورد الأنامُ مَوْرِدِ الأمانِ بوُرُوده . من عبــدِالله ووليّه الإمامِ المستكفِي بالله أبي الرَّبيع سليمانَ أميرِ المؤمنــين ، ٱبنِ الحاكم بأمْرِ الله ابى العباس أحمــد . عَهِد به إلىٰ السلطان الملكِ النــاصر أبى الفتح محمّــد ، خلّد الله سلطانه ، ٱبن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون الصالحِيِّ قدّس الله روحه» .

تم الجزء التــاسع . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء العــاشر

وأوله الوجـــــه الخامس

(فيما يكتب فى ألقــاب الملوك عن الخلفــاء ، وهو نمطــان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيــاء والمرسلين

وآله وصحبـــه والتابعيـــن وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الأميرية ٤٧١٥/١٩١٥/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجــــــزء التــاسع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى



صفحة

صفحة